

الطبعة الثانية

رحلة إلى

# الفرورب إلى العاصفة

د. إهاب عويص

  
Rewayah

# الهروب إلى العاصفة

---

د. إيهاب محمد عويص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ





## إهداء

• إلى صاحب أكبر فضل علي، بعد فضل الله سبحانه وتعالى؛ أبي المستشار القانوني محمد كايد عويص، الذي ظل يساندني ويحيطني برعايته كما لو أنني ما أزال صغيره الأثير، أثابه الله على ايثاره على نفسه وحفظه سنداً وفخراً لمن حوله.

• إلى صاحبة القلب الحنون، أمي المربية الفاضلة سميرة إبراهيم الشيخ خليل، التي لولا أملها وثقتها بي، لما أصبحت طبيباً اختصاصياً.

والله من وراء القصد.

---



## تقديم



إن المتأمل للمفاهيم الدينية يجد أن نهر الإيمان الدافق تُغذّيه ثلاثة روافد؛ الرافد الأول هو «الفطرة» التي وضعها الله - سبحانه وتعالى - في الإنسان منذ نشأته الأولى، ونجد الدليل عليها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. كما نجده في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]. سبحانه الله: يكاد زيت الفطرة أن يضيء دالاً الإنسان على ربه، حتى ولو لم تمسسه نار النبوات، ثم يأتي نور النبوة على نور الفطرة ليحقق للإنسان الهداية.

وقد أشار الفيلسوف الألماني الكبير إيمانويل كانت في كتابه «نقد العقل الخالص» إلى دور الفطرة بقوله: «أدرك أن العقل لا يستطيع أن يحيط بكنه الأشياء، وأنه مؤهل بطبيعته لإدراك الجزئيات والظواهر فقط، في حين أنه عاجز عن إدراك الماهيات المجردة مثل الوجود الإلهي، وإنما عرفنا الله بالضمير وليس بالعقل؛ فشوقنا إلى العدل كان دليلاً على وجود العادل، كما أن ظمناً للمياه هو دليلنا على وجود الماء».

ولما كانت «النبوة» هي الرافد الثاني لنهر الإيمان (كما تشير سورة النور)، فإن الله - عزَّ وجلَّ - لم يترك أمة إلا وأرسل إليها من يُعَرِّفُها بربها وبالطريق إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]. وتُكْمَلُ «التشئنة» رافد النبوة، فنحن نربي أبناءنا على ما نعتنق من دين، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: (كل مولود يُؤلَدُ على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه...) (١).

أما الرافد الثالث، فهو رافد «العقل»، الذي جعله الله - سبحانه وتعالى - المخاطب والمُكَلَّف والمحاسَب. والقرآن الكريم يدعو الإنسان - في مواقف تفوق الحصر - إلى التفكير في ثلاثة مجالات من الآيات: الآيات المسطورة في القرآن والخاصة بالألوهية والرسالة والعبادة، وآيات هي المعجزات الإلهية التي يخرق فيها الله - عزَّ وجلَّ - نواميس الكون ليدرك العقل قدرته، وآيات هي الإبداع في الآفاق والأنفس، والتي قال فيها الله - سبحانه وتعالى - : ﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

نعم، إنها ثلاثة روافد تتجمع لتكوِّن في نفس الإنسان نهر الإيمان الدافق الذي يزيل في طريقه ضلالات الشرك والشك.

والمستكرون للإيمان الديني يقفون في معارضتهم عند أحد ثلاثة مستويات: فمنهم من ينكر الوجود الإلهي كُليَّةً، وهؤلاء هم الملاحدة. ومنهم من يُقر بوجود الإله الخالق للكون وبأنه قد وضع فيه قوانين الطبيعة التي تديره دون تدخُّل منه، أي أن الإله قد اعتزل الكون، ومن ثمَّ ليس هناك حاجة للتواصل بين السماء والأرض، فينكرون الديانات، ويُعرف هؤلاء بالبروبيين، وينطبق عليهم قول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿وَلئن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

والمستوى الثالث من المنكرين على المؤمنين إيمانهم يمثلته القائلون بالوجود الإلهي، وبفكرة التواصل بين الأرض والسماء، لكنهم لا يرضون عن أي من الديانات المتاحة!

(١) أخرجه البخاري عن حديث أبي هريرة.

سواء عن مكابرة أو لعدم الفهم وعتامة الرؤية.

وأرى أن العمل الكبير الذي بين أيدينا (رحلة أبراهام) يستتفر فينا روافد الإيمان الثلاثة، كما يخاطب الفئات الثلاث من المنكرين، الذين تُشَوِّس على رؤيتهم ديانة مُحَرَّفَة تَرَبَّوْا عليها، أو إلحاد نشؤوا في كنفه، وينطبق عليهم قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]. وقد افتقد هؤلاء النور الهادي إلى الحق، واحتاجوا إلى من يمد إليهم يد العون.

وبعد قراءتي لهذه الملحمة، التي تقع في أكثر من ألفي صفحة، وجدت أن خير تعريف بها هو ما استخدمه المؤلف بنفسه: «رحلة حاخام اقترب من الكفر بعد تعمقه في طائفة آبائه. وراح يتنقل بين عقائد الإلحاد، إلى أن تأكد من عقمها ومن وجود الله، فعاد إلى اليهودية باحثاً في بقية طوائفها الأخرى، لكن رحلته تتطور بعد ذلك لتشمل مختلف الطوائف المسيحية أيضاً، وتقوده إلى الكشف عن خفايا الصدام واللقاء بين الحضارات، وعن حقائق أخرى لم تكن في الحسبان». ويمكن تصنيف الرواية باعتبارها دراسة عميقة ثرية تجمع بين تاريخ الأديان وعلم الديانات المقارن، كما سيتضح لك أثناء إبحارك بين صفحاتها.

والمحمة من ثلاثة أجزاء، قد تبدو منفصلة، لكنها في الحقيقة تمثل رحلة واحدة متصلة، تذكرني في بنائها بثلاثية نجيب محفوظ المنفصلة المتصلة.

وفي الجزء الأول بعنوان «الهروب إلى العاصفة»، يقوم المؤلف في أسلوب روائي بـ «متابعة تاريخية» و«تفكيك فكري» للديانة اليهودية، من بدايتها وحتى الآن، كما يُلقى الضوء على العلاقة بينها وبين الحركة الصهيونية. وقد ركز الكاتب على سلبيات الفكر اليهودي، وكيف تطرق إليه التحريف والافتباس، حتى صارت كتاباتهم المقدسة تتضح بكم كبير من السخرية والانتقاص من الإله ومن الأنبياء. ويبين المؤلف كيفية

انقسام اليهود إلى شُعبٍ متعددة تفوق القدرة على الاستيعاب وربما على الحصر، حتى صار من الصعوبة - بل من المستحيل - أن يضع الباحث يده على تعريف محدد للديانة اليهودية، أو الشعب اليهودي، أو الإنسان اليهودي.

وفى الجزء الثانى من الملحمة «بشارات هائمة»، تنتقل أحداث الرواية إلى الديانة المسيحية، فيتناولها المؤلف بنفس منهج تناول اليهودية: تفكيك العقيدة - تاريخ نشأة المذاهب والفرق - التحريف والسلبيات... حتى وصل الأمر إلى أن صار كل من بابا الأرثوذكس وبابا الكاثوليك يُكفَّر بعضهم بعضاً. ويُفتنا المؤلف إلى ما بين المذاهب المسيحية من خلافات حول الأقانيم الثلاثة (الأب والابن والروح القدس) التي تمثل إلهاً واحداً، ويلجأ في ذلك إلى مقولة فولتير الساخرة في كتابه «الملحد والحكيم» حيث يقول: «هل تؤمن بأن المسيح شخصية واحدة لها طبيعة واحدة وإرادة واحدة، أم شخصيتان لهما إرادة واحدة وطبيعة واحدة، أم شخصيتان لهما طبيعتان وإرادتان، أم شخصيتان لهما طبيعة واحدة وإرادتان؟!»، هذا في الحقيقة هو جوهر الخلاف في المسيحية!!

ويفسر لنا المؤلف الامتزاج الذي حدث بين الديانتين اليهودية والمسيحية - بالرغم من العداء الشديد بينهما - حتى صار الكتاب المقدس للمسيحيين يشتمل على التوراة تحت اسم العهد القديم، وعلى الإنجيل تحت اسم العهد الجديد. وي طرح علينا الكاتب الأمور التي تدفع اليهودي والمسيحي إلى الشك في دياناتهما؛ وأهمها أن كلاً منهما يرى أن دينه قد نقل بعض الأساطير عن شخصيات تنتمي إلى ديانات قديمة، كزرادشت وبوذا وميثرا. كما أحصى الباحثون تناقضات بين العهد القديم والعهد الجديد وصلت إلى مائة وخمسين ألفاً. وكذلك التناقضات الجذرية بين ما في العهد القديم (خاصة سفر التكوين) وبين العلم، بخصوص نشأة الكون وكوكب الأرض والحياة والإنسان. وأخيراً - وليس بآخر - عدم منطقية بعض ما في الديانتين من أفكار، كنظرية فداء المسيح عليه السلام للبشرية، وفكرة الصلب والقيامة.

وفي طرحه للديانتين (اليهودية والمسيحية) يتأرجح المؤلف - بحبكة روائية كبيرة - كالبندول بين المفاهيم الفكرية للديانتين وبين نشاطاتهما وتأثيراتهما السياسية والاجتماعية. ويطرح علينا بالتفصيل ما أحدثته من إفساد في الأرض وإفساد في النفس البشرية؛ كالحروب والإبادة والاستعباد والتعصب والاحتلال والإغراق في المادية والشذوذ والزنا.....

وفي الجزء الثالث والأخير من الملحمة بعنوان «كهولة قبل البلوغ» نصل إلى ذروة العمل الدرامي. فيستهله المؤلف باستعراض مقارن بين الديانات الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلام)، يُسلم أبراهام إلى بحار الحيرة والقلق، فتعصف به رياح التوتر والتردد، حتى يكاد يتمنى أن تبتلعه الأرض. وإن كنت - أيها القارئ الكريم - قد مررت بمثل هذه الحالة فستدرك مرارة ما عاناه بطلنا أبراهام، فهو عذاب تتضائل أمامه العذابات المادية والجسدية، ربما يفوق معاناة أبطال ملحمتي هوميروس الإلياذة والأوديسا، لذلك استحق هذا العمل أن يصنف كملحمة.

وإذا كان المؤلف قد أوقد بعض شموع الهداية بالحديث عن الإسلام في مواضع متفرقة من ملحمته، فإنه في الثلث الأخير من الجزء الثالث تحدث بشكل أكثر تركيزاً عن الإسلام. وكان طبيعياً ونحن نعيش مع دراسة مقارنة بين الديانات أن يشير الكاتب إلى إنجيل برنابا الذي جاءت فيه البشارة بالنبي الخاتم سيدنا محمد ﷺ وبالرسالة الخاتمة، ثم انتقل إلى استدلالات كونية على صدق الرسالة من خلال إثبات مركزية بيت الله الحرام في الأرض بما لذلك من دلالات فلسفية وعلمية. ولم يفت الكاتب الإشارة إلى جوانب الإعجاز العلمي والتاريخي في القرآن الكريم، كما لم يفته الرد على أهم الشبهات التي تُطرح ضد الإسلام.

وإذا كانت رحلة البحث عن الحقيقة تبدأ بالتححرر من الأوهام «تخلية» ثم طرح حقائق الطريق القويم «تحلية»، فهذا ما فعله الكاتب مع بطله أبراهام ومعنا. ثم نجده

في آخر الملحمة لم يدفعنا لتبني رأي محدد من خلال تلخيص وتصنيف ما طرحه من أفكار، بل تركنا لنقوم بعملية التقويم بأنفسنا بعد أن طرح علينا على مدى أجزاء الملحمة الثلاثة الرأي والرأي الآخر.

إن معاناة بطل الملحمة أبراهام في بحثه عن الحقيقة وتردده بين الديانات تذكرني بخليل الله إبراهيم عليه السلام (ولعل اسم أبراهام مأخوذ من اسمه) وتفرسه في السماء، باحثاً عن الإله الحق ومستلهماً الهداية من الله - سبحانه وتعالى - وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴿٧٥﴾ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴿٧٦﴾ فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ﴿٧٧﴾ فلما رأى الشمس بازغاً قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ﴿٧٨﴾ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴿٧٩﴾ [الأنعام: ٧٥ - ٧٩].

ونسأل الله - سبحانه وتعالى - دائماً الهداية وحسن الخاتمة.

ويلتقي أبراهام بعد الربع الأول من الجزء الأول من الملحمة بالشخصية المحورية المقابلة له في الرواية، وهي شخصية «أحمد»، المسلم المتوازن عقلاً وانفعالاً، والأقرب إلى ما ينبغي أن يكون عليه المفكر المسلم المعاصر. فأحمد قد حافظ على شخصيته الإسلامية وجذوره الفلسطينية ورفض تبني القيم الليبرالية بالمنظور الغربي. ولم يكن أحمد انتقائياً عند الأخذ بمنهج الإسلام ونصوص القرآن الكريم؛ فقد رفض ذم الكتابيين ولعنهم دون تمييز، باعتبار أن القوى الاستعمارية والمحتلة هي نتاج الحضارة «اليهودية المسيحية الصهيونية المستحدثة»، بالرغم من أنه قد عانى على المستوى الشخصي من هذا الاحتلال الذي ما زال يدنس وطنه ووطننا فلسطين. وفي نفس الوقت لم يركن أحمد إلى النصوص التي يغلب عليها التسامح واللين متخلياً عن قضية دينه ووطنه وحضارته. ولا شك أنه في هذا الموقف المتوازن يتبع خطوات الرسول الكريم ﷺ في



مواقف حياته المختلفة. وإذا كان أحمد هو الشخصية التي قامت بتجلية الأوهام وأيضاً الحقائق لأبراهام، فإنني أرى أن كلا الشخصيتين تمثلان كاتب الرواية، تارة وهو في طور الحيرة والقلق، وتارة وهو في طور سكينه اليقين.

وقد استخدم المؤلف أسلوب الرواية في توصيل الكم الكبير من المعلومات التي يطرحها علينا، فهو الأكثر تشويقاً والأيسر في توصيل المعلومة وتبسيطها وتحليلها، وأيضاً لتذكرها. وقد كان ذلك اختياراً موفقاً تطلّب من الكاتب جهداً إضافياً لما بذله في جمع مادته العلمية. وأحسب أن لولا هذا الأسلوب لعجز القارئ عن تحقيق التواصل والمتابعة المطلوبة مع المؤلف، وهذا الأسلوب مطروق في عالم الفكر المعاصر من حين لآخر، فنجد في الفكر الإسلامي في الكتاب العظيم (قصة الإيمان) للشيخ نديم الجسر، ونجد في الفكر العالمي في كتاب (عالم صوفي) تأليف الكاتبة النرويجية جوستين جاردر.

وبالرغم من اتباع المؤلف للأسلوب الروائي، فقد توافرت في دراسته سمات العمل العلمي الموضوعي: فجميع البيانات والمعلومات الواردة في الرحلة صحيحة ودقيقة استخلصها الكاتب من أمهات الكتب والموسوعات المتخصصة في الدراسات الأكاديمية للتاريخ والعقائد المختلفة، وأرجعها إلى مصادرها في هوامش الكتاب الغزيرة والثرية، والتي زادت الكتاب ثراءً وموضوعية. كما اجتهد الكاتب في الالتزام بالحيادية والإنصاف في صياغة آراء الأبطال المعبرة عن معتقداتهم وعن نظرتهم للإسلام.

وقد انعكست شخصية الكاتب إلى حد كبير على عمله المتفرد، فلا شك أن كونه فلسطينياً مخلصاً لقضيته قد وجهه لاختيار الموضوع، وهو نقض العقيدة والحضارة «اليهودية المسيحية الصهيونية المستحدثة». كما يظهر من الملحمة أن حياته ودراسته وعمله في روسيا الاتحادية لأكثر من عشرة أعوام، واطلاعه على الأدب الروسي العظيم، قد انعكسا على أسلوبه الروائي، فنجد في عمله الفكري الأول يميل إلى الموسوعية

والتفصيل والتحليل والتوليد والنزعة الإنسانية، وربما ساعد على تحقق هذه السمات تخصص الكاتب كطبيب أسنان مدقق متخصص في التقويم. ويتمشى توجه الكاتب إلى عالم الفكر والأدب مع أمر كاد أن يكون ظاهرة، وهو اتجاه عدد من الأطباء إلى هذا العالم، ومنهم الدكتورة محمد حسين هيكل، وأحمد ذكي أبو شادي، وإبراهيم ناجي، ويوسف إدريس، ومصطفى محمود، ويحيى الرخاوي، ومحمد الجوادى، وكاتب هذه المقدمة. وعلى المستوى العالمي تقابلنا أسماء أنطوان تشيكوف، وأرثر كونا نان دويل، وجون كيث، وسومر ست موم وغيرهم.

وفي حوار لي مع د. إيهاب عويص كاتب المحمة، سألته عن الأهداف وراء هذا العمل، فأخبرني أنها موجهة إلى ثلاث فئات: الأولى «القراء المسلمون» لمساعدتهم على تحقيق فهم أكثر واقعية لطبيعة الآخر، وعلى الخصوص أهل الكتاب، وأن يزيل بعض الغموض عن حقيقة العلاقة بين اليهود والمسيحيين. والفئة الثانية هم «الكتابيون» لمساعدتهم على فهم الإسلام من خلال كتبهم المقدسة بعد أن تشوهت رؤيتهم لنا. وأخيراً يخاطب المؤلف «القراء العلمانيين» ليصل بهم من خلال اكتشافات العلم الحديثة إلى تأكيد وجود الحياة الآخرة بالمنطق الدنيوي الذي يتبعونه.

وكما أخبرني الكاتب أن ما دفعه لإخراج هذا العمل هو ما آل إليه حال العالم بعد أن أصبحت سماواته مفتوحة، وصار الشاب المسلم يطالع ببساطة ويسر من خلال الشبكة العنكبوتية كل ما يموج به العالم من أحداث وما يسود فيه من معتقدات. لذلك لم يكتف الكاتب بطرح اليهودية بالتفصيل باعتبارها ديانة الصهاينة أعداء العرب والمسلمين، كما لم يكتف بتحليل المسيحية لفهم شركائنا في الوطن، لكنه عرض أيضاً «البوذية» باعتبارها قد بدأت بالانتشار في العالم الغربي كمنافس لانتشار الإسلام. كما افتتح كتابه الأول بالحديث عن «عبدة الشيطان»، بعد أن صار شبابنا العربي يتابع أخبارهم، بل صار بعضهم يتبنى أفكارهم.

وبعد قراءتي للملحمة، أرى أن الكاتب قد نجح إلى حد بعيد في الوصول إلى أهدافه التي وضعها نصب عينيه عند تأليفه للرواية. بل وأضيف إلى نجاحه هذا نجاحاً آخر، وهو إظهار الكثير من أمور العقيدة والتاريخ التي كانت مخفية في بطون المراجع المتخصصة حتى كاد أن يغرقها النسيان، لولا أنه أثبتها في هذه الملحمة.

### القارئ الكريم...

بعد هذه الجولة المتأملّة لأجزاء الرواية الثلاثة، والتي كانت وقفات سريعة تعجز عن الإحاطة بهذا العمل الملحمي والموسوعي: أرسل للكاتب - من خلال هذه السطور - رسالة تحمل طلبات ثلاثة:

**أولاً:** نظراً لغزارة وثراء وتخصّص ما طُرِحَ في أجزاء الرواية الثلاثة، فإنني تَوَاقُّ لأن أقرأ - في القريب - جمعاً وتلخيصاً بالأسلوب الأكاديمي لما تحويه من أفكار، وذلك كأسلوب آخر لعرض ما بها من معلومات ومعارف، حتى تُعمِّم الفائدة من وراء الجهد الهائل الذي بذله المؤلف. وإذا كان التلخيص وإعادة العرض للأعمال التراثية أسلوباً مُتَّبِعاً في الفكر الإسلامي، فإنه ما زال منهجاً متبعاً في الفكر المعاصر، وربما كان من أشهر ما تم تلخيصه من أعمال معاصرة هو «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» للدكتور عبد الوهاب المسيري، فقد قام بنفسه بتلخيصها من ثمانية مجلدات إلى ثلاثة مجلدات، كما قمت أنا بإعادة عرض أهم أفكارها بأسلوب آخر في كتاب واحد.

**ثانياً:** وكما قرأنا في الملحمة طرْحاً لنشأة المذهب والفرق في الديانتين اليهودية والمسيحية والاختلافات بينها، فإنني تَوَاقُّ لأن أطلع طرْحاً مماثلاً عن الإسلام، خاصة فيما يخص السنة والشيعية.

**ثالثاً:** حديثاً عكف رجال متخصصون من غير المسلمين على القرآن الكريم وتفسيراته والسنة والنبوية وتفسيراتها وباقي كتب التراث، وأخذوا يستولدون منها ما اعتقدوا أنه مآخذات وتناقضات، ونشروها على مستوى العالم عن طريق الشبكة

العنكبوتية، فوصلت للمسلم والكتابي والملحد . لا شك أن رد هذه الشبهات المستحدثة يحتاج إلى جهد علمي كبير تشارك فيه جهات إسلامية متخصصة، وأنا أعتقد أن كاتبنا بما يمتلكه من مثابرة ومن قدرات تحليلية وتركيبية قادر على المساهمة في هذا العمل الكبير، بنفس النجاح الذي حققه حين وضع يده على مآخذات اليهودية والمسيحية.

وختاماً أتمنى لك - القارئ الكريم - ساعات وأياماً ممتعة في صحبة هذه الملحمة الموسوعية.

د. عمرو شريف

أستاذ الجراحة العامة

كلية الطب . جامعة عين شمس

# بعيداً عن الوحي

◀ ويشمل:

صراع مع الشك

عبدة الشيطان

مُحدثات

خلفيات ضحية

ادعاءات بوذية

إلحاد المنطق

تداخل الدين بالإلحاد

اتباع الهوى وكشف المستور

الاحتكام إلى العلم

تحكيم العلم

الهروب من الأفعى إلى جحر الأفاعي

في ضيافة عدو

مراهق عربي في أوروبا

بين العهدين



## بعبدا عن الوحى



## ◀ صراع مع الشك

أشرفت الشمس في سماء مدينة "سانكت بطرسبرج" الصافية، على غير عاداتها في مثل ذلك الوقت من العام، مؤذنة بميلاد صيف لاهب. وبدا وكأن كل سكان المدينة قد قرروا الإحتفال بقدم المولود الجديد على "شارع النيفسكي". كان ذلك الشارع، الذي يعد الأكثر حيوية في المدينة، بل في روسيا كلها، قد غص عن آخره بالمارة. وشُغلت جميع الطاومات التي اصطفت بأناقة أمام المقاهي على رصيفيه، كما أن مقاعد الحديقة الصغيرة لـ"كندرائية كازانسكي"، المطلة على النيفسكي، كانت قد اكتظت هي الأخرى بجمع غفير من الفتية. حتى جلس بعضهم على الأرض، متحلقين حول نافورة الحديقة، وقد أقبلوا بنهم شديد على ملذات الحياة. وتحررت بعض الفتيات من القطع الزائدة من ثيابهن، ليستمتعن بأشعة الشمس الدافئة التي حرموا منها طويلاً. كانت حيويتهم صارخة، وألوان ملابسهم الصيفية الزاهية متناغمة مع الطبيعة الخلابة العائدة إلى حلتها الخضراء، بعد أن تحررت بدورها من معطفها الأبيض الثلجي الذي مل منه الجميع.

على الرصيف المقابل للحديقة وقف شاب وسيم، قد شابته حمرة، أبت مع وجهه الشديد البياض إلا أن تلطف من حدة السواد، الذي كساه من قبعته إلى حدائه، مروراً بمعطفه، وكان ينظر إليهم بشرود:

- ترى، ماذا لو كان كل ما أوّمن به أوهاماً؟! ماذا لو أن الرب أكثر تسامحاً وأقل تطلباً مما أظن؟! ماذا لو كان هؤلاء على حق؟!... ماذا لو لم يكن هناك إله أصلاً؟!  
تسمر "أبراهام دوخافيتسكي" مكانه للحظات، ثم هز رأسه بعنف كأنه يطرد تلك الأفكار السخيفة من رأسه، وتابع طريقه منكس الرأس، وهو يحاول جاهداً ألا يلتفت إليهم مجدداً: فلا ينبغي عليه أن يهوي بتفكيره إلى ذلك المستوى، حتى وهو في أوج شكه وبأسه. كان يشعر أن اليوم هو أشقى أيام حياته.

- لقد أفسدك الإنترنت، وكثرت أسئلتك وشكوكك حتى وصلت إلى التابوات<sup>(١)</sup>.  
- لا تعد إلى "السيناغوغ"<sup>(٢)</sup> ثانية إلا بعد أن ترجع إلى إيمانك وتطهر نفسك من شكوكها، ومن ضلالات الغويم<sup>(٣)</sup>.  
- إن واجبك هو أن تقبل بشريعة "ها شيم"<sup>(٤)</sup> كما فسرها كبار الرابين دون مناقشة، وإلا فلن يكون مصيرك إلا "الحرم"<sup>(٥)</sup>.

(١) التابوات (المحرمات)، جمع "تابو"، وهو إحدى المسلمات التي يعتبر الخوض فيها تمرداً على العقيدة، سواء كانت دينية أم سياسية.

(٢) السيناغوغ (الكنيس) هو معبد اليهود.

(٣) الغويم (الأميون أو الأمم أو الأغيار) هم غير اليهود.

(٤) هاشيم تعني حرفياً "الاسم"، ويقصدون به "يهوه" الذي يعتقدون أنه الاسم الشخصي لله تعالى! وكانوا في السابق يستخدمون كلمة "أدوناي" العبرية (أو "كيربوس" اليونانية في الترجمة السبعينية) بمعنى "سيدي" أو "مولاي" للإشارة إليه دون لفظ اسمه، ثم أصبحوا يستخدمون كلمة هاشيم العبرية بمعنى الاسم ("ها" الهاء المفتوحة هي أداة التعريف في العبرية مثل الـ "في العربية)، ويحرص اليهود المتدينون على عدم استخدام لفظ "يهوه" قدر الإمكان، ويعتبرون المبالغة في استخدامه تجديفاً، حتى إنهم يكتبونه بالإيحاء، أو بالاختصار، أو بحرف صغير بدياته في اللغات الأوربية. راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف، وهي الرواية الثالثة من سلسلة رحلة أبراهام؟!!

(٥) الحرم هو اصطلاح عبري يعني الحرمان؛ (أي الطرد) من اليهودية.



ترددت أصداء كلمات أساتذته في رأسه ملاحقة له . ولكن كيف يطالبونه بذلك دون أن يعطوه أجوبة شافية ومقنعة عن المسائل التي طرحها عليهم؟! وكيف يهددونه بالحرمان لمجرد أنه يحاول أن يفهم أصول دينه؟! ولماذا يجب أن يكون الإيمان أعمى!!! كان أبراهام من فرقة "ناطوري كارتا"<sup>(١)</sup>، مؤمناً بالرب ومواظباً على الصلوات الثلاث<sup>(٢)</sup>، ولا يفوت صلوات الرعية<sup>(٣)</sup> ومتديناً بمثالية نادرة . فقد درس التوراة والتلمود وتعلم العبرية كلفة دينية يحرم استخدامها في الشؤون الدنيوية، التي تحدث فيها باليديشية<sup>(٤)</sup> . وكان زاهداً في مظهره الخارجي؛ فأطلق لحيته وأطال سوافه، وجدلها حسب الشريعة . كما كان يلتزم بـ "الكوشير"<sup>(٥)</sup> ويقدم السبت بمنتهى الصرامة .

كان ملتزماً مع أنه لم يكن من أولئك الذين جبلوا على التقشف والزهد في الحياة كطبيعة متأصلة في نفوسهم . فنفسه كانت، على العكس من ذلك، تواقفة إلى مباحج الحياة أكثر من كثيرين ممن انغمسوا في ملذاتها . إلا أنه كان يجاهدها دائماً لكبح جموح نزواتها، ولاسيما أنه كان يعتقد بأنه أحد القلائل الممثلين بمعرفة الرب . كان إيمانه نابعاً من العقل، فهو لم يكن يوماً متديناً بحكم العادة، بل لاقتناعه الكامل بعدم وجود بديل مقنع الخضوع للرب . وكانت اليهودية على مذهب الناطوري كارتا هي

(١) ناطوري كارتا هو مذهب يهودي أرثوذكسي . أخذ اسمه عن عبارة آرامية مشتقة من التلمود تعني نواطير (حراس) المدينة .

(٢) وهي الصلوات اليومية المفروضة على اليهود . وأوقاتها في الصباح وبعد الظهر وبعد غروب الشمس .

(٣) صلوات الرعية تقام في الكس في أيام الاثنين والخميس والسبت ، وأيام الاحتفالات والأعياد اليهودية ، التي يعد يوم الغفران أقدسها جميعاً ، وفيه تقام الصلوات الخمس .

(٤) اليديشية هي لغة خاصة بالأشكناز (يهود أوروبا) ، وأساسها ألماني ولكنها مطعمة مصطلحات عبرية وأرامية ، بالإضافة إلى مفردات متنوعة من اللغات السلافية ، وهي تكتب بالأحرف العبرية .

(٥) كوشير كلمة آرامية وعبرية معناها الملائم أو الصحيح . وتشير الكلمة عادة إلى الطعام (يقابلها في العربية كلمة " حلال " ) ، لكنها قد تنطبق على أي شيء يعتبر من ناحية الطقوس الدينية صحيحاً أو مقبولاً وفقاً للقانون اليهودي . وعلى سبيل المثال يمكن وصف الشاهد في محاكمة تجري في ظل القانون اليهودي بأنه "كوشير" أي صحيح أو ملائم للشهادة .

الدين الذي أرضى عقله حتى وقت قريب، حتى إنه كان قد نذر نفسه للدفاع عنه في الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) على مختلف الأصعدة بالرغم من عدم تشجيع أساتذته له في ذلك.

كان أبراهام يحرص على مناظرة بقية الفرق اليهودية مدافعاً عن فرقته، وقد تحاجج مع أنصار الصهيونية الدينية<sup>(١)</sup> مذكراً إياهم أن الآباء المؤسسين للصهيونية كان أغلبيتهم من العلمانيين المعادين للدين، وغير المؤمنين بوجود الرب أصلاً. وأن الصهيونية تعاونت مع النازيين للقضاء على يهود شرق أوروبا<sup>(٢)</sup>، مصححاً فهمهم المغلوط عن وعد الرب لليهود بالعودة إلى أرض الميعاد؛ حيث إنه في حقيقة الأمر إنما كان لإنشاء "مملكة كهنة"، حتى يعم السلام في الأرض على الإنسانية جمعاء بعبادتهم لرب واحد. ومن الأتقى قبول حكم الأجنبي، على القبول بملك يهودي مؤقت، حتى وإن كان يحظى بتأثير عاطفي على أغلبية اليهود، خاصة إذا كان ذلك الملك الزائف لا يحافظ على الشرائع، ويستخدم وسائل تدنس الدين في الدفاع عنه، كما تفعل دولتهم الفاصصة. كما تفانى في تعلم اللغة الإنجليزية بجهود شخصية، ليصل من خلالها إلى أتباع بقية الديانات الأخرى، ويظهر لهم البعد الحضاري والإنساني والأخلاقي لليهودية، مصححاً مفاهيمهم المشوهة عنها، ومفنداً جميع افتراءات معادي السامية بالحجة والمنطق.

(١) جاءت تسمية "الصهيونية" من اسم أحد الجبال المقدسية "صهيون" الذي أقيمت عليه مدينة القدس. وهي حركة سياسية علمانية بالأساس (وإن كانت مبنية على الأساطير الدينية اليهودية) تدعو إلى عودة يهود العالم إلى "أرض الميعاد". وقد كان المتدينون اليهود، بفرقهم كافة، ضدها في البداية، إلا أن عداءهم لها تضائل مع انتصارات الكيان الصهيوني المتتالية التي رأوها إشارات لرضا الرب. حتى صار بعضهم يصنفون أنفسهم كـ "متدينين صهاينة"!

(٢) هذا هو الرأي الرسمي لجماعة ناطوري كارتا.

وعلى الرغم من نجاحات أبراهام الباهرة في أغلب ما ذهب إليه، إلا أنه كثيراً ما كان يصطدم بادعاءات منطقية متعددة، فتحت عينيه على أمور شتى كان يعدها سابقاً من المسلمات، ولم يكن يخضعها للفحص أو التمهيص. فكان يستشير أساتذته الذين غالباً ما اختلفوا فيها دون أن يعطوه في النهاية أجوبة واضحة لها. خاصة فيما يتعلق "بالتلمود"<sup>(١)</sup> ومحتوياته المثيرة للجدل، وتقديمه على "التوراة" بالرغم من تناقضه معها في الكثير من الأمور!!

كان أبراهام يؤمن بأن "توراة شعبل به"<sup>(٢)</sup> ضرورة لفهم النصوص المبهمة في "توراة شبختاف"<sup>(٣)</sup> وإيضاحها، وأن كليهما أنزلا على موسى من المصدر نفسه وفي المكان والزمان نفسيهما<sup>(٤)</sup>، وأنها بقيت شفوية يتناقلها الأحرار، حتى قرروا أخيراً تدوينها في المشناة<sup>(٥)</sup> خوفاً من ضياعها. وكان يتفهم كيف كان ضرورياً شرحها، واستنباط الأحكام منها، وكيف تصدى لهذه المهمة كبار الرابينين بوحي من "روح هقودش" (الروح القدس) نفسه، فدوّنوا الجماراة<sup>(٦)</sup> التي هي خلاصة مناظراتهم، وحججهم الخاصة بالأحكام الدينية.

(١) التلمود (التلمذة بالعربية) هو "كتاب التعليم" الذي يعتبر أهم الكتب الدينية اليهودية، ويتكون من: "المشناة" وهي تنظيم وتصنيف للشرعة الشفوية، و"الجمارة" وهي شرح المشناة. راجع الحاشيتين رقم ١٨ و ١٩.

(٢) توراة شعبل به تعني بالعربية التوراة الشفوية. ويقصد بها التلمود.

(٣) توراة شبختاف تعني بالعربية التوراة المكتوبة. ويقصد بها "التناخ" (العهد القديم بالمفهوم المسيحي).

(٤) يؤمن أغلبية اليهود الأرثوذكس أن موسى عليه السلام عندما تلقى من الله تعالى وصايا التوراة المكتوبة على ألواح في طور سيناء، تلقى معها، في الوقت نفسه، شريعة شفوية اختص بها أخاه هارون لينقلها إلى نسله من الكهنة اللاويين من بعده.

(٥) المشناة تعني حرفياً: "المشاة أو المنى"، ويقصد بها "مجموعة الدراسة"، وهي الجزء الرئيسي من التلمود، وتتكون من ستة أقسام.

(٦) الجماراة تعني بالعربية "التكملة"، وهي عبارة عن شروح فقهية مسهبة، وحواش وتفسيرات للمشناة دوّنها رابينون في فلسطين حتى بداية القرن الخامس (جمعت مع المشناة لتكون ما بات يعرف بـ"التلمود الفلسطيني"). وفي بابل حتى بداية القرن السادس (جمعت مع نفس المشناة لتكون ما بات يعرف بـ"التلمود البابلي". وهو الأكثر اعتماداً).

ولما كانت التوراة لا تقبل التغيير، كان التلمود ضرورة لتطبيق الشريعة في حالات مختلفة، وذلك لمواءمتها للظروف المتغيرة، دون تغيير مقاصدها. تماماً كما عدلت كل القوانين التوراتية المتعلقة بالعبادة والتضحية عند الهيكل بعد تدميره<sup>(١)</sup> ونفي اليهود إلى "الدياسبورا"<sup>(٢)</sup>.

لكن كل ذلك لم يوضح له كيف أن التلمود، الذي قصد منه شرح المبهم من التوراة، وإضفاء مرونة على تطبيق تعاليمها، هو في واقع الأمر "توراة جديدة" أكثر غموضاً والتباساً، بل وتشدداً من التوراة القديمة!!! ولم يفسر له قول الحاخامات إن المشناة هي "لوجوس"<sup>(٣)</sup> خلق قبل الخلق، ولاسيما أن هذا هو بالذات ما يقوله المسيحيون عن "يشوعهم"<sup>(٤)</sup>.

عاد أبراهام إلى أساتذته، وجرت بينه وبينهم مناقشات طويلة حول ذلك الموضوع، فتحدثوا بإسهاب عن الظروف والخلفيات والأزمة المختلفة للرابيين الذين صاغوا التلمود. وعن أن "اللغة الآرامية"<sup>(٥)</sup> التي - وإن كانت كبيرة الشبه بالعبرية التي يجيدها تبقى لغة أخرى، منبهين إلى أن التلمود قد دون أصلاً بأسلوب "تلغرافي"، يجعل من الصعب تفسيره دون مساعدة كبار الحاخامات، الذين يعرفون هم وحدهم المقصود منه.

(١) بعد تدمير الهيكل على يد الرومان في العام ٧٠ ميلادي، انتهى "النظام القرباني الكهنوتي"، وكان ذلك بمنزلة إحدى أكبر الأزمات في تاريخ الشعب اليهودي. حيث إنه تطلب إعادة بناء اليهودية من أساسها، فنظام القربان والكهنة كان حجر الزاوية فيها، لأن تعاليم التوراة قد أشارت إلى أن اقتراب الإنسان من الله يتحقق فقط من خلال دم الذبائح. لكن اليهودية من خلال التلمود، غيرت مقاربتها لهذه المسألة، وبدأت بالإقرار بأن الإنسان قادر على التقرب من الله بشكل آخر، فاخفت طبقة الكهنة، بانتظار إعادة بناء الهيكل، لتحل مكانها طبقة الرابانيين (الحاخامات).

(٢) الدياسبورا هي دول الشتات التي يقيم فيها اليهود.

(٣) اللوجس هو لفظ يوناني قديم يعني "الكلمة"، وهو رمز للحلولية، أو التجسد الإلهي. راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف، وهي الرواية الثانية من سلسلة رحلة أبراهام.

(٤) يشوع هو اللفظ العبري (الحديث) للتسمية المسيحية (المعمدة) لعيسى عليه السلام (يسوع). وهي تسمية غير دقيقة، وأخوذة من تأريم (على وزن تعريب نسبة إلى اللغة الآرامية السريانية) اللفظ المأغرق (نسبة إلى اللغة الإغريقية أو اليونانية القديمة). وللإحاطة بهذا الموضوع راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

(٥) اللغة الآرامية هي لغة تدوين الجماراة، الجزء الأكبر من التلمود.

كان أبراهام يعرف أن كل طائفة تفسر التلمود بطريقة تختلف - أحياناً بشكل جذري- عن بقية الطوائف الأخرى. وكان صعباً عليه أن يفهم كيف ينزل الله تعاليم، وينزل معها في الوقت نفسه تعاليم أخرى لشرح الأولى، ولكنها تتناقض معها تماماً. وبعد ذلك يلهم كبار الرابيين لشرح الشرح، حتى إنهم تناقشوا مع الرب نفسه، الذي أقر بصوابهم<sup>(١)</sup> في تسع وخمسين مرة!!! ليخرجوا في النهاية، وبعد عدة مئات من السنين، بشرح مناقض للشرح الأول، بل يتطلب بدوره شرحاً إضافياً من كبار الحاخامات العصريين!!! لكن كل جهوده المضنية في محاولة استيضاح مثل تلك الأمور انتهت اليوم، وبطريقة دراماتيكية لم يكن ليتوقعها من ورثة الحاخامية الأصلية و"حراس المدينة"<sup>(٢)</sup>، فلماذا تهربوا من الإجابة، وبهذه الطريقة إن لم يكن هناك خطب ما؟

أضحت الأمور مختلطة في ذهن أبراهام، وسيطر عليه الحزن واليأس، حتى صار الاستقرار النفسي حلاً بعيد المنال بالنسبة إليه. فهو لم يعد قادراً على الالتزام "كالأرثوذكس"<sup>(٣)</sup> المتدينين، بعد تزعزع إيمانه إلى هذه الدرجة، كما أنه غير قادر على الكفر بالرب، وتجاهل الدين كلية، كاليهود الملحد<sup>(٤)</sup>، واعتبار أن اليهودية مجرد موروث ثقافي يرفع الروح المعنوية، ويدعم إحساسهم بآبائيتهم. ولا هو قادر كذلك

(١) أي بخطئه حسب زعمهم. تعالى الله عما يصفون علواً كبيراً.

(٢) حراس المدينة هو المعنى الحرفي لمصطلح ناطوري كارتا. وقصد من التسمية الاقتداء بنص تلمودي يتحدث عن أن نواطير المدينة الحقيقيين هم الذين يصلون في بيوت العبادة ويدرسون التوراة ويعلمونها للشعب.

(٣) الأرثوذكس هو مصطلح يوناني قديم يعني "الرأي القويم". وهو اسم المذهب الرئيسي للمتدينين اليهود، ويستخدم للدلالة على الطوائف الدينية المتمسكة بالقولب التقليدية للدين. مع أن نسبة الأرثوذكس مجتمعين تقدر بـ ١٠-٥٪ من يهود العالم، إلا أنهم الأكثر شهرة بينهم. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أقدم مذهب (رسمي) في المسيحية يستخدم التسمية اليونانية ذاتها، وبدلالتها نفسها تقريباً، وذلك رغم البون الشاسع بين الدينين، وهو ما دفع بعض الأرثوذكس المتمتتين كناطوري كارتا إلى تفضيل استخدام مصطلح "يهودية التوراة" بدلاً من مصطلح الأرثوذكس ذي النكهة المسيحية.

(٤) اليهودي يظل يهودياً وإن كان ملحداً، فالجوهر الداخلي للقداسة اليهودية لا يزال في قلبه طبقاً للشرع اليهودي، الذي ينفرد عن بقية الشرائع الأخرى في هذا المفهوم.

على أن يوازن بين الاثنين، كأغلبية اليهود غير المتدينين؛ فيأخذ من الفئة الأولى بعض الشعائر الاحتفالية بانتقائية مزاجية ليشعر بالرضى عن نفسه، متجاهلاً بقية الشعائر التي تتطلب ضبط النفس وتطويعها، ثم يأخذ عن الفئة الثانية نفس كفرها مع تغير الاسم من الإلحاد الصريح إلى الإلحاد المبطن كالعلمانية<sup>(١)</sup> أو حتى اللاأدرية<sup>(٢)</sup>، أو بقية التسميات المضللة الأخرى.

لم يستطع أبراهام أن يصنف نفسه تحت أي من تلك الفئات الثلاث، فلا باطن الدين، الذي بدأ بسبر أغواره مؤخراً، بظهر ظاهره فيتابع التزامه به، ولا مجد الرب خاف فينكر وجوده، ولا قشور الدين تشبع الروح فيتمسح بها. كان كمن يغوص في بحر من الظلمات يلتمس فيه بصيص نور دون جدوى.

- ماذا لو أن العيب ليس بي؟

لمعت عينا أبراهام السوداء وان فجأة، ثم تابع مفكراً:

- ماذا لو كان العيب بفكرة الدين نفسها؟!

بدأ أبراهام يضيق بتزاحم الأفكار في رأسه وضياعه بينها، وسيطرت عليه فكرة أنه ربما يكون قد دفن شبابه وضيّق على نفسه دون سبب مقنع، فهو لم يعد متأكداً من شيء.

(١) العلمانية هو اصطلاح معرب عن كلمة "secularism" التي تعني "دنيوي" أي مرتبط بالدنيا وليس بعالم أخروي أو إلهي. وللأسف فإن التعريب لم يكن دقيقاً، كما كان وزنه خاطئاً، إذ يوحي بأنه اشتقاق من كلمة "علم" في حين أنه اشتقاق من كلمة "عالم" بمعنى دنيا. ويجدر التنبيه أيضاً إلى أن مصطلح العلمانية فضفاض لدرجة كبيرة، خصوصاً في اللغة العربية. فالكتابيون، خصوصاً المسيحيين، كثيراً ما يتبنون مفهومها إضافياً له؛ فالعلماني عندهم هو من لا ينتمي إلى طبقة رجال الدين، ولكن ليس بالضرورة ألا يكون متديناً. لذلك فعندما يطلق لقب حكومة علمانية على الحكومة الأمريكية مثلاً، فهذا يعني فقط أنها لا تحكم بواسطة رجال الدين، ولا يعني مطلقاً تجاهل الدين من قبل صانعي القرار فيها.

(٢) جاءت تسمية اللاأدرية من جواب السؤال هل الله موجود فعلاً؟ وهو عندهم "لا أدري" ! فهم يقولون أن العقل لا يسلم بالروحانيات، ولكنه لا يستطيع نفيها في الوقت نفسه.

توقف أبراهام على "جسر كازانسكي"، مستنداً بظهره إلى السور المعدني، وعاد ينظر ثانية إلى الحديقة البعيدة، غابطاً من فيها على راحة بالهم، واستمتاعهم بالحياة. تنهد بحسرة، ثم التفت جهة "قناة غريبويدوفا" التي تمر تحت قدميه، ناظراً إلى الماء الذي يجري فيها بانسياب.

- تمجد اسم الرب الأقدس<sup>(١)</sup>.

ردد أبراهام في نفسه وهو يتذكر كيف كانت هذه القناة، وقبل نحو ثلاثة أشهر فقط، متجمدة بسماكة ثلاث إلى أربعة أقدام، تماماً كتلك السماكة التي ساعدت في الماضي مدينته على خرق الحصار النازي في الحرب العالمية الثانية، حيث سارت قوافل المؤن، بل الدبابات أيضاً، على "بحيرة لادوجسكي" المتجمدة. فكيف يمكنه بعد ذلك الشك بوجود الرب؟!

تابع سيره دون أن يلتفت إلى الحديقة ثانية، وعندما وصل إلى "جسر أنيشكوف" وقف يتأمل "النيفا"<sup>(٢)</sup>، ثم أغمض عينيه، وأخذ نفساً عميقاً، ملاً به رتتيه من الهواء الليل المشبع برائحة النهر المميزة، محاولاً أن يروض أفكاره الجامحة، وعندما فتح عينيه وجد نفسه ينظر مباشرة إلى أحد "مجسمات ترويض الحصان"<sup>(٣)</sup>. كانت تلك التماثيل هي من أشهر المعالم الفنية في مدينته، وقد شاهدها آلاف المرات من قبل، إلا أنه، ولدهشته الشديدة، لاحظ آنذاك فقط مقدار الشبه الكبير بينه وبين تماثل الفتى العاري صحيح الجسم.

كان التماثل يصور فتى مربوعاً، عريض الوجه والجسد دون سمنة، قوي البنية دون ضخامة في العضلات يميل إلى الطول. وكان مثله هادئ القسمة حتى في أشد

(١) هاشيم هامفوراش يعني اسم الرب الأعظم.

(٢) النيفا هو نهر آخر يتقاطع مع شارع النيفسكي الطويل، ويمر تحته.

(٣) مجسمات ترويض الحصان هي أربعة مجسمات ضخمة، يزين كل واحد منها أحد طرفي جسر أنيشكوف على رصيفي شارع النيفسكي.

المواقف صعوبة، لا ينبئ وجهه عما يختلج في صدره. وقد أمسك بلجام حصان هائج محاولاً ترويضه. استدار أبراهام نحو المجسم الثاني، حيث اتخذ الحصان وضعية أخرى أشد جموحاً، موقفاً بالفتى على الأرض حتى كاد يدوسه. لم يسع أبراهام إلا أن يعجب بشجاعة ذلك الفتى الذي لم يزد حرج الموقف إلا إصراراً وتصميماً، فاستند بيمينه إلى الأرض، بينما استمر محكماً قبضة يده الأخرى على اللجام، متجاهلاً احتمال تعرضه لأقدام الحصان الجامح حتى نجح بموازنة جسمه في المجسم الثالث، فاستند إلى الأرض بإحدى ركبتيه مثبتاً نفسه بقدم الرجل الأخرى، وممسكاً باللجام بكلتا يديه، ليقف شامخاً في المجسم الأخير وهو ممسك بزمام الحصان تماماً.

أحس أبراهام بأنه استوعب الدرس الذي كان بالتأكيد إشارة من الرب، استمد منها زخماً كبيراً ساعده في تبديد حالة اليأس التي يشعر بها حالياً، ويحثه على مواصلة سعيه بإصرار لاكتشاف الحقيقة. فمضى يحاول إعادة ترتيب أفكاره ثانية، إلا أنه ما لبث أن توقف فجأة، ثم التفت إلى المجسمات من خلفه، وتأملها مجدداً، ثم عاد ليتابع سيره وهو يمط شفثيه بسخرية قائلاً:

- وبم اختلف عن أولئك الحاخامات إن اعتبرت أن ذلك إشارة شخصية إلي من الرب؟! وإذا كان الرب يهتم فعلاً بهداية الناس إلى هذه الدرجة، فلم يعرضهم للغواية أصلاً! أهنالك رب ما في السماء فعلاً؟ أم أن الموضوع كله من بنات أفكار أولئك الربانيين<sup>(١)</sup>؟

أحس أبراهام عندها أنه قد تجاوز طريقه، ف"ساحة فستانيا" حيث يجب أن يستقل "الترام"<sup>(٢)</sup> الموصل إلى منزله قد أصبحت خلفه. استدار ليعود إلى الساحة، إلا أنه توقف برهة، ثم هز كتفيه بلا مبالاة، وعاد فاستدار متابعاً سيره دون هدى.

(١) رابيون جمع رابي بالأرامية؛ أي سيد أو معلم، ويقابله بالعبرية حاخام؛ أي حكيم. وكلاهما يؤديان المعنى نفسه تقريباً. وربما كانت كلمة "الربانيون" هي اللفظ القرآني المقابل لكلمة الربيين، والله أعلم.

(٢) الترام (الترامفاي أو التوروماي) هو قطار كهربائي يسير على سكك حديدية في الشوارع داخل المدن.



ظلت الأفكار تتصارع داخل رأس أبراهام المسكين حتى تنبه إلى أنه قد وصل إلى حي لم يره من قبل، فنظر حوله بدهشة، ثم نظر إلى ساعته، ليقرر أنه قد تجاوز قرابة سبع ساعات منذ أن غادر الكنيس. كانت الأمور قد تشابكت في ذهنه لدرجة لم يعد من الممكن إعادة ترتيبها ثانية، كما أن قدميه قد تورمتا من كثرة المشي، فأوقف سيارة أجرة لتقله إلى منزله. وفي الطريق أخذ يفكر بالديه، اللذين لا بد أن القلق قد أخذ منهما كل مأخذ: فهما لم يكونا متعودين على تغييره كل ذلك الوقت، دون أن يُعلمهما بذلك مسبقاً.

وفعلاً ما إن دخل إلى المنزل حتى انهزم على رأسه سيلولان عارمان من الأسئلة دونما انقطاع، وبنفس الوقت. انتظر أبراهام حتى خفت حدة توترهما، ثم بدأ بالاعتذار والإجابة عن بعض أسئلتهما، بما لا يكشف مكنون صدره، حتى اطمئنا تماماً. وقبل أن يأوي إلى فراشه تعمد الثثرة معهما كالعادة، إمعاناً في التمويه على حالة اليأس والقنوط التي يعانيتها: فلم يكن يرغب في إدخال والديه في خضم تلك الدوامة التي تعصف برأسه.

عبثاً حاول أبراهام الخلود إلى النوم، وفي النهاية خرج ليتجول في الجوار، فقادته قدماه دون أن يشعر إلى حديقة كتدرائية كازنسكي ثانية. ومع أن الوقت كان متأخراً، إلا أنه وجد هناك فتاة تجلس وحدها. لم تكن ملابسها زاهية كملابس الفتية الذين رأهم عصراً، بل كانت داكنة، ومعطفها الجلدي أسود كحلقة الليل.

لاحظ أبراهام أنه لا يزال يرتدي بيجامته الرياضية: حيث لم يكن يخطط أصلاً للابتعاد عن منزله، فشجعه تحرره من زيه الحاخامي على الاقتراب من تلك الفتاة التي تنظر إليه بتودد، وما إن صار بمحاذاتها حتى رفعت السماعات عن أذنيها قليلاً، فتأهى إلى مسامعه صوت موسيقى "الهارد روك" الصاخبة فيما كانت تسأله بلا تكلف:

- هلا أعطيتني سيجارة؟

- آسف، فأنا لست مدخناً.

مطت شفيتها بخيبة أمل، ثم خفضت صوت الموسيقى، وأردفت بلهجة حاولت أن تكون لطيفة:

- هل يمكنك إعطائي بعض النقود؟

مد يده بحركة لاشعورية إلى جيبه، ولكنه توقف مفكراً: فماذا لو كانت ستستخدم تلك النقود في شراء المخدرات مثلاً. ثم قال لها ملاطفاً:

- ابق هنا من فضلك، وسأذهب لأشتري لك شيئاً تأكلينه.

- أنا لا أريد أن أكل. أريد فقط أن أدخن.

- حسناً، سأذهب وأشتري لك علبة سجائر.

- وإن كنت مصرّاً، فتستطيع أن تشتري بعض "الجمعة"<sup>(١)</sup> أيضاً.

ذهب أبراهام إلى أقرب كشك من الأكشاك التي تملأ شارع النيفسكي، وتعمل ٢٤ ساعة، ليشتري علبة سجائر وزجاجتي جمعة. وعندما عاد، نظرت الفتاة إلى النوعية الفاخرة لما اشتراه، وقالت برضاً:

- خفضت أن تحضر أرخص شيء تجده.

- أما أنا فخفضت أن أعود فلا أجذك.

- يبدو أن كلينا لا يثق كثيراً في الآخرين، لكن يبدو أيضاً أننا غير محقين بشأن ذلك.

ثم استدركت قائلة:

- أهدنا مع الآخر على الأقل. تفضل بالجلوس.

- شكراً.

(١) الجمعة (البيره) هي شراب الشعير (يكون عادةً مع الكحول).

- ولكنني لا أتحدث مع الغرباء مطلقاً، لذا أرجو أن تسارع بتقديم نفسك فوراً .  
ضحكت الفتاة من دعابتها المشاكسة، ثم ضحكت أكثر عندما لاحظت أن رفيقها  
الجديد لم يستوعبها فوراً . وعندما فرغت من ضحكها، أشعلت لفافة تبغ، وقالت وهي  
تنظر إليه بإعجاب:

- ماذا يفعل شاب وسيم مثلك هنا في هذا الوقت المتأخر؟

- كنت سأسألك أنت السؤال نفسه .

فتنهدت بقوة ثم قالت:

- اليوم وقعت علي القرعة في الكنيسة لأكون الضحية .

نظر إليها بذهول، وعندما لاحظت التعابير البلهاء التي ارتسمت على وجهه عادت

للضحك مجدداً، ثم هزت كتفيها قائلة:

- هذا ما ينتظر المرء في كنيسة الشيطان .

انتبه أبراهام عندئذ إلى الزجاجات الفارغة المرمية خلف المقعد، فقال لها محاولاً

مساعدها:

- ما رأيك في الذهاب إلى مقهى، وشرب بعض القهوة؟

- لا، شكراً. أنا مرتاحة هنا .

- هل شربت كل هذه الزجاجات؟

- أجل. ولكنني أستطيع أن أشرب مثلها مرتين دون أن أسكر، فلا تقلق .

- بل يبدو أنك قد سكرت فعلاً، ولم تعودي قادرة على تمييز ما تتفوهين به .

- ماذا تعني؟

- أعني ليس من اللائق أن تتجني على كنيستك، وإن حاولوا إلزامك بالتضحية في

سبيلها بشيء عزيز عليك، أو....

- متى تجنيت على كنيستتي؟!

قاطعته باستغراب، فقال مذكراً إياها بالشتيمة التي رمت بها دينها المسيحي حسب

ظنه:

- أقصد وصفها بكنيسة الشيطان.

فقالت باستهجان:

- ولكنها "كنيسة الشيطان" فعلاً.

- كما تريدين.

- لا، لا. أنت لم تفهمني، كنيسة تدعى كذلك فعلاً: فأنا من عبدة الشيطان.

## ◀ عبدة الشيطان

هب أبراهام واقفاً كمن لدغته أفعى، فأمسكت الفتاة بطرف ثوبه محاولة استبقاءه، إلا أن تلك الحركة ضاعفت من ردة فعله، فشد ثوبه بعنف مبتعداً عنها، لكنها نادته قائلة:

- عد إلى مكانك، ولا تكن جاهلاً ومتحجراً العقل.
- ماذا!!! إنك تعبدن الشيطان، ثم تتحدثين عن الجهل وتحجج العقل!
- إن الديانة الإبليسية لا تناقض العقل والعلم بأي شكل من الأشكال: بل تشجع وتؤيد جميع المعارف العلمية والتحقيقات بقوة، ولكن البشرية متأخرة بشكل خطير في ذلك نتيجة لقرون من الاضطهاد المسيحي للعلم.
- عن أي علم تتحدثين؟!
- عن "القوى أو الظواهر الخارقة للطبيعة" مثلاً. فالأديان الأخرى لم تشتت فقط قدرات الناس العقلية لإدراكها، بل شتت كل القدرات الإنسانية بشكل عام. ولكن بخلاف معظم الأديان الأخرى، لا تضع الديانة الإبليسية أي قيود على العقل والعلم، أو القوة الشخصية. وإبليس يشجع الدراسة الذاتية، والتعلم والتجربة المباشرة عن طريق الروحانية، التي تشجع الفرد على المساءلة في كل شيء. فتجاوز القيود هو جوهر الديانة الإبليسية الروحية. وهذا يبدأ مع استخدام الفرد لعقله بأقصى ما لديه من إمكانيات.
- وأين استخدام العقل في طقوسكم المخيفة؟

- طقوسنا ليست مخيفة ومرعبة كما يصورها البعض، وكل ما في الأمر أن لنا عاداتنا وتقاليدينا. كما أن قَدَّاسينا السوداء<sup>(١)</sup> أكثر إثارة وجاذبية من القداس التقليدي في الكنائس. ونفعل ما في وسعنا لجعل المعرفة متاحة للجميع، وليس لمجرد "نخبة معينة" من الأفراد كما تفعل الأديان الأخرى.

- سأتركك الآن، فأنا لست مضطراً إلى سماع هذه التفاهات.  
قال هذا وهو يستدير ليعود من حيث أتى، إلا أنها نادته ثانية، ولكن بتوسل هذه المرة:

- أرجوك ابق معي قليلاً، فالיום هو آخر أيام حياتي.  
توقف أبراهام واستدار نحوها مجدداً، وهو يتأمل في عينيها، ليتبين أتعني ما تقوله فعلاً؟ ثم عاد وجلس مكانه. وبعد فترة صمت طويلة سألتها متودداً:

- ما اسمك؟

- "سفيتا". وأنت؟

- مرحباً سفيتا. اسمي أبراهام.

ثم خيم الصمت عليه من جديد ولم يعرف ماذا يقول، وفي النهاية قرر الدخول في الموضوع مباشرة. فقال مستفسراً:

- ماذا عنيت بأن اليوم هو آخر أيام حياتك؛ أنت مريضة، أم أنك تفكرين بالانتحار؟

- لا هذه ولا تلك. ولكنني غداً في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل<sup>(٢)</sup> سأكون

قريباً للشيطان.

(١) القُدَّاس الأسود هو من أهم طقوسهم، ويقوم على فكرة القُدَّاس المسيحي نفسها، ولكن بشكل معكوس. ويعتقد أتباع الشيطان أنهم عندما يشرعون في القيام بهذه الشعائر فوق الأرض يبدأ الشيطان ممارسة الطقوس نفسها تحت الأرض، ويرجعون الهدف من ممارسة هذا القُدَّاس وشعائره إلى رغبتهم العارمة في إرضاء ربهم (الشيطان)، أما هو فيفعل ذلك لأنها تجلب له السعادة.

(٢) هذا هو الوقت المفضل عند الشيطانيين لممارسة طقوسهم، حيث أنه عكس الوقت المعتقد أن المسيح قد صلب فيه (الثالثة منتصف النهار).

- هل لجأت إلى الشرطة؟
- لماذا؟! إبليس لا يضغط علي، وأنا سأذهب إليه بإرادتي الحرة. ولكنني خائفة قليلاً في واقع الأمر.
- هل تدينين بإحدى "ديانات العصر الجديد"<sup>(١)</sup>؟
- كلا، فديانتي عريقة ومكثفه روحياً. ومثل هذه الكثافة من الروحانية لا تتوافر لمن كانوا ملحدين أو لادينيين، لأنهم ميتون روحياً. بعبارات أخرى، لا يحدث معهم أي شيء خارق، وفي المناسبات النادرة يحدث شيء ضعيف، لأن أديانهم ذات طبيعة ضعيفة، كشأن معظم "أديان اليد اليمنى".
- لكن بعضهم شيطانيون أيضاً!
- بعض تلك الأديان الجديدة تدعي بأنها شيطانية مثل الـ"ويكا" (Wicca)، أو الـ"لافينيين" (LaVeyan)، ولكنها ليست شيطانية أصيلة، أما نحن فنعمل مع الشيطان نفسه، ونأخذ معتقداتنا وممارساتنا منه مباشرة، ودون أي ترميز أو وساطة.
- ثم كشفت عن يدها لتريه العدد ٦٦٦ مكتوباً بالوشم. وقالت بزهو:
- هذه علامة قبول وعبادة الشيطان، والاعتراف بكونه هو الأب والرب.
- ولكن "يوحنا الرائي"<sup>(٢)</sup> قد تنبأ بأن هذا العدد سيكون السمة التي سيَسِمُ بها

(١) ديانات العصر الجديد هو مصطلح يطلق على مجموعة من الأديان الحديثة ذات الطقوس المركبة. وقد تأسس، أو تطور أغلبها خلال القرن العشرين مثل "ينبوع الحياة"، و"هاري كريشنا"، و"البوذية" من جماعة "زن"، و"إست". هذا غير ظهور بعض الأديان الحديثة الأخرى، والمنبثقة عن الأديان السماوية نفسها. ففي اليهودية يوجد مثلاً "اليهودية الأثوية" وفي المسيحية يوجد "العلمولوجيا"، وبين الديانتين توجد جماعات "المسيحيون العبرانيون" التي تعتبر جماعة "يهود من أجل المسيح" أكثرها نشاطاً. (راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف). كما لم ينبُج الإسلام أيضاً من هذه الصرعة، فقامت على أطرافه ديانات حديثة مشابهة كالـ"البهائية" مثلاً.

(٢) يوحنا الرائي هو صاحب آخر أسفار العهد الجديد "سفر الرؤيا" والذي يتحدث عن أحداث مستقبلية ستحدث آخر الزمان. راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

"ضد المسيح"<sup>(١)</sup> أتباعه.

ظهر الانزعاج على وجه سفيتا، وسألته متوجسة:

- ما دينك؟

- أنا يهودي.

فانفجرت أساريرها على الفور، وقالت بتودد:

- لقد خمنت ذلك من سحنتك واسمك. فلماذا إذن تستشهد بيوحنا الإنجيلي؟ إن

يسوع -ربه المصلوب- هو ضد المسيح (المسيح الدجال) في حقيقة الأمر، وأنت كيهودي

تعرف ذلك أكثر من غيرك.

- لماذا سررت بكوني يهودياً؟!

- لأن الكاهن الأعظم والقديس الأعلى لجميع الشيطانيين المعاصرين يهودي أيضاً:

د. أنطون سزاندري ليفي " ألم تسمع عنه؟

- مطلقاً.

- كيف ذلك؟! فهو خبير بكل العبادات، بالإضافة إلى أن "هوليوود"<sup>(٢)</sup> نفسها قد

استعانت به في القيام بدور الشيطان في فيلم "Rose Mary's Baby".

- حقاً؟

- أجل. كما أن هناك مشاهير عديدين في العالم يعبدون الشيطان أيضاً.

- مثل من؟!

- كثيرون وفق ما يقال لنا، إلا أنني لا أستطيع تأكيد ذلك، نظراً لأن المعنيين لا

يعترفون بذلك علانية. ولكن بالإضافة إلى فرقتي الـ"نيرفانا" والـ"ميتالिका"<sup>(٣)</sup> ثمة

(١) ضد المسيح (the Antichrist) هي التسمية الإنجيلية لـ"المسيح الدجال"، أما التسمية التوراتية فهي

"النبي الكاذب".

(٢) هوليوود تعني حرفياً: الغابة المقدسة، وهي عاصمة السينما الأمريكية (والعالمية أيضاً).

(٣) النيرفانا والميتالیکا هما من أشهر فرق موسيقى الهارد روك، وأعضاؤهما غريبو الأطوار، وقد أقدم

بعضهم على الانتحار.



مشاهير قيل إنهم منا، من بينهم الساحر العالمي "ديفيد كوبر فيلد"<sup>(١)</sup>. والنجم الشهير "ألفيس برسلي"، ولغز موته إلى اليوم خير دليل على ذلك. فعبادتنا مثيرة: حيث يمثل الشيطان متعة الإشباع عوضاً عن التعفف، والوجود المادي عوضاً عن الوعود غير الواقعية، والحكمة بلا موارد عوضاً عن الخبث الذي يرضى به البشر، والطيبة بالنسبة إلى من يخدمونه عوضاً عن الحب المهذور على ناكري الجميل غير المستحقين، والانتقام عوضاً عن الحنان المقتل والمصطنع الذي تمثله المسيحية. والأهم من ذلك كله هو أن الشيطان يتحمل مسؤولية أعماله، عوضاً عن التنصل والهروب من المواجهة. باختصار فإن عبادة الشيطان تمثل كل ما يمكن تسميته "خطيئة"، والتي تؤدي في الواقع إلى إشباع واستمتاع فكري، جسدي، وعاطفي.

- أحقاً لكم كنيسة وكاهن أعظم؟! -

- بالطبع. وقد بدأت عبادة الشيطان المعاصرة بصفة رسمية في مدينة سان فرانسيسكو بولاية كاليفورنيا على الساحل الغربي للولايات المتحدة في ٢٠ نيسان/ أبريل ١٩٦٦. وقد كان ليفي حينها شاباً لم يتجاوز الثلاثين من عمره، ولكنه تكهن على يد إبليس نفسه.

- ربما كان لكم كتاب مقدس أيضاً؟!

قال أبراهام ساخرًا، إلا أنها ردت بجدية قائلة:

- بالطبع. ففي نهاية ذلك العام كتب أول "ميثاق شيطاني" بعد الاجتماع الأول لكبار "كهنة ما فوق الأرض"، وفي عام ١٩٦٩ أَلَّف ليفي "الكتاب المقدس الشيطاني (الأسود)" الذي هو دستورنا جميعاً.

- أهو من ابتدع هذه النحلة؟

(١) وهو الذي ارتفع بجسده في أحد عروضه الشهيرة أمام ٤٠ ألف متفرج. وقد نقل عنه قوله: "كان هناك عدد كبير من الشياطين يحملونني ويحلقون بي".

- كلا، فعبادة الشيطان قديمة قدم البشرية نفسها، وكنيسته مثلاً كانت تطوراً طبيعياً لجماعة "أحباء الشيطان"<sup>(١)</sup> التي أسسها شقيقان يهوديان سنة ١٩٥٥. وقد لاقت رواجاً منقطع النظير بين الشباب آنذاك.

- يهوديان أيضاً؟!

- أجل، لأن جميع القوى الروحية في يد قلة مختارة من اليهود. وكل الأديان المزيفة، وبالذات المسيحية والإسلام هي مؤامرات يهودية تهدف في الحقيقة إلى تجريد الغوييم من جميع المعارف السحرية والقوة، وتلقينهم السلمية والعبودية.

- وهل كنيسة الشيطان التي تنتمي إليها تمثل كل عبدة الشيطان في العالم؟

- كلا. ولكن كنيسة الشيطان، و"معبد الجلوس" الذي تأسس عام ١٩٧٥، ثم "كنسية الحرية الشيطانية" هي الجماعات الثلاث الرئيسة للشيطانيين في الغرب. وكل المجموعات الصغيرة الأخرى هناك مثل منظمة "أحفاد الفراعة"، و"منظمة أحفاد الإغريق"، وجماعة "أشيا هاوس"، و"منظمة دلتا"، ما هي إلا مجموعات منشقة عن تلك المراكز الأم. أما في الشرق، فيوجد امتداد معاصر للمراكز الغربية، كما يوجد أيضاً جماعات محلية مستقلة في كل بلد تقريباً، كـ"الإيزيديين"<sup>(٢)</sup> في الشرق الأوسط مثلاً، وغيرهم كثيرون في أنحاء شتى من العالم.

- هل عددكم كبير هنا؟

(١) لاحظ أن التسمية على نسق تسمية جماعة "أحباء صهيون" اليهودية المشهورة في روسيا أواخر القرن التاسع عشر.

(٢) الإيزيدية (أو اليزيدية سابقاً) هي فرقة ضالة نشأت عام ١٣٢ هـ بعد انهيار الخلافة الأموية. وقد ابتدئوا باستهجان لعن "يزيد بن معاوية"، ثم تطور الأمر معهم إلى تحريم لعن الجميع بمن فيهم الشيطان نفسه، الذي اعتبروه الموحد الأول، لأنه رفض السجود لغير الله، ويسمونه طاووس ملك. وهناك من الإيزيديين حالياً من ينفي ذلك، ويرجع أصل تسميتهم إلى "إزيد" التي تعني الرب في اللغات القديمة، ويدعون بأن معبدهم الرئيسي (قرب الموصل في العراق) يعود تاريخ بنائه إلى ثلاثة آلاف عام، وأنهم أعرق من الإسلام وجميع الأديان السماوية المعروفة.

- أجل، ولكنني لا أعرفه بالضبط، فالحكومة الروسية تحاربنا، وتغلق حتى مواقع الإنترنت التي تجمع بيننا أولاً بأول. أما في الولايات المتحدة فأتباع الشيطان لديهم قدر أكبر من الحرية، وقد قدر عددهم في التسعينيات بأكثر من أربعة ملايين شخص هناك. أما في ألمانيا فهناك ما يقرب من مليون رجل وامرأة يمارسون عبادة الشيطان، أو يتعاطون علومها السرية. كما أن الشيطانيين في فرنسا لهم برنامج إذاعي تقدمه "مدمام سوليل" وتدعو فيه علانية إلى عبادة الشيطان، وممارسة السحر. وقد سمعت مؤخراً أن عبادة الشيطان تنتشر في كندا بشكل أكبر من انتشارها في أوروبا مجتمعة. على الرغم من استهجان أبراهام الشديد لوجود أناس يعبدون الشيطان، إلا أن الفضول تملكه لمعرفة المزيد عن ذلك الهراء الذي يتكتم عليه الشيطانيون عادة، ولا يجاهرون به مطلقاً. ولم يرغب بتفويت فرصة تحدث واحدة منهم معه دون تحفظ، نتيجة لسكرها، أو لأنها تعتقد أن اليوم هو آخر أيام حياتها، فسألها مستوضحاً:

- قلت إنكم في كنيسة الشيطان لستم من ديانات العصر الجديد، حتى وإن كان بعضهم شيطانيين، فماذا عنيت بذلك؟

- الشيطانية التقليدية تختلف عن الشيطانية اللاهوتية مثلاً؛ فنحن ندرك وجود الشيطان ككيان حقيقي وكإله، ومن ثم فنحن لسنا ملحدين، وذلك مع أن بعض أعضاء كنيسة الشيطان الحديثين لا يعترفون بوجود إبليس ككيان حقيقي ومادي، وقد بدؤوا حالياً باتخاذ موقف إلحادي فيما يتعلق بالآلهة، معربين عن وجهة نظرهم عن الشيطان بأنه مجرد رمز. إلا أنني مع جماعتي نتبع "وزارة الكهانة" التي تعارض ذلك التوجه الإلحادي الجديد بقوة.

- إذا لم تكونوا أنتم ملحدين، فمن الملحد إذن؟!!!

- الملحد هو من ينكر وجود الرب.

- وأنتم لا تنكرون وجوده؟!

سألها ساخراً، فقالت باستنكار:

- مطلقاً، فنحن نؤمن بوجود الرب، ولكننا نقصد الرب الحقيقي الذي هو الشيطان.
- هل أنت متأكدة من ذلك؟
- تمام التأكد. ففي الآونة الأخيرة، قام عدة كهنة وكاهنات عاليين بأداء عمل طاقة مع العديد من الجان، ومن ضمنهم جميع جان "الغوتيا" الاثنان والسبعون<sup>(١)</sup> الذين أكدوا لهم حقيقة وجود الشيطان، وأنه هو إلهنا الخالق الحقيقي، كما أكدوا لنا أنه يوشك قريباً على إعلان الانتصار.
- وهل هناك أصناف مختلفة من الجن؟
- طبعاً. هناك الـ"لوسيفوج روفوكال" والـ"فاساجو" والـ"فالفور" والـ"كليسثيريت". ولكن جان "الغويتك" على الأخص ودودون معنا كثيراً.
- وكيف تفسرين ذلك التناقض في العبادة، ما دمتم تتبعون جميعاً لكنيسة واحدة: كنيسة الشيطان؟!
- العديد من الشيطانيين يتعبدون "زهرة بنت الصبح" (الشيطان)، والبعض يعترفون به كصديق ولا يتعبدونه. نحن نحترم الانفرادية والاختيارات الشخصية. علاقة الفرد مع الشيطان هي علاقة شخصية، وذلك لأن الشيطانية تقيم الفكر الحر والانفرادية، ولا تقف بوجه الإبداع.
- وكيف وصلتكم أنتم إلى عبادته؟
- في نور المعارف الجديدة المؤسسة على مئات الساعات من البحث العميق والمكثف، اكتشفنا مجموعة حقائق مهمة.
- ما هي؟

(١) مجموعة من الجن تدعي وزارة الكهانة في كنيسة الشيطان أنها "حررتهم". وهم في اعتقادهم من الآلهة!!!

- أن الرب الشيطان. وهو نفسه الرب المعروف بالاسم الرباعي "يهوه"<sup>(١)</sup> من قبل العديد من المخدوعين، والذي يعني العناصر والزوايا الأربع في أنظمة السحر اليهودية الشعبية المتوافرة لدى العامة...

- يهو...

قاطعها أبراهام بحدة، ولكنه ما لبث أن وضع يده على فمه كأنما يحاول منع تلك الكلمة المقدسة من الخروج من فمه. ثم صرخ مستنكراً:

- تقصدين أنكم تعبدون الاسم الأعظم؟ وتعتقدون أنه هو اسم الشيطان!!!  
- تماماً.

كتم أبراهام غيظه بصعوبة، وقال مشجعاً لها على البوح بالمزيد:  
- وماذا اكتشفتم أيضاً؟

- أن إبليس أو الشيطان أو يهوه أو زهرة بنت الصبح، أو لوسفير، سمه ما شئت، هو وحده القادر على منح المعرفة والعلم الحقيقيين، وهدف ديانته الإبليسية الروحية هو تطبيق هذه المعارف والعلم لتحويل أرواحنا إلى ألوهيتها، كما كان مخططاً أصلاً. كما اكتشفنا أن شخصية "يسوع المسيح" هي شخصية وهمية ومسرودة من أكثر من ١٨ إلهاً وأسطورة وثنية، مثل "أودين"، الذي شنق ثم بعث، وهي أيضاً وصف آخر لعملية "كيميائية"<sup>(٢)</sup> لتحويل الروح إلى الموت، ومن ثم الانبعاث.

- وما هو فهمكم للكيمياء؟

(١) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) الكيمياء بالأصل هي ممارسة قديمة ترتبط بالسحر وبما كان يسمى بـ "علم الصنعة" عند العرب، وكان من أشهر أهدافها تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة، والوصول إلى "إكسير الحياة". وكانت تلجأ إلى الرؤية الوجدانية في تحليل الظواهر، مستخدمة علوم الكيمياء والفلك (التنجيم) وعلم الرموز وعلم المعادن والطب والتحليل الفلسفي (مع أن تلك العلوم لم تكن تمارس بطريقة علمية كما تُعرف اليوم)، ويذهب الكثيرون إلى أن الكيمياء تعتبر أصل الكيمياء الحديثة قبل تطوير مبدأ الأسلوب العلمي.

- الخيمياء هي تحولات الروح البشرية للألوهية. من خلال هذا التحول، نحن نكمل عمل خالقنا الحقيقي إبليس غير المنتهي على البشرية؛ وهو تحويل الإنسان إلى إله. ولكن المسيحية والإسلام يعمدون إلى طمس كل الحقائق المتعلقة بها وببقية المعارف النورانية، ويعملون جاهدين على إخفائها.

- كيف ذلك؟

- في العراق مثلاً، هناك ما يعادل العشرة آلاف موقع أثري تقريباً، ومعظمها لم يمسه أحد قبل الاحتلال الأمريكي. لكن وفقاً لأقوال علماء الآثار حالياً، فإن اللصوص اقتحموا الكثير من تلك المواقع، بالإضافة إلى المتاحف العراقية بشكل متكرر، وقاموا بسرقة آثار لا تقدر بثمن<sup>(١)</sup>. لقد تركوا الحلي والمجوهرات الذهبية الباهظة الثمن، وسعوا خلف سرقة السجلات القديمة والنصوص التي كانت على هيئة أسطوانات وألواح مسمارية. والحقيقة هي أن أولئك اللصوص ليسوا إلا موظفي الإغاثة للأمم المتحدة والدبلوماسيين الأجانب وبالذات الأمريكيون والبريطانيون. وقد تم اتهامهم بشكل متكرر من قبل الحكومة العراقية بسبب تهريب الآثار خارج الدولة، ولكن دون القدرة على اتخاذ أي تصرف رادع. وفي عام ٢٠٠٢ مثلاً، كان عامل عراقي يقوم بتوظيف شقة في بغداد يستأجرها دبلوماسي أجنبي، فوجد في أثناء عمله صندوقين يحتويان على أجزاء أثرية، وقد تسرب ذلك إلى الإعلام في حينه، ولكن لم يذكر اسم الدبلوماسي أو دولته، ثم طويت القصة تماماً مع أنها وصلت إلى الإعلام، وهذا هو السبب الحقيقي من وراء احتلال العراق، فأني فرد حتى مع نصف عقل يعلم بأنه لم يكن هناك "أسلحة دمار شامل" فيه، ومع ذلك، ومع أن مئات الدول المعارضة ضد الغزو قد احتجت، ومع أن العراق رضخ للتفتيش المذل وقدم تقريراً مفصلاً يثبت خلوه من تلك الأسلحة، فقد أصر "جورج بوش" بشكل حازم على الهجوم على العراق.

(١) لقد حدث هذا فعلاً.

- وأفقدك على هذه النقطة بالذات، ولكني لم أفهم ما علاقة احتلال العراق بموضوعنا .

- السبب الحقيقي خلف ذلك الاحتلال كان تدمير جميع البقايا التاريخية القديمة والمستندات التي تثبت بأن المسيحية ليست إلا كذبة. فقد كان هناك العديد من المعابد والبقايا المدفونة تحت رمال العراق التي كانت تحتوي على دلائل أصول البشرية. والجنود الأمريكيون والبريطانيون تم إعطاؤهم إشارة الانطلاق منذ البداية لتدمير كل ما يشتهون من المتاحف العراقية ونهبها .

- إذن هذا هو السبب!

قال أبراهام وهو يشيح بنظره عنها، كيلا تلاحظ ابتسامته الساخرة.

- بالطبع. ولذلك أيضاً ألقى معهد "السميثونيان" (Smithsonian Institute) بنفايات مملوءة بأثار قديمة في المحيط الأطلسي. وكان العديد من هذه القطع والآثار أصولها مصرية<sup>(١)</sup> ووجدت في الولايات المتحدة الأمريكية، مثل تلك التي وجدت في الـ"جراند كنيون"<sup>(٢)</sup>.

- وما هدفهم من كل ذلك؟!

- على مر جميع الأزمنة، خاصة بعد ظهور المسيحية والإسلام، تم القيام بإبادات جماعية لمسح مدن بأكملها وتدميرها، وإبادة جميع سكانها لإبقاء الحجاب على حقيقة وجود الشيطان، وعلومه التي تهدف إلى رفعنا إلى مصاف الآلهة كما كان مقرراً. وأنه هو الإله الأصلي "ذو القرنين" والخالق الحقيقي للبشرية. وأي شيء كان مناقضاً لذلك، ويشكك في صحة الديانة المسيحية، كتلك الكذبة مثلاً، بأن العالم عمره ٦٠٠٠ عام،

(١) يدعي الشيطانيون أنهم يرتبطون ارتباطاً مباشراً بحضارة مصر الفرعونية، ويعتبرونها صاحبة العلوم الشيطانية التي ينسبون إليها هندسة بناء الأهرامات وأغلب منجزات مصر القديمة .

(٢) يدعون الادعاء نفسه بالنسبة إلى حضارات الهنود الحمر، وبالذات بالنسبة إلى أهراماتها .

كان يذهب تحت تدقيق شديد ومكثف. ولكنه مع ذلك بقي لنا بعض تعاليم الشيطان في كتب قديمة كـ"الجلوة" و"قرت اليزيد"<sup>(١)</sup> في العراق وغيرها. كما بقيت مخطوطات أخرى ظل أهلها محافظين عليها رغم الاضطهاد. ونحن نقدر هذه المخطوطات القيمة كثيراً، ونسعى إلى حمايتها من الاندثار.

فتسائل أبراهام وهو يبذل جهداً جباراً في تصنع الجدية:

- لكن ألا يستطيع الوسطاء الروحانيون لديكم الحصول على نسخ أخرى من الشيطان نفسه عوضاً عن تلك المندثرة؟!؟

(١) الجلوة وقرت اليزيد هما من أهم الكتب الدينية الإيزيدية .



## ◀ مُحدّثات

ظهر الحرج على وجه سفيتا، وقالت متهربة من سؤال أبراهام الساخر:  
- لا يوجد عندنا وسطاء في الإبليلية الروحية. فنحن نشجع قومنا على التفاعل  
مع إبليس شيئاً فشيئاً، والكهنوت عندنا للإرشاد والدعم فقط، فعلاقة الفرد مع إبليس  
هي بين الفرد وإبليس فقط.

نظر أبراهام إليها بإشفاق وهي تردد تلك الأوهام الخادعة، وسألها محاولاً معرفة  
خلفتها الدينية قبل ذلك التحول الخطير:

- هل كنت مسيحية قبل ذلك؟

فأجابته بقرف لم تتكبد عناء إخفائه:

- الأدق أن تقول: إنني قد كنت مخدوعة.

- لماذا يتحول الكثير من المسيحيين إلى الإلحاد<sup>(١)</sup>؟ فنسبة الملاحظة من أصل  
مسيحي مرتفعة جداً مقارنة بأعداد المسيحيين الذين يتحولون إلى اليهودية أو حتى  
إلى الإسلام.

- لأن الإيمان المسيحي ينفرد عن باقي الأديان الأخرى بعدد أكبر من تلك القصص  
والأمور الإيمانية التي يجب على المسيحي الإيمان بها جميعاً بشكل أعمى دون أن  
يراهها، والتي لا يستطيع العقل إدراكها، ولا حتى تخيلها، حتى يصبح الأمر إجبارياً  
عليه: إما أن يأخذه ويؤمن به كما هو، أو يبدأ في رحلة التفكير والشك، ليضع بذلك

(١) هذا السؤال هو عنوان مقالة بقلم كاتب مسيحي يدعى "هاني الأعصر" جاءت على موقع عشرينات  
الإلكتروني بتاريخ: ٢٦/٢/٢٠٠٨ والإجابة عنه هي اقتباس حرفي من المقالة نفسها مع بعض التصرف  
لجعلها على شكل حوار.

قدمه على أول طريق الإلحاد<sup>(١)</sup>.

- ما هي تلك الأمور التي تدفع المسيحي إلى الشك؟

- بعض القصص التي تتشابه مع بعض الأساطير الإلحادية، والتي يرى المسيحيون الملحدون أن دينهم السابق قد استوحاها منها. قصة تجربة الشيطان للمسيح<sup>(٢)</sup> هي قصة تجربة الشيطانة "سيند ماد" للتغريب بـ"زرداشت"<sup>(٣)</sup>، والشيطان "مارا" وبناته الثلاث لـ"بوذا". ويقول أميل لودفيج: "العشاء الرباني كان معروفاً في عبادة "ميثرا"<sup>(٤)</sup> إله الشمس عند الفرس على الطريقة التي عرف بها في المسيحية، بل كان الخبز الذي يتناوله عباد ميثرا في ذلك العشاء يصنع على شكل صليب".

- وماذا أيضاً؟

- تناقضات العهد الجديد مع العهد القديم الذي يعتبره المسيحيون جزءاً لا يتجزأ

(١) يقول "روجر أسكام" في "المعلم" الصادر سنة ١٥٦٣م؛ أي في أوج الصراع بين الكاثوليكية والبروتستانتية الناشئة: "إن الإيطالي الذي ابتدع لأول مرة المثل الإيطالي ضد رجالنا الإنجليز الذين تشبهوا بالإيطاليين، لم يعد يقصد زهومهم وخيلاءهم في حياتهم أكثر مما يقصد رأيهم القبيح في الدين. وإنهم لأشد اعتداداً بعظات شيشرون منهم برسائل القديس بولس، وبقصة من بوكاشيو منهم بقصص الكتاب المقدس، وإنهم ليعتبرون أسرار المسيحية من قبيل الأساطير الخرافية، ويجعلون المسيح وإنجيله في خدمة السياسة المدنية، ثم إن المذهبين كليهما (البروتستانتية والكاثوليكية) لا يأتیان خطأ إليهم. وفي الوقت المناسب يرفعون من شأنهما علانية، وبين الجدران يسخرون منهما سراً... ومع رفاقهم، يضحكون أو يزدرون كلاً من البروتستانتية والبابوية، ولا يلقون بالاً للكتب المقدسة. وإنهم ليهزؤون بالبابا، ويشكون لوثر مر الشكوى، وبألفاظ جارحة. إن المعبود الذي يرتضون ليس إلا مسرتهم الشخصية ونفعهم الخاص، ومن ثم فإنهم يعلنون في وضوح أنهم يتبعون في حياتهم مدرسة الأبيقوريين، وإنهم من الناحية النظرية ملحدون".

(٢) جاء في الأناجيل المعتمدة أن الشيطان حاول إغواء المسيح عليه السلام وعرض عليه جميع ممالك الدنيا ومجدها ليسجد له. (متى ٤ : ١-١١، مرقس ١ : ١٢-١٣، لوقا ٤ : ١-٣).

(٣) لمزيد من المعلومات راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٤) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

من "البايبل"<sup>(١)</sup>، مستدين في ذلك إلى قول المسيح في عظته الشهيرة على الجبل: "ما جئت لأنقض بل لأكمل". وهناك العديد من الأمور التي يتناقض فيها الإنجيل (العهد الجديد) مع التوراة (العهد القديم)، وجاءت على لسان المسيح نفسه. فعلى سبيل المثال قول المسيح حول الطلاق، والذي ذكره في أثناء الموعظة على الجبل أيضاً: "سمعت أنه قيل لكم: من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق، أما أنا فأقول لكم إن كل من طلق امرأته إلا لعلّة الزنى فإنه يزني"، وبعيداً عن قضية الطلاق وحكم الشريعتين فيها، حاول أن تلاحظ عبارة "أما أنا فأقول لكم" التي استخدمها المسيح، فهي لا تفسر إلا بمعنى واحد: هو وجود حكم جديد استحدثه المسيح فيما يتعلق بالطلاق، وهو من ثم لا يعني إلا وجود تناقض بين العهدين القديم والجديد، فكيف جمعا بكتاب واحد؟! ويقول "إكهارن" الألماني، نقلاً عن مخطوط للأب "سلسوس"، أن "ياركز" وهو من أشهر علماء البروتستانت، قرر أن التناقض في عبارات العهدين القديم والجديد يصل إلى ثلاثين ألف موضع! وأوصلها القس "ميل"، بعد تحرّ أكبر، إلى ما يزيد على مئة وخمسين ألفاً!!!

- هناك وجهة نظر في هذا فعلاً.

- ليس هذا فحسب؛ فهناك أمور أخرى تدفع المسيحي إلى الإلحاد، منها عدم منطقيّة الإيمان بنظرية الفداء، والتي بموجبها يضطر الله إلى الموت ككفارة عن البشر، بحجة أن الحكم قد أصدره الله نفسه وأقر مبدأ أن أجره الخطية هي الموت الأبدي، ثم عاد ليقر أن كل البشر ورثوا الخطية عن حواء، ومن ثم فإن كل البشر يستحقون الموت، ولا سبيل أمامهم إلا طريق واحد وهو الإيمان بنظرية الفداء!!!

(١) البايبل كلمة إغريقية تعني "الكتاب". ويطلق المسيحيون العرب على الدراسات الكتابية اسم "الدراسات البيبلية"، مع أن التسمية المفضلة للبايبل (أو "البيبلية" كما يسميه بعضهم) عندهم هي: "الكتاب المقدس".

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا على أي مسيحي يفكر ويحلل الأمر، ولا يقبله هو: لماذا أصدر الله الحكم من أساسه، والذي يضطر بموجبه إلى الموت كفارة عن البشر الذين يؤمنون به<sup>(١)</sup>؟ بالإضافة إلى الشكوك التي تراود المسيحيين في نسبة أسفارهم المقدسة إلى مؤلفيها المزعومين<sup>(٢)</sup>.

- وفي هذا أيضاً وجهة نظر. ولكن لماذا الإلحاد؟ فأولئك الذين حسموا أمر إيمانهم المسيحي بعد الشكوك التي أثّرت في عقولهم، لم لا يتجهون إلى إعتناق اليهودية مثلاً؟!!

- اليهودية تقر كثيراً من النظريات نفسها التي سبق للمسيحي اللامؤمن أن اعترض عليها<sup>(٣)</sup>، والفارق الوحيد هو أن اليهود لا يؤمنون بفداء يسوع ومازالوا ينتظرون مخلصاً آخر.

- وماذا عن الإسلام؟!

(١) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) نقرأ في المدخل إلى إنجيل متى ما نصه: " فلما كنا لا نعرف اسم المؤلف معرفة دقيقة، يحسن بنا أن نكتفي ببعض الملامح المرسومة في الإنجيل نفسه فالمؤلف يعرف من عمله ". العهد الجديد (بولس باسيم)، ص ٣١. وفي المدخل إلى " الرسالة إلى العبرانيين " ما نصه: " يرى علماء الكتاب المقدس في عصرنا - على اختلاف مذاهبهم - أن كاتب هذه الرسالة ليس القديس بولس "، إلى أن يقول: " ولذلك يذهب كثير من العلماء إلى قول بعض الأقدمين أمثال أوجينيس المصري إن كاتب هذه الرسالة هو واحد من تلامذة بولس ". المصدر السابق - ص ٨٥٤. راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٣) بالنسبة إلى موضوع الشك بالمؤلفين مثلاً، جاء في المدخل إلى سفر يشوع ما نصه: " لكن المؤلف المقدس (!) الذي نجهل اسمه وعصره " الكتاب المقدس (إغناطيوس زيادة)، المجلد الأول، ص ٣٦٠، وفي المدخل إلى سفر الجامعة جاء ما نصه: " يتدنى الغموض بشخص المؤلف نفسه " المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ٢٠٨، وفي المدخل إلى سفر الحكمة ما نصه: " إن هوية المؤلف مجهولة، إنما الدلائل المتراكمة تشير إلى أن وطنه كان مصر، ومن المحتمل أن يكون الإسكندرية ". المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ٢٣٧، وفي المدخل إلى سفر دانيال ما نصه: " إن مؤلفاً ملهماً لم يترك لنا اسمه قد ضم إلى هذه الصورة الشهيرة عن الماضي عدة رؤى ذات إنشاء روائي ". المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ٦٤٨.

## ||| بعيداً عن الوحى |||

- ربما كان الفضل الوحيد للمسيحية على المسيحيين هو أنها وفرت لهم في الكنيسة تربية مسيحية تتفنن في التشكيك بالإسلام وزيف ادعاء سماوية كتابه، وتُظهر كل عيوبه بالتفصيل الممل.

- حسناً، دعك من الإسلام أو حتى من اليهودية، لماذا لا ترين أن الخطأ ربما يكون من قبل طائفتك السابقة؟ لماذا لا تحاولين البحث عن الحقيقة عند طوائف مسيحية أخرى؟

- هل أتحدث إليك بلغة غير مفهومة!!! لقد قلت لك باللغة الروسية إنني لم أعد مسيحية مخدوعة، وليس لدي نية لأن أعيش في أوهاها ثانية عبر طائفة أخرى، فالأساس نفسه مهترئ حتى النخاع. سأشرح لك الأمر ثانية. أنا الآن أعرف أن المصلوب ما هو إلا شخصية وهمية، وأن المسيحية هي كذبة مؤسسة على أساطير وثنية مسروقة، عن آلهة مصلوبة، مثل الإله المصري "ست" مثلاً، والذي تم صلبه على ذيل إيزيس<sup>(١)</sup>. كما أن الـ ٣٣ عاماً التي قيل بأنه قد عاشها، تمثل فقرات العمود الفقري الـ ٣٣ التي تصعد عليها "الكونداليني"<sup>(٢)</sup>. أما الصليب -وبالمناسبة، فهو لم يشاهد في

(١) في كتاب بعنوان: "المسيح الوثني، إعادة الضوء المفقود" The Pagan Christ, Recovering the Lost Light صدر عام ٢٠٠٤ من تأليف "توم هاربور" Tom Harpur وهو دراسة حول ثلاثة مؤلفات، لعلماء المصريات "غودفري هيجينز" (١٨٣٤، ١٧٧١)، و "جيرالد ماسي" (١٩٠٧-١٨٢٨)، و "ألين بويد" (١٩٦٣ - ١٨٨٠)، يكشف الكاتب أوجه التشابه بين الميثولوجية المصرية، والكتابات المسيحية التي يُفترض أنها تاريخية. ويكشف أن الإله "حورس" (ابن الإله إيزيس) كان فعلاً صيغة قديمة للمسيح الوثني "ابن الله". وفيه مقارنة بعض النتائج بين سيرتي حورس والمسيح الرب كما جاءت في التقليد والأنجيل المعتمدة لاحقاً. ووثق جيرالد ماسي مثني مقارنه منها في كتاب "The Natural Genesis, Gerald Massey". وللإحاطة بهذا الموضوع راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) سيأتي تفصيل ذلك بعد قليل.

أي مكان للعبادة المسيحية حتى ما بعد القرن الثالث<sup>(١)</sup> - فهو سرقة أخرى من العبادات الوثنية السابقة، ولكن الصليب الأصلي كان متساوي الأذرع، كما رأيت في العديد من "سيجيلات" الجان، وهو شكل الروح البشرية. ويمثل العناصر الأربعة (النار والأرض، الهواء والماء) التي تتألف منها الروح البشرية. وكان يرمز إلى الأحرف الأربعة لاسم "يهوه"، وإلى العمل الكبير: الحياة، العذاب، الموت، والانبعاث. أما "الهالة" التي تُرى في العديد من اللوحات فهي لـ"قوة الساحر" الناتجة من الكونداليني الصاعدة. والمسيحية سرقت هذا المفهوم أيضاً من الأديان الوثنية الأصلية، الشرقي منها والغربي.

- تقصدين الهالة حول رأس يشوع وحول رؤوس القديسين في الأيقونات واللوحات الدينية؟  
 - تماماً. فبوذا مثلاً يرى مع هالة، وكذلك العديد من الآلهة الهندوسية أيضاً. ولا أريد أن أطيل في ذلك الموضوع الذي تناولته العديد من الدراسات والأبحاث، ولكن خلاصة القول هي أن المصلوب وأناجيله قد خدعوا الكثيرين، وأضاعوا الكثير من الجهد والوقت سدى، وأنتم اليهود تعرفون ذلك أكثر من الجميع، ونحن نتفق معكم في أن يشوع يفسر بـ: "قليمحُ الله اسمه وذكراه"<sup>(٢)</sup>.

- هل تتحدثين العبرية؟

- كلا، ولكنهم علمونا تلك العبارة بالذات. هل تعرف أن أتباع يشوع، وبالذات الكنيسة الكاثوليكية، التي تطورت منها جميع الطوائف المسيحية الأخرى، قد عذبوا حتى الموت، وقتلوا ملايين الأبرياء من اليهود وغيرهم فيما أطلق عليه "محاكم التفتيش"؟

(١) لقد شاعت أشكال متعددة للصليب في تلك الأزمنة لدى الأديان المختلفة. في الحقيقة كان الشكل الذي اختاره المسيحيون الأوائل، وبالذات المصريون منهم، هو شكل "عنخ" (مفتاح الحياة عند المصريين القدماء) كما تظهر مخطوطات نجع حمادي. إلا أنه ليس كدلالة على الطريقة التي مات بها عيسى عليه السلام، وإنما كان يرمز عندهم إلى المسيح الحي - بروحه - التي لا تموت. وللمزيد حول هذا الموضوع، وحول زمن ترجيح كفة الصليب الروماني المعتمد حالياً، راجع الفصل (الموقف) نفسه المشار إليه قبل قليل.  
 (٢) قالتها باللغة العبرية. وحسب "نظام النوطيقون" فإن الأحرف الأولى لكلمات اسم يشوع (يسرع) تطابق ترتيب الأحرف الأولى لكلمات تلك العبارة.

بل إنهم حرقوا العديد من الناس حتى الموت فيما أطلقوا عليه اسم "منازل الساحرات"، وبعضهم أطفال لم تتجاوز أعمارهم الستين من العمر. وهل تعلم أن عدد الذين أحرقوا بتهمة "الشعوذة" فقط نحو تسعة ملايين من البشر<sup>(١)</sup>، ٨٠٪ منهم من النساء. هذا ما عدا الملايين العديدة الذين حُرِّقوا حتى الموت لرفضهم اعتناق المسيحية.

- ربما كنت محقة بالنسبة إلى جرائم الكنيسة في الماضي، ولكن مع هذا أنصحك صادقاً بأن تعودى إلى المسيحية، فهي على كل المحدثات الوثنية الطارئة عليها، تبقى أرحم بكثير من هذا الجنون.

- جنون!!!

صاحت باستنكار، ثم أردفت والشر يتطاير من عينيها:

- الجنون هو أن أبحث عن رب مزعوم، بينما إبليس يأتي إلي ويجعلني أتأكد من وجوده، بل ويمنحني القدرة على استخدام قواي الكامنة. الجنون هو تصديق قادة الدين حين يشددون على الحياة ما بعد الموت من أجل صنع توجه فكري وعقلي بأن الحياة التي نعيشها الآن لا تهم؛ وذلك من أجل برمجة البشرية لكي يصبحوا رقيقاً متاليين في "النظام العالمي الجديد" الذي يعدونه لعودة يسوع مسيحهم المزعوم الذي لن يعود<sup>(٢)</sup>، وتحمل جميع أنواع الإساءة لمصلحة النخبة. وقد قال "ليو العاشر"<sup>(٣)</sup> سابقاً: "لقد خدمتُنا جيداً، أسطورة يسوع تلك". الجنون هو هذيان المسيحيين إلى الأبد حول شفاء مسيحهم المزعوم للمرضى ومحاولة تقليده. هذا هو الجنون.

(١) يقول "فرانك دونوفان" في كتابه "Never on a Broomstick" بعد أن أورد ذلك الرقم: "وعلى الجانب الآخر نجد التخمينات العلمية لـ"ره روبيتز" وغيره بأن المجموع قد يكون قرابة ٢٠٠,٠٠٠. إن السجلات المعاصرة غير منتظمة وغير مكتملة، وكثيرة هي حالات الموت غير المؤتقة بالإضافة إلى ضياع سجلات أخرى من الأرشيف عبر الوقت".

(٢) أذكر القارئ الكريم أن الحديث هنا يأتي على لسان مسيحية مرتدة، تعبد الشيطان مباشرة، أما عودة المسيح الحقيقي عيسى عليه السلام فمثبتة بالتواتر في نصوص العقيدة الإسلامية، وكذلك في النصوص المسيحية التي نجت من التغيير كما سيمر معنا في الجولة الثالثة.

(٣) أحد باباوات الفاتيكان ١٤٧٥-١٥٢١ م.

- ولكن بعض المرضى يشفون فعلاً على أيديهم.

- إن الأفعى التي ترمز إلى الشيطان، تمثل أفعى الكونداليني الواقعة على قاعدة العمود الفقري، وتمثل كذلك "الحمض النووي"، كما تمثل الحياة نفسها. وعندما يتم تنشيط هذه القوة، فنحن نشفى ونتنور. وأي شفاء من أتباع يسوع هو مبني في حقيقة الأمر على رموز ذات صلة بتحويل الروح. ويستطيع أي فرد مع بعض المعرفة والقوة الروحية إنجاز جميع المفازر المنسوبة إليهم، أو حتى تلك التي ينسبونها إلى ربه المصلوب نفسه، بل أكثر منها بكثير. وبعض أولئك المسيحيين يعلمون ذلك، لكن أكثرهم لا يدركون بأن من يتعاملون معهم ويدعونهم "ملائكة"، ما هم إلا كيانات فضائية شريرة تدعى "نورديكيون". أولئك الذين يقومون بطرح عرض من حين لآخر، لإعطاء مصداقية لأكاذيبهم<sup>(١)</sup>، وأولئك الذين يقومون بطلب المساعدة منهم لا يتعلمون أي شيء، كما أن بعض المخدوعين الذين يعتقدون أنهم شاهدوا يسوع وكلموه، لم يدركوا أنهم كانوا في الواقع يناجون بعض تلك الكائنات الفضائية الشريرة. وهذه الكائنات نفسها عقدت صفقة مع الفاتيكان: الأرواح مقابل الثروة، والسلطة في أيدي الأقلية. ولإنجاز هذه الغاية، كان لا بد من إزالة جميع المعارف الروحية؛ لأنه لا مجال للحيلة أن تنجح في حال امتلك الضحية المعرفة. فلكي تكون ضحية على نحو فعال، يجب أن تكون جاهلاً، و... أبراهام... ما بالك؟

كان أبراهام يحاول طيلة الحوار أن يتصنع الجدية، والاهتمام بما يسمعه، كي يشجعها على البوح بأكبر كمية ممكنة من المعلومات عن عبادتها. وقاوم في سبيل ذلك رغبة عارمة في الضحك، ولكن ما إن وصلت إلى نقطة أن الملائكة هي كائنات فضائية شريرة، حتى باءت جميع محاولاته بالفشل، وعبثاً حاول مداراة ضحكته. وعندما انتبهت لذلك وسألته عما ألم به، أطلق عنان ضحكته التي لم يعد قادراً على كبتها. ثم قال وهو يحاول السيطرة على ضحكته دون جدوى:

(١) هذا حق أريد به باطل، فهناك كائنات شريرة تقوم بهذا فعلاً، ولكنها الشياطين وليست الملائكة. راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.



- اعذرني أرجوك، ولكن أعجبتني فكرة أن الملائكة هي كائنات فضائية!

ثم عاد أبراهام إلى الضحك ثانية رغماً عنه. فقالت له مؤنية:

- أولاً: إن الكائنات التي تظهر لأولئك المتوهمين هي كائنات شريرة فعلاً، حتى إن أوحى بأنها ملائكة، بكل ما تحويه هذه الكلمة من معنى سام بالنسبة إلى أصحاب الأديان الإبراهيمية.

ثانياً: مع أننا نحتقر المسيحية والإسلام ونهاجمهما دائماً، إلا أنك لو أمعنت النظر بأدبياتنا ومواقفنا الإلكترونية وكتبنا المقدسة وتعمقت بها فسيظهر لك بوضوح أننا لا نفعل المثل مع اليهودية، إلا بالحدود الدنيا، ومن باب ذر الرماد في العيون وسحب البساط من تحت أرجل المنتقدين<sup>(١)</sup>، وأنا شخصياً لم أهاجم دينك ولم أسخر منه بأي شكل من الأشكال. عار عليك أن تفعل ذلك معي.

كادت ضحكة أخرى تفلت من فم أبراهام بعد توضيح سفيتنا الأخير، إلا أنه تذكر ما أكدته في بداية الحديث عن دور اليهود في تأسيس هذه العبادة، فتلاشت لديه على الفور أي رغبة في الضحك. وأطرق مفكراً في احتمال واقعية ادعاءات معادي السامية عن دور اليهود في الكثير من العقائد الهدامة، وهو ما أرضى سفيتنا، التي أساءت فهم سبب الخجل الذي ظهر على وجهه، مما شجعها على إكمال شرحها قائلة:

- هناك آلهة يعيشون في جميع أنحاء المجرة في نظم شمسية مختلفة، وهم متقدمون جداً. بعضهم مساعد للبشرية كإبليس والآلهة العظام الذين تم تصنيفهم بـ"جان"، والبعض محايد، والبعض الآخر لطالما عمل على تدميرنا. لقد كانت هناك حرب على البشرية بسبب رغبة إبليس والجان في إعطائنا العلوم والمعارف الروحية، لارتقائنا للوصول إلى الكمال الروحاني والجسدي، في حين رغبت الآلهة المعادية بإبقائنا متخلفين، وجاهلين روحياً، من أجل استخدام قوة حياتنا، أي الأرواح، كمصدر وفير للطاقة. إن إبليس هو جالب المعرفة والتثوير، والمحرم العظيم للبشرية، وهو

(١) هذا صحيح، وهو ما لاحظته بقوة حين كنت أجمع المعلومات عنهم من مصادرهم نفسها.

لا يخشى من امتلاك البشرية للمعارف الروحية، لأنه صادق وليس لديه ما يخفيه، أما الباقيون فليدهم الكثير ليخفوه. ولو أمعنت النظر في الأعمال الفنية في القرون الوسطى مثلاً، لوجدت أن العديد من فناني الغرب قد تركوا رسائل في أعمالهم، تُظهر ما حاولت الكنيسة الكاثوليكية إخفاءه؛ من صحون طائرة تحلق فوق المصلوب، إلى علامات كثيرة أخرى تظهر بأن هذه الأديان ما هي إلا خدعة، وبأن الأفراد في ذلك العصر كانوا يعلمون ذلك، لكنهم تم اضطهادهم وإخراستهم من قبل الكنيسة. والأمثلة كثيرة على ذلك.

فقال أبراهام شارداً:

- تقصدين اللوحات الفنية!؟

- أجل.

- هاتي مثلاً على ذلك.

- بل أمثلة عديدة: إن للفنان "ديمونكيو" -مثلاً- في القرن الـ١٥ لوحة للعدراء تسمى: "The Madonna with Saint Giovannino" ولو تمعنت فيها لرأيت صحناً طائراً يحلق خلف العدراء بشكل واضح. ولوحة "كارلو كرافيلي" لعام ١٤٨٦ والمسماة بـ "Annunciation"، ترى فيها بشكل فاضح، صحناً فضائياً آخر يحلق فوق العدراء ويرسل شعاعاً من نور إلى رأسها. وفي لوحة تعميد يسوع "The Baptism of Christ" للفنان "أريت دي جليدر" عام ١٧١٠، يظهر بشكل فاضح أيضاً صحن فضائي يقوم بإرسال أشعة ضوء على كل من يوحنا والمصلوب. واللوحة الآن في متحف "Fitzwilliam Musuem" بإنجلترا. حتى لوحة الفنان الشهير "ليناردو دافينشي" "العشاء الأخير" تظهر تلاميذ المصلوب في أربع مجموعات لكل ثلاثة تلاميذ، وهو ما يدل على دائرة البروج الاثني عشر. وستجد العديد من اللوحات الأخرى تحتوي على رسائل مخفية تبوح بخدعة وحيلة المسيحية، إن وفرت الوقت الكافي لدراستهم<sup>(١)</sup>.

(١) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

- وماذا يعني كل ذلك؟

- المعنى المتضمن في تلك اللوحات هو أن المسيحية خدعة، وأن هناك آلهة هي جنس مشابه للبشر نشؤوا خارج الأرض (فضائيون) وهم يسمون النورديكون. وفي الكتاب المقدس المسيحي تمت الإشارة إلى بعضهم باسم الـ "جبابرة". وهم أولئك الذين اتخذوا زوجات من البشر أصبحوا آباء لأبناء من أمهات بشرية<sup>(١)</sup>، وذريتهم عرفت في الكتاب المقدس بـ "أنصاف الآلهة-Demigods". ومن الجبابرة من علّم البشرية، مثل "عزازيل"، و"ست"، لذلك تم طردهم، ولعنهم، وإدانتهم من قبل الآلهة الآخرين. والنورديكون كائنات متطورة للغاية ومتقدمة كثيراً، وعالمة وقوية بشكل هائل. لقد عدلوا حمضهم النووي، لئلا يشيخوا. والهدف الوحيد من البشرية، كان لاستخدامهم كعامل رقيق في مناجمهم، وكان لابد من تدميرنا بعد انتهاء ذلك. إبليس، إلى جانب العديد من الجبابرة، وقفوا ضد ذلك المخطط عن طريق مدنا بالعلم والمعارف، كي لا نبقى في ذلك الجهل الذي تحيطنا به الآلهة الشريرة وكتبها التي تدعى بغير وجه حق بالكتب المقدسة.

- ولكن هناك الكثير من العلم والمعارف في الكتاب المقدس، كما يوجد فيه الكثير من النبوءات التي قد تحقق قسم منها فعلاً، فكيف تفسرون ذلك؟  
قال أبراهام مدافعاً، فتبسمت سيفيتا وقالت كأنها تشرح درساً لطفل صغير:

- معظم تلك التنبؤات كتبت لسبب واحد، واحد فقط، وهو لصنع الخوف في البشرية التي لا تمتلك المعرفة. ومن خلال ذلك الخوف يستعبدون ويجبرون الكائنات البشرية على طاعتهم؛ لأن التنبؤات التي في الكتاب لم تكن مؤسسة على "الكليرودينس"<sup>(٢)</sup> من جهة الآلهة، إنما على معلومات مادية. فالبشرية تجردت من العلوم الروحانية القديمة وسقطت ضحية جراء إيمانها بهذه التنبؤات التهديدية المسروقة. وما دام أن هناك

(١) تقصد ما يسمى في الكتاب المقدس بـ "بني الله" (التكوين ٦ : ١-٤).

(٢) الكليرودينس هي "الجللاء الروحاني".

علامات في السماء، مثل "السكستابل الكبير"<sup>(١)</sup>، يستطيع أي إنسان عالم بها أن يصنع تنبؤات ذات إمكانيات كبيرة للحدوث.

- حقاً؟!

قال أبرهام مصطنعاً التعجب، فأجابت سفيتا ببعض الرضا عن النفس:

- بالطبع، وهذا لا يختلف عن طبيب يقوم بوضع تنبؤات شفائية للمريض، أو عندما يقوم عالم أرساد جوية بالتنبؤ -بطريق ما- بقدوم إعصار، لأنه يستطيع أن يراه في صور الأقمار الاصطناعية. كلا المثالين السابقين هما نتيجة امتلاك بيانات كافية، وعلم، وتجارب. الشيء نفسه يمكن قوله عن الآلهة. فهؤلاء كينونات عاشت آلاف السنين بل ملايين السنين، بعضهم مثل الأب إبليس وتابعوه الجان مخلدون. ومن المؤكد أنهم رأوا أكثر بكثير من أي كائن بشري، بالإضافة إلى مدى طول عمرهم، وتكنولوجياهم المتطورة، وعلمهم، وذكائهم. هؤلاء رأوا الاصطفافات الكوكبية، والتغيرات التي طرأت على النظم الشمسية.

- مثل ماذا؟

- مثل اصطفاف كوكبي بدرجة ستين محكمة (stellium) الذي سبق وباء الطاعون في القرن الـ١٤، هذا الاصطفاف حدث قبل سنة واحدة من نشوب الوباء الذي كان عام ١٣٤٨. نوع الاصطفاف هذا نفسه أيضاً حدث عام ١٩٨٢، ومع هذا الاصطفاف أتى مرض الإيدز على الساحة، وكلاهما أخذاً حشوداً من الأرواح.

- وما تفسير ذلك؟

- الآلهة جدولت ونظمت الخطوط الكهرومغناطيسية عندما عاشت على الأرض، وقد تم هذا بهدف تحديد قدر الهزات الأرضية المستقبلية ومكانها، وغيرها من كوارث طبيعية، فالآلهة كانت أكثر تطوراً من علماء الزلازل في يومنا هذا. والمعلومات

(١) نجم ذو ستة رؤوس، ويسمى نجمة فيشنو في الديانة الهندوسية.

الناجمة من شبكة خطوط الطول/ العرض قدمت أيضاً معلومات، وعلماً كافياً للتنبؤات الصحيحة الخاصة بانعكاس أقطاب الأرض، وغيرها من أحداث كارثية كامنة. لكن هذه التنبؤات لم تتأسس على الكليرودينس إنما على العلم والتكنولوجيا. وهكذا فمع البيانات والتجارب الكافية، فإن التنبؤات الدقيقة ليست صعبة الصنع. خذ مثلاً ما حدث مع "كريستوفر كولومبس" الذي أدرك بعلمه وشوك حدوث كسوف قمري، وعلم بتاريخ حدوثه. وعندما اعتقل من قبل السكان المحليين على جزيرة "كاريبي"، استغل علمه لإجبارهم على إطلاق سراحه، حيث صرح بأنه سيجعل القمر يختفي. السكان الأصليون الخائفون تركوه يذهب فوراً. وهكذا فإن فقر العلم يولد الخوف!! والخوف يولد الإخضاع والرضوخ، والطاعة، وفي النهاية... الاستعباد.

- يبدو أن الشيطان يقوم بعمله على أتم وجه: فهو يغوي بتحريف الأديان، ثم يعود فيكشف تلك الأكاذيب التي ساهم شخصياً في دسها، وبعد ذلك يمزج الحقائق المتكشفة مع تلفيقات أخرى، وبالنتيجة ينهر المخدوعون مثلك بانكشاف الأوهام، ويتأثرون بالحقائق، فيصدقون معها الأكاذيب والأوهام الجديدة أيضاً.

فأجابت سفيتا بحنق:

- هذه ليست أكاذيب ولا أوهاماً. فكونك لا تعلم حقيقة شيء ما، لا يعني أنه غير موجود أصلاً. والحشرة التي تعيش فقط شهرين أو ثلاثة خلال فصل الصيف لن تعرف الشتاء أبداً، لكن الشتاء يأتي على أي حال.

- ألا تدركين ضعف الشيطان الذي يلجأ إلى مثل هذه الحيل الساذجة للسيطرة على عقول الناس؟ وأنت نفسك زعمت أنه الإله الخالق، ولكن يفهم من شرحك لذلك أنه مجرد إله بين آلهة أخرى تفوقه قوة وتأثيراً. فلو كان قوياً فعلاً، ناهيك عن إله، لاستطاع على الأقل تحسين صورته لدى البشر الذين يدعي خلقهم. فهم يلعنونه في أغلب دياناتهم وحضاراتهم، وهذا أكبر دليل على دنو منزلته وهوانه وضعفه.

- كلا، فلو دقت في كثير من تلك الديانات والحضارات، لوجدت أن أغلبهم في واقع الأمر يسيرون وفق مخططه دون أن يدروا. ففي كل طائفة منهم توجد فكرة المخلص المنتظر الذي يعدون العدة لقدمه، ولا يهم أي اسم يطلقونه عليه، سواء "المسيح" أم "المائترياً" أم "بوذا" أم حتى "المهدي"، فالأمر في نهاية المطاف سيصب في مصلحة الشيطان. ولو تأملت مثلاً في عملة أكبر دولة في العالم، لوجدت رموزاً شيطانية واضحة قد نقشت عليها. وأساطين المسيحية في الولايات المتحدة كالقس "بات روبرتسون" لا ينكرون أن صاحب تلك الرموز على دولارهم هو "آدم وايزهاوبت" مؤسس المنظمة الشيطانية المسماة بـ "النورانيين"<sup>(١)</sup>؛ أي إن من يعدون العدة لقدمه

(١) إن الهرم في الماء هو عرش الشيطان (جاء في صحيح مسلم أن الرسول ﷺ سأل ابن صياد فقال له: ماذا ترى؟ قال ابن صياد: أرى عرشاً على الماء أو قال البحر حوله حيات. قال النبي ﷺ ذاك عرش إبليس.)، والعين الواحدة في قمته التي ترسل الإشعاعات في كل اتجاه هي عين الأعور الدجال كما هو معروف بالأحاديث، والرقم ١٣ الذي يرمز لقبائل بني إسرائيل الاثني عشر وقبيلة الخزر (يهود أوروبا الشرقية)، أو قبائل إسرائيل الثلاث عشرة إذا اعتبرنا أن قبيلة السبط يوسف عليه السلام قد تفرعت إلى قبيلة منسي وقبيلة أفرام اللتين باركهما يعقوب في التوراة كسبطين ١١+١+١٣=١٣. وهذا الرقم تكرر في (الختم العظيم) للولايات المتحدة كثيراً: فعدد النجوم التي فوق النسر والتي تشكل نجمة (درع) داوود يساوي ١٣. وعدد الخطوط الحمراء والبيضاء في الدرع يساوي ١٣. وعدد أوراق غصن الزيتون الذي يحمله النسر في قدمه اليمنى يساوي ١٣. وعدد ثمار الزيتون على الغصن ذاته يساوي ١٣. وعدد الأسهم التي يحملها النسر في قدمه اليسرى يساوي ١٣. وعدد أحرف Annuet Coeptis يساوي ١٣. وعدد أحرف E Pluribus Unum يساوي ١٣. وعدد طبقات الهرم الذي به العين يساوي ١٣، كذلك عدد الأرقام المستطيلة فوق ذيل النسر، المظلة وغير المظلة. وعبارة ANNUIT COEPTIS تعني باللاتينية مهمتنا (مؤامرتنا) تكملت بالنجاح، كما تعني الملك الأوحده، والرقم MDCCLXXVI هو اختصارات الأرقام باللاتينية ومجموعها ١٧٧٦ يقولون أنه تاريخ إنشاء الولايات المتحدة ولكنه تاريخ إنشاء المنظمة التوراتية، وعبارة NOVUS ORDO SECLORUM تعني النظام العالمي الجديد، أما العبارة الأخيرة في قاعدة النسر The Great Seal فهي بالإنجليزية تعني الخاتم العظيم (للملك الأوحده)، وجدير بالذكر أن إعداد ذلك الختم استغرق من القائمين عليه ٦ أشهر كاملة قبل الإعلان عنه بشكل رسمي!!! وقد كتب "بيار هيبس" كتاباً بعنوان: "في سبيل ديكتاتورية يهودية" قال فيه: "إن الدولار الأمريكي هو عملة صهيونية خالصة، فلا غرو أن يضع ملك الصهيونية خاتمه على عملته التي حكم العالم بها، وبشر من خلالها بنظامه العالمي الجديد" وكذلك عبارة "نحن نثق (نؤمن) بالإله".

عن طريق نظامهم العالمي الجديد هو المسيح الدجال حليف الشيطان، وليس مصلوبهم المزعوم. ولا تنس أن العهد الجديد من الكتاب المقدس يصف الشيطان بأنه هو "ذَاكَ الَّذِي لَهُ سُلْطَانُ الْمَوْتِ" (عبرانيين ٢: ١٤) ويعدد أسماءه بكرم منقطع النظير، مثل "إبليس" و"بعلزبول" و"لوسفير" و"زهرة الصبح" وملاك النور"، وغيرها من الأسماء التي بلغت ٢١ اسماً، وهي تتكرر في العهد الجديد بإسهاب، رغم خلوه من اسم واحد يختص بالههم المعلن<sup>(١)</sup>.

- إن ما تقولينه خطير جداً.

قال أبراهام محذراً، إلا أن سفيتا هزت أكتافها بلا إكترات وأجابت قائلة:

- أعرف. ولكنه في الوقت نفسه صحيح جداً. وحتى العهد القديم يصف الشيطان قائلاً: "أَنْتَ كَامِلٌ فِي طَرِيقِكَ مِنْ يَوْمِ خُلِقْتَ حَتَّى وَجَدَ فِيكَ إِثْمٌ" (حزقيال ٢٨: ١٥). ويستطرد حزقيال (١٧: ٢٨) في قوله: "قَدْ ارْتَفَعَ قَلْبُكَ لِبَهْجَتِكَ. أَفْسَدْتَ حِكْمَتَكَ لِأَجْلِ بَهَائِكَ". وها هو ذا إشعياء يوضح حب الذات الذي أسقط إبليس من مكانته السامية المرموقة، وفق ما يعتقد، بقوله: "وَأَنْتَ قُلْتَ فِي قَلْبِكَ أَصْعَدُ إِلَى السَّمَوَاتِ. أَرْفَعُ كُرْسِيِّ فَوْقَ كَوَاكِبِ اللَّهِ وَأَجْلِسُ عَلَى جَبَلِ الاجْتِمَاعِ فِي أَقْصَى الشَّمَالِ. أَصْعَدُ فَوْقَ مُرْتَفَعَاتِ السَّحَابِ. أَصِيرُ مِثْلَ الْعَلِيِّ" (إشعياء ١٤: ١٣، ١٤).

- إن العهد القديم يظهر بوضوح أن الشيطان خسر كل ذلك بعصيانه للرب.

- إن الأمر ليس بهذا الوضوح كما تدّعي، فمن الأسماء التي يطلقها العهد الجديد على الشيطان: "إله هذا الدهر" و"رئيس سلطان الهواء" و"رئيس هذا العالم" كما أن من أهم أسرار المسيحية سر يدعى "سر الإثم" وهو كما يقولون: "تحول أجمل وأبهى وأكمل كائن نوراني من ملاك النور لوسيفر الكروب المظلل إلى إبليس أي الشيطان أو

(١) لمزيد من التفصيل راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

الحية القديمة أو التتين<sup>(١)</sup>.

- من أين جئت بسر الإثم؟ فوق علمي لم يرد ذكر هذا السر ضمن الأسرار السبعة للكنيسة المسيحية!!!

- إن أول من حدد الأسرار الكنسية بالرقم ٧ هو الكنيسة الكاثوليكية بواسطة أسقف باريس "بطرس لمبارد" مع غيره، وقتنها بعد ذلك مجمع فلورنسا ١٤٣٩م، وقد أخذت الكنيسة البيزنطية هذا التقليد عن الكاثوليك، ثم دخل هذا التقليد إلى باقي الكنائس<sup>(٢)</sup>. ولكن هناك الكثير من الأسرار الأخرى التي تعترف بها الكنيسة ضمناً مثل: "سر التقوى" الذي يعظمه المسيحيون ويرددونه ليل نهار دون كلال أو ملل: "عظيم

(١) الحديث عن سر الإثم منقول حرفياً من الموقع السبتي "خلاصك". ويعلقون على ذلك السر قائلين: "فكيف يوجد الإثم في مخلوق نوراني كامل؟! ومن أين تأتبه الكبرياء ويرتفع قلبه وهو مشرف على المجد الأسنى مهوراً بجمال قداسة الله وبرّه وعظمته! إنه لغز محير تماماً... ومما يزيد من صعوبة مجاباتها مع هذه الخليقة المتميزة أنّ إبليس طاعن في العمر والخبرة إلى جانب التميز الفطري الذي جُبل عليه. كلّ ذلك يضاعف من ضراوة الحرب الروحية، وبمقدار الذكاء والدهاء والعداء والحنكة التي له، يزداد النضال والمعاناة والمجابهة صعوبة. وخاصة أنه يجيد الخداع والمراوغة وخطط المعتقدات والضلالات".

(٢) ورد هذا في كتاب "الأفخارستيا والقداس" للقمص "متى المسكين"، ص ٢٣، ولكن العبارة الأخيرة من الاقتباس كانت: "ثم دخل هذا التقليد إلى الكنيسة القبطية". ويتابع قائلاً: "وأول ذكر لها هو ما ورد في المخطوطة المعروفة باسم "نزهة النفوس" وهي لكاهن مجهول، وأقدم مخطوطة لها معروفة لدينا هي الموجودة بدير أنبا مقار لاهوت ٢٤ برمهات / مارس ١٥٦٤ م. ويظن أنّ مؤلف كتاب نزهة النفوس ليس أرثوذكسياً لأنه يورد أقوالاً ليوحنا الدمشقي. وعلى أي حال لم نجد ذكراً لتحديد أسرار الكنيسة بالعدد ٧ في مخطوطة العالم "القس شمس الرياس الملقب بابن كبر" (في القرن الثالث عشر) المعروفة بـ "مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة"، وهو أهم وأدق من كتب في الأسرار في القرون الأخيرة. ثم يوضح أنه توجد أسرار أخرى كثيرة غير محسوبة ضمن الأسرار السبعة مثل: "سر حلول الروح في تكريس الرهبان، وفي تكريس الكنائس، وفي تكريس الماء، وفي الصلاة على الموتى". وهنا يتبادر سؤال إلى الذهن: فإذا كان الأمر كذلك فعلاً، وإذا كانت كل تلك الأسرار ليست من زمن المسيح، وإنما مسلمة للكنيسة من قبل الآباء من بعده، ودون تحديد عددها، وإذا كانت الطوائف البروتستانتية تنكر أكثرها، فبأي حق تعتبر مقدسة؟! وعلى أي أساس تقرر اعتماد بعضها بشكل جلي، وبعضها الآخر بشكل ضمني، وإخفاء الباقي!!!



هو سرّ التقوى. الله ظهر في الجسد" (اتيموثاوس ٣: ١٦)، و"سرّ الإنجيل": "لأعلم جهاراً بسرّ الإنجيل" (أفسس ٦: ١٩)، و"سرّ اتحاد المسيح بالأمميين": "إنه بإعلان عرّفني بالسرّ.. أن الأمم شركاء في الميراث والجسد ونوال موعده (الروح القدس) في المسيح بالإنجيل" (أفسس ٣: ٦-٦)، و"سرّ مشيئة الله": "إذ عرّفنا بسرّ مشيئته حسب مسرّته التي قصدتها في نفسه لتدبير ملء الأزمنة ليجمع كل شيء في المسيح ما في السموات وما على الأرض" (أفسس ١: ٩، ١٠)، و"سرّ الإيمان": "ولهم سرّ الإيمان بضمير طاهر" (اتيموثاوس ٣: ٩)، و"سرّ اقتران المسيح بالكنيسة": "من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً، هذا السرّ عظيم ولكنني أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة" (أفسس ٥: ٣١، ٣٢)، و"سرّ رجاء المجد في المؤمنين": "السرّ المكتوم منذ الدهور ومنذ الأجيال ولكنه الآن قد أظهر لقدسيه، الذين أراد الله أن يعرفهم ما هو غنى مجد هذا السرّ في الأمم الذي هو المسيح فيكم رجاء المجد" (كولوسي ١: ٢٦، ٢٧).

- هل ستستمرين في العد طويلاً؟

فابتسمت سفيثا قائلة:

- معك حق فالموضوع ممل فعلاً، مع أنني لم أتطرق إلى "أسرار ملكوت السموات" أو "سر الكواكب السبعة"<sup>(١)</sup>، أو إلى كثير غيرها من الأسرار السخيفة وغير المفهومة. أما سر الإثم فهو مفهوم تماماً ومسؤول عنه "أجمل وأبهي وأكمل كائن نوراني" باعتراف المسيحية نفسها.

(١) جاء في نهاية العهد الجديد ما نصه: "أما سر الكواكب السبعة التي تراها على يميني ومنابر الذهب السبع، فهو أن الكواكب السبعة هي ملائكة الكنائس السبع، والمناظر السبع هي الكنائس السبع" رؤيا يوحنا ١: ٢٠. وهم يقولون أن الروح القدس قد اختارها في كل أدوارها التاريخية (سبع مراحل) التي تحتازها وهي متغربة في الأرض قبل أن يأتي الرب لاختطاف المستعدين الساهرين الشاهدين الذين يحفظون وصايا الله وعندهم شهادة يسوع وإيمان يسوع!

- حتى وإن سلمنا بكرامة أصل الشيطان وكماله السابق، وقدرته على دس معلومات معينة بالكتب المقدسة، فالعبرة في النهاية. وواقع الأمر حالياً أنه أخط وأهون مخلوق على الأرض وأكثرهم مدعاة للسب واللعن. أليس كذلك؟

- وأوافقك في أن العبرة في النهاية فعلاً يا صديقي، ولكن هذه النهاية لم تحن بعد. صحيح أن الشيطان قد خسر معركة، ولكن ليس الحرب. فإبليس قوي وذكي، وجبار بشكل لا يصدق. كم أشعر بالأسى لأنه قذف وشوهت سمعته على مر القرون، مع أنه يمثل التحرر من الاستبداد! ومع أنه الأكثر براعة وقوة بين الآلهة. يكفي أن يُرمز إليه بحامل الماء لبرج الدلو، البرج الحادي عشر في دائرة البروج الاثني عشر<sup>(١)</sup>، والدلو كما تعرف هو رمز البشرية والتكنولوجيا، والعبقرية، ورمز العصر القادم حيث سينتصر فيه لا محالة بعد انقضاء عصر المسيح السمكة<sup>(٢)</sup>.

- ماذا تقصدين بالمسيح السمكة؟!

- ألا تعرف أن السمك موجود بوفرة في كتاب العهد الجديد، مثل إطعام المسيح لـ ٥٠٠٠ شخص بـ "سمكتين" وخبزة<sup>(٣)</sup>. وعندما بدأ كهنوته بالمشي حول بحر الجليل،

(١) عبدة الشيطان يزعمون أن العدد ١١ هو من أهم الأعداد.

(٢) قام المنجمون منذ القدم بتسمية كل ٢١٥٠ سنة بـ "عصر"، فمن ٤٣٠٠ ق.م حتى ٢١٥٠ ق.م، كان "عصر الثور/Taurus"، ومن ٢١٥٠ ق.م حتى ١٠٠٠ ق.م كان "عصر الحمل/Aries"، ومن ١٠٠٠ ق.م حتى ٢١٥٠ ق.م، كان "عصر الحوت (السمكة)/Pisces" وهو العصر الذي لا تزال نعيش فيه اليوم. وفي ٢١٥٠ تقريباً، سوف ندخل العصر الجديد "عصر الدلو/Aquarius".

(٣) من ضمن ما جاء في تفسير ابن كثير للآية ١١٢ من سورة المائدة ما نصه: " لما سأل الحواريون عيسى بن مريم المائدة كره ذلك جداً، فقال: اقتنوا بما رزقكم الله في الأرض ولا تسألوا المائدة من السماء فإنها إن نزلت عليكم كانت آية من ربكم، وإنما هلكت ثمود حين سألوها نبيهم آية فابتلوا بها حتى كان بوراهم فيها. فأبوا إلا أن يأتيهم بها، فلذلك قالوا: " نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ". فلما رأى ذلك دعا الله فقال: اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء، فأنزل الله عليهم سفرة حمراء بين غمامتين؛ غمامة فوقها وغمامة تحتها وهم ينظرون إليها في الهواء منفضة من فلك السماء تهوي إليهم عيسى يبكي خوفاً من أجل الشروط التي أخذها الله عليهم فيها أنه يعذب من يكفر بها منهم بعد نزولها عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين. . . حتى استقرت السفرة بين يدي عيسى والحواريين، وأصحابه حوله يجدون رائحة طيبة =

صديق صيادي سمك، وهم أول من اتبعوه. ولا بد أنك لاحظت سمكة المسيح التي تزين مؤخرة السيارات.

=لم يجدوا فيما مضى رائحة مثلها قط، وخر عيسى والحواريون لله سجداً شكراً له لما رزقهم من حيث لم يحتسبوا وأراهم فيه آية عظيمة ذات عجب وعبرة، وأقبلت اليهود ينظرون فرأوا أمراً عجيباً أورثهم كمدأً وغماً ثم انصرفوا بغیظ شديد . . . فإذا هو عليها بسمكة ضخمة مشوية ليس عليها بواسير وليس في جوفها شوك، يسيل السمن منها سيلاً، قد تحدق بها بقول من كل صنف . . . فلما فعل ذلك ارتاب بها الأغنياء من الناس وغمطوا ذلك حتى شكوا فيها في أنفسهم وشككوا فيها الناس وأذاعوا في أمرها القبيح والمنكر، وأدرك الشيطان منهم حاجته وقذف وسواسه في قلوب الربانيين حتى قالوا لعيسى: أخبرنا عن المائدة ونزولها من السماء أتحق؟ فإنه قد ارتاب بها منا بشر كثير؟ فقال عيسى عليه السلام: هلكنم وإله المسيح، طلبتم المائدة إلى نبيكم أن يطلبها لكم إلى ربكم فلما أن فعل وأنزلها عليكم رحمة ورزقاً، وأراكم فيها الآيات والعبر، كذبتم بها وشككنتم فيها؟ فأبشروا بالعذاب فإنه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله . فأوحى الله إلى عيسى: إني أخذ المكذبين بشرطي فإني معذب منهم من كفر بالمائدة بعد نزولها عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين . قال: فلما أمسى المرتابون بها وأخذوا مضاجعهم في أحسن صورة مع نساءهم آمنين، فلما كان في آخر الليل مسخهم الله خنازير فأصبحوا يتبعون الأقدار في الكناسات . هذا أثر غريب جداً قطعه ابن أبي حاتم في مواضع من هذه القصة، وقد جمعته أنا ليكون سيقاه أتم وأكمل والله سبحانه وتعالى أعلم .

## ◀ خلفيات ضحية

سرح أبراهام فيها مفكراً بما سمعه، فلم يمر عليه بحياته كلها مثل هذا الخلط الذي يهجن بين الحقائق والأوهام بهذا الأسلوب من الإثارة والتشويق، وهو ما زاد من إشفاقه على تلك الفتاة الصغيرة المغرر بها. ثم سألها قائلاً:

- حتى وإن سلمنا جدلاً بأن العصر القادم هو عصر الشيطان، فما الذي يستطيع أن يقدمه لك، وهو العاجز عن مساعدة نفسه كل تلك العصور الماضية!!!  
- عندما نصبح قرييين من إبليس، وتحت حمايته، فإنه يمنحنا جاناً صالحين للعمل معنا، ويقدمون إلينا الكثير من الاهتمام والحماية الفردية. وحالما نؤسس معهم علاقة قوية وموثقة، يمنحوننا رموزاً خيميائية ذات علاقة بانفتاح الروح.

- كيف يتصل الجن بكم؟

- كثيرون منا كانت لهم تجارب مختلفة، فكما أننا جميعنا متفردون، فتجاربنا لا بد أن تتنوع، وما قد يختبره فرد ما، قد لا يختبره الآخر.  
- وما الذي اختبرته أنت شخصياً؟

أرجعت سفيتا رأسها إلى الوراء مغمضة عينيها، وقالت بنشوة:

- مصادفات غريبة ومتكررة، عادة ذات طابع إيجابي، أصوات تقدم إلي نصيحة، أو تبلغني بأمر لا أعرفه، أو أمر ما سوف يحدث، وأحلام حية<sup>(١)</sup>، خاصة إذا كنت قد

(١) تسميتهم لأحلام اليقظة، وحلم اليقظة هو استغراق في التأمل الحالم تشبع فيه، عادة بعض الرغبات المكبوتة أو اللاواعية غير المتحققة في تجربة الحالم اليومية. وأحلام اليقظة ترى في مرحلة من الطفولة المبكرة، بدءاً من سن الثالثة، ثم يتواتر حدوثها على نحو متزايد حتى يشارف المرء سن المراهقة، وعندئذ ينبغي أن تأخذ في التناقص شيئاً فشيئاً. واستمرارها عند شخص ما يُعد ضرباً من الهروب من واقع الحياة اليومية ومطالبها. والموضوع الرئيسي الذي تدور عليه أحلام اليقظة لدى المراهقة المبكرة هو في الأغلب، كفاح البطل التأمّل الذي يسيء أبواه أو معلموه أو رفاقه معاملته ثم ينتصر عليهم بطريقة=

عكفت على دراسة الكثير عن الجان. وفي حال كنت أقوم بعمل ما، له تأثير مضر على حياتي في نهاية المطاف، فأبي إبليس يشعرني بذلك بشكل واضح.

- كيف؟

- تخاطرياً. فهو أو الجان الذين تحت سيطرته يتحدثون من خلال أفكارى بالتخاطر<sup>(١)</sup>، وأحياناً يتراءى لي جنى، ولكن ذلك يتطلب الكثير من التدريبات واختيار يوم معين للتدريب وآخر للممارسة، حتى أدخل في "حالة الغشية" (Trance state) المطلوبة قبل القيام بما يتبقى من الأنشطة الروحانية.

- كيف يتراءى لك؟

- من خلال "السكرارينغ" بالمرأة السوداء، أو من خلال "دخان البخور".

ثم تنهدت بزهو قائلة:

- إن كل ما يسمى بـ"ما فوق الطبيعة" هو جزء من حياتي اليومية.

- وهل يستحق هذا أن تحترقي بسببه في جهنم؟!

امتعض وجه سفيتا، وقالت بجدة:

---

=أو بأخرى، ومع التقدم في سن المراهقة تدور أحلام اليقظة، أكثر ما تدور، على محاور الحب والجنس. ولا ريب في أن أحلام اليقظة قد تمهد السبيل لتكوين أنماط من السلوك قد تفضي إلى تحقيق تلك الأحلام على أرض الواقع فعلاً.

(١) التخاطر هو ظاهرة روحية يتم من خلالها التواصل بين الأذهان أو كما يعرفه قاموس أكسفورد "عمل ذهن شخص على ذهن آخر عن بعد من خلال تأثير عاطفي بدون الاتصال بالحواس". وهذا التواصل يشمل الأفكار والأحاسيس والمشاعر وأيضاً التخيلات الذهنية. ولتقريب الموضوع نضرب مثال نقل الملفات والبيانات بتقنية البلوتوث bluetooth من جهاز الى جهاز آخر عن طريق الموجات وبدون أسلاك. التخاطر إذن استقبال للطاقة الصادرة من قوة ما وتحليلها في عقل المستقبل، أو إرسال خواطر من عقل شخص قادر على ذلك وإدخالها في عقول الآخرين من غير طريق الحواس الخمس. والواقع أن التخاطر ضرب من أشكال "الإدراك وراء الحسي" ومن العلماء من ينكر أن يكون ثمة شيء اسمه التخاطر. ومنهم فريق يقول إن التخاطر ربما كان ممكناً غير أن أحداً لم يثبت ذلك علمياً بشكل قاطع حتى الآن.

- أولاً: لا تخوفني كمسيحية ساذجة، فمنذ مدة طويلة لم أعد لا مسيحية ولا حتى ساذجة، والأهم من ذلك أنني لم أعد أخاف.

ثانياً: الجحيم ليس ببخيرة من نار، وليس بداخل الأرض، كما يدعي المسيحيون الحمقى بهدف تخويف الأفراد، فإن مفهوم الجحيم المسيحي سخيف جداً. البعض منا، المقربون لإبليس تحديداً، رأوا الجحيم.

- حقاً! وكيف وجدوه؟

- بعض الأماكن هناك مظلمة ومنيرة بضوء أزرق خافت، الذي هو أحد ألوان زهرة بنت الصبح. والجان غالباً ما يظهرون مع ضوء أزرق؛ فالأزرق لون روحاني جداً. وفي أماكن أخرى هنالك ضوء نهار، والكاهنة العليا "ماكسين ديترش" قد أخبرتنا عبر الإنترنت، أنها رأت في الجحيم أفراداً جالسين حول طاولة في أحد البارات يلعبون الورق، والغرفة كانت مليئة بالدخان، وهؤلاء الأفراد، كانوا متوفين مسبقاً، لذا كانوا على هيئة أرواح. وقد أخبرها بعضهم أنهم يزورون الأرض لمساعدة البشر التابعين لطريق "اليد اليسرى"، وهناك يبقى الشيطان قومه إلى أن يتمصوا ويتجسدوا من جديد ليتطوروا إلى الألوهية.

فهز أبراهام رأسه بأسف قائلاً:

- إنك مريضة نفسياً وتعانين من انحطاط روحي.

- هه، إن الإساءة في المعاملة مع الأطفال والحيوان، والتدمير الطائش وعدم الاكتراث بالبيئة والأرض وغيرها من كائنات حية أخرى، هي الانحطاط الروحي حقاً، وقد حدث هذا بسبب قطع البشرية عن إلهها الخالق الحقيقي إبليس. ولكن ذلك لم يعد يعني فغداً سأذهب إليه.

- كيف ستم التضحية؟

- سيستحضرون الشيطان في غرفة مظلمة، مرسومة على جدرانها رموز شيطانية وفيها مذبح مغطى بالأسود، وتوضع على المذبح كأس مليئة بالعظام البشرية، والخنجر المعد للذبح، ونجمة الشيطان ذات الأجنحة الخمسة، ثم تبدأ الطقوس بالرقص حيث يخلع الجميع ملابسهم، وأكون أنا في الوسط تماماً، ويمارس الجميع الجنس معي في جو من السعادة والنشوة، وهم يحسدونني لأنني سأنال شرف ممارسة الجنس مع الشيطان نفسه في ظلمات الأرض بعد ذبحي مباشرة، فيما يشربون دمي ويأكلون لحمي.

فنظر إليها مشفقاً وقال بأسى:

- وما الذي يجعل فتاة مثلك تعتنق ديانة بهذه الدموية والوحشية؟!؟

رفعت سفيتا حاجبيها وهي تهز رأسها بأسى ثم قالت موضحة:

- بخلاف الادعاءات الهستيرية المسيحية، فليست الديانة الإليسية وحدها التي تؤمن بالقربابين البشرية: فجميع أنواع التضحيات الدموية والقتل يمكن رؤيتها في الكتاب المقدس بوضوح: مجازر وسفك دماء غير منته. كلمة "الدم" مكررة مراراً وتكراراً هناك. ولا تنس أن المصلوب هو القربان المكرر بشكل لانهائي، فعبارة: "كلوا جسده واشربوا دماءه" ستظل تكرر بشكل لانهائي في كل قُداَس مسيحي حول العالم. إبليس يختلف عن ذلك الرب الوهمي يسوع: لأنه دائماً يساعد تابعيه وقومه عندما يواجهون مشكلة ما، أو يكونون بجاجته، سواء كان الأمر يتعلق بقسوة حياة اليوم أو حتى في المدرسة. أما من يسمونه بالرب يسوع، فلديه سجل طويل فيما يتعلق بالتخلي عن تابعيه وقومهم في أوقات الحاجة: هذا لأنه ليس أكثر من مجرد تشكيل فكري مزيف، وأساطير تابعيه تتحدث عن كيفية ميته الشنيعة والبشعة كمصلوب.

- ألسنت صغيرة على تلك الأمور؟ أين والداك عنك؟

فردت سفيتا بعصبية مبالغ فيها:

- معظم البالغين يحاولون أن يجعلوا الصغار يعتقدون بأنهم أفضل منهم ومثاليون أكثر. هذه كذبة. قد يكون مستوى علمهم أكثر منك، لكنهم مازالوا يقومون بأخطاء كبيرة، وهناك الكثير مما لا يعرفونه. ولكن ما دمت تحت السن القانوني فأنت لست حراً، ولا تمتلك الحقوق التي يمتلكها البالغون. وأياً كان ذلك البالغ، سواء والداك، أم مدرسوكم أم حتى قريب لك، فإنه يجعل نفسه وصياً عليك، فقط لأنك صغير وليس لديك العلم الكافي والخبرة من الحياة، ويفسر ذلك بضرورة حمايتك. مم؟ لا أدري. مع أنهم هم في الغالب من يقومون بإيذائك والإساءة إليك.

- كم عمرك؟

- كم تظن؟

- لا أدري.

- خمسة وعشرون سنة.

كان يمكن تصديق ذلك بكل سهولة بالنظر إلى جسمها وطولها، ولكن العبارات التي تفوهت بها قبل قليل عن المدرسة والسن القانوني والبالغين، جعلت أبراهام يشك بإجابتها، فنظر إليها بتمعنٍ، ثم قال مؤنباً، كأنه يعرف عمرها الحقيقي:

- سفيتا!!!

- حسناً، من المفترض أن يكون عيد ميلادي الثامن عشر بعد ثلاثة أيام. ولكن هذا

لا يعني شيئاً.

- أنت لا تزالين في السابعة عشرة؟!!! يا للهول.

صرخ أبراهام مندهشاً، فتهدت سفيتا بضيق قائلة:

- بل في الثامنة عشرة، فتلاثة أيام لا تعني شيئاً.

- ولكنك بما تتوین فعله لن تبلغی تلك الأيام الثلاثة أبداً.



## بعبداً عن الوحي

ثم وضع رأسه بين كلتا يديه وهو يفكر بكيفية إنقاذ تلك الصغيرة المخدوعة، والتي تردد كالبيغاء ما لا تعي. وبعد برهة طويلة سألها دون أن يغير وضعيته، كأنه لم يعد يقوى على رفع رأسه:

- هل لديك الكثير من المشاكل مع والديك أو مدرسيك؟ أو حتى مع أحد أقاربك؟
- ليس بشكل جدي؛ فأنا مستقلة عنهم تقريباً.
- ماذا يعني ذلك؟ ألا تعيشين مع والديك؟
- أعيش مع أمي. أما أبي، فتادراً ما أراه.
- أيعمل ببلد آخر، أم أنه منفصل عن أمك؟
- لا هذا ولا ذلك، ولكنه رئيس رهبان كبير في دير، ولديه مسؤوليات كبيرة.
- ولكن الرهبان غير مسموح لهم بالزواج، فضلاً عن الإنجاب.
- أنت لا تعرف أولئك المنافقين، فهم يتبجحون بالفضيلة والعفاف والامتناع عن الزواج، مع أنهم أفسق أهل الأرض.
- هل تزوج أمك قبل أن يترهبين؟
- تزوج أمي، هه. إنها عشيقته.
- وكيف تعرّف بها؟
- لقد كان في السابق كاهن اعترافاتها، ثم تطورت العلاقة بينهما إلى حب.
- ثم أردفت ضاحكة:
- من سخرية القدر أنه ارتكب معها نفس الخطيئة التي لجأت إليه ليظهرها منها.
- ألهذا السبب تكرهين رجال الدين المسيحيين؟
- أزاحت رأسها بعبداً عنه وقالت بشرود:
- هذا أحد أهم الأسباب.
- وماذا عن أمك؟

- إنها بلهاء، تبذل كل ما في وسعها لإسعاد ذلك الرجل الجشع، وتحتمل معاناة التستر عليه أمام الجميع في مقابل أن يزورها مرة بالشهر، ليعود بعد ذلك إلى الدير ويواصل ادعاءه للطهارة والعفة بمنتهى النفاق.
- تلك التي تسمينها "بلهاء" هي أمك، وذلك "الجشع" هو أبوك، فلا تنسي ذلك.
- عن أي أب وأي أم تتكلم؟! هما لم يلاحظا حتى أنني انقطعت عن المدرسة لهذا العام، مع أنه العام الأخير قبل التخرج.
- ماذا عن أقاربك؟
- أقاربي من جهة أبي يجهلون وجودي تماماً، وأنا لا أعرف شيئاً عنهم. أما من جهة أمي فقد سئمت حُقمهم، ونعتهم لي بابنة الحرام، ومجهولة الأب. لذا فلم أعد أختلط بأحد منهم، خاصة بعد أن عرفت هوية والدي، وأخبرتهم عنها فكذبوني.
- مسحت عينيها بعصبية، كأنها تحاول منع الدمع أن يتدفق منهما وقالت بحنق:
- حتى أمي لم تدافع عني وتؤيد كلامي حينها.
- نظر أبراهام إليها مشفقاً، فقالت له بكبرياء:
- لا تنظر إلي هكذا، فأنا لا أحتاج إلى الشفقة، وقد أصبحت حرة على عكس كثيرين ممن قد تسرهم شفقتك المفتعلة هذه.
- ماذا تقصدين بحرة؟
- أقصد أنني أفكر كما أريد، وأتكلم بما أريد، وأعيش حياتي كما أريد، وألهو كما أريد، وأحب كما أريد، آخذ حاجتي من الجنس كما أريد، ومتى وأين ومع من أريد<sup>(١)</sup>، وأفعل ما أريد، وقتما أريد، كيفما أريد. والأهم من هذا كله هو أنني سأموت بالطريقة التي أريد<sup>(٢)</sup>.

(١) في الإصحاح السابع من إنجيلهم الأسود ورد: "ارتبط مع من تحب متشياً بحسب رغبتك، وعاضد الشيطان ولا تنقيد في رغباتك بأحكام البشر والقوانين".

(٢) "قانون كراولي": افعل كما تريد.

ثم أنشدت تغني:

- "لوسيفر، يا لوسيفر، مدد ذيلك، وقدني بعيداً بأقصى سرعة عبر المضيق، من وادي الموت، إلى الضوء المبين، إلى قصر الآلهة"<sup>(١)</sup>.

عندها حسم أبراهام أمره تماماً، مقررأً إبلاغ الشرطة، فقام قائلاً، وهو يجاهد

في رسم ابتسامة هادئة على ثغره:

- سأذهب لإحضار المزيد من الجعة، هل ترغبين بشيء آخر أحضره معي؟

- لا، شكراً.

- لا تغادري مكانك، فأنا لن أتأخر.

- سأنتظرك. فما زال عندي الكثير لأقوله قبل أن أودع هذا العالم الفاني.

مشى أبراهام الهوينى حتى ابتعد عنها بشكل كاف ليختفي عن أنظارها، ثم أطلق

ساقيه للريح باتجاه مخفر النيفسكي، حيث أخبرهم بأمرها وظروفها. وفعلاً تم

حجزها تمهيداً لإرسالها إلى مركز لإعادة التأهيل في أحد مستشفيات الأمراض

النفسية كما عرف لاحقاً. ولكن صورة سفيّتا وقت القبض عليها ظلت عالقة في

مخيلته لا يستطيع نسيانها أبداً، فقد كانت تنظر إليه ساهمة دون أن ترفع عينيها عنه

للحظة واحدة، فيما كانت مستسلمة لرجلي الأمن اللذين اقتاداها إلى سيارة الشرطة.

وعندما مروا بمحاذاته تمتت بعبارة لم يكثرث إليها أحد. ولكنها ظلت ترن برأسه

لفترة طويلة:

- لقد خدعتني، فأنت لست يهودياً كما ادعيت.

(١) إحدى الترانيم الشيطانية .

## ◀ ادعاءات بوذية:

كانت الشمس قد أصبحت في كبد السماء عندما خرج أبراهام من مقهى الإنترنت، فهو لم يستطع الذهاب إلى منزله قبل أن يقرأ كل ما يستطيع جمعه من معلومات عن عبدة الشيطان، وعن دعاويهم التي غررت بتلك الفتاة المسكينة. وفيما كان يتجول مفكراً فيما قرأه، استوقفه شاب أصلع متشح بالصفار<sup>(١)</sup> ليعطيه كتاباً صغيراً وهو يقول:

- ستجد في هذا الكتيب بعض الأجوبة عن الأسئلة التي تدور في رأسك.

- ما هذا؟

- مجموعة مختارة من تعاليم "بودا"<sup>(٢)</sup>.

كان على الغلاف صورة لمعبد بوذي ضخم وجميل، وعلى بوابته تماثلان على شكل أسد. تصفح أبراهام الكتاب بصمت، فوجده مليئاً بعبارات فلسفية، ويصور لمعابد أخرى زينت بتماثيل لبودا وأخرى على شكل تتين. ولو أن هذا الموقف قد حدث معه قبل يومين فقط، لتابع طريقه غير عابئ بذلك الأصلع المتطفل، ولا بأوثانه؛ ولكنه أراد إعطاء نفسه فرصة كاملة للبحث عن الحقيقة بحياد تام خارج إطار التوراة أو التلمود، ولاسيما أن البوذية يدين بها نحو ست مئة مليون شخص، ليس في شرق آسيا فحسب،

(١) زي الكهنة البوذيين. وهو عبارة عن صدرية تحتية وكساء يصل إلى الركبتين ثم يسدل على الكتف اليسرى، وجميعها صفراء تلبس دائماً حتى في الليل، ويحسب فقدها فقد صفة كهنوتية. واللون الأصفر عندهم هو دلالة على إشراقه النفس. ويشترط فيمن يرتدون الثياب الصفراء "أن يطهروا أبدانهم من الباطن، وإلا فإنهم لا يستحقون ارتداء تلك الثياب". وتجدر الإشارة إلى أن اللون قد يختلف تبعاً لاختلاف البلدان والمذاهب؛ فالبوذيون من أتباع مذهب "اللامية" في منغوليا ومناطق التبت يلبسون أردية قرمزية أو بنفسجية.

(٢) هكذا هو لفظ الاسم بالبدال، مع أن المشهور في العربية هو بالذال.

بل تنتشر بين عدد لا بأس به من الأوروبيين والأمريكيين. فسأل الشاب الذي بدا من لهجته وملامحه أنه روسي قح:

- ما الذي دفعك إلى اعتناق هذا الدين؟

- لأن البوذية هي أكثر من مجرد دين، فهي نظام أخلاقي وفكري مبني على نظريات فلسفية هادفة.

- إلام يدعو؟

- إلى المحبة، والتسامح، والمساواة والتعامل بالحسنى، وفعل الخير، والتصدق على الفقراء، وترك الترف، وإلى حمل النفس على التصوف والتقشف، والخشونة، والترفع عن ملذات الجنس والمال، وإلى الصلاة الجماعية ليودا كي يدخلنا الجنة.

- وما الذي ينهى عنه؟

- ألا تقتل ولا تسرق، ولا تكذب، ولا تتناول مسكراً، ولا تزني، ولا تأكل طعاماً نضج في غير أوانه، ولا ترقص ولا حتى تحضر مرقصاً ولا حفل غناء، وألا تتخذ طبيباً، وألا تقتني فراشاً وثيراً، وألا تأخذ ذهباً ولا فضة. كما تنهى البوذية عن نظام الطبقات الذي يعطي امتيازات لطبقة على حساب طبقة أخرى<sup>(١)</sup>. والبوذية لا تنهى عن الرذائل فحسب، بل عن كل ما يقود إليها أيضاً.

- وما الذي يقود إلى الرذائل برأيكم؟

- إن الرذائل ترجع إلى ثلاثة أصول: وهي الاستسلام للملاذ والشهوات، وسوء النية في طلب الأشياء، والغباء، أي عدم إدراك الأمور على وجهها الصحيح. ونحن نحارب كل هذا.

(١) نشأت البوذية بالأساس في إطار الرفض الصارخ للممارسات الهندوسية، وبتعبير آخر جاءت كحركة إصلاح اجتماعي في الهند القديمة، ينطلق من مبادئ روحية وميتافيزيقية وسياسية ترفض نظام الطبقات الذي أعطى امتيازات واضحة للطبقتين الحاكمتين هناك، "البراهمة" و"الكشترية"، وجعل البوذية تعتمد على الفئات الاجتماعية الأقل شأنًا.

- هل هذه الأوامر والنواهي فرائض ملزمة للجميع؟  
 - بشكل نظري يجب على جميع البوذيين الالتزام بالأوامر والنواهي المنتين والخمسين. ولكن واقعياً ينقسم البوذيون إلى قسمين: المدنيون، وهم يقتصرون على التعاليم والوصايا الرئيسية فقط. والرهبان، وهم يأخذون بكل تعاليم بوذا وتوصياته كي تصل النفس إلى الكمال الأسمى، والسعادة القصوى، وانبثاق نور المعرفة، والانعتاق من أسر المادة، واكتساب صفاء الدين والروح. فالتطبيق الكامل يحرر من أسر العبودية واللذة، بما فيه من تعذيب النفس ومقاومة النزعات، بالإضافة إلى بذل الجهد والتأمل والتركيز الفكري والروحي، الذي هو الهدف الأسمى للبوذية.

تبسم أبراهام باستخفاف قائلاً:

- أليس في هذا نظام طبقات<sup>(١)</sup>؟

- كلا، فالناس متساوون في مملكة بوذا الدينية على الأرض، ولكن المجال مفتوح للارتقاء عن طريق المعرفة والسيطرة على الشهوات، والكهنة بذلك لا يحصلون على أية سلطة مادية<sup>(٢)</sup>.

- كيف يستطيع الإنسان أن ينتصر على نفسه وشهواته؟

- بثمانية أمور:

(١) هذا هو الحاصل حالياً، ولكن يعتقد أن البوذية كانت قبل كل هذه التعقيدات مضادة فعلاً لحرفة الكهنة وللاحتفالات والميثولوجيا والفلسفة. وكانت سهلة المراس تدعو جميع الناس إلى الدخول فيها بتساو تام، دون أي تمييز بينهم باعتبار حالتهم ومركزهم، مسهلة للجميع طريق الخلاص ومعلنة بأنه يمكن نوالها بطهارة السيرة فحسب.

(٢) هذا هو المعلن، ولكنه مناف للواقع. ويكفي أن ننظر إلى كهنة التبت، وزعيمهم الحالي "الدالاي لاما" الذي تقلد السلطة على التبت وهو لا يزال طفلاً صغيراً، تلك السلطة التي مكنته من تحدي جمهورية الصين الشعبية حتى يومنا هذا، رغم جبروت نظامها الشيوعي الماوتستونجي. والزعيم التيبتي وحكومته يعيشون حالياً في المنفى في منطقة "دارمسلا" في الهمالايا الهندية.

- ١- الاتجاه الصحيح المستقيم الخالي من سلطان الشهوة واللذة، وذلك عند الإقدام على أي عمل.
- ٢- التفكير الصحيح المستقيم الذي لا يتأثر بالأهواء.
- ٣- الاعتقاد المستقيم (الأرثوذكسي باليونانية) الذي يصاحبه ارتياح واطمئنان إلى ما يقوم به.
- ٤- الإشراق الصحيح المستقيم.
- ٥- مطابقة اللسان لما في القلب.
- ٦- مطابقة السلوك للقلب واللسان.
- ٧- الحياة الصحيحة التي يكون قوامها هجر الملذات.
- ٨- الجهد الصحيح المتجه نحو استقامة الحياة على العلم والحق.
- أنشأت البوذية في الصين أم في اليابان؟
- فهز الراهب البوذي راسه بالنفي وقال موضحاً:
- الغريب أن الكثيرين يظنون ذلك، ولكنها في الحقيقة نشأت في الهند.
- وكيف انتشرت إذن في كل تلك البلاد الشرق آسيوية؟
- يعود الفضل في ذلك إلى شخص عاش في مرحلة متأخرة على ظهور بوذا بنحو قرنين ونصف هو "أشوكا".
- حدثني عنه.
- سأحدثك عن جده أولاً. وهو الأمير الهندي "شاندار غوتيا"، الذي نهض سنة ٣٢١ ق.م بعد غزو "الإسكندر المقدوني" لبلاد الهند، وسيطرته على معظمها، فجمع حوله قبائل عديدة وتمكن من إجلاء الإغريق عن بلاده، وجعل الهند بأسرها تحت مملكة واحدة خاضعة لسلطانه، واتخذ -رغم أصله السوداني<sup>(١)</sup>- من تصديه لغزو

(١) وهو من أدنى طبقات الشعب (الهندي) القديمة.

المقدونيين للهند وسيلة لسحق قوة البراهمة. وتولى الحكم من بعده ابنه "بندو سارا"، الذي خلفه لاحقاً ابنه "دارماسوكا" أو أشوكا. وقد وسع أشوكا مملكته، ومارس في البداية العنف والتسلط على الآخرين من خلال العمل العسكري، ولكنه ما لبث أن اشمئز من الحرب والقوة، ومال إلى البوذية بعد أن وجد فيها ضالته، فاعتنقها وعمل على نشرها، معلناً أن فتوحه من ذلك الوقت ستكون في سبيل الدين<sup>(١)</sup>.

- ما الدول التي تنتشر البوذية فيها؟

- تنتشر البوذية في الهند ونيبال والصين واليابان وإندونيسيا وماليزيا. بل إنها تشكل دين الأغلبية في بورما، وبوتان، وتايلاند، وتايوان، وسريلانكا، وسنغافورة، وفيتنام، وكمبوديا، وكوريا الشمالية، وكوريا الجنوبية، ولاوس، ومنغوليا. وكما تلاحظ، فإنه مع أن الأمم قد شهدت وتشهد صراعات وحروباً عديدة، فإن مناطق انتشار البوذية تنعم بأكبر قسط من السلام والاستقرار، وقد خففت من العنف والحروب مقارنة بالباقيين. ويرجع ذلك إلى أن خلاصة البوذية هي الابتعاد عن العنف، وتهذيب العقل، واجتناب كل شيء رديء وفعل كل شيء صالح. ولو تتبعنا سنوات النصف الأخير من القرن الماضي إلى الآن لوجدت أن أتباع دين "الله محبة" (المسيحية) الذين يدعون أنهم أكثر أهل الأرض حضارة ووداعة وتسامحاً قد خاضوا ما لا يقل عن خمس حروب كبيرة بعضهم ضد بعض في أوروبا وحدها.

- خمس فقط؟!!

علق أبراهام ساخرا، فتبسم الراهب قائلاً:

- معك حق. فحروب المسيحيين أكثر من أن تعد أو تحصى، ولكنني قصدت الحروب الكبرى فقط كـ "الحرب العالمية الأولى"، "الحرب الإسبانية الأهلية"، "الحرب

(١) لقد أحدث أشوكا نقلة نوعية في البوذية، ولعل هذا الذي دعا لأن يعتبر أشوكا المؤسس الثاني للبوذية، بحيث تحولت مع انتشارها على يديه من فلسفة أخلاقية إلى ديانة وضعية لها معابدها ومفهومها للألوهية، ولها نظامها الطقسي الكهنوتي.



اليونانية الإيطالية"، "الحرب العالمية الثانية"، "الحرب الروسية الفنلندية". هذا غير الحروب التي خاضها المسيحيون بعضهم ضد بعض في أمريكا الجنوبية<sup>(١)</sup>، والحرب بين الولايات المتحدة والمكسيك<sup>(٢)</sup> ولو أنك أردت أن تتخذ القرن التاسع مقياساً تقيس به مقدار ما يكنه أتباع دين "الله محبة" بعضهم لبعض من عداوة لوجدت فيه من الحروب والثورات ما يصعب تتبعه وحصره، وأبرز حروب هذا القرن هي "الحروب النابليونية" التي شملت أوروبا كلها من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب. ولو أنك رجعت إلى ما سبقه من القرون لوجدت أن تاريخ معظم المسيحيين مخضب بالدماء لا أثر للسلم أو التسامح فيه. ومن حروبهم المشهورة "حرب السنين السبع"<sup>(٣)</sup>، و"حرب المئة عام" بين إنجلترا وفرنسا<sup>(٤)</sup>.

- ولكن مع هذا يجب ألا ننساق وراء العواطف، وأن نميز بين المسيحيين والمسيحية.  
- أنا لا أنساق وراء العواطف بل وراء الحقائق: فأكثر حروب المسيحيين دموية ووحشية كانت بمبررات دينية واضحة، كما أن قتل الهنود الحمر في أمريكا والسكان الأصليين بأستراليا واستعباد السود، ومحاكم التفتيش كانت تحت اشراف رسمي مباشر من الكنيسة. فمتى قاومت الكنائس كل هذا؟ متى أنشئت موثيق للحروب وعدم قتل المدنيين؟ حصل ذلك بعد ١١٩٥٠! فهل أصبحت المسيحية فجأة دين محبة في النصف الأخير من القرن العشرين!!!

(١) يقصد الحرب بين البرازيل والأرجنتين ١٨٥١ - ١٨٥٢ م، الحرب بين باراجواي وبوليفيا ١٩٢٢ - ١٩٢٥ م، الحرب بين باراجواي والبرازيل وأرجواي ١٨٦٤ - ١٨٧٠ م، الحرب بين شيلي من جهة وبين بوليفيا وبيرو ١٨٧٩ - ١٨٨٣ م، الحرب بين بيرو وكولومبيا ١٩٣٢ - ١٩٣٤ م، الحرب بين جواتمالا من جهة والسلفادور وهندوراس وكوستاركا من جهة أخرى ١٩٠٦ م، الحرب بين نيكارجوا وهوندوراس ١٩٠٧ م.

(٢) ١٨٤٦ - ١٨٤٨ م.

(٣) امتدت من سنة ١٧٥٦ إلى سنة ١٧٦٣ م.

(٤) ابتدأت سنة ١٣٣٨ م.

- ربما لأن المسلمين تولوا هذه المهمة القذرة؛ فاختصاص خوض الحروب والإرهاب أصبح الآن من نصيب المسلمين الهمجيين.  
قال أبراهام مدافعاً عن المسيحية ضد ما يعتقد أنه أديان وثنية، فأجاب الراهب البوذي مصححاً:

- بل لا يزال هذا الاختصاص حكراً على المسيحيين أساساً يا صديقي، والفرق الوحيد الذي طرأ عليهم بعد عصر التجارة والاستعمار التوسعي، هو أنهم قللوا من التحارب فيما بينهم، وتوجهوا إلى محاربة الآخرين ونهب ثرواتهم، كما فعلوا في فيتنام، وغيرها من الدول، وبالذات دول العالم الإسلامي الذين تتعتهم بالإرهابيين: فالمسيحيون هم من استعمروا أراضيهم وتدخلوا في شؤونهم، ونصبوا فيها أنظمة قمعية تسهل لهم الاستيلاء على خيرات بلادهم. ولا تنسَ أن الدول المسيحية هي المصدر الأول للسلاح وآلات التعذيب في العالم على مر التاريخ.  
فقال أبراهام مُسَلِّماً:

- أتعرف أنك محق في كل ذلك. حسناً، حدثني عن بوذا.  
- إن بوذا هو الحقيقة المنظورة بيننا. إنه الواحد المقدس الكامل. وهو الواحد المبارك، فالحقيقة العليا قد حلت به وصارت إنساناً، وأعلنها لنا هو.

- ما معنى كلمة بوذا؟  
- تعني العالم، ويلقب أيضاً بـ"سكيا موني" ويعني المعتكف. أما اسمه فهو " غوتاما شودهارانا" وقد كان أميراً هندياً، فشب مترفاً منعماً، وتزوج في التاسعة عشرة من عمره، ولما بلغ السادسة والعشرين هجر زوجته منصرفاً إلى الزهد والتقشف والخشونة في المعيشة، والتأمل في الكون ورياضة النفس، وعزم على أن يعمل على تخليص الإنسان من آلامه التي منبعها الشهوات، ثم دعا إلى تبني فلسفته، فتبعه أناس كثيرون.

- وما الحكمة من التقشف؟
- لأن الطبيعة وهمية وخداعة وفارغة، ولأن العدم يوجد في كل مكان وكل زمان، وهو مملوء بالفش. ونفس هذا العدم يزيل كل الحواجز بين أصناف الناس وجنسياتهم وأحوالهم الدنيوية ويجعل أحقر الديدان إخوة لهم.
- إذن أنتم تؤمنون بالتناسخ بين جميع الكائنات!
- بكل تأكيد.
- أعني أنكم تظنون أن أرواح البشر يمكن أن تنتقل إلى الديدان!!!
- بالطبع؛ فدور التناسخ لا نهاية له. والغاية القصوى هي نجاة النفس من كل ألم وغرور، ولكن يمكن أن ينتهي ذلك أو ينقطع بمنع النفس عن أن تولد ثانية.
- كيف ذلك؟
- بتطهيرها حتى من رغبة الوجود، وهذا ما يجعل البوذي يؤمن بدورة النفس تناسخاً في الأبدان في مسعى للتطهر حتى تصل إلى حالة الاستتارة والصفاء. وبذلك تستحق التسامي والرحيل من دورتها في الأبدان لتتحقق لها "النيرفانا"، وهي الاندماج الكامل والاتحاد بالمخلص بوذا.
- رنت العبارة الأخيرة في أذن أبراهام عالياً، فسأل الراهب البوذي بدهشة:
- مُخلص!!! هل كان بوذا نبياً؟
- بل هو ابن الله<sup>(١)</sup>، وهو المُخلص للبشرية من مآسيها وآلامها ويتحمل عنهم جميع خطاياهم. وقد تجسد بواسطة حلول روح القدس على العذراء "مايا"، التي عندما ولدته ظهر "نجم بوذا" في الأفق، وفرحت جنود السماء ورتلت الملائكة أناشيد المحبة للمولود المبارك<sup>(٢)</sup>. وقد عرف الحكماء بوذا وأدركوا أسرار لاهوته، فلم يمض على
- 
- (١) هذا مذهب "ماهايانا" الشمالي الذي يؤله بوذا. أما مذهب "هنايانا" الجنوبي فهو يؤمن بأن بوذا هو المعلم الأخلاقي العظيم الذي بلغ أعلى درجة من الصفاء الروحي، وأنه أنكر الألوهية.
- (٢) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

ولادته يوم واحد حتى حياه الناس، بل حتى الأصنام سجدت له عندما دخل مرة أحد الهياكل. وقد حاول الشيطان إغواءه فلم يفلح، فهو "سيد الناس جميعاً" كما قال لأمه وهو لا يزال طفلاً.

تعجب أبراهام كيف يُمكن أن يُخدع مسيحي سابق بهذا الكلام ويقتنع بنسبته إلى إله وثني رغم أنه ينطبق حرفياً على إلهه القديم يسوع، فقال مستكراً:

- اعذرني، ولكن ما تقوله مسروق من المسيحية وقولها في يسوع.

- أنا لن أدخل في جدال عقيم حول من سرق من الآخر، ولكن يكفي أن أذكرك بأن ذلك قد دُوّن قبل ميلاد يسوع بأكثر من خمسة قرون<sup>(١)</sup>.

فعاد أبراهام إلى السؤال متشككاً:

- هل دونت تعاليم بوذا ولاهوته في حياته أم بعد موته؟

- كانت حياة بوذا على الأرض منذ سنة ٥٦٠ إلى سنة ٤٨٠ قبل الميلاد، ثم صعد بجسده إلى السماء بعد أن أكمل مهمته، فاجتمع أتباعه في عام ٤٨٣ ق.م في مجمع كبير في قرية "راجاجراها" لإزالة الخلاف بين أتباع المذهب، ولتدوين تعاليم بوذا خشية ضياع أصولها، وعهدوا بذلك إلى ثلاثة رهبان هم: "كاشيابا" وقد اهتم

(١) يقول الدكتور "خالد شلدريك" الذي أسلم بعد أن فهم عقيدة التثليث: "إن عقيدة الأب والابن من عقائد الوثنيين القدماء، فإن البوذيين يعبدون بوذا في طفولته مع أمه مايا في الصورة نفسها التي نراها منقوشة في كل كنيسة للمسيح في طفولته مع أمه مريم". ويقول د. "فرانز غريس" في كتابه "تبدد أوهام قديس": "إن البحوث والاستقصاءات العلمية أثبتت، وأقامت البرهان والدليل على أن ثمانين إصحاحاً من التسعة والثمانين للأناجيل الأربعة فيها نقول عن حياة وتعالم كرشنا وبوذا"، كما يقول البروفيسور "رودلف سيدل" العالم اللاهوتي البروتستانتي والأستاذ في جامعة لايبسيغ الألمانية في كتابه "أسطورة بوذا": "من بين ٢٨ إصحاحاً التي يتألف منها إنجيل متى فإن إصحاحين فقط هما ٢٢، ٢٤ خاليان من النصوص الهندية. ومن إنجيل مرقس الذي يتكون من ١٦ إصحاحاً، فإن إصحاحين أيضاً خلوا من الانتحال والسرقة هما: ٧، ١٢، وفي إنجيل لوقا خلا ثلاثة ١٦، و١٧، و٢٠. وفي إنجيل يوحنا فإن الإصحاحين ١٠، ١٧ فقط خاليان من النقل". ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

بالمسائل العقلية، و"أويالي" وقد اهتم بقواعد تطهير النفس، و"أناندا" الذي دون تاريخ بوذا وجميع أمثاله ومحاوراته. وكذلك الإخبار برجعته إلى الأرض ثانية ليعيد السلام والبركة إليها، وليحاسب الأموات على أعمالهم.

- هذا غريب.

- وقد دُوِّنَ أن هيئة بوذا قد تغيرت في آخر أيامه، فنزل عليه نور أحاط برأسه على شكل هالة.

صمت الراهب البوذي قليلاً، ثم أردف غامزاً:

- كتلك التي صار فنانو المسيحية يجتهدون في رسمها حول رأس يسوع وقديسيه المزعومين في الأيقونات.

هز أبراهام رأسه موافقاً، مما أربك الراهب البوذي الذي كان يتوقع بعض الدهشة والإنكار من محدثه، لاسيما أن ذلك كان سيفتح له الباب واسعاً لإفحامه بالحجج التي يحفظها غيباً، فسأله مستهجنًا:

- لا يبدو عليك الاستغراب.

- لأنني قد سمعت بهذا البارحة فقط من واحدة من معارفي، وقد تحققت من كلامها اليوم صباحاً عن طريق مشاهدة بعض اللوحات القديمة لبوذا في الإنترنت.

- هل هي بوذية؟

- لا، فتلك قصة أخرى مختلفة تماماً. ولكن أخبرني، هل لديكم كتاب مُنزل؟

- بل كتبنا الدينية هي تسجيل لأقوال بوذا وأفعاله التي سجلها بعض أتباعه<sup>(١)</sup>، وتنقسم هذه الكتب إلى ثلاثة أقسام: وهي مجموعة قوانين البوذية ومسالكها، مجموعة

(١) نصوص تلك الكتب تختلف بسبب انقسام البوذيين، فيؤدّبو الشمال اشتملت كتبهم على أوهاام كثيرة تتعلق ببوذا، أما كتب الجنوب فهي أبعد قليلاً عن الخرافات. وجدير بالذكر أن أتباع بوذا يقولون إنه نقل إليهم تعليماته من خلال حالة الـ "نيرفانا" العليا التي تووؤوها بزهدهم وصلاحهم.

الخطب التي ألقاها بوذا، والكتاب الذي يحوي أصل المذهب والفكرة التي نبع منها<sup>(١)</sup>.

- ما مفهومكم عن الرب؟

- إن "أديبوذة" هو المبدأ الإلهي المفرد، والسبب الوحيد لكل الكائنات، ومقامه في أعلى أقاليم الكون الذي هو إقليم النار "أغختا بوفانا"، وكل شيء في الكون نشأ عن رغبته الشديدة في التخلص من وحدته لتكثير ذاته، فانبعث من "برجنا" التي معناها (العقل المعلن) خمسة معبودات أخرى. وقد أنشأ بذاته وبالتوسط السماوي (ديان) ابناً روحياً هو "بوديستفا"، وكان للاله "أميتابا" ابن روحي اسمه "بادماباني" وهو الخالق الحقيقي للكون، وذلك لأنه خلق الآلهة الثلاثة المعروفين بالقوات السامية وهم "براهما" و"فيخنو" و"سيفا".

- رويدك. فقد التبتت علي الأمور.

قال أبراهام مقاطعاً، فرد الراهب متبسماً:

- ذلك لأن أسئلتك كثيرة يا صديقي وتتجمل الأمور قبل أوانها. ما رأيك أن تقرأ الكتيب الذي أهديتك إياه أولاً، وتقرأ معه هذين الكتابين أيضاً ما دمت نهماً في سعيك للبحث عن الحقيقة إلى هذه الدرجة؟

قال ذلك وهو يُخرج من حقيبته القماشية المعلقة على كتفه كتابين أكبر حجماً، ثم ناوله إياهما مردفاً:

- ستجد فيهما شرحاً سلساً عن كل ما تسأل عنه. وبعد ذلك إن رغبت بالمزيد أو حتى بمناقشة ما ورد فيهما، فسنكون سعيدين بخدمتك، وكل ما عليك هو أن تزورنا في العنوان المدون على الكتيب الأول.

- ربما سأفعل. أشكرك على الكتب وعلى سعة صدرك.

(١) كتب المذاهب الشمالية مدونة باللغة السنسكريتية، وهي سائدة في الصين والتبت ونيبال وسومطرة وفي اليابان (حيث مذهب "زن" الذي يهتم بالتأمل، هو حالياً أشهرها على الإطلاق). أما كتب المذهب الجنوبية فمدونة باللغة البالية، وهي سائدة في بورما وسيريلانكا وسيام.

- هذا من دواعي سروري، وسأنتظر زيارتك على أحر من الجمر.

لم يستطع أبراهام قراءة تلك الكتب يوماً، فهو لم يذق طعم النوم منذ يوم ونصف، ولكن ما إن استيقظ في اليوم التالي حتى عكف على قراءتها باهتمام بالغ. لكن تلك الكتب لم تشفِ غليله، فعاد إلى مقهى الإنترنت ليوسع الموضوع بحثاً من مختلف جوانبه. وفي النهاية خلص إلى أن البوذية هي مجرد فلسفة وضعية لها نظام أخلاقي، ظهرت في الأصل اعتراضاً على الهندوسية والبراهمية ونظامهما الطبقي. واتجهت إلى العناية بجوهر الإنسان، ودعوته إلى ترك اللذات ومطالبته بالمحبة والتسامح وفعل الخير. ومع أن تعاليمها لم تكن وحيًا، إلا أنها انتحلت لاحقاً صبغة دينية، وغزتها محدثات تأليهية باطلة ذات طابع وثني، مختلفة عن بداياتها ذات الصبغة الأخلاقية. فاختلطت تعاليم بوذا بأراء فلسفية، وقياسات عقلية عن الكون والحياة. هذا بالإضافة إلى أن البوذية قد تأثرت بثقافات البلدان التي انتشرت فيها. ففي الهند، بوذية مطعمة بالهندوسية، وفي الصين بوذية متأثرة بالكنفوشيوسية، وفي اليابان بالشنتوية، كما تسربت إلى بعض مذاهب البوذية مفاهيم من المسيحية، ويبدو أن المسيحية نفسها قد تأثرت في بداياتها بالمفاهيم البوذية بشكل واضح جداً.

بقي أبراهام مستلقياً على فراشه: فلم يكن هناك مكان للذهاب إليه، ولم تكن لديه رغبة في القيام بأي عمل أصلاً؛ فقد كان مشوش الذهن، ويشعر أن عليه إعادة النظر في كل ما آمن به في حياته، حتى في وجود الرب نفسه، خاصة في ظل وجود كل تلك الآلهة الأخرى، التي ربما يكون الشيطان نفسه هو أحدها فعلاً. في هذه اللحظة سمع صوت "مكسيم" جاره اليهودي الملحد، وهو يلعب كلب جارهم "راينوفيتش" المريض منذ عدة أيام، فتوجه إلى النافذة ليراقبه خلسة من وراء الستارة، متسائلاً عمّ يدفع ذلك الملحد إلى مساعدة جاره العجوز، باصطحاب كلبه لقضاء حاجته، والتترّف معه مرتين في اليوم، دون أن يتقاضى أجراً على ذلك.

كان مكسيم صحفياً يعمل بجريدة "أرجيومنتي إي فاكتي"<sup>(١)</sup>، وكان مندمجاً حتى النخاع في محيطه الروسي العلماني، دون أن يقيم وزناً لدينه اليهودي، وهذا ما حدا بأبراهام إلى تحاشيه تماماً، وصد محاولاته المتكررة للتودد إليه عندما انتقل إلى السكنى بحيهم قبل عدة أشهر.

سارع أبراهام إلى ارتداء ملابسه بسرعة، وهو يفكر كيف سيبدأ الحديث معه.

- آه... "بيم" يا لك من فتى طيب. صباح الخير مكسيم. يبدو أن راينوفيتش لا يزال متوعكاً؟

قال أبراهام وهو يربت على رأس الكلب بيم، فأجاب مكسيم وهو يحاول إخفاء استغرابه من تحدث أبراهام معه أخيراً:

- صباح الخير. أجل لا يزال كذلك للأسف.

- أود أن أبدي إعجابي بمساعدتك لجاننا العجوز، إن هذا نبل منك فعلاً.

- شكراً. نبل منك أنت أيضاً أن تذكر ذلك.

- ولكنك غير مؤمن بالرب، ومن ثم فأنت لا تطمح إلى جزاء منه، كما أن راينوفيتش

ليس قادراً على مجازاتك، فممن تنتظر الأجر يا ترى؟

فأجاب مكسيم مستكراً:

- هل نحتاج إلى إله كي نكون خيرين؟ أولاً بد أن يكون هناك أجر يُنتظر؟ ثم ما

علاقة الله بذلك؟ إنها علاقات إنسانية. أنا أحترم وجهة نظرك بفعل الخير طمعاً

في أجر إلهي، لكنني أتمنى أن تتفهم بدورك أن هناك أسباباً أخرى لفعل الخير، وهي

-من وجهة نظري- أكثر واقعية من مجرد أن نظن أن قوة خارجية ما تأمرنا بذلك.

ظهر الاهتمام على وجه أبراهام وسأل مستوضحاً:

- أسباب مثل ماذا؟

(١) عبارة روسية تعني جدليات وحقائق. وهي من أشهر الصحف في روسيا.



- مثل فعل الخير لمجرد فعل الخير، وللراحة النفسية الناتجة عن ذلك. كما أن الآخرين سيقومون بفعل الشيء ذاته معك عندما تتعرض لموقف مشابه.

- إذن هناك أجر ما تطمع به! وإذا كان الأمر كذلك، فلم لا تُدخِل ذلك في إطاره الصحيح إذن؟

فتح مكسيم فمه ليرد، إلا أنه مالِث أن انحنى ليعيد ربط السلسلة بطوق الكلب قائلاً:

- يبدو أن النقاش سيطول، وقد حان موعد إعادة بييم إلى صاحبه. هل تمانع باستكمال الحديث في منزلي ونحن نتناول بعض الشاي؟

- مطلقاً، ولكنني أخشى أن أعيقك عن عملك.

- لا تخف فأنا كثيراً ما أرسل مقالاتي عبر الإنترنت.

- إذن هيا بنا.

## ◀ الحد المنطق

أفسح مكسيم مكاناً لأبراهام على الأريكة التي كانت سريراً قبل أن يزيل عنها الوسادة والملاءات، ويطويها على عجل، ثم توجه إلى المطبخ لإعداد الشاي. كانت الشقة بسيطة وتتكون من غرفة واحدة بدون صالون، وقد ازدانت جدرانها بصور زعماء الشيوعية التاريخيين سواء من الروس أم غيرهم، ولكنه لاحظ أنهم كانوا جميعاً من اليهود، وهو ما ولد لديه شعوراً بالراحة؛ فيبدو أن مضيفه لا تزال فيه بقية خير. ولكن ذلك الشعور ما لبث أن تلاشى عندما لاحظ أن باب الحمام قد غطي تماماً بصورة بالحجم الطبيعي لفتاة عارية تقف بوضعية مثيرة، وهو ما جعله يتحاشى مجرد الالتفات إلى ذلك الجزء من الشقة. كانت أغراض مكسيم مبعثرة، وملابسه متناثرة في كل مكان. كما تكدست الكتب بعضها فوق بعض على الطاولة القديمة في زاوية الغرفة، حتى إنها حجبت جانباً من شاشة الكمبيوتر.

- الشاي جاهز. بالمناسبة أنا آسف جداً على هذه الفوضى، أنت تعرف حياة الأعزب.

- طبعاً، طبعاً. لا عليك.

- لكنني أحب أن أطمئنك بأنني لست أعزب تماماً؛ فلدي صديقة، وعندما تزورني تقوم بالترتيب وغسل الملابس والطبخ.

- يبدو أنك تعتمد عليها كلية في ذلك.

قال أبراهام غامزاً، فأجاب مكسيم معترفاً:

- أجل للأسف؛ فقد عودتني على الكسل، وصرت أؤجل كل شيء إلى حين قدومها. بالمناسبة لقد اتصلت بي البارحة وقالت إنها ستأتي اليوم، وقد تصل في أي لحظة.

## ﴿﴿ بعيداً عن الوحي ﴴ﴾﴾

- على أي حال أنا لا أنوي المكوث طويلاً: فأنا أيضاً مرتبط بمواعيد أخرى، ولن أزعجكما.
- لا داعي للقلق من هذه الناحية: فهي مغرمة بهذا النوع من الجدل، بل أؤكد لك بأنها ستأخذ جانبك، وليس جانبي. فهي مؤمنة بالله.
- هذا مثير للاهتمام.
- أين توقفنا في حديثنا؟
- عند ما تسميه: "قوة خارجية ما".
- قال أبرهام مستدرجاً، فقهره مكسيم ضاحكاً ثم قال:
- محاولة ذكية من طرفك. أنت أيضاً تريد أن تجرني إلى مناظرة في إثبات وجود الله.
- أنا لا أسعى إلى أي مناظرة، ولسنت هنا لمحاولة إقناعك بأي شيء، أو لإثبات وجهة نظر معينة كما قد يتبادر إلى ذهنك، أنا فقط أريد أن أفهم وجهة نظرك.
- إذا كان الأمر كذلك فعلى الرحب والسعة.
- هل تتكرر فعلاً وجود الثواب والعقاب.
- بصراحة نعم، فليست هناك آخرة. وإذا مت فذلك هو نهاية المطاف: لأنه لا يوجد غير هذه الحياة الفانية.
- وكيف لك أن تتأكد من ذلك؟
- لأنني أراها بعيني وأعيشها، أما أنت فكيف تكون متأكداً مما لم ترَ، ومما لا يوجد أي دليل علمي على وجوده؟
- وهل يسمو العلم على كل شيء آخر؟!!! ماذا عن الدين الذي يخبرنا عن ذلك بوضوح؟
- هز مكسيم رأسه بقنوط وأجاب موضعاً:

- لا أعرف إن كنت تحاول خداعي، أو أنك لا تعرف فعلاً فالدين<sup>(١)</sup> لم يحسم هذا الأمر تماماً، ولم يرد في التوراة ذكر الآخرة قط. إن للثواب والعقاب بحسب المصادر التناخية<sup>(٢)</sup> معنيين فقط في هذا العالم، وليس في الآخرة. وكل الموتى سواء كانوا سعداء أم أشقياء يدخلون إلى عالم مظلم موجود في باطن الأرض يقال له " شيؤل"<sup>(٣)</sup>، وهناك استثناءان ممكنان فقط لهذه القاعدة في التناخ. الاستثناء الأول هو "آخنوخ"<sup>(٤)</sup> الذي جاء في سفر التكوين (٢٤:٥) أنه "سار مع الله. ثم توارى من الوجود لأن الله نقله إليه". الاستثناء الثاني هو "إيليا"<sup>(٥)</sup> الذي نقلته مركبة من نار إلى السماء (كتاب الملوك الثاني ١١:٢)، ولكن كثير من الناس -على ما يبدو- قد رأوا تناقضاً بين العدالة الإلهية في الثواب والعقاب، وبين المشاهدة اليومية في أن المستقيمين يتعذبون في حين يزدهر الأشرار. ولم تكن هذه المشكلة موضوع نقاش إلا في أواخر الفترة التناخية، حين تم التوصل إلى الحل بالاعتقاد أن الثواب والعقاب سيتمان بشكل كامل في هذا العالم<sup>(٦)</sup>، وفي عالم آخروي أيضاً. لقد وقع هذا في الفترة الأولى للمشناة

(١) يقصد الدين اليهودي.

(٢) التناخ هو اسم الكتاب السماوي لليهود. وهو عبارة عن اختصار لثلاث كلمات بأحرفها الأولى: "تورا" (التوراة)، "نبيم" (الأنبياء) و"كتوبيم" (الكتابات) وتلفظ "الكاف" بنهاية الكلمة "كحرف الخاء".

ويسميه المسيحيون بعد بعض التعديلات عليه "بالعهد القديم".

(٣) تعني الهاوية.

(٤) "إدريس" عليه السلام.

(٥) العبد الصالح، أو "الخضر".

(٦) أحد أقوالهم في ذلك أن نفس اليهودي الصالح تنتقل بعد موته إلى جنين في بطن أمه، ("جلجول ها نيفيش" ويقابله مصطلح Transmigration of the Souls "تناسخ الأرواح")، أما اليهودي الفاسد (الذي يقتل يهودياً مثلاً) فتدخل روحه في الحيوانات والنباتات، ثم تذهب إلى الجحيم، وتعذب عذاباً أليماً مدة اثني عشر شهراً، ثم تعود ثانية لتدخل في الجمادات، ثم في الحيوانات، ثم في الغويم، حتى ترجع إلى جسد يهودي بعد تطهيرها! وربما هذا ما قصده فيما ورد على لسانهم في القرآن الكريم في آل عمران آية ٢٤: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمُنَا نَارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ﴾ والله أعلم.

والتلمود<sup>(١)</sup>، واشتملت النصوص المقدسة على أفكار وآراء حول حياة بعد الموت في "جان عدن"<sup>(٢)</sup> التي أصبحت ما يعرف "بالجنة"، وفي "جهنوم" الذي أصبح ما يعرف بجهنم. حيث يشير التناخ إلى واد خارج بوابات أورشليم يسمى "جي هنوم"، أي "وادي هنوم" الذي كانت عادة الكنعانيين أن يمارسوا فيه تقديم القرابين البشرية للسنم "مولك". وقد ذكر التناخ أن بعض الإسرائيليين قد قدموا أبناءهم في النار للأصنام هناك، وقد شجبهم بشدة<sup>(٣)</sup>، ومع أن جهنوم أو وادي هنوم الذي في التناخ، وتمارس فيه هذه العادة، كان مكاناً فاسداً تمارس فيه ديانة خاطئة، إلا أنه لا وجود فيه لمعنى حياة بعد الممات في جهنم كما صيغت لاحقاً. حيث إن ارتباط وادي هنوم بالنار والموت، أدى فيما بعد إلى إعطاء اسم لجهنم في الديانة اليهودية<sup>(٤)</sup>، ومن ثم في المسيحية وبقية الأديان التي نقلت عنها كالإسلام وغيره. وكما ترى فإن التناخ ظل صامتاً تقريباً حول موضوع الآخرة، في حين لم يكن حكماء التلمود على ذات الرأي؛ فابتدعوا ما بات يعرف بالجنة والنار كما نقرأ عنهما حالياً!

صعق أبراهام لما سمعه، فقد كانت المعلومات التي استند إليها مكسيم في تحليله صحيحة تماماً، لكنه لم يخطر بباله قط أن تؤخذ من تلك الزاوية!!! أعمل رأسه في استرجاع نصوص التناخ التي قرأها مراراً، ليرى أتوافق ذلك الاستنتاج الفاسد أم لا؟ وبعد برهة من التفكير رد قائلاً:

(١) عملية تدوين الأسفار المقدسة المعتمدة لم تتم دفعة واحدة، وإنما تمت خلال مدة زمنية طويلة جداً، ثم فيها اعتماد بعض النصوص، واستبعاد نصوص أخرى. ومن المرجح أن تكون بعض تلك النصوص المستبعدة قد وجدت طريقها إلى التلمود وإلى الكتب الخفية. للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

(٢) اصطلاح توراتي يعني "جنة عدن" ويقابله في القرآن "جنات عدن".

(٣) كتاب الملوك الثاني ٢٣: ١، وأرميا ١٩: ٢، ٥-٦.

(٤) في الواقع فإن ما حدث هو العكس تماماً، فقد ثبت علمياً أن نساخ الكتب اليهودية قد تفتنوا في محاولة تفسير بعض التسميات والحوادث التوراتية، وفقاً للأساطير وأسماء الأماكن بعصورهم. ثم أصبحت تلك التفسيرات من أصل المتن مع تكرار النسخ.

- لابد أنه كان يوجد في التناخ أكثر من نص صريح عن الجنة ولكنها حذفت لسبب ما.

- ما الذي يجعلك تظن ذلك؟

- التناخ نفسه: فقد جاء في (صموئيل ١: ١٢-١٤): "إن اتقيتم الرب وعبدتموه وسمعتم صوته، ولم تعصوا قول الرب، وكنتم أنتم والملك أيضاً الذي يملك عليكم وراء الرب إلهكم \*\*\*\*\* (هكذا في المطبوع)، وإن لم تسمعوا صوت الرب بل عصيتم قول الرب تكن يد الرب عليكم" وهذا النص قد بتر جزء منه كما هو واضح.

- لا تفكر في ذلك كثيراً يا صديقي، فهناك أجزاء كثيرة مبتورة في أسفار التناخ كافة<sup>(١)</sup>، وإن بحثت فيها فلن تنتهي أبداً. فكيف تكمل الجزء المبتور في سفر التثنية: "فإن كان المذنب مستوجب الضرب يطرحه القاضي ويجلدونه أمامه، على قدر ذنبه، بالعدد أربعين جلده، لا يزد لئلا إذا زاد في جلده على هذه ضربات كثيرة يحقتر أخوك في عينيك، (بياض)، لا تكُمَّ الثور في دراسه، ثم ينتقل النص إلى موضوع آخر تماماً). إذا سكن إخوة معاً ومات واحد منهم...." (التثنية ٢٥: ٢-٥)، فتلك الآيات المبتورة بالتأكيد ليس لها علاقة بالجنة ولا بالنار، وربما كانت لتفاصيل غير مهمة ولا داعي لذكرها مثل: "فأتى بالكتاب إلى ملك إسرائيل يقول فيه \*\*\*\*\*، فالآن عند وصول هذا الكتاب إليك، هو ذا قد أرسلت إليك نعمان عبدي، فاشفه من برصه" (٢ الملوك ٥: ٦)، بل ربما كان حذف لبعض الأوصاف التي اعتبرها اللاحقون غير لائقة، مثل وصف الزانية وبيان حالها: "فقللت عن البالية في الزنا: الآن يزنون زنى معها، وهي \*\*\*\*\* (هكذا في المطبوع)، فدخلوا عليها كما يُدخَل على امرأة زانية" (حزقيال ٢٣: ٤٣).

(١) مثل (الخروج ٢: ٢٥)، (صموئيل ٢: ٥: ٨)، (الملوك ٢: ١٠: ١-٢)، (الأيام ٤: ١٧)، (زكريا ٦: ١٥)، (الأمثال ٢٤: ٢٣)، (إرمياء ٢٣: ٩)، (٢ الأيام ٣٦: ٢٣)، (عزرا ١: ٣ و٦: ٥-٦)، (الزمور ١٣٧: ٥)، (نشيد ٧: ٩) وكثير غيرها.

ثم أردف غامزاً بخبث:

- ثم ألا ترى معي أن وجود البتر والحذف في التناخ ينسف مصداقيته من الأساس، خاصة بوجود بعض الطبعات التي تتجاهل الإشارة إلى مواضع البتر أصلاً؟!  
بدا الارتباك واضحاً على أبراهام، ولكنه علّق مدافعاً:

- إن فقدان بعض النصوص القليلة من التناخ لا ينفي مصداقية السواد الأعظم الذي بقي منه.

- وكيف تأكدت أن المفقود والمبتور والمحذوف كانت نصوصاً قليلة؟ وكيف تأكدت أن ذلك السواد الأعظم الذي معنا يحوي التوراة الحقيقية فعلاً، والمكتشفات الحديثة أثبتت أن جزءاً كبيراً من التناخ مقتبس من أساطير الأولين ووثياتهم؟!  
- أنت تخلط الأمور، فذلك ينطبق على الأسفار المسيحية فحسب<sup>(١)</sup>!

- أنت مخطئ في ذلك تماماً؛ فما ينطبق على الأسفار المسيحية ينطبق أيضاً على الأسفار اليهودية مع الفارق في التشبيه. فنلاحظ مثلاً أن ما ذكره سفر التكوين عن مضاجعة ابنتي لوط لأبيهما بعد إسكاره<sup>(٢)</sup> منتحل بشكل مفضوح من أسطورة مصرية تتحدث عن إله الموت "أفروديت" التي كانت تتمنى أن تنجب طفلاً من أخيها الأكبر "أوزوريس"، فأسكرته وجلست عليه، (كما جاء لاحقاً في سفر التكوين) فولدت منه الإله "أنوبيس". (الألف الثالث قبل الميلاد تقريباً). وسفر أستير يذكر قصة "أستير" وابن عمها "مردخاي"، وانتقامها من "هامان" وزير ملك فارس "أحشويرس"، التي هي مشابهة تماماً لما جاء في التراث البابلي في ملحمة البابليين والعيلمين<sup>(٣)</sup>. ولكل بطل من أبطال القصة التوراتية مقابل في الأسطورة البابلية مع الاختلاف بأسماء أبطالها

(١) لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) التكوين ١٩ : ٣٠ - ٣٧.

(٣) المملكة العيلامية القديمة استمرت من ٢٥٥٠ - ١٨٦٠ قبل الميلاد.

فقط<sup>(١)</sup>. ومما يؤكد هذا التلفيق أن التاريخ الفارسي لا يذكر شيئاً عن أبطال القصة التوراتية، وخاصة أستير والملكة "فشني"!!!

- لا يمكنك الحكم استناداً للتشابه في بعض القصص.

- ماذا إذن عن تشابه آيات المزامير مع أبيات الأناشيد والتراتيل المصرية وغيرها، فيقول العالم "برستيد": "إن المزمور ١٠٤ منقول بشكل شبه حرفي من نشيد أخناتون الكبير (١٣٦٧-١٣٥٠ ق.م.)، وخاصة الفقرات (٢٠-٣٠)<sup>(٢)</sup>. ويرى المحققون أن المزمور التاسع والعشرين مقتبس من قصيدة أوغاريتية لـ"بعل" مع استبدال اسم بعل باسم "يهوه". والمزمور ١٩ مقدمته هي الابتهالات عينها التي كانت تقدم لإله الشمس. ويؤكد العالمان "أرمان" و"برستيد" أن سفر الأمثال منقول "بشكل فاضح" من كتاب "الحكم لـ"أمنحوبي" (نحو ٢٨٠٠ ق.م) المصري القديم، وكان قسم كتابه إلى ثلاثين فصلاً، واشتهر باسم "ثلاثون فصلاً من الحكمة" ونقل كاتب السفر التوراتي هذه الحكم مع

(١) حتى أسماء أبطال تلك القصة كانت منتحلة أيضاً من قصص أخرى. وأبلغ مثال على ذلك أنهم قد أطلقوا اسم "هامان" الشخصية المكروهة من قبل اليهود، على وزير الملك الفارسي وجعلوا أصوله كنعانية!!! (عماليقي كما جاء في أستير ٣: ١)، ولطالما احتج المغرضون على ذكر هامان في القرآن في زمن فرعون، وأنه أمره ببناء صرح (في سورتي القصص ٣٨، وغافر ٣٦) وعزوا ذلك إلى جهل "مؤلف" القرآن (تعالى الله عما يصفون) بالتاريخ واشتبه الأسماء عليه!!! وللأسف فقد انبرى بعض المسلمين للدفاع عن ذلك متبنيين قدسية التوراة المعتمدة ومحاولين إثبات أنه قد يسمى شخصان من زمني وحضارتين مختلفتين بالاسم نفسه. وأخيراً أثبتت الاكتشافات الأثرية أن هامان كان في زمن وجود موسى في مصر، وكان مقرباً من فرعون ومديراً لمشاريعه الإعمارية. لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف. والملاحظ بقوة أنه كلما كان هناك تعارض بين القرآن وأي من الكتب الأخرى، نجد أن الاكتشافات العلمية الحديثة أو الأثرية القديمة تؤكد أن الدقة كانت من نصيب النص القرآني، مع أن مكتشفها عادة ينتمون إلى الكتابيين وليس إلى المسلمين.

(٢) وهذا ما أكدته دائرة المعارف الكتابية في مادة "المزامير" حيث تقول: "البحث الأركيولوجي في بابل وفي مصر قد كشف عن أناشيد متقدمة. . . كما أن الكشف عن آداب الكنعانيين في أوغاريت. . . قد أمدنا بقصائد هامة مشابهة للمزامير منذ عصر موسى".



تغيير بسيط في ألفاظها، ربما يعود إلى الترجمات المتكررة<sup>(١)</sup>.

- ما ينطبق على القصص ينطبق أيضاً على التراتيل.

قال أبراهام متهرباً، فتبسم مكسيم بخبث وقال مجارياً له:

- حسناً، وماذا عن الشريعة؟ فكثير من الشرائع التوراتية مع تشابه مع قوانين

حمورابي الأقدم منها بكثير (١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م)، وصور التشابه أكثر من أن تُعد أو

تحصى، لدرجة أن يخيل للباحث فيها أن التوراة بشرائعها مجرد نسخة مشوهة عن

قوانين حمورابي الوثني.

- أنت تبالغ كثيراً.

- مطلقاً، وأسوق لك على ذلك مثلاً طريفاً؛ وهو ما جاء في (الخروج ٢١: ٢٨-٣٢)

بخصوص الثور النطاح: "إذا نطح ثور رجلاً أو امرأة فمات يرحم الثور ولا يؤكل لحمه،

وأما صاحب الثور فيكون بريئاً. ولكن إن كان ثوراً نطاحاً من قبل، وقد أُشهد على

صاحبه ولم يضبطه، فقتل رجلاً أو امرأة، فالثور يرحم، وصاحبه يقتل أيضاً... إن

نطح الثور عبداً أو أمة. يعطى سيده ثلاثين شاقل فضة، والثور يرحم". وهو يقابل ما

جاء في قوانين حمورابي مادة ٢٥٠-٢٥٢ التي فيها ما نصه: "إذا نطح ثور أثناء سيره

في الشارع رجلاً فقتله، فلا وجه لتقديم مطالبات من أي نوع. أما إذا كان الثور نطاحاً

من قبل، وتبينت لصاحبه هذه الحقيقة، ومع ذلك لم يكسر قروونه أو يربطه، فإذا نطح

(١) مثلاً يقول أمحنوبي: "لا تصاحب رجلاً حاد الطبع، ولا ترغب في محادثته"، وفي سفر الأمثال: "لا

تستصحب غضوباً، ومع رجل ساخط لا تجيء" (الأمثال ٢٢: ٢٤). وفي الأساطير البابلية، تنصح

الآلهة "جلجامش" بقولها: "أي جلجامش املاً بطنك، وكن مرحاً بالليل والنهار، بالليل والنهار كن

مبتهجاً راضياً عن ثيابك، واغسل رأسك بالماء وألق بالذئب إلى الصغير الذي يمسك بيدك واستمتع بالزوجة

التي تضمها إلى صدرك". في حين أنه جاء في سفر الجامعة: "أذهب. كل خبزك بفرح، واشرب

خمرك بقلب طيب، لأن الله منذ زمان قد رضي عن عملك، لتكون ثيابك في كل حين بيضاء، ولا يعوز

رأسك الدهن، التذ عيشاً مع المرأة التي أحببتها" (الجامعة ٩: ٧).

هذا الثور رجلاً حراً فقتله، فعلى صاحب الثور أن يدفع ثلاثين شاقلاً من الفضة. أما إذا نطح عبداً فيعطى سيده عشرون شاقلاً من الفضة"<sup>(١)</sup>.

- ربما كان ذلك من قبيل المصادفة.

- هل ترى أن كل تلك المتوافقات جاءت نتيجة مصادفة عشوائية!!!؟

- لم لا، فعندما اتصل اليهود بالحضارات المختلفة بعد سبيهم إلى بابل، كان من الطبيعي أن يستخدموا ما أفرزته تلك الحضارات، مما وجدوه فيها نافعاً لهم.

- ولكننا نتكلم على التوراة التي يفترض أن تكون كلام الله! أليس كذلك!!!؟

- كلام الرب لا يزال موجوداً في التوراة.

- أشك في ذلك؛ فالنبي "أرميا"<sup>(٢)</sup> انتقد كثيراً أولئك الأنبياء الكذبة الذين سُبوا إلى بابل، وأخبر بانحرافهم وكذبهم على الله الذي قال على لسانه: "قد سمعت ما قالت الأنبياء الذين تنبؤوا باسمي بالكذب قائلين: حلمتُ، حلمتُ" (أرميا ٢٣ : ٢٥). وفي أرميا نقرأ أيضاً: "كيف تقولون: نحن حكماء، شريعة الرب معنا حقاً، إنه إلى الكذب، حوّلها قلم الكتبة الكاذب" (أرميا ٨ : ٨).

- أولئك الأنبياء الكاذبون لم تدخل أقوالهم في التوراة، التي كتب فيها فقط الأنبياء الموحى إليهم من الرب.

- أي وحي هذا!!!؟

قال مكسيم متهمكماً. فقاطعه أبراهام منذراً:

(١) من ضمن تلك الأمثلة التشابه بين (الخروج ٢٢ : ٧) والمادة ١٢٤ من حمورابي، وكذا بين (الخروج ٢٢ : ١٠-١٢) والمواد ٢٤٤-٢٤٦-٢٦٦ من قوانين حمورابي، وكذا (الخروج ٢١ : ١٨-١٩) والمادة ٢٠٦ من شريعة حمورابي، وكذلك يتشابه (الخروج ٢١ : ٢٢) مع مادة ٢٠٩ من شريعة حمورابي. وغير ذلك كثير.

(٢) أحد أعظم أنبياء ما قبل السبي.

- إياك أن تسخر من الوحي.

- أنا لا أسخر من الوحي يا صديقي، بل أقرأ عليك آية جاءت في السفر نفسه الذي استشهدت به قبل قليل، حيث يقول الرب لأرميا: "وإذا سألك هذا الشعب أو نبي أو كاهن قائلاً: ما وحي الرب؟ قل لهم: أي وحي؟ إني أرفضكم. هو قول الرب، فالنبي أو الكاهن أو الشعب الذي يقول: وحي الرب أعاقب ذلك الرجل وبيته. هكذا تقولون، الرجل لصاحبه، والرجل لأخيه، بماذا أجاب الرب وماذا تكلم به الرب: أما وحي الرب فلا تذكروه بعد، لأن كلمة كل إنسان تكون وحيه، إذ قد حرّفتكم كلام الإله الحي رب الجنود إلهنا" (أرميا ٢٣: ٣٢-٣٦). وفي سفر حزقيال: "القائلون: وحي الرب. والرب لم يرسلهم.. وتكلمتم بعرافة كاذبة قائلين: وحي الرب، وأنا لم أتكلم" (حزقيال ١٣: ٦ - ٧).

- وجود انتقاد الرب لهم في كتابه يثبت أن تأثيرهم لم يصل إليه.

هز مكسيم رأسه بياس، وقال محاولاً إرشاد أبراهام إلى تطبيق ذلك على الموضوع الذي تحدّثا به قبل قليل:

- إذا كان الأمر كذلك فعلاً، فلا بد أن يكون في ذلك الكتاب إشارة واضحة عن

موضوع بأهمية البعث والجنة والنار، أليس كذلك؟

- هذا صحيح، ولا تنسَ أن الرب يصف -بما لا يدع مجالاً للشك- أنه قادر

على إحياء الموتى، كما ورد مثلاً: "أميت وأحيي وأجرح وأشفي" (التثنية ٣٢: ٣٩)،

و: "الرب يميت ويحيي" (صموئيل الأول ٢: ٦)، وإحياء العظام وكسوها لحماً وجلداً

ونفخ الروح فيها (حزقيال ٣٧: ١-١٤)<sup>(١)</sup>، بل جاء تصريح أكثر دقة في سفر دانيال:

"ويستيقظ كثيرون من الأموات المدفونون في تراب الأرض، بعضهم ليثابوا بالحياة

الأبدية وبعضهم ليذوقوا ذل العار والازدراء إلى الأبد" (دانيال ١٢: ٢).

(١) وردت القصة في سورة البقرة الآية ٢٥٩.

- أنت بهذا تؤيد كلامي دون أن تشعر، فهذا ما عنيته بالضبط من عبارة "أواخر الفترة التناخية، وبداية الفترة التلمودية": فذلك التصريح التناخي اليتيم ورد في أحد الأسفار المتأخرة بعد النزول المفترض لتوراة موسى بزمن سحيق، وأعيدت صياغته في بدايات تدوين التلمود، وإلا فلماذا انتظر الله كل ذلك الوقت ليعلن هذه الحقيقة المهمة لدانيال بالذات، دون بقية أنبياء إسرائيل بمن فيهم موسى نفسه؟ ثم من هم "الكثيرون" الذين سيبعثون يوم القيامة للحساب؟ إن هذا أيضاً هو أمر غير محسوم تماماً في اليهودية. فبعض رايبي التلمود يشيرون إلى أن شعب إسرائيل فقط هو الذي سيبعث ويحاسب، لكن الرابيين الآخرين يعتقدون أن هذا ينطبق على المتقين من غير اليهود. فبحسب الرابي "يوشع بن حنانية" مثلاً، فإن للمتقين الغوييم مكاناً في الآخرة<sup>(١)</sup>: أي إنها ليست إلا مجرد تخمينات، ومن ثم فنحن لسنا ملزمين بالإيمان بها.

- على كل حال فنحن لا يمكننا أن نسبر غور الغيب أو أن نتخيل تفاصيل البعث أو الآخرة، ولكن يمكن أن نؤسس إيماننا العام بهما انطلاقاً من إيماننا بأن الرب عادل ورحيم، وأنه يثيب ويعاقب ويشمل برحمته هؤلاء الذين يحتاجون رحمته من الموتى.

- الغريب في الأمر أنك قد درست الكتب المقدسة جيداً على ما أرى، فكيف تبرر ذلك مع أنك تعتبر نفسك ملحداً؟

- الحقيقة هي أنني أصبحت ملحداً بعد دراستي لما تسميه بالكتب المقدسة.

كان أبراهام في السابق يعتبر الوثنيين والملاحدة ممثلين بالشر المطلق، وليس عندهم أدنى نزعة إلى الخير. كما كان متأكداً أنهم لا يعرفون شيئاً عن الدين، أو يعلمون، في أفضل الأحوال، النزر اليسير عنه وبسطحية تامة. ولكن يبدو أن الأمر مختلف تماماً، على الأقل مع سفيثا والراهب البوذي، بل مع مكسيم بشكل أكبر، كما يرى بوضوح: فهو يتكلم عن المثل الإنسانية، ويستعين بالكتب المقدسة لإثبات منطقية

(١) التلمود البابلي توسقتا سنهدرين ٣: ٢.

وجهة نظره الإلحادية بمهارة يحسده عليها أي حاخام، وهذا ما أوقعه بحيرة مضاعفة.  
فعاد إلى سؤاله:

- هل يعني ذلك أنك كنت مؤمناً ملتزماً في السابق!!!؟

- إمامم. كيف أوضح الأمر لك؟! لقد ولدت كيهودي، وأنا طبعاً فخور بذلك، ولكن أسرتي لم تكن تتطرق كثيراً إلى أمور الدين، لذا لم يشغل وجود الله أو عدمه أي حيز من تفكيري، ولكن بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وإلغاء الشيوعية، وانتشار موجة العودة إلى الأديان، أخذت حينها بادعاء الإيمان بالله، حسب الموضة الجديدة، وبدأت بدراسة الكتب المقدسة بتعمق، ولكنني وجدت فيها أضعاف ما كنت أسمع عنه سابقاً من تناقضات وأخطاء وعجز، وعندها حسمت أمري تماماً بالكفر المطلق بكل تلك الخرافات البالية. وترسخ إلحادي رغم صرعة التدين في روسيا، فمنشأ الحياة دنيوي كما تفسره "نظرية التطور"، وليس أخروياً كما تدعي الأديان البالية.

فتح أبراهام فمه ليرد، ولكنه أمسك عن ذلك عندما سمع صرير مفتاح يدور بقفل الباب، فالتفت إلى مصدر الصوت، ليجد فتاة متوسطة الجمال في منتصف العشرينيات من العمر تفتح الباب بحرية تامة. ولكن ما إن وقعت عينها عليه وهو بثوبه الحاخامي الوقور حتى تهللت أساريرها، وقالت مرتبكة وهي تجاهد لإخفاء فرحتها مما ظننته محاولة من صديقها للعودة إلى الرب:

- اعذرني يا سيدي، فلم أكن أعرف أن مكسيم يستقبل ضيوفاً. أنا آسفة للمقاطعة.

إلا أن مكسيم الذي أدرك ما يدور بخلد فتاته المتهممة، سارع بلجم عنان خيالها

قبل أن يسترسل في جموحه، وقال موضحاً الأمر:

- أبراهام، هذه نادبة صديقتي التي حدثتك عنها. نادبة هذا أبراهام، ومع أنه جاري منذ مدة طويلة، إلا أنه يمكن القول بأننا قد تعارفنا اليوم فقط. وهو مهتم بمعرفة وجهة نظر الملحدن بالحياة، ويبدو أنه مستمع جيد.

- تشرفت بمعرفتك.

- شكراً. وأنا أيضاً.

تبادل أبراهام التحية مع نادية، فقال مكسيم موجهاً حديثه إلى أبراهام:

- نادية لا تزال طالبة، ولكنها على وشك التخرج قريباً في كلية الاقتصاد.

ثم التفت إلى نادية قائلاً:

- أبراهام حاخام شاب، ويبدو أنه ليس من الذين يسلمون بما يُفرض عليهم،

مغلقين أعينهم عما سواه؛ بل يحمل تصميماً واضحاً على تكوين قناعاته الشخصية

بنفسه.

لم يخف على أبراهام تلميح مكسيم الخبيث لإظهاره أمام صديقه بمظهر المتأثر

بمن هو أعلم منه، مما جعله يتخلى مؤقتاً عن استراتيجيته في محاولة فهم الآخر،

وينتقل سريعاً إلى المناورة الجدلية كي يُفوّت الفرصة عليه، فقال مازحاً:

- لقد كان مكسيم يحدثني كيف أنه يؤمن بوجود روسيا فقط. أما الصين أو الهند

أو أي بلد آخر لم يره أو يعيش به فهو من وجهة نظره غير موجود.

صعق مكسيم من تعليق أبراهام غير المتوقع فقال مؤنباً:

- أنت لم تفهمني. فهذا المثال لا ينطبق على الدنيا والآخرة؛ لأن الكثيرين قد رأوا

الهند والصين فعلاً، وأخبرونا بوجودهما، في حين أنه لم ير أحد الآخرة المزعومة.

ثم تنهد متصنعاً الشفقة وهو يقول:

- آآه، كم أرثى لحالكم أيها المتدينون: فقد حرّمتم حتى استخدام الإنترنت بسبب

ما قد يتعلمه الإنسان منها. وحتى عندما وافقتم مؤخراً في إسرائيل على فتح ما

أسميتموه بـ "جامعة".... حرّمتم فيها على وجه التحديد العلوم التي تتعامل مع نظرية

النشوء والارتقاء مثل علم الأحياء والفلسفة، والفيزياء الفلكية. وما دمتم مستمرين في

معاداة العلم والتطور، فستبقون في القرون الوسطى أبد الدهر.

استشباط أبراهام غيظاً من تلك الإهانة السافرة، إلا أنه لم يشأ أن يمنح غريمه فرصة للتمتع برؤية ذلك على وجهه، وآثر أن يحتفظ ببرودة أعصابه، متحِيناً الفرصة لرد الصاع صاعين، فقال متصنعاً اللامبالاة:

- وهؤلاء الذين رأوا الهند والصين، بَمَ هم أفضل من الرب حتى تصدقهم وتكذبهم؟  
- لأنهم يتحدثون عن شيء ملموس يمكن التأكد من وجوده بقليل من الجهد، لكن ما تسميه الرب هو نفسه ليس ملموساً ولا مرثياً، ولذلك لا أؤمن بوجوده أصلاً.  
- تعني أنه لو تحدث الكثيرون عن شيء لا تستطيع رؤيته ولا لمسها، حتى إن بذلت الجهد في ذلك، فلن تصدقهم؟  
- مطلقاً.

- إذن أنت لا تؤمن بوجود موجات الأثير، ولا الشحنات الكهربائية، ولا الجاذبية الأرضية بل ولا حتى الهواء أو الروح لأنك لا تراهم، وبما أنك لا ترى ذكائك أو شرفك فهما على الأرجح غير موجودين أيضاً.  
ابتلع مكسيم الإهانة على مضض، فهو من بدأ أولاً، وتابع حديثه كأنه لم يسمع الجملة الأخيرة.

- إف. صحيح أنني لا أرى هذه الأشياء ولا أستطيع لمسها، ولكنني أرى ما تصنعه بما لا يدع مجالاً لإنكار وجودها.

- ولكنك لا ترى كوكب الأرض الذي خلقه الرب بما عليه من أحياء؟!!!

- كيف تثبت أنها من صنعه؟

- هذا هو الدين والمنطق والعرف على مر الزمن، وبما أنك أنت هو المنكر، فعلى عاتقك يقع إثبات أنهم ليسوا من صنعه.

- أستطيع إثبات ذلك بمنتهى السهولة، فقد نشأت الحياة بشكل عشوائي من مادة غير حية، أي دون تدخل إلهي. فالمادة قد أوجدت نفسها بنفسها، وليس وراء وجود

الإنسان أي غاية أو تدبر. إن نشأته وحياته وآماله ومخاوفه وعواطفه وعقائده ليست إلا نتيجة لاجتماع ذرات جسمه عن طريق المصادفة.

- إذا سلمت باحتمال نشوء الحياة بكل تعقيداتها كحادث عشوائي عن طريق المصادفة، فلا بد أن تتوقع أيضاً احتمالات مشابهة: كاحتمال إنتاج قاموس كامل مرتب الكلمات والمعاني نتيجة لانفجار مطبعة مثلاً!!! فهل يمكن أن تتوقع إمكانية تحقق احتمال كهذا؟!!!

كان مكسيم يستمع لمثال أبراهام المفحم وهو يعرض على شفتيه حتى كاد أن يدميهما، ثم قال مُتهرباً:

- لا بد أن يكون المرء قد اعتمد على فكرة مسبقة وتمسك بها حتى يجروء على أن يرفض الواقع. إن كل من يفحص أدلة التطور لا بد له من أن يعترف بأنها واقع تاريخي.

- أدلة؟!!!! تقصد تلك التي تقول إن الكائنات الحية حينما خرجت لتعيش فوق اليابسة انقلبت زعانفها أرجلاً وخياشيمها رئات وحسكها جلوداً؟!!!  
كان جو النقاش قد بدأ يتجه نحو الصدام فتدخلت نادبة قائلة:

- ما رأيكم بأخذ استراحة قصيرة من هذا النقاش؟  
فهز الاثنان رأسيهما بالموافقة، كأنها أنقذتهما من ورطة كبيرة. فأبراهام لا يسعى إلى أي نقاش لإثبات وجهة نظره، ولكنه اضطر إليه لإعادة الاعتبار إلى نفسه بوصفه رجل دين، ولكي ينفي الإيحاء بأنه يطلب التوجيه من ملحد، أما مكسيم فقد فهم حساسية أبراهام، التي نقلته من دور المتشكك بقناعاته السابقة، والراغب بمعرفة وجهة نظر الآخر، إلى دور المدافع عنها، وشعر بالندم على مساسه بكبريائه. ثم أردفت نادبة موجهة الحديث إلى أبراهام:



- أرى أنك لم تشرب كوب الشاي الخاص بك، وأنا لا ألومك، فمكسيم لا يجيد إعداده كما يجب. ما رأيك لو أعددت لك كوباً من القهوة؟
- لا، شكراً، فقد حان وقت ذهابي.
- قال أبراهام ذلك وهو يهيم بالنهوض، إلا أن مكسيم استوقفه بلطف واضعاً يده على كتفه وهو يقول:
- فكرة جيدة؛ فنادية تعد القهوة بطريقة مبتكرة فعلاً.
- ولما كان أبراهام أيضاً لا يرغب بدوره في أن ينتهي النقاش بهذه الطريقة، فقد وافق على البقاء بعض الوقت لترطيب الأجواء.

## ◀ تداخل الدين بالإلحاد

- خيم الصمت على الغرفة فأبراهام لم يعد لديه ما يقوله ومكسيم كان ينتظر بفارغ الصبر إنتهاء صديقتة من ترتب الطاولة ورفع أكواب الشاي كي يحاول اعادة جو من الألفة بينه وبين ضيفه، وما أن أصبحت نادية في المطبخ حتى قال لأبراهام بتودد زائد:
- أنا آسف على وصول النقاش بيننا إلى ذلك المستوى يا صديقي، وأعترف بأنني أتحمل الوزر الأكبر في ذلك.
  - لا عليك فأنا أيضاً اندفعت قليلاً.
  - يبدو واضحاً أنك تمر حالياً بظروف صعبة، فقد عانيت أنا أيضاً من ظروف مشابهة منذ فترة قصيرة، لذا اسمح لي أن أتطفل عليك، عارضاً حلاً سيرحك كثيراً ويساعدك على استعادة توازنك الداخلي.
  - شكراً لاهتمامك، ولكنني لا أحتاج أي مساعدة من أحد.
  - لا تسئ فهمي، فكلنا نتعرض لضغوط نفسية، ونحتاج إلى الراحة، وهذا هو السبب في وجود "بيوت الاستجمام"<sup>(١)</sup>.
  - تبسم أبراهام بحزن ومرارة للحالة التي وصل إليها، وتتهد قائلاً:
  - أكرر شكري لاهتمامك، ولكن هذا لا يناسبني أبداً؛ فكما لاريب وحظت، فلست من المغرمين بالحفلات والمراقص والعروض المسرحية.
  - ليس هذا ما أعنيه، فتلك نشاطات اختيارية هناك، ولكن ما أعنيته هو الاعتكاف في الطبيعة والبعد عن ضغط المدينة وضوضائها، وعدم الالتزام بأي عمل من شأنه أن يعيق تأملك.

(١) هي مجمعات شبه فندقية تنتشر في ضواحي المدن الروسية، وترسل الدولة إليها الموظفين والمتقاعدين الراغبين بالراحة وفق جدول معينة، بهدف ترفيههم، ومساعدتهم على استعادة حيويتهم ونشاطهم.

- الإقامة في بيوت الاستجمام تكون لفترة قصيرة<sup>(١)</sup> قد تريح الأعصاب، ولكنها بالتأكيد لن تكفي للاعتكاف والتأمل اللذان تتحدث عنهما، كما أن الأمر يحتاج إلى إجراءات حكومية مملة ومعقدة.

- وهذا هو العرض الذي أقترحه عليك: فعمي هو مدير أحد تلك البيوت، وهو يستطيع تدبير قبولك هناك دون أي إجراءات عن طريق إدخالك تحت اسم أحد الذين جاء دورهم، ولم يحضروا لسبب أو لآخر. وتستطيع البقاء هناك للمدة التي ترغب فيها، وذلك بواسطة إدراجك تحت اسم أكثر من واحد منهم بالتناوب. ظهر الإهتمام على وجهه أبراهام، فتابع مكسيم قائلاً:

- وعلى الرغم من أن عمي لا يفعل ذلك إلا مع أفراد العائلة أو الأصدقاء المقربين، إلا أنني واثق أنه لن يرفض وساطتي فيك، خاصة عندما يعرف أنك يهودي، بل وحاخام أيضاً. ولكن من الأفضل أن تلبس ملابس عادية هناك منعاً لأي إحراج.... أنت تفهم ما أعنيه.

- لا مشكلة في ذلك على الإطلاق، بل ربما على العكس تماماً، فأنا فعلاً أمرُّ بمرحلة أرغب فيها بالهروب لفترة كافية من الواقع المحيط بي، وكل إسقاطاته. رد أبراهام بلهفة لم يستطع إخفائها، فانفجرت أسارير مكسيم باستعادته زمام القيادة والتأثير على صديقه الجديد ثانية وقال بثقة:

- إذن اتفقنا، وسأتحدث مع عمي وأتيك بالجواب في أسرع وقت ممكن.  
- وقد يكون من الأفضل ألا تخبره أصلاً أنني حاخام.  
- حسناً، إذا كانت هذه هي رغبتك.

- هذه هي رغبتني فعلاً. قل لي من فضلك: في حال موافقة عمك، فكيف أستطيع

أن أعبر له عن شكري؟

(١) عادة لا تتجاوز الشهر.

- لن تجد أية صعوبة في ذلك، فهو من النوع الذي يسهل إرضاءه. وفي حال توافر الإمكانية لديه حالياً، فسندهب لزيارته معاً لتعريفك به، وتستطيع عندها أن تحمل معك هدية مناسبة إن أردت، كزجاجة من النبيذ المعتق أو "الكونياك" الفاخر مثلاً، أو أي شيء من هذا القبيل.

- أشكرك جزيل الشكر، أنا مدين لك فعلاً.

- لست مديناً لي بشيء بعد. ثم إنه من دواعي سروري أن أقدم لك خدمة؛ فأنا أحترم رغبتك في إعادة النظر ببعض المسلمات المتوارثة، وعدم تحرجك من التخلي عن أرثوذكسيته - وإن كان بشكل مؤقت - في سبيل البحث عن الحقيقة والتحرر من الأوهام. المهم أن يتمكن عمي من إدخالك بسرعة، فقد بدأ الصيف، وفي هذا الوقت كما تعلم، يتزايد الطلب على بيوت الاستجمام أكثر من أي وقت آخر.

دعا أبراهام من كل قلبه أن تزول كل العقبات التي قد تعترض تنفيذ هذه الفكرة التي أعجبتك كثيراً؛ فقد كان العرض مغرياً بالفعل، وهو محتاج إلى خلوة كهذه، كما أن الهدية المقترحة، وإن تكررت بعدة مناسبات في أثناء إقامته هناك، فلن تصل كلفتها إلى جزء يسير مما يمكن أن يدفعه في أحد بيوت الاستجمام الخاصة غير التابعة للدولة، والتي أخذت بالانتشار مؤخراً في البلاد. هنا دخلت نادية حاملة أكواب القهوة وهي تقول مازحة:

- أنتما تعطيانني إيجاء بأنني كنت سبب التوتر بينكما، فما إن تركتكما حتى عاودكما الهدوء ثانية!

فقال مكسيم مداعباً:

- وهل كنت تفضلين أن نعود إلى النقاش المتوتر ثانية، حتى يتسنى لك ممارسة هوايتك المفضلة في أداء دور العاقل الموفق بين الناس؟!؟

- أنت من يضطرنني دائماً إلى هذا الدور! خاصة مع حماسك الجارف في نقاشاتك مع الجميع. ثم من الذي رطب الأجواء قبل قليل، ها انا؟  
قالت نادبة مؤنبة. فرد عليها مكسيم متصنعاً المرح، كي يخفي الإحراج الذي تسببت له فيه:

- حسناً، حسناً. أعترف أنني متهور، وأنه لا غنى لي عنك، ولا عن حكمتك وتعللك.  
- ليس لهذه الدرجة ولكن الحماس يأخذك بعيداً أحياناً.  
قالت نادبة ببعض الرضى عن النفس كأنها لم تفهم تهكمه، وهو ما لم يرق له أبداً، فتجاهلها تماماً، والتفت إلى ضيفه معلقاً:  
- يبدو أن حظ قهوة نادبة عندك ليس بأفضل من حظ الشاي الذي أعددته قبل قليل، فأنت لم تلمس كوبك بعد!

كان أبراهام يحب الشاي والقهوة، ولكن السبب الذي منعه من تناول الشاي سابقاً، وجعله يحاول التهرب من تناول القهوة الآن هو علمه بعدم تطبيق قوانين طهارة الطعام حسب "الكشروت" في هذا المنزل<sup>(١)</sup>، ولكنه ما دام قد وافق على التحرر مؤقتاً من رتبته الدينية، بل ومن التزامه نفسه، وما دام قد وافق على قضاء فترة طويلة في المنتجع، حيث لن تتوافر له فرصة كبيرة للتقيد بكل قوانين الكوشير، ولا حتى بمعظم بقية القوانين اليهودية العادية. فربما كان من الأفضل أن يبدأ تجاوزاته الآن بهذه القهوة، حتى لا يتسبب بإحراج سيجره إلى نقاش آخر، ربما يحرمه من فرصة هو في أمس الحاجة إليها حالياً. فتناول كوب القهوة، ورشف منه رشفة كبيرة، كأنه يريد أن ينتهي منه بأسرع وقت ممكن، ثم قال وهو يتصنع التلذذ بالطعم:

- فعلاً طيبة.

(١) قواعد الكشروت صارمة عند اليهود الأرثوذكس؛ فيجب تطهير المطبخ من قبل حاخام وفقاً لشروط معينة. كما يجب عدم الخلط بين الأواني والأدوات المستخدمة مع اللحوم وتوابعها، بتلك المستخدمة مع الألبان ومشتقاتها مثلاً.

- بالصحة والهناء.

قالت نادبة مبتسمة وهي تنظر إلى مكسيم نظرة ذات دلالة، إلا أنه تحول عنها إلى أبراهام قائلاً:

- أه كدت أنسى. في ذلك المنتجع مكتبة رائعة، بالإضافة إلى كثير من الكتب القيمة التي يحتفظ بها عمي في مكتبه، والتي لا أظنه سيبخل عليك باستعارتها، فهو من عشاق القراءة وذو فكر مستتير، وأظنك ستتسلى كثيراً بمحاورته.

- هل تتحدثون عن "إيوسف بيلتش"؟ أوه. ستجد أنه ذكي جداً، وذو ثقافة عالية. قالت نادبة بتأثر بالغ، ولكنها استدركت بأسى:

- هذا إن حالفك الحظ، ووجدته صاحبياً.

فقال مكسيم بامتعاض:

- كُفي عن هذا، فهو ليس سكيراً إلى ذلك الحد. ثم إن أبراهام سيراه في أثناء الدوام فقط، وهو في الغالب سيكون صاحبياً.

فقالت نادبة موجهة الكلام لأبراهام:

- وهل ستستجم هناك؟

- أجل، أفكر في ذلك.

- يجب ألا تفكر، بل أن تحزم أمتعتك فوراً إذا سنحت لك الفرصة: فأنا أُلح على مكسيم منذ فترة كي نستجم هناك لبعض الوقت، ولكنه يتحجج دائماً بأتفه الأسباب.

فقال مكسيم مازحاً:

- لأنه ينبغي للمرء الاستجمام في مثل تلك الأماكن وحيداً، وإلا لما كان في الموضوع أي راحة.

- هذا ليس صحيحاً. إلا إذا كنت كعادتك تُبيت لأمر ما هناك!

فقام أبراهام وهو يجاهد في إخفاء ابتسامته، ثم قال بتودد صادق:

- اسمحوا لي بالانصراف، فقد أخذنا الوقت. سعدت بمعرفتك نادبة.

- وأنا أيضاً .

- إلى اللقاء مكسيم .

- إلى الغد يا صديقي، وأتمنى أن تكون معي أخبار جيدة آنذاك .

- أتمنى ذلك . إلى الغد .

توجه أبراهام من فوره إلى منزله، حيث أخذ مبلغاً من المال، وكيساً كبيراً، ثم توجه إلى شارع النيفسكي. وما إن وصل إلى هناك، حتى ولج في أحد المنعطفات، وخلع معطفه وقبعته ووضعهما في الكيس، ثم ربط شعره إلى الوراء مخفياً سؤالقه، وعاد ثانية إلى ذلك الشارع الكبير بمتاجره الراقية، ليبداً رحلة التسوق التي طالما راودته في أحلامه. لم يكن أبراهام يتخيل أن تلك الرحلة ستمتد إلى قرابة الشهر، فقد قابل إيوسف بيلتش الذي حدد له موعد الالتحاق ببيت الاستجمام في منتصف الشهر المقبل. ولم يكن هناك ما يرغب بفعله في تلك المدة إلا التسوق. لذا كان يتسوق كالمخدر، فلم يكن يعرف ماذا يريد بالضبط، حتى إنه كثيراً ما اشترى ملابس كان هو نفسه يشك بأنه سيرتديها حقاً. وأخيراً امتلأت حقيبته الجديدة، وحن الموعد الذي طال انتظاره. مر على أبراهام قرابة الشهرين في المنتجع، لا يغادر غرفته إلا وقت الطعام، أو لاستبدال الكتاب الذي أنهاه بكتاب آخر، وكانت الكتب التي يبحث عنها هناك مختلفة كل الاختلاف عما كان يقرؤه في العادة، حيث صار يرغب في معرفة المزيد عن الأديان الوضعية خارج نطاق اليهودية أو "الأديان الإبراهيمية"<sup>(١)</sup> المتمسحة بها<sup>(٢)</sup>، فمع أن البوذية وعبادة الشيطان لم ينجحا في إقناعه بألتهنم المزيفة، إلا أن منطق مكسيم المنكر لوجود الإله بالأصل قد نجح في إثارة فضوله فعلاً، ودفعه ذلك إلى محاولة

(١) يقصد المسيحية والإسلام. حيث لا يعترف اليهود بشرعية تسميتهما بـ "الأديان السماوية" لأنهم لا يؤمنون أصلاً بأن كتابيهما أنزلا من السماء. أما المسيحيون فيعترفون بسماوية كتاب اليهود، ولكنهم يتكروون ذلك بالنسبة إلى الإسلام. في حين يعترف المسلمون بسماوية إنزال كتابي اليهود والنصارى (مع أنهم يتحفظون على المحدثات التي طرأت على كلمة الله تعالى فيه) ويطلقون عليهم لقب "أهل الكتاب" أو "الكتابين".

(٢) هذه هي وجهة النظر اليهودية السائدة.

دراسة نقد الكتاب المقدس، ونظرية التطور، والفكر الشيوعي، والعلمانية، وفلسفات الإلحاد بصورها كافة. وقد ازداد فضوله أكثر عندما قرأ مباشرة لمفكرين ملحدين، فوجدهم مُقنعين، بعد أن كان في السابق يقرأ عنهم فقط بأقلام خصومهم الذين جهدوا في تشويه منطقهم، وتدرجياً أصبح يفكر بجدية في إعادة النظر بفكرة وجود الله، ومن ثم بالأسلوب الذي سينتهجه عندما يغادر المنتجع.

بدأ أبراهام بارتياحاً مطعم المنتجع، ولم يعد يقصر طعامه على الفاكهة والخضار، كما كان يفعل في بداية إقامته، عندما كان لا يزال متخوفاً من تناول طعام غير طاهر دينياً. ومع مضي الوقت صار يهمل قُدسية يوم السبت، ولم يعد يقوم بأي من الواجبات الدينية الأخرى التي قضى حياته في التزام صارم بها. كما لم يعد يجهد نفسه في تبرير تجاوزاته على أنها حالة مؤقتة للتمكن من إعادة ترتيب الأفكار، وأخذ شعوره السابق بتأنيب الضمير لتساهله في أداء الفرائض يتلاشى شيئاً فشيئاً، وبدا وكأنه قد اعتاد على واقعه الجديد وقطع شوطاً بعيداً في التأقلم معه.

كان يقرأ بنهم، ولم يكن يرغب بارتياح المرافق الترفيهية في المنتجع، ولا حتى بإنشاء علاقة مع أي من النزلاء أو العاملين فيه حتى لا يفسد خلوته وتأملاته، إلا أن إيوستف كان الاستثناء الوحيد لتلك العزلة التي فرضها على نفسه؛ فقد كان ذلك الأخير يزوره بين الفينة والأخرى، ليطمئن عليه، ويتجاذب معه أطراف الحديث. في البداية كان أبراهام يسامر من قبيل المجاملة فقط، تقديراً للخدمة التي يسديها إليه، ولكن مع مرور الوقت توطدت العلاقة بينهما، فقد كان تشدقه المتفلسف كبير الشبه بأسلوب المفكرين اليساريين الذين يقرأ أبراهام لهم حالياً. وفوق ذلك كان خفيف الظل، رغم ثقل وزنه، وقسماته الصارمة التي تعطي انطباعاً خاطئاً عنه في الوهلة الأولى. أصبح أبراهام ينتظر زيارات إيوستف بلهفة، خاصة عندما كان يستعصي عليه فهم منطق بعض الأفكار الواردة في أحد الكتب، ويرغب بمناقشتها مع من يستطيع أن يدلي بدلوه



فيها . وكان إيوسف مؤهلاً لذلك بامتياز؛ فهو ماركسي، متيقن من عدم وجود الرب ومن أن الأديان هي بدعة من اختراع الإنسان نفسه .  
كان إيوسف يعتقد جازماً بأن فكرة الدين قد نشأت في المراحل النهائية لتطور الإنسان، عندما أصبح الإنسان البدائي قادراً على ممارسة الصيد، والتقاط أثمار الأشجار العالية، في حين صارت المرأة تنتقل بين الرجال ممارسةً البغاء، كي توفر حاجتها من الغذاء الذي لم تكن مهيةً عملياً للحصول عليه مثلهم . وأنه لا بد أن أحد الرجال الأذكيا قد ابتدع فكرة تفسير قوى الطبيعة، بوجود رب ما، يجب أن يُعبد بإخلاص حتى يقوم بحمايتهم مما يستعصي على إدراكهم<sup>(١)</sup>، وأنه استغل ذلك

(١) حسب رأي علماء علم الأجناس "Anthropology" كان الإنسان في بدايته بسيطاً في تفكيره وفي استيعابه للظواهر الطبيعية مثل الليل والنهار، والمطر والرعد والبرق وما شابه ذلك، ثم ارتقى بتفكيره في خط مستقيم من الأدنى إلى الأعلى !!! وهذه الفكرة الساذجة هي في الحقيقة مجرد نظريات قديمة ظهرت في أواسط القرن التاسع عشر . لكن مع تقدم الأنثروبولوجيا، والمراجعات التي تمت للمفاهيم القديمة حول المجتمعات التي تسمى بدائية، أدى ذلك إلى ظهور جيل من الأنثروبولوجيين في الغرب أخذ يرى بوضوح أن المجتمعات التي ندعوها بدائية ليست مرحلة طفولية من مراحل تطور البشر، بل هي شكل تام من أشكال الحياة الإنسانية الناضجة والمكيفة بنفسها . أشهر الكتب التي تجد فيها هذا المعنى واضحاً هو كتاب "البداية" لـ "أشلي مونتاغيو" وهو يضم عدة بحوث ممتازة كتبها أنثروبولوجيون معاصرون حول إعادة مصطلح البدائية . في هذا الكتاب يستعرض أحد الباحثين وهو "فرانسيس ك. ل. هسو" ثلاثين كتاباً في الأنثروبولوجيا، ويخلص إلى أن استخدامات مصطلح البدائية تتسم بالغموض والتضارب، ويؤكد أن مفهوم البدائية غدا من النواحي التجريبية، والتطورية، والعلمية مفهوماً بالياً، وإن كان ما يزال يتمتع بدرجة عالية من الشبوح بشكل يتصف بالغموض والتضارب! وانعدام المعنى من الناحية العلمية .  
ويشير "مونتاغيو" إلى أن معظم الثقافات التي تدعى بدائية بعيدة عن البدائية وعن البساطة . فهذه الثقافات في العديد من النواحي أعقد من أي ثقافة عربية . ويشير أيضاً إلى أن مصطلحاً بهذا القدر من الغموض وعدم التحديد إما أن يعاد تحديده معناه أو أن يشطب، إذا أمكن، من قاموس العالم، وأنا أعتقد - يقول - أن المصطلح يستحق الحل الثاني . وفي الكتاب نفسه ينه "إدوارد ب. دوزير" إلى الفهم الخاطئ عند جمهور القراء من غير المختصين الذين قبلوا المعاني السلبية التي توحى بها المصطلحات الأنثروبولوجية عن المجتمعات اللاكتابية، لذا فإن الافتراض الشائع بين الناس العاديين عندما يستخدم اصطلاح البدائية ليصف مجتمعاً لا كتابياً معيناً، هو أن مثل هذا المجتمع متخلف عرقياً وعقلياً وثقافياً .

في توطيد سلطته على أقرانه، وكذلك في إقناع إحدى النساء الجميلات بمجموعة مبتدعة من القوانين والأخلاقيات التي يتطلبها ذلك الرب، كالزواج والأسرة وحُرمة الخيانة الزوجية؛ ليضمن بذلك انصياعها له وحده، وعدم ممارسة الجنس مع غيره. وربما كبر أبناؤه وأعجبوا بأهمهم الفاتنة، فقتلوا أباهم الذي كان يقف بينهم وبينها، مما ولد لديهم عقدة الذنب بالنسبة إلى ذلك "الأب"، ومن ثم تقديسه وتحريم نكاح المحارم. وأن هذا، أو أمراً مشابهاً له، كان النواة التي شكلت الأديان التي نراها اليوم، بعد أن مرت بمراحل عديدة من التطور عبر آلاف السنين.

الغريب أن أيوسف كان يدافع عن أفكاره تلك بإصرار كبير، لكنه وفي الوقت نفسه، كان يفخر بيهوديته التي كانت تعني له الكثير! ففي إحدى المرات تطرق بحديثه إلى تفكيره الجدي بالهجرة إلى إسرائيل لأن الحياة في روسيا لم تعد تطاق في ظل الأزمة الاقتصادية الراهنة. وحين سأله أبراهام عن سر اختياره لإسرائيل بالذات دون الولايات المتحدة أو إحدى دول أوروبا الغربية التي تتمتع باقتصاد أقوى بكثير، ولا سيما أنه لن يضطر هناك إلى مقاتلة السكان المحليين؛ أجابه باستهجان صارخ، بأن إسرائيل هي الأرض التي وعد الله بها شعب إسرائيل، وأن الواجب يحتم على كل اليهود بطريقة أو بأخرى المساهمة في تحقيق هذا الوعد<sup>(١)</sup> وتباهى بكونه لم يتنكر لواجبه المقدس في يوم من الأيام، حتى إنه شارك عدة مرات في حملات جمع التبرعات لدولة إسرائيل!!! وهو ما زاد من تعجب أبراهام وأثار فضوله لمحاولة فهم تناقضاته المربكة، فذكره بكلامه السابق عن عدم وجود الرب وزيف الأديان. وهنا انفجر أيوسف بوجهه صائحاً:

(١) في خطاب رئيس الجمهورية الفرنسي (ممثلة العلمانية وفصل الدين عن الدولة) "نيكولا ساركوزي" في الكنيسة، القدس - الاثنين في ٢٣ حزيران/يونيو ٢٠٠٨ الذي اعترف فيه بأن جده كان يهودياً، قال في معرض حديثه عن مؤسسي الكيان الصهيوني: "مؤمنون أو لا، لا شك بأنه لم يكن بوسع أي منهم إلا تذكر كلمة التوراة التي لم يتوان عن تلقيها كل يهود العالم إلى أبنائهم: (وقال الأبدي لموسى: اصعد إلى قمة هذا الجبل وانظر إلى البلد الذي أعطيه إلى أولاد إسرائيل)".

- أي حاخام أرثوذكسي أنت؟! ألا يفترض بأن تكون أكثر إيماناً من ذلك؟! لقد بدأت الشكوك تساورني بشأن هويتك.

طأطأ أبراهام رأسه بحسرة قائلاً:

- لم أكن أعرف أن مكسيم يملك لساناً طويلاً<sup>(١)</sup>.

ثم تنهد بعمق ورفع راسه مردفاً:

- غزيزي إيوسف إن أحد أهم أسباب اعتكافي في هذا المكان هو مراجعة حساباتي بالنسبة إلى التابوات التي لم أكن أجروُ على مناقشتها سابقاً، حتى بيني وبين نفسي، وأهمها حقيقة وجود الرب، وحقيقة التناقضات التي تُنسب إليه.

- لقد قال لي ذلك أيضاً، ولكنني لم أصدقه. طوال هذه الفترة وأنت تحثني على التحدث عن الإلحاد، دون أن تصدر عنك أية حمية دينية، لدرجة أصابتي بالإحباط الشديد، فمن يبالي بوجود الرب وبقدسية الشعب والأرض إن لم يبالي حاخام أرثوذكسي، هاااا!؟

- المعذرة. ولكنك حتى أمس كنت تحاول إقناعي بالإلحاد والأممية، فهل تحاول اليوم إعطائي دروساً في الإيمان والقومية اليهودية؟  
- لا أبداً. كما أنني لم أحاول إقناعك بشيء مطلقاً، فقد كنت فقط أجيّب عن أسئلتك، ساعياً إلى حوار عقلاني مع يهودي، بعد أن مللت من الغوييم الأغبياء من حولي.

أفلتت ابتسامة ساخرة من أبراهام وقال مستنكراً:

- الغوييم الأغبياء؟! وماذا عن الأممية، والمساواة، وحقوق الإنسان، وغيرها من المبادئ التي كنت تتغنى بها طيلة نقاشاتك السابقة؟

(١) يقصد الروس من هذا التعبير كثرة الثروة، وعدم حفظ السر. وهم يختلفون في ذلك عن المعنى الذي نقصده باللغة العربية.

- غريب أن يصدر هذا الكلام منك أنت بالذات.

- لماذا؟

- لأنك رجل دين.

- عدنا إلى بيت القصيد . فأنت في الأصل ضد فكرة الدين، فكيف لا تكون ضد فكرة رجل دين؟! وكيف تستهجن تنكُّره لبعض المبادئ الدينية التي تكفر أنت نفسك بمنشئها!!! ما هذا الهراء؟ ثم لم الصراخ وأنا معك بنفس الغرفة!؟

- لا أعرف، أنا... أنا لم أقصد... ربما كان ذلك من تأثير الخمر. اعذرني.

مرت فترة من الصمت استعاد فيها أبراهام كلمات محدثه عدة مرات محاولاً استيعاب صدورها عن ملحد مثله، أو فهم قصده من ورائها، ولكن دونما جدوى. وبدا له من التعابير المرتبكة التي ارتسمت على وجه إيوسف أنه كان يفعل الشيء ذاته. وبدا أن الكلمات قد نفذت منهما كليهما، فنظر إيوسف إلى ساعته ثم قام متجهاً نحو الباب وهو يقول:

- يجب أن أعود إلى مكتبي الآن. أخبرني إن احتجت أي شيء.

- سوف أفعل. شكراً.

أغلق أبراهام باب غرفته مجدداً، واستلقى على السرير واضعاً يديه خلف رأسه. وأخذ يفكر في تعقيدات النفس البشرية. فالإنسان وإن كان كافراً بالدين كما يدَّعي. فهو بحاجة بطريقة أو بأخرى إلى أن يتعزى بوجود رجال دين: أناس يتمتعون بالإيمان الذي يتباهى هو برفضه. ومهما تبجح بالكفر بوجود الله، وأقام الأدلة على ذلك، فلا بد أن تسلم فطرته بوجوده في لحظة ما: مثل التعرض إلى الخطر، أو فقدان عزيز، أو تَمَنِّي شيء ما بقوة، كما شاهد ذلك مراراً. بل ربما في لحظة سكر، كما رأى قبل قليل!!!

ثم أخذ يفكر في التراكم المتناقض في شخصية أغلبية اليهود، حيث يتداخل الإلحاد مع نوع من التدين الانتقائي بمزيج مميز، ثم ما لبثت ابتسامه تهكمية أن ارتسمت على وجهه مجدداً عندما تذكر خيراً قرأه منذ سنوات، عن رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلي السابق آنذاك<sup>(١)</sup>، وكيف أنه سأل ضيفاً أجنبياً ذات مرة:

- هل أنت يهودي أم مسيحي؟

فرد الرجل:

- أنا ملحد!

فأردف بعصبية:

- أوكي، أوكي. ولكن ملحد يهودي أم ملحد مسيحي؟

(١) وهو "رافول إيتان" مؤسس حزب تسوميت "مفترق الطرق" الذي كان أهم الأحزاب اليمينية خارج كتل "الليكود"، ويعد أشد تطرفاً منه.

## ◀ اتباع الهوى وكشف المستور

خرج أبراهام من صالة الطعام بعد تناول فطوره، ولكنه هذه المرة لم يعد إلى غرفته كالعادة، بل توجه نحو الحديقة ليتمشى ويفكر بحواره مع إيوسف ليلة أمس، ثم ما لبث أن توقف متردداً لينظر إلى الأعلى نحو نافذة غرفته حيث يوجد كتاب شائق في نقد التناخ لـ"باروخ سبينوزا"<sup>(١)</sup> اسمه "رسالة في اللاهوت والسياسة" لم يمه قراءته بعد، إلا أنه عاد وتابع سيره مجدداً، فلم تكن لديه رغبة في القراءة اليوم.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يتجول فيها بحديقة المنتجع، وقد فوجئ بكبر مساحتها، كما فوجئ بوجود بركة للمياه المالحة في أحد أطرافها، قام بجانبها مصح صغير للعلاج بالطين والمساج، إلا أن أكثر ما فاجأه هناك هو كثرة الفتيات شبه العاريات اللاتي تمددن تحت أشعة الشمس حول البركة، وفي مناطق مختلفة من أرجاء الحديقة سعياً لاكتساب اللون البرونزي.

كان أبراهام عادة يجاهد نفسه في غض البصر عن تلك المشاهد، إلا أنه هذه المرة تساهل في ذلك كثيراً، مما أثار حيرته، وجعله يتساءل عن السبب الحقيقي وراء ذلك: أهو بسبب تحرره من ملابسه الحاخامية السوداء التي كانت تفرض عليه قيوداً كثيرة، أم بسبب أنه بات ينظر إلى التلهي باللذات الجسدية العابرة كوسيلة للتخلص من القلق الفكري الذي أنتجته تلك النظريات العبثية التي قرأ عنها مؤخراً، والتي تحط من قدر الإنسان وتسويه بالبهائم، على طريقة: "جئت لا أعلم من أين ؟ ولكنني أتيت. ولقد أبصرت أمامي طريقاً فمشميت"، أو ربما لوجوده في منطقة لا يعرفه فيها أحد. لكن

(١) من أشهر الفلاسفة اليهود وقد صدر بحقه قرار ديني بالحرمان بسبب إلحاده وتهجمه على التناخ والمؤسسة الحاخامية.

ذلك كله لم يكن مهماً الآن، المهم هو أن يتخلى عن غيائه السابق، وألا يضيع المزيد من الوقت في ما لا جدوى واضحة من وراءه، فهو لا يرغب أن يكون مصير صيف عام ٢٠٠٧، الذي يقارب على الانتهاء، كمصير أصياف الأعوام الستة والعشرين التي أضع فيها فتوته وشبابه دون جدوى، لذا سارع إلى شراء لباس سباحة، ونظارة شمسية، ليعود سريعاً إلى البركة قبل أن يفكر أكثر بالموضوع، فيغير رأيه.

جلس أبراهام في مكان استراتيجي، مكنه من استراق النظر بحرية من وراء نظارته السوداء، متظاهراً بالقراءة كي يخفي مقصده، ولفت نظره شاب عابث كان يتنقل بخفة بين الفتيات، حتى استقر له الأمر مع إحداهن، وأخذ يدلك جسدها الغض بزيت الحماية من أشعة الشمس اللاهبة وهو يتبادل معها أطراف الحديث، وما أن قامت الفتاة مؤدعة بعد أن تأكدت أنه قد سجّل رقم جوالها واتفقت معه على اللقاء ثانية كما يبدو، حتى أن انتقل الشاب إلى الجهة المقابلة حيث أخذ يساعد الفتيات هناك على دهن أجسادهن بالطين، فقارن أبراهام في ذهنه بين مرح ذلك الشاب ولهوه، وبين جديته هو وانشغاله في أمور، ربما لا تشغل أي حيز من تفكير أقرانه المنغمسين في مباحج الحياة.

تساءل بريبة:

- أياكون باروخ سبينوزا، و"أوريل داكوستا"<sup>(١)</sup>، أو حتى مكسيم، وإيوسف محقّين بالنسبة إلى مسألة عدم خلود النفس، التي ليس لها فعلاً أي تأكيد في التوراة، وأنها فكرة جاء بها الربانيون المتأخرون؟! لو كانوا محقّين في ذلك فقط، وكان الموت هو النهاية، والحياة الآخرة مجرد كذبة، فيا لسعادة ذلك الشاب وهنائه، وبالعاسستي وشقائي.

(١) فيلسوف يهودي آخر عارض التلمود، واتهمه بتحليل التوراة بأكثر مما تحمله فعلاً. وقد كان مصيره الحرمان أيضاً، ولكن بطريقة أكثر مأساوية وإذلالاً.

عند ذلك عقد أبراهام العزم على أنه لن يكتفي بمجرد النظر، بل البدء بمحاولة تعويض كل ما فاتته في حياته البائسة. وبعد مراقبة طويلة وقع اختياره على أكثر الفتيات خفة وتحراً، ثم انتظر حتى انتهت من السباحة، فقام مستجمعاً كل جرأته وافتتح معها حديثاً عابراً في طريق العودة إلى المبنى السكني، حاول أن يستحضر فيه كل ما أمكنه من خفة الظل والدعابة. وبالفعل صدقت توقعاته بشأن تلك الفتاة، فبعد فترة وجيزة من تبادل الحديث أمام مدخل البناء، تمكن من إقناعها باستكمال حديثهما الشائق في غرفته ذات الإطلالة الخلابة، وقبول ضيافته من الشاي الأخضر المثج الذي لا يستطيع أحد في العالم تحضيره بنفس طريقته المبتكرة كما قال لها. ولكن ما إن فتح باب غرفته حتى سقطت قصاصة من الورق، كانت قد حشرت بين دفتي الباب، فالتقطها وقرأ فيها:

"عزيزي أبراهام لقد وصلنا اليوم. وغرفتنا هي التالية لغرفتك تماماً (رقم ١٣).  
مكسيم وناديا."

اكتست ملامح وجهه بالامتعاض، والتفت إلى الفتاة محاولاً الاعتذار عن دعوتها كي يتخلص من ذلك المأزق المخرج، ولكنه فوجئ بها وقد أصبحت في الداخل، تقف عند النافذة لتتحقق من دقة وصفه، فأغلق باب الغرفة بسرعة خشية أن يراه أحد، ثم أبعدا عن النافذة بلطف، طالباً بلباقة تأجيل الدعوة بسبب مستجدات خاصة، ولكن سرعان ما اكتشف أن إخراجها من غرفته كان أصعب بكثير من دعوتها إليها. وبعد جهد كبير نجح في إقناعها بإنهاء تلك الزيارة المشؤومة، بعد أن أسر لها أنه من عائلة يهودية محافظة جداً، وأن أحد أقربائه وزوجته قد وصلا اليوم، ويقيمان في الغرفة المجاورة، وانتزع منها وعداً بعدم الإشارة إلى معرفتها به، في حال صادفته معهما.

دخل أبراهام غرفته حانقاً، بعد قيامه بتهريب الفتاة من غرفته بحذر مبالغ فيه كأنه أحد أبطال الأفلام الكوميديا الهابطة، ثم استبدل بملابسه على عجل ملابس



أكثر وقاراً، وهو يلعن قدره الذي يضمن عليه ببعض الحرية والخصوصية. فهذا هو ذا اليوم، وبعد كل تلك المدة التي قضاها عاكفاً على القراءة، يقرر أن يلهو قليلاً، مستغلاً فرصة عدم وجود أحد يعرفه هنا، ليأتي -وفي اليوم نفسه- جاره الثرثار وصديقه البلهاء.

أخذ أبراهام نفسه عميقاً، وجاهد في رسم ابتسامة دبلوماسية على وجهه وهو يقرع باب غرفة مكسيم ونادية، اللذان ما أن قابلاه حتى انفجرت أساريرهما بغفوية صادقة وعانقاه بلهفة كبيرة، جعلته يخجل من الأفكار التي كانت تجول في رأسه بشأنهما.

- اشتقنا إليك أيها العزيز أبراهام، ولكن لا يبدو أنك قد تشناق لأحد هنا.

قال مكسيم وهو يفسح له المجال للجلوس.

- ليس الموضوع كذلك، ولكنني كنت بحاجة إلى بعض الخلوة.

- بعض الخلوة؟! لقد وصلنا منذ الصباح، وأنت لم تعد إلى غرفتك إلا الآن.

قالت نادية متبسمة، فأجاب أبراهام بحياء:

- وهل الخلوة في الغرفة فقط؟ لقد كنت أقرأ تحت إحدى الأشجار بالحديقة.

- معك حق، فمن ذا الذي يجلس بغرفته في جو مشمس كهذا؟! لكن ألم تشعر

بالحر طوال تلك المدة؟! خصوصاً بهذه الملابس غير المريحة!

قال مكسيم غامزاً، فشعر أبراهام بأنه يعلم أكثر مما كان يظن، وتأكد شعوره أكثر

عندما رأى نادية تحاول إخفاء ابتسامة خبيثة كادت تفلت منها، فقال قاطعاً الطريق

على لعبته:

- لم أكن بتلك الملابس بالطبع؛ فقد عدت واغتسلت من رمال البركة، ثم بدلت

ملابسي لأتوجه إلى المكتبة، لكنني لاحظت قصابة الورق على الأرض، فقررت المرور

عليكما أولاً.

- البركة!؟

قال مكسيم متظاهراً بالتعجب. فأجاب أبراهام بهدوء:

- أجل. فكما قلت أنت قبل قليل: من الخسارة أن نضيع يوماً مشمساً كهذا.

- وهل استطعت التركيز في القراءة وسط ذلك الضجيج؟

- ليس كثيراً، ولكن بعض التغيير مطلوب من وقت لآخر.

- أحسنت.

- إذن سوف تذهب معنا للسباحة غداً. أليس كذلك؟

قالت نادية بفرح لم يدرك أبراهام مغزاه، فرد قائلاً:

- لا أظن، فلقد اكتفيت اليوم.

- دعك من هذا يا صديقي، فلا أحد يكتفي من الطبيعة وجمالها. سنذهب معاً

في الغد.

قال مكسيم مداعباً. فرد أبراهام بشرود:

- دع الغد للغد، وسنرى حينها. والآن اعذراني فسأذهب إلى المكتبة قبل أن تغلق

أبوابها.

- حظاً طيباً. سأمر عليك مساء، هذا إن لم تكن لديك خطط أخرى.

- أي خطط يمكن أن تكون لي هنا؟! على الراح والسعة وقتما أردت. إلى المساء.

- إلى المساء يا عزيزي.

دق مكسيم الباب بلطف، فأجاب أبراهام من الداخل:

- ادخل، فالباب غير مقفل.

- مساء الخير يا عزيزي أبراهام.

- مساء الخير مكسيم. تفضل بالجلوس.

- شكراً. سأدخل في الموضوع مباشرة. أولاً: أنا أسف لإخبار عمي بأنك حاخام.

صدقني لقد كانت مجرد زلة لسان، وذلك عندما كنت بزيارة لعمي قبل أسبوع واحد فقط، وقد رجوته ألا يفاتحك بالأمر، ووعدني بذلك فعلاً، إلا أنك تعلم الخمر وتأثيرها.

- لا عليك، اعتبر الموضوع منتهياً.

- أشكرك. فقد شعرت بالانزعاج كثيراً عندما أخبرني عمي بما حصل.

- لا تهتم، ولا داعي لذكر الموضوع ثانية.

- كما تريد... هناك أمر آخر إذا اتسع لي صدرك.

- تفضل.

- إن آخر ما أرغب به هو التطفل على خصوصيات شخص ما، ولكنني ولسبب لا

أدرك ماهيته، أراني مهتماً بك كثيراً، ودائم السؤال عنك. ومما عرفته من عمي، عن طبيعة أسئلتك، والكتب التي تقرؤها مؤخراً، فإنني أظن أنه قد أكون ذا نفع كبير لك...

هذا بالطبع إذا رغبت بمكاشفتي بمكنون صدرك.

- يبدو أنني تحت المراقبة هنا.

- لا تسئ فهمي، فأنا فقط أحاول المساعدة.

تنهد أبراهام بعمق، وقال ناظراً إلى عيني مكسيم مباشرة:

- كنت تعرف أنني كنت عند البركة اليوم، أليس كذلك؟

- أجل. فقد استعلم عمي، بناء على طلبي، عن مكان وجودك حال وصولنا، وعلم

أنك هناك. وقد انتظرناك طويلاً قبل أن نقرر أنا ونادية موافاتك إلى البركة.

- كنتما هناك؟! كيف لم ألحظكما؟

قال أبراهام بهلع، فأجاب مكسيم بتلقائية قائلاً:

- سأكون صريحاً معك. فقد كان واضحاً أنك كنت مشغولاً ب... باستكشاف ما

حولك... بالطبع لا يوجد أي عيب في ذلك، ولكنني أعرف مدى حساسيتك جيداً،

ففضلت عدم إزعاجك.

تنفس أبراهام الصعداء، فيبدو جلياً أنهما قد غادرا قبل أن يتعرف بتلك الفتاة المستهترّة، ولكن الشعور بالحرج لانكشاف أمر استراقه النظر إلى الفتيات كان لا يزال جاثماً على صدره، فسأل بخجل:

- وهل لاحظت نادية ذلك أيضاً.

- للأسف كان الموضوع مكشوفاً أكثر مما تظن، لكنها تفهمت ذلك جيداً. ففي النهاية أنت رجل، ولست مرتبطاً، لا بزوجة ولا برفيقة. وكل ما أزعجها هو أنني أجبرتها على العودة معي، مع أنها كانت تتحرق شوقاً للسباحة.

- ولم فعلت ذلك؟

- حرصاً على عدم التسبب لك بأي إحراج لك، ولإعطائك الفرصة للترويح عن نفسك قليلاً دون تحفظ.

أطرق أبراهام مفكراً فيما سمعه من مكسيم، وأحس بأنه صادق في حديثه ومشاعره، وربما كان قد أساء الظن به فعلاً. لذا لم ير ضيراً في كشف مكنون صدره له، خصوصاً أنه بات يظن أيضاً أن شخصاً مثله قد يكون ذا نفع كبير له في الوقت الحاضر. فضلاً عن أنه لم يعد يبالي لا بالمظاهر، ولا برتبته الدينية، ولا بأي من تلك الصغائر، أمام ما كان يعانيه من صراع داخلي عنيف. كما أن فكرة أن يتكلم دون تحفظ حول شكوكه وتساؤلاته، بدأت تروق له نوعاً ما، فرفع رأسه ونظر إلى مكسيم قائلاً:

- ما رأيك بأن نتمشى قليلاً في الحديقة؟

مضت فترة ليست بالقصيرة لاذ فيها أبراهام بالصمت وهو يمشي مطأطئ الرأس، عاقداً يديه خلف ظهره. وفجأة قال بقنوط، كأنه يتكلم مع نفسه:

- ما الذي يحصل معي في الفترة الأخيرة؟! فأنا لم أكن هكذا من قبل.

آثر مكسيم الصمت، وعدم مقاطعته. وبعد عدة لحظات رفع أبراهام نظره إلى الأعلى كأنه يطلب العون من الله، ثم ما لبث أن عاد وطأطأ رأسه ثانية وقال بحسرة:  
- أشعر بالضياح؛ فأنا أخسر إيماني.

ثم صمت ثانية، ليعود فيقول بعد برهة:

- لكنني لا أكسب شيئاً في المقابل. أشعر بأني بين بينين؛ فلا أنا مؤمن، ولا أنا ملحد. بداخلي شيطان وملاك يتصارعان على ما بقي مني. قال لي أستاذاً في آخر مرة رأيته فيها: "إما أن تؤمن أو لا تؤمن" لكنني لا أستطيع أن أحسم أمري، فليت الاختيار كان بين الأبيض والأسود، ولكنه للأسف بين تدريجات متداخلة من اللون الرمادي... أنا لست معتاداً على الخوض في شؤوني الخاصة مع أحد، ولكن حصلت في الفترة الأخيرة أشياء كثيرة لم أكن معتاداً عليها، وقد ضقت ذرعاً من القراءة ومن التفكير وحيداً.

- كلي أذان صاغية. ولكن دعنا نجلس على تلك الهضبة، فالموضوع أكبر من أن نتناوله كحديث عابر.

جلس الاثنان على مرتفع صغير بجانب شجرة ضخمة، وأخذ أبراهام يعبث بالعشب الأخضر بجانبه وهو يقول:

- إن الأعاصير تعبت بسفينتي في عرض البحر، دون أن تدع لها مجالاً للرسو على بر الأمان.

هم مكسيم بالتعليق، ولكنه تردد قليلاً مؤثراً الاستئذان أولاً:

- أريد أن أعرف حدود المجال المسموح لي بالتحرك فيه كيلا نصطدم ثانية، فأنت تعرف جيداً رأيي في الدين ووجود الله. أفتطلب من وراء حديثك هذا معي مجرد حسن الاستماع، أم مساعدتك على البحث عن الحقيقة والعثور على بر الأمان حسب قناعاتي؟

فأجاب أبراهام بقنوط:

- بل الثانية، إن استطعت إلى ذلك سبيلاً؛ فقد حاولت جاهداً أن أقتنع بالإلحاد دون جدوى: فإيماني أقوى من أن أُلحد، لكنه أضعف من أن ينتشلني من متاهات الشك.

- أنا أفهمك تماماً. ومن تجربتي الخاصة أستطيع القول جازماً: إن هذا بالذات هو بداية الطريق إلى الإلحاد. فالإلحاد هو آخر حلقات التطور الإنساني، حيث يتخلص الإنسان من الأفكار البدائية، ويقطع عن إدمان "آفيون الدين" الذي كان يتلهى به عن واقعه المرير تطلعاً إلى الآخرة المزعومة.

- لا أظن ذلك: فمع أنني لم أعد أوّمن بأي شيء بشكل مطلق، إلا أنني لا أستطيع تجاهل الإيمان بالرب.

- وهل أنت متأكد من أنك كنت تؤمن فعلاً بشكل مطلق في يوم من الأيام؟  
- ماذا تعني؟

- أعني أنك تؤمن مثلاً بوجود الله بشكل مطلق، أم بحكم تراكم ما تربيت عليه، وتعلمته، وسمعته منذ الصغر؟

- ما الذي تحاول الوصول إليه؟

- حسناً. فلنأخذ الموضوع بالتدرّج. أكنت مؤمناً باليهودية لأنك بحثت في كل الأديان، ووجدت في النهاية أنها وحدها هي الدين الحق، أم فقط لمجرد أنك ولدت يهودياً؟

- بل لأنها الطريق الوحيد إلى الرب.

- وما مصدر هذه المعلومة؟ أليس اليهودية نفسها؟ وهل يعقل أن يكون دليلك الوحيد على صحة منهج معين هو ادعاء ذلك المنهج نفسه لذلك؟ فإذا أردت البحث عن الحقيقة، فاجعل بحثك وحصولك على المعلومات من أكثر من مصدر.

- وما تلك المصادر التي تقترحها؟  
 - العلم مثلاً. فهل تراه مصداقاً لكتب اليهودية؟  
 - وهل الكتب المقدسة كتب بالأحياء والكيمياء لتتفق أو تختلف مع كتب العلم الحديث؟

- كلا بالطبع، ولكن العلم الحديث أثبت وجود أخطاء علمية شنيعة فيها: كاستحالة أن يعم طوفان واحد جميع سطح الأرض<sup>(١)</sup>. صحيح أن الأبحاث الجيولوجية على المتحجرات وعلى طبقات الأرض تظهر أن الفيضان حدث فعلاً في الشرق الأوسط في العصور القديمة، ولكنها نفت المعتقد الديني السائد بأن الطوفان المذكور قد شمل جميع أصقاع الكرة الأرضية، وفي تلك الفترة بالذات. فالتوراة تضع أبراهام مابين ١٨٠٠ إلى ١٨٥٠ ق.م، والطوفان حدث قبله بثلاثة قرون، أي في القرن الحادي والعشرين أو الثاني والعشرين قبل الميلاد تقريباً، في حين تؤكد المكتشفات العلمية أن هذا الزمن قد شهد ازدهار العديد من الحضارات في جميع أنحاء الأرض، بما فيها منطقة الشرق الأوسط بالذات. ففي مصر على سبيل المثال كانت تلك هي المرحلة الأولى المتوسطة قبل الأسرة الحادية عشرة، وفي بابل كانت الأسرة الثالثة لأور. ولم يكن هناك انقطاع بين تلك الأسر وبين سابقاتها أو لاحقاتها.

- إن التنازل عن الدين الفطري الراسخ في النفوس في مقابل مكتشفات وعلوم تجريبية تتغير نظرياتها كل يوم، يعد صفقة خاسرة؛ إذ تتغير العلوم المعاصرة يومياً، ونظرية تهدم أخرى. أما الرب فكامل منذ الأزل لا يطرأ عليه تغيير.

- عزيزي أبراهام، إذا أردت الخروج من الدوامة التي أنت فيها الآن، فيجب أن تكف عن ترديد ما تسمعه كالبيغاء. تجرد ولو مرة واحدة من كل ذلك اللفظ الذي

(١) لحديث هنا عن السرد الكتابي لحادثة الطوفان، وتعارضه مع العلم. ولمقارنة ذلك بالسرد القرآني للحادثة نفسها، وموافقة العلم لها، راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

حَشَّوْا به رؤوسنا منذ الصغر، وحاول أن تصل بنفسك إلى الحقيقة دون تبني أي وجهة نظر مسبقة. دعنا من كل النظريات والفرضيات غير المثبتة، ولنتكلم فقط على الحقائق التي لا تقبل الجدل.

- تفضل.

- إن أساس اليهودية هو التوراة. أليس كذلك؟

- بالتأكيد.

- حسناً. فإذا كان الأساس باطلاً، كان كل ما بني عليه باطلاً أيضاً. ألا توافقني

في ذلك؟

تتهد أبراهام بقنوط، وقال مُسايراً:

- هات ما عندك.



## ◀ الاحتكام إلى العلم

سُرَّ مكسيم بما اعتبره إشارةً على بدءٍ تقبُّلٍ أبراهام لفكرة إخضاع التوراة للنقد العلمي واسترسل قائلاً:

- حسناً. كما تعهدت لك سابقاً، فأنا لن أقرب من النظريات التي تفترض وجود أخطاء علمية شنيعة في التوراة، ولن أتحدث عن الأخطاء التاريخية والجغرافية في عدم توافق أسماء المدن، وزمن بنائها، أو اندثارها، وأسماء حكامها، وزمن الأحداث التي أثروا بها، أو غيرها من الأخطاء الأخرى التي تحتمل الأخذ والرد، مع أن أكثرها يؤكد بعضها بعضاً، وترسم الكثير من إشارات الاستفهام حول مصداقية التوراة. كذلك لن أقرب من الخرافات التوراتية السخيفة ك"الخرقان التي تتوحم"<sup>(١)</sup>، و"الطائر ذو الأربعة أرجل"<sup>(٢)</sup>، و"الجدران والأقمشة المصابة بالبرص"<sup>(٣)</sup>، و"زراعة الملح"<sup>(٤)</sup>، و"فك الحمار الذي هو أكثر فتكاً من الكلاشينكوف في عصرنا هذا"<sup>(٥)</sup>، و"ضربة القمر"<sup>(٦)</sup>: فسأترك هذا كله، ولكن دعني فقط أتحدث عن الأمور العلمية المثبتة يقيناً.

(١) اقترح يعقوب على حميه أن تكون أجرته هي كل أرقط وأبلق وأسود من الغنم. " وأخذ يعقوب قضبان حور خضراً ولوزاً ودلباً، وقشر فيها خطوطاً تكشف عن بياض القضبان، وأوقف القضبان المقشرة تجاه الغنم في أحواض مجاري الماء، حيث كانت ترد الغنم لتشرب. فكانت توحم الغنم على القضبان، فتلد ما هو مخطط وأرقط وأبلق " (سفر التكوين ٣٠ : ٣٧-٣٩).

(٢) جاء في سفر اللاويين ١١ : ٢٣ : " لكن سائر ديبب الطير الذي له أربع أرجل فهو مكروه لكم " .

(٣) جاء في اللاويين ١٣ : ٥٩ : " هذه شريعة ضربة البرص في ثوب الصوف أو الكتان في السدى أو اللحمية أو في كل متاع من جلد للحكم بطهارته أو نجاسته " .

(٤) جاء في سفر القضاة ٩ : ٤٥ : " وحارب ايمالك المدينة كل ذلك اليوم وأخذ المدينة وقتل الشعب الذي بها، وهدم المدينة وزرعها ملحاً " .

(٥) جاء في سفر القضاة ١٥ : ١٥ : " ووجد فك حمار طربياً فمَدَّ يده وأخذه وضرب به ألف رجل " .

(٦) جاء في المزامير ١٢١ : ٦ : " لا تضربك الشمس في النهار ولا القمر في الليل " .

- تفضل.

- ذكرت التوراة أن الله قد خلق النور والظلام في اليوم الأول، وفصل بينهما، فسمى النور نهاراً والظلام ليلاً، التكوين (١: ٣-٥)، "وكان مساء وكان صباح: يوماً واحداً، ثم خلق الرب الجلد وفصل بين المياه ودعا الجلد سماء، وكان مساء وكان صباح: يوماً ثانٍ". ثم تذكر خلق النباتات مضيئة في الآية ١٣: "وكان صباح يوماً ثالثاً". هل تلاحظ معي: وكان مساء وكان صباح تكررت ثلاث مرات أي لثلاثة أيام.

- وما العيب في ذلك؟

- العيب ليس في العبارة البليغة، إنما في الشمس التي أشرقت وغربت ثلاثة أيام قبل أن تخلق أصلاً!!! فالتوراة تخبرنا أن الله قد خلق الشمس والقمر والكواكب في اليوم الثالث (١: ١٦-١٨)، فكيف كان هناك ليل ونهار بدون الشمس والقمر!!! بل بدون السماء نفسها أول يوم!!!؟

أطرق أبراهام مفكراً دون أن ينبس ببنت شفة، فتابع مكسيم قائلاً:

- كما ذكرت التوراة مرة أن الله خلق النباتات والحيوانات أولاً ثم خلق الإنسان بعد ذلك، التكوين (١: ٢٠ - ٢٧)، ولكنها ذكرت مرة أخرى (وفي السفر نفسه) أن الله قد خلق الإنسان أولاً ثم خلق الأشجار والحيوانات، التكوين (٢: ٧، ١٩)، فأياً نصي التوراة نصدق!!! ثم زعمت التوراة أن الأرض مسطحة، بل ولها زوايا موافقة بذلك المستوى العلمي السائد حين كتابتها (حزقيال ٧: ٢)، وذكرت في التكوين (١: ١: ٣١): "أعجب الله بما خلق" في حين جاء في (التكوين ٦: ٦-٥): "لم يعجب الله بما خلق وحزن وتأسف"<sup>(١)</sup>، فكيف يمكنك تبرير كل ذلك!!!؟

(١) في كتابه لدراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة الذي أسماه "التوراة والإنجيل والقرآن والعلم" يقول د. "موريس بوكاي": "لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم وذلك دون أي فكر مسبق، وبموضوعية تامة، باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث. وكنت أعرف، قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات، أن القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظواهر الطبيعية، ولكن معرفتي كانت =

كان أبراهام يعرف كل هذه التناقضات غير المفهومة جيداً، لذا فلم يجروء على الرد واكتفى بأن قال متتهماً دون أن يرفع رأسه:

- وماذا أيضاً؟

- لقد اكتشفت أجزاء من هياكل عظمية لأناس عاشوا قبل نحو ٣.٥ مليون سنة، وهياكل عظمية كامل لطفل عاش قبل نحو ١.٦ مليون سنة (طفل توركانا حفزية رقم KNM-WT ١٥٠٠)، وربما استطاع العلم في المستقبل أن يحدد لذلك تواريخ فوق تقديراتنا الحالية، غير أننا نستطيع أن نطمئن إلى أنه لن يمكن أبداً إثبات أن الإنسان قد ظهر على الأرض منذ ٥٧٣٦ سنة فقط، كما تدعي التوراة<sup>(١)</sup>. ألا تتفق معي في ذلك؟

لاح بصيص من الأمل أمام أبراهام للإجابة هذه المرة، فقد تعلمَّ الحجة الجاهزة للرد على هذه الإشكالية الخطيرة، فرفع رأسه مُردداً كاللبغاء:

= وجيزة. وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها: أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث. وبالموضوعية نفسها قمت بالفحص نفسه على العهد القديم والأنجيل. أما بالنسبة إلى العهد القديم فلم تكن هناك حاجة إلى الذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول، أي: سفر التكوين، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخاً في عصرنا. وأما بالنسبة إلى الأنجيل فما تكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة في مواجهة مشكلة خطيرة ونعني بها شجرة أنساب المسيح. وذلك: أن نص إنجيل متى يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا. إن ما يصدنا حقاً في أيامنا هذه أن نرى المتخصصين في دراسة النصوص يتجاهلون ذلك التناقض والتعارض مع الحقائق العلمية الثابتة، أو يكشفون عن بعض نقاط الضعف ليحاولوا بعد ذلك التستر عليها مستعينين في ذلك بـ"بهلوانيات جدلية".

(١) يربط مفسرو التوراة تاريخ البشرية كلها ببني إسرائيل، مختصرين الحقبة الزمنية الطويلة بين آدم وإبراهيم عليهما السلام إلى بضع مئات من السنين غير ذات أهمية، اللهم إلا من جهة التحضير لولادة شعب الله المختار. مع أن الإسلام يؤكد أن تلك الحقبة أطول بكثير من كل ما لحق بها، وأن رسلها أضعاف مضاعفة من الرسل الذين وصل إلينا خبرهم. كما أن الرسول \* قال: بعثت والقيامة كهاتين. وأشار إلى السبابة والوسطى. مما يدل على القصر المتناهي للمدة المتبقية بينه وبين القيامة، مقارنة بطول المدة التي انقضت بينه وبين بداية خلق البشرية.

- صحيح أن أغلب كبار الحاخامات يصرون على أن عمر الأرض هو كما ورد في التوراة، ويؤمنون بأن التاريخ الذي جاء فيها هو تاريخ حقيقي بالمفهوم المادي، ولكن هناك من يرى أن ما ورد في التوراة ليس حقائق تاريخية، وإنما فلسفة تاريخ، وهم لا يجدون أي صعوبة في قبول الحقائق العلمية المتعارضة ظاهرياً كالحاخام الشهير "مناحم منديل" مثلاً.

نظر مكسيم إليه باشفاق، ورد قائلاً:

- أنا أعرف أن هناك مدارس عديدة تتباين آراؤها في قصص التوراة، إذ يرى البعض أن التاريخ الذي يرد فيها هو تاريخ رمزي. وإبراهيم مثلاً ليس شخصية تاريخية، حسب هذا التصور، وإنما يمثل مرحلة تاريخية فحسب. ومن ثم فهو رمز أكثر أهمية ودلالة وعمقاً من الواقعة التاريخية نفسها، وهناك من يذهبون إلى النقيض ويحاولون دراسة التاريخ من خلال المعلومات الواردة في العهد القديم. وثمة من يسلكون طريقاً وسطاً بين المدرستين. حيث يسترشد الباحث بالتاريخ المقدس في معرفة التاريخ الفعلي دون أن يكون ذلك ملزماً له. وحسب علمي فأنت تتبع المدرسة الثانية، ومن ثمّ تعتبر تاريخ الكتاب المقدس تاريخاً حقيقياً مقدساً، وليس مجرد فلسفة تاريخ، أليس كذلك؟

صمت أبراهام دون أن يحرك ساكناً، فتابع مكسيم قائلاً:

- على أية حال فلنتجاهل هذا الدليل أيضاً، ولننتقل إلى دليل آخر على خطأ ادعاء التوراة في هذه النقطة نفسها، ولكن من منظور آخر. فالتوراة تؤكد أن الله خلق الأرض والإنسان في الأسبوع نفسه، أليس كذلك؟

خمن أبراهام ما يريد مكسيم الوصول إليه، فأثر الصمت ولم يجب، فتبسم مكسيم وتابع قائلاً:

- دعني أنعش ذاكرتك قليلاً: الأرض في اليوم الأول، والإنسان في اليوم السادس.

لكن العلم قد أثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن عمر هذه الأرض هو نحو ٤ بلايين سنة، أي إن هذا هو عمر البشرية أيضاً بناءً على التوراة ذاتها!!! مع أننا في عام ٥٧٦٨ من التقويم العبري (٢٠٠٧م) المستند إلى حساب التوراة من زمن خلق العالم وسكنى آدم للأرض!!! فإما أن يكون الله قد خلق الأرض والإنسان في زمنين متباعدين، وإما أن يكون عمر الإنسان ٤ بلايين سنة. وعليه: لا يشكل عمر الشعب المختار الذي خلقه الله على صورته، وخلق جميع الناس لأجله، أكثر من لحظات في تاريخ البشرية<sup>(١)</sup>. وفي كلتا الحالتين تتنافى التوراة مع الواقع.

ظل أبراهام واجماً لا يدري ما يقول، فقال مكسيم كأنه حسم النقاش نهائياً:  
- وهكذا يا صديقي فما من مسألة ناقض العلم فيها الدين إلا وكان الصواب بجانب العلم والخطأ حليف الدين.

لم يحتمل أبراهام التسليم بتلك النتيجة الفاسدة وقال مُدافعاً:  
- إذا كان ذلك ثابتاً كما تقول، فهو ربما يثبت خطأً في الحساب، وليس خطأ التوراة نفسها التي لا يمكن أن تخطئ.  
فأجاب مكسيم متأففاً:

- بعد كل هذا ما زلت تكابر وتقول أن التوراة لا يمكن أن تخطئ!!! يا لك من مخادع عنيد. حسناً، فلنرَ مقدار الخطأ في تحديد الأسفار التي تحتويها التوراة. طبعاً التناخ بشكل عام يسمى توراة، ولكن جميع الحاخامات متفقون أن الأسفار الخمسة الأولى فقط هي توراة موسى<sup>(٢)</sup>. أليس كذلك؟

(١) تذكر دائرة المعارف البريطانية أن الآثار الإنسانية في فلسطين ترجع إلى مئتي ألف سنة، ويقول العلامة دونالد جان سنة ١٩٧٩م: "كشف وجود الإنسان على وجه الأرض منذ أربعة ملايين سنة".

(٢) وهي: سفر التكوين، سفر الخروج، سفر اللاويين، سفر العدد، وسفر التثنية. وقد جاء في revised standard version النسخة المنقحة للكتاب المقدس ١٩/٧١ ص ١٢ عن هوية كتبة هذه الأسفار أنهم غير معروفين، ولكن تلك الأسفار "نسب عامة" إلى موسى!!!

- بالتأكيد .

- رائع، ولكن إذا أمعنت النظر والتمحيص في تلك الأسفار، فإنك "بالتأكيد" لن تكون واثقاً من ذلك: فهناك مقاطع تدل على أن التوراة هي فقط سفر التثنية مثل: "سفر الناموس هذا" (تثنية ٢٨ : ٦١)، "سفر الشريعة هذا" (تثنية ٣٠ : ١٠)، وكتب موسى هذه التوراة وسلمها للكهنة بني لاوي حاملي تابوت عهد الرب، ولجميع شيوخ إسرائيل" (تثنية ٣١ : ٩)، " فعندما أكمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها" (تثنية ٣١ : ٢٤)، وفي سفر يشوع: "كما هو مكتوب في سفر توراة موسى" (يشوع ٨ : ٣١)، فتلك المقاطع تدل على أن التوراة هي سفر التثنية فقط، وأنها هي الوصايا والشرائع والتعليمات، ولها ارتباط بموسى. ومعنى ذلك أنه لا علاقة لما قبلها من بقية الأسفار الخمسة بها. ونستطيع أن نتقبل ذلك بكل سهولة نظراً إلى أن تلك الأسفار بها إشارات عديدة تشير إلى أنه لا علاقة لها بموسى فعلاً، بل تتكلم عليه بضمير الغائب. ولكن الغريب في الأمر أن ذلك يتكرر حتى في سفر التثنية نفسه، والأغرب من ذلك أن كاتبه يقول في نهايته: "فمات موسى عبد الرب في أرض موآب... ولا يعرف أحد قبره إلى الآن" التثنية (٣٤ : ٧-٥)، ثم يقول: "ولم يقم من بعد نبي في بني إسرائيل كموسى" التثنية (٣٤ : ١٠)، وهذا يعني أن السفر قد كتب (أو على الأقل أضيف عليه) بعد موسى بمدة طويلة كافية لهذا الجزم. فما هي "توراة موسى"<sup>(١)</sup> فعلاً؟ أهي الأسفار الخمسة الأولى من التناخ، أم فقط سفر واحد منها، أم فقط ما في ذلك السفر من وصايا وتشريعات وتعاليم؟ وكاتبها أهو موسى فقط أم اشترك فيها أنبياء قبله وبعده؟!!!

أشاح أبراهام بنظره قائلاً:

(١) إذا تحرينا الحقيقة والدقة فيجب التفريق التام بين "التوراة" وبين "كتاب موسى". ويدعم هذا أن القرآن الكريم لم يقرن التوراة بموسى ولو لمرة واحدة. لمزيد من المعلومات والتفاصيل راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

- هذه أسخف أسئلة سمعتها في حياتي: فأني يهودي، بل أي مسيحي يعلم أن التوراة هي كتاب موسى وحده، وأنها تُشكل الأسفار الخمسة الأولى من التناخ أو العهد القديم كما يسميه المسيحيون.

- دعنا مما يظن أولئك المخدوعون أنهم يعلمونه، ولنستد إلى العلم والمنطق فحسب.

قال مكسيم متهمكاً، فأجاب أبراهام بتحدٍ:

- هات ما عندك.

- إن ما يُدعى بتوراة موسى مؤلف من خمسة أسفار وعدد إصحاحاتها هي كالتالي: تكوين ٥٠، خروج ٤٠، لاويين ٢٧، العدد ٣٦، والتثنية ٢٤ إصحاحاً. بإجمالي نحو ١٨٧ إصحاحاً. ولو افترضنا أن متوسط عدد الآيات داخل هذه الإصحاحات نحو خمسين آية، وأن متوسط عدد الأحرف نحو ٣٠٠ حرف، فتكون المعادلة كالتالي:

$$١٨٧ \text{ إصحاحاً} \times ٥٠ \text{ آية} \times ٣٠٠ \text{ حرف} = ٢٨٠٥٠٠٠$$

مليونان وثمان مئة وخمسة آلاف حرف في تلك الأسفار الخمسة. ولنر وسائل التدوين في تلك الحقبة الزمنية السحيقة منذ نحو ٣٠ قرناً. كيف كان الناس يدونون؟ وما وسائل التدوين آنذاك؟ لدينا عدة خيارات: وهي الحجر، الخشب، العظم، الجلد.

فهز أبراهام رأسه بالنفي قائلاً:

- لقد نسيت ورق البردي.

فأجاب مكسيم بثقة:

- لأنه مستبعد تماماً أن يكون موسى قد كتب عليه؛ وذلك ببساطة لأن الرب عندما أمر شعب إسرائيل أن يخرجوا من مصر ويسرقوا المصريين<sup>(١)</sup> لم يذكر لهم

(١) هكذا يقول كتابهم: "بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين" خروج ٣-٢٢.

أهم شيء، وهو أن يأخذوا نبات البردي الذي يظهر على سطح النيل! ثم إنه في غاية الأهمية أن نعرف أنه لو طلب ذلك لكان ورق البردي المستخدم في كتابة تلك الأسفار الخمسة، المنسوبة إلى موسى، سوف يسد النيل من أسوان إلى الإسكندرية، وهذا أمر غير معقول، فورق البردي لم يكن بهذه الوفرة، وإلا ماتت الأسماك ومنعت الملاحه في النيل، ولجفت مصر. كما أن الكتابة على ورق البردي لم تكن مكتشفة، أو على الأقل لم تكن شائعة آنذاك. فما هي بقية الاحتمالات إذن؟ ها؟ أنا لا أسمعك!  
فأجاب أبراهام مُسلماً:

- الحجر والخشب والعظم والجلد.

- عظيم. فلو تم تقطيع هذه الأشياء بمقدار متر × متر فسيكتب على اللوح الواحد نحو خمس مئة حرف كحد أقصى. ولو قسمت ٥٠٠/٢٨٠٥٠٠٠٠٠ إذن سنحتاج إلى ٥٦١٠٠ لوح بأحد الأنواع السابقة. دعنا نرى أولاً الاحتمال الأول:

نحتاج إلى ٥٦١٠٠ لوح، والوزن الخاص بالحجر ٥ كيلو = ٢٨٠٥٠٠ كغ، ولو كان خشباً فالوزن ٣ كيلو: أي ١٦٨٣٠٠ كغ، ولو كان عظماً فيكون ٢ كيلو = ١١٢٢٠٠ كغ، ولو كان جلدًا ووزن الجلد ١ كيلو=٥٦١٠٠ كغ. وخلاصة القول أنه مهما كانت الوسيلة التي كان سيلجأ إليها موسى آنذاك لكتابة ما ينسب إليه حالياً، فإن ذلك سيحتاج إلى وزن يقدر بالأطنان!!! خاصة أن سفر يشوع يقول أنه نقش هناك على الحجارة نسخة توراة موسى التي كتبها أمام جميع بني إسرائيل (يش ٨: ٣٢، ٣٣). إذن فتوراة موسى، المكتوبة على الحجارة، كانت تزن نحو مليونين وثمان مئة وخمسة آلاف كيلوغرام يا صديقي!!! فتخيل أي خيمة<sup>(١)</sup> كانت ستسعها!!! وكيف يمكن لكبير الكهنة المسكين أن

(١) أمرهم النبي موسى عليه السلام أن يضعوها في خيمة الاجتماع (مكان العبادة) بجوار تابوت المقدس، وألا تخرج منها إلا إذا أراد أي ملك يهودي أن يكتب لنفسه نسخة لتكون عنده ثم يعيد النسخة الأصلية إلى الكهنة (تثنية ١٧ : ١٨).



يقرأها كاملة وبدون انقطاع في "عيد المظالم" أمام كل اليهود<sup>(١)</sup>.

ظهر السأم على وجه أبراهام، وقال متهرباً:

- حسناً هذا يكفي. فلتتكلم فقط بما لك به علم. ولتدع ماهية التوراة وتقسيمها لأهل الاختصاص.

- لماذا؟ ألا تكفي الفطنة، والإحاطة بأصول المسائل في هذا الموضوع، لتشغيل الميكانيكيات الذهنية في اتجاه اصطلياد والتقاط العقل للتفسير الحقيقي له والوقوف على خلفياته؟!

- كلا بالطبع: فعندما يتعلق الأمر بالتوراة المقدسة، فإن هذا لا يكفي مطلقاً. تبسم مكسيم باشفاق، وقال موضحاً:

- التوراة لم تعد مقدسة منذ القرن التاسع عشر، بعد أن اكتشفت اللغة المسمارية لـوادي النهرين يا صديقي، فقبل ذلك كان العالم ينظر إلى التوراة باعتبارها تاريخاً حقيقياً له، ولكن ما إن بدأت رحلة فك شيفرة ألواح بابل وآشور وأوغاريت، وما سبقها من نقوش مصرية، حتى تكشف غطاء القصص التوراتي، ويانت عوراته ومدى ارتباط "نصوصه المقدسة" بميثولوجيا الشرق القديم التي سبقته بمئات وآلاف السنين. ومع نهاية القرن العشرين وبعد قرن من التنقيب الأركيولوجي<sup>(٢)</sup> ونبش أرض إسرائيل، رفع

(١) لقد طالبهم موسى عليه السلام بأن يفعل ذلك مرة كل سبع سنين (ثنية ٣١ : ١٠) ولو لم يكن كتاب موسى صغيراً فعلاً، لما طلب أن يقرأ كاملاً في يوم عيد، ولا أظن أنه طلب أن يقرأ عليهم تاريخ البشرية منذ آدم عليه السلام وأخبار الأنبياء! والممالك وصفة الهيكل وعدد غرفه ووظائف الكهنة والأناسيد العاطفية، وغير ذلك مما يخرج كثير منه عن الشريعة التي جاء بها. وعلى الأغلب، فإن كتاب موسى هو نفسه "كتاب شريعة الرب" المفقود، الذي ذكر في التوراة أن أحد اليهود قد وجده بين حطام الهيكل المحروق والمدمر، ثم قرأه كله عليهم من الصباح حتى الظهر.

(٢) الأركيولوجيا Archaeology علم الآثار، وهو علم يُعنى بالكشف عن مخلفات الماضي التي تعكس تطور الحياة البشرية والمعارف والتقنيات عبر العصور، ودراستها وتحليلها سواء أكانت هذه المخلفات مادية أم فكرية.

الكثيرون الراية البيضاء. فعلم الأركيولوجيا أثبتت أسطورية عصر الآباء<sup>(١)</sup>، وتهافت روايته التي حبكت خيوطها مع الأب إبراهيم ثم الخروج من مصر بقيادة موسى واقتحام كنعان، وصولاً إلى المملكة الموحدة لداوود وسليمان في يهودا والسامرة، فكل هذه الأحداث ما هي إلا تراثاً قصصياً أنتجته مخيلة الكهنة والكتبة.

أشاح أبراهام برأسه مجدداً وهو يحرك يديه بعصبية، كنايةً عن عدم رغبته في سماع المزيد، إلا أن مكسيم تجاهل ذلك تماماً، وتابع قائلاً:

- إن معرفة التراث اللغوي القديم (الأكادي والمصري والآرامي.. إلخ) أدخل علوم اللسانيات في مرحلة معرفية شائكة، وأسقطها أحياناً في دوائر تأويلية مغلقة؛ وذلك بسبب مقدمات خاطئة فرضت نفسها على ذهنية البحث؛ فكثير من الباحثين الأوائل كانوا مسكونين بهاجس لاهوتي لإثبات حقيقة الكتاب المقدس، وتأكيد جغرافيته، أو حبيسين للنسق الكرونولوجي<sup>(٢)</sup> وهيمنة الحقب الزمنية المقدسة. حتى "نيوتن" نفسه لم يكن قادراً على تحدي فكرة خلق العالم بستة أيام، ولا "جاليليو" الذي ارتجفت مفاصله عندما واجهته المحكمة بقصة يشوع واقتحامه لكنعان، وكيف أوقف الله الشمس له في السماء. وكيف أن هذا بحد ذاته عد دليلاً دامغاً على بطلان نظريته في كروية الأرض ودورانها حول الشمس!

- دعك من هذا.

- لماذا؟

- لأن التوراة بالذات لا تخضع إلى علم أرضي ولا إلى مصطلحات فلسفية فارغة كتلك التي تتشدد بها الآن، بل تتطلب علماً وإلهاماً إلهين للإحاطة بأمورها المختلفة.

- أه. تقصد كعلم مفسري التوراة ومؤلفي التلمود وإلهامهم مثلاً؟! الذين ابتدعوا

(١) يقدر حسب التوراة الحالية بالفترة ما بين ١٨٠٠ ق.م و ٩٧٠ ق.م.

(٢) الكرونولوجيا هي علم التقسيم الزمني أو حساب التواريخ؛ وبمعنى أدق العلم الذي يهدف إلى جدولته تسلسل الأحداث التاريخية المتعلقة بمنطقة ما أو جماعة أو حتى شخصية بعينها.

فيه كل ما لم يخطر على البال من تقاليد وممارسات غير متفقة مع التوراة نفسها، حتى أصبح "جامعاً مانعاً" بشكل لا يكاد يدع للفرد اليهودي حرية الاختيار في أي وجه من وجوه النشاط في حياته العامة أو الخاصة، ولدرجة أن أصبحت واجبات بسيطة وواضحة مثل راحة السبت، لا يمكن أن يطبقها اليهودي إلا من خلال تعاليم غاية في التعقيد، وليس لها أصل في التوراة؛ فقد وضع الحاخامات قائمة مفصلة تتضمن تسعة وثلاثين عملاً من الأعمال الأساسية، وأضافوا إليها سلسلة أخرى من الأعمال الفرعية وغيرها.

- إن واجبات السبت ليست بالبساطة التي تتصورها؛ فهي أكثر بكثير من يوم راحة كالأحد عند المسيحيين أو الجمعة عند المسلمين. إن يوم السبت هو "يوم سبوت الرب"<sup>(١)</sup>، ونحن بحاجة إلى الدراسات التلمودية لمعرفة قوانينه والقواعد اللازمة لمراعاته.

فأجاب مكسيم بحسرة قائلاً:

- لكن هذه الدراسات التلمودية قد انفصلت تماماً عن الواقع يا صديقي، بحيث انغمست في الجدل البيزنطي الذي لا يربطه أي رابط مع مشاكل اليهود وحياتهم. وحيث إنك تنظر إلى تقديس السبت بكونه يوم راحة الرب كما جاء في (خروج ٢٠: ١١). إلا أنه في سفر التثنية لا يوجد أي ذكر للخلق، وإنما الإشارة فقط إلى أن السبب هو أن السبت كان يوم الخروج من مصر (تثنية ٥: ١٢ - ١٥)، ومع ذلك سنضع هذا المثال جانباً أيضاً، ونأخذ مثلاً آخر على انفصال تلك الدراسات عن الواقع؛ فمن الضروري مثلاً ألا يتزوج الكاهن إلا بعدزاء، ومع أن الهيكل هُدم وانتهت العبادة القربانية، واختفت طبقة الكهنة، إلا أن التلمود والحاخامات استمروا في مناقشة أدق

(١) يتصد راحة الله، تعالى الله عما يصفون. وصدق جل جلاله إذ يقول: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ". [ق: ٣٨] صدق الله العظيم.

التفاصيل الخاصة بذلك التحريم، مثل محاولة تعريف العذراء؛ فيتساءل التلمود عن امرأة تمزق غشاء بكارتها بسبب حادث وقع لها، فتطرح أسئلة مثل: أوقع الحادث قبل سن الثالثة أم بعدها؟ وعن طريق جسم معدني أم خشبي؟ وهل وقع الحادث بسبب تسلق شجرة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فأوقع الحادث في أثناء صعودها أم في أثناء نزولها من الشجرة؟ وذلك إلى جانب عشرات من الأسئلة الأخرى التي تتبعها تشريعات أكثر تعدداً. أقيمتُ هذا كله بأي صلة إلى شريعة موسى، أم إلى تعاليم الأنبياء أو الكهنة قبل عصر الرايين!!!

كان أبراهام يلمس الكثير من المنطق فيما يطرحه مكسيم، لكنه وجد نفسه يدافع آلياً عن إرثه الديني، فقال محتداً:

- وما أدراك أنت كيف كانت اليهودية زمن موسى والأنبياء؟!

- دعك من هذا يا صديقي. إن كبار الحاخامات أنفسهم يعترفون بأن اليهودية اليوم تختلف اختلافاً جذرياً عنها في العصر التناخي. إن التلمود قد طرح الكثير من المسائل التي لم يكن لها أصل في التوراة، وبنى على طروحاته الكثير من الفتاوى والتعاليم التي لم تخدم إلا إحكام سيطرة الرايين على الشعب لكونهم القادرين وحدهم على تفسير الشريعة.

- لا أنكر ابتداء بعض المحدثات والتعاليم الإضافية عبر التاريخ اليهودي، ولكن الهدف من ورائها كان وقاية اليهود من إغراءات الدياسبورا، والتحريض من إمكانية الإهمال التدريجي غير المقصود لبعض ظواهر التشريع، وليس السيطرة على أحد.

- ولكن بغض النظر عن الهدف من وراء تلك المحدثات، ما الذي يجبر اليهود على الالتزام بها، وهي تناقض شريعتهم؟!

- لأن تلك التعاليم لم تنشأ من العدم، فهي نتاج مناقشة التعاليم الشفوية لموسى نفسه.

- هات دليلك على صحة نسبة تلك التعاليم الشفوية إليه.

- إجماع الفقهاء الذين فسروا التوراة، وهم كبار الحاخامات.  
 - ذكرتني بمقولة مشهورة، وهي: "إذا توهم شخص ما وحده فإننا نقول إنه مجنون، أما إذا توهمت مجموعة من الناس فإننا أمام ظاهرة نسميها... الدين". اسمح لي يا صديقي أن ألفت انتباهك إلى أن كبار الحاخامات هؤلاء قد ابتدعوا الشريعة الشفوية من القواعد الشعبية التي ترجع جذورها إلى الخرافات الشائعة، وجعلوها الأساس الذي تستند إليه رؤيتهم الدينية، والمحور الذي تدور حوله. وهدف هذه الكذبة هو الهيمنة باسمها، واكتساب الحق في إصدار تفسيرات للتوراة، لا تستند بالضرورة إلى النص، ولكنها تهدف إلى حماية الأوامر التوراتية حسب فهمهم لها، مدّعين أن التوراة قد أصبحت خاضعة لتفسير الإنسان ما إن أنزلها الله عليه، وأن الله نفسه قد وافق على أنه يجب أن يفسر الحاخامات "العارفون بتعاليمه الشفوية" ما قاله هو. وبناء على هذا تقرر أن الشريعة الشفوية (ثمرة جهود الحاخامات) تصدر عن الإرادة الإلهية، شأنها في هذا شأن الشريعة المكتوبة. وهكذا مات مؤلف النص الخام، وولد مفسر المعنى الباطني.  
 - ربما كان هناك أخطاء في التلمود، لكنك لا تستطيع أن تنكر أنه الحل لمشكلة المعنى، ففيه الكثير من الأمور الفقهية والعقائدية التي لم تُفصل في التوراة، وبدونها ستنهار شريعة موسى نفسها.

تكتشفت أسنان مكسيم عن ابتسامة عريضة وقال بنبرة يشوبها الاحساس بالإنذار:  
 - الآن جئت بالحق؛ فإن شريعة موسى قد انهارت فعلاً، وانتهى عمرها الافتراضي. فجاء التلمود كنتيجة لمحاولة إنعاش الميت، الذي قطعت أشلاء أصيلة منه، ووصلت به أخرى هجينة ساعدته على الاستمرار بالحياة، ولكن على طريقة "مسخ فرانكشتاين"<sup>(١)</sup>.

(١) مسخ مكون من أشلاء ميتة، جمعت من جثث مختلفة، ثم دبت فيها الحياة بواسطة صعقها بكمية كبيرة من الكهرباء. وهو شخصية خيالية ابتدعتها الكاتبة "ماري شيلي" وتناولتها العديد من أفلام الرعب والخيال العلمي.

## ◀ تكويم العلم

قطع مكسيم حالة الصمت والجمود التي خيمت على صديقه الحائر قائلاً:

- ما لك لا ترد يا عزيزي أبراهام؟ أخبرني إن كنت مخطئاً.

- أعترف بأن ما تقوله يحوي بعض المنطق، ويستحق الكثير من التأمل، ولكنه متناقض وغير مترابط تماماً. فتارة تنتقد التوراة كلها، وتشكك بها، وتارة تعتبرها سفر التثنية فقط، معتمداً إياها دون بقية الكتب الخمسة، ثم تعود فتعتمد التوراة كلها، وتنتقد التلمود باعتباره تشويهاً لها!

- لقد قصدت فقط أن أفتح أمامك بعض مجالات التأمل من جوانب مختلفة لم تعتد التطرق إليها. فكيفما أدرت موضوع الدين، تجد خللاً وفساداً، بدءاً بوجود الرب نفسه، ومروراً بالكتاب المنسوب إليه، وانتهاءً بالكتب الأخرى التي أضيفت إلى ذلك الكتاب، أو جاءت لتفسيره. فكل كذبة تنشأ عنها بمرور الزمن كذبة أخرى، لتتفرع عنها فيما بعد أكاذيب مختلفة بنظام تراكمي عجيب.

نظر أبراهام إلى السماء وقال سارحاً:

- ووجود الرب الذي خلقك تعتبره كذبة أيضاً؟!

- حسناً، إذا سلمت جدلاً بأنه لا بد من وجود رب خلقتني. فمن خلق ذلك الرب؟

- الرب يَخْلُق ولا يُخْلَق.

- ومن قال ذلك؟ فإذا كان لا بد من خالق لكل شيء، فما الذي يمنع من وجود خالق

لذلك الخالق؟

كان أبراهام متأكد من فساد حجة مكسيم الأخيرة، إلا أن الحقائق المغيبة التي كشفها له قبل ذلك كانت قد ألجمت لسانه عن الرد، وسهّلت على محاوره دس ما شاء من الأكاذيب، فتهرب قائلاً:

- لا أستطيع الرد على ذلك، ولكنني مع هذا لا أزال موقناً بوجود خالق خلق كل شيء ولم يخلقه أحد .

- ما مصدر يقينك؟ لكن أرجوك لا تستشهد ثانية برسله وكتبهم، وحاخاماته وتفسيراتهم؛ حتى لا ندور في الحلقة المفرغة نفسها .

- من الأفضل أن نتوقف عن هذا: فقد خرج الموضوع عن المقبول، وأصبح مجرد تجديف وهرطقة<sup>(١)</sup> .

فقال مكسيم متأففاً:

- إف. نفس التهمة الجاهزة التي يواجه بها العقل عند أي نقد جدي. يا صديقي، إن العلم هو وحده الحق والحكم، وهو مصدر النور، كما أنه منبع المعرفة، أما الدين فجمود ورجعية وخرافات وأساطير. وقد قال الله في التوراة عندما علم أن آدم وحواء قد أكلا من شجرة المعرفة: "هو ذا آدم قد صار كواحد منا يعرف الخير والشر والآن لعله ليمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل فيحيا إلى الدهر. فأخرجه الرب الإله من جنة عدن"<sup>(٢)</sup>. (تكوين ٣: ٢٢، ٢٣)، فالرب قد حرم آدم من المعرفة ليظل جاهلاً فلا ينازعه الأمر إذا تعلم<sup>(٣)</sup>. لذا، فإذا عُرِضت مسألة، فليخرس الدين ولينطق العلم. ليبعث العلماء ويستخرجوا قوانين الطبيعة وأسرار الكون في الهواء الطلق بعيداً عن

(١) هرطقة Heresy جمعها هرطقات Heresies ويستعملها الكتابيون، وخصوصاً المسيحيون بمعنى كفريات أو زندقة أو بدع، والصفة منها مهرطق أو هرطوقي heretic. للمزيد من المعلومات حول أصل ومعنى الكلمة، راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف .

(٢) صدق " فولتير " (صاحب هذه العبارة التي أوردتها على لسان مكسيم) في نقده للتوراة الحالية، وكذب في نقده للذات الإلهية . إذ لم ير إلا كتباً قد طالتها يد التحريف والتبديل، ولو رأى كتاباً معصوماً لم تعبت به أيدي البشر، لما وجد هو ولا غيره من طليعة الإلحاد المعاصر حاجة إلى نقده إن أحسن الظن بهم، أو ثغرة إن أسأنا الظن بهم، وهم بسوء الظن أجدر . وفولتير هو اسم مستعار ذاعت شهرته، أما اسمه الحقيقي فهو "فرانسوا- ماري أرويه"، ولد في ٢١ تشرين الأول/نوفمبر ١٦٩٤م، وتوفي في ٣٠ أيار/مايو ١٧٧٨م .

الدين، فالدين شيء والعلم شيء آخر لا علاقة بينهما إلا التضاد . وإذا كان لابد من إخضاع أحدهما للآخر فليخضع الدين ولتطبق كل حقائق الدين، كالوحي والمعجزات والروح والخلود، داخل المعامل والمختبرات، وإلا فلتسقط ولتخرس إلى الأبد .  
في تلك اللحظة جاء صوت ذو لكنة جنوبية<sup>(١)</sup> من شبح انتصب فجأة أمام الشجرة التي يجلسان قريبا :

- أيها الشباب، أعتذر طبعاً عن التطفل، ولكنكما أنتما من جلستما بجاني، وقد خضتما حديثاً شائناً كان من الصعب أن أصرف آذاني عنه، خاصة في هذا الهدوء المطلق.

ظهر الضيق واضحاً على وجهيهما واستعد مكسيم للقيام، قائلاً وهو يتصنع اللباقة:  
- نأسف لإزعاجك وقطع خلوتك.  
- لا داعي للأسف، بل أنا الذي آسف على عدم تنبيهكما لوجودي أصلاً، ولكنني ارتبكت في البداية ولم أعرف ماذا أفعل . هل تسمحان لي بالجلوس معكما، فلدي من الجعة ما يكفي ثلاثتنا .

عاد مكسيم إلى الجلوس، خاصة بعدما لاحظ أن أبراهام لم يقم معه، وأخذ زجاجة الجعة التي ناوله إياها الجنوبي ثم قال متسائلاً وهو يفتحها:  
- ولكن ما الذي يدفعك إلى الجلوس وحيداً في مثل هذا الوقت؟  
- آه . تلك قصة طويلة، ولكنني سأختصرها بجملة واحدة: "أنا رجل يسهل خداعه من قبل النساء".

فعلق مكسيم ساخراً بعد أن ارتشف رشفة كبيرة من الجعة لتطفئ ظمأه:

- إذن لم تأت فتاتك حسب الموعد؟

فرد الجنوبي باللهجة الساخرة نفسها:

(١) جنوب روسيا . ويقصد بالمصطلح الجمهوريات الآسيوية التابعة لروسيا كالشيشان وتترستان وغيرها من الجمهوريات الإسلامية .



- وهل كنت لأجلس معكما لو أتت؟
- لكن ربما أتت فعلاً، ورائتنا فعدت أدراجها دون أن يخطر ببالها أنك تجلس بالقرب منا.
- كلا. فقد كان موعدنا منذ نحو ساعتين، وقد فقدت الأمل بقدمها لكنني لم أرغب بالعودة سريعاً، خاصة أن شريكي بالغرفة كان سيسخر مني كعادته.
- يبدو أنها ليست المرة الأولى هنا.
- علق مكسيم ضاحكاً، فرد الجنوبي موافقاً:
- أجل للأسف، ولا يبدو أنها ستكون الأخيرة أيضاً. على كلٍّ، دعونا من هذا. هل تسمحان لي بالتعليق على حديثكما؟
- تبادل مكسيم وأبراهام نظرات الاستياء، ولكنهما شعرا بالإحراج من رفض طلب مضيفهما، خاصة بعد أن قبلا ضيافته، فأطرق أبراهام برأسه متهرباً، وأشار مكسيم بالموافقة وهو يرشف رشفة أخرى من الزجاجة.
- في البداية أنا لست يهودياً كما لاحظتما بالتأكيد، لذا فلن أخوض فيما ليس لي به علم، ولكنني أود التعليق على موضوع وجود الله فحسب.
- أظنك مسلماً أليس كذلك؟
- طبعاً.
- أجاب الجنوبي بفخر. فتبادل الاثنان نظرة تهكمية، ثم قال مكسيم متابعاً:
- ولكن ألا ينهك دينك عن النساء والخمر؟
- أظن أنني لست الوحيد هنا ممن لا يلتزم بأمر دينه مع أنه مقتنع به. أليس كذلك سيد أبراهام؟ كما أنني فهمت من حديثك أنك لست ممن يطالبون الناس بالتمسك بتعاليم دينهم سيد مكسيم، أليس كذلك؟ على كلٍّ فنحن بصدد الحديث عن وجود الله، وليس عن تقييم درجة التزامي بديني.

فرجع مكسيم كفه كناية عن الاعتراض، وقال غامزاً:

- قبل أن تبدأ بالحديث عن وجود الله، أود أن أنبهك إلى أن ما قلته عن التوراة ينطبق على القرآن أيضاً.

تبسم الجنوبي باستخفاف، وتساءل متهكماً:

- حقاً؟ وكيف ذلك!!!

- قضية تسطح الأرض وأن لها زوايا مثلاً. فالقرآن يقول إن للأرض أطرافاً تنقص، مع أن العلم الحديث أثبت استدارتها ونفى وجود أطراف أو نهايات أصلاً، فضلاً عن أن تنقص أو تزيد.

- لم أكن أود التحدث عن تفوق القرآن على بقية الكتب الدينية، ولكن ما دمت قد طرقت هذا الموضوع فلا أرى بدأً من الإجابة. إن القرآن قد أثبت كروية الأرض عندما قال: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]، فلو كانت الأرض مسطحة لقال الله تعالى من كل فج بعيد، وليس عميق. وصدق الله إذ يقول: ﴿يَكْوَرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]، وقد فهم علماء المسلمين ذلك منذ البداية، فقال أحد علماء السلف<sup>(١)</sup> مثلاً: "إن مد الأرض هو بسطها إلى ما لا يدرك منتهاها، وقد جعل الله حجم الأرض عظيماً لا يقع البصر على منتهاها، والكرة إذا كانت في غاية الكبر كانت كل قطعة منها تشاهد كالسطح المستوي الامتداد". أما الآية التي أشرت حضرتك إليها فهي من القرآن فعلاً: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]، ولكنك لم تفهم معنى الإنقاص من الأطراف: فسطح الأرض غير مستو، وفيه قمم عالية، وسفوح هابطة وسهول. وهي أطراف طبقاً للتباين في المناسيب، ومن ناحية أخرى فإن الأرض بيضوية شبه كرة، فلها قطبان ولها خط استواء، فتعتبر هذه أطرافاً لها، والسطح كله يعتبر أطرافاً للأرض.

(١) الإمام الفخر الرازي في تفسير مفاتيح الغيب.

والعلم الحديث الذي تتحدث عنه يؤكد حقيقةً كونيةً مبهرة مؤداها أن الأرض تتكمش باستمرار، تتكمش على ذاتها، من كل أطرافها أو من كل أقطابها، وسبب الانكماش الحقيقي هو خروج الكميات الهائلة من المادة والطاقة على هيئة غازات وأبخرة ومواد سائلة وصلبة تنطلق عبر فوهات البراكين بملايين الأطنان بصورة دورية، فتؤدي إلى استمرار انكماش الأرض. ويؤكد العلماء أن الأرض الابتدائية كانت على الأقل مثني ضعف حجم الأرض الحالية.

صعق مكسيم لمنطق محاوره وسعة علمه وثقافته، فقاطعه مستفسراً:

- عفواً لم تعرفنا بنفسك؟

- د. أصلانبيك حجيرالدينوف، طبيب متخصص بجراحة القلب.

- تشرفنا بمعرفتك دكتور حجيرالدينوف.

قال الاثنان معاً، فرد الرجل بتودد:

- دعونا من الألقاب. أصدقائي ينادونني "أصلان" تحبباً، مع أن أصلان وأصلانبيك

اسمان مختلفان تماماً عندنا، وعبثاً حاولت شرح ذلك حتى مللت منه. فالروس عادة

يفضلون الأول لسهولته وانتشاره، وأنا قد تعودت على ذلك من هم. والآن إذ قد تعارفنا

فلندخل في صلب موضوع وجود الله تعالى. فإن د. "جفري لانغ" قد لخص تجربته

الشخصية حول ذلك في كتابه "حتى الملائكة تسأل" قائلاً: "كانت الحواجز التي

أقيمتها بيني وبين الله قد أخذت بالانهيار بحيث أصبحت منفتحة على وجوده. وكلما

طرحت إلحادي للتساؤل أكثر، ازدادت خبرة بوجود رحمة مهيمنة تخترق ما تبقى لدي

من مقاومة وتغمرها، وتعيد إحياء نفس ظننت أنني نبذتها منذ سنين خلت. وأخيراً

صرخت، وأمسكت بالإيمان اللامحدود بإحكام وتركت الحب ينساب في نفسي أول

مرة منذ زمن لا أكاد أذكره".

فقاطعه مكسيم ثانيةً، كأنه وجد مُستمسكاً عليه:

- لقد سمعت بذلك البروفيسور الشهير الذي أسلم في النهاية، فهل تحاول دعوتنا إلى الإسلام؟

تفاضى أصلان عن نبرة التهكم في تعليق مكسيم، وأجاب بتجرد:

- مطلقاً، فأنا أتحدث عن حقيقة وجود الله فحسب. وكلي لا يُساء فهمي فإنني أتعهد بالأأستشهد ثانية بأي قول صدر عن مسلم، وهذا لن يضعف حجتي، فحقيقة وجود الله سبحانه وتعالى ماثلة لكل عاقل وإن لم يكن مسلماً، والعقل نفسه يُبطل الاعتماد على العقل وحده بسبب قصور علمه وتنوع منابعه، فقد قال "عمانويل كانت" الفيلسوف الألماني الشهير في كتابه (نقد العقل الخالص): "أدرك أن العقل لا يستطيع أن يحيط بكنه الأشياء، وأنه مهياً بطبيعته لإدراك الجزئيات والظواهر فقط، في حين أنه عاجز عن إدراك الماهيات المجردة مثل الوجود الإلهي، وإنما عرفنا الله بالضمير وليس بالعقل: فشوقنا إلى العدل كان دليلنا على وجود العادل، كما أن ظمأننا إلى المياه هو دليلنا على وجود الماء". كما قال أرسطو: "إن الكرسي من الخشب والخشب من الشجرة، والشجرة من البذرة، والبذرة من الزارع، واضطر إلى القول بأن هذا الاستطراد المتسلسل في الزمن اللانهائي لابد أن ينتهي بنا في البدء الأول إلى سبب في غير حاجة إلى سبب. سبب أول أو محرك أول في غير حاجة إلى من يحركه. خالق في غير حاجة إلى خالق"، وهو نفس ما نقوله عن الله الذي يستدل به وليس عليه.

- ولكنك طبيب، وأنت تدرك أكثر من غيرك أن الاستطراد المتسلسل ينتهي بنا في حقيقة الأمر إلى نظرية التطور التي لم يكن العلم قد توصل إليها زمن أرسطو، وليس إلى خالق ما.

علق مكسيم ساخراً، فأجابه أصلان بنفس أسلوبه:

- حقاً؟ ولكنك بنفسك أسميتها "نظرية" (أي تحتل الصواب والخطأ) ألم تلاحظ

ذلك معي أبراهام؟

## « بعيداً عن الوحي »

فابتسم أبراهام ابتساماً ذات مغزى، وهز رأسه بالإيجاب متابعاً كلام أصلان باهتمام كبير، وهو ما أريك مكسيم بعض الشيء، فقال محاولاً استعادة زمام المبادرة: - صحيح أنها نظرية، ولكنها نظرية مثبتة علمياً؛ فالتطور واضح بتدرج التعقيد في بنية الكائنات الحية كما تعرف ذلك بشكل أفضل منا بالتأكيد لكونك جراحاً.

- إن التدرج الذي نتحدث عنه شبيه بتدرج التعقيد في تركيب العناصر في "جدول مندليف"؛ حيث يتكون العنصر الأول وهو ذرة الهيدروجين، التي تحمل أصغر عدد بروتوني، ويزيد العدد البروتوني بالتدرج حتى ينتهي الجدول بذرة الورينسيوم التي تحمل العدد الذري الأكبر.

- ولكن ذرة الهيدروجين يمكن أن تتطور إلى هليوم، والأورانيوم يمكن أن يتطور إلى ثوريوم، وهذا الأخير يستمر في التطور حتى يصير ألمنيوم.

هز أصلان رأسه أسفاً، وقال محاولاً توضيح الأمور لمكسيم:

- أنت تخلط الأمور يا عزيزي؛ فهذا ليس تطوراً أبداً، بل هو "تحول نووي" وهو يتطلب طاقة بدئية. ولكن على فرض صحة تلاعبك بالألفاظ، فهذا يوحي أن أصل العناصر هو ذرة الهيدروجين لأنها هي أول الترتيب، ولأنه لا يوجد قبلها أي ذرة يمكن أن تتحول نووياً لتصير ذرة هيدروجين (ذرة الهيدروجين تتكون من بروتون وإلكترون وحيدين). والسؤال الذي يطرح نفسه هو: إذا كانت ذرة الهيدروجين هي الأصل، فكيف وجدت هذه الذرة أصلاً؟! من الذي صنعها؟! التفسير الوحيد هو أن يداً خفية "خلقت" الهيدروجين.

أدرك مكسيم سداجة مثاله، فقال متهرباً:

- على كل الأحوال فموضوعنا عن الأحياء وليس عن الجمادات.

- كلا، فسوء فهم التدرج في بنية العناصر الكيميائية، يشبه كثيراً سوء فهم

التدرج في بنية الكائنات الحية، وقد يقبل هذا الخلط زمن الخيميائيين الذين عاشوا

في عصور متخلفة تحتكم إلى السحر والأساطير، ولكنني لا أستطيع إيجاد أي عذر للداروينيين بعد أن وصل العلم إلى ما وصل إليه حالياً، واكتشفت أجزاء الخلية وتعميقاتها الكبيرة. كما أن علم الرياضيات، الذي يعترف داروين أنه يجد "صعوبة كبيرة في فهمه"<sup>(١)</sup>، يشهد باستحالة ترتيب DNA بذلك الشكل المدهش<sup>(٢)</sup> حتى ولو أعطيناها من الزمن أضعاف أضعاف عمر الكون<sup>(٣)</sup>.

- إذن كيف تفسر ذلك التدرج علمياً؟ ولكن أرجوك حافظ على التزامك بالعلم فقط أيها الطبيب ولا تحشر قرآنك وبقية أقوال نبيك في هذا الموضوع.

- لك هذا. فأنا سأثبت لك بالعلم، وبدون القرآن ولا السنة، أن التفسير المنطقي الوحيد لهذا هو "وحدة الخالق". أولاً أريد أن أوضح أنه رغم اختلافي التام مع الاعتقاد الشائع بأن الإنسان أصله قرد، إلا أنني لا أختلف مطلقاً مع حقيقة أن الإنسان والقرد انحدرنا من أصل مشترك<sup>(٤)</sup>، فذلك حال المخلوقات كافة، إذ إن الكون

(١) يرد عالم الرياضيات "فريد هويل" على إمكانية تكوين الخلية الحية مصادفة قائلاً: "كومة من خردة الحديد أخذتها عاصفة هوجاء، ثم تناثرت هذه القطع وتكونت طائرة بوينج ٧٤٧ بالمصادفة، إن مثل هذه النتيجة غير ممكنة ومستحيلة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى تكوين الخلايا الحية".

(٢) اعتبر داروين في كتابه "أصل الأنواع" أن الكائنات الحية نشأت من خلية، وأن هذه الخلية نشأت من تجمع للأحماض الدهنية مكونة خلية حية، وهو ما يسمى بنظرية Abiogenesis أو التولد التلقائي.

(٣) يبدو أن داروين نفسه قد تراجع عن نظريته في آخر أيامه، حيث راسل زوجته emma قائلاً لها: "أتعلمين؟ أحس وكأنني ارتكبت جريمة قتل".

(٤) من قبيل إبراز التخطئ في نظرية دارون، تشير إلى الضجة التي أثارها دراسة مؤلفة من ١١ صفحة نشرت مؤخراً في عدد خاص من مجلة "ساينس" (العلم) الشهيرة، وقام بها العالم الأثروبولوجي البروفسور في جامعة "كنت ستيت" والمتخصص في أصل الإنسان "سي أوين لوفجوي". فقد أجرى دراسة على المخلوق البدائي (قال أنه لا يصح وصفه بقرد ولا بإنسان بدائي فهو مختلف عنهما كليهما، وأفضل تسمية له هي مجرد "مخلوق" (creature) المعروف باسم "Ardipithecus ramidus" (أردي) الذي عاش قبل ٤, ٤ ملايين سنة في إثيوبيا. وأوضح أنه: "غالباً ما يظن الناس أن البشر تطوروا من القردة، لكن هذا ليس صحيحاً فالقردة هي التي تطورت منا". وتابع قائلاً: "شاعت فكرة أن البشر هم نسخة متطورة عن الشمبانزي، لكن دراسة المخلوق البدائي ساهمت في تأكيدنا بأنه لا يمكن أن يتطور البشر من الشمبانزي أو الغوريلا".

كله مبني بخطة واحدة؛ فالحياة بنيت من مركبات الكربون حيث تتفحم جميع صنوف الحياة بالاحتراق. كما أن تشريح الضفدعة، والأرنب، والحمامة، والتمساح، والزرافة، والحوث، يكشف عن خطة تشريحية واحدة؛ الشرايين والأوردة وغرفات القلب نفسها، والعظام نفسها. كل عظمة لها نظيرتها، الجناح في الحمامة هو الذراع في الضفدعة مع تحور لطيف مناسب. والعنق في الزرافة على طولها نجد فيه الفقرات السبع نفسها التي نجدها في عنق القنفذ على قصرها. والجهاز العصبي هو في الجميع: يتألف من مخ وحبل شوكي وأعصاب حس وأعصاب حركة. والجهاز الهضمي من معدة واثنى عشر وأمعاء دقيقة وأمعاء غليظة. والجهاز التناسلي نفس المبيض والرحم والخصية وقنواتها. والجهاز البولي: الكلية والحالب، وحوصلة البول. ثم الوحدة التشريحية في الجميع هي الخلية، وهي في النبات كما في الحيوان كما في الإنسان، بالمواصفات العامة نفسها، تتنفس وتتكاثر وتموت وتولد بالطريقة نفسها. وداروين نفسه اعترف بأن الحياة تبدأ من الخلية، ولكنه قال إن تفاعلات طبيعية وكيميائية هي التي أنتجتها، غير أن العلماء وجدوا مؤخراً أن أصغر خلية هي أكبر من مدينة هائلة منظمة غاية في التنظيم! ولذلك أصبح القول إن المصادفة هي التي خلقت الخلية يعتبر كلاماً فارغاً، ولا يقبله عاقل.

اعترف مكسيم في قرارة نفسه بأن محاوره الجديد أقوى حجة منه وأكثر علماً، فقال مُمهداً لإدارة دفة الحوار إلى جانب آخر:

- أنت تتكلم بأمور تشريحية تجهلها يا دكتور.

- ولكن التأكد منها وإثباتها أسهل بكثير من التأكد من فلسفتك الجدلية وإثباتها، هذا إذا كان من الممكن أصلاً إثباتها أو التأكد منها. ثم إنك أنت من طلبت مني الرد عن طريق العلم كطبيب!

أسقط من يد مكسيم بعد ذلك الرد المفحم، فقال محاولاً التشكيك بمنطقه من باب آخر:

- نظراً لقلّة معلوماتي في الطب وعلم التشريح فأنا للأسف لن أستطيع جدالك يا دكتور، ولكنني أود أن تعلم أنني قد لاحظت تلاعبك بالحقائق؛ فالأمثلة التي ذكرتها الآن هي نفسها التي ذكرها داروين في كتابه "أصل الأنواع"، وقد كان ذلك في معرض إثباته المقنع لنظريته، فإذا بك تصل بها إلى نتيجة مختلفة تماماً!!!

- لكن لو كان استخدام داروين لتلك الأمثلة قد أقنعتك فعلاً، فمن المفترض أنك قد اقتنعت بها عن فهم، ومن ثم فإنك تستطيع المجادلة فيها دون أن تضطر إلى الانتساب إلى كلية طب! ولكنك لا تستطيع ذلك، وأنا لا ألومك؛ فكتاب أصل الأنواع مليء بمزيج من المعلومات الصحيحة، والملاحظات المبدعة، ولكنه في الوقت نفسه مليء بالتفسيرات الفاسدة والمضللة. يا صديقي، إن الموضوع أبسط مما تتصور، فقد لاحظ دارون ذلك التشابه التشريحي الكبير بين الحيوانات<sup>(١)</sup>، لكنه للأسف فسره تفسيراً خاطئاً، ففسر التشابه التشريحي بـ"وحدة الأصل"، وفسر اختلاف المظهر بـ"التكيف

(١) كثير من العلماء قبل داروين قد لاحظوا ما لاحظته، وأشهرهم في الغرب هو العالم الفرنسي "لامارك" (الذي يزعم البعض أن داروين سرق أفكاره وخلطها بأفكار مشبوهة) ولكن لم تحظ آراؤهم بالدعاية الجبارة التي حظيت بها نظرية اليهودي الإنجليزي "تشارلز داروين" وإسقاطاتها الإلحادية. ومن أشهر من قال بذلك عندنا (دون إلحاد أو خداع بالطبع) هو ابن خلدون الذي قال في مقدمته: "اعلم - أرشدنا الله وإياك - أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام وربط الأسباب بالمسببات واتصال الأكوان بالأكوان واستحالة بعض الموجودات إلى بعض، لا تنقضي عجايبه في ذلك، ولا تنتهي غاياته...". ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بدیعة من التدریج. آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم، متصل بأول أفق الحيوان مثل الخلزون والصدف، ولم يوجد لهما إلا قوة للمس فقط. ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب، لأن يصير أول أفق الذي بعده. واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه. وانتهى في تدریج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية، ترتفع إليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده. وهذا غاية شهودنا".



مع البيئة"، ففهم أن الحوت في المنطقة الجليدية قد لبس معطفاً من الشحم، والدببة لبست الفراء، وإنسان الغابة في الشمس الاستوائية اسودّ جلده فأصبح كالمظلة الواقية ليقية الشمس، والحيوانات التي نزلت الماء طورت أطرافها إلى زعانف، والتي غزت الجو طورت أطرافها إلى أجنحة، وزواحف الأرض طورت أطرافها إلى أرجل. كما فسر انقراض بعض الأنواع واستمرار غيرها بمقولة "البقاء للأقوى" ودمجها بتفسيره لعملية الارتقاء، حيث تتقاتل الحيوانات بالناب والمخلب في صراع الحياة الدموي الرهيب، فيموت الضعيف ويكون البقاء دائماً للأقوى، وأن تلك الحرب الناشبة في الطبيعة هي التي تفرز الصالح والقوي وتشجعه، وتبقي على نسله، وتفسح أمامه سبل الحياة. - تماماً. لقد تذكرت ذلك وأرى الكلام منطقياً.

قال مكسيم بانديفك كأنه قد عثر أخيراً على ضالته، فأجاب أصلاً غامزاً:

- وكذلك رأى الصهاينة عندما فاوضوا "ايخمان"<sup>(١)</sup> والنازيين وعقدوا معهم الصفقات. وبموجب إحدى هذه الصفقات، وافق ايخمان على السماح بترحيل بضعة آلاف من اليهود الشبان الصهاينة إلى فلسطين مقابل أن تتم عملية شحن كبار السن (الذين اندمجوا من اليهود في المجتمع الهنغاري) إلى ألمانيا في نظام وهدوء لتتم إبادتهم<sup>(٢)</sup>. وقد وصف إيخمان النخبة التي اتفق على إرسالها إلى فلسطين بأنهم كانوا "من أفضل المواد البيولوجية"<sup>(٣)</sup>.

(١) ضابط الغستابو (جهاز الاستخبارات الألمانية النازية) وزعيم منظمة الـ "اس اس SS" النازية الشهيرة.  
(٢) ما ذكره ايخمان هو أنه اتفق ممثلاً عن الحكومة النازية مع "رودولف كستتر" الممثل المعروف للحركة الصهيونية على أن يبقى "النظام مستمر" في المعسكرات الجماعية، لقاء السماح لبضعة آلاف من الشباب اليهود بالهجرة إلى فلسطين بشكل غير قانوني، وليس إبادة يهود المعسكرات، فهو لن يحتاج إلى اتفاق مع الصهاينة إن رغب بإبادة جميع المعتقلين في المعسكرات النازية.

(٣) كان الهدف الحقيقي من وراء اعتقال اليهود وغيرهم في تلك المعسكرات هو استخدامهم كأيد عاملة بدل العامل الألماني لأن جميع الألمان كانوا جنوداً يقاتلون على جبهات القتال. والمعتقلون اليهود وغير اليهود كانوا يعملون في كل المجالات التي يحتاجها الجيش على جبهات القتال كتصنيع أدوات الكهرباء وإصلاح السيارات والنجارة والحدادة وغسيل ملابس الجنود والطبخ وصناعة الأحذية وحياسة الملابس، وصناعة الخيام وغيرها.

- هذا ليس صحيحاً<sup>(١)</sup>. ثم ما دخل هذا بذلك؟  
رد مكسيم بعصبية بالغة، فأجاب أصلاًن بهدوء:
- إن "المفهوم الدارويني" الخاص بأن البقاء للأصلح يلتقي بـ"المفهوم الصهيوني" الخاص ببقاء النخبة الصهيونية الصالحة! فالصهاينة يرون أن الشباب والأغنياء هم الأصلح للعودة وتشديد الدولة الصهيونية لتكون مركزاً لليهود واليهودية في العالم، وتحفظها من الاندماج والانصهار والاختفاء.
- هذا الكلام منطقي؛ فالصهاينة كانوا في ذلك الوقت يدعون فعلاً أنهم "شئيريت يسرائيل"<sup>(٢)</sup>.
- همس أبراهام في أذن مكسيم، إلا أن مكسيم نظر إليه شزراً، ثم تابع جداله مع أصلاًن قائلاً بحدة:
- إن تفسيرات داروين تبقى منطقية، على الرغم من إسقاطاتك الـ"الاسامية" عليها.
- صرتُ لاسامياً بنظرك!!! كنت أظن أن اللاسامية تعني التهجم على اليهودية كما كنت تفعل أنت قبل قليل!!!
- كادت تقلت ضحكة ساخرة من أبراهام، لولا أن كتمها بصعوبة متابعاً أصلاًن الذي أردف قائلاً:

(١) بعد أن أفشى إرخمان أمر الاتفاقات السرية التي أخرجت الصهاينة، قامت أجهزة تهمة الإعلامية بجهود جبارة لنفي ذلك الأمر، وقامت أجهزة تهمة السرية بالبحث عنه حتى نجحوا في القبض عليه في الأرجنتين، وحكم عليه في الكيان الصهيوني بالإعدام سنة ١٩٦٢ بتهمة المشاركة بالمرحلة، ثم حرق ورمي رماده في البحر كي يسكت إلى الأبد وينتهي ذكره.

(٢) تعني "البقية الصالحة من شعب إسرائيل"، وهي عبارة وردت في التناخ تشير إلى أن أفراد الشعب المختار لن يهلكوا جميعاً رغم صنوف العذاب والويل التي ستلحق بهم، إذ ستبقى دائماً بقية أو نخبة صالحة سوف تعود وتشيد مملكة الإله في آخر الأيام. وترد الفكرة بصورة أساسية في سفر إشعياء (خاصة في ٦ : ١١-١٣، ١٠ : ٢١). وسفر هوشع (٢، ١٤) حيث ستعود إلى أرض الميعاد لتحي حياة سعيدة هنيئة.

- ثم أي تفسيرات منطقية تقصد؟ أتلك التي لم تتذكرها؟! هنا لم يستطع أبراهام أن يكتفم ضحكته التي خرجت رغماً عنه، مما زاد من إحراج مكسيم أمام أصلان الذي ابتسم بدوره، وتابع حديثه قائلاً:
- أرايت، إنك تتبنى مواقف لا تعيها تماماً، فقط لمجرد أنها تبرر لك الوسيلة.
- هذا ليس صحيحاً، فلا يجب أن أحفظ كل إثباتات الفلسفة التي أومن بها؛ يكفي أنني اطلعت عليها سابقاً واقتنعت بها.
- لو كنت قد اقتنعت بها سابقاً كما تقول، لرسخت في ذهنك.
- ليس شرطاً.
- حسناً، إذا كان ذلك يريحك، لكن ألا ترى معي أن الأكثر منطقية هو أن ذلك التشابه التشريحي بين الحيوانات سببه "وحدة الخالق"، لا وحدة الأصل؟ وأن اختلاف المظهر بينها هو لأنه "كلٌ ميسر لما خلق له"، وليس تكيفاً ذاتياً منهم مع البيئة؟؟؟
- إن تفسيرك لا يصدر عن المنطق، بل عن الإيمان الإسلامي الأعمى<sup>(١)</sup>.
- هنا تدخل أبراهام في الحديث كي يتجنب أي صدام، موجهاً سؤالاً طرأ على رأسه:
- دكتور، لقد أوضحت وجهة نظرك جيداً بالنسبة إلى تبني مفهوم "وحدة الخالق" بدلاً من "وحدة الأصل"، لكن ماذا تعني بكون الحيوانات "ميسرة لما خلقت له"؟ وكيف تنكر فرضية "التكيف مع البيئة"؟

(١) عُقدت في السنوات العشر الأخيرة فقط ما يزيد على مئتي مناظرة في الجامعات وفي محطات التلفزيون الأمريكية بين أنصار التطور Evolution وأنصار الخلق Creation، (كلا الفريقين غير مسلم) وسُجلت هذه المناظرات على أشرطة الفيديو، وطُبعت أيضاً، وكانت مفاجأة للكثيرين عندما فاز أنصار " لخلق " في جميع هذه المناظرات تقريباً؛ فالأدلة العلمية ضد فرضية التطور كثيرة وعديدة، إلا أن أهم دليل علمي أشهره في وجه التطورين هو قانون من أهم القوانين الفيزيائية، وهو القانون العام للحركة؛ فكان الفيصل الحاسم في مجرى المناظرات. فالقانون الأول والثاني للديناميكا الحرارية -التي تعد أشمل قانون في الكون، إذ لم يعد هناك شيء خارج نطاقها- ينصان على أنه " لا يمكن خلق المادة أو الطاقة ولا إفاؤهما، ولكن يمكن تحويلهما من شكل إلى آخر " .

- لقد أثبت العلم أن اختلال توازن أي من المخلوقات سوف يُنتج مشاكل جمة للحياة على المدى البعيد، وربما تؤدي إلى إبادةتنا على بكرة أبينا، فكل شيء بمقدار. فقطاعه مكسيم قائلًا:
- هذا عار من الصحة تماماً. وكوني لا أحفظ أدلة واقعية عن أن البقاء للأقوى، فهذا لا يلغي أن هناك آلاف البحوث والأدلة والإثباتات التي تتوالى منذ منتصف القرن التاسع عشر.
- يا عزيزي، هناك أمور غاية في البساطة ولكننا نتفلسف في تفسيرها فتصبح غاية في التعقيد: دعني أضرب لك مثلاً بسيطاً على ذلك: فقد وجد أنه في المجتمعات الصناعية تكثر الحشرات القاتمة، أما الزراعية فتكثر بها الحشرات الزاهية. فقال مكسيم بسرعة وكأنه عثر على كنز:
- آه ها. لقد أدنت نفسك بنفسك، فهذا أحد أشهر الأدلة على "التكيف مع البيئة" الذي تشكك به.
- هذا إن رغبت بفلسفة الأمور، ولكن السبب هو أبسط من ذلك بكثير: فالحشرات الزاهية تظهر لأعدائها بوضوح أكبر نظراً لاختلاف ألوانها عن المحيط القاتم مما يسهل عملية اصطيادها، ولذلك تتناقص أعدادها في مقابل الحشرات المتماهية مع ذلك المحيط، والعكس بالنسبة إلى المجتمعات الزراعية.
- بدا الخجل واضحاً على وجه مكسيم، ولكنه قال مكابراً:
- على كل الأحوال فإن هذا مثال حديث، أما نظرية التطور فتتحدث عن أمثلة أقدم بكثير تثبت التكيف مع البيئة بما لا يدع مجالاً للشك.
- هل لا زلت تعتقد ذلك حقاً!!! حسناً إذا كان معطف الشحم هو تكيف الحوت مع البيئة الجليدية، فلم لم تضطر كثير من الأحياء المائية الأخرى إلى ذلك في البيئة نفسها، مع أنها أصغر وأضعف منه؟! وإذا كان معطف الفرو هو تكيف الدببة فما بال

البطريق مثلاً؟! وإذا كان اسوداد جلد الإنسان هو المظلة الواقية من الشمس كتكيف مع البيئة الاستوائية فما بال بقية الحيوانات المشتركة معه في الأصل نفسه (كما يدعي الداروينيون) لا تسود جلودها؟ وماذا عن بقية البشر الذين يتعرضون لنفس الشمس ولا تزال جلودهم بيضاء؟ كما أن اسمرارهم أكثر من اللازم يعد احتراقاً بالشمس وليس مظلة واقية منها، ولماذا يعود لونهم الطبيعي إليهم مجدداً بعد الشفاء وتجدد خلايا الجلد؟

- إن التكيف يحتاج إلى آلاف السنين.

قال مكسيم كمن يحاول شرح درس معقد لتلاميذ صغار.

- ولماذا توقف التكيف إذن؟

- ماذا تعني؟

- أعني أن الرسوم في الكهوف التي تعود إلى آلاف السنين قبل الميلاد تشبه الإنسان الحالي؟ وكذلك المومياءات المحنطة التي اكتشفها العلماء! فلماذا توقف تطورنا كل هذه الآلاف من السنين؟!!

بهت مكسيم لذلك السؤال الذي لم يتوقعه، لكنه ما لبث أن وجد مهرباً فقال وهو يشيح برأسه بتمل:

- في الواقع فإن التطور يحتاج إلى ملايين من السنين.

- حقاً؟ إذن كيف تفسر العثور على مستحاثات لحشرات عمرها ٢٠٠ مليون سنة مثل البعوض المحتجزة في كهрман بالأمازون، والتي تشبه أية بعوضة في العصر الحالي؟!!! هل ستعود وتقول أن التطور يحتاج إلى مليارات السنين؟!!! عندها سأسألك عن سبب عدم اكتشاف أي دليل على "تطور النبات" منذ أقدم العصور الجيولوجية، رغم مرور كل الظروف الخاصة بتطورها المفترض كما يزعمون!!!!

أطرق مكسيم دون أن ينبس ببنت شفة، فتابع أصلاً حديثه قائلاً:

- وعلى افتراض صحة التطور الذي تزعم حدوثه، فكم جيلاً تعذب من الحيوانات البرية خلال هذه المليارات أو الملايين أو حتى الآلاف من السنين حتى استطاعت تطوير أطرافها إلى زعانف؟ وما الذي جعلها تنزل إلى الماء أصلاً معرضة نفسها للغرق المرة تلو الأخرى خلال كل تلك الفترة الطويلة والأجيال المتعاقبة؟! وكذلك الأمر بالنسبة إلى تلك التي يدعي الداروينيون أنها غزت الجو مطورة أطرافها إلى أجنحة، كيف تحملت أن تسقط مراراً وتكراراً كل هذه الأجيال، وبإصرار منقطع النظير، فقط كي تعطي المصادفة فرصة لتطور أطرافها إلى أجنحة بعد عدة ملايين من السنين؟! إن نظرية التطور تقترض أموراً كثيرة، ولكنها تعجز عن إعطاء إجابات مقنعة للأسئلة التي تنشأ عن فرضياتها. فكيف تجيب فرضية البقاء للأقوى مثلاً عن السؤال عن سبب وجود الكثير من الحيوانات الضعيفة إلى الآن، في حين تعرضت حيوانات أكثر منها قوة بكثير للانقراض؟

لاحت ابتسامة أخرى على وجه أبراهام، فتابع أصلاً بثقة أكبر قائلاً:

- في الفصل الأخير من كتاب "أصل الأنواع" اعترف داروين نفسه أن نظريته (التي هي في الحقيقة لا تتعدى نطاق "الفرضية" إن تحريتنا الدقة الأكاديمية) تحتاج إلى المزيد من الحجج!! وحتى اللحظة لم نر شيئاً من تلك الحجج، إذ لم تتمكن نظريته من إيجاد أي أثر عن "الحلقة المفقودة" بين الإنسان والقرود<sup>(١)</sup>، ولم تستطع الإجابة عن سبب غياب أنواع انتقالية بين طفرتين، أو سبب حدوث الطفرة الضارة التي تتعارض

(١) يقول الدكتور "سوربال" في كتابه "تصدع مذهب دارون": "إن الحلقات المفقودة ناقصة بين طبقات الأحياء، وليست بالناقصة بين الإنسان وما دونه فحسب، فلا توجد حلقات بين الحيوانات الأولية ذات الخلية الواحدة، والحيوانات ذات الخلايا المتعددة، ولا بين الحيوانات الرخوة ولا بين المفصليّة، ولا بين الحيوانات اللاقارية ولا بين الأسماك والحيوانات البرمائية، ولا بين الأخيرة والزاحفات والطيور، ولا بين الزواحف والحيوانات الأدمية".

مع قانون الانتقاء<sup>(١)</sup>. ولم يُجب عن سبب تضحية أفراد بعض الكائنات من أجل مصلحة الكل (النمل كمثال) والذي يتعارض مع قانون الرغبة في البقاء.

- كل ما تقوله جميل، ولكن ماذا عن الهياكل العظمية المكتشفة لبشر في مراحل

تطورهم البدائية؟!؟!!

قال مكسيم بخبث ثم نظر إلى أبراهام مومناً بأنه الآن قد أفحم غريمه وحشره

في خانة اليك، فرد أصلان باستخفاف قائلاً:

- تقصد ما دعي بـ"إنسان بلتداون" و"إنسان نبراسكا" وغيرهم؟!

- تماماً.

- سوف أشرح لك الموضوع باختصار: في سنة ١٩١٢ صاح دُعاة التطور وهاجوا

وماجوا، لقد اكتشفوا إنسان بلتداون البدائي، وقَدَّرُوا عمره بين ٥٠٠ ألف و٧٥٠ ألف

سنة!! وأنه الجد الأكبر للإنسان الحالي، وقام الفنانون بتصوير الشكل كاملاً (اكتشفوا

منه جمجمة وفكاً فقط) وتم تقديم ما لا يقل عن خمس مئة رسالة دكتوراه بخصوص

الأمر.

- لقد قرأت عن ذلك وشاهدت الرسومات التقريبية التي تظهر تصور العلماء

لشكل أجدادنا قبل اكتمال عملية التطور.

- رويدك يا صديقي، فما إن أتى عام ١٩٥٠ وتطور العلم أكثر، حتى تم وضع

أجزاء من إنسان بلتداون للتحليل الكيميائي، فظهرت الخدعة الكبرى: لقد كان إنساناً

(١) يؤمن باحثو التطور أن الطفرات هي التي طورت الكائنات الحية وأوجدتها كما هي عليه الآن. أي إن

الفرد مثلاً تطور إلى إنسان بعد تعرضه لـ ١٢٠٠٠٠ مليون طفرة (وهو الفرق بين صفاتنا الجينية وصفاتهم)

في الاتجاه نفسه!!! وهذا مناف تماماً لما يعرفه العلماء حديثاً عن الطفرات، وهي أن أغلبيتها تتوقف فور

حصولها. أو أنها تؤدي إلى الموت، وهو ما يسمى بالطفرات القاتلة، بالإضافة إلى أنها نادراً ما تنتج صفة

جديدة فعالة وليست ضارة. بمعنى آخر العلم الحديث يقول ببساطة: من المستحيل أن تتطور الحيوانات

باطفرات! وأعجب لمن كان يصدق هذه النظريات (التي ثبت تخلفها علمياً)، ثم ينعت الإيمان بالخالق

بأنه... تخلف!!

مُزوراً!!! فقد اكتشفوا أن الجمجمة مطلية بأملح الحديد وتخص إنساناً عادياً عمره نحو خمس مئة سنة، وأن الفك عمره بضع سنوات ويخص قرداً مات مؤخراً، وليس قبل ٧٥٠٠٠٠ سنة!!!!!! بل إن الأدوات البدائية المكتشفة مع المتحجرات هي مجرد أدوات بسيطة مقلّدة، سُحذت بواسطة أدوات فولاذية!!! وفي التحليل المفصل الذي أتمه "وينر" سنة ١٩٥٣، تم الكشف للجمهور عن هذا التزوير، إذ تم ترتيب الأسنان على نحو خاص في شكل صف، ثم أُضيفت إلى فك القرد، وتم حشو المفاصل لكي يبدو الفك شبيهاً بفك الإنسان!!<sup>(١)</sup>، وفي أعقاب كل هذه الأحداث، تم نقل إنسان بلتاون على عجل من المتحف البريطاني، بعدما كان قد عُرض فيه لمدة تزيد على أربعين سنة! نظر أبراهام إلى مكسيم بطرف عينه، فيبدو أنه هو من حُشر في خانة اليك، إلا أن مكسيم ما لبث أن قال مُقللاً من شأن تلك الحقيقة الدامغة:

- إذا كان أحد العلماء المتحمسين قد كذب في سبيل إثبات نظرية التطور، فالخطأ عليه وليس على النظرية نفسها، فهناك مكتشفات أخرى عديدة تؤيدها بقوة.

- أخشى أن الموضوع أكبر بكثير من مجرد كذبة عالم واحد؛ فالأمر مدروس بدقّة وممول بسخاء، وقد جُنّد له جيش كامل من العلماء والأدباء، وتسانده آلة إعلامية دعائية ضخمة، تبرز ما تشاء من الأخبار، وتسفه ما تشاء، وتعتم على الباقي بإصرار عجيب. وتلك المكتشفات التي تتحدث عنها لا تخرج عن التلفيق كما في مثال إنسان بلتاون، أو حتى الجهل، ونقص المعلومات كما في مثال إنسان نبراسكا.

- الجهل ونقص المعلومات!!!

صرخ مكسيم بتهكم واضح، وأردف قائلاً بثقة متناهية:

(١) الغريب أنهم بعد هذا كله، يجدون الجرأة الكافية لتسفيه من يحاول ربط الخيوط بعضها ببعض، متهمين إياه بأنه من أنصار نظرية المؤامرة!



- أنت تتحدث عن حفزية إنسان نبراسكا التي أطلق عليها اسم علمي هو: هسبيروبايثيكوس هارولد (Hesperopithecus haroldcooki). ولقد شاهدت رسماً تقريبياً لشكل ذلك الإنسان البدائي كما تخيله العلماء بناء على المعطيات الأثرية، وشاهدت رسم زوجته وأطفاله في شكل عائلة كاملة في محيط طبيعي!!!

- هل تعلم أن كل هذه الأبحاث والرسومات وإعادة بناء رأس إنسان نبراسكا وجسده، وتخيل شكل أنثاه وأطفاله، كل هذا قد قام استناداً إلى ضرس متحجر أوحده!!! عثر عليه "هنري فيرفيلد أوسبرن" مدير المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي في سنة ١٩٢٢!!! لقد أعلن آنذاك أن ذلك الضرس المتحجر يحمل صفات مشتركة بين كل من الإنسان والقرد! ولكن في سنة ١٩٢٧ عثر على أجزاء أخرى من الهيكل العظمي لإنسان نبراسكا، ووفقاً لهذه الأجزاء المكتشفة حديثاً، لم يكن الضرس يخص لا إنساناً ولا قرداً! لقد كان يخص نوعاً منقرضاً من الخنازير الأمريكية البرية يسمى (prosthennops). وبعد ذلك، تم على عجل إزالة كل رسوم الهسبيروبايثيكوس هارولد وعائلته من أدبيات التطور!

فغر مكسيم فاه بذهول، فتبسم أصلاً وعلق قائلاً:

- يا عزيزي، لا تغتر كثيراً بتلك الاكتشافات الرائعة المدهشة بدون انقطاع منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى الآن: فقد بهرت عقول الملايين كما يبهر أول مشهد من السيرك عقول الأطفال، وأنستهم المأكول والمشرب. وقد أصبح هذا المشهد الجسيم رمزاً للواقع وصرف النظر عن القيم الحقيقية التي أخفيت بانتظام، كي تفسح المجال لعبادة جديدة هي "عبادة المستحدث"، فترك الغرب عبادة الإله الذي شوهته الكنيسة والكنيس، لاجتأ إلى عبادة آلهة مادية صنعها العلماء في المختبرات والعمال في المصانع، فانتقل من إلحاد الكنيسة والكنيس إلى إلحاد المادة المحض.

كان مكسيم يختلس النظر نحو أبراهام بين الفينة والأخرى، ليرى مدى تأثير تلك الحجج فيه، متخوفاً من نسف أصلان لكل ما كان يحاول بناءه لديه طوال تلك المدة، وعندما وجد أبراهام مشدوداً بكل جوارحه إلى سماع أصلان قرر إنهاء ذلك النقاش تماماً، ولاسيما أنه لم يستطع إحراز أي تقدم فيه، فقام وهو ينظر إلى ساعته قائلاً:

- يبدو أن هذا النقاش البيزنطي لن ينتهي قريباً، وقد تأخر بنا الوقت.  
ثم مد يده إلى أصلان ليصافحه مردفاً:

- رغم اختلافنا في وجهات النظر إلا أننا سررنا بالتحدث معك، ونحن ممتنون لتلك الحسناء التي خدعتك، فلولاها لما حظينا بهذا الوقت الممتع. على كل حال كن أكثر حذراً في المرة القادمة، فقد أصبحت الفتيات كثيرات الخداع هذه الأيام.

- وكذلك هو الحال تماماً مع الدارونيين، فكن أكثر حذراً أنت أيضاً فيما تقرأ، وإياك أن يخدعوك مرة أخرى.

عض مكسيم على شفثيه غيظاً من سرعة بديهة أصلان، وردّه له الصاع صاعين، لكنه كتم غيظه ورسم ابتسامة دبلوماسية باهتة على وجهه، وقال موجهاً حديثه إلى أبراهام الذي كان لا يزال جالساً:

- هيا بنا أبراهام.

قام أبراهام متثاقلاً وهو لا يخفي امتعاضه من تفرد مكسيم بإنهاء النقاش دون أي اعتبار له، لذا تعمد وداع أصلان بود زائد، وأخذ رقم غرفته، واعدأً بزيارته قريباً لاستكمال الحوار معه على حدة.

وفي طريق العودة عاتب مكسيم على تسلطه، لكن مكسيم علل ذلك بحرصه على عدم تشويشه في هذه الفترة الحائرة التي يمر بها، خصوصاً بمنطق أعوج، يصدر عن غويم مسلم سكير، تتلاعب به الفتيات، وربما ينتظره بالبيت أربع زوجات مبرقات،

وجيش من الأطفال. لم ينبس أبراهام ببنت شفة وتابع طريقه صامتاً حتى وصلا إلى المر حيث تقع غرفتهما، فتمنى لرفيقه ليلة هادئة، وولج إلى غرفته مكتئباً. كان مكسيم محقاً بعض الشيء، فأبراهام لم يكن يوماً أكثر حيرة وتشويشاً، بل ويأساً مما هو عليه الآن. ولكن، ومع ذلك، فقد كان يحس بأن أصلان، رغم احتمال صحة ما نعتة مكسيم به، قد نزع شتلة الداروينية والإلحاد من حديقة أفكاره قبل أن تضرب بجذورها في العمق، وأعاد توجيه مجرى السقاية نحو كروم الرب التي أوشكت على الذبول.

## الهروب من الأفعى إلى جدر الأفاعى

جلس أبراهام على سريره بعد أن أنهى ترتيب حقيبته استعداداً لمغادرة المنتجع، ثم نظر إلى مجموعة الكتب المتناثرة بفوضى من حوله، التي لم ينم منذ البارحة بسبب إعادة تصفحها والتأمل بها. وعجب كيف اختلفت رؤيته لها جذرياً بعد حديث البارحة، بل لاحظ أنه كان يطبق منطق أصلان على كثير من الأمور التي زعزعت إيمانه بوجود الله في السابق، فيرى بها نفسها دليلاً على وجوده! وهو ما دفعه إلى قرار الرحيل والعودة إلى البحث عن الحقيقة من منبعها الأصلي<sup>(١)</sup>، وعدم إضاعة المزيد من الوقت على الأديان الوضعية والإلحاد.

ذهب أبراهام إلى المكتبة حيث أعاد الكتب الثلاثة التي استعارها منها، ثم توجه إلى مكتب إيوسف ليعيد إليه الكتب التي استعارها من مكتبته الخاصة، ويعلمه بقرار الرحيل.

- ولكن ما الذي دفعك إلى اتخاذ هذا القرار المفاجئ؟؟؟  
قال إيوسف بعصبية بالغة، فأجاب أبراهام الذي لم يكن يتوقع كل ذلك الاستهجان:  
- لا شيء معين، فقط انتهيت من الخلوة التي كنت أرغب بها.  
- ولكن مكسيم قد حضر البارحة فقط. وقد طلب إجازة من عمله ليقضي بعض الوقت معك، مع أن نادية كانت تلح عليه قبل ذلك بالقدوم إلى هنا دونما جدوى!!!...  
هل تشاجرتما؟!

- على العكس تماماً فقد سهرنا البارحة حتى ساعة متأخرة من الليل.  
هز إيوسف رأسه كأنه قد فهم حقيقة الأمر، وقال بمرارة:

(١) يقصد اليهودية، ولكن بعيداً عن الأوهام التي ملأ أساتذته رأسه بها.

- أجل، لقد أخبرني مكسيم عن تلك السهرة، فهل ذلك المسلم الكريه هو سبب إزعاجك؟ أستطيع تدبير أمر طرده بمنتهى السهولة إن أردت.

- لا، مطلقاً، لم يزعجني لا أصلاً ولا غيره، أنا فقط ملكت من القراءة ومن كثرة الراحة والكسل، وأرغب في العودة إلى حياتي السابقة بعد أن استعدت نشاطي.

- هل أخبرت مكسيم بقرار رحيلك؟

- ليس بعد .

فرد إيوسف بحزم:

- إذن فمن الأفضل أن تعود عن قرارك. فمكسيم لا يستحق منك هذا بعد كل الذي فعله من أجلك، وهو سيقضي هنا أسبوعاً واحداً فقط على أية حال، ولا أرى ضيراً من تأجيل رحيلك إلى ما بعد ذلك الأسبوع.

- ولكن...

- إن عينيك حمراوان ويبدو عليك الإرهاق، ألم تنم جيداً؟

- في الحقيقة، لقد أرقنت قليلاً ليلة البارحة، ربما بسبب الاشتياق إلى الأهل.

- اذهب إذن لتأخذ قسطاً من الراحة. سوف أطلب من الجميع عدم إزعاجك اليوم

كي تتمكن من النوم بهدوء، وغداً سوف نتحدث في هذا الموضوع.

وافق أبراهام على مضمض، وعاد أدراجه مرغماً: فأصراره على الرحيل الآن سيُعد

إهانة لأناس ساعدوه ويهتمون لأمره، وما إن دخل غرفته حتى ألقى بنفسه على السرير

دون أن يخلع ملابسه أو حذاءه، وسرعان ما استغرق في نوم عميق.

استيقظ أبراهام ليجد أن المساء قد حل. كان المطعم يقدم وجبة العشاء في ذلك

الوقت، وكان جائعاً، ولكنه قد قرر عدم أكل طعام غير ظاهر حسب الكشروت مجدداً،

لذا فقد ذهب واشترى بعض الفاكهة والخضار ثم عاد إلى غرفته. وبعد أن أنهى

طعامه، قام فاغتسل وأفرغ حقيبته، ثم بدّل ملابسه واتجه إلى غرفة أصلاً ودق

الباب، ففتحه جنوبي آخر وقال وهو ينظر إليه باستمزاز شديد:

- ماذا تريد؟

عجب أبراهام من الطريقة الفظة التي يقابله بها هذا المسلم الهمجي، ولكنه

تجاهل ذلك ورد بلطف:

- عمت مساءً، هل لك أن تنادي أصلان من فضلك؟

تغيرت ملامح الجنوبي سريعاً، وقال بارتباك:

- أوه، أنا أسف يا عزيزي، ظننتك الساكن الجديد، تفضل بالدخول أرجوك.

ثم أفسح الجنوبي الطريق مُرحباً بضيفه بتودد كبير، فتمحب أبراهام من تغير حال

الرجل الفجائي، ودخل قائلاً:

- أشكرك يا سيدي.

- إن أصدقاءه الحميمين فقط يدعونه بأصلان. هل تعرف أن أصلان وأصلانبيك

عندنا اسمان مختلفان تماماً؟

- أجل، لقد أخبرني أصلان بذلك. ولكن أين هو؟

- لقد غادر أصلانبيك المنتجع اليوم.

قال الجنوبي بأسى شديد، فرد أبراهام مستفسراً وقد أحس بأنه قد يكون لإيوسف

يد في الموضوع:

- لكنني تحدثت إليه البارحة وقد فهمت منه أنه لن يغادر قريباً، فما الذي جعله

يغير رأيه بهذه السرعة؟

- أولاد العاهرة في الإدارة؛ فقد اكتشفوا فجأة أن أوراقه ليست كاملة، وأنه بهذا

يأخذ مكان من هو أحق منه ممن انتظر أكثر، وأوراقه أكثر استيفاء للشروط.

- وهل هذا صحيح؟

- بالطبع لا؛ فقد قدمت أوراقي معه في الوقت نفسه، ودورنا نظامي، وأوراقنا كاملة.

- ولكن لحظة. إذا كانت أوراقه كاملة، ودوره نظامي كما تقول، فما الذي جعله يرضخ لهم بهذه البساطة؟! فما أعرفه عنه لا ينبئ بأنه شخص ضعيف ألبتة.

- لقد زعموا أن هناك فتيات قاصرات اشتكين من ملاحقته لهن، وألحوا بإثارة الموضوع رسمياً، وإيصاله إلى المستشفى الذي يعمل به إن لم يستجب لهم، ومع أن أصلا نبيك كان متأكداً من كذبهم، إلا أنه آثر الابتعاد عن الفضائح، خاصة بعد أن لمس جديتهم وإصرارهم.

تنهد الجنوبي بحسرة، وتابع قائلاً:

- لقد بات اليهود يتحكمون في روسيا كما يريدون. ليتهم يجرؤون على تكرار لعبتهم القذرة معي، فليس عندي ما أخاف منه أو عليه، وسأحرص عندها على أن ينالوا ما يستحقون.

- ولكن ما دخل اليهود في الموضوع؟

تساءل أبراهام بتوجس، فأجاب الجنوبي مستكراً:

- ماذا؟! ألم تلاحظ أن الأعضاء المتنفذين في الإدارة هنا كلهم من اليهود؟؟؟ إن هؤلاء الأنجاس، كشأنهم دائماً، يكونون مافيا في كل مؤسسة حكومية تقع تحت أيديهم، فيحولونها إلى مزرعة خاصة بهم يستغلونها كيفما شاؤوا. إنهم ينهبون روسيا، ومستعدون لفعل أي شيء في سبيل حفنة من الأوراق الخضراء. وعلى ما يبدو، فإن أحدهم قد دفع بالدولار ليحصل على دور جاهز، أو أنهم فضلوا إعطاء مكانه ليهودي نجس على شاكلتهم. لكن لا تقلق فأنا لست مسالماً كصديقي المسكين، وسأحول إقامة بديله هنا إلى جحيم حقيقي، كائناً من يكون.

كان أبراهام يود أن يدافع عن اليهود كشأنه دائماً، ويوضح لمحدثه أن القصاص المحاكمة حولهم عن علاقتهم برؤوس المافيا، ونهبهم لخيرات البلاد، ومؤامراتهم المزعومة ضد روسيا والعالم بأسره، كلها محض الخيال المريض لمعادي السامية، ولا أساس لها من الصحة من قريب أو بعيد، ولكنه لم يستطع أن ينبس ببنت شفة: فهذه المرة هو نفسه مشارك في الأحداث، ويعرف أن كل كلمة قالها الجنوبي صحيحة، بل يعرف أن ما خفي على ذلك الجنوبي كان أعظم؛ فصاحبه طرد بسبب تعبيره عن آرائه، ومحدثه الذي يفضي إليه بمكنون صدره، ظناً منه أنه صديق حميم لصاحبه، هو نفسه يهودي نجس، أخذ دور غيره لأنه على شاكلة المافيا المسيطرة على هذا المكان.

اسودت الدنيا في عيني أبراهام، وتذكر ما عرفه قبل أشهر عن دور اليهود في الأديان الشيطانية، فبدأ يفهم بأي عالم يعيش، وإلى أي جانب ينتمي. لذا ودع مضيفه بلطف زائد، مفعم بالشعور بالذنب، ثم انسحب إلى غرفته مسرعاً، وهناك أعاد حزم أغراضه التي أخرجها من الحقيبة قبل قليل، ثم توجه إلى الاستقبال مستغلاً فرصة انتهاء دوام إيوسف، لينهي إجراءات تسليم الغرفة دون أي عائق، وبعد ذلك مضى مسرعاً نحو البوابة.

كان الطريق إلى البوابة لا يتجاوز بضع عشرات من الأمتار، إلا أن أبراهام أحس بأنه كان أطول طريق مشاه في حياته. فلسبب لم يدركه تماماً، كان يشعر بأنه سجين هارب يتوقع أن يُكتشف أمره في أي لحظة، فيعاد إلى زنزانه مجدداً، لذا؛ ما إن اجتاز البوابة دون أن يعترضه الحرس، حتى تنفس الصعداء، ولكنه زيادةً في الاطمئنان لم يرغب بانتظار الحافلة في الموقف المقابل، بل تابع سيره مهرولاً نحو المحطة التالية، ولم يهدأ باله حتى غاب المنتجع عن أنظاره تماماً، عندها فقط أحس بأن ثقلاً كبيراً قد انزاح عن كاهله، وعادت خطواته ودقات قلبه المتسارعة إلى الانتظام ثانية.



## ﴿﴿ بعيداً عن الوحي ﴳ﴾﴾

دخل أبراهام إلى غرفته التي طال غيابه عنها، واستلقى على سريره، ثم حل أزرار بنطاله ليفسح الطريق أمام بطنه للتمدد قليلاً بعد الوليمة الضخمة، التي أعدتها والدته احتفاءً بعودته، وتعويضاً له عن الأشهر التي قضها على الخضار والفاكهة، محروماً من الطبخ، كما كانت تظن. كان الوقت متأخراً وكان يرغب في النوم، إلا أنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً، فهو قد استيقظ قبل عدة ساعات فقط.

وبعد عدة محاولات فاشلة من التقلب في السرير، أدرك أبراهام أنه لن يستطيع النوم بسهولة، فقرر أن يخرج لبيتزه في مدينته التي إشتاق إليها كثيراً، خصوصاً أن المشي سوف يساعده على هضم الكم الهائل من الطعام الذي تناوله، كما سيساعده أيضاً على التفكير بالأحداث الغريبة التي مرت عليه مؤخراً.

توقف أبراهام عند جسر أنيشكوف، وأخذ يتأمل مجسمات ترويض الحصان، التي اعتبرها سابقاً إشارة من الرب إلى السعي بإصرار نحو اكتشاف الحقيقة. وقال في نفسه متعجباً:

- أليس من سخرية القدر أن أحد الغويم قد بدد شكوكي بحقيقة وجود رب إسرائيل، في حين اجتهد أحد اليهود في إقناعي بالعكس!!!

ظل أبراهام يحرق بالمجسمات بشرود، ثم ما لبث أن قال ثانية:

- ولكن، إذا كان الرب موجوداً فعلاً، فما معنى كل هذه التناقضات في دينه!!!؟  
غطى وجهه براحتيه، وناجى ربه متضرعاً:

- رباه، ها قد عدت إلى الشك ثانية. رباه، إن تجرأت على الكفر بك مرة أخرى، فاقتلني قبل ذلك، وخلصني من هذه الحياة الفانية. لكنك قدتني إلى التأكد من وجودك، وأرشدتني في الوقت نفسه لاكتشاف أخطاء مريعة في دينك نفسه!!! فهل يعني هذا أن الحقيقة قد تكون خارج اليهودية؟؟؟ إن لم ترض عني يا رب، وتهدني، فسأكون من الخاسرين.

سار أبراهام هائماً دون هدى، ثم توقف فجأة مفكراً:

- هل يعقل أن تكون الحقيقة هي خارج اليهودية؟ ولكن أين؟ بالتأكيد ليس في الإسلام. فهل يعقل أن تكون المسيحية هي الدين الحق؟

عادت الشكوك تعصف برأسه مجدداً، وتصور نفسه وهو يتعمد في كنيسة باسم الأب والابن والروح القدس، فأحس بقشعريرة تسري في بدنه.

- إشراك بالرب بعد أن تأكدت من وجوده ووحدانيته؟!!!!

أطرق مفكراً وهو يقلب المسيحية في رأسه موازناً بينها وبين اليهودية. فتذكر "كريستينا"<sup>(١)</sup> التي قابلها في المنتجع، واضطر إلى التطرق معها إلى موضوع الخشية من الرب في محاولة لتوضيح وجهة نظر أقربائه اليهود المحافظين الذين ادعى أنه يتحرّج منهم، فقد كان مما قالتها في معرض ردها على ذلك:

- لماذا يظنون أن استمتاعك بحياتك قد يغضب الرب؟ لقد خلقك الرب لتسعد، وبالتأكيد سيكون سعيداً لسعادتك ما دمت لم تؤذ أحداً.

مع أنه أعجب آنذاك بطريقتها المريحة في التفكير، إلا أن الحقيقة هي ضالته أولاً وأخيراً، وليس راحة البال التي تُشبع الجسد، ثم تترك الروح خاوية، فرد عليها موضحاً أن سعادة الإنسان هي في أن يخدم الرب بتنفيذ أوامره والانتهاز عن نواهيته، لا في أن يكون الرب هو الذي في خدمة الإنسان لدرجة أن يصلب ابنه، بل نفسه، في سبيل تكفير خطاياهم وإسعاده كما تعتقد، إلا أن كريستينا سخرت مما أسمته سوء ظنه الخاطئ والتراكمي بالفلسفة المسيحية، ومضت تحاول شرحها له. تذكر أبراهام مقدار الجهد الذي بذله لإنهاء ذلك الجدل العقيم وإخراج الفتاة من غرفته، ثم لاحت على وجهه ابتسامة ساخره وهو يسترجع كلماتها الأخيرة:

(١) اسم مسيحي مؤنث يعني حرفياً "المعمدة".

- حسناً سأذهب الآن، ولكن تذكر أنه لا داعي لكل هذه التعقيدات التي لا لزوم لها؛ كل ما عليك فعله هو أن تقبل الرب يسوع الذي يقف خارج الباب ينتظر أن تدعوه للدخول كي يتمكن من تخليصك.

ولكن ما حاجته إلى رب يقف عند الباب منتظراً الإذن بالدخول لتقديم خدماته؟! لذا طرد أبراهام من رأسه فكرة اعتناق المسيحية تماماً، فيبدو أنها حقاً أسوأ تقليد للأصل اليهودي، كما كان يُردد أساتذته دائماً، هذا بالإضافة إلى ما تكشف له مؤخراً من اقتباسها من أديان وثنية متعددة كما قالت سفيتا، وبالذات من البوذية كما قال ذلك الراهب الأصلع.  
تابع سيره مفكراً:

- ثم أي قيمة لي وأي قيمة لنسبي "اللاوي"<sup>(١)</sup> الذي طالما تفاخرت به إذا خرجت عن اليهودية؟! عن اليهودية!

وفجأة أومضت بارقة أمل جديدة في ذهنه:

- ولكن، ماذا لو كان العيب بمفاهيم ناظوري كارتنا نفسها؟ ومن قال إنهم حقاً يحتكرون تمثيل الدين اليهودي؟! يحتكرون

استراح أبراهام للمسار الجديد الذي تراءى له، فقد كان احتمال وجود فرقة يهودية أخرى هي التي تمثل الحقيقة، أهون عليه بكثير من أن تكون المسيحية، أو غيرها، هي التي على الحق.  
مضى أبراهام محاولاً صياغة توجهه الجديد:

(١) لاوي أو ليفي باللفظ العبري الحالي (الذي أرسى اليهود الألمان قواعده الحديثة لإحياء اللغة العبرية القديمة). فالواو تلفظ "ف" مفخمة باللغة الألمانية) هو أحد أبناء النبي إسرائيل عليه السلام الاثني عشر، والذي كانت بركته في التوراة أن يكون الأنبياء والكهنة من نسله. ويحتل اللاويون عند عموم الفرق الأرثوذكسية اليهودية المركز الثاني في القداسة بعد الكهنة.

- إذا كانت ناطوري كارتا تمثل اليهودية الأرثوذكسية الصحيحة فعلاً، فماذا عن بقية اليهود غير الأرثوذكس؟

بل ماذا عن الأرثوذكس الآخرين المناصرين لدولة إسرائيل!

ألا تدعي كل فرقة منهم الشيء ذاته؟؟؟

ألم تكن ناطوري كارتا نفسها ضمن "أغودات يسرائيل"<sup>(١)</sup> قبل أن تنشق عنها؟ وهي التي تأسست أصلاً بهدف محاربة الصهيونية، ثم ما لبثت أن انضوت تحت لوائها؟

ألا يعقل أن تكون قد تنبتهت، ككثير من الجماعات الأخرى، إلى الحق الذي غاب عن ناطوري كارتا؟؟ خاصة بعد الانتصارات الإلهية لتلك الدولة الصغيرة على الدول

العربية المعادية رغم تفوقهم الهائل عليها بالمقاييس الدنيوية من عدد وعدة؟؟؟

أمن المنطق أن نعترف برئيس سلطة مسلم، لا يملك بالواقع أي سلطة، كرئيس لفلسطين؟<sup>(٢)</sup>، متناسين أنها قد أصبحت "إسرائيل" وأن السلطة الفعلية فيها بيد اليهود

وحدهم؟

أمن المنطق ألا يكون لنا وطن؟

ولماذا يجب أن ننتظر "المسيح"<sup>(٣)</sup> مكتوفي الأيدي ليقودنا إلى الأرض المقدسة؟

ألا يجب أن نُحضر لقدمه كما يفعل المسيحيون لمسيحهم المزعوم؟؟ وهل سيأتي

المسيح هكذا بلا مقدمات إلى شعب كسول متخاذل؟؟؟

ثم لماذا نتحدث اليديشية دون العبرية؟ ولماذا يحرم حاخاماتنا استيطان أرض

الميعاد قبل قدوم المسيح؟ مع أن بعضهم يسكنون هناك فعلاً!! وتحت حكم إسرائيل لا

(١) جماعة دينية أرثوذكسية رئيسية ينتمي إليها الحاخام الأكبر في الكيان الصهيوني .

(٢) تعترف الناطوري كارتا بالسلطة الفلسطينية كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني، في حين لا تعترف بالكيان الصهيوني، بل ولها مراقبها الخاص في هيئة الأمم المتحدة .

(٣) وينطق : هَمْشِيخٌ . أي الإمام المسوح أي المدهون بالزيت المقدس . وحرف ال "هـ" مفتوحاً يقابل 'ال التعريف " في العربية .

حكم السلطة الفلسطينية!!! ولماذا يعتقدون أن قيام دولة إسرائيل هو تدخل سافر في عمل الرب<sup>(١)</sup>؟! ويتمنون زوالها، وفي الوقت نفسه يدافعون عنها!!!  
وأخيراً؛ كيف تكون طائفتي ضعيفة وقليلة العدد بالنسبة إلى باقي اليهود، وهي على الحق كما يدّعي حاخاماتها ليلاً نهاراً، ثم يكون الخاطئون والمتدخلون في شؤون الرب، هم الأقوى والأكثر نفيراً رغم أنهم على الباطل!!! أيعقل أن تكون مذاهبهم أقرب فعلاً إلى اليهودية الحقّة من ناطوري كارتا!!!

كان أبراهام قد اقترب من حافة الانهيار، فتلك الأسئلة كانت أخطر من أن تترك مجرد خواطر تجول في رأسه دون أجوبة مقنعة، لذا فقد عقد العزم على البحث عن تلك الأجوبة بنفسه مهما كلفه الأمر. وعندما عاد إلى المنزل تفاجأ به والداه اللذان كانا يتناولان طعام الإفطار بصمت على غير عادتهما، ونظرا بشكل تلقائي إلى باب غرفته المغلق حيث ظناه يغط في سبات عميق، إلا أن المفاجأة الحقيقية كانت عندما أخبرهم بقراره الجديد. فما إن سألاه عما ينوي أن يفعله بعد إجازته الطويلة حتى ألقى في وجهيهما قنبلة من العيار الثقيل:

- لقد قررت السفر إلى "إسرائيل".

(١) لم يكن العداء اليهودي للصهيونية نابعاً من أسباب دينية فحسب؛ فيدور هرتزل كتب في مذكراته قائلاً: "قررنا، لمجابهة التآمر اليهودي في قصر السلطان العثماني ببلدز، أن نتبع الطريقة التالية: يكتب نيولنسكي إلى عزت بأن اليهود المتأمرين عليّ قد لا تكون لهم مصالح خاصة لكنهم يشعرون بهاجسين: أولهما الخوف من أن تقوى اللاسامية في أماكن إقامتهم إذا صدرت الدعوة لليهود بالمهاجرة، ثانيهما الخوف من أن تُهجر جماعات كبيرة من اليهود المفلسين إلى فلسطين. لهذين السببين يحاول دعاة هذه المؤامرات اليهود نسف مشروعنا من أوله، إلا أن عزت يجب ألا يُسمح له بأن يسلبوه ثقته فيّ". أي إن أغلبية اليهود بشكل عام كانوا ضد ما قرره حكماؤهم السريون، لأنهم كان يرون أن ذلك ضد مصلحتهم. والذرائعية نفسها التي قادتهم إلى عداء الصهيونية أول أمرها، هي التي قادتهم إلى إيجاد التبريرات المتعددة للانضواء تحت لوائها، بعد نجاحها المدوي.

جلس أبراهام على مقعده في الطائرة التي أقلعت لتوها، يتأمل مدينته الجميلة وهي تتصاغر أمام عينيه، تماماً كإيمانه المذبذب، إلى أن اختفت تماماً، أشاح بنظره عن النافذة وتساءل عن إيمانه: هل سيختفي هو الآخر في نهاية المطاف؟ كانت آخر كلمات أبيه الذي ودعه قبل قليل لا تزال تدوي في رأسه:

- لا تنس يا ولدي أنك ذاهب إلى دولة علمانية، وهي ليست المملكة التي وعد بها الرب، وإن قامت على أرض الميعاد، فليس هناك فرق بينها وبين أي دولة أخرى من دول الدياسبورا التي يقيم فيها اليهود. إنها ليست تنفيذاً لوعده الرب بل تحد وقح لمشيئته، وسيقابلك هناك الكثير من المتشدين بالدين محاولين أن يثبتوا لك العكس، تجنبهم يا ولدي، إياك أن تسمح لهم بخداك.

كان أبراهام يعرف مسبقاً وجهة نظر أبيه بدولة إسرائيل، واقتاعه الراسخ بمبادئ الناطوري كارتا، الذين يعتبرون يوم استقلالها بمنزلة يوم حداد وحزن، بل يصومون فيه. وكان متأكداً أنه لم يكن يسمح له بالسفر لو لم يصبح مستقلاً عنه مادياً بسبب شقة جدته التي باعها مؤخراً بمبلغ ضخم.

تذكر جدته التي أحبها كثيراً، وكان مواظباً منذ صغره على زيارتها ومساعدتها بقضاء حوائجها كلما سنحت له الفرصة. كان في العاشرة من عمره عندما سجلته كمقيم معها في المنزل بشكل رسمي، ولم يفهم وقتها لم تارت تائرة أخواله على تصرف والدتهم، ولم ظلوا وقتاً طويلاً يعاملونه بجفاء، لكنه عرف لاحقاً أنها بتصرفها ذلك قد آثرته عليهم، وألغت أي أمل لهم بالانتفاع بالشقة بعد وفاتها؛ فطبقاً للقانون الشيوعي السوفييتي لم تكن هناك ملكية عقارية خاصة يمكن التصرف فيها، بل كانت كل العقارات ملكاً للدولة، وعليه فللمقيم حق الانتفاع بها فقط. وفي حال موته تعود الملكية للدولة، وإذ قد سجلته كمقيم، ورفضت تسجيل أي من أبنائها معه، فقد ضمنت له وحده حق الانتفاع بالشقة، بل وحق بيعها بعد أن انهار النظام الشيوعي لاحقاً.

صلى لروحها، ثم استرجع تحذيرات أبيه مرة أخرى بأسى، فهو مضطر لمخالفتها، ولن يأخذ حتى بنصيحته بالبحث عن سكن بحي "ميا شعاريم" في أورشليم<sup>(١)</sup>، فمع أنه لم تكن لديه خطة واضحة في رأسه، إلا أنه كان قد قرر الابتعاد مؤقتاً عن مذهبه ومحاولة الاندماج ببقية اليهود من أصحاب الطوائف الأخرى: فينبغي أن يفهم منطقتهم بموضوعية، ودون حكم مسبق، بعيداً عن أي تأثير لوالده أو لحاخامات الطائفة، فقد وطن نفسه على البحث عن الحقيقة بحيادية تامة سواء كانت عند الحريديم أم المحافظين أم حتى عند الإصلاحيين<sup>(٢)</sup>، بل إنه لم يكن يستبعد تماماً فكرة أن يبحث عنها في المسيحية ذاتها، إذا استيقن من عدم وجودها في اليهودية. وربما كان ذلك هو السبب الرئيسي في عدم عودته إلى ارتداء ثوبه الأسود ثانية، وفي كونه يسافر كزائر ولم يقدم طلباً للهجرة.

كان أبراهام يسافر أول مرة خارج روسيا. كانت بداية جديدة بأرض عتيقة وعقلية متفتحة على كل الاحتمالات، ومع خوفه من مغامرته التي لا يعرف إلاّ ما ستقوده، إلا أنه كان مصمماً على أن يكمل الطريق حتى النهاية، فلم يعد هناك مجال للتراجع، ولا بد أن يصل إلى الحقيقة مهما كلفه الأمر.

هبطت الطائرة في مطار بن غوريون الدولي. وكان أبراهام سعيداً لكونه سيمشي بعد دقائق معدودة على أرض أجداده كما حلم دائماً.

- أرض أجدادي.

(١) بالعربية: "المئة بوابة"، وهو اسم حي في القدس يقطنه اليهود الحريديم (الأرثوذكس المتشددون) الذين لا يعترف أغلبهم بالدولة، ويعادون الصهيونية، ومنهم جماعة ناطوري كارتا، التي طالبت الأمم المتحدة في إحدى الفترات بإعلانها إمارة مستقلة على غرار إمارة موناكو.

(٢) أشهر المذاهب اليهودية الرئيسية. والأول يعد من الأرثوذكس المتشددين، والأخير مذهب ليبرالي مستقل، حديث نسبياً، ويتسم بالتساهل، في حين يشكل الأوسط حلاً محافظاً بينهما. ولمزيد من المعلومات حول هاتين الفرقتين الأخيرتين.

كرر العبارة بفخر، وهو يتذكر سيرة أسلافه العظام، فقد كان أبراهام سعيداً لكونه أحد اليهود القلائل غير المشكوك بنسبتهم إلى بني إسرائيل مطلقاً، بل إلى سبط الأنبياء والكهنة اللاويين بالذات. أحس بأن هذا يمدّه بقوة إضافية في بحثه. وبعد طول انتظار فتح باب الطائرة، وشعر بنسائم الأرض المقدسة تهفو إليه، حتى صار يعد أنفاسه بانتظار دوره في الخروج، ليملاً منها رتته، ثم يقبل أرض الميعاد كما كان يحلم دائماً.

غادر أبراهام مبنى المطار بعد إجراءات أمنية معقدة وتفتيش ممل، ليستقل الحافلة المتوجهة إلى القدس. كانت الحافلة مكتظة بالركاب، وأغلبهم من النساء غير المحتشمت، تماماً كروسيا. تذكر كلمات والده مرة أخرى: إنها فعلاً دولة علمانية لا تختلف عن الدول الأخرى، وتذكر بحسرة ما سمعه عن "حافلات المهديم"<sup>(١)</sup> في أحياء المتدينين في أورشليم، وكيف علقت على بوابات تلك الأحياء لافتات مكتوب عليها: "الرجاء ممن يعبر في هذا الحي أن يحترم المشاعر الدينية لأهله".

(١) حافلات الركاب العمومية الخاصة بالمتدينين الأرثوذكس من اليهود، وفيها يفرض على النساء والصبية الصعود من باب خاص، والجلوس في القسم الخلفي من الحافلة، حيث توجد كوة خاصة بهم لقطع التذاكر. ويخصص الباب الأمامي والمقاعد الأمامية من الحافلة للرجال فقط. وفي هذه الحافلات لا تسمع الإذاعة الإسرائيلية، ولا تسمع "أخبار الكفرة" ولا "الموسيقى الشيطانية" حسب تعبيرهم. وهذه الحافلات حديثة العهد في الكيان، جلبوها من الولايات المتحدة الأمريكية؛ فاليهود الأمريكيون المتدينون من هذا التيار هم متشددون أكثر من أقرانهم من سكان الكيان الصهيوني، إذ إنهم فصلوا ما بين النساء والرجال في الحافلة الواحدة بواسطة ساتر من الحديد، ويبررون ذلك بالقول إن المسافات بين المدن الأمريكية طويلة جداً ويستغرق السفر عدة ساعات طويلة، فيضطر الركاب إلى النوم والصلاة خلال السفر، مما يتيح تعرضهم إلى الكشف عن الجسد من دون قصد. وفي السنوات الأخيرة من القرن الماضي، نقل اليهود الأرثوذكس الأمريكيون هذه العادة إلى الكيان الصهيوني. في البداية تمّت بواسطة حافلات ركاب خاصة ينظمها أفراد بشكل شخصي، ثم ما لبثت أن تحولت إلى شركات خاصة يديرها عدد من أولئك المزمّتين أنفسهم. وفي سنة ٢٠٠٢ انضمت شركة الحافلات العمومية الرئيسية "ايجد"، وهي شركة حكومية رسمية، إلى هذه التجارة المربحة، وبدأت بتشغيل حافلاتها على تلك الخطوط.



”توجه إليكن بكل لسان رجاء أن تعبرن فقط باللباس المحتشم. واللباس المحتشم يعني ارتداء قميص ذي أكمام طويلة وتنورة طويلة. فلا تعبري، وأنت ترتدين السراويل أو الملابس الضيقة“.

ولكنه للأسف ليس متوجهاً إلى تلك المناطق. تأمل شوارع أورشليم من نافذة الحافلة، لم تكن تلك إسرائيل الموعودة التي يتمناها كل يهودي في العالم. فقد كان الانطباع الأول له عنها يطابق ما تروجه جماعته السابقة، من أن إسرائيل ليست دولة يهودية بأي شكل من الأشكال، وأنها ليست أكثر من تحويل لليهودية من ديانة روحية إلى قومية مادية تتخذ الدين ذريعة في سبيل الحصول على قطعة أرض. ولكن أبراهام قرر التروي رغم كل ذلك، وعدم الاستعجال في الحكم.

## ◀ في ضيافة عدو

سار أبراهام مسرعاً وهو يحمل حقيبتيه الثقيلتين ناظراً إلى السماء بين الفينة والأخرى، فعمما قليل سيحل يوم السبت<sup>(١)</sup>، ولن يستطيع ركوب أي عربة ولا القيام بأية معاملات نقدية حينها. إلا أنه لم يجد غرفة شاغرة في أي من الفنادق الستة التي قصدتها. كان يجب أن يصل سريعاً إلى ذلك الفندق الذي وصفوه له، وقد وطد العزم على أنه سيقبل بأي عرض حتى إن كان غرفة قذرة مشتركة. نظر مرة أخرى إلى الشمس بيأس، كأنه يتمنى لو أنها تتوقف قليلاً حتى يجد غرفة دون الاضطراب لخرق قدسية السبت مجدداً، وفي الأرض المقدسة هذه المرة. في تلك اللحظة بالذات ارتطم أبراهام بأحد المارة بقوة، ليقع كلاهما على الأرض.

أخذ أبراهام يتمتم بعبارات الاعتذار بارتباك شديد، ثم شرع في إعادة أغراضه إلى إحدى حقيبتيه، التي فتحت من قوة الصدمة وتناثرت أحشاؤها، فهذا الرجل من روعه بلغة روسية ذات لكنة غربية، وأخذ يساعده في جمع بعض الكتب الروسية التي تبعثرت على الأرض.

- متى وصلت من روسيا؟

قال الرجل وهو يساعده على إغلاق الحقيبة بعد أن أعيدت إليها الملابس والكتب

دون ترتيب:

- اليوم.

(١) يبدأ اليوم عند اليهود فور غروب الشمس بناء على الكلمات التي وردت في سرد التوراة لقصة التكوين التي تقول: "وهكذا جاء مساء أعقبه صباح، فكان اليوم الأول" (تكوين ١ : ٥) ونستطيع القول إن هذا الترتيب لأجزاء اليوم متعارف عليه في الإسلام أيضاً؛ فاليوم يبدأ عندنا ليلاً، وعندما ثبت هلال رمضان مثلاً، تعتبر تلك الليلة بداية أول أيام الشهر الفضيل، فنصلي التراويح، ثم نبدأ صيامنا عند أذان الفجر.

رد أبراهام باقتضاب وحمل الحقيبتين متابعاً سيره، ثم ما لبث أن عاد والتفت إليه قائلاً:

- شكراً على مساعدتك يا سيدي، وأعتذر مجدداً، وددت لو استطعت أن أكفر عن إهمالي معك، ولكن يجب أن أصل إلى فندق "ماونت سيون" (جبل صهيون) بسرعة. الوداع.  
- ولكنك تسير في الاتجاه الخاطئ.  
صاح الرجل راکضاً نحوه حتى وصل إليه، ثم أخذ يصف له الطريق. فقال أبراهام مقاطعاً:

- يبدو أنك رجل طيب. أرجو أن تتكرم وترافقني كي لا أتوه مجدداً، فعما قريب سيحل السبت، ولم يعد لدي مزيد من الوقت لأضعه.

نظر الرجل إلى ساعته ثم حمل إحدى الحقيبتين وسار أمامه بهدوء قائلاً:

- لا تخف، فلا يزال أمامنا ثمان وثلاثون دقيقة قبل أن تغرب الشمس.

استغرب أبراهام من أدب الرجل ومن استجابته السريعة لطلبه بعد الأذى الذي ألحقه به بسبب إهماله وتسارعه. واستغرب أكثر من معرفته بموعد غروب الشمس بتلك الدقة، ولكنه أرجع ذلك إلى طبيعة عمله التي لا ريب تتعلق بالفلك أو بالأرصاد الجوية أو بأي شيء من هذا القبيل. لم يكن ذلك مهماً، المهم أنه لا يزال يملك الوقت، وأنه برفقة يهودي صالح يحرص على قدسية السبت، أو على الأقل يحرص على مساعدة من يُقدسه.

تعهد أبراهام في أثناء الطريق أن يشرح الظروف القاهرة التي أدت إلى تأخره كل ذلك الوقت، حتى لا يظن ذلك الرجل أنه أقل منه صلاحاً أو حرصاً على قدسية السبت، إلا أنه لاحظ ابتسامته لم يدرك مغزاها ترتسم على محيا رقيقه، فعدها عدم اقتناع بحجته، مما زاد من إصراره على الإيضاح، حتى توقف الرجل أخيراً، وقد اتسعت ابتسامته أكثر، ومد يُمناه للمصافحة معرفاً عن نفسه:

- لقد فاتنا في هذه العجالة أن نتعارف: اسمي "أحمد الكاشف".

صعق أبراهام، وأدرك حينها سر ابتسامته هذا الرجل، وسبب معرفته الدقيقة بموعد غروب الشمس الذي يصادف وقت إحدى الصلوات الخمس عندهم، فرفيقه في حقيقة الأمر ليس إلا عدواً عربياً مسلماً!!! ولكنه لم يظهر أثر ذلك على وجهه، ومد يده بدوره راسماً ابتسامته لبقّة على وجهه وهو يقول:

- تشرفنا، اسمي أبراهام دوخافيتسكي.

لم يكن حظ أبراهام أوفر في الفندق السابع، حتى إنه لم يجد ما سبق أن رفضه في فنادق أخرى، نظر إلى أحمد الذي كان لا يزال معه متوقفاً تلك النتيجة في مثل ذلك الوقت من العام.

- ما رأيك أن تسكن عندي مؤقتاً، فأنا الآن وحيد بسبب انتقال شريكي بالسكن بعد زواجه.

قال أحمد مقترحاً، فأطرق أبراهام مفكراً لا يعرف بم يجيبه؛ فهذا الرجل الذي يعرض ضيافته هو عدو بكل المقاييس، خاصة أن هدف أبراهام من القدوم إلى إسرائيل هو محاولة الاندماج مع أولئك الذين اغتصبوا أرضه. لكن أحمد حسم تردده، حاملاً الحقيبة ثانية، ثم وضع يده على كتف أبراهام دافعاً إياه برفق كي يمشي معه وهو يقول:

- لم يعد هناك سبب للاستعجال، فبيتي قريب من هنا ولن نضطر إلى ركوب أي وسيلة للنقل، كما أنك لن تقوم بأي معاملة مادية.

ثم أضاف شارحاً:

- إن إيجار الشقة مدفوع عن الأشهر الثلاثة الحالية، والتي ستنتهي بعد اثني عشر يوماً، ولا مانع عندي من أن تحل مكان شريكي السابق في السكن، ريثما تبحث عن مسكن مناسب بروية، ودون الحاجة إلى فندق. وفي حال واجهتك صعوبة في ذلك وأعجبتك شقتي، فمن الممكن أن نتشارك بإيجارها اعتباراً من الدورة القادمة.

ظل أبراهام صامتاً منكس الرأس وهو يسير مع رفيقه الجديد، دون أن يدري ما يقول. وبعد برهة وجيزة قال أحمد مشيراً إلى ما حوله:

- كما ترى فالحي هنا هادئ، وفي الوقت نفسه لا يبعد كثيراً عن مركز المدينة، وستجد أن الشقة نظيفة ومريحة ومنظمة بطريقة مثالية بالنسبة إلى أعزيبين، فستكون لك غرفتك وحمامك المستقلان.  
ثم أردف قائلاً وهو يضحك:

- لكن يجب أن أحذرك مسبقاً، فلدينا مطبخ واحد فقط<sup>(١)</sup>، لكن لا تخف فهذه هي بنايتنا، وخلف ذلك البناء المقابل يوجد مطعم يهودي يراعي الكوشير، وأسعاره ليست غالية بالمناسبة.

استلقى أبراهام على الفراش في غرفته الجديدة يسترجع أحداث يومه الأول في إسرائيل، وكيف انتهى في ضيافة عدو. فمع أنه كان ممتناً لمضيفه الذي أنقذه من ورطة واثمنه على منزله دون أن يسأله عن شيء، إلا أنه بالطبع لم يكن ليشاركه بالسكن طويلاً، وبالتأكيد لن يكمل الأيام الاثني عشر التي عرضها عليه، فلا بد أن يعود للبحث مجدداً عن غرفة بفندق فور انتهاء السبت.

لم يكن لأبراهام أي مأخذ شخصي على أحمد، فلم ير منه أي سوء، وكان فعلاً قد ارتاح إليه. خاصة بعد أن عرف أنه درس التاريخ في روسيا وتحديدًا في مدينته سانكت بطرسبرغ. وكان أبراهام يعيش التاريخ، ويحن إلى مدينته التي ولد وتربى فيها، إلا أن مجرد فكرة استضافته من قبل فلسطيني مسلم، وفي إسرائيل بالذات، لم تكن لتروق له أبداً.

كانت الشقة فعلاً نظيفة ومرتبّة، وعلى بساطتها، إلا أنها كانت تتم على ذوق رفيع، كما أن تقسيمها كان مريحاً جداً، فهي أقرب إلى شقتين مستقلتين يجمع بينهما مطبخ وصاله. وكان هناك مكتبة ضخمة في تلك الصالة، أكثر ما يميزها هو تنوع لغات كتبها

(١) اليهود المتدينون يجب أن يكون في بيتهم مطبخان، أحدهما للتطهير والآخر للطبخ، ويخضعان لشروط قاسية.

من العبرية إلى الروسية والإنجليزية، بالإضافة إلى لغة أخرى لا بد أنها العبرية. ومع أن جدران تلك الصالة قد زينت بالكثير من اللوحات، إلا أن أياً منها لم تكن تحتوي على صورة. فقد كانت مجرد أطر لكلمات بتلك اللغة، رسمت بطريقة فنية مثيرة للاهتمام. وكانت غرفته أيضاً تحتوي بعضاً منها، قبل أن يفرغها أحمد، لسبب لم يفهمه، من تلك اللوحات فور تسليمها له.

خرج أبراهام من الهيكل الإصلاحى المجاور<sup>(١)</sup> مكفهر الوجه بعد انتهاء صلاة السبت الصباحية. وقد ساءه ما شاهده من تجاوزات هناك. فالنساء يرتدين "اليرمولكا"<sup>(٢)</sup> في أثناء تأدية الصلاة مثل الرجال، بل على رؤوس مكشوفة بكل وقاحة، وهن ملزمات بتغطيتها في الشارع، فضلاً عن الكنيس<sup>(٣)</sup>، وهذا تلاعب واستخفاف بالدين، بل إن إحداهن قد وضعت "الطاليت"<sup>(٤)</sup> على كتفيها وتعصبت بالتقليين<sup>(٥)</sup> كأنها قد أتمت

(١) كان الإصلاحيون في بداياتهم يرفضون وهم إعادة بناء الهيكل في القدس، لذا أطلقوا اسم "هيكل" على كل كنيس من كنسهم في أي مكان، وكانوا أول من استخدم هذا المصطلح بشكل موسع، فلم يكن يطلق سابقاً إلا على هيكل سليمان.

(٢) اليرمولكا باللغة اليديشية تعني الطاقية المستديرة التي تلتصق بالرأس بثبت، ويقابلها بالعبرية كلمة "كيباء".  
(٣) كان "الحجاب" واجباً على جميع النساء في العصور التناخية (راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف) مع أنهم يدعون الآن أن ذلك كان مجرد ستر للشعر من باب التواضع! وقد أصبح ذلك الواجب الآن عادة لدى نساء اليهود الأرثوذكس حصراً، وهو يغطي الشعر فقط، وينسدل إلى الخلف كاشفاً الرقبة. وهناك من يستخدم الشعر الاصطناعي (الباروكة) في ذلك. أما البنات فلا يغطين شعرهن عادة حتى يتزوجن، أما اليهوديات من غير الأرثوذكس المتدينين فلا يغطين الشعر بتاتاً.

(٤) الطاليت هو شال ذو أهداب يصل إلى تحت الركبة، يضعه رجال اليهود في أثناء الصلوات الصباحية اتباعاً لأوامر التناخ التي تطالب بوضع أهداب في زوايا أذيال الثياب ليتذكروا الوصايا ويطيعوا أوامر التوراة. ومنه استوحى الكيان الصهيوني علمه.

(٥) التقليين (بالإنجليزية: Tefillin أو Phylacteries) هي تميمة الصلاة وتتكون من صندوقين من الجلد الأسود يحتويان على لفافات من التناخ، تربط على الرأس وعلى الذراع الأيسر من قبل الذكور البالغين خلال خدمات صباح السبت (بعض الطوائف تأمر بارتدائه فقط أثناء صلاة الصباح خلال أيام الأسبوع، وليس في أيام السبت أو الأعياد). وترتبط هذه العادة بالتنفيذ الحرفي الظاهري لنص توراتي يتحدث عن كلمات الرب لبني إسرائيل: "واربطوها علامة على أيديكم واجعلوها عصائب على جباهكم".

واجباتها الدينية كامرأة، ولم يبقى عليها إلا مزاحمة الرجال في واجباتهم!!!  
 أحس أبراهام بالأسى يعتصر قلبه من استهتارهم وإهمالهم لكثير من الأعراف  
 الأخرى الواجب مراعاتها في السيناغوغ، لكنه عاد وتمالك نفسه، فمن المبكر كثيراً  
 أن يصدر أحكاماً الآن، خصوصاً تلك المبنية على عقيدته السابقة، فهو لا يزال في  
 طور البحث والمقارنة. ولكنه مع ذلك كان قد أثر قراءة الجزء الخاص بهذا السبب من  
 التوراة<sup>(١)</sup> في غرفته وليس في ذلك الهيكل المزعوم.

دخل أبراهام إلى الشقة ليجد رسالة من أحمد على الطاولة تخبره أنه قد اضطر  
 إلى السفر إلى مدينته "أم الفحم" لعيادة أمه، التي أخبر أن وعكة شديدة اليوم أمت  
 بها، وأنه لن يعود إلى المنزل قبل مساء يوم الأحد.

أحس أبراهام بالضيق؛ فهذا يعني أنه مضطر إلى البقاء يوماً آخر في ضيافة العدو.  
 ولكنه على الأقل سيكون وحده هذه المرة، وستسبح له الفرصة في سبر محتويات تلك  
 المكتبة التي أثارت إعجابه. كانت أغلب الكتب فيها عن التاريخ والأديان، أما الباقي  
 فكتب متنوعة في السياسة، والشيعوية، ومواضيع أخرى متفرقة. لاحظ أبراهام أن  
 الكتب قد اصطلفت بترتيب بديع حسب الموضوع لا اللغة، فرف للكتب عن اليهودية،  
 وآخر للكتب عن المسيحية، والرفان في الأعلى للكتب عن الإسلام، أما الكتب المتنوعة  
 فاصطلفت في أسفل رف، والرفوف الباقية تكدست عليها كتب التاريخ.

كان من الطبيعي وجود كتب التاريخ؛ فهو اختصاص أحمد، وكذلك الكتب الإسلامية  
 فهي تتحدث عن دينه، كما أنه من الطبيعي الاهتمام بمواضيع ثقافية مختلفة واحتواء  
 كتب عنها. أما ذلك الكم الهائل من الكتب المسيحية واليهودية فهو ما لم يستطع  
 تفسيره، ولا سيما أن أغلب الكتب المسيحية كانت باللغة الروسية، على الرغم من أن  
 أحمد يتقن العربية والعبرية، بل الإنجليزية أيضاً كما يظهر من بعض كتبه! فلماذا

(١) من الطقوس المركزية في مراعاة السبت القراءة الصباحية في الكنيس للفصل الأسبوعي من التوراة.

فَصَلَّ الروسية بالذات للقراءة عن المسيحية؟! ولماذا لم تكن الكتب عن طائفة بعينها، بل عن مختلف الطوائف؟! منها طوائف لم يظن أبراهام أن لها وجوداً في روسيا، وأخرى لم يكن يعلم بوجودها أصلاً. كما أن الكتب اليهودية، وإن كان أغلبها بالعبرية، وهذا هو الطبيعي، إلا أن نوعيتها، وعمق محتوياتها من ناحية "هالاخاة"<sup>(١)</sup>، وتنوع مصادرها التي شملت أغلب المدارس الفكرية، وأشهر الفرق اليهودية المختلفة، لم يكن طبيعياً بالمطلق. فتلك المواضيع تتعدى الثقافة العامة عن الأديان! فمن هو ذلك الشخص الغريب؟ ولماذا يتعمق في كل تلك الأمور المتناقضة؟! كان فضول أبراهام قد وصل إلى ذروته عندما قرر أخيراً فتح غرفة أحمد، عله يجد فيها ما يفسر كل تلك الألغاز.

كانت الغرفة عادية، ولا تختلف كثيراً عن تلك التي يقيم بها، إلا بوجود رفين إضافيين من الكتب معلقين على الحائط فوق مكتبه. لكن الكتب هذه المرة كانت بلغتين فقط العربية والعبرية. أما الكتب العربية فقد استنتج مواضيعها من أغلفتها المزركشة بشكل مشابهة لمثيلاتها من الكتب الإسلامية السابقة. وأما العبرية فكانت مجلدات عن القانون، والقانون الدولي، والمعاهدات الدولية وحقوق الإنسان، وهو ما زاد أكثر في حيرة أبراهام: فما الذي يربط كل تلك المواضيع ببعضها ببعض؟!!!

وجد أبراهام أن أحد تلك المجلدات لا يظهر عنوانه على نهايته، فسحبه بلطف كي يتمكن من قراءة العنوان على غلافه، ولكن الغلاف أيضاً كان دون عنوان، فأخرجه من مكانه، وفتحه ليجد العنوان على الصفحة الأولى بخط اليد وباللغة الروسية: "تقييم لمسيرة حياتي وأهدافها".

أعاد أبراهام الكتاب بسرعة إلى مكانه، فهو باطلاعه على مذكرات أحمد يكون قد تجاوز كل الحدود مع شخص اتّمنه على بيته، حتى إن كان ذلك الشخص مسلماً، فخرج من الغرفة مسرعاً، وقد امتلأت نفسه بالخجل من تطفله الصبباني.

(١) هالاخاة هي فقه الشريعة اليهودية.



جلس أبراهام على سريره مفكراً، وقد شد على رأسه بكلتا يديه المرتكزتين على فخذيته، كأنه يخشى أن يقوده إلى حيث لا ينبغي أن يكون: إذ إن حل كل الألغاز وتفسير كل المتناقضات المتعلقة بشخصية أحمد الغامضة على بعد بضع خطوات فقط، ولكن ليس من اللائق الاقتراب منها. ثم رفع رأسه أخيراً ونظر إلى ساعة الحائط، ليقدر أنه قد تجاوز الساعة على تلك الوضعية، فاعتدل بجلسته، ثم ما لبث أن قام وجلس على كرسي المكتب، فعاد إلى مخيلته منظر دفتر المذكرات في أحد الرفين فوق مكتب أحمد، فقام ثانية وهو يذرع الغرفة بعصبية ذهاباً وإياباً.

كان يعلم أنه من غير اللائق التطفل على خصوصيات شخص آخر، وقرآته مذكراته وخواتمه دون إذنه، وبالذات بعد استئمانه له على بيته وأغراضه، لكنه لم يكن يستطيع أن يمنع نفسه عن التفكير في ذلك:

- إنها بالتأكيد ليست مذكرات عشق وغرام وأسرار عائلية: فهي - كما يبدو من عنوانها - تحوي قصة حياته، والأهداف التي حققها أو يسعى إلى تحقيقها، بالإضافة إلى تقييمه لذلك. ولكن، لم كتبها بالروسية؟! أليست اللغة الأم هي ما يكتب المرء بها عادة تلك الأشياء الخاصة؟! ما الذي يخفيه!!!

كانت تلك الأسئلة وعشرات غيرها تعصف برأسه. وفي النهاية قرر أن يقرأها، فهو سيترك الشقة غداً، ولن يطيق أن تظل هذه الألغاز تدور برأسه دون حل إلى ما لا نهاية، كما أنه قد أفتع نفسه بأنه سيقفز عن خصوصياته الحميمة أو العائلية إن وجدت، وأنه سيقرأ فقط ما يفسر له تلك الألغاز ويشبع فضوله. ثم إن خاطراً طرأ على باله، بأن الرب ربما قد دبر سفره إلى إسرائيل وأمر استضافته من قبل مسلم، وحادثة المرض المفاجئ لأمه، ثم عثوره على مسيرة حياة ذلك المسلم وأهدافه، ومكتوبة بالروسية، كي يعطي الفرصة له، وله بالذات، كي يكشف مؤامرة إرهابية بين طيات تلك المذكرات، فينقذ بذلك أرواحاً يهودية بريئة.

ارتاح أبراهام إلى ما توصل إليه، فتوجه مسرعاً إلى غرفة أحمد واختطف المجلد، ثم عاد بسرعة إلى غرفته ليبدأ بقراءته قبل أن تتبدد تلك التبريرات الوهمية التي أجهد نفسه كثيراً في تسويغها. بدأ بآخر صفحة مكتوبة، ولدهشته الشديدة كانت هي بالذات باللغة العربية، وبعد قراءة تاريخ يوم أمس على رأس الصفحة، وبقليل من التفكير استنتج أن تعارفهما واستضافته له في منزله كانا محور موضوعها، أو على الأقل طرفاً منه. كما استنتج أنه كتبها بالعربية احترازاً منه، وأنه لا ريب كتب الباقي باللغة الروسية حفاظاً على خصوصية ما فيها عن شريكه السابق في الشقة، والذي على الأغلب لم يكن يفهمها. عاد أبراهام إلى بداية المجلد، وبدأ القراءة باهتمام بالغ.

## ﴿ مراهق عربي في أوروبا

كان أحمد في صغره وحسب تعبيره "مسلماً بالاسم فقط". فقد ولد لأسرة مسلمة أورثته أسلوبها التقليدي في الدين الذي وإن كان محافظاً نوعاً ما، إلا أنه كان أبعد ما يكون عن الالتزام الحقيقي كما أصبح يفهمه هو اليوم، حيث إنها اختزلت الدين إلى الصلوات الخمس في المنزل، وذهاب رجالها إلى المسجد يوم الجمعة فحسب، وتحجيب نسائها بعد الزواج فقط، والتبرك بالقرآن، مع قراءة شيء منه في مجالس العزاء.

كان أحمد ملتزماً بذلك القدر من الإسلام، ومواظباً عليه حتى بداية المرحلة الجامعية في الاتحاد السوفييتي، حيث بدأ ينظر إلى الحياة من منظور مختلف تماماً بعد انبهاره بالشيوعية وتذوقه طعم الحياة الجامعية المتحررة. في البداية حاول التوفيق بين الشيوعية والإسلام عن طريق استخراج المبادئ الاشتراكية البسيطة في الإسلام، كي يضيف على دينه شيئاً من العصرية والحداثة<sup>(١)</sup>، وفي الوقت نفسه كي يرضي رؤسائه في "الكمسَمول"<sup>(٢)</sup>، بمساهمته في مشروع نشر الشيوعية بين المسلمين.

كانت هذه هي أولى محاولات أحمد في دراسة دينه بتعمق، فحتى تلك اللحظة كان الإسلام بالنسبة إليه مجرد تقاليد أخلاقية، وممارسة شعائر معينة بحكم العادة، أكثر منه ديناً يغطي كافة جوانب الحياة. ولكنه صُدم بالمبادئ التي هي أبعد ما تكون

(١) يقول الإعلامي البارز د. فيصل القاسم في مقاله المعنون (هل نصدق الرسام الدانماركي المأفون أم فلاسفة الغرب ومفكره): "حتى كارل ماركس أبو الشيوعية قال حرفياً: "جدير بكل ذي عقل أن يعترف بنبوءة محمد، وأنه رسول من السماء إلى الأرض... هذا النبي افتتح برسالته عصراً للعلم والنور والمعرفة، وحرى أن تُدون أقواله وأفعاله بطريقة علمية خاصة. وبما أن هذه التعاليم التي قام بها هي وحي فقد كان عليه أن يحو ما كان متركماً من الرسائل السابقة من التبديل والتحوير".

<http://www.quran-m.com/firas/arabic/?page=show-det&id=1709&select-page=17>.

(٢) الكَمَسَمول هو التنظيم الطلابي للحزب الشيوعي السوفييتي.

عن البساطة في النظام الإسلامي المحكم من جميع جوانبه، وبالذات في المجال الاقتصادي: من معاملات، وعقود، وتكافل، وصدقة، وزكاة، وبيت مال، وإعتاق العبيد، وتحريم الربا، ومحاربة المستغلين والمطففين والمحكرين، وغيرها من ركائز النظام الاقتصادي المتكامل وسياساته التي وضعها الإسلام في اعتباره منذ البداية، في حين غفلت عنها - حسب ما توصل إليه - الشيوعية نفسها<sup>(١)</sup>.

كما صدم أحمد أكثر عندما علم بأن الشاعر الديني المسيحي "دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله"<sup>(٢)</sup>، الذي تعلقت به السلطة الدينية في أوروبا، لتتهرب من مسؤوليتها في الدفاع عن المؤمنين الفقراء من استغلال الإقطاعيين والنبلاء، وكان أحد الأسباب الرئيسية لرفض الدين في روسيا، وقيام الثورة البلشفية الملحدة، لا يوجد له أساس في النظام الإسلامي أصلاً. ففي هذا النظام لا يوجد أي فصل بين الدين والدولة، ولا يقتصر فيه الإيمان والاعتقاد الديني على المسجد والشؤون الشخصية فحسب، بل لا بد أن يمتد ليشمل تنظيم جوانب الحياة الإنسانية كافة، دون أن يهمل الجانب الاقتصادي بالذات، وللكادحين تحديداً.

(١) الشيوعية هي في الأساس نظام فكري اقتصادي ولكنه ذو فلسفة سياسية واجتماعية تقوم على تنسير التاريخ بصراع الطبقات. وهو بشكل عام ضد الدين لإهماله - حسب وجهة نظره - مصلحة الكادحين الاقتصادية.

(٢) حسب الرواية الإنجليزية في (متى ٢٢: ١٧)، لجأ اليهود، في محاولة للإيقاع بالمسيح عليه السلام، لاستدراجه إلى تصريح معاد للسلطة الرومانية. فسألوه عن رأيه في الجزية الواجب دفعها للرومان. فسألهم بدوره عن الرسم المنقوش على النقود فأجابوه بأنه للقيصر، فأجابهم بتلك الجملة لتفويت الفرصة عليهم. ومن تلك المقولة خرجت مقولة الماركسية التي وصفت الدين بأنه: "أفيون الشعوب" يضحك به الأغنياء على الفقراء، فيلجئونهم إلى الصبر على شظف العيش نظير الملوك الوهمي، ليستأثر بخيرات الدنيا الطبقات العليا من رجال الحكم والإقطاع والدين. ولذلك اعتمدت الثورة البلشفية في انتشارها على سياسة: "الحقد الطبقي" إن صح التعبير، فكما قال "تروتسكي": "الحقد هو وسيلتنا إلى قلب الأنظمة".

كما لاحظ أحمد عدم وجود طبقة كهنوتية في الإسلام، تدعي أنها الواسطة بين الإنسان وربّه، كتلك التي يمكن استغلالها من قبل الإقطاع لتطويع العمال وتخديرهم كي يتقبلوا أنواعاً من الظلم والحياة المهينة، على أمل دخول الجنة بعد الموت. وهذه الصفات المميزة هي خاصية فريدة للدين الإسلامي، ومن ثم فهي تتسلف أي مبرر لقيام نظام كالشيوعية، بحجة أن "الدين أفيون الشعوب".

كانت تلك المعرفة الجديدة لأحمد عن دينه، وما يجب أن يتمخض عنها من الرفض المنطقي للشيوعية، تقف حائلاً بينه وبين حياته الحالية التي تأقلم معها وفرح بها. فهو الآن زعيم طلابي وكادر حزبي، يحظى بثقة رؤسائه الذين يتنبؤون له بمستقبل باهر، ويعيش في مجتمع متحرر نسبياً، يزيد فيه عدد النساء كثيراً على الرجال، والناس من حوله يمرحون ويصخبون، ويرى نفسه بينهم، شاباً أسمرّاً وسيماً، يجلس مع شقراء في مقهى، أو يرقص معها في مطعم بعد تناول العشاء، ثم يدعوها بعد ذلك بكل بساطة إلى غرفته بسكن الطلبة، بعيد عن رقابة أهله أو مجتمعه الشرقي.

صحيح أن أحمد كان مرتبطاً عاطفياً بالإسلام وبماضيه المجيد الذي كان يوفر له شعوراً بالعزة والكرامة، هو في أمس الحاجة إليه في ظل الذل والهوان المفروض حالياً على العرب بشكل عام، وعلى الفلسطينيين بشكل خاص، ولكنه في المقابل كان مثل بقية العرب والمسلمين المعاصرين، يرفض الإسلام كأسلوب للحياة العملية، لأن الإسلام بكل بساطة يرفض كل مظاهر الحياة الدنيا التي يتمسك بها، ويسعى بنهم للاستزادة من لذاتها ما أمكنه ذلك. ولا سيما أنه كان يرى عالماً مثيراً من حوله، لم يكن النظام الإسلامي الصارم ليمنحه أي منفذ للولوج إليه والتمتع بمباهجه. لم يكن أحمد على استعداد لخسارة كل ذلك بأي حال من الأحوال، لذا فقد أثر اختزال دينه إلى قشوره من جديد، ولكن عن عمد هذه المرة، وتابع حياته العملية، ونشاطاته الحزبية بما فيها من إثارة وتشويق يفتقد إليهما الإسلام، حسبما كان يظن آنذاك.

مع مرور الزمن ترك أحمد حتى تلك القشور، وتوقف عن الصلاة تماماً. ثم صار فيما بعد ينعت الإسلام والعروبة بالجمود والتخلف، أخذاً بالابتعاد عن أبناء جلدته من الطلبة العرب، بحجة عدم التحدث باللغة الأم حتى إتقان اللغة الروسية تماماً، واندماج كلياً مع الرفاق الشيوعيين من مختلف الأعراق، متحرراً من كل ما من شأنه أن يقيد حريته.

الغريب في الأمر هو أن أحمد قد ظل مع ذلك كله يدافع عن الإسلام بقوة كلما تطرق الحديث إليه، وكان ذلك يزعجه كثيراً، خاصة عندما ينظر إليه رفاقه بإشفاق، لكون الدين لا يزال متمكناً منه على الرغم من تحضره و"تطوره"! عبثاً حاول أحمد السكوت عن نصرة الإسلام، إلا أن حججهم الواهية التي تتم على جهل شديد بمبادئ الإسلام المتفوقة، كما عرفها مؤخراً، كانت تدفعه رغماً عنه لتصحيحها، مما كان يقوده أحياناً إلى ما يحاول اجتنابه، وهو ما أدى في النهاية إلى فتور في العلاقة معهم، ومن ثم مع رؤسائه في التنظيم، ليتطور الأمر فيما بعد إلى تحميله سلة الاتهامات الجاهزة في مثل تلك الظروف: والتي كانت تحتوي على تهمة بميول دينية، وبرجوازية صغيرة<sup>(١)</sup>، واعتداد المفرط بالنفس<sup>(٢)</sup>، وفقدان الروح الثورية، وضعف الثقافة الماركسية!!!

بدأت عملية تجريد أحمد من امتيازاته الحزبية تدريجياً كنوع من الضغط حتى يثوب إلى رشده. إلا أن أحمد المضعف بفورة الشباب الجامحة، والذي استمر طعم

(١) البرجوازية بحسب نظرية كارل ماركس هي الطبقة المسيطرة والحاكمة في المجتمع الرأسمالي (الطبقة الوسطى بين النبلاء والشعب في النظام الملكي) وهي طبقة غير منتجة فعلياً، وتعيش من فائض قيمة عمل العمال (البروليتاريا)، ويقسمهم لينين إلى فئات عديدة تنتهي بالبرجوازيين الصغار؛ أي عناصر لا تتعاطى مباشرة في أي عملية إنتاج مادي كصغار الموظفين والسماصرة ومعقبي المعاملات والخدمات، ويفترض الشيوعيون أن عناصر هذه الفئة لا يجمعهم فكر ولا تسيّرهم قناعات، بل مصالح فردية دينية.

(٢) الاعتداد المفرط بالنفس تعني ادعاء شخص ما الثقة أمام الآخرين، بحيث يعتقد بأن ما يعرفه أو يملكه هو أكثر بكثير مما لديهم، وتتضاعف خطورة هذه التهمة لدى النظام الشيوعي الذي يلغي الفرد في سبيل الكل، ويقنن الأنا والملكية الخاصة وكل ما من شأنه أن يهدد سيطرة النظام الشيوعي الشمولي واحتكاره لتحديد ماهية المصلحة العامة.

الحرية والتمرد على الجمود، بالغ في تأثره بالمبادئ الثورية التي تعلمها، محاولاً تطبيقها على أرض الواقع، فأبدى ردة فعل عنيفة على الظلم الذي وقع عليه؛ تمثلت في مقاطعته للتنظيم، والمجاهرة بانتقاد مناصرة الحزب لبعض الأنظمة البرجوازية<sup>(١)</sup> وغيرها من التجاوزات للمبادئ الاشتراكية السامية، دون أن تأخذه في الحق لومة لائم، واثقاً بأنهم سيعترفون بظلمهم له لاحقاً ويسترضونه، بل ربما سيمتدحون روحه الثورية وثقافته الماركسية اللتين شككوا بهما ظلماً وعدواناً.

لم يمضي وقت طويل حتى هبط أحمد على أرض الواقع، فقد اكتشف في النهاية أن أغلب المبادئ الشيوعية من حرية النقد والروح الثورية ومقاومة الظلم والتسلف، التي كانوا يطالبونه بإخضاع مقدساته ودينه ومجتمعه السابقين لها، تفقد كل معانيها أمام قدسية الحزب وتنظيماته. فقد تمت إحالته إلى التحقيق، وتعرض إلى الكثير من المضايقات والتكيل، حتى إنهم أسكنوا معه طالباً مشاكساً في غرفته في سكن الطلبة، ليسومه سوء الإزعاج، بعد أن كانت الغرفة له وحده، رافضين التماساته المتكررة باستبدال الغرفة أو شريكه المستفز، مما اضطره أخيراً إلى استئجار شقة. فشددوا عليه في الجامعة، مما أدى إلى رسوبه في بعض الامتحانات الدورية، رغم تحضيره الجيد لها.

(١) الغريب في الأمر أن القادة السوفييت كانوا يصرون على أن "الشعوب الهمجية" يجب أن تمر أولاً عبر الرأسمالية، قبل أن تصل إلى الاشتراكية. لذلك شجعوا خلق برجوازيات رأسمالية ذات نظام ديمقراطي في بلدان العالم الثالث، رغم عدم وجود مثل هذه الطبقة في كثير من دولها، وبالذات بالنسبة إلى بلدان العالم الإسلامي! وربما كان هذا، والله أعلم، هو ما يفسر أن من قاد الثورات والانتقالات في بلادنا لم تكن الأحزاب الشيوعية المحلية (التي من المفترض أن تحصل على حظ الأسد من الدعم السوفييتي)، بل الأحزاب القومية! والأغرب أن قادة الغرب (العالم الحر) الذين يشددون على تطبيق الديمقراطية في بلادهم بكل جوانبها، يتهاونون في تصورهم للديمقراطية التي يجب أن تكون في بلادنا. فهي يجب أن تقتصر على التحرر من الدين والعادات، وإعلان التبعية للنظام الغربي فحسب، بل يُفضل أن تحافظ تلك الأنظمة على قدر من الديكتاتورية، لأنهم يقولون إن التعامل مع دولة أشخاص (يمكن تهديدهم أو إغراؤهم أو الاتفاق معهم)، أفضل لمصالحهم من التعامل مع دول مؤسسات تحتكم إلى الشعب. وهذا يفسر، والله أعلم، دعوات قادة الغرب لتطبيق الديمقراطية في بلاد العالم الثالث، ثم وقوفهم (هم أنفسهم) ضد الديمقراطية في تشيلي والجزائر وغزة وغيرها.

كان من الممكن أن تتطور الأمور إلى ما لا يحمد عقباه، مما جعل أحمد يفكر جدياً بإعادة النظر في موقفه من الحزب، خاصة أن دافعه لمعارضته لم يكن أيديولوجياً: إذ لم يكن آنذاك ملتزماً بالإسلام بأي شكل من الأشكال، وكان لا يزال مخلصاً للشيوعية، لذا فقد بدأ بالتمهيد لرضوخه لهم تدريجياً إنقاذاً لماء وجهه، لولا أن أنقذه منهم التسارع الدراماتيكي لوتيرة "البريسترويكا"<sup>(١)</sup> الذي أدى إلى إرخاء قبضة الشيوعية على الحياة في الاتحاد السوفييتي بالتدريج، مؤذناً بانهيائها تماماً، وما تبع ذلك من سقوط للاتحاد السوفييتي نفسه بعد فترة وجيزة.

بعد انهيار الشيوعية، تعجب أحمد من تكالب أغلب أصدقائه الشيوعيين السابقين على الرأسمالية ورفاهيتها، بل على التدين أيضاً، وهم من استماتوا في محاربتهم في الماضي! أصبحوا فجأة يترددون على الكنائس، ويتغنون بالديمقراطية التي أعادت إليهم حريتهم الدينية التي حرّمهم منها "النظام القمعي السابق" بإلحاده وديكتاتوريته!! وفتحت أبواب روسيا الجديدة على مصراعيها أمام جحافل المبشرين من "كاثوليك"<sup>(٢)</sup> و"بروتستانت"<sup>(٣)</sup>، بل من "شهود يهوه"، و"مورمن"<sup>(٤)</sup>، وغيرهم من الطوائف المسيحية المختلفة، كلٌّ يحاول كسب أكبر عدد ممكن من المسيحيين العائدين إلى

(١) البريسترويكا تعني "إعادة البناء" وهي سياسة اعتمدها الأمين العام للحزب "ميخائيل غورباتشوف" بهدف إصلاح الشيوعية من الداخل حسب ما أعلنه آنذاك.

(٢) الكاثوليكية تعني الجامعة، وهي الكنيسة الغربية، ويُعد أتباعها الأكثر عدداً بين المسيحيين (قرابة المليار). ولزيد من المعلومات عنها راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

(٣) البروتستانت تعني المعارضون، ولقبوا كذلك لاعتراضهم على سلطة الكنيسة الكاثوليكية ونظامها الكهنوتي واحتكارها لتفسير الكتاب المقدس، ويحتل البروتستانت المرتبة الثانية من جهة العدد بين المسيحيين (قرابة نصف المليار).

(٤) شهود يهوه والمورمون هما من الطوائف المسيحية قليلة العدد. وللمزيد من المعلومات عنهما راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف. ويبلغ تعداد أتباع كل تلك الطوائف وكثير غيرها ما لا تتعد فعلياً أباً من الطوائف المسيحية الثلاث الكبرى (الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس) نحو ٢٧٥ مليون نسمة.



الله إلى جانبه. كما نشطت "البروفاسلافية"<sup>(١)</sup>، لتفويت الفرصة على تلك الطوائف الدخيلة، وإعادة الروس إلى دينهم الأصلي، ولا سيما أنها كـ"بطركية" لم تنته تماماً أيام الشيوعية، فعلى الرغم من اقتصار نشاطها العلني على بعض الطقوس الاحتفالية تحت رقابة الدولة فقط، إلا أن نشاطها الفعلي استمر "تحت الأرض" بتنظيم دقيق، بحيث بقيت تُنظم أمور رعاياها المخلصين، وترعى تجمعاتهم السرية لأداء طقوسها الكاملة بعيداً عن تدخل الدولة أو رقابتها.

كان قلما يمر أسبوع دون أن يطرق باب أحمد أحدُ المبشرين يوزعون نسخاً مجانية فاخرة عن العهد الجديد<sup>(٢)</sup>، ومنشوراتهم التبشيرية ومجلاتهم المزينة بالصور الخلافة. لم يكن أحمد ليغلق باب شقته بوجه أي منهم، فقد كان يتوق إلى ركوب الموجة مع الآخرين، وأراد أن يختار ديناً خالياً من التعقيدات والصرامة، يرضي عقله وروحه، ويحقق له طموحاته في الوقت نفسه. فقبل دوراتهم المجانية في تعليم "الكتاب المقدس"، لا، بل طلب بإلحاح قراءة بقية كتبهم التخصصية.

الغريب هو أنه كلما تعمق أحمد معهم أكثر في النقاش، على أمل إقناعهم له بأفضلية أحد تلك الأديان على دينه الأصلي، كان يزداد اقتناعاً بدينه القديم... الإسلام!!! وكان جوابهم بعد كل سلسلة من المحاورات:

- سنعود إليك لاحقاً مع مبشر آخر أكثر علماً منا.

(١) البروفاسلافية هي الترجمة الروسية لكلمة الأرثوذكسية، وتعني "الإيمان القويم" وهي الكنيسة الشرقية. ويقدر عدد أتباعها وأتباع بقية الكنائس الأرثوذكسية في العالم بنحو ٢٤٠ مليوناً محتلين المرتبة الثالثة بين الطوائف المسيحية الرئيسية من جهة العدد.

(٢) العهد الجديد هو اسم الجزء الأهم من كتاب المسيحيين، والذي يضم الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل والرسائل ورؤيا يوحنا. وتعتمد كل طائفة مسيحية تقريباً على نسختها الخاصة منه، والتي تحوي بعض الفروقات مقارنة بنسخ الطوائف الأخرى من حيث اختلاف المعاني المستخدمة في الترجمة، أو إضافة أو حذف بعض المقاطع حسب النسخ القديمة التي اعتمدها، أو حسب تسميات معينة تبناها دون غيرها من الخيارات المتعددة.

في أثناء ذلك كان أحمد يتابع قراءة الكتاب المقدس بنهم شديد . ولكن، مع أنه كان يود - صادقاً - اعتناق المسيحية، إلا أنه لم يستطع التفاوضي عن بعض آياته التي وجدها تنافي العقل والمنطق، وتتعارض بشدة مع العلم. كما وجد تناقضاً كبيراً بين قسميه: العهد القديم والعهد الجديد. بل وجد أن العهد الجديد نفسه، مليء بالتناقضات بين أسفاره المختلفة، مما أرجعه إلى القرآن الذي يزين به مكتبته، وقلما فتحه، ليجت فيه عن تناقضات مشابهة، ولكن دونما جدوى!

وكلما جاء أولئك الذين هم أكثر علماً بالمسيحية من سابقهم، لم يقدروا على أكثر مما قدر عليه مرؤوسوهم، وعندما لاحظوا أنه أصبح يستشهد بالقرآن، صارت تنتهي محاوراتهم معه بعبارة:

- سنعود إليك لاحقاً مع مبشر آخر متخصص بالتبشير بين المسلمين.

لكن أولئك المتخصصين بمحاورة المسلمين، على اختلاف درجاتهم، لم يكونوا أوفر حظاً من سابقهم. ولطالما حاول أن يخدع نفسه ويبيد اقتناعاً بطرحهم، إلا أن عقله كان يأبى عليه ذلك دائماً، ليعود ويسمو به، رغم أنه، إلى إبداء وجهة نظره الحقيقية فيما يبشرون به، والتي كانت دائماً تفيداً عقلياً يدحض كثيراً من مُسلماتهم. حتى إنه شكك - دون قصد مباشر منه - إحدى المبشرات بدينها لصالح الإسلام، لئتم سحبها فوراً من النقاش، ومن ثم إعادة تأهيلها كي "تستعيد إيمانها"، كما عرف منها لاحقاً عندما قابلها مصادفة في أحد شوارع سانكت بطرسبورغ، وهو ما كشف له عن قدرات كامنة في نفسه لم يكن يدركها سابقاً.

توالت المحاورات وتوالى تغير المحاورين، مما أكسبه خبرة لا يستهان بها في الحوار، ولم يعد يكتفي معهم بمقارنة المسيحية بالإسلام، بل تحول إلى نقد المسيحية من داخلها، بناء على كتابات آباء الكنيسة الأوائل، بالإضافة إلى كتابات تلك الطوائف المسيحية المختلفة، والتي كانت غالباً ما تفضح تجاوزات بقية الطوائف في العقيدة من وجهة نظرها اللاهوتية الخاصة.

استمرت المناقشات معهم، واستمر لجوئهم إلى مستويات أعلى من المبشرين الذين صاروا يتغيرون باستمرار، حتى دخل اليأس إلى قلوبهم، وصاروا يُباعدون مواعيد زيارتهم له بحجة دراسة المسائل التي يطرحها للرد عليها، أو بحجة انتظار من هو أعلم بتلك المسائل، حتى انقطعت تلك الزيارات تماماً... ولكن بعد أن اكتسب أحمد اقتناعاً راسخاً بتفوق الإسلام على المسيحية، وثقافة لا يستهان بها في علم اللاهوت ونقده. توقف أبراهام عن القراءة قليلاً، وأخذ يتأمل عمق تفكير أحمد وحدة ذكائه، وتأسف لضياح مثل تلك الموهبة الخلاقة في الإسلام و"البرغماتية"<sup>(١)</sup>، حيث إن اليهودية هي التربة الخصبة المناسبة لتلك النبتة كي تثمر. واستغرب من ضلال ذلك العقل عنها، خاصة بعد أن درسها بكل فرقها كما يبدو واضحاً من الكتب التي وجدها في مكتبته. نظر إلى النافذة فإذا الليل قد أرخى سدوله، كان يوم السبت قد انتهى دون أن يقرأ شيئاً من التوراة، مما أكسبه شعوراً مضاعفاً بالذنب، ولكنه قرر متابعة القراءة ليعرف تجربة أحمد مع اليهودية بالذات، عله يجد فيها ما يبحث عنه.

(١) البرغماتية هي مذهب فلسفي اجتماعي يقول بأن الحقيقة توجد في جملة التجربة الإنسانية، لا في الفكر النظري البعيد عن الواقع. وأن المعرفة آلة أو وظيفة في خدمة مطالب الحياة، وأن صدق قضية ما هو في كونها مفيدة للناس، وهي تجعل الفائدة العملية معياراً للتقدم بغض النظر عن المحتوى الفكري أو الأخلاقي أو العقائدي. ويسمى أيضاً الذرائعية أو النفعية. وقد كان أبراهام ينتمي إلى الصوفية التي هي على النقيض من ذلك تماماً.

## ◀ بين العهدين

أخيراً حاز أحمد على درجة "الماجستير" في تاريخ الشرق الأوسط، بعد أن أنهى دراسته الجامعية "بديبلوم أحمر"<sup>(١)</sup>، ليعود إلى وطنه، وإلى مدينته أم الفحم التي غاب عنها لأكثر من عشر سنوات متواصلة. وقد أهلته شهادته، ومعارف عمه عضو "الكنيست الإسرائيلي"<sup>(٢)</sup> للحصول على وظيفة إدارية هناك، ولا سيما أنه عضو قديم في "الحزب الشيوعي الإسرائيلي"، مما حثّم عليه ترك أسرته ومدينته ثانية، ليستقر في "تل أبيب" (تل الربيع) هذه المرة.

كان أحمد يؤمن حينها بـ"بَحْتَمِيَّة" "التعايش" السلمي بين العرب واليهود تحت ظل دولة إسرائيل "الديمقراطية العلمانية"، وقد استغل أسلوبه القوي في الكتابة، وعلاقاته بزملائه الجدد في الكنيست، للوصول إلى جريدة "هاأرتس"<sup>(٣)</sup>، ليحرر فيها زاوية أسبوعية، روج من خلالها لأفكار منظمة "أبناء الشرق الأوسط"<sup>(٤)</sup> التي انضم إليها مؤخراً، والتي كان يكن الكثير من الاحترام لمديرتها.

(١) يمنح الحريجون المتفوقون بامتياز في روسيا الشهادة مجلدة بغلاف أحمر، في حين تمنح باقي الشهادات بغلاف أزرق. ويعد الافتتان باللون الأحمر من بقايا تقاليد الاتحاد السوفييتي السابق، التي لا تزال سارية في روسيا حتى الآن. ومن أوضح الأمثلة على ذلك جواز السفر الروسي للمواطن العادي؛ فهو لا يزال أحمر، مع أن ذلك اللون في أغلبية الدول الأخرى هو من نصيب جوازات السفر الدبلوماسية فحسب.

(٢) الكنيست هو اسم البرلمان في الكيان الصهيوني العاصب، ويعني بالعربية المجمع.

(٣) هاأرتس هي كلمة عبرية تعني "الأرض"، وهي من كبريات الصحف في الكيان الصهيوني وأقلها تطرفاً.

(٤) أبناء الشرق الأوسط هي منظمة غير حكومية، تهدف إلى إعداد أبناء الشعيين (العربي والعبري) للسلام بواسطة مشاريع تربوية مشتركة، ويديرها عربي هو الدكتور "غسان عبد الله" من رام الله، ويهودية هي "عادينا شابير".

كانت "عادينا شابيرا" من ناشطي السلام المؤثرين، ومدرسة للغة العبرية في مدرسة فلسطينية، وداعية إلى التعايش، وكان أحمد يُقدر فيها ذلك كله، لكن السبب الحقيقي وراء تأثره بها هو أنها لم تكن علمانية أو يسارية كمعظم دعاة السلام الإسرائيليين، بل متدينة بعمق، وفوق ذلك ابنة حاخام له وزنه وقيمه. كان يتابع كل نشاطاتها، بما فيها "الأيام الدراسية" التي كثيراً ما كانت تنظمها وتدعو إليها رجال التعليم في إسرائيل، ومن بينهم أولئك البارزون في قطاع التعليم الديني اليهودي لإقناعهم بمبادئها.

وذات مرة سنحت له الفرصة لسؤالها عن سر توفيقها بين فكر التعايش الذي تنادي به، وبين تدينها الواضح. فأسهبت في الحديث عن الأصل الواحد للعرب والعبرانيين أبناء العمومة، وعن التشابه الكبير بين اليهودية والإسلام، مما زاد من تقديره لها. وهو ما أشعره بالفخر عندما أهدته في اليوم التالي مباشرة كتاب "ذرية إبراهيم"<sup>(١)</sup>، لتثبت له صحة ما ذهب إليه، فقراءه كله في ذلك اليوم، وتعجب كثيراً لمقدار التشابه الكبير بين اليهودية والإسلام، الذي لم يلاحظه سابقاً رغم قضائه أغلب فترات حياته بين اليهود. تذكرُ أحمد كيف كان المبشرون الذين التقاهم في روسيا يوزعون على الناس نسخاً من العهد الجديد فقط، في حين كانوا يحملون في أيديهم الكتاب المقدس كاملاً بعهديه! وتذكر كيف كانوا يستشهدون بالعهد الجديد، فيما يتعلق بحياة المسيح ورساله أو القيم الأخلاقية، ولكن عندما يتعمق النقاش إلى مستوى الشرائع والتاريخ والنبوءات، فلا يستشهدون إلا بالعهد القديم!! حتى صلواتهم، كان أغلبها في "المزامير"<sup>(٢)</sup>!!! وتذكرُ كيف كانوا يسقطون معاني نصوص العهد الجديد الذي يوزعونه، على كل نصوص العهد القديم الذي بين أيديهم، على الرغم من التباين الواضح بينهما، وكيف أنه سلم بذلك، ولم يفكر في التحقيق الجاد فيه.

(١) ذرية إبراهيم هو أحد منشورات معاهد اللجنة اليهودية الأمريكية للتفاهم بين الأديان، وقد حاول مؤلفه (البروفسور "روبن فايرستون" وهو حاخام) تقديم الدين اليهودي للقراء المسلمين عن طريق ذلك الكتاب الذي استعنا به كثيراً في هذه الرحلة.

(٢) المزامير ("الزبور" حسب التسمية القرآنية) هو كتاب داوود عليه السلام ويُعد أحد أهم وأكبر أسفار التناخ أو العهد القديم.

أدرك أحمد حينها سطحية معرفته السابقة بالعهد القديم، أو التناخ بتعبير أدق، التي كانت بمجملها تأويلاً مسيحياً له لإثبات أن أسفار الشريعة تضع حجر الأساس لعمل المسيح، والأسفار التاريخية تمهد الطريق لعمله، والأسفار الشعرية تتغنى بانتصاره على الموت ومعاناته على الصليب، والنبوات تبشر بعودته، مع أن ذلك بعيد كل البعد عن المعنى الظاهري للكتاب، بل بعيد حتى عن المعنى الباطني بعد التعمق<sup>(١)</sup>. وحتى شرح تورياته التي ظن أنه أتقنها، كانت مجرد خيال، وتحميل للنصوص بأكثر مما يمكنها تحمله<sup>(٢)</sup>؛ فقد اتضح له أن شخص المسيح لم يكن المحور الرئيسي الذي يدور حوله الكتاب المقدس كما كان يُعلّمه المبشرون.

قرر أحمد بعد استرجاعه لكل تلك الأمور أن يعود إلى المنبع الأصل، ويشتري نسخة من التناخ، مهملاً نسخة العهد القديم المسيحية التي كان يحتفظ بها، والتي اكتشف أنها كانت تشويهاً مسيحياً للتناخ الأصل. كما قرر شراء كتب أخرى تشرح اليهودية، بشكل أعمق من مجرد بحث أوجه التشابه والتقارب بينها وبين الإسلام أو أي دين آخر.

(١) للاطلاع على بعض الأمثلة المهمة عن ذلك الموضوع راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) من يقرأ مؤلفات القديس أوغسطين وغيره من الآباء، يدرك المدى الذي ذهبت إليه هذه التفسيرات الرمزية والتوراتية؛ إذ لم يتركوا أي تفصيل في حياة يسوع المسيح إلا وجدوا له مقابلاً في العهد القديم! وعلى سبيل المثال لا الحصر، فسرت سفينة نوح في التوراة على أنها ترمز أو تنبئ بيسوع المسيح! لقد أنقذت السفينة (بمفهومها التوراتي) البشرية من الأندثار والفناء، وبالطريقة نفسها فقد أنقذ المسيح البشرية (بالمفهوم الإنجيلي) من ذنوبها، كما يرمز الباب في جنب السفينة إلى طعنة الرمح التي تلقاها المسيح في خاصرته في أثناء الصلب!! وحسب مثل هذه النظريات المجازية، فقدت المثل التوراتية الرئيسية الثلاث (الإله، الشعب المختار، الأرض الموعودة) تعريفها التوراتي بقدوم المسيح والمسيحية. وعليه أصبح الإله هو المسيح وبقية الأقانيم، وفقد مفهوم شعب الله المختار مغزاه لأنه تحقق بقيام الكنيسة، وأصبح مفهوم الأرض الموعودة لاغياً لأن مملكة الله حسب "التفسير الإنجيلي" هي في السماوات.

كانت دهشة أبراهام عظيمة وهو يقرأ كيف ابتدأ أحمد، وللمصادفة الغريبة، بدراسة مبادئ ناطوري كارتا نفسها! فقد كان رفضه الغريزي للصهيونية التي هي السبب المباشر لاحتلال وطنه، وتشريد غالبية شعبه، وجعل الباقي مواطنين من الدرجة الدنيا على أرضهم، قد دفعه إلى أحضان الاتجاه الأشد عداوة للصهيونية من بين الفرق اليهودية. وازدادت دهشته أكثر عندما قرأ أسباب نفور أحمد منها فيما بعد، وقد كانت كبيرة الشبه بالأسباب التي أدت إلى تحوله هو نفسه عنها.

كانت الفرقة الثانية التي اتجه أحمد لدراستها هي، وللمصادفة غير المتوقعة، الفرقة نفسها التي بدأ أبراهام لتوه بتعرفها، وهي "اليهودية الإصلاحية" (Reform Judaism)! التي تكاد تلغي دور التلمود، بل إن بعض الأمور التي ساءته منها فيما بعد هي عين ما ساء أبراهام نفسه هذا الصباح.

توقف أبراهام مفكراً في معنى كل ذلك التوافق بين مساريهما، رغم التباين الكبير بين خلفياتهما الدينية والفكرية والبيئية!!! كان إعجابه المتزايد بمنطق أحمد وعمق تحليلاته، قد بدأ يثير رعبه، لدرجة أنه قرر القفز عن قراءته تجاربه مع باقي الفرق اليهودية، حرصاً على استقلالية قراره الخاص في تجربته التي يزعم القيام بها، ولكنه مع ذلك لم يستطع مقاومة قراءة "الخلاصة" كي يعرف نتيجة ما توصل إليه أحمد بعد كل ذلك البحث عن الحقيقة. وقد كانت تلك الخلاصة على شكل ملاحظات كالآتي:

"لقد لاحظت أن جميع الأنبياء والرسل، على اختلاف شرائعهم، قد اشتركوا في الدعوة إلى وحدانية الله تعالى أولاً وقبل كل شيء، وعلى عدم اتباع الشيطان، الذي يحاول إدخالهم بالشرك بمختلف الطرائق، وأن الشرك بالذات هو الذي يقود إلى أغلب الذنوب والمعاصي الأخرى. كما لاحظتُ اشتراك الأنبياء بالتحذير من فتنة الدجال آخر الزمان. ولكن كل هذه التعاليم قد أُفرغت من معناها نتيجة التأويل والتبديل المستمرين على مر العصور، فتسللت إلى الشرائع مفاهيم شركية، وغرر

الشیطان بتلك الأوهام، واختلطت صفات المخلص المنتظر مع المسيح الدجال بشكل مربك، ومرد ذلك الخلط هو بعض الحوادث التي صاحب كلاً منها فتنة معينة، وتلك الفتن بمجملها هي في واقع الأمر تحضير للفتنة الكبرى، فتنة المسيح الدجال الذي سيضل أغلب الناس، فيظنون أنه مخلصهم المنتظر، وستكون فتنته فتنة أوهام وشبهات وشهوات، وليست فتنة جبر أو إكراه أو قهر.

كما لاحظت أيضاً أن أغلب التبديل والتأويل نسب عادة إلى رجال صالحين أشركهم أتباعهم مع الله تعالى في الطاعة والدعاء، بحجة أنهم اقتصوا بعلم باطن، أو تلقوا نوعاً من الوحي، أو يملكون بعض صفات الله، أو أن الله ذاته قد حل بهم، تعالى الله عما يصفون. ومع التكرار الأزلي لهذه الحوادث، كثرت الانشقاقات، وصار لكل فرقة مصدر باطني للتشريع، يتناقض في كثير من المواضع مع ظاهر دينهم الحقيقي وكتبهم الأولى، التي أبقوا على أسمائها الأصلية، وغيروا كثيراً في تأويلها، وأحياناً في نصوصها".

أعاد أبراهام قراءة الخلاصة أكثر من مرة، محاولاً إدراك مغزى ما توصل إليه أحمد دونما جدوى: ففيها الكثير من المصطلحات غير المفهومة، والتي رجح أنها ذات أصل عربي، فتعدها إلى نهاية المخطوط، حيث كتب أحمد عن الصعوبات التي واجهته بعد انضمامه إلى "الحركة الإسلامية"<sup>(١)</sup> والتزامه الكامل بمبادئها، مما أدى إلى قرار الحزب بتجميد عضويته، وفقدانه لوظيفته في الكنيسة، وتكبر الجميع له بمن فيهم عمه، وكيف فضل مغادرة تل أبيب إلى القدس، حيث عرض عليه أن يعمل موظفاً في مكتب حركة "السلام الآن"<sup>(٢)</sup>.

(١) "الحركة الإسلامية" هي جمعية مرخصة لعرب ٤٨ في الكيان الصهيوني بزعامة الشيخ "راند صلاح" (من مدينة أم الفحم). ويعد التنبيه على الخطر الذي يتعرض له المسجد الأقصى من حكومة الكيان الصهيوني والمتطرفين اليهود من أهم مهامها.

(٢) "السلام الآن" هي منظمة يسارية في الكيان الصهيوني، تهدف إلى إحلال السلام بين العرب واليهود.



كان أحمد حتى تلك اللحظة لا يزال على تواصله السابق مع قوى اليسار الإسرائيلية، باعتبار أن المسلم يجب أن يكون واقعياً، وعلاقاته ينبغي أن تكون جيدة مع جميع القوى التي تبدي تعاطفاً مع قضاياها، حتى الكفار منهم، ولا يفقد الأمل من حكمة وعدلٍ عندهم، مستذكراً حماية بعض المشركين للرسول عليه الصلاة والسلام ومناصرتهم له، كعمه "أبي طالب" الذي لم يسلمه لأعدائه، رغم عدم موافقته له على دينه، و"المطعم بن عدي" الذي - على إشراكه - أجاز الرسول بعد عودته من الطائف، معرضاً نفسه للخطر، و"الدليل المشرك" الذي وثق به، عليه الصلاة والسلام، فاستخدمه في هجرته إلى المدينة. ولكن سرعان ما لاحظ أحمد أن مهمة اليسار الإسرائيلي كانت تتحصر، في واقع الأمر، في مجرد تجميل صورة إسرائيل، وإظهارها للعالم أنها دولة ليبرالية وديمقراطية، تمارس بها نشاطات معارضة بحرية تامة، وأن مواقفهم الحقيقية لا تنسجم تماماً مع مواقفهم المعلنة.

وكانت الشعرة التي قصمت ظهر البعير هي مبادرة أحد أشهر مُنظري اليسار<sup>(١)</sup> لتشكيل رابطة تضم مفكرين وأدباء وأكاديميين من اليهود لمطالبة رئاسة الحكومة بوقف الأنشطة "التخريبية" لدائرة الأوقاف الإسلامية داخل الحرم القدسي الشريف، على اعتبار أن ذلك يهدد الآثار اليهودية في المكان، ويؤدي إلى دثر معالم الهيكل!!! شكل ذلك صدمة قوية لأحمد، خاصة أن كثيراً من رموز اليسار قد أعلنوا مراراً عن مواقف مناقضة لذلك كلية، فضلاً عن كتاباتهم التي تشكك في حقيقة وجود هيكل أصلاً في ذلك المكان<sup>(٢)</sup>. وبعد استرجاعه وتدبره لمجمل نشاطاتهم السابقة وخلفياتها ونتائجها، انقطع أحمد عنهم نهائياً، رافضاً استخدامه في تلك الألاعيب السياسية

(١) الشاعر والكاتب أ. ب. يهوشوع رئيس اتحاد الكتاب في الكيان الصهيوني .

(٢) أكد المؤرخ اليهودي "يهودا رايمان" أنه لم يتم العثور على أية أدلة أثرية يمكن أن تثبت النظرية اليهودية السائدة بأن المسجد الأقصى قد أقيم أصلاً على أنقاض الهيكل، وعلى غراره نفى كثيرون من المؤرخين اليهود هذا الادعاء بناء على التنقيب الأثري المتواصل منذ احتلال فلسطين .

القدرة، وعمل مدرساً في مدرسة عربية صغيرة، ومحرباً مستقلاً في عدة مواقع إلكترونية عربية تختص بحقوق الإنسان ومحاربة انتهاكها، مثل موقع "عرب ضد التمييز"<sup>(١)</sup>، وغيره. وهو ما فسر لأبراهام وجود كل تلك الكتب في غرفته.

وجد أبراهام في أحمد شخصاً مثيراً للاهتمام فعلاً؛ فيبدو من مواقفه الأخيرة أنه قد تخلى عن برغماتيته القديمة في سبيل الدين الذي افتتح به، فأثره على كل ما وصل إليه، متحملاً في ذلك مختلف أصناف المضايقات. كما أنه كان قد مر بنفس تجربة أبراهام الحالية، وإن كان بشكل معكوس تماماً؛ فلم ينطلق أحمد من رغبته الشديدة في البحث عن الحقيقة بعد الشكوك التي زحزحت قناعته في دين آباؤه؛ بل انطلق من نزعه إلى التحرر، ورغبته في الهروب من دين الآباء، الذي ولد عليه وآمن به ولم يجد أي مبرر مقنع للشك فيه، إلى عقيدة أخرى تلبى احتياجاته المادية والفكرية، دون أن تضطره إلى كبح أهوائه والتخلي عن طموحاته. فدرس أشهر العقائد، وحاول جاهداً أن يقنع عقله بأي منها دونما جدوى. فكلما تعمق في دراسة أحدها أكثر، ازداد اقتناعه بدينه رسوخاً، وهو ما قاده في نهاية الأمر إلى التحرر من كل تلك الأوهام، والرجوع إلى عين الحقيقة، التي كان يهرب منها منذ البداية، والتي كانت للأسف هي الإسلام حسب قناعته، فتخلى في سبيله عن كل ما دفعه في السابق إلى التفكير بتركه.

استخف أبراهام في قرارة نفسه بالنتيجة التي توصل إليها أحمد بعد كل ذلك الجهد المضني، ولكنه مع ذلك لم يسعه إلا إكبار دور الدين في حياته، إذ لم يتمكن هوى نفسه من أن يقوده إلى الإلحاد وترك الدين نهائياً في سبيل اتباعها، ولا حتى إلى

(١) "عرب ضد التمييز" هو موقع إلكتروني تابع لـ"المنظمة العربية لمناهضة التمييز"، وهي منظمة غير حكومية مشهورة وفقاً للقانون الفرنسي تهدف إلى استخدام جميع الوسائل القانونية والإعلامية للكشف عن مظاهر التمييز والعنصرية وانتهاك حقوق الإنسان في الكيان الصهيوني ضد العرب، أو بعض شرائح اليهود أو معتنقي الديانات الأخرى.

إهماله، أو "اختزاله إلى القشور" حسب تعبيره، فبحث عن دين آخر يقنعه، ويرضى - في الوقت نفسه - هواه من خلاله. غير مُسلّم بصحة الإسلام دون غيره، فقط لكونه الدين الذي وجد عليه آباءه. كما أكبر فيه أيضاً أنه لم يستمر في المكابرة بعد كل الدلائل التي أثبتت له صحة دينه، فرضخ له في نهاية المطاف، كاجراً طبيعته المتمرده، وهواه الجامح، ومستبدلاً "بلذة الدنيا واتباع الهوى، حلاوة الإيمان واتباع أوامر الله" حسب تعبيره الذي أُعجب به أبراهام كثيراً.

استيقظ أبراهام متأخراً على غير عادته، فقد جافاه النوم ليلة البارحة وهو يفكر بما قرأه. وكان قد قرر قبول ضيافة أحمد حتى نهاية الأيام الاثني عشر، ولعله يشاركه في استئجار الشقة لأبعد من ذلك بكثير، إذا وجد بقاءه مثمراً من ناحية الاستفادة من الكتب الموجودة فيها، ومن خبرة أحمد في كشف أغوار المجتمع الإسرائيلي، وشرائحه، وطبيعة التمييز الممارس ضدهم، لذا بدأ في ترتيب أغراضه في الخزانة، بعد أن كانت لا تزال في حقيبته حتى تلك اللحظة، ثم اتجه إلى الحمام ليأخذ دُشاً بارداً.

مكث أبراهام طويلاً تحت سيل الماء المنهمر فوق رأسه وهو مغمض العينين. كان قد بدأ فعلاً بتقبل فكرة السكن في تلك الشقة، بل أصبح أكثر استعداداً لتقبل صداقة أحمد نفسه، ناظراً إلى الأمر على أنه حسن حظ، وتوفيق من الرب له في مسعاه؛ فها هو ذا في أرض إسرائيل، يسكن شقة مريحة لم يجهد في العثور عليها، ويقرب شخص خدوم وملم بشؤون مختلف الفرق اليهودية والطوائف المسيحية. ومع أنه يؤمن للأسف بالأفكار الإسلامية السخيفة، إلا أنه بالتأكيد لا يحاول فرضها على الناس، ولا يظهر من مذكراته أنه يحاول الدعوة إليها أصلاً، كما أنه متفتح العقل، ويحترم أديان الآخرين، ولا يتدخل بخصوصياتهم، والأهم من ذلك أنه ليس عدواً تاماً، فهو مسالم ولا خطر منه بتاتاً. وفوق ذلك كله يمكن اعتباره محايداً أيضاً، فدينه الصحراوي الجاف خال من أي عنصر جذب ومرفوض تماماً من قبله.

كان أبراهام قد عقد العزم على أن يوفر كل جهده وطاقته في سبيل البحث عن الحقيقة من منبعها الأصلي فقط، ذلك المنبع المتمثل بالإيمان برب إسرائيل، وما يثبت صحته من كتبه ونبوءاتها، وعلى رأسها "النبوءات المشيخانية" التي بقيت بقلبه وعقله إحدى المسلمات القليلة التي لم يقربها الشك؛ فقد كان يؤمن بحتمية قدوم "مشيخ الرب" آخر الزمان، وينتظره بكل جوارحه، حتى يملأ الأرض عدلاً ويقيم مملكة الرب<sup>(١)</sup>. والإسلام، وإن كان يدعي الإيمان بالرب، إلا أنه يبقى ديناً وثنياً مزوراً وهجيناً يسعى إلى اكتساب الشرعية عن طريق تمسحه بقدسية رب إسرائيل وأنبيائه<sup>(٢)</sup>. كما أن التفاهات التي عرفها للتو عن رأيه في قدوم المشيخ المخلص تكفي لاستبعاد أي تأثير ممكن به.

خرج أبراهام من الحمام، وارتدى ملابسه ورتب الشقة، بعد أن أعاد كل شيء إلى مكانه، ثم غادرها منشراح الصدر، ليكمل مشواره الطويل في البحث عن الحقيقة.

(١) يجب على اليهودي المؤمن أن يقول في صلواته اليومية بخشوع وابتهاال: "أؤمن إيماناً مطلقاً بقدوم المشيخ، وسأبقى، حتى لو تأخر، أنتظره كل يوم".  
 (٢) سيأتي الرد على هذه الاتهامات الباطلة (والشائعة أيضاً للأسف الشديد) في هذه الرواية، وبالأخص في الرواية الثانية من سلسلة رحلة أبراهام بشارات هائمة.

# اليهودي الحائر

وتشمل:

الإصلاح اليهودي

حائط البُراق

المشيخ

عقيدة المُنتظر

حاخام أنتى

موت الشعب اليهودي

الاقتراب من الخطيئة

الانتصار على الهوى

قانون الشرف

إصلاح محافظ

مناظرة تنويرية



## اليهودي الحائر



## الإصلاح اليهودي

- ما كاد أبراهام يبتعد بضع خطوات عن المنزل حتى استوقفته فتاة جميلة في أواخر العشرينات من العمر .
- عفواً . ألسنت أنت الجديد الذي كنت تصلي معنا البارحة في الهيكل؟
- قالت الفتاة باستحياء مصطنع .
- أجل . وأنا لاحظتك أيضاً .
- رد أبرام وهو يحاول جاهداً ألا يظهر إنكاره الشديد لتصرفها البارحة ، فقد كانت هي صاحبة الطاليت والتفلين .
- أووه . يبدو أنك تتمتع بذاكرة جيدة .
- علقت الفتاة بغنج ودلال ، ففهم أبراهام قصدها على الفور ، ولكي لا تترك العنان لمخيلتها ، رد قائلاً دون تفكير :
- لا يحتاج الأمر ذاكرة جيدة أو سيئة ، فقد كنت أكثرهن تشبهاً بالرجال .

ظهرت الخيبة على تعابير وجهها، وأدركت حينها خطأ تفسيرها لتلك النظرات التي اختلسها إليها البارحة، فاعتذرت عن تطفلها بأدب، واستدارت لتمضي في سبيلها، إلا أن أبراهام، الذي شعر بالندم على رده الفظ، استوقفها معتذراً:

- بل أنا الذي يجب أن يعتذر عن فجاجتي. اعذريني أرجوك، فقد وصلت أول أمس فقط، والبارحة كانت المرة الأولى التي أرى فيها نساءً يشاركن في الصلاة بهذه الطريقة، بل كانت أول مرة أرى فيها هيكلاً إصلاحياً أصلاً.

- حقاً!!!، لا عليك إذن، ولا تهتم بالموضوع كثيراً.

ثم سألته بدلال، وقد عاودها مرحها:

- إلى أين أنت ذاهب الآن؟

- ليس إلى مكان معين، فقط أستكشف المدينة، فالبارحة كان السبت، وعملياً اليوم هو يومي الأول فيها.

قال أبراهام وهو يستعد للرحيل، إلا أنه فوجئ بها تشبك ذراعيها حول ذراعه وتسير معه قائلة:

- إذن سأكون دليلك السياحي لهذا اليوم، وأريك أهم معالم أورشليم.

ثم هزت رأسها زامة شفتيها وأنفها بحركة صبيانية، كأنها تتصنع الجدية:

- وسأجعل من يومك هذا مثمراً بكل ما تحويه الكلمة من معنى.

لم يسع أبراهام الرفض، ولم يرغب به أصلاً: فقد كانت جميلة ومرحها محبباً إلى النفس، وكان فعلاً بحاجة إلى بعض الترويح عن نفسه قليلاً، كما أقنع نفسه بحاجته الماسة إلى معرفة مبادئ الإصلاحيين من فم أحدهم، وأن مثل هذه الفرصة بالتأكيد لن تتكرر ثانية.

- اسمي "هافا"<sup>(١)</sup> تايلر". وأنا مهاجرة من الولايات المتحدة.

(١) هافا هو اسم عبري مؤنث يعني السعادة، وترجمته الحرفية "هوى".



قالت هافا بتودد بادئة التعارف، فرد أبراهام بدوره:

- أبراهام دوخافيتسكي، من روسيا.

- من روسيا!!!

- نعم، هل هناك عيب ما في ذلك؟

- مطلقاً. ولكنك قلت إنك رأيت هنا هيكلًا إصلاحياً للمرة الأولى في حياتك، مع

أن روسيا قد اعترفت بنا كمذهب يهودي رسمي. ومثّلنا بحاخامين اثنين من الحاخامات

السته على هرم السلطة في "المؤتمر اليهودي الروسي"<sup>(١)</sup>، فاليهودية الإصلاحية نشطة

في بلادك، ويزداد عدد معتقّيها بسرعة صاروخية. إن المستقبل لنا<sup>(٢)</sup>.

- إذن هو مستقبل قائم بعد الذي رأيته أمس.

- وما الذي رأيته؟

- رأيت تجاوزات خطيرة في التهاون بالشرعية.

- مثل ماذا؟

(١) تأسس المؤتمر اليهودي الروسي في عام ١٩٩٦، وضمّ قسماً كبيراً من الجماعات والروابط اليهودية في روسيا. ويجلس في منصة الرئاسة في المؤتمر إلى جانب رجال الأعمال ومثلي المنظمات العلمانية، ستة حاخامات؛ اثنان من الأرثوذكس الحريديم، واثنان من الصوفيين الحسيديم، (بشكل عام، يعد الحسيديم جزءاً من الحريديم)، واثنان من الإصلاحيين. وللمزيد من المعلومات حول الفرقين الأوليين ودرجة التداخل بينهما.

(٢) من أسباب سعة انتشار اليهودية الإصلاحية بين يهود "دول الاتحاد السوفيتي السابق" هو أنها صيغة مخففة وسهلة من العقيدة اليهودية، تناسب الشيوعيين السابقين، ممن يودون التمتع بمميزات يهوديتهم، دون أن يضطروا إلى إقامة الطقوس اليهودية الأرثوذكسية المشددة، ودون أن يتخلوا عن اندماجهم في مجتمعاتهم. واليهودية الإصلاحية تحقق لهم كل هذا، بالإضافة إلى كونها أحد تجسيدات "الطريقة الأمريكية" American way في الحياة وتمثل "النموذج الغربي" بشكل عام، والذي كان السعي المحموم لتقليده من سمات مرحلة ما بعد الشيوعية في تلك الدول. كما أن تعريفها لليهودي متساهل جداً مقارنة بالفرق اليهودية الأخرى، مما شكّل عنصر جذب قوياً لأصحاب الأصول اليهودية المبهمة والمدعين، ممن سعوا إلى الهجرة إلى الكيان الصهيوني بحثاً عن فرص أفضل في الحياة.

- مثل مشاركة نساء سافرات في طقوس الصلاة، وارتدائهن اليرمولكا واتشاحك بالطاليت وتعصبك بالتفلين، بينما تخلي الرجال عن التفلين أثناء تأديتهم للصلاة الصباحية. كما رأيت أن الصلاة نفسها قد حذفت منها بعض المقاطع المهمة<sup>(١)</sup>، وبالذات ما يتعلق بالعودة إلى أرض الميعاد.

قال أبراهام بضيق شديد، فتتهدت هافا بحسرة، ثم علقت موضحة:

- كيف تكون إسرائيل هي أرض الميعاد وبوعود مكررة بإلحاح من الرب نفسه ولم نحكمها إلا أقل من خمس مئة سنة من أصل ستة آلاف سنة من تاريخ البشرية المزعوم. بل إن كل حكم غير حكم شاول<sup>(٢)</sup>، وداوود، وسليمان، وبقية ملوك يهوذا التسعة عشر، لا يدخلون في ذلك الوعد! بما فيه دولتا "الحشمونيين"<sup>(٣)</sup> و"الهروديين"<sup>(٤)</sup>، وهذا ينطبق على الدولة الحالية أيضاً، مما يقلص المدة الفعلية نفسها!!!  
فرد أبراهام مستكراً:

- كيف تتظرون إلى الأمر بهذه الطريقة؟! أولستم يهوداً؟!!!

- بلى، ولكننا ننتمي إلى "الحركة التنويرية"<sup>(٥)</sup>. وسمينا بذلك لسعيها إلى إنقاذ اليهود من القيود التي كانوا يعانون من وطأتها طوال قرون عديدة من الظلام على يد

(١) منذ بداياتها حذفت اليهودية الإصلاحية من الصلوات اليهودية أية إشارة إلى إعادة بناء الهيكل أو العودة إلى أرض الميعاد. كما حذفت منها بعض العناصر التراثية التي لا يقبلها العقل.

(٢) طالوت في القرآن الكريم.

(٣) تمكن اليهود بقيادة يهودا الحشموني (الذي لقب بالمكابي أي المطرقة) من إلحاق هزيمة بالسلفيين، وأعادوا تكريس البيت المقدس سنة ١٦٤ ق.م، كما حصلوا من جديد على الاستقلال في عهد خلفائه (السلالة الحشمونية أو المكابيون ١٦٤ - ١٠٣ ق.م) خلال أكثر من مئة عام حتى الاحتلال الروماني للقدس.

(٤) سلالة ملكية يهودية قصيرة أسسها الملك هيردوس الذي عينه الرومان حاكماً على يهوذا سنة ٣٧-٤ ق.م. وهو أدومي الأصل (أدخل الكاهن "هيركانوس الحشموني" الأدميين عنوة في اليهودية).

(٥) التنوير (بالعبرية "هاسكالاه") هي حركة دينية عصرانية. بدأت في أوائل القرن الثامن عشر بين يهود غرب أوروبا في مواجهة الاتجاه المتصوف (الحسيدي) السائد لليهود شرق أوروبا.

المؤسسة الحاخامية، وتحديداً على يد الصوفيين "الحسيديم"<sup>(١)</sup> الذين أوصلوا اليهودية إلى أقصى درجات الدروشة، والتعلق بالخرافات، وادعاء المعجزات، وعلم الغيب، ونحو ذلك من مظاهر الدجل التي تلازم انحطاط الفكر الديني في عصوره المظلمة وجموده. لقد كانت حركتنا رد فعل طبيعياً على ذلك التخلف وفي الوقت المناسب، بعد أن كاد الحسيديم يسيطرون على أرواح يهود غرب أوروبا وأجسادهم وأموالهم، كما فعلوا مع يهود شرق أوروبا.

- لكن موافقكم وطقوسكم والمقاطع التي حذفتموها ليس لها أي علاقة بالرد على "التصوف".

- اسمح لي أن أختلف معك، فقد نزعنا من بين أيدي الصوفيين أهم سلاحين فتكا بواسطتهما طويلاً بالشعب اليهودي: أولهما الانعزالية وطقوسها المبالغ في تعقيداتها، وثانيهما مركزية الحاخامات الذين جعلوا العلاقة مع الله تمر عبرهم فقط.

- كيف ذلك؟

- عن طريق اندماجنا مع الشعوب المحيطة بنا كطائفة دينية، حاذفين كل مظاهر القومية الانعزالية، ثم عن طريق تهميش دور الحاخامات بإزالة بقايا التفرقة بين الكهنة واللاويين وبين اليهود العاديين، وبجعل علاقة اليهودي مباشرة مع الله، دون أن تمر عبر تفسيراتهم الجامدة. فكفى رجعيةً وظلاماً.

قالت هافا ذلك دون أن يدور بخلدنا ولو للحظة أنها تتكلم مع حاخام حسيدي، وفوق ذلك لاوي. فأجاب أبراهام محاولاً كتم غيظه:

(١) الحسيدية هي حركة يهودية باطنية متصوفة. وكلمة الحسيديم أصلها عبرية على صيغة الجمع من كلمة "حسيد" (חסיד) بمعنى "الطقي". وهي حركة نشأت في القرن الثامن عشر في بولوديا (Polodia) بلدة تقع في جنوب شرق أوكرانيا تابعة لتركيا) على يد الحاخام إسرائيل بن إليعازر Israel ben Eliezer أو "بعل شم طوب" Ba' al Shem Tov (١٧٠٠-١٧٦٠ م).

- إن ما تسميه رجعية وظلاماً هو لب الإيمان اليهودي.  
 - حقاً!!! ومن أين لك أن تعرف هذا؟!، من "اليهودية الحاخامية"<sup>(١)</sup>، وماذا عن "اليهودية التناخية"<sup>(٢)</sup>، فهل كانت بها تلك الطقوس نفسها!!! لا أظن.  
 قالت هافا باستخفاف، ثم أردفت مسترسلة:  
 - ولا أظن أيضاً أن هناك عاقلاً واحداً، يفرض أنه غير مبرمج مسبقاً من قبل اليهودية الحاخامية، يشك في أن القوانين الشفوية هي من صنع الإنسان نفسه، وليست مما أنزله الله على موسى أو غيره من الأنبياء. إن لب الإيمان اليهودي الذي تتحدث عنه يا عزيزي هو في التناخ نفسه، الذي وحده يمكن أن يكون مقدساً بنصوصه، وليس في التلمود البشري، الذي أقل ما يحكم عليه هو الضعف والحاجة إلى التطوير والانتقاد.

- على رسلك، فهل تحاولين الادعاء بأنكم ورثة اليهودية التناخية!!!  
 رد أبراهام باستخفاف مماثل، فأجابت هافا برصانة:  
 - كلا بالتأكيد، فتلك كانت في عصر معين، وقد مضى بخيره وشره، وكذلك عصر الربانيين. كلنا نعرف أن الديانة اليهودية لم تكن قط جامدة، بل هي تقليد متطور باستمرار. واليهودية الآن هي غير التي كانت عليه أيام الآباء الأوائل؛ فقد تطورت عبر آلاف السنين، والطبيعي هو أن تستمر بالتطور حسب مقتضيات العصر، فأراء الربيين عبرت عن عصرهم، وكانت هي الحق في ذلك الزمان، ونحن نتحدث منطلقين من فكر تويري متقدم في عصرنا هذا، وبالنسبة إلى هذا العصر فنحن المحقون.

(١) هي اليهودية الربانية (الرابية) المؤمنة بمحورية تفسيرات الربيين (التلمود). وكان مركزها في بابل ثم في بغداد، قبل أن تنتقل إلى أوروبا.  
 (٢) اصطلاح على استخدام هذه التسمية في وصف اليهودية قبل خراب الهيكل وقبل أن يدون التلمود رسمياً، ويحتل تلك المركزية بين اليهود.

- وهل الحق هو التكرار للمبادئ الأساسية التي سار عليها اليهود كل هذه الآلاف من السنين؟

- على العكس تماماً؛ فشعار "موسى مندلسون" مؤسس اليهودية الإصلاحية<sup>(١)</sup> الرئيسي هو: "الاستجابة للعادات وأعراف المجتمع العصرية، مع المحافظة والإخلاص لدين الآباء". فنحن لم نتكرر للمبادئ الأساسية للدين، بل تكبرنا للطقوس المضافة على أصوله في عصور معينة، ولم يعد لها مكان في المجتمع العصري؛ كذلك التي أدت إلى عزلنا عن المجتمعات الوثنية المحيطة بنا مثلاً، والتي ربما كانت منطقية وقتها بسبب تميزنا عنها بعبادة الله الواحد آنذاك. أما الآن ومع اندثار الوثنية، ووجودنا بين المسيحيين والمسلمين الذين يعبدون إلهنا نفسه، فلم تعد هناك أي حاجة إلى تلك الطقوس الدخيلة.

- أليس مندلسون هذا هو الملقب "بسينوزا الثاني"؟  
- وما العيب بسينوزا؟ هل صار شيطاناً لأنه حاول نقد التناخ نقداً علمياً.  
- بل صار شيطاناً لأنه انطلق في محاولته تلك من داخل اليهودية لإصلاحها، وانتهى بالخروج عنها تماماً.

- ولكن محاولة مندلسون بقيت في نطاق الإصلاح لليهودية.  
- كيف تفسرين إذن ترجمته لـ "البناتوخ"<sup>(٢)</sup> إلى اللغة الألمانية، ودعوته اليهود الألمان إلى استبدال لغة الألمان القومية بلغة التناخ المقدسة.  
فهزت هافا رأسها باستخفاف مجدداً، وردت قائلة:

- أرجوك أبراهام. تبدو أذكى من ذلك! عن أي لغة مقدسة تتكلم؟ ألا نتحدث بها الآن أنا وأنت؟ ألم يتحدث بها كل اليهود في العصور التناخية في مختلف أمور

(١) ولد موسى مندلسون في ألمانيا سنة ١٧٢٩. وقد أعاد صياغة العقيدة اليهودية رافضاً الاعتراف بأي ركن من أركانها التلمودية المتوارثة، مما لا يمكن للعقل البشري بنوره الفطري أن يهتدي إليه أو يتثبت من صحته.  
(٢) البناتوخ هي الأسفار الخمسة الأولى من التناخ، أي تورا موسى عليه السلام كما يدعون.

حياتهم؟ ألم يدع الحاخامات اليهود سابقاً أنها لغة الفطرة لكل مولود، وأنه سينطق بها تلقائياً إن لم يتجسس بسماع اللغات الأخرى. حتى أجرى أحد الأمراء تجربة على عدد من الأطفال الذين حجب عنهم أي اتصال بأي لغة، فكانت النتيجة أنهم وصلوا إلى سن النطق دون أن ينطقوا بكلمة واحدة من العبرية أو غيرها؟... لماذا إذن يجب اعتبار اللغة العبرية مقدسة وتقتصر فقط على الشؤون الدينية؟ ولماذا نتنظر شخصاً أسطورياً ليسمح لنا بالتحدث بها؟

- المشيخ أصبح شخصاً أسطورياً!!!

قالها بعصبية لم يستطع إخفاءها أو التقليل من حدتها، مما أفزع هافا، التي حاولت التخفيف من حدة عبارتها، فأردفت موضحة:

- عندما أستعمل لفظة "أسطوري"، فإنني لا أشير إلى معناها الشائع أي "الوهم" أو "غير الحقيقة": على العكس، فإنني أشير إلى معناها الأساسي في "قاموس ويبستر العالمي" حيث تُعرّف الأسطورة بأنها: "قصة، عادة غير معروفة الأصل لكنها على الأقل تقليد جزئي، تتحدث ظاهرياً عن أحداث تاريخية. وهي من النوع الذي يستخدم في تفسير ممارسة، أو عقيدة أو مؤسسة، أو ظاهرة طبيعية".

- ولكن مع هذا فيجب أن تتحلي بإيمان أكبر وأنت تتحدثين عن "المخلص".

- المخلص؟!!! هه، وهل جاءت كل مصائب الشعب اليهودي إلا من الإيمان بهذه العقيدة المضللة؟ ألا تعرف كم من الجرائم ارتكبت باسم ذلك المخلص المزعوم؟ وكم من الحروب خاضها أجدادنا وراء من ادعوا أنهم المشيخ... المخلص؟ ألم تنته إحدى تلك الحروب بهدم أورشليم وتحريمها على اليهود لمئات السنين<sup>(١)</sup>، أليست المسيحية نفسها

(١) ادعى "باركوخبا" أنه المسيح، وتبعه اليهود فأعلن تمرداً على الإمبراطورية الرومانية، واحتل القدس فعلاً سنة ١٣٢ م وحاول إعادة بناء الهيكل، إلا أن "الإمبراطور هدریان" قمع تمرده ومحا مدينة القدس من الوجود سنة ١٣٥ م، وبنى على أنقاضها مدينة "إليا كابيتولينا" (بالعربية: "إلياء") بمظاهرة الوثنية، وحرّمها على اليهود.

نتاجاً لتلك العقيدة ذاتها<sup>(١)</sup>؟ ألم نعانٍ طويلاً بسبب ظنهم أن يسوعهم هو المسيح، وأنا رفضنا الخلاص الذي قبلوا به هم؟ ألم يؤلّوها ذلك المخلص المزعوم، وسامونا أشد العذاب لأننا قتلنا إلههم؟! كفى أوهاماً، وافتراءات ومؤامرات وحروباً. إن فكرة مجيء المسيح هي مجيء عصرنا الحديث هذا، عصر حضارة العقل والقلب الجامعة، اقتراباً لتحقيق أمل إسرائيل المشيخاني العظيم من أجل إقامة مملكة الحقيقة والعدالة والسلام بين جميع البشر، وليس شخصاً معيناً بذاته.

-- ألهذا صرفتم النظر عن انتظار إنزال الهيكل الحقيقي من السماء على أورشليم، وأسميتم كل سيناغوغ لكم بالهيكل؟

قال أبراهام مُديراً دفة الحوار نحو موضوع آخر، فقد شعر بأنه لا ريب سيفقد السيطرة على ردة فعله إن سمع المزيد عن وجهة نظرها عن المسيح.

- هل تظن فعلاً أن الله سينزل مبنياً من السماء، بل هل تؤمن أصلاً أنه كان قبل ذلك يسكن خيمة وينتقل مع شعب إسرائيل حتى أشفق عليه داوود وبنى له بيتاً؟! (صموئيل الثاني ١: ٧-١٣) إن الرب لم يسكن ذلك الهيكل قط، وكل كنيس تقام به الصلاة يوجد فيه الرب، ومن ثم فأَيُّ منهم يعتبر هيكلاً في حقيقة الأمر.

- ألهذا تتكرون أهمية إسرائيل أيضاً؟!

- بل نحن نعترف بأهمية إسرائيل بالنسبة إلى يهود العالم، إلا أننا نؤمن أيضاً بمركزية الدياسبورا. ونحاول تصادي أخطاء اليهودية الحاخامية التي عزلتنا عن الآخرين؛ وذلك عن طريق تعميق ولاء اليهودي للوطن الذي يعيش فيه، ونقل "الحلول الإلهي" من مكان يظنون أنهم سيعيدون بناء الهيكل فيه<sup>(٢)</sup> - وهو ما لن يحصل أبداً

(١) يعتبر اليهود أن المسيحية هي انشقاق عن اليهودية، قادهها شاب يهودي مغمور (يعنون عيسى عليه السلام) مدعياً أنه مسيح اليهود المخلص، ثم ما لبث أتباعه بعده أن نشروا دعوته بين الأمم، بعد يأسهم من إيمان بقية اليهود بمشيخانيته!

(٢) تصد جبل صهيون أو القدس بشكل عام، أو "أرض إسرائيل" بشكل مطلق.

بالمناسبة- إلى أمكنة في أوطانهم يرتادونها كما يريدون ويصلون فيها بلغة أوطانهم. لا بلغة يجهلها معظمهم في الواقع. فاليهودية هي في الأساس ديانة، وقد جعلوها قومية، واليهودي الألماني مثلاً هو مواطن ألماني، ويجب أن يكون ولاؤه لألمانيا فقط؛ فهو لا يختلف عن المسيحي الألماني إلا بالمعتقد الديني فحسب.

- وحتى يرضى عنكم المسيحيون البروتستانت الذين تعيشون بين ظهرانيتهم، قمتم بترسيم بعض النساء كحاجامات؟

- يا عزيزي نحن لم نفعل ذلك لكسب رضى البروتستانت أو غيرهم: بل لمنح المرأة حقاً من حقوقها التي طالما حرمت منها في تقاليدنا الذكورية المجحفة، والتي جعلت المرأة مجرد خادم للرجل.

كز أبراهام على أسنانه بقوة، كاتماً غيظه، ثم قال متأففاً:

- لن أدخل معك في جدل عقيم حول حقوق المرأة، ولنكتف بتأثير المسيحيين فيكم وسعيكم الدائم إلى التقرب منهم على حساب دينكم. ألم يصل بكم الأمر في إحدى الفترات إلى أن تطالبوا بالانضمام إلى الكنيسة المسيحية؟! والأدهى أنه قد رفض طلبكم!!!

- ليس الأمر كما تقول أبداً؛ فقد قدم "ديفيد فرايد لندر"<sup>(١)</sup> سنة ١٧٩٩ التماساً للسلطات البروتستانتية ببرلين يطلب فيه، وقبل أن يكون لنا بيوت للعبادة، السماح له ولأنصاره بالاشتراك في مراسيم الكنيسة، ولكنه اشترط أن يعفى وأنصاره من الإيمان بألوهية المسيح، أو أي عقيدة تنافي العقل، وكان طبعياً أن ترد الكنيسة طلبه الذي يهدد جوهر عقيدتها الفاسدة. ولو قبلت لكان خيراً لها، ولكننا نحن من أثرنا فيهم تجاه الحق، ولم يؤثرنا فينا تجاه الباطل كما تعتقد.

(١) زعيم "الجناح الثوري" في اليهودية الإصلاحية، والذي يشار إليه غالباً بصفة الليبرالي (التحرري)، وهو أحد أكثر تلامذة مندلسون إخلاصاً لدعوته والمؤسس الحقيقي لحركة الإصلاح.



## حائط البراق

انتبهت هافا إلى أنهما قد اقتربا من "الجدار الغربي للهيكل"<sup>(١)</sup>، مما يعني أنهما يتحدثان منذ أكثر من ساعة، مرت عليها كلمح البصر؛ فأبراهام مستمع جيد، ولم يبد منه أي تعليق مُستقِرّ ضد مذهبها سوى ما يتعلق بوضع المرأة، والمسيح. وقد اعتذر عن الأمر الأول فوراً، ولم يُطل الجدل في الثاني، مما يعني أنه غير متعصب، رغم أصوله الحريدية<sup>(٢)</sup> الواضحة في كلامه. لاحظت كذلك من تساؤلاته أنه ليس مقتنعاً

(١) يتجنب اليهود حالياً تسمية "حائط المبكى" التي كان العرب المقدسيون هم أول من أطلقها على "حائط البراق" نسبة إلى الطقوس المستهجنة التي يرونها من بعض اليهود هناك. وقد بدأ الأمر بجلب الكراسي والمصابيح والستائر وتركها أمام حائط البراق لتكون سابقة تمكنهم من ادعاء ملكيتهم للحائط. وتنبه المسلمون آنذاك وابتدأ النزاع المسلح بين الطرفين في ١٩/٢/١٩٢٢. وكان رجال الانتداب البريطاني يأمرن اليهود كل مرة برفع تلك المعدات، فيعاودن الكرة بعد مدة قصيرة، حتى الانفجار المعروف باسم "ثورة البراق". بعد ذلك أرسلت الحكومة البريطانية لجنة للتحقيق عرفت باسم "لجنة شو" نسبة إلى رئيسها. وربما كان السبب الحقيقي وراء تمسك اليهود السابق بتسمية حائط المبكى، وبالذات أيام تلك اللجنة، هو من باب استغلال أي أمر يدعم ادعاءهم المزعوم بملكية الحائط، وإن كان بشكل يسبب لهم بعض الحرج. يذكر أن بن غوريون (العلماني الصهيوني) تعهد آنذاك بكثير من الامتيازات لليهود الحريديم (المتدينين الذين كان أغلبهم من المعادين للصهيونية)، مقابل اعترافهم بيهودية الكيان أمام اللجنة، وتبني لمزاعم الدينية للحركة الصهيونية، وتمثيلها لليهود العالم. ولا يزال الحريديم حتى الآن يتمتعون بتلك الامتيازات، مثل الإعفاء من الخدمة الإلزامية وغيرها.

(٢) حريدي هي صفة مأخوذة من الجذر "حرد" الذي يعني "أشد خوفه، وارتعب من الله"، وجمعها حريديم، أي المتدينين المتشددين في الالتزام بالمسائل الدينية بتفاصيلها الدقيقة، وكذلك بالعادات والتقاليد، والحريديم يرون أن أغلب ما يمت إلى الحدائث بدعة ومروق عن الدين، لذا فهم يسكنون في أماكن خاصة بهم ومنعزلة عن الآخرين، وحاخاموهم يحذروهم دائماً من الاختلاط بغيرهم أو التعامل معهم والاجتماع بهم. والحريديم قسم من اليهود الأرثوذكس المتشددين، ولكنهم لا يعترفون بالكيان الصهيوني كتحقق لوعد الرب، على عكس بقية الأرثوذكس المتشددين المناصرين للصهيونية وللكيان من يُعرفون هناك بالتيار الديني القومي.

تماماً بالمذهب الذي ولد عليه، ورأت في صمته عند إجاباتها عن تساؤلاته دليلاً على عدم المعارضة، بل التفكير الجدي بها، وربما الاقتناع لاحقاً، وهو ما أسعدها كثيراً، فإذا استمرت الأمور على هذا المنوال، فلا ريب أنها ستتمكن في النهاية من إقناعه بمذهبها.

توقفت هافا مشيرة بيدها نحو الجدار وقالت:

- هو ذا هاكوتيل همعرافى<sup>(١)</sup> أهم معالم أورشليم وقد أصبح مصلى يهودياً في بداية القرن السادس عشر، وازدادت شهرته ومن ثم أهميته في نظر الأرثوذكس في القرن التاسع عشر حتى أصبح مؤخراً أقدس المعالم اليهودية الدينية في رأيهم. وماذا تعتبرونه أنتم؟

قال أبراهام شاخصاً نحو الجدار البعيد الذي طالما حلم برؤيته عن قرب.

- أحد الرموز الوطنية ذات الصبغة الدينية ليهود إسرائيل.

قالت هافا باستخفاف. فنظر أبراهام إليها برهة، ثم فتح فمه كأنه يهم بالرد على ذلك، إلا أنه أشاح بنظره نحو الجدار ثانية مؤثراً الصمت؛ فقد حسم أمره مسبقاً بأنه لن يضيع الوقت في مناقشات بيزنطية معها أو مع أي من أهل المذاهب والأديان الأخرى، وأنه لن يدافع عن رأيه كما كان يفعل في السابق على الإنترنت، خصوصاً أنه لم يعد متأكداً من شيء. إنه يسعى حالياً إلى أن يسمع منهم قدر الإمكان، عله يقتنع بآراء أحدهم، ويجد فيها ما لا يتعارض مع العقل أو المنطق. ولكنه، ولنحو ساعتين طويلتين مملتين، أنصت لواحدة من أتباع المذهب الأول بلا منازع بين كل الفرق اليهودية في تغليب العقل والمنطق، دون أن يرى في عقلها ولا منطقتها حتى الآن سوى استبدال لصنم الموروث المتخلف عن مواكبة العصر، بصنم العصرية المتجاوز لكل حدوده؛ أي استبدال بأوهام قديمة أوهاماً أخرى جديدة، فقد تمادت في رفضها

(١) هاكوتيل همعرافى، بالعربية الجدار الغربي.

للأعراف دون تمييز الغث من السمين، حتى أصبح المشيخ الذي اتفق جميع أنبياء إسرائيل وكهنتهم، بل وأغلبية رموز الطوائف الدينية الأخرى، على التبشير بظهوره، مجرد شخصية أسطورية، وأن عصره المنتظر هو هذا العصر "عصر العلم"!!! كما أن الجدار الوحيد الباقي من الهيكل المقدس بكل معانيه الروحية، وبذكريات أجدادنا على كل حجر من أحجاره التي أقاموها بالدم والعرق، صار مجرد رمز وطني، لكنها على الأقل رأيت فيه صبغة دينية، فيالكرمها.

- هيه، ألا تزال معي؟

قالت هافا كأنها توقظه من سبات عميق.

- معك، معك. ولكنني كنت أتأمل الجدار فحسب.

فشبكت ذراعها بذراعه مجدداً قائلة:

- يكفيك تأملاً، وهلم بنا نتابع جولتنا في المدينة.

سار أبراهام معها مطأطئ الرأس: فهو لن يستطيع الصلاة هناك ما دامت هذه السافرة معه، كما أنه لم يستطع تحمل فكرة عدم رده على كل ذلك الهراء، فقط لمجرد تعارض ذلك مع مخططه الذي رسمه لهذه المرحلة. وفي النهاية قرر تنبيهها إلى الخطأ الجسيم الذي ارتكبه بشأن استخفافها بالجدار، لتجمل من نفسها قليلاً، ولكن بطريقة تجنبه قدر الإمكان الانجرار إلى جدال عقيم، فقال كمن يلقي بملاحظة عابرة:

- من المؤسف أنه محرم علينا حسب الهالاخاة أن تطأ أقدامنا أرض الهيكل قبل إعادة بنائه، لكن رحمة الرب قد تركت لنا أحد جدرانها الذي يعتبر أقرب مكان من أقدس بقعة على وجه الأرض يسمح لنا بالاقتراب منه.

فإذا بهافا تقهقه بصوت تعمدت أن يبدو مكتوماً، كأنها تجاهد لإخفائه، مما أثار حفيظته أكثر، فقرر توبيخها بقوة هذه المرة، ضارباً عرض الحائط كل ما كان قد خطط له، إلا أنها تداركت معذرة:

- أوه، آسفة، لم أكن أقصد.

- لم أتوقع منك كل هذا الاستخفاف بالهيكل وجداره!

قال أبراهام بعتاب، وهو يهز رأسه أسفاً، فردت هافا بانفعال قائلة:

- وأنا أيضاً لم أتوقع منك أن تصدق هلوستهم! هل تعلم أنه وبناء على كل المعطيات التاريخية، فلم يُظهر لا الأرثوذكس، ولا غيرهم من اليهود في الماضي أي اهتمام بذلك الجزء من الحائط؟ وهل تعلم أن الجدار في عهد "هيرودوس" بعد أن أعيد بناء الهيكل للمرة الثانية سنة ٤٠ ق.م كان جزءاً من مركز تجاري ولم تكن له أي أهمية دينية؟ وهل تعلم أن اليهود كانوا يتجمعون للصلاة على جبل الطور<sup>(١)</sup> وعند بوابات مسجد المسلمين<sup>(٢)</sup> بعد فتحهم لأورشليم، وليس عند الحائط الغربي؟ وهل تعلم أنهم عندما مُنعوا من دخول المدينة في أثناء الفترة الصليبية، اختاروا أن يُصلوا عند الجدار الشرقي للمدينة، وليس عند الجدار الغربي؟

كانا قد وصلا حينها إلى سور المدينة، فأمسكت بيده لتصعد معه على الدرج المؤدي إلى ممشى مع سور واق أقيم على أسوار البلدة القديمة: حتى تتيح له إطلالة على المنظر الفريد من نوعه لمدينة القدس ومحيطها، ثم قالت بأسلوب تعمدت أن يشابه أسلوب المرشدين السياحيين:

- والآن سأخذك بجولة بانورامية سريعة على محيط أورشليم: من هنا ترى اتجاهات الأحياء الأربعة للبلدة القديمة<sup>(٣)</sup>، أما من الجهة الأخرى فنرى "الحزام الأخضر" يحيط بأسوارها، وكما ترى فإن هذه الحدائق والمنتزهات هي سبب التسمية. ولهذه الأسوار

(١) جبل الزيتون.

(٢) تقصد الحرم القدسي الشريف.

(٣) قام الإمبراطور هادريان الذي بنى إيلياء على أنقاض القدس بشق طريقين رئيسيين؛ الأول من الشمال إلى الجنوب، والثاني من الشرق إلى الغرب مقسماً المدينة إلى أربعة أقسام، شكلت فيما بعد الأحياء الأربعة القائمة اليوم في البلدة القديمة، وهي: الحي الإسلامي والحي اليهودي والحي المسيحي وحي الأرمن.

التي نقف على ظهرها ثمانية أبواب، من ضمنها سبعة مفتوحة، أما الباب الثامن فيقال إن العرب قد أغلقوه قبل عدة قرون لمنع دخول المشيخ إلى المدينة<sup>(١)</sup>.

- هل أنت متأكدة من تلك المعلومات؟

قال أبراهام مقاطعاً، فردت مستفسرة:

- هل تعني قصة الباب الذي اتُّهم المسلمون بإغلاقه؟!

- بل أعني ما قلته قبل ذلك عن الجدار الغربي نفسه.

- بالطبع متأكدة. فحتى "الموسوعة اليهودية" الصادرة في أورشليم عام ١٩٧١

تعترف بأن: " الحائط الغربي أصبح جزءاً من التقاليد الدينية اليهودية حوالي سنة ١٥٢٠م نتيجة للهجرة اليهودية من إسبانيا وبعد الفتح العثماني سنة ١٥١٧م".

- وما علاقة العثمانيين بذلك؟

- لقد كان الخلفاء في عصور قوتهم الأولى أيام الخلافة المركزية<sup>(٢)</sup> يحرصون على

مبادئ العدل والمساواة بين المسلمين، وقد استفاد من ذلك الرعايا اليهود والمسيحيون

أيضاً باعتبارهم "أهل ذمة". أما في مراحل ضعفهم وتشتت ملكهم بين الأمراء

المستقلين عنهم تبعاً، فقد خسر أهل الذمة، كما خسر المسلمون أنفسهم، الكثير من

حقوقهم، بعد أن غلب أكثر الأمراء مصالحهم الخاصة على مصالح رعييتهم، مفريقيهم

(١) باب الرحمة، ويعرف بالباب الذهبي نظراً لجماله، وهو باب مزدوج يعلوه قوسان. بني في العهد الأموي

ويؤدى مباشرة إلى المسجد الأقصى. وحسب التقاليد اليهودية، سيدخل مسيحيهم عبر هذا الباب تحديداً.

ولم أجد ما يؤيد تلك الإشاعة التي يطلقها اليهود عن أن العرب أغلقوه لهذا السبب، إلا أن المدرسة الناصرية

(أقيمت في العصر الأيوبي) كانت على برج من باب الرحمة الملاصق لباب التوبة، وكلاهما واقعان في

منتصف سور الحرم الشريف، لذا فمن الممكن أن يكون المسلمون قد أغلقوا البابين المتلاصقين بسبب بناء

المدرسة. ( رغم عدم عثوري على شيء يؤيد ذلك). كما أنه يوجد ثلاثة أبواب أخرى مغلقة غير البابين

المذكورين ولا علاقة لدخول مسيحي اليهود بإغلاق أي منهم. ولا يزال ذلك الباب مغلقاً حتى اليوم وتحرص

الأوقاف الإسلامية حالياً على إبقاء الأمر كذلك، خشية تسلل المخربين الصهاينة إلى المسجد الأقصى منه.

(٢) تقصد بالخلافة المركزية الأولى: دولة الخلافة أيام الخلفاء الراشدين، ثم الأمويين، ثم العصر الأول من

خلافة العباسيين.

شيعاً، يستضعفون بعضهم ويستقوون ببعض، في سبيل الحفاظ على عروشهم وتوسيع ملكهم. فقامت الحروب فيما بينهم، وعمت الفوضى، وشاع الظلم، وانتشر التعصب الديني والمذهبي بينهم، كحالهم الآن. ثم ما لبثت الخلافة المركزية أن عادت مجدداً على يد العثمانيين، وعاد معها الكثير من الحقوق لمواطنيها على مختلف أديانهم، بعد أن قضوا على أغلب الأمراء المنفصلين عن الخلافة السابقة التي أصبحت شكلية دون أي سلطة فعلية<sup>(١)</sup>، وأعادوا وحدة البلاد على أساس المبادئ الإسلامية وتسامحها تجاه أهل الذمة. وقد استفاد اليهود من ذلك، كما استفاد الباقون، فغدت أرض الخلافة ملجأً للهاربين من اضطهاد البلاد الأوروبية، وبالذات أولئك اليهود الذين طردوا من إسبانيا والبرتغال بعد محاكم التفتيش سيئة الصيت، والذين يعرفون اليوم باسم "السفارديم"<sup>(٢)</sup>، خصوصاً بعد بادرة العطف الشهيرة من أحد سلاطين العثمانيين الذي أصدر فرماناً<sup>(٣)</sup> يقضي بحسن معاملتهم. وبعد استخلاص فلسطين من المماليك<sup>(٤)</sup> وضمها إلى الخلافة، قام سلطان آخر بإعادة بناء أسوار المدينة<sup>(٥)</sup>، ثم أصدر ببادرة عطف أخرى فرماناً يسمح فيه بتخصيص مكان للصلاة لليهود اللاجئين إلى فلسطين عند الحائط الغربي<sup>(٦)</sup> الذي يظن المسلمون أنه الحائط الذي كان به حلقة كان يربط

(١) تقصد دولة الخلافة العباسية في أواخر عصرها الثاني.

(٢) السفارديم كلمة عبرية تعني "الإسبان"، وهم يهود الأندلس الذين طردهم الكاثوليك بعد التغلب على المسلمين، فهاجروا إلى البلاد الإسلامية ودعوا "باليهود الشرقيين". أما "اليهود الغربيون" فيطلق عليهم لقب "أشكنازيم" وتعني بالعربية "الألمان" وهم يهود بقية الدول الأوروبية.

(٣) تقصد بايزيد الثاني. والفرمان المذكور صدر سنة ١٤٩٣ م.

(٤) سنة ١٥١٧ م.

(٥) تقصد سليمان القانوني. وكان ذلك سنة ١٥٣٧.

(٦) أصدر مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات في بيروت كتاباً جديداً بعنوان "القدس.. السكان والأرض" وهو دراسة علمية عن القدس بأرضها وسكانها العرب واليهود خلال الفترة ١٨٥٨-١٩٤٨ م ومن أهم نتائج الدراسة: إثبات أن اليهود الأجانب لم يملكو حتى بداية القرن الـ١٧ الميلادي أية أراض أو دور أو دكاكين في مدينة القدس ولا قراها، حتى مقابر اليهود كانت مؤجرة لهم من أملاك الأوقاف الإسلامية.

أنبياء إسرائيل دوابهم بها، وأن نبيهم ربط حصانه الأسطوري المجنح<sup>(١)</sup> الذي طار به من "صحراء فاران"<sup>(٢)</sup> بتلك الحلقة نفسها اقتداءً بهم. وقد مرت فترة طويلة منذ ذلك الزمن قبل أن تصبح تلك الصلاة طقساً شائعاً عند بقية اليهود. وعلى ذكر السلاطين وفرماناتهم، هل تعلم أن السلطان "عبد الحميد الثاني" الذي حاربه الصهاينة في العالم أجمع حتى أفقدوه عرشه، كان قد أصدر فرماناً سنة ١٨٨٩ يمنع فيه التعرض للأماكن التي يؤدي فيها اليهود طقوسهم في أثناء الزيارة!!!

- يا للغرابة، فمع سعة اطلاعي على تاريخ الأرض المقدسة إلا أنني أسمع بذلك كله للمرة الأولى فقط.

فكر أبراهام برهة، ثم أردف مستدركاً:

- لكن مهلاً، فالتلمود تحدث عن الحائط الغربي قبل السلاطين العثمانيين، وقبل الإسلام نفسه، فكيف تفسرين ذلك، إذا كان أمر الجدار مستحدثاً كما تزعمين؟! - وهل ترك التلمود حجراً في أورشليم لم يتحدث عنه وعن جماله؟! ثم قرأت له مقطعاً من التلمود: "مَنْ الله على العالم بعشر حفنات من الجمال، أهدى تسعاً منها إلى أورشليم والباقي إلى سائر العالم"<sup>(٣)</sup>.

هز أبراهام رأسه موافقاً، وقال متتهداً:

- هذا صحيح، لكنني مع ذلك أجد صعوبة في تصديق كل ذلك. فلو سلّمنا جدلاً بصحة تلك المعلومات التي كنت أجهلها فعلاً، والتي لن أذكر جهداً في سبيل التحقق منها: فهل يعقل أن يجهلها أيضاً كل أولئك اليهود هناك عند الجدار؟! بل هل يعقل أن تجهلها الحكومة بكل مؤسساتها التي بالغت في إنشائها لدراسة تاريخ المدينة.

(١) تنصد البراق.

(٢) راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

(٣) التلمود البابلي رسالة "قيدوشين" ٢: ٤٩.

والتنقيب عن آثارها<sup>(١)</sup>؟! فهي في حال صحتها تنسف قدسيته من أساسها!!!

- عن أي قدسية تتحدث؟ إنها السياسة يا صديقي.

قالت هافا بتهكم، ثم أردفت موضحة:

- بعد ضم أورشليم مباشرة، قامت الحكومة بهدم حي عربي كامل<sup>(٢)</sup> لتتيح الفرصة لاستقبال مئات الآلاف من اليهود في "عيد الأسابيع" (عيد نزول التوراة) الذي كان على الأبواب، فكان ذلك الميدان الواسع الذي مررنا به قبل قليل. لم يكن هدفهم القدسية الدينية للجدار بالتأكيد، وإنما الكسب السياسي في إظهار الاحتلال العسكري بمظهر "التحرير المقدس" الهادف إلى إتاحة الفرصة لممارسة الطقوس الدينية: وذلك لكسب المزيد من تقدير الدول البروتستانتية والجاليات اليهودية في العالم ومن ثم تمويلها.

- أجد صعوبة في تصديق ذلك!

قال أبراهام بشرود، فردت هافا مستنكرة:

- لماذا؟!، ألا تعلم أن الآباء المؤسسين كانوا إما ملاحدة أو لأدريين، بل كان بعضهم يشعر بالازدراء نحو اليهودية نفسها. ولإثبات ذلك يكفيك أن تعرف أن مُنظّر الصهيونية الأبرز "زئيف جابوتينسكي" قد طلب في وصيته بأن تحرق جثته، وهذا الأمر كما تعرف محرم بشكل قاطع في الدين اليهودي. أما "دافيد بن غوريون" أول رئيس للوزراء في الدولة الناشئة، فقد كان يرفض مجرد اعتمار اليارمولكا حتى في الجنازات، فضلاً عن الالتزام ببقية الطقوس، أو احترام بقية المقدسات اليهودية الأخرى. وكذلك كان

(١) لقد فشل الأركيولوجيون وعلماء الآثار الصهاينة والغربيون إلى الآن في إيجاد قطعة فخار واحدة تبرهن الادعاءات الصهيونية، رغم محاولاتهم المحمومة ورغم كل الأنفاق التي حفرها تحت المسجد الأقصى. ولم يجدوا هيكلهم المزعوم أبداً، فهكل سليمان كان مسجداً لا يشبه الأوصاف التي حشوها في التوراة فيما بعد.

(٢) وهو حارة المغاربة التي هي وقف إسلامي عتيق منذ سنة ١١٩٣ من قبل "الملك الأفضل" للمغاربة اعترافاً بدورهم الجهادي في الحروب مع الفرنجة (في جيوش "نور الدين زنكي"، ثم في جيوش أبيه "صلاح الدين الأيوبي") وبمساهمتهم الفعالة في فتح القدس. ولم يبق منها حالياً إلا الباب الذي لا يزال يحمل اسمها، بعد أن هدمها الكيان الصهيوني عقب احتلال القدس الشرقية من الجيش الأردني سنة ١٩٦٧ م.



"حاييم وايزمان" أول رئيس للدولة والذي كان قبل ذلك رئيس الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية: فقد كان يجاهر بأنه لأدري. حتى إن مؤسس الحركة الصهيونية اليهودية، وصاحب الدعوة إلى إنشاء الدولة اليهودية "تيدور هرتزل" نفسه، قد تعلم الكلمات العبرية الخاصة بالصلاة فقط لتأدية الصلاة في مدينة بازل السويسرية قبيل افتتاح "المؤتمر الصهيوني الأول". وقد كتب في مذكراته الشخصية: "إذا لم أستطع إلا أن ألقى القوي العليا (يقصد الله) فسوف أثير العالم السفلي (يقصد الشيطان)". فهل كان هؤلاء يهتمون لقدسية أو دين؟ وهل ستتغير مواقفهم لو أنهم عرفوا حقائق التاريخ حول جدارهم المزعوم؟ ثم هل تعرف ماذا حل بسكان ذلك الحي العربي؟ لقد أمهلوا يوماً واحداً فقط لإخلائه دون تهيئة منازل بديلة لهم، مع أنه قد استغرق هدمها ثلاثة أيام كاملة<sup>(١)</sup>. ولكي تتخيل معنى ذلك يجب أن تعرف أن الحي كان يتكون من أكثر من ١٣٨ منزلاً، غير عدد كبير من المرافق التراثية للمسلمين من مدارس ومساجد<sup>(٢)</sup>.

- وهل تهتمون في اليهودية الإصلاحية بحقوق العرب وتفصيل خسائرهم إلى

هذه الدرجة؟

قال أبراهام باستغراب شديد، فردت هافا بلامبالاة قائلة:

- ليس تماماً. وإن كنا ننادي دائماً بالابتعاد عن القمع الديني والعنف السياسي، والدفاع عن حقوق العرب، والدعوة إلى حل سلمي للصراع العربي الإسرائيلي، مبنياً على الضمانات، والتنازلات المتبادلة. ولكنني البارحة فقط كنت أقرأ في موقع إلكتروني عن التمييز في إسرائيل، وكان فيه مقال مُحزن عن ذلك الحي. قرأت فيه عن مدى الظلم الذي وقع على سكانه المسكين، بشكلٍ جعلني أخجل من كوني يهودية.

- هل تذكرين اسم كاتب المقال؟

- بالطبع، اسمه أحمد الكاشف.

(١) من ١١-١٣/٦/١٩٦٧ م.

(٢) أهمها المدرسة الأفضلية، وجامع البراق وجامع المغاربة والزاوية الفخرية.

## المشيخ

ران صمت قصير استعرض فيه أبراهام أحداث البارحة مفكراً بأحمد، الذي يبدو أن طيفه سيلاحقه بأكثر مما كان يظن، فسأل هافا بشرود:

- هل تعرفين أحمد الكاشف معرفة شخصية؟

- كلا للأسف. مع أنني أتمنى ذلك، فهو عبقرى مُلهم، ولكنني أتابع مقالاته بانتظام، مذ كان يكتب في صحيفة هاأرتس قبل بضع سنين، مروراً بمقالاته ومشاركاته في الفيس بوك وكثير من المنتديات الإلكترونية، حتى مقالاته الأخيرة في موقع مناهضة التمييز ذاك. ولكن لماذا تسأل؟!

- لا شيء. مجرد فضول.

أجاب أبراهام بارتباك محاولاً التهرب من الإجابة، فتهدت هافا قائلة:

- فهمت ما ترمي إليه. يجب أن تعرف أننا في اليهودية الإصلاحية نؤمن بأن حكمة الله من تشريدنا نحن اليهود بين الشعوب هي نشرنا للقيم الإنسانية ووصايا الله بينهم، ومن ثم تفاعلنا معهم وليس رفضهم والتفوق حول ذاتنا بينهم في "جيتويات"<sup>(١)</sup>، مادية كانت أم معنوية. ولذلك فليس غريباً أن أتأثر بفكر أحد الغويم، وخصوصاً إذا كان مثل أحمد الكاشف. إنه فعلاً نابغة وشعلة نشاط: فنادرًا ما أدخل منتدى عن الأديان ولا أرى مشاركة له فيه، وإن كانت مجرد تعليق. آه كم أتمنى مقابلته والحوار معه.

- يبدو لي أنك معجبة بشخصه أيضاً.

رمقته بنظرة شقية، ثم قالت:

(١) جمع جيتو وهو الحي الذي يعيش به اليهود فقط في الدياسبورا.

- أبراهام، لم يمض على تعارفنا أكثر من ساعتين، وها أنت قد بدأت تغار!!! يجب أن تقرأ له أولاً، وأنا متأكدة أنه سينال إعجابك أنت أيضاً، شرط أن تتزع عنك تحاملك المسبق على الغوييم. فعندما يكتب أحمد الكاشف عن الشيوعية تخال أنه شيوعي، وعندما يكتب عن اليهودية تكاد تجزم أنه يهودي، أما حين يكتب عن المسيحية فتجد صعوبة في التخيل بأنه قد عرف ديناً غيرهم، وتتجلى عبقريته حين يكتب عن الإسلام، فهو يصوره بطريقة تشعر معها بأنه يصف دينك نفسه، كما ينبغي أن يكون بأقصى درجات مثاليته، وتتمنى لو أن قلمه يدافع عن دينك بهذه الطريقة. أنت لن تدرك ما أعنيه حتى تقرأ له. على كل حال لا داعي للقلق فشخص بهذه الحكمة لا بد أن يكون في أواخر الخمسين على أقل تقدير.

ثم نظرت إليه بنظرة ذات معنى وأردفت قائلة:

- وأنا أميل عادة إلى من هم أصغر سناً من ذلك بكثير.

استغرب أبراهام معاودتها لتكرار تلميحاتها السافرة للمرة الثانية على التوالي منذ تعارفهما القريب، ولم يكن يعرف كيف يرد عليها، فالخوض في علاقة عاطفية هو آخر ما يبحث عنه، خاصة مع فتاة مشاكسة ولجوجة مثلها. كما استغرب عدم قدرتها على إخفاء إعجابها بفكر أحمد وبوصفه للإسلام في الوقت الذي تحاول فيه إقناعه بدينها، فسألها مستهجنًا:

- إن كان يعجبك دينه إلى هذه الدرجة! فلماذا لا تعتقينه؟

فردت هافا بعصية:

- يبدو أنك تغار فعلاً. أنا لا يعجبني دين أحمد ولا أكثرث له أصلاً. ولن أنسى أنه نفس دين الإرهابيين الذين فجروا "مركز التجارة العالمي" في نيويورك، وأنتي كان من الممكن أن أكون أنا نفسي من ضحايا ذلك التفجير: فيومها وكما كان مقرراً منذ

أشهر، كان من المفترض أن نقوم بتظاهرة تمر من أمام المركز، ولكن ومن حسن الحظ تم إلغاؤها في الساعات الأخيرة<sup>(١)</sup>، ولكن طريقة تفكيره، وأسلوبه في الدفاع عن دينه مع إنصافه للأديان الأخرى، دون تحامل حاقد أو محاباة متزلفة، والكيفية التي ينظر بها إلى الأديان بشكل عام، والتمييز بينها وبين الأوهام الملتصقة بها، هو ما يعجبني به، بل يجبرني على احترامه. ولو أنه كان يهودياً لكان حتماً إصلاحياً، ولكانت أفكاره وشهرته قد طبقت الآفاق، ولكن قد أثرى الحضارة الإنسانية فعلاً.

- بالمناسبة، كيف ينظر أحمد الكاشف إلى دينكم؟ هل يرجعه على باقي الأديان اليهودية الأخرى؟

- إن الكاشف ليس معنياً بترجيح دين على آخر. وحتى عندما يكتب عن الإسلام، الذي يؤمن به تمام الإيمان، فهو لا يسلك في ذلك مسلكاً تبشيراً (تقصد دعواً) مُلزماً؛ بل يكتفي بشرح مبادئه السامية، تاركاً حسم الأمور المختلف فيها بينه وبين بقية الأديان إلى الله نفسه يوم الدينونة. وهو يدعو إلى نبذ التعصب الديني، الذي يمتاز به - حسب رأيه - ضعاف النفوس والإيمان أكثر من غيرهم، أولئك الذين تعلقوا بأهداب الدين وأوهامه، دون تعمق بمعانيه السامية الأصيلة. وأنا متفقة معه في ذلك تمام الاتفاق، ولا أذكر أنني قرأت له مقالاً واحداً أرجع فيه تصرفات مُتطرفي دين من الأديان الإبراهيمية إلى مبادئ ذلك الدين الأصيلة نفسها، بل يرجعها دائماً إلى طريقتهم المغلوطة في فهمه، أو إلى الأوهام العديدة التي أحدثوها به عن طريق التأويل أو الحذف أو الإضافة.

(١) مع أنه لم يتسن لأحد التحقق من ذلك الأمر بشكل قاطع، نظراً لامتناع أصحاب القرار عن الخوض في تفاصيل هذا الموضوع، ونفيهم القاطع لصحته من الأساس، وتعتيمهم على كثير من جوانب التحقيقات التي قامت للكشف عن ملامسات أحداث الحادي عشر من سبتمبر. إلا أن بعض المحللين يجزمون بأن شيئاً أكبر من الحظ كان وراء إلغاء المسيرة اليهودية، فضلاً عن تغيب الكثير من الموظفين اليهود عن وظائفهم في مركز التجارة العالمي في ذلك اليوم.

بدا الإهتمام على وجه أبراهام، وعلّق مستفسراً:

- هل يعتبر التلمود ضمن تلك المحدثات؟

- ليس التلمود كتلمود، بل ينتقد المحدثات على الكتب اليهودية المقدسة بشكل عام. وهو حين يذكر التلمود الذي أسهب الكثير من اليهود قبل المسيحيين أو المسلمين في نقد هفواته وخرافات، يتحدث عنه باحترام، باعتباره يحوي العديد من أصول الدين التي حذفت من التوراة حسب اعتقاده حتى إنه يرجع مصيبة الصهيونية نفسها إلى تخلي اليهود عن بعض المبادئ الأساسية في التلمود، ويستشهد أحياناً ببعض مقاطعه الأخلاقية المنافية لتصرفات أغلب المؤمنين به.

فسأل أبراهام بدهشة:

- هل يؤمن المسلمون بكتبنا المقدسة؟

- حسب اعتقاد المسلمين، فإن الله الذي أنزل القرآن على نبيهم، هو نفسه الذي أنزل الإنجيل على يسوع، والتوراة على موسى. وإن محمداً أمرهم أن يوادوا "أهل الكتاب"، كما يسمينا نحن والمسيحيين، وألا يكذبونا في أمر قد يكون فعلاً منزلاً علينا من الله، وألا يوافقونا في الوقت نفسه في كل شيء<sup>(١)</sup>. وهم يجزمون بأن أحبارنا قد أضافوا من عندهم، وغيروا أو حتى حذفوا الكثير مما أنزله الله علينا، وهذا، بالمناسبة، ليس عارياً من الصحة تماماً كما تعلم، لذا فإن أحمد ينتقد من كتبنا ما يثبت له تحريفه بناء على العقل والمنطق، ويؤمن بما يثبت موافقته لهما، ويسكت تماماً عما يحتمل صحة نسبته إلى الله أو خطأه.

- لو كان ذلك صحيحاً لوجب عليه هو والمسلمين أن يؤمنوا بعقيدة الشيخ؟

- لماذا تظن ذلك؟! ثم من قال إنهم يكفرون بها أصلاً؟

(١) قال ﷺ: " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ". رواه الإمام البخاري، ح/ ٤٢١٥.

صمت أبراهام مسترجعاً الخلاصة التي قرأها في مذكرات أحمد، فيبدو أنه لم يعيها تماماً. فسألها مستوضحاً:

- هل تقصدين أن دين أحمد يؤمن بمجيء المسيح؟!

تأففت هافا كنايةً عن الملل، وقالت بضيق واضح:

- كفانا حديثاً عن أحمد، فقد بدأت أنا نفسي بالشعور بالغيرة منه.

ثم ما لبثت أن ألانت ملامح وجهها مجدداً وهي تقول بنبرة حاولت أن تكون

متعاطفة:

- إنني أحترم تعطشك لمعرفة الحقيقة، ولدي الكثير لأخبرك به عنها، مما يفوق

بأهميته أحمد وآراءه.

- أنت من بدأت الحديث عنه وعن آرائه.

- ولكنني تحدثت عن غيره أيضاً، ولم تُظهر مثل ذلك الاهتمام!

لاحظ أبراهام أن ذلك صحيح فعلاً، إلا أنه رد مُكابراً:

- ذلك فقط لأنك قد أثرت فضولي بإعجابك الشديد به.

- ليتني لم أفعل. حسناً، فيما يتعلق بالمسيح فهو مخدوع به أيضاً؛ لأنه في النهاية

مجرد مسلم، والإسلام لا يختلف كثيراً عن بقية أديان الغويم الذين أخذوا عن اليهود

إيمانهم بالله، وأخذوا معه عقيدة المشيخانية، ليلصقوها بزعيمهم. فكما يزعم المسيحيون

فإن دينهم جاء ليُتمم الناموس، ويحل محل اليهودية القديمة، وإن يسوع هو المسيح الذي

تنبأ الأنبياء بظهوره. يزعم هو، والمسلمون بشكل عام، أن دينهم جاء ليصحح تحريفات

اليهود والمسيحيين، وينسخ دينهما، وأن محمداً هو المقصود بالنبوءات. وكذلك يزعم

"البهائيون"<sup>(١)</sup> أن دينهم هو الأخير، ناسخاً لكل من اليهودية والمسيحية والإسلام، وأن

(١) البهائية هي دين عالمي مستقل، ومعترف به رسمياً في العديد من دول العالم، ومنتشر في أكثر من ٢٣٥ بلداً

ودولة. وله تمثيل غير حكومي في منظمة الأمم المتحدة منذ بداية نشأتها، وكذلك في الأوساط العلمية والدينية

والاقتصادية في العالم. ويعد أشهر ما يسمى بأديان العصر الجديد، ويحظى بترحيب أوروبي وأمريكي واسع.

المقصود بتلك النبوءات هو "بهاء الدين"<sup>(١)</sup>. ولا يزال المسلسل مستمراً. لاحظ أبراهام نبيرة التذمر الواضحة في حديثها، بعد أن أحسست أن أحمد وآراءه قد شغلا حيزاً أكبر مما ينبغي من حديثهما، وأن ذلك قد بدأ يصرفه عن آرائها ودينها الذي تبشره به. فرغب بإعادة تحفيزها إلى الماضي في الحديث عن عقيدة المشيخانية في الإسلام، وعن أحمد، الذي عاد يشغل تفكيره من جديد، لذا تصنع شدة التأثير بحديثها، وقال بشيء من الدونية:

- واو!!!... يبدو أن ثقافتك واسعة جداً: فقد كنت أظن بنفسي سعة الاطلاع والتعمق بمجمل الأديان، إلا أنني بت أشعر أمامك بضحالة ثقافتي، بل بجهلي الشديد في الواقع.

انفجرت أساريرها فإطراء أبراهام المفاجئ، واحمر وجهها خجلاً على غير عاداتها، مما أربكها قليلاً، فتمدت النظر إلى الأرض وهي تحدثه، حتى لا يلاحظ ذلك. - ليس إلى هذه الدرجة: فأنا إنسانة بسيطة، إلا أنني لا أقبل بالتسليم بالدعايات المفروضة علينا، لذا حاولت دائماً استقراء التاريخ والتعمق بدراسة الأديان، لأشكّل قناعاتي الخاصة. وأحمد الله أنني وصلت إلى الحقيقة أخيراً.

لكن أبراهام، الذي لم يفته ارتباكها، أحس بالخجل لمحاولته استغلالها عبر إثارة غرورها، خاصة بعد إجابتها تلك، التي بدأ يشعر بسببها بالدونية فعلاً، وبمزيد من التخبط والضياع أيضاً؛ فها هي ذي تظن أنها قد وصلت أخيراً إلى الحقيقة، التي هي اليهودية الإصلاحية من وجهة نظرها!!! وذاك أحمد يظن بأنه قد وصل إلى

(١) زعم "السيد" (رتبة دينية عند المذهب الشيعي، تعني أن صاحبها من نسل الرسول ﷺ): من جهة ابنته فاطمة رضي الله عنها) "علي محمد الشيرازي" مؤسس الدين البابي، والذي اتخذ لنفسه لقب الباب رمزاً، زعم أنه جاء ليمهد الطريق لمن سماه "بمن يظهره الله" والذي يمحيه ستتحقق نبوءات الأديان السابقة. إلا أنه أعدم سنة ١٨٥٠، ليدعي أحد أتباعه "حسين علي النوري" بعد ١٩ سنة أنه هو الذي جاء الباب ليبشر به، ويتخذ لنفسه لقب "بهاء الله" مؤسساً "الدين البهائي".

الحقيقة أخيراً، التي كانت الإسلام من وجهة نظره!!! فتساءل أيجد بدوره ديناً آخر ليصفه أيضاً بأنه الحقيقة التي وصل إليها أخيراً!!!

تذكر قصة العميان الأربعة الذين حاولوا وصف "مجسم فيل" اصطدموا به، وإذ لم يروا فيلاً من قبل، فقد سَعَوْا إلى وصف هذه الظاهرة الجديدة معتمدين على حاسة اللمس: فأمسك أحدهم بالخرطوم ليستنتج أن ذلك المجسم لا بد أنه يمثل ثعباناً كبيراً، ويستكشف آخر إحدى الأرجل والورك فوقها واصفاً إياه بأنه لشجرة، في حين يجد الثالث الذيل ويصرح بأنه مجسم لسوط غليظ، وبعد أن يتفحص الرجل الرابع الجذع يصل إلى نتيجة أنه مجرد جدار.

إن كل رجل من الرجال الأربعة وصف الشيء ذاته، ولكن بطريقة مختلفة كلياً. فهل هذا حال أحمد وهافا؟ بل هل هذا حال أصحاب الأديان المختلفة الموجودة في العالم؟ أي إنهم يصفون الشيء نفسه بطرائق مختلفة، وهل يعني هذا أن الحقيقة ليست حكرًا على دين معين دون سواه؟ وأنه من الضروري النظر إلى كل الأديان باعتبارها متساوية في الصحة، كل حسب منظوره، وأن كل الطرق تؤدي إلى روما على طريقة "وحدة الأديان"؟؟؟

أطرق أبراهام متأملاً في مطابقة تلك المقارنة على الواقع، ثم هز رأسه بالنفي. فالوهلة الأولى قد تعطي هذه المقارنة صورة قوية ومؤثرة عن الواقع، وقد يبدو أنها تأسر شيئاً ما من الحقيقة، ولكن هل واقع الأمر كذلك فعلاً؟! بالتأكيد لا. فلا بد أن يكون دين واحد فقط هو الحقيقة، وإلا فلا معنى لكلمة الحقيقة أصلاً. ثم إنه طبقاً للمقارنة نفسها فلا بد من مُبصر ما، يرى كامل المجسم، ويعرف الفيل مسبقاً ليصفه ويكون وصفه فقط هو الحقيقة الكاملة بالنسبة إلى هذا الأمر. وإذا نظرنا إلى الموضوع من ذلك الجانب، وافترضنا أن كل دين يصف جزءاً من الحقيقة، فإن دين المبصر هو بالضبط ما يبحث عنه... دين الحقيقة الكاملة الخالية من أي وهم... ولكن أين هو؟؟؟



أحس أبراهام بأنه قد أطل التأمّل، ولاحظ أن هافا مع اندفاعها الشديد في الثرثرة، لا تزال صامته أيضاً، وقد أرجع ذلك إلى فرحتها وارتباكها بإطرائه، أو لإعطائه فرصة للتفكير بكل ما قالته، أو ربما للسيبين معاً، فتذكر السبب الذي من أجله أطرى عليها، فقال مستفسراً:

- لم أكن أعرف أن المسلمين ينتظرون محمداً ليعود أيضاً.

مع أن هافا لم تكن ترغب بمعاودة الحديث عن أحمد أو عن الإسلام، إلا أنها لم تمنع في إستعراض لما لديها من معلومات بعد ذلك التأثير الذي أبداه أبراهام بسعة ثقافتها، فأجابت موضحة:

- لأن هذا ليس صحيحاً، فليس بالضرورة أن تتشابه تلك الأديان بالتفاصيل، فكما عالج المسيحيون مشكلة عدم تحقق كل نبوءات المشيخ بيسوع، مدعين أنه سيعود ثانية ليتممها، عالج المسلمون المشكلة بطريقة تشبهها قليلاً: فقد وافقوا المسيحيين في موضوع عودة مسيحيهم، ولكنهم ابتدعوا شخصية أخرى من نسل محمد ستظهر قبل رجوع يسوع مباشرة، لتتحقق النبوءات فيهما معاً، وأطلق بعضهم عليها اسم "المهدي" وآخرون لم يسموه بل اعتبروا أنه رجل صالح من عترة نبيهم<sup>(١)</sup>. ولكن، مع اتفاق جميع طوائف المسيحيين على أن يسوع هو المخلص المنتظر، فقد اختلفت مذاهب الإسلام في تحديد هوية منتظرهم، بل إن أحدها اختلف عن الباقيين حتى في عدم الفصل بين شخصيتي المهدي والمسيح<sup>(٢)</sup>، فادعى مؤسسه<sup>(٣)</sup> بأنه هو المسيح والمهدي في الوقت نفسه، وذلك على مبدأ ٢ في ١، تماماً كعبوات "الشامبو مع بلسم". ثم عاد فادعى لاحقاً بأنه

(١) عليه الصلاة والسلام. ويجدر الذكر هنا أن صحيح هذه الأحاديث غير صريح (مبهم بالنسبة إلى الاسم واللقب)، وصريحها غير صحيح (ضعيف ولكنه يحتمل الصحة بتعدد الشواهد).

(٢) تنص "القاديانيين".

(٣) "ميرزا غلام أحمد".

النزول الثاني لـ "كريشنا"<sup>(١)</sup> أيضاً، ليصبح ٣ في ١ بعد اكتشاف خاصية "ضد القشرة".  
 قالت هافا عباراتها الأخيرة وهي تضحك، لتغلق ذلك الموضوع بإحدى دعاياتها،  
 ثم نزلت بخفة على درج السور، لتنتظره أسفله مادّةً يدها إليه بحركة مسرحية وهي  
 تقول:

- والآن سأخذك إلى "الشاطر الغربي للمدينة" كي تراه عن كثب.  
 نزل أبراهام شاردأ، ليعطيها يده كأنه يسلمها قياده، فقد أحس أن الأمور عادت  
 لتختلط عليه مجدداً بعد ما عرفه لتوه من أن الإسلام أيضاً يؤمن بالمشيخانية بطريقته  
 الخاصة.

---

(١) كريشنا هو أحد الآلهة المقدسة عند الهندوس، وكان ميرزا غلام أحمد قد ادعى ذلك سنة ١٩٠٥ أي في  
 أواخر أيامه (عاش من سنة ١٨٣٩م إلى سنة ١٩٠٨م). وربما يعود السبب في ذلك إلى صدمته، بعد  
 رفضه من قبل الأغلبية العظمى من المسلمين، فحاول كسب أنصار جدد من الدين الآخر في الهند. والله  
 أعلم.

## « عقيدة المُنتظر

شبكة هافا ذراعها بذراع أبراهام مجدداً، ومضت تتابع تعليقاتها السياحية متوجهة به نحو القدس الغربية، وعندما لاحظت عدم تجاوبه معها قالت معاتباً:

- أنت لا تستمع إلي، ولا تنظر حتى إلى المعالم التي أريك إياها، فهل أتحدث إلى نفسي؟! لقد رأيت كل هذا من قبل، ولكنني أحاول أن أعرفك أنت بأورشليم.

كان أبراهام منشغلاً عنها فعلاً بمقارنة ما قالته عن المشيخانية في الإسلام مع الخلاصة التي قرأها في مذكرات أحمد، فقال بخبث، محاولاً جرّها إلى العودة إلى حديثها السابق:

- لقد كنت أحاول فهم شخصيتك، فقد ظننت أنك من أنصار احترام معتقدات الآخرين كما قلت، ولم أكن أتصور أن تسخرين من رموز أحدها وتشبيهه بالشامبو!!!

ظهر الحرج على وجه هافا، وقالت بخجل:

- أنت محق، أنا أسفة. ولكنني بالتأكيد لم أتعمد السخرية من مهدي "الأحمديين"<sup>(١)</sup> أو غيره، وإنما قصدت إضفاء شيء من الدعابة للتخفيف من حدة الجدية التي سيطرت على حديثنا كي لا تصاب بالملل.

- ملل؟! على العكس تماماً، بل أصبح الموضوع شائقاً جداً؛ فقد قرأت فعلاً عن عقيدة المهدي، ولكن لم يخطر ببالي أن أربطها بالمشيخانية! كما أنني ظننتها عقيدة خاصة "بالشيعية" وحدهم دون بقية المسلمين، وأنا متأكد أن كثيرين غيري يشاطرونني الرأي.

(١) الأحمديون هو الاسم الذي يطلقه القاديانيون على أنفسهم.

- أتفهم ذلك تماماً. فمع أن عقيدة المنتظر من ذرية محمد، موجودة عند كل مذاهب المسلمين، إلا أن "المذهب الشيعي" يبقى الأكثر مغالاة فيها.
- لماذا؟
- لأن انشاقهم قام أصلاً على أساس فكرة توريث أئمة آل البيت لخلافة محمد، وأن آخرهم هو المهدي، الذي سستحقق بظهوره بقية النبوءات. كما أن مذهبهم يتمتع بشهرة واسعة تفوق نسبة تمثيله بين المسلمين.
- وكم نسبة الشيعة بين بقية المسلمين؟
- لا أدري. فمتطرفو السنة يؤكدون أنهم لا يتجاوزون الـ٤،٥%<sup>(١)</sup>، في حين يدعي متطرفو الشيعة أنهم الثلث، بل يؤكد بعضهم أنهم باتوا يقتربون من النصف!!! وأرى في كلٍ من الادعاءين مبالغة واضحة، ولكن مهما يكن، فمن الثابت تماماً أن الشيعة بكافة طوائفهم مجتمعة يمثلون أقلية بين المسلمين.
- إذا كان الأمر كذلك، فما سبب تلك الشهرة إذن؟

(١) حسب مصادرهم فإن عدد السنة في إندونيسيا وحدها أكثر من كل الشيعة في العالم، وأن السنة في إيران يشكلون ٣٥٪ من عدد الشعب الذي فيه أديان أخرى غير الشيعة، وأن سنة العراق من العرب والأكراد والتركماني أكثر من ٦٠٪ والباقي موزع على الشيعة والسريان والآشوريين (المسيحيين) والصابئة والإيزيديين. وبالنسبة إلى النشاط الفعال لنشر التشيع مؤخراً بين السنة، والذي يتباهى به الشيعة مضاعفين من نسبتهم الحقيقية، فلا يجب أن نتناسى العكس. ففي مجلة "المنبر" الشيعة المتطرفة، العدد ١٤ مقال بعنوان: "استنكار واحتجاجات من الشيعة الذين أصبحوا غرباء في وطنهم" جاء فيه ما نصه: ' و ذكرت الأوساط أن هذه السياسة التي تنتهجها السلطات الإيرانية هي التي أدت إلى تحول جمع من أبناء إيران إلى المذهب السني، بعدما أوقفت السلطات جهوداً كانت تهدف إلى الحفاظ على هوية التشيع المبنية على كشف حقائق مظلومية أهل البيت عليهم السلام باستمرار، حتى إن مدينة "إيران شهر" الواقعة في محافظة سيستان جنوب شرقي إيران كانت نسبة الشيعة فيها قبل الثورة ٨٠٪ أما الآن فقد قلت النسبة لتصبح ٣٠٪ لتكون الأغلبية سنوية بواقع ٦٨٪ من مجموع السكان حالياً. وهذه إحدى نتائج هذه السياسة المصلحية ' (موقع المعصومون الأربعة عشر). [www.14masom.com](http://www.14masom.com)

- يرجع ذلك إلى أسباب عدة: أحدها هو جذور المذهب الشيعي الضاربة في العمق، إذ إنه أول أو ثاني انشقاق على الإسلام، بحسب اختلاف المراجع<sup>(١)</sup>، ومع ذلك لا يزال موجوداً بقوة على الساحة، في حين اختفت انشقاقات كثيرة غيره. والثاني أنه يعتبر الأصل الذي تفرعت منه أغلب فرق الأقليات الإسلامية التي تتمتع بعلاقات جيدة مع الغرب، وتحظى بدعمه واحترامه: كالإسماعيلية الآخاخانية، والبهرة، والدروز، والعلويين، والبهائيين، بل وحتى الأحمديين بشكل أو بآخر<sup>(٢)</sup>. ولعل السبب الأهم في الوقت الحاضر، هو قيام دولة دينية قوية وغنية، تطمح إلى دور قيادي في العالم الإسلامي، وتضع على رأس أولوياتها "تصدير الثورة"، ودعم الأقليات، ونشر مذهبها الشيعي في بقية الدول الإسلامية ذات الأغلبية السنية.

- بم يختلف تصور الشيعة للمهدي عن تصور السنة؟

- بكل شيء تقريباً. فالرجل الصالح الذي أخبر عنه محمد طبقاً لمصادر السنة هو شخص مختلف تماماً عن مهدي الشيعة؛ فهو لن يولد سراً ثم يختفي، بل سيظهر آخر الزمان ظهوراً طبيعياً كباقي البشر. ولا ترد عندهم أخبار عن ولادته الأسطورية، أو غيبته أو أي تفصيل آخر خارق للعادة سوى النبوءات التي ستتحقق على يديه، بعد أن يلي أمرهم آخر الزمان. كما لم يرد عندهم قول واحد يؤكد مما يسمونه "حديثاً صحيحاً" يصرح بلقب المهدي. وهو عندهم سيسلم الأمر ليسوع<sup>(٣)</sup> بعد عودته كما

(١) الانشقاق الآخر الذي تقصده هو انشقاق "الخوارج".

(٢) مع أن الاختلاف شديد بين المذهب الشيعي والقاديانية، إلا أن المتمعن بكتابات ميرزا غلام أحمد يدعش للتشابه الكبير بينهما؛ فهو يدعي أن عزة المسلمين ستكون على يد الفرس، (وهو يزعم أنه من أصل فارسي) كما أن جل أسانيده في إثبات أنه المهدي من مصادر شيعية. وأحلامه التي تعتبر رؤى صادقة عندهم تشابه ما يرويه الشيعة من رؤية الرسول \* وأئمة آل البيت، وخاصة المهدي. وهو يسلم بموضوع اختفاء مهدي الشيعة في السرداب، ولكنه يعتبره مثل صعود المسيح عليه السلام إلى السماء؛ أي "جرت على السنة المهيمين بطريق الاستعارات فهي مملوءة بلطائف الإشارات" حسب تعبيره.

(٣) لعيسى عليه السلام.

يظنون، بل إنهم يشككون بوجود مهدي الشيعة أصلاً، فحسب مصادرهم مات الإمام الحادي عشر عقيماً دون خلف<sup>(١)</sup>.

- وهل هذا صحيح؟

سأل أبراهام متشككاً، فأومأت هافا بالإيجاب قائلة:

- أعتقد ذلك: فقد نُسجت قصة ذلك المولود وكونه مهديهم المنتظر في وقت متأخر نسبياً، بعد وفاة إمامهم الحادي عشر، ثم إنه لم تثبت رؤيته من أحد يعتد برأيه.

- وما هدفهم من وراء تلك القصة؟

- لقد افرقت الشيعة على مذاهب شتى<sup>(٢)</sup>، لكل منهم مهديه الخاص<sup>(٣)</sup>، ولكن أبرزها كانت فرقة دعيت بـ "الإمامية". وهؤلاء اعتبروا أن "الاثني عشر رئيساً من نسل إسماعيل" الوارد ذكرهم في التوراة، هم بنو عم نبيهم<sup>(٤)</sup> ونسله من إحدى زوجاته التي

- (١) وُزع ميراث الحسن العسكري (الإمام الحادي عشر عند الإمامية) بين أمه وأخيه جعفر، لعدم وجود أي خلف له، وذلك بعد ثبوت عدم حمل أي من جواريه، كما تعترف المصادر الشيعية نفسها.
- (٢) منهم الزيدية والإسماعيلية والفضحية والكيسانية والبترية والجارودية والمختارية والكربية والهاشمية والراوندية والخطابية والناوسية والقرمطية والواقفة المطورة والنميرية، وكثير غيرهم.
- (٣) بعضهم اعتبر محمد بن الحنفية هو المهدي، وأنه لم يميت بل سيعود آخر الزمان، وبعضهم قال ذلك بجعفر الصادق، وبإسماعيل بن جعفر، وبغيرهم. وما يجدر التنبيه إليه هو اختفاء كتابات نخبة الفقهاء القدماء للشيعة الإمامية في زمننا الحاضر، ومنهم على سبيل المثال هشام بن الحكم (القرن الثاني للهجرة) وهشام بن سالم الجواليقي (القرن الثاني الهجري) الذين يفترض أنهم كانوا ينتمون إلى الحلقات الدراسية التابعة للأئمة، ويعملون في التدوين الكتابي. حيث يعلمنا ابن النديم (توفي ٣٨٥ هـ) بعناوين كتبهم التي يفترض أن بعضها كان موجوداً في أيامه، لكن ما نعرفه هو أن أفكارهم الفقهية تبتعد كلياً عما نعرفه عن الشيعة الاثني عشرية حالياً. لذا علينا ألا نتعجب لاختفاء كتبهم، مع أنها من المفترض أن تكون كنزاً ثميناً للشيعة وجب عليهم الحفاظ عليها إلى الآن. والتفسير الوحيد لعدم حفظها هو أنها لم تعد تتناسب مع التصورات اللاحقة، كما أن ابن النديم يخبرنا أن هشام بن الحكم ألف كتاباً عنوانه "الرد على هشام الجواليقي"، وكتاباً آخر باسم "الرد على شيطان الطاق"!!! وهؤلاء الثلاثة يفترض أنهم تلامذة الإمام المعصوم، وحسب المنطق الإمامي الحالي ليس بوسعهم نشر فتاوى وأقوال دون استشارة الإمام، خصوصاً في القضايا المهمة لأصول الدين!
- (٤) ﷺ. وتقصد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنه.

كانت الابنة الأثيرة لمحمد<sup>(١)</sup>، وأطلقوا عليهم اسم "الأئمة الاثني عشر". ولما مات الإمام الحادي عشر باكراً<sup>(٢)</sup> ادعى بعض أتباعه، لاحقاً، بوجود ابن له عمره خمس سنوات! وأنهم يتلقون تعليماته وإرشاداته<sup>(٣)</sup>!!

- وكيف برروا عدم معرفة أحد بأمره كل ذلك الوقت؟

- لقد نسجوا قصصاً شائقة اختلفت تفاصيلها بشدة بين المصادر الإمامية المتباينة. ولكن الخطوط العامة التي تجمع بين تلك الأساطير هي أن الحكام في ذلك الوقت<sup>(٤)</sup> قد عرفوا باقترب موعد ولادة إمام الزمان الذي سيُنهي ملكهم، تماماً كما عرف فرعون بموعد ولادة موسى، وهيردوس بموعد ولادة يسوع، فجدوا في طلب رأسه، وهو ما حتم إبقاء كل أمره طي الكتمان، حتى إن الزواج المفترض بين أبيه وأمه كان في الحلم.

- في الحلم!!!

(١) ﷺ. وتقصّد فاطمة الزهراء سيدة النساء الجنة عليها رضوان الله.

(٢) توفي الحسن العسكري في سنة ٢٦٠ هـ عن عمر بلغ الثامنة والعشرين.

(٣) ادعى كثيرون هذا الشرف ولكن أكثرهم إقناعاً كان عثمان بن سعيد، الذي خلفه في ذلك ابنه محمد بن عثمان، ثم الحسين بن روح، ثم علي بن محمد السيمري. وهؤلاء كانوا يدعون سفراء المهدي، وكانوا يقومون بجباية الأموال (الخمس) باسمه. ولكن لم تمر تلك الحيلة على الناس إلى ما لا نهاية، فأعلن علي بن محمد قبيل وفاته بشهور قليلة أن المهدي قد أرسل إليه رقعة جاء فيها: "لقد وقعت الغيبة التامة فلا ظهور إلا بعد أن يأذن الله، فمن ادعى رؤيتي فهو كذاب مغتر. وهكذا انقطع اتصال الإمام بالناس، وبدأت غيبته الكبرى. ومع ذلك لا يزال كثير من أئمة الشيعة يدعون إلى الآن لقاء سرّاً بين الفينة والأخرى، وينشرون الكتب التي تحوي تعاليمه وتفسيراته كما نقلها إليهم! بل ويُذكر أن الرئيس الإيراني محمود أحمددي مجد تحدث مراراً في مختلف المناسبات عن علامات ظهور المهدي المنتظر أو الاتصال به، الأمر الذي أثار انتقادات حادة ضده في الأوساط السياسية والدينية. كما سبق أن تحدث مجد في لقاء بالمرجع الديني المعروف "آية الله جوادي أملّي" عن "هالة نور" كانت قد أحاطت به لدى إلقاء كلمة له أمام قادة العالم في الجمعية العامة للأمم المتحدة! ونشرت مواقع إيرانية فيديو يظهر الرئيس الإيراني يشرح لهذا المرجع الديني دعم المهدي المنتظر له خلال خطابه في المنظمة الدولية!!!

(٤) نقصد الخلفاء العباسيين.

تساءل أبرهام مندهشاً، فتبسمت هافا قائلة:

- أجل، فقد ادعوا أن الإمام الحادي عشر قد رأى رؤيا خطب له فيها جده، حفيدة أحد الحواريين من يسوع، وأرشده إلى اسمها<sup>(١)</sup>، ومكان وجودها، وثمرتها، حيث كانت جارية. وعندما استيقظ الإمام بعث غلامه إليها ليشتريها، وكانت العروس قد رأت قبل ذلك رؤيا مماثلة أبطالها جدة العريس بنت محمد ومريم العذراء. وفي الليلة الموعودة انتفخ بطنها دون أن يظهر عليها أثر حمل قبلها، ثم خرج منها المولود الجديد<sup>(٢)</sup> نظيفاً بعد أن ابتلعت الأرض ما يخرج مع الولادة، وكل ما يخرج عادة من الأطفال. وأن الخليفة عندما عرف بولادته أمر بأن يأتوا به ليقتله فامتلات الدنيا من ضياء وجه الفتى المحمول على كتف أحد الخدم، ولم يقدر أحد أن يخرج سيفه من غمده، فألقوه إلى الأسود! التي وقفت أمامه كالعبيد، بل كلمه أحدهم بلسان فصيح معترفاً بإمامته، ومشتكياً ظلم الأسدين الشابين، اللذين يأكلان الطعمة قبل أن يكمل، فرده الطفل شاباً وجعل الأسدين الآخرين هرمين، فلما رأى الخليفة ذلك رده إلى أبيه<sup>(٣)</sup>.

- متى حدث ذلك؟

(١) هناك أسماء مختلفة حسب الروايات الشيعية المتعددة، وقد حاول الطبرسي التوفيق بين تلك الروايات فقال: " أمه مليكة التي يقال لها في بعض الأحيان سوسن، وفي بعضها تنادى بريحانة، وكان صيقل ونرجس أيضاً من أسمائها"، ولكنه نسي خمط وحكيمة ومريم. وسكت عن التوفيق بين كونها أحياناً حرة وأحياناً أمة، وأحياناً بيضاء وأحياناً سوداء، أو أنها حملته مرة في بطنها ومرة في جنبها، وولده مرة من فرجها ومرة من فخذه.

(٢) تذكر أغلب المصادر الشيعية أن اسمه هو محمد، وبعضها تذكر أن اسمه هو موسى. وبشكل عام يتحاشى الشيعة التصريح، ويستعيضون عنه بألقابه كـ "القائم" ويضيفون إليها عبارة "عجل الله فرجه".

(٣) كتاب "إلزام الناصب في إثبات الحجية للغائب" لشيخ الفقهاء والمحدثين "علي الخائري". والناصب هنا بمعنى الذي يناسب أهل البيت العداء (أي كافة المسلمين من غير الشيعة وفق المفهوم المتشدد). الغريب أن هذه القصة تؤكد أن وجود ابن للحسن العسكري كان معروفاً ومشهوراً للجميع في أثناء حياة أبيه، فكيف فقد كل هؤلاء النواصب ذاكرتهم دفعة واحدة؟



- في القرن التاسع الميلادي<sup>(١)</sup>.
- أي إن عمره الآن أكثر من ألف ومئتي عام.
- قال أبراهام مستغرباً، فأجابته ضاحكة:
- لا تنظر إلي هكذا، فهذا ما يؤمنون به هم، لا أنا.
- وأين هو الآن؟
- يشاع أنه يجول في البلاد بين أتباعه، يعرفهم ولا يعرفونه. وزعمت قلة منهم أنه يقيم في جزيرة سرية تدعى "الجزيرة الخضراء"، لا يقدر أحد الوصول إليها إلا خاصته. ومنهم من يزعم أن مكان تلك الجزيرة هو "مثلث برمودا"، وأن المهدي هو المسؤول عما يحدث هناك عندما يحاول أحد الفضوليين الاقتراب من مقره الآمن.
- هل أحمد الكاشف شيعي؟
- أستبعد ذلك: فيبدو جليلاً من كتاباته أنه "سني"، وعلى الأغلب ممن يطلقون على أنفسهم لقب "أهل الحديث"، أو "أهل السنة والجماعة".
- ما معنى هذا؟
- إف. يبدو أن موضوع حديثنا قد تحول تماماً إلى آراء أحمد الكاشف ودينه، ومذهبه. حسناً، وباختصار شديد، ولتبسيط الأمر وتقريبه إليك كيهودي: فإن مثلهم كمثل الإصلاحية اليهودية. قامت أساساً في مواجهة التصوف في الدين، لتتقيته من البدع، والدروشة، والتقاليد التي أحدثوها على مر العصور، والتي يعتبر الإسلام بريئاً منها حسب ظنهم، إلا أنها لم تسلك في ذلك مسلكاً تنويرياً عصرانياً مثلنا، ولم تطور الدين ليلائم المتغيرات: بل على العكس من ذلك تماماً، عادت إلى نقطة الصفر، أي

(١) حسب المصادر الإمامية فقد ولد المهدي في ١٥ شعبان سنة ٢٥٥ للهجرة، وامتدت غيبته الصغرى تسعاً وستين سنة، كان يتصل خلالها بوكلائه الخاصين (السفراء)، ثم عاد ليغيب غيبته الكبرى. وهي ممتدة كما يقولون حتى موعد فرجه، حيث سيظهر عارياً أمام قرص الشمس!

إلى نهج محمد ورفاقه<sup>(١)</sup> وبقية أهل القرون الثلاثة الأولى من "السلف الصالح"، التي يعتبرونها - وفقاً لأحد أقوال نبيهم المأثورة<sup>(٢)</sup> - : "خير القرون"<sup>(٣)</sup>. رافضين بقطعية أي أمر لم يكونوا عليه، عملاً بقولٍ آخر من أقواله، أنه لم يترك شيئاً فيه خير لهم إلا ودلهم عليه.

- أليس هذا هو مذهب الإرهابيين السلفيين؟

- هناك متطرفون في كل دين ومذهب، والسلفية إطار عام تتفرع عنه اتجاهات مختلفة، أحدها هو ما يطلق عليه اسم "السلفية الجهادية" التي تقصدها، ولكن لا تنس أن أكثر العرب اعتدالاً هم أهل "دول الخليج"، والأغلبية هناك هم من السلفيين، وأحمد، إن لم أكن مخطئاً، سلفي ليبرالي إن صح التعبير.

- كيف يكون سلفياً وليبرالياً في الوقت نفسه ؟!!!!

- يفهم من كتاباته أنه يؤمن بنهج محمد ورفاقه بشكل حرفي، ويعتبره صالحاً لكل الأزمان، كما يركز على النزعة التحررية التعايشية فيه، باعتبارها صالحة لهذا الزمن بالذات. وأتمنى أن تكف عن فتح دين أحمد ومذهبه معي ثانية، لأنني مللت منه فعلاً، ولا أرحب بتاتاً في العودة إليه.

- كما تريدين يا عزيزتي. كما تريدين.

(١) تقصد رسول الله ﷺ، وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين.

(٢) تقصد الأحاديث الشريفة للرسول عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

(٣) قال الشيخ العلامة المحدث الألباني: "وبهذه المناسبة لا بد لي من وقفة أو جملة معترضة قصيرة، وهي: أن الشائع اليوم على ألسنة المحاضرين، والمرشدين، والواعظين، رواية الحديث بلفظ: (خير القرون قرني)، هذا اللفظ لا تعرف له أصلاً في كتب السنة، مع أن هذا الحديث دخل في زمرة الأحاديث المتواترة لكثرتها، وإنما اللفظ الصحيح الذي جاء في الصحيحين وغيرهما، إنما هو بلفظ: ((خير الناس قرني ثم الذين يلونهم...)) إلى آخر الحديث"، وليس: (خير القرون قرني).

قال أبراهام باستياء بالغ، فقد كان ينوي سؤالها عن موضوع النبي الكاذب<sup>(١)</sup> الذي سيأتي أيضاً آخر الزمان. وأخذ يفكر بطريقة يعيد من خلالها فتح الموضوع دون أن يثير غضبها. ولكن هافا التي كان الضيق قد تملكها فعلاً من المنحى الجديد الذي وصلا إليه في حديثهما، سارعت الخطا باتجاه "ساحة الروس" القريبة، لتفوت الفرصة عليه، وتضمن تغير مجرى الحديث نهائياً، عن طريق شغل أبراهام بشيء يذكره بوطنه. وما إن وصلا إلى هناك حتى قالت كمن وجد ضالته أخيراً:

- هي ذي "مجراس هروسيم"<sup>(٢)</sup>، انظر حولك لترى اللغة الروسية وهي تزين واجهات الكثير من المباني بنقوشها المميزة. فأعلى هذه الدائرة الحكومية مثلاً<sup>(٣)</sup> تجد اسم المستشفى الروسي لا يزال شامخاً على الواجهة، كما كان شائعاً في فن العمارة الروسية آنذاك، والذي لا تستطيع الحكومة نزعه دون تحطيمها، أو على الأقل تشويهها.

- لم أكن أعرف أن لروسيا ممتلكات في إسرائيل.

سُرت هافا لكونها نجحت في إثارة فضول أبراهام أخيراً إلى موضوع آخر غير الإسلام، كما سُرت للفرصة الجديدة المتاحة لها لاستعراض سعة ثقافتها في شتى المجالات، ومضت تشرح بإسهاب قائلة:

(١) يقصد "المسيح الدجال" حسب التسمية الإسلامية، أو "ضد المسيح" حسب التسمية المسيحية.  
(٢) "ساحة الروس" بالعبرية، ويسمىها العرب "المسكوبية"، أما الروس فيسمونها "منشأة القديس سرجيوس".

(٣) في تلك المنشأة تقع وزارة الزراعة في الكيان الصهيوني، ودوائر حكومية أخرى. كما أقامت محكمة الصلح في القدس مقراً لها في مبنى البعثة الروحية الأرثوذكسية الروسية. وكانت قد تحولت أبنية دير "نيكولا" إلى دوائر وزارة العدل الصهيونية. أما أبنية دير "إليزابيت" فشغلها قسم الشرطة وسجن الحبس الاحتياطي. وقد حول الإنجليز دير "ماريا" سابقاً إلى سجن أيضاً. ووضع فيه المعتقلون الصهاينة المشاركون في الأعمال المسلحة ضد الإنجليز، ولذلك يقيم به الكيان حالياً متحف المقاومة اليهودية.

- حسب الكتالوج الذي أصدرته "الجمعية الإمبراطورية الروسية الفلسطينية" بمواقع العقارات الروسية في الأرض المقدسة، فهي تزيد على ٧٠ قطعة أرض كانت تصل إلى نحو ٣٪ من مساحة فلسطين، ولكن بعد قيام الشيوعية في روسيا صادرت الدولة كل ممتلكات الكنيسة الروسية، إلا أن الحكومة السوفيتية غفلت حينها عن ممتلكات الكنيسة في أورشليم حتى عهد "نيكيتا خروتشوف"، الذي تنبه لذلك، ولكنه لم يستطع مصادرتها، وفي الوقت نفسه لم يرغب ببقائها ضمن أملاك الكنيسة، فعمد إلى بيعها إلى الحكومة الإسرائيلية، وكان الثمن بضع شحنات من البرتقال<sup>(١)</sup> وصلت إلى موسكو بعد أن فسد أكثر من نصفها على الطريق. وقد طالب الرئيس الروسي "فلاديمير بوتين" مؤخراً الحكومة الإسرائيلية بإعادة بقية الممتلكات الروسية، لكن طلبه جوبه بالمطالبة<sup>(٢)</sup> والابتزاز<sup>(٣)</sup> والمساومة السياسية<sup>(٤)</sup> من قبلها. ولا يزال الموضوع عالماً للآن بين الحكومتين<sup>(٥)</sup>.

(١) تقصد فضيحة "الصفقة البرتقالية" حيث تنازلت فيها الحكومة السوفيتية لإسرائيل عن ٢٢ عقاراً كانت تملكه الجمعية الفلسطينية الروسية التابعة "للبعثة الدينية الروسية" مقابل ٤,٥ مليون دولار. وقد تم تسديد ٣ ملايين دولار من المبلغ بصادرات من البرتقال.

(٢) أهم ما تجججت به حكومة الكيان هو انقسام الكنيسة الروسية على نفسها إلى كنيسة حمراء موالية للنظام وكنيسة بيضاء موالية للغرب، وجادلوا من الأحق بملكية العقارات. لكن بعد أن توحدت الكنيستان أخيراً فقد الكيان هذه الحجة أيضاً.

(٣) طلب الكيان من روسيا تحمل جميع نفقات نقل المؤسسات الحكومية التي تشغل المباني إلى أبنية مخصصة أكثر لمزاولة نشاطها. واقترح بعض النواب في الكنيست المطالبة بتسليم الكيان ما تتضمنه مجموعة "أسرة غينسبورغ" من النصوص الدينية الموجودة في المكتبة الحكومية الروسية.

(٤) ومنها ما حامت حوله الشائعات بشأن تقييد إمداد روسيا لسورية بالأسلحة الحديثة وتزويد إيران بالمنظومات الصاروخية للدفاع الجوي من طراز اس - ٣٠٠ وتحسين العلاقات التي كدرها الدور الصهيوني في مساندة جورجيا وتسليحها.

(٥) تم التوصل فيما بعد (في نهاية عام ٢٠٠٧) إلى اتفاق على البدء بالإجراءات القانونية اللازمة لتحويل ملكية المجمع الكنسي، ومنشأة القديس سرجيوس إلى روسيا، بعد رضوخ الجانب الروسي لشروط الكيان الصهيوني كافة. كما بدأت إجراءات أخرى لاستعادة بقية الأملاك الروسية.

- ولكن كيف حصلت الكنيسة الروسية أصلاً على أملاك في أورشليم؟  
 - ولقد اشتهرت الكنيسة الروسية هذه الأرض سنة ١٨٦٠م<sup>(١)</sup> وكانت خارج أورشليم وقتها، وتبعد عن سور المدينة الغربي نحو كيلومتر ونصف، فأقامت فيها العديد من المرافق الخدمية التابعة للكنيسة، كان أكبرها فندق للحجاج الروس ومستشفى. ثم ما لبث أن تبعها في العام نفسه، الوزير البريطاني اليهودي "موسى مونتيفيوري" ببناء أول مبنى في حي يهودي جديد سمي بـ"مشكينوت شانانيم" غربي السور أيضاً، والذي سنمر به بعد قليل، لتستقر به المجموعة اليهودية الأولى خارج أسوار البلدة القديمة، ويكون نواة لما يعرف اليوم بـ"أورشليم الغربية": فبعد خمسين عاماً، تضاعف عدد سكان المدينة خارج البلدة القديمة ليساوي عدد الذين يعيشون بداخلها، بعد أن أقيم سبعة عشر حياً سكنياً آخر حوله، حتى انتقل مركز المدينة التجاري إلى تلك الأحياء أو الحارات الجديدة. وبعد ضم أورشليم القديمة التي صارت تعرف بـ"أورشليم الشرقية" للدولة سنة ١٩٦٧ تم توحيد شطري المدينة. ولسبب لا أفهمه تماماً دأبت الحكومة على التفتن في توسيع المدينة باستمرار على حساب القرى المجاورة التي قامت بهدمها الواحدة تلو الأخرى تحت ذرائع مختلفة، لتضمها فيما بعد، وبفترات متباعدة إلى بلدية أورشليم<sup>(٢)</sup> بعد إضافة عدد من الضواحي الجديدة في المساحة التي تفصل بينهما، وأنشئت لهذا السبب "لجنة أورشليم لإحياء برامج تطوير المدينة": التي تشمل سبعين مهندساً معمارياً ومخططي مدن ومؤرخين وفلاسفة بارزين من دول عديدة، تلتئم كل عامين هنا في أورشليم، لتتناول ملفات ترميم المدينة وتطويرها، مما أدى

(١) تنصد البعثة الدينية الروسية التي تأسست في القدس في عام ١٨٤٧ من أجل تقديم المساعدة للحجاج الروس في الأراضي المقدسة ولتعزير النفوذ الروسي الأرثوذكسي هناك.

(٢) ضم أول قرار أصدرته حكومة الكيان الإسرائيلي بهذا الشأن، بعد احتلال الضفة الغربية من الأردن. مساحة ٧٠،٤ كم مربع من أراضي بعض القرى المجاورة لبلدية القدس.

إلى أن أصبحت أورشليم المعاصرة التي تراها الآن أكبر مدن إسرائيل، سواء من جهة المساحة<sup>(١)</sup> أم عدد السكان<sup>(٢)</sup>.

- هذا تصديق لما جاء في الكتاب في سفر إشعياء ٥ : ٨ "ويل للذين يصلون بيتاً ببيت، ويقرون حقلًا بحقل حتى لم يبق موضع، فصرتم تسكنون وحدكم في وسط الأرض"<sup>(٣)</sup>.

(١) ١٢٣ كم<sup>٢</sup>.

(٢) ٧٢٤٠٠٠ نسمة حسب إحصاءات ٢٤/٥/٢٠٠٦. ويذهب بعض المحللين إلى أن تلك التوسيعات الكبيرة لمدينة القدس تهدف بالأساس إلى فرض واقع تهويدي ديموغرافي جديد عليها من جهة، ولتحسين شروط تفاوض مستقبلي محتمل مع الفلسطينيين من جهة أخرى، يتنازل الكيان الصهيوني فيه عن أرض غير مقدسية، تم ضمها بالتدريج عبر عملية محسوبة، لتكون ضمن حصة الفلسطينيين من القدس المعاصرة. ويعامل الاحتلال سكان القدس العرب على أنهم مقيمون لديه لكنهم لا يحملون جنسية الكيان بل تم منحهم هوية زرقاء، تجدد في الداخلية كل ١٠ سنوات وتسحب من صاحبها إن فشل في إثبات أنه كان يقيم في القدس طوال الفترة السابقة من خلال كشوف الضريبة وفواتير الكهرباء وغيرها. وبين الأعوام ١٩٩٥-٢٠٠٦م سحب الاحتلال ٦٠٠٠ بطاقة زرقاء مُسقطاً بذلك حق الإقامة في القدس عن نحو ٢٠،٠٠٠ عربي.

(٣) هذا النص وغيره في سفر إشعياء يتحدث عن فساد بني إسرائيل في آخر الزمان، وعقاب الله لهم. وقد جاء فيه عن نهايتهم: "من أجل ذلك حمى غضب الرب على شعبه، ومد يده عليه وضربه... فيرفع راية للأمم من بعيد ويصفر لهم من أقصى الأرض، فإذا هم بالعجلة يأتون سريعاً، ليس فيهم رازح ولا عاثر. لا ينسون ولا ينامون... حوافر خيلهم تحسب كالصوان، وبكراتهم كالزوبعة... ويمسكون الفريسة ويستخلصونها ولا منقذ... ٢٥-٢٩. وهو ما ينطبق على المسلمين في الملحمة بينهم وبين اليهود والله أعلم. ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

## حاخام أنثى

بعد مدة قصيرة وصلا إلى مشكينوت شانانيم بشوارعها الصحابة، فقال أبراهام بمرح:

- الآن جاء دوري لأكون دليلك السياحي هذه المرة.  
ثم أشار إلى أحد المطاعم الفخمة، وقال محاولاً تقليد أسلوبها، ولكن بطريقة كوميدية:

- هوذا المطعم! وفيه يأكل الناس عندما يجوعون، خاصة إذا صب على رؤوسهم سيل هائل من المعلومات، استهلكوا في محاولة استيعابها كل مخزون الطاقة لديهم. والآن سأخذك في جولة بانورامية على أشهر الأطباق فيه.

قال هذا وهو يزم شفتيه ويحرك يديه مثلها، فتبسمت هافا قائلة:  
- بصرف النظر عن كونك لا تجيد التقليد مطلقاً، إلا أنك تتمتع بذوق رفيع بالفعل: فهذا هو أحد أرقى المطاعم في أورشليم الغربية.

فرد أبراهام وهو ينحني بطريقة مسرحية مفسحاً لها الطريق:  
- أنت ملهمتي يا عزيزتي. تفضلي أرجوك.

أعاد أبراهام ملء الكأسين من "النبيذ"<sup>(١)</sup> للمرة الثانية، وهو ينظر إلى هافا مبتسماً، فلا الشراب ولا حتى الطعام، تمكنا من شغل فمها عن الكلام. وها هي ذي تستقيض في شرح تاريخ أورشليم دون أن تفوتها بين الفينة والأخرى أن تروي حادثة طريفة، أو

(١) يستهلك الخمر في تقاليد الدين اليهودي من باب الشكر على اليوم الخاص . وهو ليس مباحاً فقط، بل إنه "فيدوش" (أي يطهر، يجعله مقدساً) لأنه يهيج النفس كما يعتقدون . ولكن دون أن يصل الأمر إلى درجة السكر .

تسخر من صحة إحدى الحقائق المتداولة، أو أن تقلد إحدى الشخصيات التاريخية بشكل كوميدي. ومع نضج أفكارها وجدية حديثها، الذي كان ينبئ عن عمق ثقافتها وحدة ذكائها، إلا أنه كان، وفي الوقت نفسه، يشي بشقاوتها الصبانية، واستهتارها، ولامبالاتها. شعر أبراهام أن مرحها وحيويتها، مع جو المطعم، وأنغام الموسيقى الهادئة التي تبعث على الاسترخاء والراحة، بالإضافة إلى تأثير النبيذ المعتق، قد تناغمت جميعاً لتحدث انسجاماً رائعاً، فانقلب إعجابه المصطنع بها إلى نوع من الإعجاب الحقيقي، فمع أن دينها لم يشف غليله مطلقاً، إلا أنه قد أُعجب بطريقتها بالتحدث عنه، كما أُعجب أكثر بسعة اطلاعها على غيره من الأديان.

وفجأة توقفت هافا عن الطعام والكلام وقد أحست بشيء من الحرج بعد أن لاحظت أنه ينظر إليها صامتاً منذ مدة طويلة، دون أن تغادر الابتسامة شفتيه، ابتسامة لم تدرك مغزاهما، فأخذت المنديل لتجفف شفتيها ثم وضعته جانباً وهي تقول:

- يبدو أنني كنت ثرثرة فعلاً، ولم أترك لك أي فرصة للحديث.
- لا مطلقاً، صدقيني أنا مستمتع جداً بحديثك.
- لكن ربما حان الوقت لكي أستمع أنا بحديثك.
- لا أظن حديثي قد يكون ممتعاً بالنسبة إلى شخص يمثل ثقافتك وتجاربيك وحسك الفكاهي؛ فأنا مقارنة بك شخص ممل جداً.
- لماذا تقول هذا يا عزيزي! أنت شخص رائع، وأنا متشوقة جداً لمعرفة المزيد عنك؛ عن أسرتك، وحياتك، وعملك وطائفتك.

فقال أبراهام مُتهرباً:

- لا شيء مثير في ذلك، صدقيني. ولكن لماذا لا تجيبين أنت عن هذه الأسئلة؟ فمع كل ما قلته اليوم، إلا أنك لم تتحدثي عن نفسك قط.



- حسناً سأبدأ أنا كالعادة، شرط أن يكون الدور عليك فور انتهائي.

- اتفقنا .

- ولدت في ديترويت. وأنا وحيدة لأمي؛ فأبي تركنا مذ كنت في السابعة عشرة من عمري، ولم أره بعد ذلك. وقد تزوجت أمي من مسلم أمريكي من أصل مصري تولى رعايتي والإنفاق على تعليمي الجامعي. وقد أسلمت أمي، وربما كان ذلك هو سبب سعة اطلاعي على الإسلام، وبالذات مذهب أهل السنة والجماعة الذي هو مذهب "العم خالد" ومذهب أمي بالطبع.

نظر أبراهام إلى هافا بدهشة، ثم سألها متوجساً:

- ألم يحاول خالد هذا إجبارك على اعتناق الإسلام كما فعل مع أمك؟

- ومن قال أنه أجبرها على اعتناق الإسلام؟! هي من أسلمت حباً به، مع أنها قد أصبحت لاحقاً مسلمة فعلاً، ودون ارتباط ذلك بحبها له، حتى إنني لأكاد أجزم أنه لو توفي، أو طلقها لأي سبب من الأسباب، فسوف تستمر بارتداء الحجاب وبممارسة طقوسها الدينية<sup>(١)</sup> كما تفعل الآن تماماً. فهي لم تأل جهداً في دعوتي إلى الإسلام، ولا تزال إلى اليوم ترسل إلي برسائل إلكترونية عن قصص ليهود أسلموا، ونسخ إلكترونية لكتب ألفها بعضهم لدعوة اليهود إلى دينهم الجديد. وكما ترى يا عزيزي، فلو أن هناك شيئاً من محاولة إجبار لي على اعتناق الإسلام فهي بالتأكيد من طرف أمي وليس من طرف العم خالد، الذي وإن كان يحب دينه ويكثر من الحديث عنه، إلا أنه ليس ملتزماً به بالمعنى الحقيقي للكلمة. على الأقل ليس كما أصبحت أمي.

- واعتناق بعض اليهود للإسلام، أهو حالات فردية نادرة، أم أنه قد أصبح ظاهرة؟!

- لحسن الحظ لم يصل الأمر إلى درجة الظاهرة، لكنه بالتأكيد أكثر من مجرد

(١) تقصد الشعائر الإسلامية .

حالات نادرة؛ فاليهود الذين أسلموا كثيرون للأسف، حتى إن بعضهم إسرائيليون<sup>(١)</sup>، وكثير منهم كانوا يُحسبون في الماضي على المتشددين الحريديم<sup>(٢)</sup> وقد قرأت مؤخراً عن قصة سجين إسرائيلي<sup>(٣)</sup> في أحد السجون المصرية أعلن إسلامه من السجن، ويفتخر بكونه قد أصبح المؤمن هناك.

- وأسفاه! لا بد أن هذا بسبب خيبة أملهم بما يرون في إسرائيل. أما ذلك السجين فمن المؤكد أن السبب الحقيقي وراء إسلامه يكمن في أمه في التخلص من السجن، عن طريق اعتناق دين سجانيه.

(١) تشير معطيات سجل السكان التابع لوزارة الداخلية في الكيان الصهيوني إلى أن ٤٠ يهودياً اعتنقوا الإسلام في عام ٢٠٠٣، و٢٧ خلال عام ٢٠٠٤، و٣٣ عام ٢٠٠٥، و٧٠ عام ٢٠٠٦. وأفادت إحصائيات وزارة القضاء في الكيان الصهيوني وفقاً لما نشرته صحيفة معاريف بأن الوزارة تلقت ما بين عامي ٢٠٠٥-٢٠٠٧، ٢٤٩ طلباً تقدم بها يهود لتغيير ديانتهم إلى الإسلام. فيما سجل عام ٢٠٠٨ ارتفاعاً ملحوظاً في عدد الطلبات بواقع ١١٢ طلباً لاعتناق الإسلام من مواطنين يهود. مع أن الوزارات المختصة في الكيان تضع الكثير من العقبات أمام اليهود الراغبين في إعلان إسلامهم؛ إذ تعتمد إلى إجبارهم على الخضوع إلى فحص نفسي بهدف التأكد من أنهم لم يخضعوا لعملية غسل مخ، عدا تحويلهم من وزارة إلى أخرى بهدف زرع اليأس والإحباط في قلوبهم وإجبارهم على العودة إلى الدين اليهودي. وقد أشارت صحيفة معاريف إلى أن وزارة القضاء تماطل في دراسة هذه الطلبات، وتقوم بتحويل أصحابها إلى رجال الدين اليهود لإقناع أصحابها بالعدول عن هذه الفكرة، وسط تقديم إغراءات لأصحابها. وذكر ناشطون يهود يحاربون هذه الظاهرة الآخذة بالانتشار، أن العديد من اليهود يعلنون إسلامهم دون إبلاغ الوزارة بذلك، خوفاً من تعرضهم لإجراءات من جانب سلطات الاحتلال والجماعات اليهودية المتشددة. وبدوره أقر أحد أعضاء جمعية "عائلة إسرائيل للأبد" أن الأعداد المعلنة لا تدل على العدد الحقيقي على الأرض، قائلاً إن هناك المئات الذين غيروا دينهم إلى الإسلام ولم يبلغوا عن ذلك.

(٢) مثل "محمد المهدي" الذي كان اسمه "ميخائيل شيرنوفسكي" والذي كان من أشد المعجبين "بباروخ جولدشتاين" (منفذ مجزرة الحرم الإبراهيمي)، فقرر تنفيذ عملية انتحارية داخل أحد مساجد مدينة الخليل لقتل المسلمين وهم يؤدون الصلاة تشبهاً ببطله، لكن مناقشات دينية وفلسفية لم تكن بالحسبان، مع صاحب كراج في الخليل، اضطر لإصلاح سيارته عنده، جعلته يراجع حساباته تدريجياً، ليتحول في النهاية إلى الإسلام.

(٣) وهو يوسف أمين طحان المسجون منذ ١٩٨٥ م.

هزت هافا رأسها بالنفي قائلة:

- لا أظن ذلك. فلا تتس أنه بذلك قد خسر رعاية السفارة الإسرائيلية في القاهرة. كما أن حكومة مصر ومع أنها مسلمة، إلا أنها تنتهج سياسة علمانية، بالإضافة إلى أنها ليست على وفاق تام مع الإسلاميين، مما ينفي احتمال إطلاق سراحه لهذا السبب. والأهم من ذلك أن مدة سجنه قد شارفت على الانتهاء أصلاً، لذلك فالأقرب إلى المنطق أنه قد فعل ذلك عن اقتناع تام. وأما عن أن سبب إسلام بعض الإسرائيليين هو خيبة أملهم بما يرون في إسرائيل، فهذا ليس دافعاً كافياً لاعتناق دين أعدائها. كما أنه وإن صح، لا ينطبق على كثير من يهود أوروبا وأمريكا، كالداعية الإسلامي النمساوي الشهير "محمد أسد" مثلاً، الذي كان يحمل اسم "ليوبولد فايس" عندما كان يدين باليهودية. وقد ترجم معاني القرآن وكتاب لأشهر أقوال محمد المأثورة<sup>(١)</sup> إلى الإنجليزية، وقد توفي دون أن يرى دولة إسرائيل، أو يشعر بخيبة أمله فيها.

- هذا محير فعلاً.

- والآن جاء دورك.

- لأسلم؟ وهل جننت مثلهم.

قال أبراهام متابعاً تقليدها في تلاعبها المضحك بالألفاظ، إلا أن دعابته تلك لم

ترق لها، فرمقته بنظرة متشككة، ثم قالت ببرود:

- ها. ها. ها. بل دورك في التحدث عن نفسك.

ظهر الحرج على وجه أبراهام، وقال متهرباً:

- لا. ليس قبل أن تكمل قصة حياتك، فيبدو أنها لا تخلو من الإثارة.

- لا شيء يدعو إلى الإثارة فيها، فقد أنهيت دراسة الفلسفة في جامعة "جورج

(١) نقصد صحيح البخاري.

تاون"، ثم درست خمس سنوات أخرى في "مدرسة سنسناتي"<sup>(١)</sup>، وصعدت إلى هنا<sup>(٢)</sup> فور انتهاء دراستي قبل عامين. وأعمل حالياً في "مركز العمل الديني"<sup>(٣)</sup>، وعضو في "مجلس الحاخامات التقدميين".

- أنتِ حاخام؟!!!

قال أبراهام وقد فغر فاه من الدهشة، فأجابت هافا ضاحكة:

- مفاجأة. أليس كذلك؟

- في الحقيقة نعم، ولأكثر من سبب. لكن هل تعلم أمك بهذا؟ أعني، ألم يفقدها ذلك الأمل بدعوتك إلى الإسلام؟

- إطلاقاً؛ فكثيراً ما تكتب إلي عن بعض الحاخامات ممن هم أكبر مني سناً، وأكثر علماً وأشد تديناً، ولم يمنعهم هذا من اعتناق الإسلام، بل تعتقد جازمة أن كل ذلك قد ساعدهم على الاقتراب من الحقيقة، متمنية لي المصير نفسه.

- حاخامات مثل من؟!؟

- هم كثر: أحدهم كان الحاخام الأكبر في داغستان، وقد أثار إسلامه سنة ٢٠٠٢ أزمة كبيرة في صفوف اليهود في تلك الجمهورية الإسلامية الروسية: ليس فقط لأنه ثاني حاخام يشهر إسلامه هناك، ولكن لأنهم وجدوا أنفسهم فجأة يهوداً بدون حاخام أكبر. وهناك حاخام إسرائيلي هاجر من أمريكا، وهو المفضل عند أمي وتكن له احتراماً شديداً، وكلما حجبا موقعه على الإنترنت لنشر الإسلام بين اليهود، غير "السيرفر" (المخدم)، أو "النطاق"<sup>(٤)</sup> لتسارع أمي فوراً بإرسال عنوان موقعه الجديد إلي، حتى أصابني الملل منه ومن كثرة ملاحظته.

(١) مدرسة سنسناتي هي كلية يهودية إصلاحية في نيويورك.

(٢) حين يتكلم اليهود عن الذهاب إلى الكيان الصهيوني فإنهم يستخدمون لفظ الصعود، وحين يتكلمون عن مغادرتها فإنهم يستخدمون لفظ النزول، وكأن كيانهم يتربع على قمة الأرض، وبقية دول العالم أسفلها.

(٣) وهو ذراع الدعم القانوني والشعبي لحركة الإصلاح في الكيان الصهيوني.

(٤) اللاحقة مثل .com كوم أو .org أورغ أو .net نت.

- يبدو أننا قد اقتربنا فعلاً من الأيام الأخيرة للعالم: فما الذي يدفع كل هؤلاء إلى اعتناق دين همجي كالإسلام، بعد العلم الذي وصلوا إليه؟  
 تنهد أبراهام متحسراً، ثم ما لبث أن سأل مستفسراً:  
 - وماذا عن المسيحيين؟ هل يقبلون على الإسلام أيضاً هذه الأيام؟  
 - هو هو هووو. أكثر من اليهود بمراحل: فعدد المعتنقين الجدد للإسلام في أمريكا مثلاً، كان يناهز الخمسة والعشرين ألفاً سنوياً<sup>(١)</sup>، وبعد أحداث ١١ أيلول/سبتمبر تسارعت الوتيرة بشكل أكبر، لدرجة أن أصبحت ثلاث طبعات من القرآن على قائمة أكثر الكتب مبيعاً في موقع "أمازون"<sup>(٢)</sup>، وقررت "جامعة نورث كارولينا" إلزام الطلاب الجدد بقراءة كتاب عن القرآن. ومع أن هذا القرار أسفر عن رفع دعوى قانونية، إلا أنها باءت بالفشل؛ فقد دافعت رئيسة الاتحاد الطلابي للجامعة "جينفر دوم" البالغة من العمر ٢١ عاماً، عن القرار قائلة: "شعوري هو إذا كنت غير مستعد لقراءة أفكار ليست أفكارك، وقد تختلف معها، فإنك لا تنتمي إلى مؤسسة للتعليم العالي".

(١) ذكرت صحيفة نيويورك تايمز في تقرير لها للكاتب "جودي ويلجورين" أن الإسلام يعد أسرع الديانات انتشاراً في الولايات المتحدة. كما جاء في دراسة أشارت إليها (واشنطن بوست) أن عدد المترددين على المساجد تضاعف تقريباً على مدى السنوات الست الماضية، في حين ارتفع عدد المساجد بنسبة ٢٥٪، فبلغ ١٢٠٠ مسجد موزعة على مختلف أنحاء الأرض الأمريكية. وأن معدلات اعتناق غير المسلمين للإسلام في أمريكا عالية جداً. ففي المتوسط يعتقد ١٦ شخصاً الإسلام في كل مسجد من مساجد الولايات المتحدة خلال العام بتقدير متواضع يبلغ نحو عشرين ألف شخص. واختتمت الصحيفة خبرها أيضاً بأن "المراقبين يصفون الإسلام بأنه أسرع الديانات نمواً في الولايات المتحدة". وبلغ عدد المسلمين حالياً في أمريكا ستة ملايين نسمة حسب تقدير الحكومة الأمريكية الرسمي، وهذا التقدير ثابت عندهم لا ينزحزح منذ سنوات طويلة، كأن المسلمين لا يزدون. والملاحظ أنهم ثبتوه عند نفس تعداد اليهود هناك (٦ ملايين) كأنهم لا يريدون أن يكون المسلمون بأمريكا أكثر عدداً من اليهود. وبالنسبة إلى المنظمات الإسلامية الكبيرة فهي لا تريد لفت الانتباه إلى عدد المسلمين ونسبة تزايدهم الكبيرة، فيقدرون العدد ما بين ٨-١٠ ملايين، ولكن العدد الحقيقي قد يرتفع إلى أكثر من ذلك بكثير.

(٢) أكبر شركة لبيع الكتب على الإنترنت.

وبالمناسبة، فإن المسلمين الجدد يلتزمون بالإسلام بشكل أفضل من المسلمين بالولادة، حسب ما رأيت شخصياً<sup>(١)</sup>.

- هذا منطقي، فلا بد أن أغلبهم من الفقراء والمضطهدين السود، الذين جُبلوا على العبودية.

- هذا ليس دقيقاً، ففي العام الماضي ثارت ضجة سياسية في الولايات المتحدة لدخول أول نائب مسلم في الكونغرس الأمريكي، ورغبته في القسم على القرآن<sup>(٢)</sup>، مما أثار غضب بعض المحافظين، الذين رأوا أن ذلك يهدد التقاليد الأمريكية. ومن المسلمين الجدد في أمريكا مشاهير بقامة الشاعر الكبير "دانيال مور"<sup>(٣)</sup>، و"خالد يحيى" رئيس "قسم الديانات بجامعة تمبل"<sup>(٤)</sup>، ونجم الجاز ذائع الصيت "آحمد جمال"، والمطرب "جيرمان جاكسون" الذي أطلق على نفسه اسم محمد عبد العزيز، واتخذ مدينة دبي مستقراً له، بل وأعلنت صحيفة "ذا صن" البريطانية واسعة الانتشار وذات المصداقية الكبيرة اعتناق أخيه الأكثر شهرة منه "مايكل جاكسون" أيضاً للإسلام، وأنه قام بتغيير اسمه لميكائيل، وأوضحت أنه سُوهِد مرتدياً لباساً إسلامياً واعتمر قبعة صغيرة، وأقسم الولاء للقرآن في احتفال أقيم بمنزل صديق له في لوس أنجلوس،

(١) يشكل المسلمون الجدد في أمريكا أكثر من ٣٠٪ من مرتادي المساجد، وقد اضطر المسلمون إلى الصلاة على جوانب الطرقات خارج المساجد المكتظة في كثير من المدن الأمريكية.

(٢) وهو النائب الأمريكي المسلم "كيث ايليسون" الذي فاز في الانتخابات التشريعية في السابع من كانون الثاني/ يناير من سنة ٢٠٠٦ ليمثل منطقة في ولاية مينيسوتا الشمالية، ثم ما لبث أن انتخب "أندره كارسون" كثنائي نائب مسلم.

(٣) كانت له دواوين عديدة تمثل ثورة في حركة الشعر الأمريكي ومسرحيات تعرض على مسرحه بكاليفورنيا، قبل أن يزور المغرب ويتعرف بأحد الشيوخ هناك (وهو "الشيخ محمد بن الحبيب الفاسي")، ليعود إلى أمريكا مسلماً، ويصبح شاعر الإسلام بالإنجليزية.

(٤) وقد أسلم على يديه مئة شخص بعد مدة وجيزة من إسلامه، وذلك لنشاطه الدعوي المبني على قوة إيمانه بحتمية انتشار الإسلام لإنقاذ البشر حسب تعبيره.

وجاكسون يقيم حالياً في البحرين<sup>(١)</sup>، كما أسلم المصارع العالمي "أحمد جونسون"، ولاعب كرة السلة المشهور "كريس جاكسون"<sup>(٢)</sup>، والسياسي الشهير الدكتور "روبرت كرين"<sup>(٣)</sup>، وكثيرون غيرهم.

- هل أفهم من هذا أن اعتناق الإسلام أصبح ظاهرة عندكم في الولايات المتحدة؟  
- ليس عندنا فحسب؛ فقد أسلم الكثير من المشاهير في مختلف أرجاء العالم، مثل ابن "المهاتما غاندي"<sup>(٤)</sup>، ورئيس جمهورية جامبيا "ديفيد كيربا"، وعالم التشريح التايلندي "تاجاتات تاجسن".

- ماذا عن أوروبا؟

- هناك "جونثان بيرت" ابن جون بيرت (مدير عام هيئة الإذاعة البريطانية "بي بي سي")، و"أحمد دوبسون" (نجل "فرانك دوبسون" وزير الصحة البريطاني في

(١) كتبت هذه الأسطر قبل وفاة نجم البوب الأمريكي الراحل مايكل جاكسون، ولا يزال الغموض يكتنف وفاته المفاجأة التي تسببت حينها في صدمة لمحبيه وعشاقه لتنتقل بعدها الأقاويل والشائعات وتحوم الأسئلة حول سبب وفاته أو بالاحرى مقتله، ولكن أغنية "الكعبة" التي انتشرت لاحقاً بصوت مايكل جاكسون قد تحل نسبياً هذا اللغز المثار حول رحيله؛ فهناك من يعتقد أنه قد قتل بسبب تلك الأغنية التي سجلها مع عازف الإيقاع الأمريكي المسلم "عمر يانجي" قبل ستة أيام من وفاته، وقيل أنها كانت من ضمن المفاجآت التي كان سيفجرها جاكسون لجماهيره خلال سلسلة الحفلات الأخيرة في حياته "التغريدة الأخيرة" التي تعاقد على إحياها في إنجلترا وعدد من الدول الأخرى، وتحدث الأغنية عن رغبته في زيارة البيت الحرام وشوقه لشرب ماء زمزم، وأن الإسلام يسري في عروقه وأنه ازداد أيماناً بعد الابتلاءات التي أصيب بها، متمنياً في النهاية أن يصبح الجميع مسلمين. جدير بالذكر أن مكتب الطبيب الشرعي في لوس أنجلوس قد أكد أن جاكسون لم يمت طبيعياً إنما مات مقتولاً نتيجة جرعة زائدة من المخدر القوي "البروبوفول" والمهدئ "لورازيبام" مع خلط من مسكنات ومهدئات أخرى عثر عليها في جسده، وتم اتهام طبيب القلب الخاص به "كونراد موراي" الذي اعترف بإعطائها للمطرب الراحل لمساعدته على النوم!

(٢) صار اسمه محمود عبد الرؤوف.

(٣) حائز على دكتوراه في القانون الدولي والمقارن، ورئيس جمعية هارفارد للقانون الدولي، وكان مستشار الرئيس الأمريكي نيكسون للشؤون الخارجية، ونائب مدير مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض سابقاً، ومؤسس جمعية المحامين المسلمين الأمريكيين.

(٤) واسمه "هيرالدي" الذي بحث كثيراً قبل أن يقرأ القرآن، فقرر إشهار إسلامه عندئذ.

حكومة "توني بلير")، و"كليمون توريز" حفيد "موريس توريز" مؤسس الحزب الشيوعي الفرنسي<sup>(١)</sup>، و"آشوك كولن يانج" أمين عام "مجلس الكنائس العالمي لوسط وشرق إفريقيا"<sup>(٢)</sup>، و"السير تشارلز إدوارد أرشيبولد واتكنز هاملتون"<sup>(٣)</sup>، واللورد "هدلي" سليل الأسرة المالكة في بريطانيا<sup>(٤)</sup>، والمحامي الإيطالي الشهير "روزاريو باسكوني"<sup>(٥)</sup>، والسفير الألماني بالجزائر "مراد هوفمان"<sup>(٦)</sup>، والكاتبة الأرستقراطية "فلانتين دي سان بوان"، والمغنية الألمانية ومقدمة البرامج في قناة إم تي في (MTV) "كريستيان"، والصحافية البريطانية "إيفون ريديلي"، التي ظلت وسائل الإعلام تتناقل اسمها طويلاً<sup>(٧)</sup>، وعارضة الأزياء الفرنسية "فاييان"<sup>(٨)</sup>، وعارضة الأزياء اليونانية "ماكلين

(١) أصبح اسمه عبد الرحمن توريز وأسلمت أخته كاترين أيضاً، وصار اسمها لطيفة.

(٢) وقد كشف بعد إسلامه عن أساليب المجلس في التنصير بشكل موثق.

(٣) أصبح يسمى "السير عبدالله أرشيبولد هاملتون". وقد كان بريطانياً مرموقاً ومن رجال الدولة، نال البارونية من درجات مختلفة، كما كان رئيساً لجمعية المحافظين في "سلزي". ومن أقواله: "إنه في الوقت الذي يحدد الإسلام للبشرية كل تصرفاتها في مسيرتها اليومية مدى الحياة، فإن ما يسمى اليوم بالمسيحية تعلم أتباعها نظرياً بطريق غير مباشر، وعملياً بممارسة تعاليمها، أن يصلوا لله أيام الأحاد، وأن يفتكوا بمخلوقاته باقي أيام الأسبوع".

(٤) من أغنى البريطانيين وأرفعهم حساباً ونسباً. درس الهندسة في كامبردج، ثم أسلم وأصدر مجلة (The Islamic Renew). كما أصدر كتاب (إيقاظ العرب للإسلام)، وكتاب (رجل غربي يصحو فيعتنق الإسلام)، وقد كان لإسلامه صدىً مدوّ في إنكلترا.

(٥) كان صاحب أشهر قضايا الدفاع عن المتهمين الأثرياء وقضايا الفساد في السلطة في إيطاليا، ثم أصبح داعية إسلامياً يلقب باسم "عبد الرحمن" في إقليم لمبارديا شمال إيطاليا.

(٦) وقد أسلم في أوائل التسعينيات، وألف عدة كتب، أهمها "يوميات ألماني مسلم"، و"الإسلام كبديل".

(٧) تعرفت بالإسلام لأول مرة في حياتها في سجون طالبان، قبل اندلاع الحرب الأمريكية على أفغانستان، وارتدت الحجاب، وصارت تهتم بشؤون الجالية المسلمة في بريطانيا.

(٨) تطوعت بالذهاب إلى أفغانستان لرعاية الأسر التي تعاني من دمار الحروب، وأحبت الحياة معهم، واقتنعت بالإسلام ديناً ودستوراً للحياة من خلال معاشتها له، حسب تعبيرها، فتركت كل شيء في سبيله، وعاشت مع أسرة مسلمة تتعلم القرآن. وقد تعرضت لإغراءات كثيرة من دور الأزياء للعودة إلى العمل بعد مضاعفة أجرها ثلاث مرات. ولكن بعد رفضها الحاسم، قاموا بنشر أغلفة المجلات التي كانت تصدرها صورها السابقة كعارضة أزياء، وعلقوها في الطرقات للوقوع بينها وبين أهلها الجدد، ولكن خاب ظنهم والحمد لله.



سيكاروسو"، ولاعب كرة القدم الفرنسي "نيكولاس أنيلكا"، وبطل السنوكر العالمي السابق "روني أوسوليفان"، والسفير الإيطالي "توركوأتو كارديلي" (١).

فقاطعها أبراهام متأففاً:

-يكفي، فيبدو أن هذا هو قرن الشيطان فعلاً.

-لم يبدأ هذا الأمر في قرننا هذا؛ فالرسام الفرنسي الشهير "إيتان رينيه" (٢) يعد من أشهر من اعتنقوا الإسلام في بدايات القرن العشرين، ويفوقه شهرة مطرب البوب الإنجليزي الذائع الصيت "كات ستيفنز" (٣) الذي كان أسطورة الغناء في أوائل السبعينيات من القرن الماضي.

- هما قرنا الشيطان إذن.

- ليس الأمر أمر قرن أو قرنين، فالأمر كان هكذا دائماً، وإلا فكيف تفسر استمرار انتشار ذلك الدين الصحراوي في جميع أرجاء العالم، على الرغم من ضعف الدول الإسلامية وانعدام الإغراءات!!! بل إن هناك شعوباً قهرها المسلمون، واحتلوا أراضيهم، ثم دخلوا الإسلام طائعين كالمغول مثلاً. وهناك إثباتات جديدة لا تقبل الجدل، تفيد بأن "الإمبراطور نابليون بوناپرت" نفسه قد أسلم قبل وفاته.

(١) ذكرت "لو فيجارو" الفرنسية عام ٢٠٠٨ أن ثلث سكان "بروكسل" حالياً مسلمون، وأن الإسلام سيصبح الديانة رقم واحد في بلجيكا خلال عشرين عاماً، بل إن جريدة "لالبير بلجيك" البلجيكية خفضت ذلك التاريخ إلى ١٥ عاماً، وهي المدة التي يتوقع أن يصبح المسلمون الروس خلالها رُبع السكان حالياً ١٥٪. ويشكل المسلمون خمس سكان موسكو).

(٢) اعتنق الإسلام في الجزائر عام ١٩١٣م، ومن أقواله الشهيرة: إن أوروبا قد تستطيع أن تحكم إفريقيا بالبارود، إلا أن الإسلام هو الذي حكم الروح!، وقال أيضاً: إن الإسلام أثبت حتى الآن استحالة اختراقه، فهل عرف الغرب سر وجود هذا الدين وعظمته؟ وقد دفن بالجزائر، وله مسجد يسمى "جامع ناصر الدين رينيه" وهو الاسم الذي اختاره لنفسه بعد إسلامه.

(٣) مر بأزمة صحية جعلته يراجع تاريخه الإنساني ويطلع على نسخة مترجمة من معاني القرآن الكريم، قدمها له أخوه كهدي، فعكف على قراءتها واستمر في رحلة بحث عن الحقيقة حتى هداه الله إلى الإسلام، وغير اسمه إلى "يوسف إسلام" ورفض العمل تماماً في مجال الموسيقى، حتى إنه باع جميع آلاته الموسيقية.

- ما هذا الهراء!!! فعندما دخل نابليون فلسطين سنة ١٧٩٩م أعلن من هناك نداء إلى كل يهود العالم كي يأتوا لإقامة وطن قومي لهم<sup>(١)</sup>.
- لقد كان نابليون في ذلك الوقت لا يزال بروتستانتياً، ولم يسلم بعد.
- ولم يسلم في حياته ألبتة. فقط ادعى ذلك لتحقيق أهداف معينة في مصر، وخطبته العصماء التي وجهها إلى الشعب المصري بلسان عربي مبين تعلوها البسملة، لم تكن إلا ضمن ذلك الإطار الدعائي ليس إلا.
- هذا هو المشهور، لكن الكاتب الفرنسي "كريستيان شيرفيس" أثبت في كتابه "بونابرت والإسلام": "أنه بخلاف الرأي القائل بأن نابليون أعلن اعتناقه للإسلام كمناوره سياسية في أثناء وجوده في مصر، فقد اعترف بشهادة الإسلام في أثناء انهياره التام في منفاه، ولم يكن في حاجة لقول ذلك"<sup>(٢)</sup>.
- هذا غريب فعلاً.
- هذا ليس كل شيء.
- وماذا أيضاً؟
- الأديب الألماني الأكثر شهرة في العالم "يوهانس فولفغانغ غوته" كتب عن الإسلام ما يرجح كونه قد اعتنق الإسلام فعلاً<sup>(٣)</sup>، كما أن هناك احتمالاً قوياً بأن الأديب
- 
- (١) فشلت محاولته تلك لأن الخلافة العثمانية نجحت بإخراجه من فلسطين.
- (٢) كتب بونابرت في مذكراته في جزيرة سانت هيلانة بعض المقاطع التي تظهر إيمانه الحقيقي بالإسلام أوضحها نصاً قال فيه: "أنا نفسي مسلم موحد لله وأؤمن بالرسول محمد عليه الصلاة والسلام. وأتمنى ألا يتأخر الوقت لكي أتمكن من توحيد الحكماء العارفين في بلادي، وأن أقيم نظاماً متسقاً يقوم على مبادئ القرآن. فهو الوحيد القادر على إسعاد البشر". وربما كان ذلك أحد أسباب قتله، فقد اكتشفت مؤخراً مادة "السيانيد" السامة في تحليل لشعره المحفوظ، مما رجح نظرية اغتياله.
- (٣) "بعد نحو ١٧٧ عاماً على وفاة "جوته"، ما زال الجدل مستمراً، والخلاف محتملاً حول علاقة جوته بالإسلام، وهل كان جوته مسلماً؟. سؤال ظل محيراً شاغلاً لبال الكثيرين؟ سؤال يستند إلى هذا الشغف والتعاطف والاحترام الكبير الذي أكنه "جوته" للإسلام وشريعته، والقرآن الكريم وبلغته، وتماويه مع لغته الأسرة، واحترامه للرسول "محمد" ﷺ وهدايته، وللعربية وآدابها، وإيمانه بوظيفته التاريخية=

العملاق "ليو تولستوي"، أشهر أدباء وطنك على الإطلاق، قد اعتنق الإسلام أيضاً<sup>(١)</sup>.

- من قال ذلك؟

- أديبة روسية أسلمت، وترجمت القرآن، تدعى "فالاريا بروهوفاً". وبالمناسبة فإن ترجمتها تعتبر الترجمة الرسمية المعتمدة له في اللغة الروسية. وبالنسبة إلى مشاهير

= كحلقة وصل بين الشرق والغرب. كما يستند إلى "سلوكيات" هذا الشاعر الكبير مثل: صيامه رمضان مع المسلمين، وتردده على أحد المساجد للصلاة فيه، كما شوهد يصلي مع بعض الجنود الروس المسلمين، وحفظه لآيات عديدة من القرآن الكريم، وعقده جلسات في أحد قصور الأمراء لتلاوة القرآن، واعتكافه في العشر الأواخر من رمضان، وعزمه وهو في سن السبعين على الاحتفال بتلك الليلة المقدسة التي نزل فيها القرآن الكريم (ليلة القدر)، وتقبله التهنئة في الأعياد الإسلامية، ورفضه فكرة الصلب المسيحية، حتى إنه نطق مرتين بالشهادتين في كتاباته، إلى جانب آلاف الصفحات التي كتبها ممجداً ومادحاً النبي محمداً ﷺ. وبينما ينسب المسلمون الألمان "جوته" إليهم، حتى إن جماعة تطلق على نفسها "جماعة فاير" نسبة إلى مدينة "فاير" الألمانية أطلقت على "جوته" اسم "محمد" تيمناً باسم رسول الإسلام ﷺ، تنشط بالمقابل مؤسسات وشخصيات ثقافية ألمانية لنفي هذا النسب عنه، والتشكيك به، ويرون أن هذا النسب هو ضرب من المبالغة. فعلى الرغم من تلك المواقف، وهذه السلوكيات والإشارات من الشاعر الكبير، والتي تؤكد "كاتارينا مومزن" في دراساتها عنه، إلا أنها تقول: "إن إعجاب جوته بالإسلام لا يعني بالضرورة أنه اعتنقه، وتنفي - شأنها شأن آخرين كالمستشرقة الألمانية أنا ماري شمایل - أن يكون قد تحول إليه"، وتنتهي إلى القول: "إن الإجابة عن هذا السؤال: هل كان جوته مسلماً؟ ليست أمراً سهلاً يمكن الإجابة عنه بنعم أو لا". ينصح بقراءة المقال كاملاً وهو بعنوان غوته... والإسلام. أ.د. / ناصر أحمد سنه. كاتب وأكاديمي من مصر.

<http://www.quran-m.com/firas/arabic/?page=show-det&id=2014&select-page=14>

(١) من أقوال الأديب الروسي الشهير ليو تولستوي (١٨٢٨ - ١٩١٠م): "أنا واحد من المبهورين بالنبي محمد (ﷺ) الذي اختاره الله الواحد لتكون آخر الرسالات على يديه، وليكون هو أيضاً آخر الأنبياء". وفي السنوات الأخيرة من حياته كان تولستوي دائم التفكير والتأمل في معنى الحياة، باحثاً عن الطرق الموصلة إلى الله، وكان دائم الاعتراض على العديد من العقائد المسيحية، ولاسيما عقيدة التثليث؛ لأنه عدها عقيدة تصادم المنطق. وحدث أنه عثر على كتاب للعالم الهندي "عبد الله السهروردي" جمع فيه مختارات من أحاديث الرسول تحت عنوان (أحاديث الرسول محمد ﷺ) وقد أعجب تولستوي بهذه الأحاديث وبصاحبها إعجاباً شديداً لدرجة أنه اختار بعض هذه الأحاديث وجمعها في رسالة صغيرة نشرها عام ١٩٠٩م باللغة الروسية في دار نشر "بوسريندك".

الروس أيضاً هناك الأستاذة الجامعية الدكتورة "آلا أولينيكوفا"، والعميل الروسي المنشق عن جهاز الاستخبارات "KGB" "ألكسندر ليتفينينكو" والذي توفي مؤخراً في العاصمة البريطانية لندن إثر تسممه الغامض بمادة "بولونيوم ٢١٠" المشعة. وقد أوصى بدفنه حسب الشريعة الإسلامية معلناً إسلامه وهو على فراش الموت. وهناك أيضاً...

- هذا يكفي أرجوك.

قاطعها أبراهام مجدداً، ثم أخذ شهيقاً عميقاً، أتبعه بزفرة طويلة وأردف قائلاً  
-كمن قرر أن يقوم بأمر حاول جاهداً الامتناع عنه:-

- ما رأيك بمشروب أقوى قليلاً من هذا النبيذ؛ "فودكا" مثلاً؟

- بكل سرور مع أنني لم أكن أتوقع ذلك منك أنت بالذات<sup>(١)</sup>.

- ولا أنا كنت أتوقع ذلك من نفسي، ولكن يبدو أن اليوم هو يوم المفاجآت كما هو يوم الأخبار غير المنتظرة.

(١) قداسة فعل تناول الخمر في الدين اليهودي وبالذات عند الأرثوذكس المتدينين تضع قيوداً من أجل تجنب العواقب السلبية المحتملة، والحفاظ على قدسية كيانه.

## موت الشعب اليهودي

أزالت الفودكا بقية الحواجز التي كانت تقف بين أبراهام وصديقه الجديدة. فروى لها قصة حياته، مجيباً عن أسئلتها كافة، ثم أخذ يحدثها بأريحية تامة، حتى تطور الأمر أخيراً إلى مغازلتها بشيء من المجون. وترددت أصداء ضحكاتها في أرجاء المطعم غير مرة، مما جعل رواده ينظرون إليهما بنوع من الاستهتار. كان أبراهام غارقاً في نشوته في التحرر من القيود التي كبل نفسه بها سابقاً، فلم يتببه لنظرات الحاضرين، أما هافا فقد كانت تختلس النظر إليهم بلا مبالاة متناهية. وفي إحدى نوبات ضحكها، تصنعت الجدية للحظة وهي تقول:

- ماذا سيظن هؤلاء لو عرفوا أننا حاخامين؟

ثم عادت إلى نوبة الضحك ثانية بضجيج أكبر، إلا أن ذلك التعليق الذي قصدت به المزاح، أعاد أبراهام إلى أرض الواقع، فأبعد قح الفودكا عنه برزانة، دون أن يجرؤ على النظر حوله، واعتدل في جلسته، محاولاً تصنع الوقار، مما حدا بها إلى الاقتداء به، وهي تعض على شفيتها من الندم على ما تفوهت به.

خيم عليهما صمت قصير إلى أن قطعه أبراهام محاولاً العودة إلى الجدية:

- نحن فعلاً في تناقص مروع<sup>(١)</sup>، فما السبب يا ترى؟

(١) إن عدد اليهود في العالم يتراجع بالمجمل، فحسب "الكتاب السنوي الأمريكي اليهودي" (طبعة سنة ١٩٩٤) يقدر عدد السكان اليهود في العالم، طبقاً لإحصاءات سنة ١٩٩٢، بنحو ١٢، ٩١٣، ٨٠٠، وهو يقل قليلاً عن عددهم في سنة ١٩٨٢، ١٢، ٩٨٨، ٦٠٠، أو سنة ١٩٨٤، ١٢، ٩٦٣، ٣٠٠. وقد تراجع عن عددهم سنة ١٩٦٧، إذ كان ١٣، ٨٣٧، ٥٠٠، أي إن عدد اليهود نقص بنحو مليون شخص في فترة ١٩٦٧-١٩٨٢ (بنسبة قدرها ٦٪ تقريباً)، وفي عام ٢٠٠٦ وصل عددهم إلى ١٣، ١٥٠ مليوناً، ولكن في عام ٢٠٠٧ تراجع عددهم عشرين ألفاً.

- تعني ما يسميه البعض بـ"ظاهرة موت الشعب اليهودي"<sup>(١)</sup>؟ هناك أسباب كثيرة لهذه الظاهرة: كالمذابح، وحملات التصير الإجبارية، والتأثر الطوعي بالأديان الأخرى، وانخفاض نسبة المواليد اليهود<sup>(٢)</sup>.

- أعرف أن اليهود تعرضوا لمذابح كثيرة من قبل المسيحيين وغيرهم على مر التاريخ و...

فقاطعته هافا، مضيضةً:

- ومن قبل اليهود أنفسهم.

- عفواً؟!

تساءل أبراهام بدهشة، فردت هافا محاولةً أن تتفوق عليه بجديته:

- ليس من العدل أن نرمي كل مشاكلنا على الآخرين بدون وجه حق، فالتاريخ اليهودي حافل بالعديد من الحروب الأهلية الدينية أو التمردات المصحوبة بحروب تطهيرية ارتكبت فيها جرائم اغتيال مروعة، بل إن هناك في التراث اليهودي الديني فرقة يطلق عليها اسم "السيكاريكين"، وأعضاء تلك الفرقة كانوا على استعداد لتنفيذ عمليات إرهابية ضد الغويم، وضد اليهود أنفسهم لو كان ذلك في مصلحة اليهودية من وجهة نظرهم. والمتابع للتاريخ الفكري اليهودي سيلاحظ الصلة بين اضطهاد اليهود جميعاً لليهودي الذي يخرج عن إجماعهم، وبين قيام الأصولي "يجال عامير" باغتيال "إسحاق رابين". بل إن وسائل الإعلام الإسرائيلية تقوم دورياً بنشر العديد من

(١) "ظاهرة موت الشعب اليهودي" هو اصطلاح أطلقه عالم الاجتماع الفرنسي اليهودي جورج فريدمان .

(٢) تعد نسبة المواليد اليهود بشكل عام من أدنى النسب في العالم، إذ إن معدلها السنوي هو ١٦ لكل ألف، وهو مقارب لنسبة الوفيات . والمرأة اليهودية في الكيان الصهيوني تنجب ما معدله ٨, ٢ من الأطفال . أما في الولايات المتحدة فتنجب ما معدله ٥, ١ طفل، وتضم هاتان الدولتان أكبر تجمعين سكانيين لليهود في العالم (خمسة ملايين و ٨٠٠ ألف في الولايات المتحدة، وأربعة ملايين و ٨٤٧ ألفاً في الكيان الصهيوني)، أي نحو ٩, ٨١٪ من يهود العالم .

المقالات التي كتبها باحثون بارزون، وتكشف عن ترحيب الشارع اليهودي بالعنف إذا رأى أنه لمصلحة استمرار اليهودية كدين أوجد في العالم كله.

- ليس هذا موضوعنا .

علق أبراهام متمللاً، فردت هافا بإصرار:

- بل هذا الذي ينبغي أن يكون موضوعنا . فالدكتور "رامي روزين" يقول<sup>(١)</sup>: "كان من المعتاد في بعض الدوائر الحسيدية حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر قتل اليهود ذوي الميول الإصلاحية حتى لو كانوا قليلي العدد، وتبين مراجعة الحقائق الأساسية للتاريخ اليهودي للألف وخمس مئة عام الأخيرة، أن الصورة مختلفة عما كنا نعرفه في السابق؛ فهي تحتوي على مذابح للمسلمين والمسيحيين بواسطة اليهود، وتكرار ساخر لما يعرفونه باسم "صلب المسيح" عادة في عيد "البوريم"، وتصفيات للوشاة تمت غالباً لأسباب دينية بواسطة المحاكم السرية الحاخامية، التي كانت تصدر الأحكام وتعين منفذيها السريين. وقد أثر كل ذلك على الشخصية اليهودية وأفكارها حتى اليوم. وهكذا تثبت الأحداث المتلاحقة أن الأصولية إن استلمت مقاليد الحكم في إسرائيل فإنها سوف تتسبب في مذابح ومجازر لا نهاية لها، فهم شعب مقدس، وكل يهودي منهم هو مشيخ يمشي على الأرض. هكذا يؤمنون ويكرسون لكل ما يؤمنون به بالقوة والسيطرة.

أنصت أبراهام بملل إلى صديقه الجديدة، فعلى الرغم من تشدقها بنزعتها الإنسانية الشمولية التحررية، لم تفوت - كأي يهودي عادي - فرصة للتذمر والشكوى من الإضطهاد وإشعار الآخرين بالذنب تجاهها. وبما أن كلاهما يهوديان ولا يوجد بينهما أغيار، فيبدو أنها تعد العدة لتحويل مسار الحديث نحو اضطهاد طائفته لطائفتها، فقال قاطعاً الطريق عليها:

(١) رامي روزين هو باحث مختص بالشؤون اليهودية . والمقال نشر في صحيفة "هاآرتس" ١٥ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩٦ م .





- ولهذا فإن "المينوت"<sup>(١)</sup> تحديداً هو ما عنيته عندما تكلمت على انخفاض عددنا أو ما تسمينه بظاهرة موت الشعب اليهودي. فحملات التصير الإجبارية لم يعد لها وجود في العصر الحالي، وكذلك المذابح، وحتى "المحرقة النازية" يحوم حولها الشك<sup>(٢)</sup>، والكثير من المبالغة والتحويل، كما أن انخفاض نسبة المواليد اليهود هو بين العلمانيين فقط، في حين أنها في أعلى المعدلات العالمية بين المتدينين؛ وكثيراً ما تصل هذه النسبة إلى عشرة أطفال في الأسرة الواحدة.

- بالمناسبة، لقد قرأت أدبياتكم في ناظوري كارتا بشأن المحرقة.

ثم نظرت حولها بريبة، وتابعت قائلة:

- وإذ نحن وحدنا الآن، ونتكلم بصراحة، فأعترف لك بأنني أوافقكم الرأي تماماً في هذه النقطة بالذات، بل أذهب معكم إلى أقصى مدى في تأكيد زيف أغلب ما أُشيع حولها. أما بالنسبة إلى تناقص اليهود بسبب اعتناق دين آخر، فهو أمر يثير قلقي أنا أيضاً، خاصة عندما أتذكر أمي.

- ليس القلق هو ما يشغلني. وإنما محاولة معرفة السبب. لماذا!!!

(١) يعني "الارتداد" وهو مصطلح يطلقه اليهود على من كفر بدينه ليتبع ديناً آخر.  
 (٢) أول من جاهر بتفنيد مزاعم المحرقة علمياً كان الأستاذ "روبير فيرسون" من جامعة ليون، فقد مكث عشرين سنة في البحث والتدقيق، قام خلالها بعدة تنقلات ميدانية لمعسكرات الاعتقال النازية، ثم نشر ذلك في كتاب قال فيه: "لم أر إلا فرناً واحداً لا يتسع إلا للجنة واحدة، كانت تحرق فيه الجثث المصابة بمرض التفويد لثلا ينتشر هذا المرض بين الناس". ثم أضاف قائلاً: "إن الذي دفع ثمن هذه الكذبة الكبيرة هي ألمانيا التي دفعت المليارات من الدولارات لليهود ولدولة إسرائيل المصطنعة من أموالها وعلى حساب اقتصادها الذي كان منهكاً بعد الحرب العالمية الثانية، أو بصورة أدق بعد هزيمتها. ودفع الشعب العربي الفلسطيني ثمناً غالياً، دفع وطنه بعد غزو اليهود لفلسطين وبناء دولة إسرائيلية على أنقاض هذه الكذبة الكبيرة البشعة بالتنسيق مع الغرب الأوربي وأمريكا". وبعد نشر ذلك الكتاب طرد من جامعته، ثم قدم للمحاكمة في إحدى محاكم باريس، وانبرت إذاعة أوروبا (رقم واحد) لإذاعة محاكمته والشهير به على مستوى العالم كله. وبعد البروفيسور فيرسون جاء كثير من العلماء الكيميائيين والمؤرخين الذين أثبتوا كلامه بشكل أكثر دقة، ولكنهم دفعوا الثمن نفسه الذي دفعه.

- بالنسبة إلى أمي كان الحب هو السبب الأولي في ارتدادها .
- ولكنك قلتِ بنفسك أن علاقتها بالإسلام لم تعد مرتبطة بإرضاء زوجها، وأنها أصبحت مخلصه لدينها الجديد! إذن فلم يكن للحب في حالتها دور أكثر من المدخل، تماماً كحالة "جميما جولد سميث" ابنة الثري البريطاني اليهودي الشهير، التي زهدت بكل شيء لتعلن إسلامها وتتزوج من النجم الباكستاني في "الكريكت" "عمران خان".
- هذا صحيح.
- فما الذي دفع بهاتين السيدتين إلى اعتناق الإسلام مع عدم ممانعة دين زوجيهما من الاقتران بيهودية؟! وما الذي دفع بذلك الحاخام الإسرائيلي - الذي تلح عليك أمك بزيارة موقعة في الإنترنت - إلى اعتناق الدين نفسه!!!
- لا أدري. ولكن، وكما كتبت في موقعه، بدأ الأمر بعد ما هاجر من أمريكا إلى إسرائيل؛ فعندما توجه إلى الجدار الغربي ليصلي، سمع من الطرف الآخر صوت الأذان، فطرب له وأعجبه كثيراً، حتى إنه وقع في قلبه، وفي أحد الأيام لفت انتباهه شاب من "دولة الإمارات العربية" كان يتحدث عن اليهود بقسوة في غرفة من غرف الدردشة في الإنترنت، فبدأ يتحدث معه عن الله، وصفاته، وأسمائه، وماذا يعطي ويمنح، وفي اليوم التالي ذهب واشترى القرآن فتأثر به لدرجة أن أحبه، ولم يعد يريد تركه.
- إلى أية طائفة كان ينتمي قبل إسلامه.
- كان في أمريكا متصوفاً حسيدياً من طائفة "الساتمريم"<sup>(١)</sup>، ثم انضم إلى حركة "شاس"<sup>(٢)</sup> بعد وصوله إلى إسرائيل.
- هل غيّر اسمه بعد إسلامه؟

(١) الساتمريم هم من أكبر الجماعات المسيحية في العالم، مقرهم الرئيسي في "فلسبورغ"، ويبلغ عددهم نحو ربع مليون شخص، لكنهم قليلون في الكيان بسبب معاداتهم لفكرة الصهيونية .

(٢) شاس هو الحزب الذي يمثل السفارديم في الكيان الصهيوني .

- اسم عائلته فقط. فاسمه الأول هو يوسف، والمسلمون يسمونه أيضاً تيمناً بالنبي يوسف الذي يؤمنون به كباقي الأنبياء الإسرائيليين. لذا تحول من "الحاخام يوسف كوهين" إلى "الشيخ يوسف خطاب" وهو إلى الآن داعية إسلامي نشط.

- "كوهين"؟ هل هو من نسل الكهنة؟؟؟<sup>(١)</sup>

صاح أبراهام كمن تلقى صفعه على وجهه، فردت هافا بلامبالاة:

- هكذا يبدو من اسمه.

- يا للكارثة. كيف يتخلى عن لقبه، بل كيف يرتد مثل هذا عن اليهودية أصلاً؟

والى أي دين!... الإسلام!!!

- أنت نفسك لاوي. وأرى من اهتمامك به، وبالكاشف من قبله أنك بدأت تتفهم ذلك.

قالت ذلك بخبث، محاولة التحقق من صحة شكوك راودتها، إلا أنها اطمأنت بعد ردة فعله الثائرة؛ فقد انتفض كمن تلقى للتو إهانة في الصميم، نافياً حتى مجرد أن تخطر بباله فكرة كهذه. فأخذت تهديء من روعه قائلة:

- رويدك. رويدك. فلم أقصد أي إهانة، ولست غبية لأظن أنك تركت وطنك وجئت

إلى إسرائيل بالذات لتعتنق الإسلام، فلا تحمل كلامي بأكثر من ظاهره.

عاد أبراهام إلى هدوئه وقال موضعاً:

- أنا يهودي مخلص ولا أقبل بغير اليهودية ديناً، ولكن بعد تعمقي بدراسة أصول الدين اصطدمت بكثرة التناقضات التي عجزت طائفتي السابقة عن إعطاء تفسيرات منطقية لها. وعندما حاولت أن أناقشهم، لم أجد منهم إلا آذاناً صماء، وإصراراً على

(١) يحتل الكهنة المركز الأول بالقداسة بين اليهود. ولو كان الهيكل اليهودي اليوم قائماً، لكان كوهين يخدم فيه شهراً في السنة على الأقل، يشرف على نحر الأضاحي، وحرق البخور، والاعتناء بزيت الفوانيس، ويتسلم أوائل الثمار، ويبارك من يأتي لزيارة الهيكل، إلى غير ذلك من الأعمال والطقوس التي تخص بها طائفة الكهنة.

رأيهم، وتحذيراً من مخالفتي له، حتى إنهم هددوني بالطرد من اليهودية إذا استمرت في نقد أو حتى مناقشة أي تفسير يقدمه كبار الرابيين، وهذا ما دفعني إلى اليأس والقنوط، وإعادة النظر باليهودية، وبربها نفسه في إحدى المراحل. ولكنني تأكدت بما لا يدع مجالاً للشك بأن رب إسرائيل حقيقة لا ينكرها إلا جاهل أو مكابر. لذلك عدت إلى البحث عن الحقيقة ضمن دينه، ولكن خارج طائفتي السابقة، وأنا متأكد من أنني سأجدها في نهاية المطاف، حتى إن اضطررت إلى دراسة كل الفرق اليهودية، بل إنني مهياً نفسياً للبحث في احتمال أن يكون يسوع هو مسيح الرب الحقيقي، وأن أجدادنا أخطؤوا في رفضه، ومن ثم ربما تكون الحقيقة عند إحدى طوائف المسيحيين، وإن كنت -مخلصاً- لا أتمنى ذلك مطلقاً. أما أن أرتد عن اليهودية نهائياً، وأعتقد ديناً خارجها تماماً كالإسلام، فذلك هو المحال بعينه. أنا فقط أريد أن أفهم السبب الذي يدفع شخصاً تعمق بدراسة اليهودية إلى الاستعاضة عنها بمثل ذلك الدين المتخلف.

- إن اليهودية الإصلاحية هي عين ما تبحث عنه، فنحن...

رفع أبراهام كفه مغمضاً عينيه بقوة ليمنعها من الاسترسال قائلاً:

- أرجوك هافا، لقد بدأت تعجيبيني فعلاً، وقد صارحتك بمكنون صدري كصديق، لذا فلا تقضي على هذه الصداقة بمهددا، هذا إذا كنت تقبلين بها. أما إذا كان مشروع صداقتنا لا يعينك، وكان سبب تعارفك بي هو لأسباب تبشيرية فقط، فلا تضيعي وقتك أكثر من ذلك، فالدين اليهودي الإصلاحي لم يقنعني، ولن يقنعني أبداً.

- وأنا أيضاً سأتابع معك أسلوبك الصريح نفسه. أنا طبعاً أرحب بصداقتك، ولا أظن أن إعجابي الشخصي بك قد خفي عليك، ولم يكن للتبشير أية علاقة في تعارفي بك منذ البداية، فقد بدأ الأمر بمجرد ما يجذب عادة المرأة إلى الرجل. وأنت الذي استدرجتني، بكثرة أسئلتك، إلى الإسهاب في التحدث عن ديني. لا أنكر طبعاً أن ذلك قد صادف هوى في نفسي، وأنني سعيت بقوة إلى دعوتك إليه، خاصة بعدما لاحظت

تعطشك إلى معرفة الحقيقة، إلا أن ذلك لم يكن عن سابق تخطيط مني؛ فأنا لست معنية بهدايتك إن كنت لا ترغب في ذلك، كما أنني لا أريد أن أخسرك، لذا سأستجيب لرغبتك وأكف تماماً عن دعوتك إلى ديني. ولكن أظن أن لي الحق في معرفة سبب رفضك القاطع له، على الأقل حتى أفهم وجهة نظرك؛ فكثيراً ما ظهر عليك الاقتناع، بعد تفسيري لما استهجنته فيه.

- سيجرنا هذا إلى نقاش لا أرغب في الخوض فيه.  
 - أعدكُ بالأتي على سيرة اليهودية الإصلاحية بعد أن تجيب عن سؤالي. شرط أن تكون إجابتك موضوعية، ودون أي مجاملة أو تحامل بنفس الوقت.  
 - إن كنت تريد الصراحة، فأنا أعتبر دينكم هو أحد مظاهر موت الشعب اليهودي، فلم يبق من يهوديتكم إلا الاسم، وإيضاحاتكم لم تغير شيئاً من نظرتي إلى الأمور التي ساءتني في اليهودية الإصلاحية. ولم يكن الاقتناع هو ما دفعني إلى الصمت، بل الرغبة في الاستماع حتى النهاية، ودون مقاطعة، إلى أحد الإصلاحيين أنفسهم؛ وذلك ليتسنى لي مقارنة ذلك بما قرأته عنكم، بالإضافة إلى عدم رغبتني في الجدال البيزنطي. أما بقية الأسباب، فهي باختصار أنكم تعتقدون أن التوراة أيضاً من صناعة البشر، وأنها تتغير وتتشكل حتى تناسب المجتمع، وأنكم تدعون أنها لم تطالب قط بأن يجتمع الناس على فعل شيء ما، سواء الصلاة أو غير ذلك. كما أنكم لا تؤمنون بجنة ولا بنار، بل "بالحياة الأبدية" عن طريق التقمص<sup>(١)</sup>، بل إن نسبة عالية من حاخاماتكم لا يؤمنون بوجود إله للكون بشكل واضح. وتعتقدون بأن اليهود عليهم واجب أن يؤمنوا بالممارسات اليهودية، ثم يختاروا من بين تلك الممارسات ما يناسب حياتهم. وأن الدين هو ارتباط بالماضي وبالآباء أكثر من كونه خدمة للرب. وقد

(١) يظن الإصلاحيون أن الإنسان يموت مثلاً وقد فعل ٦٠٪ أشياء جيدة، و ٤٠٪ أشياء سيئة، فتحل روحه في شخص آخر يتمتع بـ ٦٠٪ من حياته ويشقى في ٤٠٪ منها. وهكذا دواليك.

فهمت من كلامك أن ما قرأته عنكم لم يكن من باب الجهل، أو التجني عليكم من قبل خصومكم، فأنتم تعتقدون فعلاً بكل تلك الترهات التي تخرجكم من نطاق اليهودية التي أبحث عنها، بأكثر مما تخرج طائفتي السابقة؛ فسعيكم إلى تصحيح تجاوزات المؤسسة الحاخامية، وتطرفها، والتحرر من خرافاتها، قد جرکم إلى تطرف آخر في الجهة المعاكسة، متحررين أيضاً من الكثير من العقائد الصحيحة دون تمييز، وبأبعد من التجاوز الذي قامت حركتكم أصلاً لتصحيحه.

- واو!!! يبدو أنك قد استدرجتني فعلاً، وإلى أبعد مما كنت أظن، فمعلوماتك عنا ليست بالضحلة.

قالت هافا بتأثر، وقد أخذتها المفاجأة بما سمعته، إلا أنها ما لبثت أن تماكنت نفسها مجدداً وقالت محاولة استعادة زمام المبادرة:

- لكن هناك تفسيرات منطقية لكل ذلك...

فقاطعها أبراهام مُذكراً:

- هافا. لقد وعدتني.

- حسناً. كما تريد، ولكن مع أنك تجنيت علينا كثيراً بوصفنا يهوداً بالاسم فقط، إلا أنني أتفق معك بأن مُنظري طائفتنا قد تبادوا فعلاً في تقدُّميتهم، وأننا نحتاج فعلاً إلى بعض الانضباط وكبح اللجام. ولكنني لا أتفق معك مُطلقاً بأن ناطوري كارنا أو حتى الأرثوذكسية بشكل عام هي أقرب منا إلى اليهودية الحقّة. فإذا كنا قد جاوزنا الحق الذي نشده، فبالتأكيد لا نزال أقرب إليه منهم، ورجوعنا بضع خطوات أكثر واقعية من تقدمهم بضعه الأميال حسب مثالك نفسه. وهذا الرأي في تمام داخل الطائفة نفسها، فهم يحاولون في الآونة الأخيرة فعلاً أن يعيدوا النظر بشأن التساهل في بعض المفاهيم والطقوس الدينية.

- يا لخبثك: ألم تعديني بالألا تأتي على ذكر الإصلاحية بعد أن أجب عن سؤالك؟

- أنا لا أذكرها، بل أتحدث عن اتجاه متنامٍ بين صفوفها، يتفق معك في بعض ما ذهب إليه.

- لسوء حظك أن الصوفيين (الحسيديم) لا يُرسمون النساء كحاخامات، وإلا لأهلتك قدرتك على التلاعب بالألفاظ، والالتفاف حول الأمور لأن تكوني حاخاماً ذا شأن كبير بينهم.

- يا لخفة دمك. إللل...

مدت هافا لسانها بحركة صبيانية، كتعبير عن غيظها من تعليقه، ثم أدارت رأسها بغضب مُفتعل إلى جهة النافذة، كأنها لم تعد ترغب بالتحدث معه ثانية، ثم ما لبثت أن اختلست النظر إليه بطرف عينها، لتعود فتتظر مجدداً نحو النافذة، وهي ترمّ شفيتها، وتهز كتفيها، متصنعة عدم الاكتراث. فقهقه أبراهام ضاحكاً من تصرفها الطفولي، ثم ناولها قدحها ورفع قدحه هو الآخر، معلناً نخباً جديداً:

- "لاخايم"<sup>(١)</sup>.

نظرت هافا إليه بتحدٍّ، ثم أحكمت قبضتها على القعر السميك للقدح بشكل يضمن إحداث دوي مرتفع لارتطامه بالطاولة فور الانتهاء منه، وذلك تبعاً لأحد تقاليد شرب الفودكا في روسيا. ففعل أبراهام الشيء ذاته في إشارة لقبول التحدي، ثم نظر نحو عينيها متحفزاً. وما إن دقا الأقداح، حتى أفرغ كل منهما قدحه بجوفه دفعة واحدة، كي يسبق الآخر بضربه على الطاولة. ومع أن هذا التقليد روسي وخاص بالرجال، إلا أن السبق كان من نصيب هافا، وهو ما أزعج أبراهام كثيراً، فملاً القدحين ثانية، ليعيد الكرة. وبعد ثلاث دورات صاحبة من الشرب، لمعت عينا أبراهام كمن اكتشف كنزاً، فقال بخبث:

- هل تعرفين معنى الكلام الذي تفوهت به قبل بضع دقائق؟

(١) كلمة عبرية تعني "بصحتك".

- تقصد عن خفة دمك؟

وأتبعت قولها بضحكة طويلة. فابتسم أبراهام وقال:

- بل عودي بذاكرتك أكثر إلى الورا. فلو كنت محقة في اعتقادك بأنكم في اليهودية الإصلاحية قد جاوزتم الحق قليلاً، وأنكم بحاجة إلى بعض الكبح، فلا داعي إذن لمحاولة التغيير داخل طائفتك، لأنه سيكون إصلاحاً للإصلاح. وربما كانت النتيجة أكثر كارثية.

صمت برهة، ثم قال مسترجعاً الجملة الأخيرة التي تفوه بها، وهو يضحك إعجاباً بطرافة التعبير:

- إصلاح للإصلاح. يا للكارثة!

ثم عاد يضحك مجدداً، مما أزعج هافا هذه المرة، وجعلها تشعر بالحرج، فقالت له وهي تحته على الكف عن الشرب، ومغادرة المطعم:

- يبدو أن الوقت قد حان للرحيل. هيا فقد تقدّست بما فيه الكفاية، وبدأت ملامح السكر تظهر عليك.

- أنا لست سكران. سنذهب ولكن بعد أن أنهي ملاحظتي. كنت أقول أنه لا داعي لمحاولة...

- تستطيع إنهاء تلك الملاحظة بالطريق. هيا قم.

قالت هذا بلهجة أمر، ثم قامت تريد أن تحمله على القيام، فرمقتها بنظرة حادة أحست معها بأن سهام عينيه قد اخترقت جسدها، وأصابته منه مقتلاً، فجلست بذهول كالمخدرة، وعندها مد رأسه نحوها حتى أحست بأنفاسه تصفع وجهها، وقال بهدوء كأنه الشتاء في صقيعه:

- إياك أن تكرري تصرفك هذا معي ثانية، فلم تُخلق بعد المرأة التي توجه لي أمراً.



ثم عاد بجذعه إلى الورا ليرى تأثير كلماته على وجهها، فإذا به قد امتنع بياضاً، كأن لم تعد بعروقه قطرة دم واحدة، واكتست ملامحها بالرعب الشديد، فأحس بأنه ربما قد تجاوز الحد قليلاً، فعاد لملاطفتها قائلاً:

- هل تعلمين أنك أجمل بكثير وأنت وديعة هادئة. إن الأنوثة هي هبة من الرب للنساء، ولا ينبغي لهن التفريط بها لأي سبب من الأسباب.  
تمالكت هافا نفسها، وأحست بأنها قد أخطأت فعلاً في إلقاء أمر بتلك النبرة على أرثوذكسي تربي على النظرة الذكورية الصارمة تجاه المرأة، وفي مجتمع يهودي مغلق.  
فقالت محاولة تغيير الموضوع:

- ماذا عن ملاحظتك، بشأن الاتجاه الجديد بطائفتي؟

- آه، كدت أنسى. لقد قلت بأنك مع بعض أفراد طائفتك، تظنون أنكم قد جاوزتم الحق قليلاً بتماديكم بتقدميتكم، وأنكم بحاجة إلى بعض الكبح والانضباط، وأن ذلك الحق قد صار بينكم وبين الأرثوذكس، مقرباً أكثر إلى جهتكم، لذا قررتم إعادة النظر بشأن التساهل في بعض المفاهيم والطقوس الدينية. لو كنت حقاً تعتقدين ذلك، ولم يكن هذا أحد ألاعيبك، وكان ذلك فعلاً اتجاهاً متامياً داخل طائفتك، فلا حاجة بكم إذن إلى إصلاحها من الداخل.

- وماذا نفعل إذن؟

- تستطيعون بكل بساطة الانتقال إلى "اليهودية المحافظة" (Conservative Judaism)، إنها عين ما ترغبون به تماماً. "المحافظون" يتفقون معكم في أن تاريخ الديانة اليهودية كله كان تاريخ التغيير والتطور، وأن اليهود وديانتهم قد استجابوا دائماً بشكل "إبداعي" للتحديات التاريخية، لكنهم يختلفون مع متطرفيكم حول المدى المسموح به لتحديث الديانة اليهودية، وقد برز ذلك في ثلاث نقاط رئيسة تعتبر



- يبدو أن الفودكا قد فكت عقدة لسانك، وأكسبتك جرأة في المبادرة. حسناً، سأدعوك إلى شقتي شرط أن تعدني بأن تكون مؤدباً.
- رفع أبراهام يده بحركة مسرحية، كأنه يؤدي قسماً:
  - أعدك من حاخام لحاخام.
  - إذن فأنا أسحب كلامي.
  - تقصدين أننا لن نذهب إلى شقتك؟!؟
- بالطبع سنذهب إليها. ولكنني قصدت سحب مطالبتك بالوعد... فلم تعد له حاجة ما دام وعد حاخام لحاخام.

## ◀ الاقتراب من الخطيئة

عادت هافا تقوم بدور المرشد السياحي لأبراهام مرة أخرى، متممة العودة من طريق غير الذي قدما منه لتتيح له فرصة التعرف بأكبر عدد ممكن من معالم القدس، ولكن طريقتها هذه المرة كانت مختلفة بعض الشيء، فقد أمسكت بيده طوال الطريق كأنها تخشى أن يهرب منها، كما أن أسلوبها في الكلام قد اختلف بدوره أيضاً؛ فقد كفت تماماً عن التحدث عن طائفتها، وقللت من مشاكساتها وحركاتها الصبيانية السابقة، محاولة إبراز الجانب الأنثوي منها، مما جعل أبراهام يغوص في دوامة من الأفكار المتناقضة، شغلته عن الإصغاء إلى حديثها، مع أنه تعمد إظهار العكس، مبدياً علامات الإعجاب بتلك المعالم التي تصفها له، دون أن يفوته الابتسام بين الفينة والأخرى لإحدى طرائفها، التي لم يكن ليعي منها شيئاً في ذلك الوقت. فمع أنه كان ينظر إليها كالمتابع لحديثها، إلا أنه كان يتأملها في حقيقة الأمر.

كانت هافا شقراء، متوسطة الطول، متناسقة الأعضاء، وقد زادت السعادة التي ارتسمت على محياها رونقاً وجمالاً، مما جعله يتساءل عما يمكن أن تؤول إليه هذه العلاقة المتسرعة. كما تساءل عن السبب الذي دفعه إلى إغفال أي ذكر عن معرفته بأحمد، مع أنه قد صارحها بكل ما مر به في الفترة الأخيرة. كان يعي أن هافا تسكن في حي أحمد نفسه، وأنها لا بد قد رأته مراراً دون أن يخطر ببالها أنه هو الكاشف الذي تَكُنُّ له الكثير من الإعجاب، فهي تتصوره عجزواً، مع أنه في أواخر الثلاثينات من العمر في أبعد تقدير، كما أنه وسيم أيضاً. ترى أيفار منه حقاً؟! أم أن السبب هو ما يحاول أن يقنع نفسه به من تعهده لها بعدم فتح موضوعه مرة أخرى، بعد الانزعاج الشديد الذي سببه لها بالحاحه في الاستفسار عنه. أو ربما كان السبب رغبته بعدم

الخلط بين مصادر معلوماته، والاحتفاظ بكل منها بشكل مستقل عن الآخر، فبعض ما حاجج به هافا عن دينها كان من مذكرات أحمد. هذا بالإضافة إلى تحرجه من الاعتراف بجلوله ضيفاً على شخص يعتبر - نظرياً على الأقل - عدواً لليهود.

كان الليل قد بدأ يرخي سدوله عند وصولهما إلى الحي، لكنه استطاع تمييز العمارة التي يقيم فيها، وتمنى أن تكون عمارتها هي إحدى تلك العمارات التي تفصلهما عن عمارة أحمد الذي حان موعد عودته من أم الفحم، إلا أن هافا تخطت كل تلك المباني لتتوقف عند عمارته بالذات، ثم فتحت حقيبة يدها لتبحث عن سلسلة مفاتيحها.

تسارعت دقات قلب أبراهام من تلك المصادفة الغريبة، فيبدو أنها هي تسكن في العمارة نفسها! بدأ يضرب أخماساً بأسداس مفكراً بكيفية إقناعها بالعدول عن فكرة العشاء في شقتها ليصطحبها إلى مكان آخر قبل فوات الأوان، إلا أنها أشارت بيدها نحو عمارة أخرى تقع في آخر الشارع قائلة:

- إن شقتي في ذلك البناء الأبيض الطويل ورقمها هو "٥٧". كل ما عليك هو الانتظار هنا بضع دقائق، ثم التوجه إليها وضرب رقم الشقة على اللوحة الإلكترونية، لأفتح لك الباب، فتصعد إلى الطابق الخامس، حيث ستجد بابها موارباً. أنا واثقة أنك تتفهم الموقف، فالمجتمع هنا لا يرحم.

- طبعاً، طبعاً. لا تقلقي وسأكون حذراً. هيا اذهبي بسرعة، كي لا يرانا أحد الآن. فنظرت إليه بإمتنان مشوب بالإعجاب قائلة:

- أبرهااااا. ما أطفك! حسناً سأذهب الآن. لا تنس، شقة ٥٧ الطابق الخامس.

- شقة ٥٧ الطابق الخامس. هيا، إلى اللقاء بعد ١٠ دقائق.

قال هذا مستديراً ليمضي بالاتجاه المعاكس، منهياً المحادثة التي بدا أنها ستطول بسبب تأثرها بما اعتقدت أنه شهامة منه.

كان ذلك الموقف واضطراره إلى التصنع مرة أخرى قد ملأ قلبه حقناً على نفسه. وعند أول مفترق طرق انعطف مسرعاً محاولاً الابتعاد عن عمارته عبر الالتفاف حولها والبحث عن طريق فرعي يوصله إلى العمارة التي أشارت هافا إليها، لكنه كاد بسبب تسرعه وارتبائه يرتطم بأحد المارة الذي صاح باللغة الروسية وبنبرة مداعبة:

- لم العجلة هذه المرة، فما يزال هناك خمسة أيام حتى يحل يوم السبت؟!

تمعن أبراهام بالشبح الخارج من ظلام المنعطف، ليتبين أنه الشخص نفسه الذي كان يحاول تفادي الالتقاء به قبل قليل، فحمد الرب على تمكنه في اللحظات الأخيرة من التخلص من موقف هو في أشد الغنى عنه، فأجابه بشيء من المرح وقد عاودته رباطة جأشه:

- كنت أحاول إيقاع حقيبتك كما فعلت معي في المرة الماضية، ولكن يبدو أنك قد تحسبت لذلك جيداً.

- "أوخ - تيبسي"<sup>(١)</sup> لم أكن أعرف أنك تجيد المزاح. يبدو أنك قد بدأت بالتأقلم بسرعة.

- أخبرني كيف صحة والدتك؟

- الحمد لله، أصبحت أفضل. شكراً على اهتمامك، لكن لماذا انتظرت إلى المساء لتخرج؟ فالنهار أدهى ألا تضل طريق العودة فيه. انتظرنى خمس دقائق لأضع حقيبتى، ثم أأخذك في جولة سريعة في المدينة وأعرفك بالطرق ووسائل المواصلات.

- لا داعي لأن تزعج نفسك، فقد وصلت لتوك من سفر، وأنا أرغب فقط بالسير في الجوار.

- كما تريد. لكن تفضل، هذه بطاقتي وعليها رقم المنزل والجوال. فلا تتردد بالاتصال إن واجهتك أية صعوبة في العودة.

(١) تعبير روسي يفيد الاستغراب المشوب بالإعجاب.

- شكراً. هذا لطف منك. سأأخذها مع أنني أشك في أنني سأحتاجها لهذا السبب؛ فقد صرت أعرف طريق المنزل جيداً. وبالمناسبة لا تقلق إن تأخرت في العودة.  
- إمام. يبدو أنك قد تأقلمت فعلاً مع الوضع الجديد، ولم تضيع وقتك سدى،  
أتمنى لك التوفيق. إلى اللقاء.

- إلى اللقاء. وشكراً مرة أخرى.

- لا شكر على واجب يا بن العم.

ذكرته عبارة "ابن العم" بكتاب ذرية إبراهيم الذي قرأ عنه بالمذكرات وأحس برغبة شديدة في قراءته، فقال مستدركاً، قبل أن يغادر أحمد:

- على فكرة، لقد أعجبتني مكتبتك كثيراً، فهل تمانع إن اطلعت على محتوياتها.

- بتاتاً. خذ راحتك كأنك في بيتك.

- وهذه أيضاً تستحق عليها الشكر.

- الشكر لله يا بن العم. حظاً موفقاً.

مضى أحمد في طريقه وظل صدى كلماته يتردد طويلاً في رأس أبراهام. "الشكر لله"، "يا بن العم". ثم تذكر هافا فمضى مسرعاً إليها وهو يفكر في حجة لتبرير تأخره.

- لقد أثرت قلبي. فقد ظننت أنك غيرت رأيك ولن تأتي.

قالت هافا وهي تفلق باب الشقة خلفه. فقال أبراهام:

- ولماذا أغير رأيي؟ أنا فقط ضللت الطريق فسألت عن مكان الهيكل ومن أمامه

استطعت أن أرى بنايتك.

- أشكرك طبعاً لحرصك على سمعتي، ولكن لم يكن عليك أن تتعد كثيراً؛ فكان

يكفي الانتظار مكانك بضع دقائق ثم اللحاق بي.

فغمزها قاتلاً:

- ولكنها سمعة حاخام تلك التي نتكلم عليها، وهي تستحق أكثر من ذلك.
- يا لك من مخادع! هيا تعال معي إلى المطبخ لترى محتويات الثلاجة، وتشير علي بما ترغب أن أطهوه لك على العشاء.
- في الحقيقة أنا لم أهضم الغداء بعد، لذا سأكتفي حالياً ببعض القهوة.
- وكيف تحبها؟
- بدون سكر، ويفضل بفنجان ورقي أو من البلاستيك<sup>(١)</sup> إن أمكن.
- يجب أن أذكرك أنك أنت من دعوت نفسك إلى العشاء هنا أيها الأرثوذكسي المتزمت.
- آسف. صدقيني، لم أقصد أي إهانة. أحضرها كيفما شئت.
- ذهبت هافا لإعداد القهوة، في حين أخذ أبراهام يتأمل الصور، التي اصطفت بأناقة على الرف الرخامي العريض فوق جهاز التدفئة. ولفت نظره صورة لها بزي التخرج الجامعي وهي تحمل شهادتها بيد، وتضع اليد الأخرى حول خصر رجل أربعيني يحتضنها بسعادة بالغة. وما إن عادت حتى بادرها بالسؤال:
- من هذا الرجل؟
- إنه دافيد. زوجي.
- وقع الخبر عليه كالصاعقة، إلا أنه لم يُظهر أثرَ ذلك على وجهه، وتناول منها كوب القهوة قائلاً بلام:
- لم تخبريني عن ذلك بالمطعم.
- لأنه لم يعد يعني لي شيئاً، فقد كان أستاذاً في مادة مقارنة الأديان في الجامعة، وكان إعجابي بأفكاره هو سبب زواجنا. لكن ذلك للأسف لم يكن كافياً لنجاح الزواج، فانفصلنا بعد عامين فقط.

(١) يقصد استخدام مرة واحدة. وذلك لعلمه بعدم تطبيقها لقوانين طهارة الطعام حسب الكشروت في فصل الأواني.



- ولماذا لم تتلقي منه .
- إنه يرفض ذلك، فهو يظن أن الأمور ستعود إلى مجاريها بينما إن عاجلاً أو آجلاً .
- وبالنسبة إليك؟
- لا أنكر أن تمسكه بي للآن، يرضي غروري بعض الشيء، إلا أنه من المستحيل أن أعود إليه .
- هل هو يهودي؟
- أجل .
- أحس أبراهام أن الأرض تميد به من قوة الصدمة، إلا أنه قال متعمداً التمويه على السبب الحقيقي وراء فضوله:
- كنت أظنك لا تفضلين الرجال بهذا العمر؟!
- هو ليس كبيراً إلى هذا الحد أيها الغيور...
- ومضت هافا تتحدث عن عمره وعن حداثة سننها وأفكارها وقت زواجها منه، وعن ظروفها آنذاك. لكن أبراهام كان في واد آخر تماماً، فقد كان يفكر بما كان يسعى إليه، وحقيقة أنه كان سيكون انتهاكاً واضحاً لا لبس فيه لإحدى الوصايا العشر، بارتكابه "الزنيوت"<sup>(١)</sup> بزوجة يهودي، إلا أنه لم يكن يرغب بأي حال من الأحوال أن تعرف بما يعصف في صدره، لذا، فما إن أنهت كلامها، حتى عاد إلى مجاذبتها أطراف الحديث، كأن شيئاً لم يكن.

(١) 'زنيوت' يقابلها في العربية "الزنا". ويعرّف الزنا باليهودية (وفقاً للأرثوذكسية) بعلاقة جنسية بين امرأة متزوجة من يهودي، ورجل غير زوجها. وتعتبر من الكبائر الثلاث وفق الهالاخاة، وعقوبتها الموت للآلئين. أما العلاقة الجنسية مع المتزوجة من غير يهودي، (لا تعترف الشريعة اليهودية بشرعية أي زواج غير يهودي) أو غير المتزوجة أصلاً، فهي أمر مكروه دينياً، تماماً كممارسة الجنس مع الحيوانات، ولكنه غير محرم.

وضعت هافا إبريقاً كاملاً من القهوة هذه المرة أمام أبراهام بناء على طلبه، وجلست تتأمله وهو يحتسي فنجانته الثالث بشراهة. كان واضحاً أنه يحاول التخلص نهائياً من تأثير الكحول عليه، مما أزعجها كثيراً، فهي لم تعد قادرة على استيعاب تصرفاته المتناقضة، فقالت بنبرة تملؤها خيبة الأمل:

- يبدو أن إسرافك في شرب القهوة لا يعادله إلا إسرافك السابق في شرب الفودكا.

- أي كرم ضيافة هذا! يبدو أنك لم تتحرري تماماً من كل التقاليد اليهودية. فقد دعوتني إلى العشاء، وها أنت ذي تستكثرين علي بعض القهوة. فماذا ستفعلين إذن عندما يحضر الطعام؟!

قال أبراهام ضاحكاً وهو يحاول إخفاء خجله، فجارتته هافا بأسلوب مسرحي ساخر وقد شعرت بالإحراج الذي سببته له بتعليقها:

- إذا تحررت من البخل فسوف تسقط عني اليهودية بشكل تام، وأنت بالتأكيد لا تتمنى لي هذا. أليس كذلك؟.

- بالتأكيد لا. ولكن لا تنسي أنني لا أرغب أنا أيضاً في فقدان هويتي اليهودية، لذا سأتجاهل ما قلت، وسأملاً بطني بالطعام بكل جشع، حالما أفرغ من القهوة.

- يا للخسارة. ولكن ماذا أقول: يهودي مقابل يهودي؟ يبدو أنه يجب علينا أن نبحث عن شخص ثالث، ولكن من الغوييم هذه المرة.

- بل يهودي مقابل يهودية، ولا حاجة لنا بثالث.

- حقاً! بدأت تعي مجدداً أنني امرأة، وأنا وحدنا. تهانينا.

- لم أغفل عن ذلك قط، ولكنني، كما لاحظت ولا بد، أعاني من بعض الخجل.

ثم أضاف في نفسه: "ومن بعض الالتزام بوصايا التوراة أيضاً".

- ومن بعض التناقض والتردد.

- أضافت هافا بحزن، فتهدد أبراهام، وهز رأسه موافقاً وهو يقول:
- أجل للأسف.
- لا عليك. لست مجبراً على شيء، يبدو أننا قد تسرعنا فعلاً، وحن الوقت لبعض  
الفرملة.
- أنت محقة، يبدو أنه حان وقت الانصراف.
- لا، أرجوك، نحن لم نكد نجلس، ثم لا تتس أنك لم تأكل بعد.
- لم آت إلى هنا للطعام؛ بل جئت للتسامر معك، فمع أنني عرفتك اليوم فقط إلا  
أنني بت أشعر أنني أعرفك منذ زمن طويل.
- حقاً! إذن اثبت.
- وكيف ذلك؟
- نلعب لعبة تحليل الشخصية. إنها لعبة مثيرة ومفيدة في آن واحد.
- تقصدين أن يحلل كل منا شخصية الآخر؟
- تماماً.
- ولكننا لا يكاد أحدنا يعرف الآخر.
- أنت قلت الآن أنك تشعر بأنك تعرفني منذ زمن طويل.
- أجل، ولكن تحليل الشخصية يجب أن يُبنى على حقائق، وليس على مجرد شعور.
- نحن معاً منذ الصباح، وقد مررنا بحالات مختلفة، نادراً ما تجتمع في يوم واحد،  
من جدال، وخصام، ووفاق، ولعب، وسكر، بل وغزل أيضاً. كما قص كل منا قصة حياته  
كاملة على الآخر، وتحدثنا عن آرائنا الدينية والسياسية. ألا تكفيك كل هذه الحقائق؟
- ثم لا يجب أن يكون التحليل احترافياً فلا أحد منا مختص بعلم النفس. إن الأمر لا  
يعدو كونه محاولة لصياغة فهم كل منا للآخر، وانطباعه الأولي عنه.
- حسناً، فلتبدئي أنت مادمت صاحبة الفكرة.

- كلاً ١١١١١. يكفيني بدءاً اليوم، وقد حان دورك أخيراً. لا تقلق فالأمر ليس صعباً، إنه أشبه بالتحدث مع نفسك بصوت مسموع. من هي هافا؟ ما سلبياتها؟ ما نقاط ضعفها؟ أين تكمن مواطن القوة فيها؟ ما إيجابياتها، إن وجدت؟ ما الذي لاحظته عليها؟ ما الذي أعجبني، وما الذي لم يعجبني بها؟ وهكذا. ولكن، بصراحة تامة وبعيداً عن المجاملة والتدليس.
- بدأت أشعر بالجوع، ألن تذهبي لإعداد الطعام.
- أبراهام، هذا لن ينفذ، فلا يمكنك التهرب. هيا ابدأ، فكلي آذان صاغية.

## ◀ الانتصار على الهوى

ارتشف أبراهام رشفة كبيرة من فنجانه، ثم نظر إلى هافا وهو يحاول استرجاع شريط أحداث اليوم، وكافة الانطباعات التي أخذها عنها. وبعد برهة وجيزة استفتح قائلاً:

- حسناً، أنت فتاة جميلة وطيبة ومرحة.

- أكرر: بعيداً عن المجاملة والتدليس.

قالت هافا بحدة، فرد عليها مداعباً:

- ولكن يجب أن أمدحك قليلاً للتخفيف من أثر القنابل التي ساقذفك بها بعد قليل.

- أنت لا تأخذ الأمر بجدية.

- على العكس تماماً. ولكن لا تقاطعيني ودعيني أعبر عن رأيي بالطريقة التي أراها مناسبة.

- حسناً، تفضل.

- أنت فعلاً جميلة وطيبة ومرحة، وهذا أول ما يجذب المرء إليك. ومع أن هذه الصفات ترتبط عادة ببعض السذاجة، خاصة إذا ما اقترنت ببعض الصبائية واللامبالاة كما هو الحال معك، إلا أنك، والحق يقال، بالغة الذكاء: فأنت تعرفين مواطن ضعفك جيداً، وفي هذا بالذات تكمن قوتك. كما أن قدرتك على التكيف مع الظروف المحيطة تثير الإعجاب، مع أنها تثير القلق أحياناً: فأنت قادرة ببساطة شديدة على تغيير جلدك وقتما تشائين.

- تقصد كالأفعى؟ شكراً لك! ولكن لماذا تظن ذلك؟!!!



- مهلاً، أنتِ من اقترحت اللعبة وأنتِ من أصررت على الصراحة دون مجاملة، فلا تقاطعيني، ولا تناقشيني في رأيي فيك، ولا تحاولي الدفاع عن نفسك حالياً، بل احتفظي بكل هذا للنهاية، ثم أخبريني أين أصبتُ وأين أخطأت، وناقشيني بأخطائي إن أردت. وعندما يأتي دورك سألتزم أنا أيضاً بهذه القوانين.

- اتفقنا. يبدو أن الموضوع سيكون أكثر إثارة مما توقعت. تابع أرجوك.

- مع أنك تبدين اجتماعية جداً إلا أنك في قرارة نفسك تعانين من الوحدة. ومع كثرة معارفك، كما أتوقع، إلا أن القليل جداً منهم تعتبرينهم أصدقاء، مع أنك أعطيت الكثيرين منهم إيحاءً، بل ربما تصريحاً، بأنهم أصدقاؤك فعلاً.

صمت أبراهام قليلاً كأنه يستجمع أفكاره ثم أردف قائلاً:

- إن للدين في حياتك دوراً مهماً، ولكنه ليس محورياً. وتعتبرين الوصايا العشر هي مجرد توصيات غير ملزمة، بل إن إيمانك بوجود الرب نفسه تعتريه الكثير من الأوهام. يبدو جلياً من تصرفاتك أنك تعشقين الحياة، وترغبين بالتمتع بكل لحظة فيها، دون إضاعة أي فرصة، كأنك لا تؤمنين بحياة أخرى بعد الموت، فترفضين بسبب ذلك كل القوانين والأعراف المفروضة عليك، متحررة من كل ما لا يعجبك. ولكنك، وفي الوقت ذاته، لا تصلين بتحريكك إلى درجة التسيب؛ فغالباً ما تراعين بعض قوانين المجتمع أو الدين وأعرافهما، ولكن فقط بالقدر الذي يبقيك بعيدة عن المتاعب غير الضرورية، وليس بسبب إيمانك بها. أنت "ثورجية" و"متمردة بطبعك، لذا تفضلين تشكيل قناعتك بنفسك، رافضة التسليم بالشائع والمتعارف عليه، حتى إنك تتعمدين البحث عن كل غريب، لإثبات اختلافك عن الباقين، أو ربما لإدهاش مستمعيك. كما أنك غارقة في المادية والعقلانية، وبعيدة عن القيم الروحانية والإيمانية. ومع أنك شديدة الواقعية في كثير من الأمور، إلا أنك تعيشين بينك وبين نفسك في عالم حالم رومانسي مليء بالأوهام.

- رشف رشفة أخرى من القهوة وهو يرمقها بطرف عينيه، ثم تابع قائلاً:
- أنت بعيدة عن التعصب والعنصرية، وبشكل يتعدى كثيراً ما يعتمد اليهود عادة إظهاره للغوييم. فتسامحك وشعورك بالمساواة بين البشر قد أصبح من القيم المتأصلة في وجدانك، تماماً كمن يصدق كذبة اخترعها بنفسه: فأنت لا تعتقدين حقاً بقدسية اليهودي أو اختياريته أو حتى تفوقه، بل أرى أحياناً أنك تشعرين بالنقص، وربما ببعض الكره لذاتك بسبب كونك يهودية.
- كانت هافا تنصت إليه باهتمام بالغ، ولكن ملامح الاكتئاب كانت قد بدأت تكسو وجهها شيئاً فشيئاً، حتى وصلت إلى ذروتها بعد عبارته الأخيرة، فأثر أبراهام التوقف عند ذلك الحد، محاولاً التملص من اللعبة، فقال كمن تذكر شيئاً مهماً:
- آه صحيح قبل أن أنسى: أرني الموقع الإلكتروني لذلك الحاخام الذي أسلم.
- لا، ليس الآن. أرجوك أكمل أولاً، وسأريك بعد ذلك كل ما تريد، فلم يفهمني أحد في حياتي كما فهمتني أنت، ولا حتى من عرفني منذ زمن طويل. أرجوك تابع.
- لم يعد هناك المزيد ليقال، هذا كل شيء.
- هذا ليس عدلاً؛ فيجب أن تنتهي ما بدأت به. هيا أرجوك.
- حسناً، حسناً لا داعي للانفعال. فسأحاول إيجاد المزيد. إمام... مع أنك من دعاة الحرية والمساواة بين الرجل والمرأة على كل الأصعدة، وترفضين تسلط الرجل فيما تسمينه بالمجتمع الذكوري، إلا أنك في قرارة نفسك امرأة ضعيفة، تبحث عن رجل قوي تسلمه قيادها؛ لتشعري معه بأمان وسعادة أكبر من رجل يعاملك اللند، حتى إن حاولت إظهار العكس. كما أنك على صبيانيتك، واسترجالك أحياناً، إلا أنك تجيديين دور الأنثى اللطيفة المقدرة لرجولة الرجل. وعلى فكرة هذا الدور يليق بك أكثر: فأنوثتك طاغية إن أفسحت لها المجال.

لاحظ أبراهام احمرار وجنتيها من الخجل المشوب بالسعادة، والرضى. فقال مؤكداً:

- هذه هي الحقيقة.

- شكراً.

- إلا أنك من النوع الذي يحب الخداع، مع أنك لست بارعة فيه، على الأقل ليس

معي.

- ومن ذا الذي يستطيع خداعك، وأنت بهذا القدر من الدهاء والاستيعاب لما يدور

حولك؟!

- أعني أنك تحبين اللعب والتأثير في آراء الآخرين، وإقناعهم لتسييرهم وفق ما

تريدين. فأنت تمتلكين الأسلوب، والمعلومات الكافية لذلك، ولكن للأسف لا تملكين

الإيمان الكافي بالأفكار التي تسعين إلى إقناع الناس بها: فأنت مكتبة تحتوي على

الكثير من الكتب القيمة، ولكنها مبعثرة دونما ترتيب. ومع براعتك في التنظير، إلا

أنت فاقدة للتقرير.

- مهلاً، يبدو أن كلامك قد خرج عن حدود استيعابي. هل تقصد أنني أخضع كل

شيء للنقد والتحليل، وأن هذا أفقدني القدرة على الإيمان بنهج معين، والالتزام به؟

- شيء من هذا القبيل.

- ولكني ملتزمة بالنهج الإصلاحى الذي يكمن لبه بذلك النقد والتحليل.

- هذا بالضبط ما أعنيه: فأنت ملتزمة بعدم الالتزام.

- هذا رأي مثير للجدل، وسأناقشه معك في وقت لاحق. تابع من فضلك.

- هذا يكفي، حان دورك الآن.

- بهذه السرعة! لا بد أنه لا يزال في جعبتك الكثير. هيا أرجوك لا داعي

لاستخدام الخبث اليهودي معي.



## اليهودى الحائر

- ليس للموضوع علاقة بالخبث، لقد انتهيت فعلاً. أقسم لك.
- لقد تحدثت كثيراً عن نفسك في المطعم لكنك لم تأت على ذكر دراستك لعلم النفس.
- لأنني لم أدرسه أصلاً، بل حاولت أن أجيد اللعبة التي اقترحتها وفقاً للقوانين التي سننتها أنت بنفسك.
- تقصد أنك لم تحلل شخصية أحد من قبل؟
- مطلقاً.
- لكنك أبدعت في ذلك.
- كم مرة يجب أن أعيد عليك ذلك؟! أنت ملهمتي يا عزيزتي. والآن أعطني نسبة مئوية في مدى صحة ما ذهبت إليه.
- عدلت هافا جلستها، بعد أن كان رأسها، بل كل جسدها، مشدوداً ناحيته وهي تستمع إليه، ثم نظرت إلى السقف لتتهرب من النظر في عينيه. وقالت:
- ٤٠ إلى ٥٠٪.
- هافا.
- حسناً ٩٠٪ ولكن ليس أكثر.
- هذا رائع. ولكن بم أخطأت؟
- حسناً. أعترف بأنك كنت مصيباً بنسبة ١٠٠٪.
- حقاً؟ ألا تجامليني؟
- مطلقاً. فقد عرفت عني بهذا الوقت القصير بعض ما كنت أجهله أنا عن نفسي.
- ليس لهذه الدرجة؟!
- بالتأكيد ليس لهذه الدرجة. ويكفيك طلباً للمديح، فعما قريب ستفجر من كثرة الغرور.

- حسناً، حسناً. الآن جاء دورك.

- وهل يوجد ما يقال بعد الذي قلته؟ إن أي شيء سأقوله قد يوصف بالضحالة والسذاجة مقارنة بتحليلاتك.

- هيا هافا. هل بدأت أنت أيضاً باستخدام الخبث اليهودي؟

- آه ها. إذن تعترف بتخابثك. كنت أعرف أنك لا تزال تخفي الكثير. هيا أخرج ما بجعبتك، هيا فقد فضحك لسانك.

- لا تهربي من الإجابة. فكلانا يهوديان ولن ينفع هذا الأسلوب فيما بيننا، والأفضل أن تدخريه للغوييم. هيا هاتي ما عندك.

- يا لك من متسلط! حسناً. أنت شخص مثير للاهتمام بشكل كبير، كما أنك وسيم وجذاب، وفوق هذا كله تجيد استخدام عينيك الجميلتين، فتأسر بهما القلوب. كما أنك شهم، وكريم، ويمكن الوثوق بك.

صمتت برهة وهي تتأمله من رأسه حتى أخمص قدميه، ثم تنهدت قالت:

- مع أن مظهرك يوحي بالهبة والجدية والورع، إلا أنك تجيد معاملة النساء، وتستطيع أن تكون مسلياً وعابثاً إن أردت، مما يدل على وجود تجارب ونزوات سابقة لك، ولكنك تحاول دائماً كبح ذلك الجانب من شخصيتك. أنت لا تثق بأحد بسهولة، وربما لا تثق بأحد مطلقاً، لذا قد تخفي الكثير، لكنك بطبيعة الحال لن تكذب أو تخون. ومع كل ما حدثتني به في المطعم والآن، إلا أنه يبدو جلياً أنك تعمدت إخفاء الكثير، وإحاطة نفسك بهالة من الغموض. أنت شخص هادئ، متواضع، لا تحب التباهي، وتسمع أكثر مما تتكلم، مع أن عندك الكثير ليقال. كما أنك شديد التفاض، وبشكل مربك، كأنك تخوض حرباً مع هوى نفسك: تستسلم له تارة، وتقاومه تارة، وتقمعه تارات وتارات. أنت في أعماق نفسك متدين بتزمت، وتتنظر إلى كل شيء من منظور خدمة الرب، الذي تؤمن به بطريقة أحسبك عليها. فصدمتك الأخيرة بدينك

دفعتك إلى الخروج عنه نهائياً، بعد أن دخل الشك إلى قلبك بالنسبة إلى كثير من مبادئه وطقوسه، إلا أنها لم تقو على نزع تسليمك بوجود الرب نفسه لوقت طويل، فصرت تبحث عن دين كامل يماثل كمال الرب كما تتصوره، وهذا ما يجعلك حائراً تائهاً، فأنت تبحث عن شيء صعب المنال، بل مستحيل إن شئت الدقة؛ فأنت لا تدرك أنه لا يوجد على ظهر البسيطة دين واحد ليس من صنع الإنسان، أو على الأقل لم تعبت به يد إنسان بكل نواقصه ونزواته، وإن لم تنتبه لنفسك فسوف تقضي كل حياتك بمرحلة شك، تتأرجح فيها بين ما كنت تؤمن به وبين نوع من اللامبالاة بكل شيء، بانتظار دين لن تعثر عليه أبداً. فكلما بدأت في التحقق مما كنت تعتقد أنه الإجابة عن أسئلة مثل: من أين أتينا، وماذا نعمل على الأرض؟ فستكتشف أنه قد تم الكذب علينا. لقد تم الكذب علينا من قبل كل مؤسسة، فما الذي يجرك إلى الاعتقاد أن المؤسسة الدينية هي الوحيدة التي لم يمسه أحد؟! إن المؤسسات الدينية في الحقيقة هي في قاع الدنس.

صمتت قليلاً، ثم أردفت متابعة:

- أنت متطرف في كل شؤون حياتك، متطرف في الدين، وفي أفكارك السياسية. متطرف في الذكورة، وفي نظرتك إلى المرأة، متطرف في القومية، ونظرتك إلى الغويم. وفوق هذا مسرف بشكل ملحوظ: فملابسك باهظة الثمن، والمطعم الذي اخترته كان فخماً، كما أنك اخترت هناك أفخر طعام، وأعتق نبيذ، وأغلى فودكا، فأنفقت على غذاء واحد ما يكفي شخصاً متوسط الدخل لمدة أسبوع إن لم يكن أكثر، مع أنك، كما فهمت منك، قد قضيت حياتك في روسيا زاهداً في الملابس والمأكل والمشرب! أنت تفرض على نفسك قيوداً شديدة الصرامة، تعذب نفسك بها، وفجأة ترمي كل تلك القيود وراء ظهرك بلا اكتراث، ثم لا تلبث حتى تعود فتوثق نفسك بتلك القيود ثانية. ومع كونك شخصاً طيباً، تتحمل المسؤولية، وتقوم بما يجب عليك

القيام به غالباً، إلا أنك تبحث عن المثالية، وتظل نفسك تلومك على ما لم تستطع القيام به، فنفسك لومة وضميرك حي ويحاسبك بقسوة. أنت تريد أن تسير كل الأمور دائماً بمثالية، فتقدم الكثير وتنتظر الكثير من الناس أيضاً، مما يسبب لك خيبة أمل وانزعاجاً في معظم الأحيان. لست بالشخص البسيط، فبشخصيتك الكثير من التعقيدات، وصراحتك تزعج من حولك وتربكهم أحياناً، والأسلم أن تستبدل بها المجاملات التي تجيدها فعلاً وقت الحاجة.

تهددت بحسرة، وأردفت قائلة:

- أنت في حقيقة الأمر انطوائي وخجول، ولست من النوع الاجتماعي أبداً، ولكنك تجيد ذلك عندما تسعى إلى هدف معين، أو عندما ترغب في التغيير، أو لأسباب أخرى أجهلها، وأنا مستغربة فعلاً للحد الذي وصلت به معي اليوم، والذي يبدو جلياً أنه ليس من شيمك، وأنا واثقة بأنه لن يستمر طويلاً؛ فأنت لا تزال تحاول الهرب من النتيجة التي سعت إليها بنفسك، حتى إنني ظننتك لن تعود عندما تأخرت في المجيء، ولا أظن أنني سأراك ثانية عندما تخرج من باب الشقة، حتى إن حدث واستمرت علاقتنا لبعض الوقت، فسأظل خائفة، لتأكدي من أنه سيأتي الوقت الذي ستشعر فيه بتأنيب الضمير وتتركني دون رجعة.

صمتت مجدداً وهي تنظر إلى تعابير وجهه الجامدة تبحث عن وقع لعبارتها الأخيرة عليه دون جدوى، فتصنعت الابتسام وقالت منهية حديثها:

- والآن. ما هي نسبتي المثوية من صحة ما ذهبت إليه؟

- هذا كل شيء؟؟؟

- كما قلت لك: أنت تتوقع الكثير ممن حولك، مما يربكهم، ويكسبك حزناً وخبية أمل. إن ما قلته هو ما أشعر به وأراه فعلاً.

- لكنني قلتُ عنك أكثر!

- لأنك أبرع مني في هذا الجانب.
- حسناً. إن نسبتك المئوية هي ٧٥٪.
- وما الأمور التي أخطأت بها؟
- لم تخطئي بأمر معين، بل بطريقة تحليلك ورؤيتك للأمور.
- كيف ذلك؟
- هل تتكرمين علي بإعفائي من الإجابة؟
- كلا؛ فيجب أن تلتزم بالاتفاق.
- لكننا لم نتناقش بما قلته عنك، فلم نتناقش إذن بما قلته عني؟
- كان ذلك لأن كل ما قلته عني كان صحيحاً.
- لنفترض إذن أن كل ما قلته عني كان صحيحاً أيضاً.
- هذا بالذات هو ما أخشاه. ستتركني إذن.
- كلا.
- إذن لماذا لا تجيب؟
- أرجوك، لا تجبريني على الإجابة، حتى لا ننجر إلى النقاش مما سيضطرني إلى التملص، أو الاختلاق، أو حتى الكذب.
- لا حاجة لذلك؛ فكل شيء أصبح واضحاً.
- فهز أبرهام رأسه أسفاً، وقال متمللاً:
- أنت في واد، وأنا في واد آخر. حسناً. سأخبرك عن رأيي فيما قلت باختصار، شرط أن ننهي هذا الموضوع تماماً دون أن نتناقش به. هل تعديني؟
- هه. وكأنني أملك الخيار؟!
- هافا لم تعديني وتعذبين نفسك؟ إنني أرجوك.
- حسناً أعدك.

- لنبدأ من النهاية التي هي الأهم بالنسبة إليك، ثم نعرِّج على ما اعتبره الأهم من وجهة نظري.

- كلي آذان مصغية.

- أنت محقة تماماً في الشق الأخير من تحليلك فلن يحصل شيء بيننا، وإن حصل فسيكون نزوة، سأندم عليها فيما بعد... أنا لا أنكر أنك تعجبيني، أو أنني أجد صعوبة كبيرة في منع نفسي من التفكير في علاقة حميمة معك، لكنني لست حالياً بمعرض التفكير في شيء من هذا القبيل، كما أن منزلتك عندي أكبر من ذلك بكثير، ولا أرغب في إفساد صداقتنا. اعذريني إن أسأت التعبير، فقد حاولت تجنب الحديث في ذلك خوفاً من حساسية الموضوع.

- لا، بتاتاً؛ فأنا أقدر صراحتك، ومشاعرك النبيلة. ولكن ما الذي يمنع علاقة جادة بيننا؟

- وهذا هو الموضوع الآخر الذي قصدته؛ فقد صدمتني بإلحادك الذي لم أكن أتوقع أن يصل إلى هذه الدرجة. إن شكك بالرب، وبوجود دين كامل منزل من عنده، ونظرتك إلى الأديان على أنها جميعها من صنع البشر أو عبثهم، أو على الأقل بحاجة إلى تطويرهم، يجعل بيننا هوة عميقة من الصعب ردمها. قد أتقبل كصديق أختلف معه في وجهات النظر، لكنني لن أستطيع أن أرتبط معك بعلاقة جادة.

- ليتني لم أحلل شخصيتك.

- بل ليتك لم تجبريني على الإيضاح.

- كنت فقط أريد أن أوضح لك الأمور، لأنك من هذه الدوامة التي تبحث فيها عن شيء لا وجود له في واقعنا.

- أنا واثق كل الثقة من وجود الحقيقة التي أبحث عنها؛ فلا يعقل أن يتركنا الرب دون أن يوضح لنا كيفية الوصول إليه.

-كم أتمنى لو كان لي نصف إيمانك.

- لقد تأخر الوقت. ما رأيك بأن نستبدل بدعوتك للعشاء هذه الليلة، دعوة للغداء غداً؟

نظرت هافا ساهمة في عيني أبراهام، قبل أن تستجمع قوتها، مجاهدة في رسم ابتسامة على وجهها الحزين وهي تحاول تصنع المزاح قائلة:

- يا لك من يهودي استغلالي جشع، تريد أن تستبدل بها دعوة على وجبة رئيسية؟  
فرد أبراهام مجارياً لها في مزاحها، كي يخفف من أثر الصدمة:

- تماماً. خاصة أنك ستكونين مستعدة لها ولن تكون من حواضر المنزل، كما كنت ستتجججين اليوم. خبيث أنا أليس كذلك.

- أنت خبيث فعلاً، ولكن بمعنى مختلف تماماً. وأنا سعيدة بكوننا أصبحنا أصدقاء.  
سأنتظرك غداً في الواحدة بعد الظهر، هل ستأتي حقاً؟  
- كوني واثقة من ذلك. إلى اللقاء.

خرج أبراهام إلى الشارع وملاً رثتيه من الهواء ليزفره بقوة، ثم مضى في طريقه شارد الذهن. كان يتعذب من الكبت الذي أثقل كاهله، ولكنه في الوقت نفسه، كان سعيداً بانتصاره على هواه، ونجاحه في الاختبار الذي امتحنه الله به.

لم يكن يشعر برغبة في العودة إلى المنزل، ولكنه لم يكن لديه مكان آخر للذهاب إليه في مثل ذلك الوقت من الليل، لذا فقد سلك طريقاً غير مباشر ملتفاً حول عمارته ليفرغ قلقه ببعض المشي، وليتحرز من احتمال مراقبة هافا له من نافذة شقتها: حتى لا تعرف مكان إقامته.

## ◀ قانون الشرف

استيقظ أبراهام على صوت خافت انبعث من غرفة أحمد بعذوبة، ملأ نفسه اطمئناناً وسكينة، إلا أن ذلك الصوت ما لبث أن انقطع فجأة، لتصدر عوضاً عنه قرقعة في الصالة. وعندما خرج من غرفته وجد أحمد منشغلاً بترتيب المائدة، التي امتلأت بأوانٍ وأكواب بلاستيكية تستخدم لمرة واحدة، وعبوات تجارية جاهزة. - صباح الخير.

قال أحمد وهو لا يزال منهمكاً بفتح الأكياس والمعلبات. ثم التفت إلى أبراهام مُردفاً:

- أنا أعرف أنك لا تستطيع تناول طعامنا، لذا أحضرت بعض الأطعمة المحضرة وفقاً للكشروت كي نأكل معاً ويصبح بيننا ما ندعوه بالعربية "خبز وملح".  
ذهل أبراهام مما يرى؛ فلم يتوقع هذه اللفتة الكريمة من شخص يعتقد ديناً آخر، وبالأخص الإسلام! تذكر رحلته الأخيرة إلى موسكو ليتم إجراءات سفره، وكيف قضى الليلة عند أحد أقربائه المقيمين هناك، والذي لم يراعِ الطقوس اليهودية في الطعام، بل لم يكلف نفسه حتى بتقديم طعام عادي، فقدم له على الفطور شرائح "السلامي"<sup>(١)</sup>، مع أنه يهودي، مما حز في نفسه كثيراً فغادر المنزل دون إفطار. وها هو ذا مسلم فلسطيني يحترم طقوس دين، احتل وطنه باسمه.

لم يكن يعرف ما يجب عليه قوله، فقد ألجمت المفاجأة لسانه، فقال متلعثماً:  
- صباح الخير. لم يكن هناك داع لتكلف نفسك بهذه الطريقة.

(١) السلامي هو نقائق تشبه السجق، تصنع من لحم الخنزير ودهنه، وتؤكل مع خبز مدهون بالزبدة، وهو طعام شائع في أوروبا على العشاء أو الفطور.



- لا يوجد أي تكليف يا ابن العم، فقد كنت أرغب منذ فترة طويلة بتجربة هذا الطعام، وها قد جاءت الفرصة على أهون سبب.

- ألا ترتكب بذلك مخالفة دينية؟

- لماذا؟ فليس في ما أحضرته أي شيء يحرمه الإسلام.

- وهل يحل لك الإسلام تناول طعام معد حسب الكشروت؟

- لقد قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ وَطَعَانَكُمْ حَلٌّ لَهُمْ﴾ [المائدة: ٥].

جلس أبراهام إلى المائدة باستحياء، إلا أن أحمد لم يترك له مجالاً لذلك: فقدم له الطعام بلباقة وبساطة، أخذاً بمجاذبته أطراف الحديث، حتى تخلص من خجله، وأصبح يشعر بألفة وراحة. وبعد الانتهاء من الطعام، وتنظيف الطاولة جلس الاثنان في الشرفة لتناول قهوة الصباح. وخلال الحديث قال أبراهام مستفسراً:

- لقد أعجبني ذلك الصوت الذي كنت تستمع إليه في الصباح الباكر: أهو شعر أم موال، أم أنها طريقتكم في الغناء؟  
- إنه القرآن.

لم ينبس أبراهام ببنت شفة، بل هز رأسه، وهو يمسك كوبه بكلتا يديه وتابع شرب قهوته بهدوء، متجنباً النظر في عيني أحمد، الذي قام بعد برهة قائلاً:

-- حان وقت الذهاب إلى العمل.

- رافقتك السلامة. وأشكرك على كرم ضيافتك.

- دع عنك المجاملات يا بن العم. وداعاً.

أغلق أبراهام الباب خلف أحمد، وأخذ يبحث في المكتبة عن كتاب ذرية إبراهيم، حتى وجده وبدأ في قراءته، إلا أنه لم يأخذ الكثير من الوقت لينهيه: فقد كان يفقه أغلب ما فيه من شرح لتاريخ الديانة اليهودية وتعاليمها، وبشكل أفضل من ذلك

الحاخام الذي ألفه، والذي يبدو جلياً أنه كان يهودياً محافظاً، بل ربما إصلاحياً من ذلك النهج الذي تحدثت عنه هافا، مما دفعه إلى القفز عن أجزاء كبيرة منه، مركزاً فقط على أوجه التشابه مع الإسلام، وقد كانت مذهلة فعلاً، وبشكل فتح شهيته لمعرفة المزيد عن ذلك الدين. فبحث عن كتاب يتحدث عن الإسلام في مكتبة أحمد باللغة العبرية، أو الروسية، أو حتى الإنجليزية، دون جدوى. لم تكن لديه الرغبة في قراءة شيء آخر، لذا قرر الخروج لاستكمال استكشاف المدينة حتى يحين وقت مواعده مع هافا.

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بأكثر من نصف ساعة حين قرع أبراهام باب الشقة لتفتح له هافا الباب مسرعة وتحضنه بلهفة، وهي تقول:

- كنت خائفة ألا تأتي. لماذا تفعل هذا بي دائماً؟!
- صدقيني لم أكن أقصد. وقد جئت بسيارة أجرة، حتى لا أتأخر أكثر.
- هيا ادخل. لم تقل لي أين تسكن؟
- فتهرب أبراهام من الإجابة قائلاً:
- لم أت من البيت: بل من متحف "يد فاشيم"<sup>(١)</sup>.
- فقالت باستخفاف:
- هه. وما الذي نسيته هناك<sup>(٢)</sup>؟
- كنت أستكشف المدينة، ومررت من أمامه مصادفة، فدفعني الفضول إلى زيارته.
- يبدو أنهم أثروا فيك أنت أيضاً بمبالغاتهم الشديدة.
- كلا بالطبع، فأنت تعرفين رأيي جيداً في هذه الفريسة، مع أنني تأثرت هناك بالفعل، ولكن بشيء مختلف تماماً.

(١) يد فاشيم هو مركز أقامه الكيان للتذكير الدائم بضحايا الهولوكست (المحرقة).

(٢) تعبير أوربي شائع، كناية عن عدم أهمية ذلك المكان، وأنه لا ينبغي أن يقصد إلا بهدف البحث عن شيء فُقد.

- دعني أحرز. أنت تتكلم على معرض "البيسا"<sup>(١)</sup>. أليس كذلك؟
- تماماً. كيف عرفت؟
- لأنه الشيء الوحيد المؤثر بحق هناك. فقد قرأت عن قصص البطولة والتضحية التي قام بها المسلمون في ألبانيا لمساعدة اليهود، والتي تسببت بسجن الكثيرين منهم، بل تعريض بعضهم للقتل.
- أليس غريباً أن تكون ألبانيا هي الدولة الوحيدة في أوروبا التي لم يتعرض فيها اليهود للتصفية، بل إنها الدولة الوحيدة في أوروبا التي زاد فيها عدد اليهود عما كان عليه قبل الحرب العالمية الثانية، في حين تناقص بجدّة في باقي الدول الأوروبية؟!
- مطلقاً. فألبانيا هي الدولة الوحيدة في أوروبا ذات الأغلبية المسلمة<sup>(٢)</sup>، لهذا فإن رئيس حكومتها آنذاك<sup>(٣)</sup> قد رفض طلبات النازيين بتسليمهم أسماء اليهود في بلاده وعناوينهم، حتى إنه طلب من رعاياه منح الملجأ والحماية لمواطنيهم اليهود، وكذلك اللاجئين اليهود، الوافدين إليها من الدول المجاورة كيوغسلافيا واليونان. وأصدر تعليمات واضحة لمواطنيه الألبان بضرورة مساواة أولادهم بأولاد اليهود في المنام والمأكل ضمن أسرة واحدة، لافتاً إلى تساوي بني البشر عند "Allah"<sup>(٤)</sup>.
- أي إن ذلك كان قراراً رسمياً!

(١) بيسا أو "قانون الشرف" هو مصطلح ألباني إسلامي قديم يرمز لوضع مصلحة الغير وسلامته قبل مصلحة الإنسان نفسه. وقد أقيم هذا المعرض بالمتحف بتاريخ ٢٠٠٧/١١/١ تحت عنوان "البيسا/ قانون الشرف: الألبان المسلمون الذين أنقذوا اليهود خلال المحرقة" ويستعرض بالوثائق والصور دور الألبان المسلمين في إنقاذ اليهود من المحرقة خلال الحرب العالمية الثانية.

(٢) تبلغ نسبة المسلمين في ألبانيا ٧٠٪ من إجمالي السكان.

(٣) تقصد الرئيس "مهدي فراشري".

(٤) لفظ الجلالة "الله"، وقد قالته باللفظ العربي، وكذلك قاله وكتبه المحضرون لمعرض البيسا. ويستخدم الكتابيون غير الناطقين بالعربية لفظ "الله" فقط للتعبير عن إله المسلمين. ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

- أجل، ولكنه مبني على أسس دينية إسلامية راسخة، لذا فقد كان قراراً شعبياً أيضاً. ولا سيما أن اليهود لم يكونوا قد جاهروا المسلمين بالعداء حتى ذلك الحين، ولم يكونوا بعد قد انتزعوا منهم الأرض التي يسميها دينهم بـ "المقدسة" و"أولى القبلتين" و"أرض الإسراء والمعراج".

- يبدو أن زوج أمك قد علمك الكثير من المصطلحات الإسلامية. علّق أبراهام بانزعاج، ثم تابع على الفور، دون أن يمنحها أية فرصة لفتح نقاش جانبي:

- ولكن هل كان دافع الألبان لمساعدة اليهود إسلامياً؟ حسب! أعني أن أولئك الناس البسطاء الذين عرضوا أنفسهم للسجن والقتل، ألم يكن لديهم أي سبب آخر؟!

- وفق ما أعلم لا. فقد قال أحد أبناء المسلمين المكرمين في المعرض<sup>(١)</sup> عن والده: "كان أبي مسلماً تقياً، يؤمن بأن إنقاذ روح بريئة يفتح الباب إلى الجنة". كما قالت مصممة المعرض "يهوديت شندر": "إن أكثرية الألبان، إن لم يكونوا كلهم، كانوا مدفوعين لذلك بفهمهم للإسلام". أما المصور اليهودي الأمريكي "نورمان جيرشمان" الذي سافر خصيصاً إلى ألبانيا وقضى عدة سنوات في جمع الوثائق والصور والشهادات لأجل هذا المعرض، فقد اعترف بأن ما شجعه على العمل لأجل هذا المعرض، هو اكتشافه لـ"الوجه الجميل للحضارة الإسلامية": فخلال عمله في ألبانيا لجمع الصور والوثائق والشهادات من الشخصيات التي أنقذت اليهود، كان يسأل هؤلاء عن الدافع الذي كان يدفعهم إلى ذلك، فكان يسمع منهم أن الإسلام كان مرجعهم، ويستشهدون بالقرآن لإثبات ذلك.

(١) اسمه "أنور"، وجاء بالنيابة عن أبيه "علي شاكربكر". (توفي سنة ٢٠٠٤).

فرك أبراهام شعره بحيرة قائلاً:

- هذا هو ما لا أفهمه. فمن المفترض أن يكون المسلمون أعداء أذليين لنا.
- بل من المفترض أن يظل المسلمون أصدقاء اليهود وحُماهم، كما كانوا دوماً<sup>(١)</sup> قبل أن نحتل ثاني أقدس أرض عندهم، ونشرد سكانها المحليين. إن المسلمين لم يكونوا يوماً أعداءنا، ولم يؤذونا قط، حتى جاءت الصهيونية، التي هي من جعلت منهم أعداء لليهود.
- لم أعد أفهم شيئاً!
- عبر تاريخ الإسلام الممتد لأكثر من أربعة عشر قرناً لم يُحق المسلمون بنا أي ظلم، بل على العكس من ذلك، كانوا دائماً الملاذ الآمن لليهود الهاربين الذين توالى عليهم النكبات من طرف المسيحيين الذين سامونا صنوف العذاب على مدار ألفي عام، مثل مذابح "معصرة كروم الرب" في ألمانيا، ومحاكم التفتيش في إسبانيا، والمحرقّة النازية في ألمانيا مرة أخرى، والذين نبالغ الآن بالتزلف لأحفادهم: "أحفاد المسيحيين جلادين السابقين". ونسوم في الوقت نفسه سوء العذاب "أحفاد المسلمين الذين مدوا يد العون لنا مراراً وتكراراً"، عوضاً عن أن نحفظ لهم الجميل. وكما قال داعية السلام

(١) لم تمنع هذه المعاملة الحسنة والحماية بعض اليهود من الكيد للإسلام عبر عصورهم، وإن كان ذلك بشكل غير معلن. ويقول المؤرخ البريطاني "دوغلاس ريد" في كتابه الذي اختفى من الأسواق (جدل حول صهيون - دراسة للمسألة اليهودية منذ ألفين وخمسة مئة عام) ما نصه: "إن الإسلام لم يظهر العداء للديانة اليهودية، وأوغسطين (مؤرخ يهودي) نفسه كان راضياً إلى حد ما حيث قال: "إن الإسلام أجاز لغير المؤمنين الحرية الاقتصادية وإدارة الحكم الذاتي". . . . إن الإسلام كان متسامحاً بوجه عام مع أتباع الديانات الأخرى. . . . وإن ما حققه الدين اليهودي من ازدهار بحرية في ظل الإسلام ما كان بالإمكان تحقيقه في بداية انتشار الديانة المسيحية". ويواصل دوغلاس ريد قائلاً: "إن إمكانيات الازدهار هذه تم خلقها لليهود من قبل الإسلام على الأراضي الأوروبية في إسبانيا (الأندلس). لقد فتح الإسلام الغرب ليدخله بذلك أعنف عدو ظالم" (يعني اليهود). ويضيف دوغلاس ريد إن المؤرخ اليهودي الصهيوني اعترف وأكد: "أن اليهود قدموا مساعدات مالية سخية لمسيحيي الشمال في الغرب في أثناء صراعهم مع المسلمين القادمين من الجنوب". (دوغلاس ريد، ص ١٢٠-١٢١).

الإسرائيلي "يوري أفنيري"<sup>(١)</sup> - في معرض رده على فرية البابا الحالي بأن الإسلام انتشر بالسيف: "إن كل يهودي يعرف تاريخ شعبه جيداً لا بد أن يشعر بالامتنان للإسلام، الذي دافع عن اليهود وحماهم على امتداد خمسين جيلاً، في الوقت الذي كان فيه العالم المسيحي يضطهدهم ويطاردهم ويحاول المرة تلو المرة تحويلهم عن ديانتهم".

- هل يعني ذلك أنك أنت وذلك الكاتب اليهودي تنفيان كون الإسلام انتشر بالسيف فعلاً؟!!!

سأل أبراهام مستكراً، فردت هافا بثقة:

- بالتأكيد. وذلك ليس رأي الكتّاب اليهود المنصفين وحدهم، بل المنصفون من المسيحيين أنفسهم. فقد قال "توماس كاريل"<sup>(٢)</sup>: "لكن من أين ستأتي بسيفك!! كل فكرة جديدة في بدايتها تكون تماماً قاصرة على واحد، في عقل رجل واحد وحده، وهناك تكمن لأنه حتى تلك اللحظة يكون هناك رجل واحد في العالم كله يصدقها، إنه رجل واحد في مقابل الجميع. أن يأخذ سيفاً ويحاول أن ينشر به هذه الفكرة، لن يجدي إلا قليلاً؛ يجب أولاً أن تدافع عن نفسك بسيفك، ثم سينتشر الشيء بنفسه بعد ذلك إذا كان يستطيع. ونحن لا نجد أن الدين المسيحي أيضاً كان دائماً يترفع عن استعمال السيف عندما حظي به يوماً. وعندما حوّل "شارلمان"<sup>(٣)</sup> السكسونيين إلى المسيحية فإن

(١) كاتب صحفي علماني، ونائب سابق في الكنيسة، ومؤسس حركة "غوش شالوم" (كتلة السلام) وهي من أشهر المنظمات السلمية في الكيان الصهيوني وأكثرها جذرية. وقد اتهمه المتشددون بالخيانة القومية بسبب آرائه، وطالبوا بتقدمه إلى المحاكمة.

(٢) في كتاب "الأبطال وعبادة الأبطال"، لندن ١٩٥٩، صفحة ٨٠.

(٣) ظل شارلمان يحارب السكسونيين ثلاثاً وثلاثين سنة كلها عنف ودموية حتى أخضعهم وحولهم قسراً إلى الكاثوليكية. ولزيد من المعلومات حول ذلك الملك الذي أصبح إمبراطور الغرب بواسطة بابا رومه راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

ذلك لم يكن بالوعظ"<sup>(١)</sup>.

(١) كما قال الكاتب اللاديني "نادر قريط" في معرض رده على إحدى الكاتبات الحاقداات على الإسلام والمتمسحات بمسوح الغرب "وفاء سلطان": "وبعد قبولي الحذر لمقدمتك، اسمحي لي بالتوقف عند مقولتك: إن العقلية التي تقولت على مدى ١٤ قرناً تحت حد السيف لن تتحرر بسهولة من سلطة السيف(انتهى). وبما أنك تعين بسلطة السيف الإسلام كقوة للبطنش، (كما ذكرت في السياق)، فلن أوافقك، رغم أن المضمون يبدو متماسكاً لأول وهلة؛ ببساطة لأن سيف الإسلام كسر منذ تفتتت الدولة انعباسية، وقدام الحملات الصليبية (التي أكلت لحوم البشر في معرة النعمان كما تذكر وثائق الفاتيكان)، ومنذ أن اضطر السلطان السلجوقي رفع الصليب على جامع حلب الكبير لعشرين سنة (تنفيذاً لشروط الهدنة مع الصليبيين). لقد كسر سيف الإسلام منذ دمر المغول بغداد عام ١٢٥٨م (قبل أن يكونوا مسلمين)، وكسر سيفهم مذ طردوا من الأندلس، في ذلك الوقت كانت حجاجا "إن الله محبة" تبقر بطون اليهود بحثاً عن الذهب، الذي بلعوه أثناء هربهم، وبينما كانت تطفو جثثهم على الماء كانت السفن النهارية تنقل ما تبقى من الناجين إلى شواطئ المغرب وإلى سالونيكى أرض السلطان العثماني. وفي أتعس الحالات كسر سيف الإسلام منذ خضوع الدولة العثمانية لسلطة القناصل الأوربيين. وكل ما ذكرت ليس من جيبي أيتها السيدة الفاضلة، هذا ما يذكره رجال التنوير الأوروبي، وكتاب بقامة شاعر ألمانيا الخالد غوته، الذي لم يخف إعجابه بالإسلام قط!!... لا تهمني مقولات المسيح، عن الخد الأمين والأيسر؛ لأنها لم توقف حربين عالميتين، كلفتا القارة المسيحية مئة مليون إنسان لم يكن للإسلام بها ناقة أو بعير، ناهيك عن حرق ملايين اليهود على أيدي أبناء الإصلاح الديني اللوثري وأصحاب مقولة المسيح: أحبوا أعداءكم. ولا يهمني القاضي الفرنسي صديق أخيك بل المعدبون في الأرض لفرانس قانون، والضابط الفرنسي الذي قتل أربعين ألف جزائري في يوم واحد؟؟ ولم يبق لي في النهاية إلا الابتسام وأنا أرى الغرور الذي تكتبين به. يؤسفني أن أسمعك تتحدثين عن وفاء سلطان المطرقة التي تهشم صخور التخلف. خجلت من هذا الكلام في البداية وأخذت أقفز فوق السطور وكأني فعلت فعلة. أخيراً وبينما كنت في ذروة ارتياكي تذكرت مقولة أوسكار وايلد: أمريكا هي الوحيدة التي انتقلت من الهمجية إلى الانحلال دون أن تمر بالحضارة. ملاحظة: الكتابة فعل يمكن اقترافه كما الجرمية". (انتهى). ومع أنني أعترض على عدم نفي كاتب المقال لتهمة أن الإسلام قد يكون انتشر بالسيف فعلاً في عصر قوته، ومع أن كتاباته عموماً هي ضد الأديان كافة بما فيها الإسلام، إلا أنني استشهدت منها بهذا المقطع، والمقطع السابق، فقط لأظهر اعتراف هؤلاء أيضاً بأن انتشار الإسلام لم يكن بفضل حد السيف، وأن المسلمين أجاروا اليهود وأن تاريخ المسيحية لم يكن بهذه الوداعة والتسامح والقبول بالآخر كما يدعون وهم ينتقدون تاريخ الإسلام.

- لقد كانت الصورة النمطية للإسلام عندي، وعند أغلب اليهود كما تؤكد جازماً، مختلفة عن ذلك تماماً.
- هذا بسبب الدعاية الحديثة، سواء من جانبنا أو جانب المسلمين أنفسهم حالياً.
- ولكن لو تفحصت المناهج المدرسية وكتب التاريخ والأدب قبل نشأة الصهيونية، لما وجدت في كتبهم، ولا حتى في كتبنا، أي أصل لما يتردد الآن.
- ولكن مهلاً. أليس في كتب المسلمين ما يشير إلى مذبحه لليهود في آخر الزمان؟! - أجل بالطبع، ولكن ذلك كان يدخل عندهم في علامات يوم القيامة التي ستحصل بالمستقبل، ولم تؤثر على حاضر المسلمين في يوم من الأيام. وستجد ذلك في كتب المسيحيين أيضاً، حيث سيؤمن اليهود الأخيار بابن الرب في آخر الزمان ويقتل بقية اليهود جميعاً. ولكن مبادئ كـ"اليهود هم قتلة الرب"، و"على أولادهم دمه إلى يوم الدينونة"، و"اليهودي الصالح هو اليهودي الميت أو اليهودي الذي يرتد عن دينه ويؤمن بالمسيح": ظلت مسيطرة على المسيحيين طوال ١٩٠٠ عام من تاريخهم، في حين لم تؤثر نبوءات قتل يهود آخر الزمان على المسلمين تجاه معاصريهم اليهود حتى احتلالهم لفلسطين قبل بضعة وستين عاماً، فآنذاك فقط فهم المسلمون سبب قيام حرب بينهم وبين اليهود في آخر الزمان.
- ليت هذا المعرض يقام في كل بلدان الدياسبورا، ليسمح لليهود باكتشاف الوجه الآخر لتلك الصورة السلبية عن الإسلام بأنفسهم.
- سينتقل المعرض إلى مقر الأمم المتحدة في نيويورك في ٢٧ / ١ / ٢٠٠٨ وذلك بمناسبة اليوم العالمي لذكرى المحرقة. كما أن السعوديين<sup>(١)</sup> - السلفيين بالمناسبة - قد تبرعوا بمبلغ لا بأس به<sup>(٢)</sup> لدعم مشروع كتاب مصور، وربما فيلم سينمائي يحمل الاسم

(١) تقصد مؤسسة الملكة تحت إشراف مباشر من الأمير الوليد بن طلال.

(٢) مليون ونصف المليون ريال سعودي.



نفسه. وقد كتب الرئيس السابق لأمريكا "جيمي كارتر" تعليقاً مشجعاً في مقدمة ذلك الكتاب تمنى فيها أن يرجع المسلمون واليهود إلى سابق عهدهم<sup>(١)</sup> والذي يتضمن وثائق وصوراً، وشهادات لعائلات مسلمة تستدل بآيات من القرآن الكريم، مؤكدة ضرورة مساعدة الغير، وإعانة المحتاج، وخاصة أبناء العمومة من اليهود.

- أبناء العمومة!؟

ردد أبراهام بدهشة، وفأجابت هافا موضحة:

- صحيح أننا أبناء عمومة العرب، وليس الألبان، ولكنهم يقصدون الناحية الروحية، لا المادية. فكلتا الديانتين، نشأت عن أب روحي واحد هو جدك الذي سميت باسمه "أبراهام"<sup>(٢)</sup>؛ فنحن من نسل حفيده "ياكوب"<sup>(٣)</sup> ونسل من تبعهم على مر العصور، وهم من نسل ابنه "يشمائيل"<sup>(٤)</sup> ونسل من تبعهم على مر العصور أيضاً.

وفي هذه اللحظة رن جرس الهاتف، وكان المتحدث "أفرام أهاروني" أحد أصدقائها من الحاخامات المحافظين، الذي لا يكف عن الجدل حول المذاهب اليهودية محالاً إقناع الجميع بمذهبه. فأشارت هافا لأبراهام كي يقترب ويستمع إلى المحادثة الدائرة بينهما، بعد أن تعمدت جره إلى موضوعه المفضل. فما كان من أبراهام بعد أن استمع إلى طرف من كلامه، إلا أن أشار إليها لدعوته إلى منزلها، ولكنها هزت رأسها غير موافقة، والتفتت بعيداً عنه محاولة إنهاء المكالمة بسرعة.

(١) كتب الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر في مقدمة الكتاب: "في الوقت الذي يقوم فيه الإعلام بتسليط الضوء على النزاع بين المسلمين واليهود، من المسعد تذكر أن التعاون المشترك والصدقة بين الطرفين كانت من سمات علاقاتهم. والقصص المذكورة مع صور السيد جيرشمان مثيرة جداً، حيث عرّض المسلمون الذين أنقذوا اليهود في الحرب العالمية الثانية حياتهم لمخاطرة هائلة. وأمل بروج هذه الصور وقصصها؛ إذ تقدم أملاً لمستقبل يسيطر فيه المسلمون واليهود على نزاعاتهم والتركيز على الإنسانية التي تربط بعضهم ببعض".

(٢) أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

(٣) نبي الله يعقوب (إسرائيل) عليه السلام.

(٤) نبي الله إسماعيل عليه السلام.

المشكلة أن أفرام كان قد استرسل في الحديث، ولم يعد إيقافه سهلاً، كما أن أبراهام لم يسمح لها بالتركيز: فقد استدار حولها من الجهة الأخرى وهو يقوم بحركات التوسل والرجاء بشكل هزلي أضحكها فعلاً، إلا أنها مع ذلك ظلت مصرة على الرفض، واستدارت إلى الجهة السابقة، لكن أبراهام لم يتبعها كما توقعت، فالتفتت إليه، وإذا به واجم وقد بدا الإحراج على وجهه، فما كان منها إلا أن دعت أفرام إلى زيارتها في الساعة الرابعة، لإتمام حديثه بحضور أحد أصدقائها، الذي يرغب في تعرف اليهودية المحافظة. وبالطبع وافق أفرام دون تردد، فوضعت سماعة الهاتف، ثم التفتت إلى أبراهام قائلة بشيء من العتاب المشوب بالمن:

- هل أنت مرتاح الآن؟ سنقضي اليوم أيضاً بالحديث عن الدين. ومع من؟! مع أكثر الناس ثرثرة وتشبثاً برأيه في العالم. سيكون وقتاً ممتعاً جداً.

- أشكرك كثيراً. أنت تتفهمين أنه وسط هذا التنوع اللافت في الفرق الدينية، يعتبر التعميم شبه مستحيل فيما يتعلق بمعتقداتها، ومن ثم فإن الطريقة الوحيدة لفهم معتقدات أي منها، هي التحدث مع أحد معتنقيها مباشرة.

- أجل، ولكنني كنت أريد أن نتسامر اليوم بعيداً عن حديث الدين، وكل المواضيع الجادة الأخرى.

- أفهم هذا جيداً. ولكن الوقت أمامنا، وستكون هناك فرص أخرى للتسامر لاحقاً. انطلقت صفارة وعاء البخار المضغوط، معلنة نضح الطعام. فقالت هافا:

- الغداء جاهز. سأذهب لتحضير المائدة.

- وأنا سأساعدك، ولكن حدثيني قليلاً عن أفرام هذا.

فرفضت بحزم قائلة:

- أبداً. فيكفي أنه سيفسد سهرتنا، ولن أسمح له بإفساد غداثنا أيضاً، لذا فلن نتحدث عنه مطلقاً، وعندما يأتي ستستمع إليه شخصياً.

- كما تريد يا عزيزتي.

جلس أبراهام إلى المائدة يتأمل الطعام المدعو إليه من قبل يهودية، بل حاخام، لم تكلف نفسها عناء مراعاة الشريعة اليهودية الأرثوذكسية فيه، ولو من باب المجاملة فقط. ثم قارنه بطعام الكوشير الذي دعاه إليه مسلم متدين هذا الصباح احتراماً لمشاعره وتمسكه بدينه، وللأسف لم تكن المقارنة في صالح هافا كما كان يأمل، خاصة بعد المشاعر الجياشة والرغبة التي أبدتها لإرضائه وكسب وده. راودته فكرة التذرع بعذر ما كالعادة للامتناع عن الطعام، إلا أنه كان يعلم أن هافا أذكى من أن تخدع بهذه البساطة، كما أنه هو من أصر على دعوتها إياه في منزلها أول مرة، مع أنه يعرف بعدم مراعاتها للكوشير، ولم يعد يستطيع التراجع في المرة الثانية.

حاول إقناع نفسه ببعض الليونة؛ ففي النهاية ليس في الطعام الذي تقدمه أية مخالفة صريحة للناموس، فاللحم فيه لا يحوي شحماً ولا دماً، وليس مما لا يشق ظلفاً أو مما لا يجتر، ولم يذبح لوثن، كما لم يجمع بينه وبين اللبن، والمخالفة هي في شروط تحضيره فحسب<sup>(١)</sup>، ولما كان بعض الشك يداخله أصلاً بشأن تلك الشروط التلمودية المعقدة، ولما كان قد تجاوزها سابقاً في المنتجع، فإنه فلم ير مانعاً من تجاوزها مجدداً ريثما تتبين له الحقيقة بوضوح ودون لبس، ولا سيما أنه قد تجاوزها أصلاً يوم أمس في المطعم. فقد قرأ في جريدة اليوم أن بعض الدبلوماسيين الإسرائيليين قد احتجوا على تكفل الحكومة فقط بفواتير المطاعم التي تراعى فيها قوانين الكشروت. وإذا إن معظم تلك المطاعم ليست على درجة مقبولة من الفخامة، فقد وجد الدبلوماسيون في ذلك إخراجاً لكبار ضيوف الدولة الأجانب، مقترحين إلغاء ذلك الشرط بالنسبة إليهم. وهذا يعني أن مطعم الأمس، وإن كان يهودياً، إلا أنه كبقية المطاعم الفخمة في إسرائيل لا يخضع لشروط الكشروت.

(١) أحد هذه الشروط اليهودية الأرثوذكسية مثلاً هي نقع اللحوم، قبل طهيها، في ماء بارد، ثم في الملح، لضمان تفتيتها من الدم تماماً.

- مرحباااا، عما قليل سيبرد الطعام. فيماذا تفكر؟
- ابتسم أبراهام على مضض، وقال متصنعاً الإعجاب:
- لا شيء. فقط أتأمل الطريقة الأنيقة التي رتبت بها المائدة.
- يسرني سماع ذلك مع أنني لا أصدقك أيها المخادع. لا تخف، فالطعام شهى حقاً.
- أنا واثق من ذلك.

## ◀ إصلاح محافظ

لم تكد الساعة تبلغ الرابعة عصراً حتى دق جرس الباب الخارجي.

- أف، بهذه السرعة.

قالت هافا بضيق وهي تنظر إلى ساعتها، ثم قامت متناقلة، والتقطت سماعة

"الإنترفون"، لترحب بأفراهم، وهي تضغط على زر فتح الباب الخارجي للعمارة. وبعد

أن وضعت السماعة مكانها رسمت على وجهها تعابير ساخرة وهي تقول:

- وداعاً للوقت الممتع.

فتبسم أبراهام قائلاً:

- يبدو أنك تعتبرينه مملاً فعلاً!

- ليس تماماً، فأنا أحب المناقشة معه أحياناً، لكن ليس اليوم. ليس الآن.

- أقدر ما تفعلينه لأجلي.

- أتمنى ذلك.

- بالمناسبة. لا داعي لذكر أنني كنت أنتمي إلى جماعة ناطوري كارتا التي لا ريب

يعتبرها أصولية متزمتة، بل ولا داعي لذكر أنني حاخام أصلاً.

- كما تريد.

دُق باب الشقة، ففتحت هافا الباب مرحبة، ثم قامت بتعريف كل منهما على الآخر،

دون أن تذكر رتبة أبراهام الدينية وفق رغبته، ودعتهما للجلوس.

لم يبدأ أفراهم بعبارات المجاملة الاجتماعية المعتادة، ولم يرق بفتح أية مواضيع

جانبية عامة لبناء جو من الألفة، ولم ينتظر حتى أن تفتح هافا أو أبراهام الموضوع، بل

دخل فوراً في صُلب الموضوع الذي قدم من أجله، ودون أي مقدمات:

- لقد قالت لي هافا أنك مهتم باليهودية المحافظة.

- هذا صحيح.

- وهل تفكر جدياً باعتاقها؟

التفت أبراهام إلى هافا، التي أشاحت بوجهها بعيداً كي تخفي ابتسامتها الساخرة.

ثم عاد ينظر إلى أفرام المتحمس، وهو يقول ملاطفاً:

- أنا لا أعرف الكثير عنها لأفكر جدياً بذلك. كل ما في الأمر هو أنني أرثوذكسي،

وهافا إصلاحية، وقد تناقشنا كثيراً في الطقوس اليهودية، دون أن يُقنع أحدنا الآخر،

لذا أحببت أن أسمع وجهة نظر تكون اتجاهاً وسطاً بيننا.

مط أفرام شفتيه كناية عن عدم الرضا بما سمعه، وقال معترضاً:

- يبدو أنك حقاً لا تعرف شيئاً عنا؛ فاليهودية المحافظة ليست اتجاهاً وسطاً بين

صنفين من اليهودية. ولا تتس أنه مع أن المسيطر على الحياة الدينية في إسرائيل لا

يزال اليهودية الأرثوذكسية، ومع أن انتشار الفكر الإصلاحية كبير في أوروبا، ومن ثم

في الولايات المتحدة، إلا أن الثقل الديني والسياسي، بل السكاني أيضاً، لليهود في

الدياسبورا، وبالذات في الأمريكيتين، هو بيد اليهودية المحافظة أكثر من أي منهما.

- أوافقك في ذلك تماماً. وهذا بالضبط هو سبب طلبي لشرف مقابلتك، والتحدث

معك. فهل لك أن تتفضل وتشرح لي مبادئ دينك.

عدلاً أفرام جلسته بشيء من الكبر، وقال كمن يملي بشروطه لنشر الجواهر والدرر

التي بحوزته:

- هذا من دواعي سروري، ولكن يجب أن تُزيل منذ البداية، كل التفاهات التي لا بد

أن هافا قد ملأت رأسك بها؛ كقولها مثلاً إن اليهودية المحافظة ليست سوى ردة فعل

على اليهودية الإصلاحية. وأنها...

- مهلاً.

قالت هافا معترضة، ثم التقطت الهاتف وهي تقول:

- لقد جنيت على نفسك يا أفرام، فمع أن هذا هو صحيح مئة بالمئة، إلا أنني لم أتفوه بذلك لأبراهام، ولم أقل كلمة واحدة ضدكم مع أن لدي الكثير لأقوله في هذا المجال. لكن ما دمت قد بدأت بالهجوم والاستفزاز، وما دام ذلك الأرثوذكسي يجاريك وينافقك، فإنني مضطرة إذن إلى طلب الدعم من جارتى العزيزة.

ظهر الضيق على وجه أفرام، الذي قال بتوجس:

- أنت لا تعنين "تسيبي"، أليس كذلك؟

- هي بعينها.

قالت ذلك وهي تضرب رقمها. فما كان من أفرام إلا أن وضع يده على زر الهاتف ملغياً المكالمة قبل بدئها وقال بتودد متكلف:

- أنا أسف يا عزيزتي فيبدو أنني تماديت قليلاً... لا داعي لاستدعائها، فأنت تعلمين حساسية الموقف بيننا. أرجوك... وأعدك بأن أخفف من حدة كلامي.

فأعدت هافا السماعة إلى مكانها، وقد ارتسمت على وجهها معالم الانتصار، فسأل أبراهام مستفسراً:

- ومن تسيبي هذه؟

فأجابت هافا وهي تحاول إخفاء ابتسامتها:

- إنها من "اليهودية الإنشائية"<sup>(١)</sup>.

ثم أردفت بخبث:

(١) اليهودية الإنشائية (Reconstructionism)، والاسم الكامل هو يهودية إعادة الإنشاء (أو إعادة البناء)، وترجم أيضاً إلى "اليهودية التجديدية". وهي مذهب يهودي حديث، انشق عن اليهودية المحافظة، وهو متطرف بليبرالته. يؤمن أتباعه بما يفهمون من التوراة والطقوس اليهودية، ولا يلتزمون بما يجدونه غير قابل للفهم.

- وفوق ذلك، فهي من أشد خصوم أفرام. وفي كل سهرة لنا يكون فيها الاثنان، تقع حرب ضروس بينهما.
- ومن ينتصر عادة؟
- سأل أبراهام مبتسماً، فأجابته هافا وهي تنظر إلى أفرام باستخفاف:
- تستطيع استنتاج ذلك من حالة الخوف والهلع التي أصيب بها صديقنا العزيز.
- اتصلي بها من فضلك، وسترين لمن الغلبة.
- قال أفرام بتحدٍ، ثم أردف موضعاً:
- أنا لست خائفاً من مناظرة تسيبي أو غيرها: كل ما في الأمر هو أنني قدمت إلى هنا لشرح حقيقة ديني لشخص مهتم بذلك، ولم آت من أجل مهاترات كلامية. ولكن وبعد ما قلته، ونظراً إلى اهتمام صديقنا الجديد فلا مانع عندي من الفوز عليها بمناظرة أخرى.
- واو. تبدو واثقاً من نفسك فعلاً!!! ولأنك صديق عزيز جداً على قلبي، فلا أستطيع احتمال ذنب حرمانك من هذه الفرصة لإثبات تفوقك.
- التقطت السماعة مجدداً وهي تبسم، لتتصل بتسيبي وتشرح لها الموضوع باختصار، ثم وضعت السماعة مكانها قائلة:
- ستغير ملابسها وتأتي إلينا حالاً. ولقد تحمست كثيراً للنقاش معك مجدداً.
- فتحنح أفرام قائلاً:
- يبدو أنها لا تزال تحلم بالاقترصاص من الهزائم المتوالية التي أنزلتها بها، ولكن هيهات.
- قال ذلك موجهاً حديثه إلى أبراهام، وهو يختلس النظر بطرف عينه إلى هافا توجساً من تكذيبه أو السخرية منه، فنهضت بدورها على الفور وهي تحاول كتمان ضحكة كادت تفلت منها، ثم قالت متصنعة الجدية:



- سأذهب لإعداد الضيافة. أرجو أن تفتحا لها الباب حين تصل.  
انتهز أفرام فرصة غياب هافا وقال متهمكاً:

- لقد مَسَّخ هؤلاء الليبراليون المغالون الديانة اليهودية حتى باتت أشبه بواحدة مما ما يسمى بـ"ديانات العصر الجديد"، لدرجة أن أحدهم ابتكر ما بات يعرف بـ"تورا إيروبيكس"<sup>(١)</sup>، ولم تحتجَّ أي من المؤسسات الدينية اليهودية الإصلاحية المسؤولة على هذه "البدعة" الجديدة. كما سمحوا للشواذ جنسياً بالانضمام إلى الأبرشيات الإصلاحية المختلفة، بل وافقوا بعد ذلك على أن يُرسم منهم حاخامات أيضاً، هذا بالإضافة إلى ترسيمهم لحاخامات سحاقيات يجاهرن بسحاقيتهن دون خجل، مما يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن اليهودية، وفقاً لمنهجهم، قد بدأت تتحول من الداخل إلى إحدى تلك العبادات الجديدة فعلاً، بعد أن فقدت الصلة تماماً باليهودية الحاخامية. ألا تتفق معي في ذلك؟

فقال أبراهام بشيء من الدبلوماسية:

- للأسف ليست لدي المعلومات الكافية التي تمكنني من الحكم على الأديان.  
فنظر إليه أفرام باستغراب:

- هذه أول مرة في حياتي أستمع إلى مثل هذا الرد من أرثوذكسي، خصوصاً بعد

الذي أخبرتك به! إلى أي فرقة تنتمي؟

فقال أبراهام بشيء من الحرج:

- في الواقع، أنا لا أنتمي إلى فرقة معينة، فأنا فقط يهودي، أو من بالرب،

وبالتوراة.

(١) تورا إيروبيكس تعني "ألعاب التوراة". وهي ممارسة التمرينات الرياضية المعروفة بالإيروبيك بمصاحبة التوراة. وقد قام أحد الحاخامات الإصلاحيين في "لونغ أيلاند" (الولايات المتحدة)، بدراسة التوراة ومن ثم تلاوة بعض نصوصها بمصاحبة تلك التمرينات الرياضية ضمن الاحتفالات التقليدية المصاحبة "لعيد النصب".

- إن اليهودية المحافظة هي الإطار الصحيح لذلك، أما هم فيؤمنون بـ"شحوب الرب"، ويستبدلون بالإيمان به إيمانهم بـ"تسايت جايست"<sup>(١)</sup>.
- قال أفرام بحماس. فرد عليه أبراهام متشككاً:
- ولكن، ألا تؤمنون أنتم بدوركم بـ"فولكس جايست"<sup>(٢)</sup>، وأن هذه الروح قد تجلت عبر التاريخ بأشكال مختلفة؟
- فرد أفرام بامتعاض بالغ قائلاً:
- يبدو أنك تحدثت كثيراً مع هافا حول هذا الموضوع.
- هز أبراهام رأسه بالموافقة، كي يتجنب إضاعة الوقت فيما لا طائل منه، فأردف أفرام موضعاً:
- إن هذا يعني عندنا تبني النموذج الشعبي، أي تقديس "الفولك"<sup>(٣)</sup> وتاريخه وتراثه وأرضه.
- فقال أبراهام مستهجنًا:
- ولكن هذا هو النموذج النازي ذاته.
- يا لخبثها ولؤمها.
- قال أفرام وهو يستدير جهة المطبخ حيث ذهبت هافا، ثم عاد لينظر إليه قائلاً:
- صدقني، إذا كنت تبحث عن الحقيقة حقاً، ولا تبحث عن زُخرف القول، والتلاعب بالألفاظ، فعليك تجاهل كل الأوهام التي سمعتها من هافا عنّا: فالإصلاحيون يغيرون منا.
- لماذا؟

(١) تسايت جايست هو مصطلح باللغة الألمانية يعني "روح العصر".

(٢) فولكس جايست هو مصطلح باللغة الألمانية أيضاً ويعني "روح الشعب".

(٣) فولك هي كلمة ألمانية تعني "الشعب" (المختار).

- لأنهم كانوا الفرقة الدينية الأوسع انتشاراً حتى نهاية القرن التاسع عشر، وكانوا يتوقعون اكتساح جميع يهود العالم. لكن، ومع ظهورنا، توقف مدهم، وصار عامة اليهود يتحولون إلى ديننا نحن، بدلاً من دينهم. بل إن كثيراً من الإصلاحيين أنفسهم، تحولوا أيضاً إلى ديننا، لتتراجع اليهودية الإصلاحية إلى المركز الثاني بسرعة صاروخية، ولقد دفعهم هذا إلى الكيد لنا مع أنهم يُبدون الكثير من المرونة تجاهنا في الظاهر... فقاطعه أبراهام قائلاً:

- وماذا عن اليهود الإنشائيين؟

فقال أفرام زاماً شفّيته باحتقار:

- إنهم قوم تافهون، يقولون إن أجدادنا اليهود القدامى كانوا بدائيين جداً، وأن اليهود تطوروا عبر تاريخهم، مغيرين التوراة بانتظام كلما خرج مجتمع جديد منهم. ولديهم حكمة مشهورة تقول: "the past has a vote, not a veto"<sup>(١)</sup>، ويعنون بها التوراة، التي إذا لم يعجبك فيها شيء مما تقوله، فلا بأس عليك، أتركه، وافعل ما يحلو لك. كما لا يوجد لدى هؤلاء القوم أي مانع من الاندماج الكامل بالغوييم، وبالذات الأمريكيين المسيحيين. ثم، هل تعلم أنهم...

رن جرس الباب في تلك اللحظة فتوقف أفرام عن الكلام فزعاً، ثم تمالك نفسه وذهب ليفتح الباب.

- آه عزيزي أفرام. كم اشتقت إليك.

قالت فتاة سميئة وهي تصافح أفرام وتطبع قبلة على وجهه.

فأجابها بتكلف واضح:

- وأنا أيضاً.

(١) عبارة إنجليزية تعني: "الماضي له صوت فقط، وليس فيتو (حق للاعتراض)"; أي إن الماضي له فقط صدى على الحاضر، لكنه لا يغير فيه شيئاً. وهي من أشهر شعاراتهم.

ثم أردف بخبث:

- يبدو أنهم يطعمونك جيداً في أبرشيتك العتيدة.

وفي هذه اللحظة دخلت هافا إلى الصالة تحمل صينية عليها أكواب القهوة والحلويات، فوضعتها على الطاولة قائلة:

- كف عن استفزازاتك يا أفرام: فأنت كالعادة تبدأ الهجوم والاستفزاز، وفي نهاية النقاش تشتكي من سوء النية وعدم اللباقة كما تسميهما، حتى تكاد تبكي. مرحباً تسيبي تفضلي، ولا تهتمي كثيراً بما قاله.

- أنا؟؟؟

قال أفرام باستتكار وهو ينظر إلى وجه أبراهام ليستشف أثر ذلك الكلام عليه، إلا أنه لم ير شيئاً، فتابع قائلاً:

- ومنذ متى كنت أنا البادئ بالاستفزاز؟ لقد سألتها سؤالاً عادياً دون أن ألمح إلى شيء معين؛ فصححتها تبدو جيدة بالفعل، لكنكم دائماً تسيئون الظن بي. ثم إنني لم أشتك يوماً من سوء معاملة الطرف الآخر، بل أترفع عن ذلك تماماً، مع أن لدي أنا أيضاً الكثير لأقوله.

فعلقت هافا غامزة:

- كما ترفعت لتوك بشأن السخرية من الإصلاحية، والإنشائية حين كنت أعد لكم القهوة والحلويات؟

فاحمر وجهه خجلاً، وأطرق ينظر إلى الأرض، إلا أنه رفع نظره إليها مجدداً، وقد تمالك رباطة جأشه، وقال كأنه أستاذ يؤنب طالباً صغيراً:

- هافا.. لم يكن من اللائق أن تتنصتي علينا. ألا تظنين ذلك؟!

- آه ها. لقد أوقعت بك أيها الساذج، إذن فقد سخرت من ديننا فعلاً.

ثم هزت برأسها بأسف، كناية عن فقدان الأمل بأي تغيير في أسلوبه، وأردفت قائلة:

- كنت أعرف هذا.

كان من الممكن أن تستمر هذه المشادة لمدة أطول، لولا أن أبراهام أوقفها موجهاً الحديث إلى هافا:

- أئن تعرفيني بصديقتك اللطيفة؟

فقال هافا بارتباك كأنها نسيت شيئاً مهماً:

- أوه، عفواً. أبراهام هذه "تسيبي لفنات" صحيفة في جريدة "يدعوت أحرينوت"، وهي تسكن في البناء المجاور. تسيبي هذا أبراهام دوخافيتسكي، حاخام روسي من جماعة ناطوري كارتا.

ردد أبراهام عبارات التعارف مع تسيبي وهو ينظر بطرف عينيه إلى أفرام الذي بدا مصعوقاً بما سَمع، ثم رمى هافا بنظرة عتاب قاسية لما تفوهت به قبل قليل، مما زاد من إرباكها.

ران صمت طويل بينهم جميعاً، حتى قطعتة تسيبي مستغربة:

- اعدروني ولكن هل فاتني شيء؟ فتبدون جميعاً، وكأنكم قد تلقيتم للتو خبراً مفاجئاً؟

فقال أفرام:

- ألم تقهمني بعد؟ هناك لعبة ما تدبرها هافا مع صديقتها الجديد: ففي البداية قالوا إنه أرثوذكسي عادي لا ينتمي إلى أي طائفة، وإنه مهتم باليهودية المحافظة، وطلبوا مني الحضور للتحدث عنها، وفجأة صار مهتماً باليهودية الإنشائية، وطلبوا منك الحضور بحجة مساندة هافا ضدنا أنا وأبراهام! والآن عرفنا بزلة لسان منها أنه حاخام أرثوذكسي حريدي، ومن أشد الفرق الحسيدية تطرفاً. أليس كل هذا غريباً؟

أوليس غريباً أيضاً أن تصبح هافا فجأة موضوعية محايدة تحرص على توفير كل الفرص لشخص ما لتعرف أديان غير دينها، وهي من هي في تعصبها لدينها، وسعيها الدؤوب لإقناع الجميع به؟! إن في الأمر خدعة، لا أعرف ما هي تحديداً، ولكنها خدعة بالتأكيد.

فقال تسيبي بحيرة:

- هافا، ما معنى كل هذا؟

فتحت هافا فمها لتتكلم، إلا أنها أغلقتة مجدداً ولاذت بالصمت. فتصدى أبراهام للإجابة قائلاً:

- صدقوني لا توجد أي لعبة أو خدعة في الموضوع، وكل ما سمعتموه كان صحيحاً: فأنا فعلاً لا أنتمي حالياً إلى أي طائفة معينة، وقد تركت مذهبي لأسباب خاصة، لا أرغب الآن في الخوض بها. لذا أنا مهتم فعلاً باليهودية المحافظة، وبكل الطوائف اليهودية الأخرى أيضاً، عليّ أعثر بينها على ما يُقنعني أكثر من ديني السابق. وهافا فعلاً تساعدني في ذلك، خارج إطار دينها، بعد عدم استجابتي له. وهي تفعل ذلك بدافع الصداقة، وبنبل شديد، مع أنها تتعصب لدينها. وكل ما في الأمر هو أنني طلبت منها أن تخفي حقيقة كوني حاخاماً، وأنا لاوي بالمناسبة، وذلك كي لا أضطر إلى التوضيح المحرج الذي أقوم به الآن، ولأقف موقف المستمع الصامت الحيادي، متجنباً المشاركة في أي جدل بيزنطي، أو ما يتبع ذلك من اضطرابي، رغم أنني، لتمثيل مذهب معين، ومن ثم الدفاع عنه، خصوصاً أنني أمرٌ حالياً بمرحلة لم أعد أوّمن بها بأي شيء بشكل مطلق.

فقال تسيبي:

- أنا أتفهم ذلك تماماً، ولا داعي للشعور بأي حرج؛ فنحن نقدر فيك بحثك عن

الحقيقة، ولن نتدخل في خصوصياتك. أليس كذلك يا أفرام؟

- بالطبع، بالطبع. وقد أحسست بذلك منذ البداية، لذلك دفعتك إلى التخلص من عبئك وفتح قلبك لي... أقصد لنا، حتى نتمكن من مساعدتك.

ظهرت البسمة مجدداً على وجوههم بعد ادعاء أفرام وبدا أن الإشكال قد حل فعلاً، فقالت تسيبي بشيء من المرح:

- إذن، وباعتباري أكثركم تواضعاً، لكوني الوحيدة بينكم التي لم تُضع خمس سنوات من عمرها، لتحصل على لقب حاخام، أعلن نفسي، وبمنتهى التواضع، رئيسة لجلسة مناظرة الأديان هذه، تحت عنوان: "مساعدة أبراهام في بحثه عن الحقيقة وتحريره من الأوهام".

ثم صاحت بصوت عال:

- فُتِحَت الجلسة.

## ◀ مناظرة تنويرية

بدأت تسيبي المناظرة بدعابة خبيثة وهي تقول غامزةً:

- أفرام. هل لك أن تعطينا نبذة عن دينك العتيد، وعن سبب الهزال والشحوب الشديدين البادين عليك. ألا يطعمونكم جيداً في أبرشيات اليهودية المحافظة؟! فضحك الجميع باستثناء أفرام، الذي تصنع الابتسام ليخفي حرجه من ردها له الصاع على هذا النحو. وقال متملماً:

- كنت سأرحب بدعابتك هذه، لولا سوء النية وعدم اللباقة اللذان يفوحان منها. على كل حال سأترفع عن ذلك، كشأني دائماً.

ثم عاد لتصنع الوقار وهو يجيب على الشق الأول من سؤالها:

- إن اليهودية المحافظة هي الوريث الفعلي لليهودية الأصيلة، وقد تبلورت في الولايات المتحدة، أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وتهدف إلى الحفاظ على استمرارية التراث اليهودي، باعتباره الجوهر، مع الاستجابة لوضع اليهود في العصر الحديث. وهي تدور في إطار الحلولية التقليدية دون أن توسع نطاقها لتضم غير اليهود، كما فعلت اليهودية الإصلاحية، أو اليهودية الإنشائية بشكل أكبر: فهي تؤمن بالثالوث الحلولي: "الإله، والشعب، والأرض". وفي حين يؤكد الأرثوذكس أولوية الإله (والوحي والتوراة)، نبرز نحن أهمية الشعب (وتراثه وتاريخه).

- أي إن الاختلاف ينصرف إلى تأكيد أحد عناصر الثالوث الحلولي على حساب

عنصر آخر؟

سأل أبراهام مستفسراً، فمط أفرام شفثيه قائلاً:



- يمكنك أن تصف الموضوع كذلك إن أردت، ولكن الأمر أكثر عمقاً بكثير: فنحن نرجع هالة القداسة في حياة اليهود وتاريخهم إلى أصولها القومية، أو إلى روح الشعب، أما الأرثوذكس فيرجعونها إلى أصول ربانية غير مبنية على الواقع، لذا فنحن ندعو إلى عدم ترك الأمور في أيدي قلة من الربانيين يقومون بتفسير الشريعة كيفما شاؤوا، بل إلى وجوب أن يقوم متكلمون يمثلون الشعب اليهودي وينطقون باسم الجماعة. وتحاول هذه الجماعة، التي تمثل "كلال إسرائيل"<sup>(١)</sup>، أن تكتشف اليهودية بدراسة التراث والتقاليد والأدب اليهودي. وباختصار فإن أهدافنا هي الإصرار على وحدة إسرائيل العالمية، والحفاظ على استمرار التراث اليهودي، والاهتمام بالدراسات اليهودية، فهذا هو جوهر عقيدتنا.

- برافووو. تصفيق حاد.

صفقت تسيبي بطريقة هزلية، ثم التفتت إلى هافا قائلة:

- والآن حان دورك يا عزيزتي.

- لا، شكراً. سبق أن حاولت، لكن دون جدوى.

- آه، طبعاً. خصوصاً بعد أن وصفكم الحاخام الأرثوذكسي الشهير "تسفي شتاين" مؤخراً بأنكم كفر، وطابور خامس، خطرته على إسرائيل أكبر من خطر العرب. حسناً، ونزولاً عند رغبة الجماهير سأحدث أنا عن ديني، لأحسم تردد أبراهام نهائياً.

قالت ذلك وهي تغمز هافا التي ابتسمت بدورها، ثم نظرت إلى أفرام وتصنعت

هيئته الجدية قائلة:

- إحم. كيف أبدأ. آه، إن اليهودية الإنشائية هي الوريث الفعلي، والشرعي والوحيد

والمدلل ووو... لا، لا، لا: سأكون أكثر واقعية. إن اليهودية الإنشائية (يهودية إعادة الإنشاء

(١) كلال إسرائيل هو مصطلح عبري يعني كل بني إسرائيل.

أو اليهودية التجديدية)، كما يظهر من اسمها، هي محاولة تجديد لليهودية أو إعادة إنشائها، لتتماشى مع معنى المعاصرة دون الإخلال بالتقاليد. فتسعى إلى تشجيع كل اليهود على تحسين حياتهم الخاصة، عن طريق استرداد تراثهم المشترك، والمساهمة بفعالية في بناء المستقبل اليهودي. نحن نعرّف الديانة اليهودية بتطور الحضارة الدينية للشعب اليهودي". وسأشرح ما نعنيه بكل كلمة على حدة من كلمات هذا التعريف البالغ الأهمية لليهودية:

فبمفهوم الـ"تطور" نعني نشوء اليهودية وارتقاءها، وتبدلها عبر قرون من وجودها. إن إيمان قدماء الإسرائيليين أيام هيكل سليمان لم يكن نفسه أيام اليهودية الحاخامية الأولى، ولم يكن أي منهما هو إيمان أسلافنا الأوروبيين الأكثر حداثة نفسه. إن كل جيل من اليهود قد ساهم في تشكيل إيمان الشعب اليهودي وتقاليدته وتهذيبهما. وهذا التطور أو الارتقاء هو ما نريد تسميته، لأننا نعتبره شريان حياة اليهودية، والطاقة التي تمكن اليهود من الاستمرارية كتقليد ديناميكي في كل عصر.

أما "الحضارة" فنعني بها أن اليهودية أكثر من مجرد دين. إن الشعب اليهودي يشترك في الذاكرة التاريخية والقدر التاريخي، فاليهودية تتضمن التزاماً بوطننا القديم ولغتنا، ونحن نشترك في الحب للثقافة اليهودية، وللمبادئ الأخلاقية اليهودية، ولللسفة اليهودية. نحن ورثة تراث غني من الإنجاز الأدبي والفني، ومن الضحك والدموع، وهو تراث يواصل النمو حتى يومنا هذا.

بـ"الدينية" نعني أن الدين اليهودي هو الوسيلة التي نُجري من خلالها بحثنا عن المعنى النهائي للحياة. وإن الله هو مصدر هذه الوسيلة، ونحن نكافح حتى نصبح موقنين به، مع كل الشكوك والحيرة. إننا كيهود إنشائيين نؤكد هذا الكفاح، ونعتقد بأنه واجبٌ على كل اليهود التحقيق والدراسة لكي يجدوا طريقاً متفرداً إلى القداسة. نؤمن بأن الله موجود في هذا العالم وخصوصاً في قلب الإنسان. الله مصدر كرمنا

وحساسيتنا واهتمامنا بالعالم من حولنا . الله أيضاً هو القوة داخلنا الذي تحتنا على الإبداع الذاتي والسلوك الأخلاقي . نجد الله عندما نبحث عن المعنى في العالم، عندما نكون مدفوعين نحو الدراسة، وعندما نعمل لإدراك أهداف المبادئ الأخلاقية والعدالة الاجتماعية .

وأخيراً نعني بـ"الشعب اليهودي" أن كل اليهود، سواء بالولادة أم بالاختيار<sup>(١)</sup>، هم أفراد العائلة اليهودية الكبيرة . نحن نعتز بتنوع الأيديولوجيات<sup>(٢)</sup> والممارسات الدينية اليهودية، ونسعى إلى مشاركة اليهود الآخرين في القبول بهذا التنوع عندما نعمل على تقاسم الرؤية للهوية اليهودية . إن فلسفة يهود إعادة الإنشاء تؤكد تفرد الشعب اليهودي وخصوصيته وتراثه بين شعوب العالم، مع أن تأكيدنا تفرد اليهودية، لا يعني الشعور بالتفوق على الآخرين؛ فنحن نعتقد بأن كل الناس مدعوون إلى خدمة الحقيقة، ونرحب بالحوار مع أناس من ذوي النية الحسنة من كل الثقايلد .

كان أفرام يستترق النظر إلى أبراهام بين الفينة والأخرى ليرى مدى تأثير حديثها عليه، فهو - وإن كان في قرارة نفسه موقناً بأن حجته أقوى من حجتها - يعترف بينه وبين نفسه بتفوقها عليه بأسلوبها، وقدرتها على ترتيب أفكارها وأولوياتها، فضلاً عن هدوئها ومرحها، اللذين يفتقر إليهما . وعبثاً حاول التشبه بها، إلا أن حساسيته، وكبرياءه كانا يحولان دون ذلك . وكثيراً ما كانت تلك المحاولات تتقلب فوق رأسه عندما لا يتمكن من مجازاة ردود الفعل عليها، أو حتى تحملها .

كان يُعمل ذهنه جاهداً في أثناء حديثها ليجد ثغرة ما يستطيع من خلالها الهجوم على عقيدتها، ولكنه لم يكن يعرف كيف يفعل ذلك دون أن يعرض عقيدته للهجوم

(١) مصطلح "Jew by choice" بالعربية "يهود بالاختيار" يعني "المتهودون" . ولا تعترف المؤسسة الحاخامية بالمتهودين على يد حاخامات محافظين أو إنشائيين أو إصلاحيين . ولحل الإشكالية يتم تصنيفهم في الإحصائيات تحت خانة "somehow Jew" ، وتعني "يهود بشكل ما" كحل وسط .

(٢) تقصد تنوع المذاهب (العقائد) .

بالوقت نفسه، فمبادئ اليهودية المحافظة لا تختلف كثيراً عما قالته للآن، لذا حاول اتخاذ استراتيجية أخرى في الهجوم، فعلق مُتهكماً:

- يبدو أن مُنظريكم قد أجهدوا أنفسهم كثيراً في إعادة صياغة مبادئنا على نحو متطرف في ليبراليتته، ولو اكتفوا بنقلها كما هي، لكان خيراً لهم.

فرمقته تسيبي بنظرة فيها الكثير من الاستخفاف قائلة:

- من المؤسف أنك تجهل الكثير عن أصول مبادئ فرقتك: فمع أن اليهودية

الإنشائية قد تفرعت عن اليهودية المحافظة، إلا أن منظرها، وبالذات مؤسسها<sup>(١)</sup>،

قد تركوا أثراً عميقاً في اليهودية المحافظة، وفي الفكر التربوي اليهودي بشكل عام.

وقد كان "كابلان" عميداً لمعهد التربية التابع لكلية اللاهوت اليهودية (المحافظة)،

وظل يُدرّس فيها منذ عام ١٩٠٩ حتى عام ١٩٦٣، وظلت فلسفته وأفكاره، التي التفّ

حولها عدد كبير من المفكرين اليهود أمثال "ملتون شتاينبرج"، و"يوجين كون"، و"إيرا

إيزنشتاين"، اتجاهاً دينياً متفتحاً داخل إطار اليهودية المحافظة، حتى اكتسبت معالمها

التنظيمية المستقلة عام ١٩٦٨ عن طريق تأسيس "الكلية الحاخامية الإنشائية" في

فيلادلفيا، وخرّجت حاخامات تابعين للحركة، التي أصبحت فرقة دينية بمعنى الكلمة.

فرد أفرام بعصبية قائلاً:

- كفاك خداعاً؛ فلم يُؤثر لا كابلان ولا غيره من المنشقين في مبادئ اليهودية

المحافظة، بل العكس هو الصحيح.

فقالت تسيبي، دون أن تغادر الابتسامة الواثقة شفيتها:

- حقاً؟!... ألم يمارس كابلان تأثيراً عميقاً في اليهودية المحافظة عندما أعيد في

عام ١٩٤٨ تنظيم لجنة القانون اليهودي، وأعيد تحديد معايير المجلس الحاخامي،

(١) تعني "مردخاي كابلان" (١٨٨١-١٩٨٣).

بشكل يختلف جذرياً عن معايير "شيختر"<sup>(١)</sup>، ألا تعتقد أن توجه اليهودية المحافظة في الوقت الحالي، يختلف عن التوجه الذي حدده لها مؤسسوها؟ ألم تتخذ اليهودية المحافظة العديد من المواقف التي لا تختلف كثيراً عن مواقف اليهودية الإنشائية، والتي تقترب في الوقت نفسه من اليهودية الإصلاحية؟. أليس هذا بالضبط هو سبب احتجاج مجموعة كبيرة منكم مؤخراً، ومن ثم انشقاقها، تحت اسم "اتحاد اليهودية التقليدية"<sup>(٢)</sup>، ألم يفرط عقدكم بين انشقاقي نخبة اليسار (الإنشائيين)، ونخبة اليمين (التقليديين)؟

فقال أفرام مدافعاً:

- عن أي عقد وعن أي نخب تتحدثين؟ إن فرقتنا لا تزال إلى الآن الأكثر عدداً وتأثيراً بين فرق اليهود في العالم، وفي أمريكا تحديداً، بينما أنتم واليهودية التقليدية فتُعتبرون من أقلها شأنًا من مختلف النواحي. ويكفيك إثباتاً لذلك أن "مجلس الكنس في أمريكا"<sup>(٣)</sup> اعتبركم كنساً يهودية لها حاخامات، ولكنها ليست ديناً<sup>(٤)</sup> على الإطلاق، رافضاً تماماً انضمامكم إلى عضويته بشكل مستقل، أما بقية كلامك عن تأثرنا بكم وباليهودية الإصلاحية، فإنه غاية في السطحية، وهو مردود عليكما كليهما. فمن جهة أفكاركم، لا تتسيي أنها ولدت أصلاً من رحم اليهودية المحافظة وتحت رعايتها، ومن

(١) "سلمون شيختر" المؤسس الفعلي لليهودية المحافظة.

(٢) اتحاد اليهودية التقليدية هي فرقة يهودية جديدة خرجت على اليهودية المحافظة عام ١٩٨٤ احتجاجاً على الاتجاهات الليبرالية المتطرفة، التي ظهرت بها مؤخراً، خصوصاً بعد أن سمح للنساء بالانضمام إلى "كلية اللاهوت اليهودية"، ومن ثم أصبح من الممكن ترسيمهن حاخامات عند تخرجهن. وهي تحاول قدر الإمكان أن تحتفظ بالشكل التقليدي لليهودية، وألا تنجذب نحو اليهودية الإنشائية أو اليهودية الإصلاحية.

(٣) تأسس مجلس الكنس في أمريكا عام ١٩٢٦، وهو يعنى بتنظيم التعاون بين مختلف الفرق اليهودية في الولايات المتحدة، ويعمل على التصدي للأنشطة التبشيرية المسيحية بين اليهود، والتحيز الديني ضدهم.

(٤) أي ليست فرقة دينية ذات نهج مستقل ومعترف به.

ثم فلا يجب أن يدفنا انشقاق بعضكم عنها إلى التكرار لمصلحة أي منها. أما من جهة أفكار الإصلاحيين، فهل تستطيعين إنكار أن تأثيرنا عليهم كان مضاعفاً، وأكثر عمقاً؟ فالمبادئ الرئيسية لليهودية المحافظة ثابتة ولم تتغير قط. وقد صدر عام ١٩٨٨ كتاب "إيميت ف أمونا"<sup>(١)</sup> لتأكيد جوهرها، وهو الحفاظ على استمرارية التراث اليهودي، وترسيخ مفهوم روح الشعب وقداسته. أما المرونة التي أبديناها في الاستجابة إلى بعض متطلبات العصر، فتلك مسألة ثانوية تدرج تحت إطار "التطور الطبيعي المستمر للدين اليهودي" - الذي هو أحد مبادئنا الثابتة - وليست اقتراباً من الإصلاحيين أو غيرهم.

هنا تدخلت هافا قائلة:

- لقد ضربت بنفسك مثلاً رائعاً عن اقترابكم منا على حساب مبادئنا الثابتة: ففي ذلك الكتاب بالذات رفضتم "النسبية"، وهذا يتعارض مع "التطور الطبيعي المستمر" الذي تتحدث عنه، ومع محاولاتكم الدؤوبة للتكيف مع ما حولكم وخضوعكم المستمر له!

فنظر أفرام إليها شزراً، ورد قائلاً:

- أما أنتم فقد بلغ تأثركم بمبادئنا أن تخليتكم تدريجياً عن رؤيتكم الليبرالية المتطرفة، وعدلتم مبادئكم بشكل يتواءم مع الرؤية القومية اليهودية التي نتبناها نحن. وأبرز مثال على ذلك إقراركم في مؤتمر كولومبوس "أن إسرائيل أرض مقدسة، وأن مصدر قداستها ليس العهد بين الشعب والرب، وإنما الشعب اليهودي نفسه. وما تبع

(١) إيميت ف أمونا تعني بالعربية "الحقيقة والاعتقاد" وهو كتاب من ٤٠ صفحة أصدره مؤتمر من مفكري اليهودية المحافظة حاولوا فيه تلخيص مبادئ اليهودية المحافظة ومن أهمها الاعتراف بالغيب (ما وراء الطبيعة). كما أكدت الوثيقة أهمية إسرائيل في حياة الدياسبورا ولكنها أتبع ذلك بتأكيد تعددية المراكز، أي أهمية الدياسبورا في ذاتها.

ذلك من تزايد العناصر القومية في شعائركم، كتلاوة بعض الصلوات باللغة العبرية، وإدخال بعض العناصر التراثية على الصلوات الأخرى، والنفخ "بالشوفار"<sup>(١)</sup> بهياكلكم في "عيد رأس السنة العبرية". بالإضافة إلى موقفكم الحالي من الصهيونية نفسها، والذي يتعارض تماماً مع نزعتكم الاندماجية السابقة، التي كانت تعادي النزعة الصهيونية القومية، وتمجد الجيتو والتلمود.

فردت هافا معترضة:

- رويدك، فلا يوجد أي تبديل جوهرى لمبادئنا، وقد كان الأنبياء أنفسهم يؤيدون الاتجاه القومي، دون أن يتخلوا عن الدفاع عن الأخلاقيات الإنسانية العالمية، ودون أن يجدوا أي تناقض بين الموقفين.

فقال أفرام بعصبية:

- متى تكفون عن التلاعب بالألفاظ في تبريراتكم التي لا تقنع أحداً غيركم؟! فلو كان هذا هو مبدءكم منذ البداية، فما الذي دفعكم في السابق إلى حذف جميع الإشارات الدالة على قدسية، أو حتى خصوصية، الشعب اليهودي من كل طقوس الدين وعقيدته وأخلاقه وأدبه؟! وما الذي دفعكم إلى عقد المؤتمر تلو المؤتمر، للتعبير عن رفضكم للصهيونية، و"وعد بلفور"، ولكل المحاولات السياسية التي تنطلق من فكرة الشعب اليهودي، والتي تعتبر اليهود جماعة قومية لها مصالح مستقلة عن مصلحة الوطن الذي ينتمون إليه؟!

فرفعت هافا حاجبها وزمت شفيتها، كناية عن عدم رضاها عن ذلك، وقالت

موضحة:

- لقد طرأت بعض التغييرات على موقف اليهودية الإصلاحية في غمرة الحماس القومي الذي اكتسح يهود العالم نتيجة للانتصار الإسرائيلي غير المتوقع في حرب

(١) الشوفار هو البوق اليهودي ويقابل النفخ به قرع الأجراس في المسيحية، والأذان في الإسلام.

كيبور<sup>(١)</sup>، لكن ذلك لم يمس بجوهر عقيدتنا .

فعلق أفرام متهكماً:

- بعض التغييرات!!!؟ هه! تسمين إنشاء أحزاب إصلاحية صهيونية مثل "جمعية الصهاينة الإصلاحيين في أمريكا" (أراز)، و"الرابطة الدولية للصهاينة الإصلاحيين" (أرتسين)، و"حركة الشباب الدولية الإصلاحية الصهيونية"، بل حتى انضمام "الاتحاد العالمي لليهودية التقدمية" نفسه إلى "المنظمة الصهيونية العالمية"، وإقامة كيبوتسات<sup>(٢)</sup> ومؤسسات تربية في إسرائيل، وتنظيم حملات لجمع الأموال لها!... تسمين كل هذا وكثيراً غيره "بعض التغييرات"!!!؟ ثم ماذا فعل مؤتمر عام ١٩٧٦ في سان فرانسيسكو سوى إعادة صياغة ما تسمينه "جوهر العقيدة اليهودية الإصلاحية" من أساسها؟! لقد أكد الاتجاه نحو تعميق البعد القومي، فالحقيقة الأساسية في حياة اليهود، حسب قراراته، هي "الإبادة النازية"! بل أقر المؤتمر كتاباً إصلاحياً جديداً للصلوات<sup>(٣)</sup> يتبنى الإشارات القومية، ولا ينكر المفهوم الصهيوني لها، ليحل محل كتاب الصلوات الذي صدر في عام ١٩٤١ .

فنظرت هافا إلى الأرض لتخفي إحراجها، وقالت بأسى:

(١) تسميتهن لحرب الـ ٦٧ . تلك الحرب التي استمرت ستة أيام فقط، واستطاع الكيان الصهيوني من خلالها احتلال أراضي خمس دول عربية: مصر خسرت شبه جزيرة سيناء وغزة (كانت وقتها تابعة لمصر)، سورية خسرت هضبة الجولان، لبنان خسرت مزارع شبعا، الأردن خسرت الغور والضفة الغربية (كانت وقتها تابعة للأردن)، السعودية خسرت جزيرتين: جزيرة تيران وجزيرة صنافير . هذا بالإضافة إلى تدمير شبه كامل لسلاح الطيران المصري والأردني والسوري . حيث دمرت ٣٩٣ طائرة في الدقائق الأولى للحرب من أصل ٤١٦ طائرة، ودمر ٨٠٪ من عتاد الجيش المصري واستشهد ١٠ آلاف من جنوده و ٦١٠٠ جندي أردني وألف جندي سوري، واحتلت القدس الشرقية . كما شرد ٣٣٠ ألف فلسطيني وصودرت أراضيهم . والنتيجة الأخطر لتلك الحرب المشؤومة هو اعتراف العرب الضمني بدولة الكيان، فبعد أن كانوا مصريين على "تحرير" كامل فلسطين، صاروا يكتفون بالمطالبة بـ "استرداد" ما احتل عام ٦٧م، (حالياً "يستجدون" ما هو أقل من ذلك بكثير) معترفين ضمناً بسيادة الكيان على ما احتل عام ٤٨!!!

(٢) "كيبوتس" هو مجتمع زراعي اشتراكي، ابتدعته الصهيونية في إطار استيطان الأراضي المحتلة .

(٣) يقصد كتاب "بوابات الصلاة" .



- هذا صحيح للأسف، لكنك لا تستطيع تعميم ذلك على كل الإصلاحيين؛ فلا يزال الكثيرون يحتفظون بمبادئنا السابقة، ولا تزال اليهودية الإصلاحية على موقفها المبدئي من مطالبة حكومة إسرائيل بالابتعاد عن القمع الديني والعنف السياسي، واحترام حقوق العرب، والسعي لإيجاد حل سلمي للصراع العربي الإسرائيلي، مبني على الضمانات، والتنازلات المتبادلة.

فقال أفرام متبسماً، وهو منتشٍ بشعور النصر:

- أي مبادئ سابقة، وأي مواقف بعدما احتوكم الصهيونية؟ ألم يفز مرشحها الحاخام "إدوارد يسرائيل" عضو "اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية الأمريكية" بمنصب الأمين التنفيذي "لاتحاد الأبرشيات العبرية الأمريكية"؟ ألم يفز أيضاً مرشحها الآخر "جيمس هالر"، عضو اللجنة نفسها، بمنصب رئيس "الاتحاد المركزي للحاخامات الأمريكيين"؟  
فقالت هافا بتحد:

- هذا صحيح. ولكن زعيم الإصلاحيين في أمريكا الحاخام "أريك يوف" ينتقد إسرائيل في كل مناسبة، ويدعو اليهود الأمريكيين إلى ممارسة نفوذهم لدفع الإدارة الأمريكية نحو إجبار إسرائيل على القيام بما يجب عليها في العملية السلمية. وقد صرح في صحيفة هآرتس<sup>(١)</sup> أن: "البناء في المستوطنات يهدد طابع الدولة اليهودي... إسرائيل ستضطر للاختيار بين كونها دولة ديمقراطية وبين كونها دولة أبرتهايد<sup>(٢)</sup>". لم يعد بإمكاننا الصمت".  
- هذا موقف جديد نسبياً وهو لأهداف دعائية للإيحاء بأنه مع السلام في الشرق الأوسط.

(١) في ٢٤/١١/٢٠٠٣ م.

(٢) أبرتهايد هو نظام الحكم والسياسة العنصرية التي اتبعتها حكومة الأقلية البيضاء في جنوب إفريقيا من عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٩٠. استندت هذه السياسة إلى مبادئ الفصل العنصري بين المستوطنين البيض الحاكمين وبين السكان السود أصحاب الأرض الأصليين، وتفضيل الإنسان الأبيض على الإنسان الأسود في جميع المجالات. جاءت الكلمة من لغة "الأفريكان" (لغة المستوطنين البيض ذوي الأصول الهولندية ومعناها الفصل). وقد رفضت كل لغات العالم استقبال هذه الكلمة بترجمتها، وبقيت كما هي "أبرتهايد" تعبر عن حالة متفردة من العنصرية الرسمية الصريحة المترجمة حقوقياً بالنصوص.

قال أفرام غامراً، فاعترضت هافا قائلة:

- موقف جديد!!!! وماذا عن زعماء اليهودية الإصلاحية الآخرين مثل الحاخام "ألكسندر شندلر" وغيره، الذين بدؤوا بالاحتفاظ بمسافة بينهم وبين الدولة الصهيونية قبل ذلك بزمان، وخصوصاً بعد حادثة "بولارد"<sup>(١)</sup> وبعد "الانتفاضة"<sup>(٢)</sup> واهتزاز الصورة الإعلامية لإسرائيل في العالم!!! وهم يصرون على تأكيد مركزية الدياسبورا مقابل مركزية إسرائيل، كما يحاولون إعادة تغليب الجانب الديني على الجانب القومي، وأنا من أنصار هذا الاتجاه بقوة، فشغلُ الصهيونيين الشاغلُ هو استغلال نفوذ اليهود الإصلاحيين السياسي في أمريكا، والتسول منهم. مع أن المؤسسة الدينية الأرثوذكسية الرسمية في دولتهم لا تعترف باليهودية الإصلاحية، ولا بحاخاماتها، ولا بمراسم التهويد التي يقومون بها، ولا حتى بالزيجات التي يعقدونها، كما أن المساعدات التي تخصص للمؤسسات الإصلاحية في إسرائيل غير متناسبة إطلاقاً مع حجم تبرعات اليهود الإصلاحيين في الدياسبورا<sup>(٣)</sup>، خاصة في الولايات المتحدة<sup>(٤)</sup>، فأغلب التبرعات يدفعها يهود إصلاحيون ومحافظون وتجديديون، وتقليديون، لكن مع هذا يصب القسم الأعظم منها في المؤسسات الأرثوذكسية في إسرائيل، التي توزع منشورات تحرم على الناس أداء الصلوات في كنس تلك الفرق!!! وهناك تيار عندكم بقيادة كوهين<sup>(٥)</sup> الذي

(١) مواطن أمريكي يهودي تجسس على الولايات المتحدة للكيان الصهيوني . وقد أثر اكتشاف أمره سلباً على اليهود الأمريكيين، وأعاد إلى السطح مسألة "ولائهم المزدوج" .

(٢) دخلت كلمة "الانتفاضة" بلفظها العربي إلى معظم القواميس العالمية لتعبر عن حالة متفردة من الانتفاض على سلطة المحتل .

(٣) يبلغ عدد اليهود الإصلاحيين في الكيان الصهيوني نحو عشرين ألفاً . ولا تحظى مؤسساتهم ومدارسهم باعتراف "دار الحاخامية" .

(٤) تعد الولايات المتحدة أكبر تجمع سكاني لليهود في العالم . ويشكل الإصلاحيون منهم ٣٠٪، ويشكل المحافظون ٣٣٪، في حين لا تتعدى نسبة الأرثوذكس هناك بجمع طوائفهم (التي يعادي الكيان الصهيوني قسماً لا بأس به منها، ومن ثم يمتنعون عن جمع التبرعات له) ٩٪، كما يشكل اليهود الإنشائيون نسبة ٢٪ . أما الذين لا يعتقدون أياً من العقائد الدينية منهم (اليهود الإثنيون) فيشكلون ٢٦٪ .

(٥) جرسون كوهين ١٩٢٤-١٩٩١ (مدير "كلية اللاهوت اليهودي" المحافظة) .

شكل حلقة دراسية مع شندلر تنطلق من الإيمان بأن يهود أمريكا ككل، يمكنهم المحافظة على اهتمامهم بإسرائيل، وصياغة مصيرهم المستقل في آن واحد، دون أن يمنحوا إسرائيل مركزية في حياتهم، وذلك بعد أن أحسا بالخطر من كون الفكر الديني اليهودي بات يؤكد مركزية إسرائيل، ويقلل من أهمية الجماعات اليهودية في الدياسبورا.

فتدخل أبراهام قائلاً:

- ولكن واقع الحال يؤكد فعلاً مركزية إسرائيل في حياة اليهود الأمريكيين، ويتجلى ذلك بشكل واضح في دعمهم المطلق واللامحدود لسياسة إسرائيل بكل عنفها وتطرفها، بما في ذلك من إضرار لمصلحة يهود الدياسبورا.

فردت هافا موضحة:

- إن "إيباك" (AIPAC)<sup>(١)</sup> هي المسؤولة عن ذلك الدعم، وهي في الحقيقة لوبي "ليكودي" بامتياز. ولكن إيباك لا تمثل وجهة نظر كل اليهود الأمريكيين، لذلك

(١) إيباك إي "لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية" هي لوبي يهودي مسجل رسمياً في الولايات المتحدة منذ عام ١٩٥١م، وتصل ميزانيتها التشغيلية إلى نحو ١٣ مليون دولار. (ميزانيتها العامة ١٠٠ مليون دولار، وعدد أعضائها ١٠٠ ألف شخص، ولها مكاتب في ١٨ ولاية) وهي تمارس الضغط على كل من الحكومة والكونغرس الأمريكيين. وحتى تضمن نفوذها وقوتها، تقيم إيباك علاقات متوازنة إلى حد ما مع الحزبين الجمهوري والديمقراطي في الوقت نفسه. (راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف). وقد أثار تصاعد نفوذ إيباك مخاوف عدد كبير من المحللين السياسيين الأمريكيين، وهو ما بدا جلياً في دراسة اللوبي اليهودي والسياسة الخارجية الأمريكية التي أعدها كل من جون ميرشيمر John J. Mearsheimer وستيفن والت Stephen M. Walt التي نشرت عام ٢٠٠٦ وتناولت آليات ضغط اللوبي اليهودي على الساسة الأمريكيين، وتأثيره على وسائل الإعلام الأمريكية لتشكيل توجهات الرأي العام الإسرائيلي لمصلحة الكيان الصهيوني. ومن ثم حاول دان فيلشدر Dan Flesher المستشار الإعلامي السابق لـ "منتدى السياسة الإسرائيلي" Israel Policy Forum في كتابه المعنون "تحولات اللوبي الإسرائيلي بالولايات المتحدة، حدود القوة وأفاق التغيير" Transforming America's Israel Lobby: The Limits of Its Power and the Potential for Change مراجعة مقولات ميرشيمر والت حول نفوذ إيباك وتداعياته السلبية على السياسة الخارجية الأمريكية تجاه منطقة الشرق الأوسط وتجاه عملية التسوية للصراع الفلسطيني الصهيوني، ومدى ارتباط المواقف والتوجهات التي يروج لها قادة إيباك من المتشددين بالمصالح القومية الأمريكية.

يجري العمل حالياً على إنشاء لوبي آخر يكون ليبرالياً<sup>(١)</sup>، ويمثل جزءاً مهماً من اليهود الأمريكيين، الذين لا يريدون الاستمرار بالصمت<sup>(٢)</sup>. وقد وصل الأمر

(١) تم فعلاً إنشاء لوبي يهودي جديد فيما بعد (في نيسان/أبريل عام ٢٠٠٨م) بميزانية مبدئية تبلغ ٥، ١ مليون دولار، وسمي بـ "هيئة للعمل السياسي جي ستريت" (Street political action committee) ويعني (J Street) حرفياً (الشارع جيم)، وهو دلالة -كما يقول مؤسسو المنظمة- إلى شارع غير موجود في العاصمة واشنطن، إذ تنتقل أسماء الشوارع من الشارع أي إلى كي (I to K). والدلالة الرمزية هنا إلى افتقاد هذا الصوت ضمن الجالية اليهودية "الوسطية المعتدلة" التي طالما احتكرت الحديث باسمها منظمة إيباك. لكن آخرين ممن أدلوا بأحاديث لوسائل الإعلام من مؤسسي المنظمة أشاروا أيضاً إلى أن الحرف جيم هو الحرف الأول لكلمتي يهودي وعدالة باللغة الإنجليزية "Jewish" و "Justice". وهذا اللوبي الجديد هو مؤيد للكيان الصهيوني أيضاً، ولكنه يسعى إلى طرح بديل ليبرالي للوبي اليميني (الليكودي). ويرى المحاضر في العلوم السياسية في الجامعة العبرية البروفيسور "يارون إزراحي" في تصريح للجزيرة نت أن: "جي ستريت جاءت وليدة الانتقادات القاسية التي يتعرض لها اليمين "الإسرائيلي" الحاكم في أمريكا والعالم" (لا يمكن استبعاد تأثير التغيير في الرأي العام الأمريكي ضد مشروع المحافظين الجدد على شعور بعض قادة الجالية اليهودية في الولايات المتحدة بضرورة إبعاد أنفسهم عن هذا المشروع، والاقتراب ثانية من الحركة التي أدت إلى انتخاب الرئيس أوباما، خاصة مع تصريحات الجنرال باتريوس بأن انحياز الولايات المتحدة للكيان الصهيوني بات يشكل خطراً على مصالحها، ويشجع الإرهاب ومشاعر العداة لأمريكا)، أما جي ستريت فترى أنها تمثل قسماً واسعاً ومهماً من عموم الجمهور اليهودي في الولايات المتحدة، الذي شل صوته بشكل عام بدعوى أنه مجموعة هامشية من "اليهود الكارهين لأنفسهم" أو "الكارهين لإسرائيل". ومواقفها المعلنة هي حل الدولتين، وفتح مبادرات الحوار مع سورية، وتجنب أي مواجهة عسكرية مع إيران. يشار إلى أن عدداً من الأحزاب السياسية في الكيان الصهيوني تدعم اللوبي الجديد أهمها حزب كاديبا (في مؤتمرها الأول الذي عقدته في واشنطن، في الفترة من ٢٥ إلى ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر لعام ٢٠٠٩، تلقت دعماً واضحاً، وتمثيلاً عالي المستوى من الحزب) وحزبي العمل وميرتس (نشرا إعلانات تهنته حارة في صحيفة هآرتس).

(٢) من المعلوم أن تكوين لوبي جي ستريت جاء على إثر الضجة التي أحدثتها نشر تقرير أعداه باحثان في العلاقات الدولية سنة ٢٠٠٦ خلاصاً إلى نتيجة مفادها أن السياسة الإسرائيلية أضرت كثيراً بمصالح الولايات المتحدة ومكانتها في الشرق الأوسط، وحملاً إيباك بشكل مباشر مسؤولية ذلك، فافتتح التقرير بذلك باباً حرص اللوبي الصهيوني على تركه موصداً في الساحة الأكاديمية والإعلامية الأمريكية، وهو نقد سياسة الكيان وإبراز تهديدها للمصالح الأمريكية في هذه المنطقة. وتتالي مثل هذه التقارير، وتصديقها من قبل بعض كبار الساسة الأمريكيين، جعل من إيباك جهازاً أبعد ما يكون عن تنوع الواقع الاجتماعي والسياسي اليهودي في أمريكا، بل أصبح ينظر إليه على أنه جهاز يعمل لمصلحة دولة أجنبية أكثر من دفاعه عن مصالح الولايات المتحدة والأمريكيين. وضمن هذا الفراغ وجد جي ستريت مكانه باعتباره يدافع عن مصالح الولايات المتحدة أولاً.

بـ"أرثور هرتسبرج"<sup>(١)</sup> إلى حد دعوة يهود الولايات المتحدة إلى العصيان وعدم ترك مصير إسرائيل بيد السياسيين، الذين يكونون حكومتها، معتبراً أن يهود العالم من حقهم التدخل بتقرير سياسات إسرائيل، لإنقاذها. وقد صرح في هأرتس<sup>(٢)</sup> بأنه: "ليس من الممكن أخلاقياً وسياسياً الدفاع عن الضغط المتواصل وعدم الرحمة الذي يضيء مزيداً من البؤس والمرارة على حياة الفلسطينيين. الجالية اليهودية الأمريكية ممزقة بين حبها لإسرائيل ونفورها من سياستها... طوال مئة عام ونحن نساعد المشروع الصهيوني. أمناً لمدة طويلة بالنهج الذي حاولت حكومات إسرائيل إقناعنا به، القائم على ترك الأمور السياسية وتحديدها لهم، أما نحن فلنا الحق في القول آمين. هذه الحماسة قد أفلست".

لاحظ أبراهام الانزعاج الشديد على وجه أفرام من كل ما قيل عن الصهيونية وإسرائيل، فقال له مشجعاً على إبداء رأي فرقة في هذا الموضوع:  
- وأنتم: ما موقفكم من إسرائيل والصهيونية؟!

(١) أرثور هرتسبرج هو من قادة يهود الولايات المتحدة.

(٢) بتاريخ ٧/١/٢٠٠٤م.



# أنبياء الزور



وتشمل:

أساطير وحييل

المنظومة الخفية

مؤامرات وفتن

حرية، ولكن

جذور الصهيونية

الحلولية بوجه آخر

بين التشدد والتساهل

وعد الآخرة

امراة من زمن آخر

يهود ضد الصهيونية

عنصرية متبادلة

انتهازية

حريديم وقوميين

عسكرة التعليم

لعبة الكبار

صهاينة وصلبيين

هاجس النهاية

حسابات خفية

العلمانية الدينية

المستوطنون





## أنبياء الزور



### ◀ أساطير وحيل

سُر أفرام بسؤال أبراهام عن موقف اليهودية المحافظة من الصهيونية، فأجاب كمن يعطي درساً في الوطنية:

- نحن نؤمن أن تأسيس الدولة اليهودية هو الخطوة الأولى في سبيل تحقيق العصر المشيخاني، الذي سيتحقق بالتدرج، وليس فجأة كما تتصور الأرثوذكسية القديمة. وأن الصهيونية، وإن كانت "حركة علمانية بحتة، أسست بواسطة أشباه اليهود"، على حد تعبير شيختر، إلا أنها تعبير صادق عن أعماق الوعي اليهودي، وإلى درجة لعله لم يتنبه لها الآباء اللادينيون أنفسهم. كما أنها تمثل سداً عميقاً ضد الانصهار والاندماج، لذا فهي تشبه في كثير من الوجوه فكر اليهودية المحافظة، مما حدا بنا إلى الارتباط العضوي بها منذ البداية وبشكل واضح لا لبس فيه كالباقين.

قال أفرام جملته الأخيرة وهو ينظر بطرف عينيه إلى هافا، ثم عدل جلسته وتابع قائلاً:

- لقد أصدرت "الجمعية الأمريكية للحاخامات" قراراً للكنس اليهودية المحافظة

التابعة لها بالانضمام إلى المنظمة الصهيونية العالمية بشكل جماعي. وقد ساهمنا من خلالها بقيام دولة إسرائيل وحاولنا منذ البداية خلق تأثير ديني محافظ في مؤسساتها. ومع أننا لم نوفق في ذلك حينها، إلا أننا بدأنا بتحقيق بعض النجاح، عندما شكلنا الحركة "الماسورية"<sup>(١)</sup> في أوائل الثمانينيات، وأقمنا كثيراً من المؤتمرات والواعدة "المعهد العالي للدراسات اليهودية" الذي يُعد الدارسين الإسرائيليين ليعملوا حاخامات محافظين، أو "ماسوريين" وفق التسمية العبرية، وحركة "نوام" الشبابية، ومدارس "تالي"، ومعسكرات صيفية، وكيوتسات، و"موشافاه"<sup>(٢)</sup> و"فرق نحال". ويوجد حالياً أكثر من أربعين أبرشية ماسورية (محافظلة) هنا في إسرائيل.

- وماذا عنكم؟ هل تتفقون مع المحافظين في العلاقة مع إسرائيل والصهيونية؟

قال أبراهام موجهاً حديثه لتسيبي، التي هزت برأسها موافقة وهي تقول:

- إن اليهودية هي حضارة الشعب، ولا يمكنها أن تستمر دون أن تكون لها دولة فيها أغلبية يهودية تمثل مركزاً لكل الجماعات اليهودية في العالم، لذا فنحن نسعى إلى تعمير أرض إسرائيل باعتبارها الوطن القومي للحضارة اليهودية، فلا بد من تداخل وتمازج للدنيوي والمقدس، القومي والديني. ولكن، ومع أننا نقبل الصهيونية إطاراً وروية، ونعتبر أنفسنا "صهيونيين توطيين"، فنساهم بنشاط مؤثر في توطين اليهود في إسرائيل، إلا أننا نرفض الاستيطان كـ"هدف نهائي" لكل اليهود، ونؤكد مركزية الدياسبورا بشكل مواز. ونؤكد كذلك ضرورة الحفاظ على استقلالها واستمراريتها،

(١) "الماسورية" هي الترجمة العبرية لكلمة "المحافظلة"، وهي الاسم الرسمي لليهودية المحافظة في الكيان الصهيوني. وقد استخدمت التسمية العبرية (المحلية) مؤخراً في الكيان الصهيوني لتحل محل التسمية اللاتينية "كونسيرفاتيف".

(٢) "موشافاه" هي كلمة عبرية تعني مستوطنات أو مستعمرات، وهي أول نوع من المستعمرات الزراعية الصهيونية التي أقيمت على أرض فلسطين منذ ما يسمى بالهجرة اليهودية الأولى. وتعتمد الموشافاه على المبادرة الفردية والأموال الخاصة والملكية الفردية للأرض، وعلى الاستئجار الحر للعمل. وهذا هو الفرق الجوهرى بينها وبين الموشاف أو الكيبوتس.

لإعطاء الفرصة للحياة اليهودية كي تعبر عن نفسها خارج إسرائيل أيضاً.

فقال أبراهام متسائلاً:

- لكن، ألا يجعل ذلك اليهودية -كدين- آخذة في الاختفاء؟ ألا ترون أنكم بهذا تحلون الإثنية اليهودية كبديل عن الدين اليهودي؟ وكأن اليهود وإسرائيل قد حلوا محل اليهودية والرب!

فتدخلت هافا قائلة:

- هذا صحيح، حتى إن كنسهم في أمريكا قد أصبحت أفرعاً للمنظمة الصهيونية العالمية. كما أنهم يؤمنون بالدولة الصهيونية أولاً وقبل كل شيء، فتحولت اليهودية عندهم مرة أخرى إلى ممارسة قومية غير مرتبطة بالعقائد الدينية.

فقالت لها تسيبي باسمه:

- على الرغم من اتفاقنا معكم على ضرورة تحديث الديانة اليهودية، إلا أننا نختلف في الطريقة التي تتبعونها في ذلك؛ فالاندماج ونبذ القومية ليسا النموذج الأمثل للتحديث.

فوافقتها أفرام قائلاً:

- تماماً، فتحديث اليهودية يجب أن يأتي عبر تبني النموذج الشعبي، أي تقديس الفولك وتاريخه وتراثه وأرضه: أي إن أي تغيير أو تطوير لليهودية يجب أن ينبع لا من خارج الروح اليهودية وإنما من أعماقها.

فقالت هافا:

- تقصد أن تغير اليهودية عندكم ينبغي أن ينبع أيضاً من الأوهام بخرافاتها

وأساطيرها؟!!!

فرد أفرام مستهجناً:

- من الذي تكلم على الخرافات والأساطير هنا؟

- هذا هو معنى كلامك. وأبرز نتيجة لذلك التغير هو قيام الدولة الصهيونية، والدليل هو أن التخلي عن تلك الأساطير هو تخلٍّ عن دولة إسرائيل نفسها.  
ثم أردفت موضحة:

- وسأستعرض بعضاً من هذه الأساطير: إن تخلي إسرائيل عن أسطورة القبائل العشر الضائعة عقب الغزو الآشوري، سيجبرها على الاعتراف بأن أغلبية اليهود المعاصرين (الإشكناز تحديداً) ليسوا يهوداً ولا ساميين بل هم متهودون من أصول خزرية<sup>(١)</sup>، والتخلي عن أسطورة "أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض" يعني الاعتراف بأن إسرائيل دولة استعمارية. وإذا تخلت إسرائيل عن أسطورة "إسرائيل الكبرى" فإنها سوف تضطر إلى التعايش مع الغوييم بما يتعارض مع كل أساطيرها. كما أن التخلي عن أسطورة "شعب الله المختار" يعني فقدان إسرائيل لدعم البروتستانت وجزء كبير من مسيحيي اليوم، ومن ثم فإنه يعني عجزها عن الاستمرار. ولعل حاجة هذه الأساطير إلى التجدد، هي الكامنة وراء الوجود المستمر والمتزامن للحاخامات المدّعين بأنهم "المسيح المنتظر" من طائفة حيد وغيرها، مع عجز المنطق اليهودي عن استخلاص العبر من الأجيال المتلاحقة من هؤلاء المدّعين.  
فاعترض أفرام قائلاً:

(١) الخزر شعب تركي اوفينوغري أنشأ مملكة في القوقاز جنوب روسيا استمرت من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر، وسمي بحر قزوين باسمهم (بحر الخزر). وفي خلافة "هارون الرشيد" تحولوا إلى اليهودية في ظروف لا تزال غامضة، مع أنهم اعتنقوا الإسلام سابقاً على يد أمير أذربيجان، الذي فتح عاصمتهم، "مروان بن محمد". (وهو الذي أصبح لاحقاً آخر خليفة أموي) وقد ذهب "آرثر كوستلر" (١٩٠٥-١٩٨٣) في كتابه "القبيلة الثالثة عشرة" إلى أن يهود بولندا وأوروبا الشرقية، الذين كانوا يشكلون أهم وأكبر تجمع يهودي في العالم، هم من نسل الخزر. أي إنهم "يافثيون" (يعودون إلى "يافث بن نوح") لا ساميون (يعودون إلى "سام بن نوح")، ومن ثم فهم مختلفون عرقياً وثقافياً عن العبرانيين القدامى. وقد أثار الكتاب ضجة مدوية في الأوساط اليهودية والصهيونية عند صدوره.

- إن ما تدعيه أوهاماً وخرافات أو أساطير، أدعوه روح الشعب العضوي الذي ينبع من أعماق الروح اليهودية، وأي تغيير أو تطوير لليهودية يجب أن ينطلق من هذا الأساس. وعن طريق دراسة اليهودية، والشريعة بشكل تاريخي، يساعدنا على فهم أنفسنا، ويساهم في جعل اليهودية بكل مقوماتها، بما فيها القومية، نسقاً توراتياً خلافاً، كما كان الحال في الماضي. ولا علاقة للخرافات والأساطير في ذلك.

- ولكنكم أنتم أيضاً تعتبرون التوراة "خرافة ابتدعتها الحاخامات" حسب تعبير فرانكل<sup>(١)</sup> وكثير من منظريكم الآخرين.

فظهر الضيق على وجه أفرام، وقال متهرباً:

- إن التوراة هي ما أقره "الإجماع الشعبي العام"، وهو تعبير عن الشعب اليهودي وعبقريته. لذا، يجب ألا تثار مسألة كونها من أصل سماوي أو أرضي. فما دامت التوراة تعبر عن هذا الإجماع الشعبي العام، فيجب أن تبقى سارية المفعول، بغض النظر عن كون أصلها خرافياً أم حقيقياً.

فقالت هافا ضاحكة:

- أنت تؤكد كلامي. وبالمناسبة فإن موقفك هو عين الموقف الصهيوني العلماني من "أسطورة العهد الذي قطعه الله على نفسه بمنح اليهود أرض كنعان"<sup>(٢)</sup>. فبالنسبة إلى بن جوريون لا يهم إن كانت هذه الواقعة حقيقة إلهية أم خرافة: فالمهم هو أن تظل مغروسة في الوجدان اليهودي، وأن تبقى سارية المفعول. ولو سألت أي ملحد يهودي هنا: هل تؤمن بالرب؟ لأجاب: "كلا". ولو سألته بعد ذلك: "لم إذن جئت إلى إسرائيل؟"

(١) زكريا فرانكل (١٨٠١-١٨٧٥) أحد آباء اليهودية المحافظة، وقطب من أقطاب ما يسمى بـ "علم اليهودية" وهي الأصول التي شكلت فيما بعد اليهودية المحافظة. كما أنه مبتدع تسمية "اليهودية التاريخية" المرادفة لليهودية المحافظة.

(٢) "أرض كنعان" هو الاسم التوراتي لفلسطين، وخصوصاً قبل قيام مملكة إسرائيل.

لرد فوراً: "لأن الله وعدنا بها!!!!!!" إن الهدف الذي من أجله قامت اليهودية الإصلاحية هو تنقية الدين من مثل هذه الأوهام البالية.

فرد أفرام بغضب:

- إن تجاهلكم للتراث اليهودي، بغض النظر عن مصدر قدسيته سواء كان إلهياً أم شعبياً، سيؤدي إلى انقسام اليهودية. وإن أي إصلاح لابد أن يتم لا بيد الإنسان العجول، كما تظنون، وإنما بمرور الزمن: فالزمن هو وحده الذي اكتسح كثيراً من الأوهام والعادات البالية، وسيفعل ذلك مرة أخرى. إن الإجماع الشعبي لكلال يسرائيل هو المقياس الوحيد للإصلاح الديني، والثوابت التي خلع عليها الشعب القداسة، ينبغي أن يقبلها الإصلاح الديني ولا يحاول تعديلها، لأنها تعبير عن جوهر الروح اليهودية، وهي التي تقود إلى الخلاص.

فتدخلت تسيبي قائلة:

- لا أتفق معك في ذلك يا أفرام: فالإنسان قادر من تلقاء نفسه على أن يصل إلى الخلاص، ولا يوجد شيء اسمه ثوابت لا يمكن تعديلها، فيجب أن يخضع كل شيء للنقد والتعديل.

فالتفت إليها قائلاً:

- أنتم الإنشائيون تماماً كالإصلاحيين، تغفلون حقيقة أن الليبرالية والفكر الديني الحق لا يتفقا أبداً. فلا بد أن يستند الإنسان إلى قوة خارجية ما: لأن العقل الإنساني يعجز عن الإحاطة بالتجربة الدينية تماماً، لذا فهناك مقدسات لا يجب أن تنتقد بمقولات فكرية أو تحليلية إنسانية مباشرة.

فردت تسيبي:

- ولا أتفق معك في هذا أيضاً يا عزيزي، فالليبرالية هي الضمان لعدم جمود

الدين وتحجره. كما أن أكثر الأشياء قداسة هي اليهود وتراثهم، وليس دينهم: فالدين في النهاية هو اختراع إنساني وتعبير حضاري عن روح الشعب العضوي - تماماً كاللغة والفلكلور - ولا وجود للوحي الرباني ولا للبعث والآخرة في صياغتهما اليهودية التقليدية. ومن ثم لا يوجد فارق كبير بين التوراة، والتلمود، ولا حتى بقية الكتب الأخرى للشعب، فكلها منتجات حضارية يلتحم فيها الدين بالموروث الحضاري. كما أن الإنسان يتضمن من القدرات ما يؤهله للوصول إلى الخلاص بمفرده دون عون خارجي مزعوم، والطبيعة المادية تحوي الكثير من المصادر، التي تجعل هذه العملية ممكنة. فعلق أبراهام مستكراً:

- أكاد لا أصدق ما أسمعه منك أنسة تسيبي، فيبدو من حديثك أنكم غير مقتنعين بحقيقة وجود الرب ومخططه في العالم!!!  
فردت تسيبي بحنان، كأه تحاول إفهام ولدها أخيراً بأن شخصية "بابا نويل"<sup>(١)</sup> لا وجود لها في واقع الأمر:

- يا عزيزي، لقد قال "جرين"<sup>(٢)</sup>: "إن الرب والعالم صيغتان مختلفتان تعبران عن كائن واحد. وإن الرب ليس عنده أي مخطط أو هدف أو غاية للعالم، وإنه لا يعبر عن نفسه في التاريخ، فالرب شيء نشعر به نحن من خلال تجربة شخصية أو من خلال عنايتنا بالبيئة. والوحي لا يأتي من السماء، وإنما هو يشبه الإلهام الفني الذي ينبع من الروح الإنسانية". وهو يؤكد أنه لا يوجد رب يطلب من عابديه أن يتبعوا سلوكاً محدداً أو أشكالاً محددة من العبادة، حتى المشيخ، فهو الذات الإنسانية المنفتحة على الواحد.

(١) بابا نويل، أو سانت نيكولاوس، هو شخصية وهمية في الغرب، يجلب الهدايا في أعياد الميلاد كما يصور للأطفال.

(٢) الحاخام "أرمز جرين" رئيس كلية الحاخامات الإنشائية، وذلك في كتابه "فلتبحث عن وجهي، ولتفوه باسمي" الذي صدر سنة ١٩٩٢.

فقال أفرام:

- هذا هراء. فمثل اليهودية العليا يتم تفسيرها من خلال الشريعة، وليس من خلال آراء شخصية، على مبدأ شحوب الإله وذوبانه في التاريخ الإنساني وفكرة التقدم، فهذا كفر بحلولية الرب في حياة اليهود وتاريخهم، ونفي لهالة القداسة عنهما، وعن الشريعة. كما أن اليهودية تدور حول "المتسفوت"<sup>(١)</sup> التي تغطي السلوك الإنساني وتحكم العلاقة بين اليهود من جهة، وبينهم وبين الإله من جهة أخرى، وتهميش دور الإله يلغي اليهودية من جذورها. بالطبع لا يعني هذا أن تظل الشريعة جامدة، فيجب أن تكون هناك بعض المرونة لتعطي مجالاً للتغيير والتعددية الفكرية، والسعي نحو مواكبة العصر، وسد حاجات الإنسان اليهودي الحديث. والضمان لعدم جمود الدين وتحجره ليس بالليبرالية الراضية لثوابته كما تظنين، بل بعملية إعادة تفسير الشريعة بقدر عال من الإبداع، لا يستتفك القيام ببعض التعديلات الضرورية على الطقوس الدينية.

فقال أبراهام مقاطعاً:

- ولكنكم بإعادة تفسير الشريعة بقدر عال من الإبداع، كما تقولون، بدلتم الكثير من الشرائع التي تنتقدون الليبراليين على إنكارها.  
- إن الشرائع التي تتحدث عنها مليئة بالتعقيدات التي لم تعد تلائم الشعب حالياً.  
فتدخلت هافا قائلة:

- هذه المرة أتفق مع أفرام. فتلك الأوهام والتعقيدات التي ابتدعها الحاخامات على مر العصور ليست منطقية مطلقاً في هذا العصر، ومع أنني أفضل إلغاء الكثير منها، إلا أن تعديلها بما يتناسب مع العصر، يعد أكثر واقعية بكثير من إبقائها

(١) "المتسفوت" تعني الفرائض أو الوصايا، وهي الأوامر والنواهي. وتشمل ست مئة وثلاثة عشر عنصراً، منها مئتان وثمانية وأربعون أمراً، وثلاث مئة وخمسة وستون نهياً.



ثم الالتفاف عليها بالخداع والحيل الفقهيّة التافهة التي يلجأ إليها الحاخامات الأرثوذكس الموقرون.

- ماذا تعنين؟

سألها أبراهام باستنكار، فأجابته موضحة:

- خذ مثلاً تحريم حلب الأبقار يوم السبت. فلما كان الحاخامات قد عرّفوا الحليب بأنه: "ذلك السائل الأبيض الخارج من ضروع الأبقار"، فإنهم أجازوا عملية الحلب لأصحاب المزارع إن كان الحليب غير أبيض! وبناء على ذلك تم إعطاء البقر مادة تجعل حليبها أزرق حتى يمكن حلبها يوم السبت، ثم يعود إلى لونه الأبيض بعد ذلك. فهزت تسيبي رأسها موافقة لها، وقالت بدورها:

- هذا ليس شيئاً: فبعض الحاخامات اكتشفوا نصاً قديماً يتحدث عن إمكانية إفراغ ضروع البقر يوم السبت من أجل إراحتها من المعاناة التي يسببها انتفاخ ضروعها، ولكن بشرط متشدد، وهو ترك الحليب يهدر سائلاً على الأرض. وقد استفادوا من ذلك بعيلة أكثر سخافة، وهي أن يذهب أحد اليهود صباح يوم السبت إلى حظيرة البقر، ويضع السطول تحت الأبقار، إذ لا يوجد حظر على هذا النوع من العمل في الأدب التلمودي، ومن ثم يذهب إلى الكنيس من أجل الصلاة، فيأتي رفيقه ذو القلب الرحيم لتخفيف آلام هذه الحيوانات، بجعل حليبها يسيل على الأرض، ولكن إذا صادف وجود سطل هناك، هل يصبح هذا الرفيق المؤمن مجبراً على رفعه من مكانه؟ كلا بالطبع، بل يكتفي ببساطة، بتجاهل السطول، ويؤدي مهمة الرحمة التي يتولاها، ثم يذهب إلى الكنيس، ثم يأتي أخيراً رفيق ثالث من الأتقياء، فيدخل إلى حظيرة البقر ويكتشف - لدهشته العظيمة - سطولاً مليئةً بالحليب، فيضعها في براد، ويلحق برفاقه في الكنيس. والآن أصبح كل شيء على ما يرام، وليست هناك حاجة لهدر المال

على الصبغة الزرقاء<sup>(١)</sup>.

- وهناك تحايل مثير أيضاً في تجاوز تحريم زراعة الأرض في السنة السبتية<sup>(٢)</sup>: فقد أفتى الحاخام "إياهو باكشي" بجواز بيعها لغير يهودي لمدة عام، ثم استجارها منه وزراعتها في السنة المؤجرة. والحاخام الأكبر "أبراهام كوك" وجد باباً آخر وهو أن هذا التحريم "لا ينطبق في فترة بناء الدولة". وحاخام آخر أجاز الزراعة إذا وضع المزارع اليهودي في الأرض المحرمة رقاعاً من البلاستيك.

- وللأسف فإن الأحزاب الدينية قد جرت الحكومة أيضاً إلى لعبة التحايل الفقهي هذه: فحالياً يعطي وزير الشؤون الداخلية الإسرائيلي للحاخام الرئيسي وثيقة تجعله المالك الشرعي للأرض الإسرائيلية كافة، الخاصة منها والعامّة، وذلك قبل السنة

(١) يبدو أن مثل هذه الحيل قديمة العهد عند اليهود، فقد أشار القرآن الكريم (سورة البقرة آية ٦٥) إلى إحدائها في قصة "أصحاب السبت" الذين نصبوا شباكهم يوم الجمعة لتقع فيها الحيتان يوم سبوتهم، ثم يأخذون صيدهم بعد انقضائه. وقد مسخهم الله قردة عقاباً على تلاعبهم. ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: واعلم أنّ هؤلاء مسخوا قردهً لأن صورة القرود فيها شبهٌ من صورة الإنسان في بعض ما يذكر من أوصافهم، فلما مسخ أولئك المعتدون دينَ الله بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين، أي في الظاهر، أي في بعض ظواهره دون حقيقته، مسخهم الله قردهً. أي إن الجزء من جنس العمل؛ مسخهم الله كما فعلوا بالدين الذي مسخوه، فأبقى حقائقهم كما هي، وصورهم صور قرده جزاءً وفاقاً. إن بني إسرائيل أكلوا الربا وأكلوا أموال الناس بالباطل، وذلك يبدو أعظم من الصيد المحرم، لكنهم لم يعاقبوا بالمسح كما عوقبوا عندما استحلوا الحرام بالحيلة، وربما كان ذلك أعظم جرماً والله أعلم، فأكل الربا قد يعترف بذنبه، وقد يخاف الله ويتوب يوماً من هذا الذنب، لكنّ الذين يحتالون لا يعترفون بذنوبهم، بل يرون أنهم صنعوا خيراً، فقد فسدت عقيدتهم وأعمالهم. وكما قال أيوب السخيتاني: لو أتوا الأمر على وجهه لكان أهون، أي لو خالفوا الأمر وصادوا يوم السبت لكان أهون، أما المستحلون بنوع من الاحتيال والتأول فهم مُصرون على الحرام، وقد اقترن به اعتقادهم الفاسد بحل الحرام. وذلك قد يفضي به إلى شرٍّ قوي، ولهذا حذر النبي عليه الصلاة والسلام أمته فقال: "لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل" (ذكره ابن كثير في تفسيره).

(٢) السنة السبتية هي السنة السابعة، وهي -وفقاً للقوانين اليهودية- سنة سبوت (راحة) الأرض، أي تزرع الأرض ست سنوات ثم تسبت في السابعة، وهكذا دواليك.

السبتية بوقت قصير. فيذهب الحاخام الرئيسي إلى شخص غير يهودي، مسلحاً بهذه الورقة، فيبيعه أراضي إسرائيل كافة، وذلك لقاء مبلغ رمزي من المال، وتكون هناك وثيقة أخرى منفصلة، تنص على أن "الشاري" سوف يعيد بيع الأرض إلى الشخص الذي باعه إياها بعد انقضاء السنة. وتكرر هذه المبادلة التجارية عادة كل سبع سنوات مع الشاري نفسه، مع أن القانون الإسرائيلي يحظر على اليهود بيع أراض في إسرائيل إلى الغوييم، ومن ثم فإن المبادلة التجارية برمتها مبادلة غير قانونية، ولكن بناء على فتاوى الحاخامات فإن المحظور هو "عملية بيع حقيقية".

- لقد سمعت عن هذه الفتوى، ولكنها للمتدينين القوميين الصهاينة، وليست للحريديم، الذين أفتى حاخاماتهم ببطلانها وأنها قائمة على خطيئة.  
قال أبراهام متضايقاً، فردت تسيبي باستهزاء:

- وهل يوجد فرق بين الحريديم والقوميين؟! إن كلا الفريقين من الأرثوذكس المتشددين. ولعلمك الخاص فإن الحاخامات الحريديم بالذات هم من ابتدعوا تلك الفتوى في البداية، ثم ما لبث حلفاؤهم في الأحزاب الدينية القومية، فيما بعد، أن عملوا على إعطائها صفة الكمال.

- حلفاؤهم؟! إن الحريديم والقوميين الصهيونيين على النقيض تماماً.  
- لا أنكر أن هناك خلافات فقهية عميقة بينهما، ولكن فيما يتعلق بالتشدد الديني فكلاهما واحد. وقد تحالفا معاً للضغط على الحكومة كي تفرض على سلسلة مطاعم "ماكدونالدز" هنا، ألا تقدم "الهمبورجر" مع الجبن! وعلى "مزرعة لاهافا التعاونية" لتربية الخنازير أن يكون هدفها من الخنازير الاحتياجات الطبية فقط، وأن تضع ألواحاً خشبية تحت أقدام الخنازير لكي لا تلوث أرض الميعاد المقدسة!  
وهنا تدخل أفرام مدلياً بدلوهم:

- ومن إحدى الفتاوى العصرية للتهرب من تلك القيود، أنهم فسروا كلمة "صوت" بـ "غناء" فقط، وذلك للتحايل على الهالاخاه التي تعتبر أن "صوت المرأة عورة". وهكذا استطاعوا تقديم برامج انتخابية تلفزيونية بصوت النساء موجهة لليهود غير المتدينين. فهزت تسيبي رأسها قائلة:

- هذا صحيح، بل إن القوميين المتدينين أوجدوا فتوى أكثر عصرية لحل إشكالية الاستماع لغناء المرأة نفسه، مع أن اليهودي الذي يستمع عمداً إلى غناء امرأة يرتكب إثماً يعادل الزنا طبقاً للهالاخاه<sup>(١)</sup>، وذلك عندما قام بعض مستوطناتهم في أوائل التسعينيات بإنشاء محطة إذاعية جديدة<sup>(٢)</sup>، ولكي تكون ناجحة وتجذب أكبر عدد من الإسرائيليين، كان يجب أن تبتث أغاني المطربين والمطربات ذاتي الصيت، لكن الرقيب الحاخامي رفض السماح بخرق الشريعة بسماع الذكور لأصوات الإناث، وبعد مشاورات بين هؤلاء المتدينين أصحاب المحطة الإذاعية والرقيب الحاخامي تم التوصل إلى حل يحظى بالقبول ولا يزال يستخدم حتى الآن: وهو أن يقوم الرجال بغناء الأغاني الشهيرة للمطربات، وبعد ذلك يتم تحويل الأصوات إلكترونياً إلى الطبقات الصوتية النسائية قبل أن يتم بثها، وهذا ما جعل جانباً كبيراً من الجمهور التقليدي يشعر بالرضا. لكن الحريديم رفضوا هذا الحل طبعاً، بل إنهم - بعدما استطاعوا زيادة قوتهم السياسية - فرضوا آراءهم الخاصة بتحريم صوت المرأة تماماً.

- ولا تنسوا أيضاً كيف تحايل حزب "يهوديت هاتوراة" على منع حاخامهم "شاخ" من أن يتولى أحدهم وزارة ما في حكومة "بنيامين نتنياهو" مع أن الحزب من المؤيدين له، فجعلوا رئيس الحكومة يتولى الوزارة بنفسه، شرط أن يقوم بالتوقيع فقط على ما يراه نائب الوزير الذي يمثل الحزب!

(١) الغريب أن أغلبية أعضاء الحزب القومي الديني الذين يعتبرون أنفسهم ملتزمين دينياً يستمعون إلى غناء المرأة بشكل صريح، وبذلك يرتكبون الزنا بصورة روتينية وفقاً لمذهبهم الأرثوذكسي نفسه.

(٢) وهي القناة السابعة.

- وماذا عن خداع الملائكة التي لا تفهم إلا العبرية، حيث يمررون كلمات آرامية بينها لأهداف كالبالية "جنسية" إلهية كما يدعون<sup>(١)</sup>! ألا يعني كل هذا أن هؤلاء الحاخامات الأرثوذكس يظنون أن إلههم غبي يمكن اللعب عليه؟ ألم يكن من الأجدر من هذا إصلاح اليهودية نفسها؟!!!

---

(١) لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف .

## ◀ المنظومة الخفية

قالت تسيبي معلقة على حديث هافا الأخير:

- أتفق معك يا عزيزتي أنه كان من الأجدر إصلاح اليهودية نفسها، بدل الإلتفاف عليها ومخادعة إلههم؛ فمعيار الإيمان باليهودية في حقيقة الأمر ليس ممارسة هذه الطقوس أو تلك، وإنما مدى التزام اليهودي ببقاء شعبه. فمن غير المهم الالتزام المبدئي بمجموعة مبالغ فيها من الأوامر والنواهي، ثم التلاعب بها إذا عارضت مصلحتنا؛ لأن الطقوس في النهاية ليست قانوناً أو شريعة، وإنما مجرد وسيلة لبقاء الجماعة وتطور الفرد. واليهودية في خدمة اليهود، حيث يستطيع كل فرد أن يقرر لنفسه ما سيمارسه من طقوس بنوع من الاتزان، كما أن الصفة المشتركة بين اليهود ليست صفة أخلاقية، وإنما هي صفة الاستمرار والبقاء.

فقال أبراهام:

- أنتم بهذا تقللون من واجبات اليهودية وأعبائها من أجل راحة اليهودي، والأحرى أن يرتفع اليهودي إلى مرتبة اليهودية. فالمطلوب حقيقة هو إصلاح اليهود الذين يخادعون الله (ولم يخدعوا في الحقيقة إلا أنفسهم) وليس إصلاح اليهودية نفسها. تنهدت تسيبي، وقالت كمن يشرح لطفل صغير حقيقة تفوق عمره، ولا يُتَوَقَّع منه أن يفهمها مهما أسهب في الشرح:

- آه يا عزيزي، لقد تم تضليلنا بعيداً عن الوجود الحقيقي المقدس في هذا العالم، الذي قد سماه البشر الله. أنا لا أعرف ما هو الله، لكني أعرف ما هو ليس الله. ولأنك لست مستعداً للنظر إلى الحقيقة الكاملة، مهما كانت طبيعة هذه الحقيقة، ومهما كان

ما ترمي إليه، فستظل تتجاهل الأمر وتتنظر إلى الجهة الأخرى، أو أن تتحاز إلى جهة معينة. وفي مكان ما على الطريق فإنك ستجد أنك تتلاعب مع العدالة الإلهية. لكن كلما ثقفت نفسك أكثر، فهمت أكثر مصدر الأمور، وأصبحت الأمور أكثر وضوحاً، وأصبحت ترى الأكاذيب في كل مكان. عليك أن تعرف الحقيقة وتبحث عنها، فهي وحدها من ستحررك من الأوهام.

فقال أبراهام باستخفاف:

- وما هي هذه الحقيقة برأيك؟!

- أن وجود اليهود يسبق ماهيتهم، لذا، فنحن بوجودنا التاريخي المتطور، أهم من اليهودية كدين، التي تتسم بشيء من الثبات والجمود. واليهودية إنما وجدت من أجل اليهود ولم يوجد اليهود من أجل اليهودية كما تعتقدون في الأرثوذكسية. كما أن القاسم المشترك الأعظم بين اليهود ليس عقائدهم، ولا ممارساتهم الدينية، ولا حتى أهدافهم الخلقية، وإنما حضارتهم الشعبية الدينية. أما الإيمان فهو مجرد حالة نفسية أو شعورية ذات فائدة للمجتمع، إذ إن السلوك الأخلاقي يستند إليه، فالإيمان هو نوع من النبوءات التي تحقق ذاتها، وليس خضوعاً لأية مرجعية تقع خارج ذات الإنسان.

حاول أفرام استغلال إلحادية طرح تسيبي، وأسلوبها المتهجم لبناء جسر نحو أبراهام من فوق ظهرها، فقال له غامزاً:

- إن اليهودية الإنشائية هي النقطة التي تتحول فيها اليهودية من عقيدة دينية شبه علمانية إلى عقيدة علمانية شبه دينية.

فطنت هافا للعبته الخبيثة، والتي تغمز باليهودية الإصلاحية أيضاً، فأرادت أن تقلب السحر على الساحر، عن طريق تنبيه أبراهام إلى أن اليهودية المحافظة بصهيونيتها لا تبعد كثيراً عن ذلك الوصف، لذا سارعت بالقول:

- أفرام، إنك أنت من يتلاعب بالألفاظ الآن مناقضاً نفسك؛ أليس هذا بالضبط هو حال الصهيونية التي تؤمنون بها، وتمارسون دوراً تنظيمياً نشيطاً داخلها، من خلال "منظمة مركزا"<sup>(١)</sup>؛ ثم إذا كنت تنظر إلى الموضوع من هذه الزاوية فعلاً، فلا بد أن تتفق معي في أن اليهودية المحافظة بنيت على مقولات اليهودية الأرثوذكسية، بعد أن "علمتها" على طريقته الخاصة.

فقال أبراهام متحسراً:

- كما أرى، فإن هذه العلمنة والليبرالية قد أوجدت فجوة عميقة بين الأرثوذكس بكل فرقهم من جهة، وبين التنويريين بكل فرقهم من جهة أخرى، حتى إنهم أصبحوا يشكلون يهوديتين مختلفتين تماماً.

فهز أفرام رأسه أسفاً، وتهد قائلاً:

- يبدو أنك تدور في حلقة مفرغة، فأنت تقيس كل شيء وفقاً لخلفيتك الأرثوذكسية فحسب.

فقال أبراهام:

- أما أنت فتقيس كل شيء وفقاً لقوميتك الصهيونية، متناسياً أن فكرة الصهيونية نفسها قد نشأت في الأصل بين البروتستانت المسيحيين.

فتبسم أفرام بخبث قائلاً:

- يجب ألا تتخذ أنت بتلك الأكاذيب يا عزيزي. فقد صنعت فقط للترويج بين الغوييم الأغبياء، تمويهاً على حقيقة سيطرتنا عليهم.

- هل تنكر أن زعماء البروتستانتية قد وقفوا بحزم في وجه أقرانهم اليهود،

(١) "مركزا" هي الأحرف الأولى من عبارة "موفمنت توري أفرام كونسرفاتيف زاينيزم" التي تعني "حركة إعادة تأكيد الصهيونية المحافظة".



لتذكيرهم بأن فلسطين بالذات هي أرض ميعادهم؟ وليست أوغندا<sup>(١)</sup> التي كانت أكثر قبولاً بالنسبة إليهم، كما نصت محاضر الجلسة السادسة للمؤتمر الصهيوني العالمي! وليست حتى جزيرة سيناء أو العريش أو أي من الأراضي الأخرى التي كانوا يفاوضون على إقامة حكم ذاتي يهودي فيها .

- كان ذلك مقصوداً، وبعد ذلك طبخنا الحرب العالمية الأولى على نار هادئة قبل أن تقع فعلاً بثلاثة عشر عاماً تقريباً .  
- أنت تمزح بلا شك .

- بتاتاً . فبحسب ما قال "ماكس نورداو" في خطابه في المؤتمر الصهيوني السادس الذي عقد في بازل بسويسرا عام ١٩٠٣م: "دعوني أخبركم الكلمات التالية، وكأني أصعد بكم درجات السلم درجة درجة ... المؤتمر الصهيوني، مشروع أوغندا البريطانية .... الحرب العالمية المتوقعة ... مؤتمر السلام، حيث يتم بمساعدة بريطانيا قيام دولة يهودية حرة في فلسطين".

- هل تحاول إقناعي أن الصهيونية هي التي تُسيّر الدول العظمى!  
فأجاب أفرام بثقة متناهية كأنه يتحدث عن إحدى المسلمات البديهية:  
- بالطبع. ولو بحثت جيداً في تاريخ هؤلاء الكلاب الذين يقتاتون من موائدنا<sup>(٢)</sup>،

(١) تلك الأرض في كينيا حسب الحدود الحالية .

(٢) يقصد المسيحين . وهو يشير إلى العبارة التي كتبها مؤسس البروتستانتية "مارتن لوثر" في كتابه "المسيح ولد يهودياً" سنة ١٥٢٣م حيث قال: "إن الروح القدس (يقصد الله) شاءت أن تُنزل كل أسفار الكتاب المقدس عن طريق اليهود وحدهم . إن اليهود هم أبناء الرب، ونحن الضيوف الغرباء، وعلينا -نحن المسيحين- أن نرضى بأن نكون كالكلاب التي تأكل من فئات مائدة أسيادها" . (مشيراً إلى قصة المرأة الكنعانية في (متى ١٥ : ٢١ - ٢٨) وإلى قصة قريبة منها مع امرأة فينيقية سورية في (مرقس ٧ : ٢٤ - ٣٠) .) وقد كان هذا انقلاباً جذرياً على المسيحية التقليدية وتغيراً لمسارها، لا تزال آثاره باقية حتى اليوم، ليس على البروتستانتية فحسب، بل على المسيحية بشكل عام، خاصة بشأن عقيدة أن ربهم لن يعود إلا بعد إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . ولزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف .

لوجدت أن أيادي حكماننا الخفية قد عبثت بديانتهم البروتستانتية منذ نشأتها حتى الآن<sup>(١)</sup>، وهذا ما دفع شيختر إلى التعبير عن ثقته بأن إنجلترا "الوطن الإنجيلي المغمم بالإيمان والروح العملية" ستتفهم أمانى الشعب اليهودي<sup>(٢)</sup> بعد انتصارها على الأتراك المحمديين. وهذا ما حدث فعلاً.

- أنت تبالغ كثيراً.

- مطلقاً. ولا أعني البروتستانتية فحسب؛ فمع أن ظروف المنطقة، التي سبقت الحريين العالميتين الأولى والثانية، كانت تتقاطع كلياً مع مخططاتنا بإقامة وطن قومي بأرض إسرائيل، وبالذات في ظل وجودها تحت الحكم العثماني، وموقف السلطان عبد الحميد الحازم في رفض مجرد هجرة اليهود إليها، رغم الضائقة الاقتصادية

(١) نشرت مجلة "كاثوليك جازيت" في عام ١٩٣٦م وثيقة يهودية مهمة تبين دور اليهود في نشأة المذهب البروتستانتى، ومما جاء في تلك الوثيقة: "والآن دعونا نوضح لكم كيف مضينا في سبيل الإسراع بقصم الكنيسة الكاثوليكية، فاستطعنا التسرب إلى دخالها الخصوصية، وأغوينا البعض من رعيتهما (قساوستها) ليكونوا رواداً في حركتنا، ويعملون من أجلنا. وأمرنا عدداً من أبنائنا بالدخول في جسم الكاثوليكية، مع تعليمات صريحة بوجود العمل الدقيق، والكفيل بتخريب الكنيسة من قلبها، عن طريق اختلاق فضائح داخلية. ونكون بذلك قد عملنا بنصيحة أمير اليهود، الذي أوصانا بحكمة بالغة: "دعوا بعض أبنائكم يكونون كهنة ورعاة أبرشيات فيهدموا كنائسهم"، ومع الأسف الشديد، لم يبرهن جميع اليهود من أبناء العهد عن إخلاصهم للمهمة الموكلة إليهم، فخان كثيرون العهد، لكن الآخرين حافظوا على عهدهم، ونفذوا مهماتهم بشرف وأمانة. نحن آباء جميع الثورات التي قامت في العالم، ونستطيع التصريح اليوم بأننا نحن الذين خلقنا حركة الإصلاح الديني للمسيحية؛ ف"كالفن" كان واحداً من أولادنا، يهودي الأصل، أمر بحمل الأمانة، بتشجيع المسؤولين اليهود، ودعم المال اليهودي، فنفذ مخطط الإصلاح الديني. كما أذعن "مارتن لوثر" لإيحاءات أصدقائه اليهود، وهنا أيضاً نجح برنامجه ضد الكنيسة الكاثوليكية، بإدارة المسؤولين اليهود وتمويلهم. ونحن نشكر البروتستانت على إخلاصهم لرغباتنا. مع أن معظمهم، وهم يخلصون الإيمان لدينهم، لا يعون مدى إخلاصهم لنا. إننا نجد ممتنين للعون القيم الذي قدموه لنا في حربنا ضد معاقل المدينة والمسيحية، استعداداً لبلوغ مواقع السيطرة الكاملة في العالم".

(٢) جدير بالذكر هنا أن هنري الثامن ملك إنجلترا بعد أن أعلن الانفصال الرسمي عن كنيسة روما الكاثوليكية، وتبنى بوضوح مبادئ الحركة البروتستانتية في سنة ١٥٣٨م، بادر إلى فتح باب إنجلترا من جديد لدخول اليهود بعد أن كان مغلقاً منذ أيام إدوارد الأول سنة ١٢٩٠م.

التي كان يمر بها هو وسلطنته، متجاهلاً كل الإغراءات التي قدمت إليه<sup>(١)</sup>، إلا أنك لو أمعنت النظر في نتائج تَبَيْتِكَ الحربين، فستجد أنها خدمت مخططاتنا بشكل لافت للنظر؛ فقد تمخضت الحرب الأولى عن انهيار الخلافة العثمانية، ومن ثم إصدار وعد بلفور، ووضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني لفتح باب الهجرة اليهودية. ثم قامت الحرب الثانية، فتمخض عنها إنشاء الأمم المتحدة (عوضاً عن عصبة الأمم) من خمس دول حليفة منتصرة، فرضت قراراً أممياً بتقسيم فلسطين وإقامة الدولة اليهودية على الجزء الأكبر منها. وفي المقابل، ستجد أن نتائج هذه الحرب كانت مأساوية على مجمل الدول التي شاركت فيها، فبالإضافة إلى هزيمة ألمانيا وتدهور اقتصادها، إلا أنها أُجبرت على دفع تعويضات سخية لنا بالذات<sup>(٢)</sup>. حتى الدول "المنتصرة"، خرجت من الحرب مكبلية بديوننا إلى ما لا نهاية. وكما هو مخطط تماماً، كان المستفيدون الوحيدون هم حكماؤنا الذين يحكمون العالم من وراء الكواليس<sup>(٣)</sup>. حتى "العولمة" ما هي إلا مصطلح مضلل ابتدعه كغطاء للتمويه على برنامجهم العبقري لتهود العالم بأسره. أدواته الثقافية هي وسائل الاتصال والإعلام المختلفة، وأدواته الاقتصادية صندوق النقد والبنك الدولي والخصخصة ومنظمة التجارة العالمية، وغايته خلق ديانة

(١) سطر خليفة المسلمين عبد الحميد الثاني رحمه الله عام ١٩٠٢م كلمات مشرقة في تاريخ الخلافة العثمانية حين قال: "إنني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من فلسطين، فهي ليست ملك يميني بل ملك شعبي، فليحفظ اليهود بملايينهم، وإذا مزقت إمبراطوريتي يوماً فإنهم يستطيعون أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن، أما وأنا حي فإن عمل المضع في بدني لأهون علي من أن أرى فلسطين قد بترت من الإمبراطورية الإسلامية". وقد كلفه ذلك الموقف الشريف عرشه، إلا أنه خلد ذكره وذكر العثمانيين إلى الأبد.

(٢) عدد ضحايا الحرب العالمية الثانية يقدر بأكثر من ٥٥ مليون قتيل، ولكن القتلى اليهود فقط اعتبروا ضحايا مقدسة، مما استدعى تعويضاً مادياً لهم من ألمانيا ومعنوياً من العالم الغربي بشكل عام، بل تعويضاً جغرافياً على حساب الفلسطينيين الذين لم تكن لهم في تلك الحرب ناقة ولا جمل.

(٣) قال السير "وليام بيت"، من مجلس اللوردات في سنة ١٧٧٠م: "خلف العرش هناك شيء أعظم من الملك نفسه" وقال السياسي "بنجامين ديسلالي" في سنة ١٨٤٤م: "يتحكم بالعالم أشخاص مختلفون جداً عما يظنه هؤلاء غير الموجودين خلف الكواليس". المزيد من المعلومات راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

مادية جديدة لهم تحت عنوان التحرر والتحرير، ونهب ثرواتهم تحت عنوان تحرير التجارة. وكل ذلك لهيئة الأجواء، لظهورنا في الوقت المناسب كأسياد للعالم بأسره.

- اعذرني. ولكن هل أفهم من كلامك أنك تؤمن بخرافات كـ"بروتوكولات حكماء صهيون"<sup>(١)</sup>، أو كوجود "الحكومة الخفية" التي تسيطر على جميع خيوط السياسة العالمية من وراء الكواليس<sup>(٢)</sup>!!!

(١) وهي وثائق سجلت اجتماعات رؤساء اليهود وتوصياتهم تجاه أفراد المجتمع الآخرين، ومنهجهم في المؤامرات. وقد أصبحت وثيقة اتهام خطيرة تدين اليهود بشكل مباشر من حيث الصيغة التأمرية، وجرت عليهم مشاكل عديدة. لكن بعد جهود إعلامية مكثفة استطاع اليهود إقناع العالم أن هذه الوثيقة (التي وجدت مكتوبة باللغة الروسية، وتم نشرها لأول مرة في روسيا في جريدة زاناميا في مدينة سانكت بطرسبرغ عام ١٩٠٣) قد تم انتحالها من قبل الشرطة الروسية القيصرية لإيجاد فرية للضغط على اليهود، ومحاولة طردهم من روسيا القيصرية. وقد تناول هذه البروتوكولات كثير من الكتاب والباحثين الغربيين بالبحث والتقصي، وأكدوا أنه رغم كل حجج النفي والتملص التي أبداها اليهود، إلا أنه من الواضح تماماً أن كثيراً مما خطط له في تلك البروتوكولات قد تحقق حرفياً في الفترة الأخيرة، وأن الباقي يبدو في طريق ممدد إلى التحقق، وحذروا حكوماتهم من الخطر اليهودي المحدق بأممهم، ولكن دونما جدوى. فمن غرائب الأمور أن معظم الكتب التي حذرت - وما زالت تحذر - من الخطر اليهودي على شعوب العالم كان مصيرها الاختفاء من الأسواق، أو التسفيه ومن ثم الإلقاء في زوايا النسيان والإهمال بتهمة تبنيها لما اصطلح اليهود على تسميته بـ"نظرية المؤامرة". وهي تهمة بات يتحاشاها كل المثقفين نتيجة الدعاية اليهودية المؤثرة التي شنت عليها حرباً شعواء في الأوساط الثقافية العالمية.

(٢) كي لا يختلط الأمر على القارئ نوضح أن هذه الحكومة، وإن اتفقت على الخطوط العريضة، إلا أن فيها اتجاهات متعددة تحمل رؤى متناقضة لتحقيق الأهداف المرسومة. ﴿تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤] وأبلغ دليل على ذلك هو الصراع الخفي الذي نشب في القرن التاسع عشر بين الكتل اليهودية الثلاث الكبرى (المصرفيين "الرأسمالية" والشعوبيين "الاشتراكية" والقوميين "الصهيونية")، حيث لم تكن الصهيونية الناشئة قد أثبتت وجودها بعد، ولكنها تمكنت في النهاية من انتزاع الاعتراف بها، وأجبرت الكتلتين على مساعدتها والتنسيق معها. ونقرأ في مذكرات هرتزل الشخصية: "سنصفي أموال روتشيلد كما فعلنا مع أصغر وكلاء الشحن وأصحاب الدكاكين... سنكون حقاً فقراء لو أتينا إليكم نشحذ بليوناً. إذا لم تريدوا المساعدة؛ فسوف نسير بالطلب على طبقة ثانية إلى اليهود متوسطي الغنى، سنرسل بضع نشرات عن الخطة إلى مراكز الغنى اليهودية الرئيسية، ليطلع عليها المليونيرات المتوسطون... وستحول جميع المصارف اليهودية المتوسطة الحجم إلى قوة مالية واحدة، تناهض أصحاب المصارف الكبار باسم المثل القومي الأعلى، وسيهدف هذا العمل إلى جركم معنا أو العمل على كسركم ثم تحطيمكم".

فالتفت أفرام إلى هافا، وقال باستخفاف:

- عزيزتسي، هل ضيفك حاخام يهودي فعلاً؟! أم أنه فقط يظن أن أحدهم يتنصت علينا ليتظاهر بكل هذه البراءة والسذاجة؟!  
- بل أنت الساذج، والأفضل أن تبتعد عما لا يعينك، ولا داعي للدخول في مواضيع كهذه.

قالت هافا بعصبية، ففغر أبراهام فاه من الدهشة، وسألها محاولاً التأكد من حقيقة ما فهمه:

- مهلاً. عمّ تتكلمين؟ هل تصدقين أنت أيضاً هذه الخرافات؟ ... ثم ما سبب كل هذا الخوف الذي ارتسم على وجوهكم فجأة؟  
- أبراهام، دعك من هذه المواضيع التي لا تنتهي عادةً بنهاية سعيدة.  
قالت هافا متهربة، ثم التفتت إلى أفرام الذي امتنع وجهه، وقالت والشرر يتطاير من عينيها:

- ما الذي أدخلنا في مثل هذه المواضيع أيها المتهور الأرعن؟  
وهنا قامت تسيبي قائلة:

- نظراً لخروج المناظرة عن موضوعها الرئيسي من البحث عن الحقيقة إلى موضوع خارجي هو البحث عن المتاعب، فإنني أعلن انتهاءها إلى غير رجعة.  
ثم صاحت بتهكم:  
- رفعت الجلسة.

## ◀ مؤامرات وفتن

مضت بضعة أيام على تلك المناظرة وأبراهام عاكف على محاولة هضم الكم الهائل من المعطيات التي دارت فيها؛ فقرأ كل ما تيسر له من كتب تتحدث عن تلك الفرق التتويرية الثلاث بتجرد كامل، محاولاً ألا يدع مجالاً لخلفيته الأرثوذكسية بالتأثير على حكمه عليها، كما اتهمه أفرام. إلا أنه بات يشعر الآن بالافتقار، ولم يعد راغباً بقراءة المزيد؛ فمع أن التتويريين يشكلون الأغلبية الساحقة بين الفرق اليهودية الدينية في العالم، إلا أنه أصبح واثقاً، وبما لا يحتمل أدنى مجال للشك بزيغ عقائدهم، وبعدهم الشديد عن الحق، بل بتشويهم لحقيقة وجود الله نفسها عن طريق مبالغتهم باعتماد الحلولية، لذا فقد قرر في النهاية عدم إضاعة المزيد من الوقت في دراسة ذلك الإلحاد ذي الصبغة الدينية، والتركيز على الفرق الأرثوذكسية التقليدية فحسب، إذ إنها وحدها تؤمن بالرب فعلاً<sup>(١)</sup>.

كان أبراهام مصعوقاً من ذلك الذي أطلق عليه اسم "الإلحاد الديني"، ولاحظ أنه لو أضاف اليهود الإثنيون<sup>(٢)</sup> الذين لا يؤمنون بالله، إلى أولئك اليهود التتويريين، الذين يؤمنون بالله بذلك الشكل المشوه الذي رآه بأعينه، فإن السواد الأعظم من اليهود؛ أي أكثر من ٩٠٪ منهم، هم ملحدون بشكل أو بآخر! وهذا مخالف للصورة النمطية عن اليهود في العالم، الممثلة بمتدين يهودي ملتج، يتشج بالسواد ويقرأ التوراة وهو يهز رأسه دون انقطاع. تأسف أبراهام في قرارة نفسه لأن كل الشرور التي يقوم بها أولئك

(١) للأسف فحتى التوحيد الأرثوذكسي اليهودي ليس خالصاً من بعض الشرك، كما سنرى في الفصل القادم.

(٢) اليهود الإثنيون هم اليهود الذين تركوا الإيمان اليهودي، ولكنهم لم يتبنوا عقيدة جديدة، ومع هذا يعتبرون أنفسهم يهوداً لأنهم ولدوا كذلك، ويقدر عددهم بنحو نصف يهود العالم.

الملحدون تنعكس بالدرجة الأولى على الأرثوذكس المتدينين الذين لا يمثلون في الواقع أكثر من ٥-١٠٪ من يهود العالم<sup>(١)</sup>.

رجع أبراهام بمخيلته مرة أخرى إلى أحداث تلك المناظرة، ولكنه هذه المرة توقف عند نهايتها الغامضة. وعادت التساؤلات تعصف برأسه مجدداً: فما الذي دفع بهافا إلى تجنبه، بعد فشلها في صرف انتباهه عن محاولة التحري عن حقيقة ما ألمح إليه أفرام؟! أليس هذا غريباً عليها بالنظر إلى إعجابها به، وشغفها بمحاولة كشف الغموض ورفضها للتفسيرات البسيطة؟! وإذا كانت تعرف شيئاً ما، فما الذي دفعها إلى التكتيم، رغم ثرثرتها وحبها للشرح والتوضيح، وادعائها بأنها تهمهم ما يعجز الآخرون عن فهمه؟! ما الذي يمكن أن تخاف منه في بلد الحرية والديمقراطية الوحيد في هذا الجزء من العالم؟! خاصة أنها تحمل جنسية بلد الحرية والديمقراطية الأول في العالم بأسره؟! بل تعتق أكثر الأديان جرأة على الانتقاد وحرية التعبير عن الرأي وعدم الخضوع أو التسليم لأي من التابوات!!! هل يعقل أن تكون الشرطة الروسية القيصرية بريئة من تهمة تلفيق ما يعرف ببروتوكولات حكماء صهيون؟! وما تلك المصادفة الغريبة التي جعلتهم يبتدعون لتلك البروتوكولات نفس التسمية التي اعتمدها لاحقاً الحركة الأوسع انتشاراً والأكثر نفوذاً بين يهود العالم!!! ولماذا أصرت الحركة على تلك التسمية مع أن هناك تسميات أخرى ترمز إلى أرض إسرائيل، أو إلى مدينة أورشليم، بل إلى الهيكل نفسه؟! وكانت تستطيع الحركة الصهيونية اتخاذها للتعبير عن ارتباطها بأرض الميعاد ودعوتها إلى العودة إليها! هل وصلت ثقمتهم في سيطرتهم على وسائل الإعلام والشعوب والحكومات والاقتصاد إلى درجة أنهم لم يروا داعياً لإجهاد أنفسهم في البحث عن اسم مختلف يحققون تحت لوائه ما قرروه في بروتوكولاتهم الصهيونية!!!

(١) في الحقيقة فإن اليهودية الأرثوذكسية تؤمن (ظاهرياً) بإله واحد يتجاوز المادة، منزه عن مخلوقاته يقف وراء الطبيعة والإنسان ويحركهما، ولا يرد إليهما، إلا أن لهم بدورهم تفسيراتهم الحولوية (الباطنية) الخاصة، التي تجعل الخالق يحل في بعض مخلوقاته أيضاً.

هل يعقل أن أشباه اليهود هؤلاء يحيكون المؤامرات على العالم فعلاً؟! وهل يعقل أنهم أسسوا حكومة خفية تتلاعب بالأديان ومصائر الشعوب وتشعل الحروب وتمولها كما يدعي أعداء السامية؟! هل يعقل أن كثيراً من الاتهامات ضدنا: كوجود جمعيات يهودية سرية ودورها في الفساد، ومسؤوليتها عن أغلب مصائب العالم، كانت حقيقية، وليست مجرد تجنُّ أو حقد أو حسد أو معاداة للسامية؟!!

راجع أبراهام تاريخ شعبه متسائلاً: إذا كنا فعلاً أبرياء من كل تلك التهم، وأننا قد وقعنا حقاً ضحية لظروف سياسية أو اقتصادية أو حتى اجتماعية لدولة ما، في حقبة ما، جعلت منا الشماعة التي يعلّق عليها الآخرون فشلهم وسوء أوضاعهم، كما نسمع من آباتنا ليل نهار، فهل من المنطق أن يتكرر السيناريو نفسه معنا نحن بالذات، وفي مختلف الدول التي تمركزنا بها، وعلى مر العصور، دون غيرنا من بقية الأقليات؟!...  
يا للمصادفة الغريبة!!!

هل كانت مصادفة أن أغلب مؤسسي عبادة الشيطان، وكذلك أغلب نُقاد الكتاب المقدس<sup>(١)</sup>، والمشككين بالأديان وبوجود الله هم من اليهود كما عرفت مؤخراً؟! هل كانت مصادفة أن أغلب أصحاب النظريات الإلحادية المضلة، مثل دارون في مجال علم الأحياء والتطور، وفرويد في مجال علم النفس والجنس، كانوا من اليهود حصراً رغم قلة عدد اليهود في العالم؟! هل من قبيل المصادفة أيضاً أن من بين اليهود بالذات خرج "كارل ماركس"<sup>(٢)</sup> مبتدع أكبر نظام إلحادي عالمي؟! أمِن المصادفة أيضاً أن أشهر قادة ذلك النظام الشيوعي، مثل "لينين" و"تروتسكي" و"ماكييف" و"سوكنو لنكوف"

(١) راجع رواية بشارات هائمة، وأيضاً رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) حفيد الخاخام اليهودي المشهور "مردخاي ماركس". وبالمناسبة فقد صرح كارل ماركس بأنه كان على اتصال بفيلسوف الصهيونية وواضع أساسها النظري "موشيه هيس" أستاذ هرتزل الزعيم الصهيوني الشهير.



و"زينوفيف" و"بينوف" كانوا من اليهود كذلك!!؟ أليس غريباً أن من قام بتمويل ثورتهم كانوا من اليهود حصراً؟ بل أن بعض أولئك الممولين اليهود مثل "فيلكس" و"أوتو"، و"جيروم" وغيرهم، كانوا يحملون جنسية أكبر عدو للنظام الشيوعي؛ جنسية الولايات المتحدة الأمريكية نفسها!!!

وأديان العصر الجديد! هل كانت مصادفة أيضاً وجود أعداد كبيرة من اليهود في أعلى هرم قياداتها الروحية (رغم التباين الكبير بين دعواتها)، مع أن اليهود يمثلون نحو ٢٪ فقط من سكان العالم!!؟ أليس غريباً أن يكون الحال كذلك حتى بالنسبة إلى الجمعيات السرية الكبرى مثل الماسونية<sup>(١)</sup> وغيرها! بل هل من المصادفة أيضاً أن اتهامات ذلك الجنوبي للإدارة اليهودية للمنتج، التي كان يمكن أن تعزى بمنتهى السهولة إلى اللاسامية والتجني على اليهود و"نظرية المؤامرة"، كانت اتهامات واقعية جداً! بل أقل مما جرى في الحقيقة، كما خبرتها بنفسها! هل كانت مصادفة أن يتفاخر حاخام متهور بدور اليهود في التلاعب بأكبر دين على وجه الخليقة!!؟ وأن يتخاف حاخام جريئة، وتتهرب صحفية مشاكسة من الخوض في المتاعب مع أن ذلك من صميم عملها وشخصيتها المتمردة!!؟

تزامت كل تلك الأسئلة في رأس أبراهام، فتوجه إلى الله قائلاً:

(١) يقول الحاخام "لاكويز": "الماسونية يهودية في تاريخها ودرجاتها وتعاليمها وكلمات السر فيها وفي إيضاحاتها، يهودية من البداية إلى النهاية". وشعار الماسونية هو حرف "J" اختصاراً للكلمة الإنجليزية التي تعني هندسة، وبعضهم يقول: إنها ترمز أيضاً إلى "يهوه" الذي هو مهندس الكون الأعظم، وترمز في الوقت نفسه لليهود. أما أهم رموز الماسونية على الإطلاق فهو المربع الناتج من التقاء الزاوية القائمة بالفرجار، لكن الماسونيين أنفسهم يعترفون بأن هذا الرمز تطور أصلاً عن نجمة داوود السداسية (المثلثين المتشابكين). ويقول أحد المؤرخين للماسونية البروفيسور جون شو أستاذ التاريخ بجامعة غولدن سميث: "رموز الماسونية معقدة، ولها أساساً أربعة مصادر: أحدها هو الكتاب المقدس، (يقصد التوراة) ولذلك ترتبط بالرموز اليهودية، لأن العهد القديم كتابٌ يهودي".

- ربي، أنا بريء من كل هذا، وأكاد أكون واثقاً من أن أسرتي كذلك، وأتمنى أن تكون طائفتي السابقة بعيدة عن ذلك أيضاً، مع أنني للأسف لا أستطيع أن أجزم بذلك؛ فما عرفته من بحثي حتى الآن يدفعني إلى الشك بجميع اليهود. ارحمني يا رب، وأرشدني إلى الحقيقة.

اقترب موعد مجيء أحمد، فخرج أبراهام من غرفته لينظره في الصالون، ويعيد كتابي "اليهودي العالمي"<sup>(١)</sup> وأحجار على رقعة الشطرنج<sup>(٢)</sup> إلى مكانهما في المكتبة. وبينما هو جالس، أخذ يسترجع في ذهنه بروتوكولات حكماء صهيون وما تحقق منها حتى الآن؛ ففي ١٧ شباط/فبراير سنة ١٩٢١ قال هنري فورد صاحب الكتاب الأول في مقابلة مع صحيفة "النيويورك ورلد": "إن أهم شيء أريد أن أقوله عن البروتوكولات هو أن ما جاء فيها يتطابق مع ما يجري اليوم... لقد مضى على ظهورها ١٦ عاماً وما زالت تتوافق مع الوضع الدولي حتى الآن"، ثم جاء وليام جاي كار صاحب الكتاب الثاني

(١) "اليهودي العالمي" هو كتاب يضم دراسات لأفضل الباحثين الأمريكيين حول الوسائل التي اتبعها اليهود في السيطرة على سياسات العالم واقتصاده، مركزاً على نشاطهم في الولايات المتحدة بشكل خاص. وقد قاموا بأبحاثهم بطلب من الصناعي الكبير "هنري فورد" (مخترع السيارات، ومؤسس شركة سيارات "فورد") بعدما لاحظ جهوداً مخيفة تبذل لحرمانه من ثمرة كفاحه لمصلحة جهة مجهولة تعمل من وراء الستار. ولكن فورد وشركته تعرضوا لهجمات من التلوّث والمقاطعة والسخرية من قبل الآلة اليهودية الإعلامية، حتى نجح اليهود أخيراً بإجباره على وقف النشر وإتلاف النسخ الموجودة بالمطبعة. ثم قاموا بشراء كل النسخ المباعة حتى وصل سعر النسخة الواحدة إلى ٨٠٠ دولار. كما أُجبروه على نشر اعتذار شخصي منه ضمنه إلقاء اللوم على مساعديه لقيامهم بهذا العمل دون علمه. ولاحقاً كشف فورد أنه ليس نادماً على ما فعل، وأنه لم يوقع الاعتذار ولم يقرأه حتى. بل قيل هاتفاً بأن ينشر باسمه تجنباً لمزيد من الخسائر.

(٢) "أحجار على رقعة الشطرنج" هو كتاب من تأليف الأدميرال "وليام جاي كار" الضابط بالاستخبارات البحرية الكندية. وقد لاحظ أن أحداثاً تجري في الوقت نفسه في مناطق مختلفة من العالم لا يمكن أن تكون المصادفة وراءها. ويتكليف من الجهة الحكومية المختصة في البلاد بدأ فريق عمل كندي بتعقب الخيوط التي ما لبثت أن قادتهم إلى اكتشاف شبكة يهودية عالمية أثبتت بالأدلة والوثائق أنها لم تكن وراء أحداث الحربين العالميتين الأولى والثانية فقط، بل وراء العديد من الأحداث العالمية كالثورة الفرنسية، واغتيال الرئيس الأمريكي "أبراهام لينكولن".

ليؤكد فيه أنه: "قد مضى على عبارة فوردي تلك ٣٤ سنة، وهي لا تزال حتى الآن مطابقة للواقع الذي نعيشه". ها نحن أولاء الآن في أواخر العقد الأول من الألفية الثالثة، ولا أجد تلك العبارة إلا وقد تأكدت أكثر وأكثر، على الرغم من كل الجهود المحمومة لإثبات تفتيق البروتوكولات وتسفيهه من يأخذها على محمل الجد!

تذكّر مقولة المليونير اليهودي "والتر راثنيو"<sup>(١)</sup> عن أن: "هنالك ٣٠٠ رجل كل منهم يعرف جميع زملائه الآخرين، يتحكمون في مصير العالم، وأنهم ينتخبون خلفاءهم من الأشخاص المحيطين بهم. وهؤلاء اليهود يملكون الوسائل التي تمكنهم من القضاء على أية حكومة لا يرضون عنها"<sup>(٢)</sup>.

التفت أبراهام إلى النافذة، ملاحظاً أن الظلام قد خيم في الخارج، فنظر إلى ساعته مُقدراً أنه قد قضى أكثر من ثلاث ساعات على هذه الحال. فتناول كتاب "حكومة العالم السرية"<sup>(٣)</sup> وقام يريد العودة إلى غرفته وهو يتعجب لتأخر أحمد على غير عادته. وفي هذه اللحظة رنَّ جرس الشقة، ثم سمع بعد لحظات صوت تتنحج مفتاح يدور داخل قفل الباب دون استعجال.

كان أدب أحمد يدهشه دوماً، فهو لآن - وإن كان يدخل بيته - لا يفتح الباب فجأة، احتراماً لخصوصية ضيفه؛ بل يعتمد الإعلام بوصوله خلال فترة كافية، منعاً لأي إخراج غير متوقع!

(١) جاء هذا في صحيفة The Wiener Press النمساوية بتاريخ ٢٥/١٢/١٩٠٩ م.

(٢) راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

(٣) "حكومة العالم السرية"، ويسمى أيضاً "اليد الخفية"، وهو كتاب من إعداد الكونت "آرثر شيريب سيريدوفيتش" الذي كان جنرالاً في الجيش الإمبراطوري الروسي ثم رئيساً للجمعية الأمريكية المناهضة للبلشفية، وقد منحه البابا بيوس العاشر لقب (كونت روماني). والكتاب عبارة عن توضيح لمئة حدث تاريخي غامض يثبت وجود حكومة خفية تتحكم بمصائر الدول والشعوب. وكما ذكر ناشر الطبعة الإنجليزية فإن "الكتاب لم يوضع ضد اليهود، ولكن كتابته بوحي من الضمير جعلت الكتاب بمجمله ضد اليهود". وقد عثر على المؤلف متسماً بالغاز في أحد الفنادق الأمريكية.

- عمت مساء .

قال أحمد بحزن وقتور، دون أن يتسم كعاداته، ودون أن يناديه بعبارة "يا بن العم" التي بات أبراهام يطرب لها، مما أثار دهشته كثيراً، خاصة أنه كان ينتظره بفارغ الصبر ليعلمه بقرار مشاركته بإيجار الشقة، فغداً هو موعد استحقاق الدفعة الربعية. للحظات ظن أبراهام أن أحمد ربما يكون قد غير رأيه فيما عرضه عليه سابقاً، إلا أنه ما لبث أن طرد تلك الفكرة من رأسه بسرعة، فحتى إن كان ذلك صحيحاً، فإن أحمد الذي بات يعرفه جيداً، لن يلجأ إلى مثل هذه الطريقة لإعلامه بذلك، لكن أبراهام، ومن باب الاحتياط فقط، جلس على طرف الطاولة، ليخفي مبلغ المال المترتب عليه عن ثلاثة الأشهر القادمة، الذي وضعه عليها سابقاً، ثم قال ببشاشة:

- عمت مساء يا بن العم. لقد تأخرت اليوم على غير عادتك.

- أجل؛ فقد أعادت سبعة عشر صحيفة دانماركية نشر الرسوم المسيئة للنبي محمد عليه الصلاة والسلام. وقد شُغلت بالمساهمة في الرد الإعلامي على ذلك التصرف الأرعن.

كان أبراهام يذكر المرة الأولى التي نُشرت فيها تلك الرسوم، ويذكر السخط العام من قبل المسلمين في الجمهوريات الإسلامية في روسيا الاتحادية وفي مختلف بقاع الأرض، ويذكر جيداً عصبيتهم لنبيهم، وردود أفعالهم العنيفة لنصرتة، التي تسببت في مقتل العشرات في نيجيريا وليبيا وباكستان، فضلاً عن إضرار النار في عدد من السفارات الدانماركية في بعض العواصم العربية، ومقاطعة البضائع الدانماركية من أغلب المسلمين في العالم. وتوالت على رأسه عناوين الأخبار التي قرأها آنذاك كأنها شريط أخباري:

"وزير إيطالي يثير الجدل بطبع الرسوم المسيئة للرسول"<sup>(١)</sup>، (وزير الخارجية البريطانية "جاك سترو" يمدح الصحف البريطانية التي لم تنشر الصور، في حين تقوم قناة البي بي سي البريطانية بعرضها<sup>(٢)</sup>)، (اتهام ثلاثة أشخاص في لندن بالتحريض بسبب مظاهرات احتجت على الرسوم)، (تصريحات "فليمنج روز"، المحرر الثقافي في سي إن إن عن نيته نشر صور تسخر من اليهودية والمسيحية)<sup>(٣)</sup>، (الدعوة إلى مواصلة المقاطعة بعد انتهاء مؤتمر الدانمارك)، (تحالف الحضارات يناقش قضية الرسوم المسيئة)، (الشرطة الباكستانية تفرق مظاهرات الرسوم بالقوة)، (رئيس لجنة المساواة العرقية في بريطانيا: "على المسلمين قبول حرية التعبير")، (مقتل ١٦ شخصاً في نيجيريا في مظاهرة ضد الرسوم المسيئة)، (استقالة الوزير الإيطالي الذي أيد الرسوم)، (الجمالية الإسلامية في الدانمارك تحاول رفع قضية إلى المحكمة لتحديد كون الرسوم المنشورة تخرق قوانين الدولة أم لا)<sup>(٤)</sup>، (أحد أصحاب الرسوم المسيئة يعلن أنه: "لا يشعر بالندم")، (الدانمارك تغلق سفارتها في باكستان)، ("غونتر غراس" عميد الأدباء الألمان يصف الرسوم بأنها مهينة ومؤذية لمشاعر المسلمين حول العالم، ويؤكد أن

(١) الوزير اليميني بلا وزارة "روبرتو كالديرولي" العضو في حزب الرابطة الشمالية المعادية لقدوم المهاجرين إلى إيطاليا.

(٢) بعد هذا التصريح أعطاه رئيس التحرير إجازة مفتوحة، ثم قدم روز لاحقاً اعتذاره وتأسفه عن تصريحاته. رئيس التحرير قال إن تصريحات روز كانت خطأ وسوء تقدير من روز.

(٣) يذكر أن عدداً من الجمعيات الإسلامية في الدانمارك قد قدمت شكوى للشرطة الدانماركية في ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٥ بزعم أن صحيفة يولاندس بوستن قد خرقت البندين ١٤٠ و ٢٦٦ من قانون العقوبات الدانماركي. إذ ينص البند ١٤٠ على تجريم الاستهزاء العلني لأي مواطن دانماركي من المعتقدات الدينية لأي مواطن دانماركي آخر، وينص البند ٢٦٦ على تجريم أي شخص قام بنشر معلومات أو دعايات أو تصريحات كان الغرض منها إلحاق الإهانة بشخص معين بسبب انتمائه الديني. في ٦ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦ قرر المدعي العام الأولي في مدينة فيبورغ إسقاط القضية قبل وصولها إلى المحكمة لأنه وجد أنه "لا أساس للقضية". وصرح المدعي العام أنه: "لإطلاق مصطلح اعتداء على أية حادثة يجب أن يؤخذ في نظر الاعتبار حق حرية التعبير عن الرأي الذي يجب أن يمارس في إطار حقوق الإنسان".

نية الصحيفة الدانماركية في استفزاز مشاعر المسلمين كانت واضحة، ويشبه الرسوم برسوم معادية لليهود نشرتها صحيفة ألمانية قبيل الحرب العالمية الثانية<sup>(١)</sup>.  
كان أبراهام يحترم غيره المسلمين على ذكرى مؤسس ديانتهم، وقوة ردهم على انتهاكها، ورأها مناسبة: فقد أوصلوا رسالة واضحة بأن تصوير نبيهم على أنه إرهابي، لن يمر عليهم مرور الكرام، وأنه من التغابي الواضح الادعاء بأن مثل هذا التجديف يمكن اعتباره مجرد فكاهة بريئة تتسجم مع طريقة الحياة الغربية! ومن الأنسب الاعتراف بأنه استفزاز متعمد، وما كان ليبدو إلا كذلك.

ولكنه هذه المرة أوجس خيفة لسبب لم يستطع تحديده بدقة، ربما كان ذلك بسبب قربيه هذه المرة من أحد أولئك المسلمين الغاضبين، وعدم تكهنه بطبيعة الردود التي يراها مناسبة على ما وصفه بالتصرف الأرعن. وربما لأن هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها أحمد، بكل حِلْمه ووداعته، على هذا القدر من الاستياء والغضب.... وربما لأنه بات يشك الآن في أن أبناء جلدته من اليهود ربما كانوا هم الذين وراء هذه القضية أيضاً، فقد تذكر كيف وجهت "اللجنة الأمريكية اليهودية" انتقادات لجامعة ييل الأمريكية آنذاك لحظرها نشر الرسوم الدانماركية المسيئة للنبي العربي في كتاب جديد عن أزمة الرسوم، ووجهت اللجنة التي تعتبر من أبرز منظمات اللوبي الصهيوني

(١) قال غراس في المقابلة نفسها التي أجرتها معه مجلة إسبانية: " إن ردود الفعل الإسلامية الغاضبة ضد نشر الرسوم متوقعة وغير مفاجئة، وتأتي في إطار دوامة من العنف العالمي فجرها الغرب بدعمه للرئيس الأمريكي جورج بوش في غزوه للعراق المخالف للقانون الدولي ". ثم أضاف: " إن تدرع الغريين بالدفاع عن حرية الصحافة كمبرر لنشر الرسوم الكاريكاتيرية يظهر تجاهلهم عمداً لحقيقة تعبير الصحافة الغربية عن مصالح الشركات الاستثمارية العملاقة الممولة لها والمتحكمة في توجيه الرأي العام وقيادته بصورة أفقدته القدرة على التعبير عن رأيه الحر ". وأضاف أن على الغرب " المغرور والمفتون بذاته عدم الحديث عن حرية الصحافة قبل تحليل وضع هذه الحرية لديه هو، وإدراك أن مناطق أخرى في العالم ليس بها فصل بين الدين والدولة ".

بأمريكا خطاباً إلى مدير مطابع الجامعة، انتقدت فيه قرار منع نشر الرسوم، كما أرسلت وفداً للتضامن مع الصحيفة الدانماركية التي نشرت تلك الرسوم المسيئة في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥.

طرد أبراهام تلك الأفكار السخيفة من رأسه بسرعة، ولكنه مع ذلك مد يده بحركة لاشعورية خلف ظهره، ليلتقط دفعة الإيجار، ويدسها في جيبه حتى يتمكن من إعادة تجميع أفكاره قبل المضي بهذه الخطوة.

## ◀ حرية، ولكن

بعد فترة من الصمت لم يدري أبراهام فيها ما يقول، سأل أحمد باستغراب:  
- ولكن ما الذي أعاد موضوع تلك الرسوم المسيئة إلى السطح ثانية بعد كل هذه  
المدة؟!!!!

- ضربة استباقية "جورج بوشية"<sup>(١)</sup> فقد ألقت الشرطة الدانماركية في آرهوس<sup>(٢)</sup>  
أمس القبض على دانمركي من أصول مغربية، ومهاجرين تونسيين؛ "للاشتباه" بأنهم  
"ربما" يخططون لقتل "فسترغورد"<sup>(٣)</sup>، بعد أن أبلغ عن ثرثرة صيبانية حول ذلك  
الموضوع. وكردة فعل انتقامية من جانب الصحف الدانماركية على المحاولة المزعومة  
في "التفكير" بالاعتقال، قررت إعادة نشر الرسوم للتأديب والردع.

فقال أبراهام بحذر وهو ينظر في عيني أحمد:

- ربما كانت إعادة النشر في إطار التغطية الصحفية المعتادة لمثل هذه الأخبار،  
وإيضاح ملابساتها للقارئ ليس إلا.

- الأمر ليس بريئاً كما تظن؛ ولا تنس أنه قد تم مكافأة صحيفة "يولانديس بوستن"  
بعد نشرها للرسوم بمنحها "جائزة فكتور" التي تمنح سنوياً من قبل صحيفة Ekstra  
Bladet الدانماركية للصحف التي "تدافع عن حرية الرأي"<sup>(٤)</sup>، كما أعلنت المكتبة الملكية  
الدانماركية قبل ذلك، اعتزامها حفظ الرسومات المسيئة وتوثيقها! ولكن حتى إن كان  
الأمر مجرد تغطية صحفية بريئة فعلاً، ولا يوجد أي مؤامرة! فلا يجب على الصحف

(١) يقصد على طريقة "جورج بوش" صاحب الضربات الاستباقية، والحروب الوقائية.

(٢) آرهوس هي ثاني أكبر مدن الدانمارك.

(٣) سبي الذكر "كورت فسترغورد" أحد الاثني عشر رساماً للكاريكاتير، الذين وضعوا الرسومات الحاقدة.

(٤) حدث هذا في ٥ شباط/فبراير ٢٠٠٦.



أن تتعامى عما يجري في العالم، وتصم الأذان عن ردود الفعل. إن كل بوضة من أي كتابة منشور تعكس وجهات نظر كاتبها وحكم المنقح، أو الرقيب إن توخينا الدقة، وفي كل يوم تتخذ الصحف مئة قرار بشأن التوازن فيما يتعلق بالجرأة، والإساءة، والذوق، والتهور. ويقررون من الذي يسمح له بالتعبير، ومن الذي لا يسمح له بذلك.

- هل تعني أن الصحف الغربية تخضع للرقابة أيضاً.

تسائل أبراهام بدهشة، فأجاب أحمد بثقة الصحفي العالم ببواطن أمور الصحافة العالمية:

- بالتأكيد، مع أن مثل ذلك التقييد مجهول لدى القراء عادة. فصور أجساد الموتى مثلاً لا تنشر إذا كان من المحتمل رؤيتها من قبل الأطفال، وفوق كل خبر صحفي يحوم رقيب ما، حتى إن كان شُرّف بلقب "محرر". ولكن أمر تلك الرسوم بالذات يدخل للأسف في نطاق التحدي والاستفزاز، فقد قالت "إليزابيث كنودسن" حرفياً، وهي رئيسة تحرير "برلنسكي" ثالث أكبر الصحف الدانمركية: "من الواجب علينا أن نرسل رسالة واضحة لكل من يحمل أفكاراً جنونية كهؤلاء الذين فكروا في استهداف الرسام كورت فسترغورد". هل انتبهت لكلمة "فكروا"! لقد أعلنت السلطات الدانماركية أنها ستُرحل التونسيين إلى خارج الدانمارك دون المرور بالقنوات القضائية والمثول أمام قاض للدفاع عن التهم الموجهة ضدهما، وهو ما أثار اعتراض حزبي اللائحة الموحدة البرلماني والشعب الاشتراكي، في حين ستجري تحقيقات مع المتهم الثالث المتمتع بالجنسية الدانماركية بتهمة انتهاكه لقوانين مكافحة الإرهاب، ثم ستطلق سراحه في انتظار نتائج التحقيق.

- غريبة: فإذا كان لديهم أدلة واضحة على شروع الثلاثة في محاولة قتل، فلم تُرحل اثنين منهم إلى خارج نطاق سلطتها؟! ولم تعرب عن نيتها بإطلاق سراح الثالث بهذه السرعة؟

فتبسم أحمد بقنوط قائلاً:

- أرايت؟ هذا لأنهم لا يملكون أي دليل ضدهم، ولو كان عندهم مجرد دليل حقيقي واحد فقط، لوجهوا إليهم فوراً تهمة الشروع بالتخطيط للقتل، ولكن بدلاً من ذلك وجهوا إليهم تهمة "انتهاك قوانين مكافحة الإرهاب"! وحتى هذا الاتهام الفضفاض ينقصه دليل واضح، فالدليل الوحيد لديهم على تلك "المؤامرة الإرهابية" المزعومة<sup>(١)</sup> مبني على معلومات سرية<sup>(٢)</sup> هي على الأغلب مجرد ثرثرة شباب متحمس، رأوا الرجل الذي أهان ذكرى نبيهم عليه الصلاة والسلام. فما الذي دفع بتلك الصحف إلى إعادة نشر الرسوم وإيقاظ الفتنة النائمة؟ ما بال هؤلاء الدانماركيين؟! ألم يكفهم ما تسببوا به في المرة السابقة؟! لماذا هذا العداء للمسلمين<sup>(٣)</sup>؟!

- ألستم أنتم من تقولون في أقوالكم المأثورة: "لا تدعوا ظلم الناس لكم يدفعكم إلى عدم العدل"؟

- أجل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨]، وهذه آية قرآنية وردت في سورة في القرآن تسمى المائدة.  
- رائع، إذن لا يجب أن يحملك الغضب من بعضهم على اتهامهم كلهم بمعادة المسلمين. فحسب إحصائية قرأتها أيام أزمة الرسوم الأولى، فإن المسلمين في الدانمارك يستهلكون ٤٠ في المئة من الإعانات الاجتماعية التي تقدمها الحكومة، مع أنهم يشكلون ٥ في المئة فقط من السكان.

(١) أكدت الشرطة الدانماركية لـ CNN اعتقال عدد من المشتبه بهم على خلفية تلك "المؤامرة"، ولكنها رفضت الكشف عن مزيد من التفاصيل، قائلة إن القضية تتولاها حالياً أجهزة "الاستخبارات" المعنية.  
(٢) قال محامو المتهمين: "لا يمكن القبول بإثباتات غير موجودة والاعتماد على "أدلة سرية" بدون عرض المتهمين أمام قاض، وبدون إمكانية للاطلاع على الإثباتات. وكيف يطلق سراح الشخص الثالث لعدم كفاية الأدلة، في حين يجري العمل على ترحيل التونسيين بناء على الأدلة ذاتها!!!!"  
(٣) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

تنهد أحمد بحسرة، ثم رد قائلاً:

- لا أنكر وجود الكثير من مدّعي اللجوء السياسي والإنساني من المسلمين في الدانمارك وبقية الدول الإسكندنافية، ولا أن بعضهم كسالى ومخادعون يفضلون التلاعب بقوانين الإعانات الاجتماعية والتسول من الحكومة على العمل والإنتاج، وأن استغلالهم لقوانين الدول المستضيفة يكلفها أعباء كثيرة، لكن هذا هو حصاد أعمال الأوربيين أنفسهم؛ فاللعبة الخبيثة التي مارسوها في أواخر القرن الماضي، قد انقلبت عليهم لاحقاً.

- ماذا تعني؟

- أعني ما قاموا به من إغراء شباب العالم الثالث وتحديد المسلمين، وبالذات الفلسطينيين منهم، لترك أوطانهم والهجرة إلى شمال أوروبا؛ بحجة إنقاذهم من اضطهاد سياسي أو إنساني مزعومين، مع أنها في الواقع لخدمة أهداف مريبة. وبالطبع فإن الفئة التي سأل لعبائها لتلك الإغراءات، لم تكن من خيرة شبابنا. وهكذا فقد جنى الطرفان ما يستحقانه فعلاً.

- أنت قلتها. فماذا تنتظر منهم إذن مادامت هذه هي نوعية المسلمين في بلادهم؟

علق أبراهام غامزاً، فرمقه أحمد بنظرة عتاب، وتابع حجته بالمنطق مترفعاً عن

الدخول في نقاش جانبي لا طائل منه:

- ولكن لا تنس أن هناك مسلمين آخرين هاجروا فعلاً طلباً للأمان والعمل، وأنهم ساهموا بإخلاص في خدمة مجتمعاتهم الجديدة، بإنتاجية عالية وأجور منخفضة، وأنهم اضطروا إلى التسليم بالتمييز العنصري وبنزاههم منزلة ثقافية دُنيا كُثمن لقبولهم هناك، وهم يعرفون أن أغلب الأوربيين، وبغض النظر عن مدى تكتمهم، لا يريدون لهم أن يتخطوا تلك المنزلة. غير أن ما لم يتوقعوه هو أن ذلك القبول سيتطلب

منهم السماح بالسخرية من معتقدتهم، وإهانة رسولهم عليه الصلاة والسلام<sup>(١)</sup>، هذا غير إلزامهم بالشعور بالذنب وبالذونية، لكونهم يعتقدون دين من يسمونهم بـ"الإرهابيين"، ومطالبتهم الدائمة بإثبات اعتدالهم ونبذهم للتطرف، وهو ما فرض على أغلب الجمعيات الإسلامية في الدانمارك أن تدعو إلى التهدئة والتعقل!!! وعدم

(١) في تعقيها على الاحتجاجات التي عمت الدول العربية والإسلامية في بداية ٢٠٠٦ في أعقاب نشر الرسوم المسيئة، صرحت ملكة الدانمارك "مارغريت الثانية" أنّ الإسلام يمثل تهديداً على مستوى الداخل والخارج بسبب من أسمتهم "المتطرفين الإسلاميين"، داعية حكومتها إلى عدم إظهار أيّ تسامح تجاه الإسلام، وعدم الالتفات إلى الغضب والاستياء من الخارج كرد فعل على الإساءات للإسلام. وفي كتاب عن سيرتها الذاتية انتقدت الملكة ما أسمته "الإسلام المتطرف"، وعدم إجابة المسلمين في بلادها للغة الدانماركية. وصرحت أنه على الناس أن ينظروا إلى "تحدي" الإسلام نظرة جدية، وأعربت عن معارضتها "لأولئك الأشخاص الذين يمثل الدين (الإسلامي) بالنسبة إليهم كل حياتهم". وفي تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦: عرض التلفزيون الدانماركي خلال شهر رمضان مقاطع من شريط فيديو التقطه أحد الهواة لمسابقة في الرسم تبارى فيها متسابقون شبان في السخرية من النبي الكريم محمد\*، وذلك خلال معسكر صيفي نظمته قيادة الشباب بالحزب اليميني المتطرف المشارك في الائتلاف الحكومي. وتظهر اللقطات التي عرضها التلفزيون الدانماركي شاباً من حزب الشعب يقوم بدور الرسول\* وهو يضع عمامة ويربط حزاماً من المتفجرات على خصره أمام جمهور يطلق الضحكات، كما تضمنت اللقطات مشاهد تصور الرسول الكريم في شكل جمل يشرب الخمر. وفي ١٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦: سوق شركة ألعاب دانماركية خلال شهر رمضان المبارك أيضاً لعبة "بلاي ستايشن" لرجل بلحية يطأ مجسماً بلاستيكياً آخر يجسد أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها. وكتبت الشركة على اللعبة العب وكأنك النبي محمد الذي تزوج أكثر من مرة وتزوج عائشة ابنة ست سنوات. (راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف). كما طالبت زعيمة حزب الشعب الدانماركي اليميني (رابع حزب برلماني)، والمشارك في الائتلاف الحكومي، "بيا كيرسغورد" برحيل الشباب الدانماركي المولود في الدانمارك من أصول مهاجرة وعوائلهم عن الدانمارك قائلة: "ارحلوا إذن إلى بلادكم! حيث تستطيعون ممارسة طقوسكم وعباداتكم دون الشعور بضغط من أوضاع "حرية التعبير" في الدانمارك" واتهمتهم بأنهم يقابلون المجتمع الدانماركي بعنف وغضب، وبأنهم يكرهون قيم البلاد. وفي إطار ممارسة حرية التعبير هذه قام "مجهولون" برمي رسائل في مدينة أسبيرا الدانماركية لكل الشقق التي تحمل أسماء أجنبية تحتوي على الرسومات المسيئة، كما انتشرت رسائل على الهواتف النقالة في كوبنهاغن تدعو إلى حرق القرآن!

تجديد المطالبة بالاعتذار من قبل الصحف الدانماركية التي أعادت نشر الرسومات<sup>(١)</sup>.

أحس أبراهام بالإحراج، فقال متعاطفاً:

- هل أستطيع المساعدة بأي شكل من الأشكال؟

- كلا للأسف. ومع ذلك أشكرك على مشاعرك الطيبة يا بن العم.

تضاعف إحساس أبراهام بالإحراج، ولم يقبل أن يكون غوييم مسلم أكثر نبلاً

واتزاناً منه، فقال مُغلباً الجانب الإنساني في حديثه:

- هذه ليست مجاملة؛ فقد كنت فعلاً ضد إساءة استخدام حرية التعبير عن الرأي

من المرة السابقة، لأن تلك الرسوم كانت فعلاً مسيئة وتحريضية. وأفضلُ سياسة

ممكنة بعد ظهور ردة فعل المسلمين عليها هي الاعتذار لهم والتزام الصمت.

- هذا هو المفروض. ولكن عوضاً عن الاعتذار عن الإساءة لذكرى النبي عليه

الصلاة والسلام ندد الإعلاميون الدانماركيون بردة فعل المسلمين العنيفة وبعثوهم

بال"الهمجيين الذين أثبتوا أنهم غير قادرين على التخلي عن العنف"<sup>(٢)</sup>!!! كأنهم يريدون

(١) في هذا السياق شن "أحمد عكاري"، المتحدث السابق باسم "اللجنة الأوربية لنصرة خير البرية" هجوماً عنيفاً على قادة الجالية الإسلامية في الدانمارك ووصف موافقهم "بالضعيفة" و"المتراخية"، وطالب بعدم القبول بالأمر الواقع. وشدد عكاري في بيان أصدره على ضرورة تمسك المسلمين بالمطالبة بالاعتذار عن نشر الرسومات، ووصف تصرفات المؤسسات الإسلامية بأنها "قطعان غنم". ولمح عكاري في البيان الذي طغت عليه عبارات العتاب، إلى أن بعض المؤسسات أصبحت تتصرف من منطلق خوفها على مواقعها ومصالحها في الدانمارك.

(٢) قارن بين رفض الاعتذار هنا، وبين اعتذار الواعظ الرسمي للفتايات عن تصريحاته التي شبه فيها الهجوم على الكنيسة الكاثوليكية والبابا بسبب فضائح الاعتداء الجنسي على الأطفال بالهجوم الجماعي الذي يتعرض له اليهود على مر التاريخ!!! حيث قال الأب "رانبيرو كاتالاميسا" في مقابلة مع صحيفة كوريري ديلا سيرا الإيطالية: "إذا كنت قد أذيت مشاعر اليهود وضحايًا الممارسات الجنسية مع الأطفال -ولم تكن هذه نيتي أبداً- فإني أسف حقاً وأطلب أن تسامحوني!!! وذلك بعد أن قوبلت تصريحات كاتالاميسا بانتقاد حاد من شخصيات يهودية بارزة على رأسها رئيس مجلس اليهود المركزي في ألمانيا ونائب رئيس التجمع الأمريكي للناجين من المحرقة وأحفادهم، اللذين اعتبروا تلك المقارنة "أمراً مهيناً ووقحاً ولا يمكن تحمله". يذكر أن البابا بتدكت تبرأ من تصريحات واعظه الشخصي، وادعى أنه سمعها لأول مرة مع الجميع في كاتدرائية القديس بطرس يوم الجمعة العظيمة.

أن يجولوا الأرض يلزمون الناس لكلمات في الوجه كي يختبروا التزامهم بالتحضر وعدم العنف! بل طالبوا بـ"تضامن من أنحاء أوروبا كافة" لحماية مبدأ "حرية التعبير عن الرأي"، مع أنه لم يحم ذلك المبدأ المتهمين بالإساءة لذكرى الهولوكست مثلاً! لقد كان ذلك استفزازاً عرقياً وتمييزاً دينياً واضحين، ضد المسلمين.

- أجل. هناك تمييز وسوء نية مبيتة لا ريب، فحتى لو استطعنا أن نلتمس لهم بعض العذر في جهلهم أو سوء تقديرهم لمقدار قداسة ذكرى نبيكم لديكم في المرة الأولى، فكيف الآن وقد أدركوا أن ما هو بالنسبة إلى المسيحي "مجرد كلمة هوجاء ليس إلا"، يعد "كفراً بواحاً" لدى المسلم؟

فعلّق أحمد بلباقة، مفوتاً على أبراهام فرصة التمادي بخبثه اليهودي:

- ليس قادة هذه الحملة من المسيحيين فحسب يا عزيزي.

بلغ أبراهام ريقه ورد قائلاً:

- بغض النظر عن دينهم، فهم يعتمدون الاستفزاز عن سابق علم بتأثير ذلك على

كل مسلمي العالم، خاصة أن حجّتهم في ذلك واهية، إن كان الأمر كما وصفت.

- كما وصفت تماماً، وعلى أية حال تستطيع الحكم على ذلك بنفسك غداً صباحاً،

فسيكون هذا الموضوع هو الشغل الشاغل للصحافة العالمية.

تردد أبراهام قليلاً، ثم قال باستحياء:

- مع أن الوقت ليس مناسباً مطلقاً، ولكن غداً هو موعد استحقاق الدفعة الربعية،

وهذه هي حصتي من الإيجار، إن كان عرضك لا يزال سارياً.

- بالطبع لا يزال سارياً يا بن العم، خاصة أنني قد تعودت عليك، وأشعر بارتياح

كامل لشراكتنا في السكن.

- أشكرك. هذا شعوري أيضاً.

- حسناً، ما دام الأمر كذلك فسندهب غداً معاً إلى مالكة الشقة لتتعرف بها. إنها سيدة فاضلة ولا أظنها تعترض عليك. بالمناسبة هي من الحريديم<sup>(١)</sup> أيضاً.

- حقاً؟ ولأي طائفة تتبع؟

- لم أسألها، كما لم أسألك. ولكنني أظنها من الحسيديم، وتحديداً من طائفة "الساتمريم".

- حسب ظنك لأي طائفة أتبع أنا؟

- هذا ما يحيرني: فمع أنك أنت أيضاً تبدو من الحريديم الحسيديم، إلا أنني لا أستطيع أن أضعك في إطار طائفة معينة: ففي أمرك شيء من التناقض، أو شيء من الغموض.

- ربما الاثنان معاً.

- هل تود التحدث عن ذلك؟

فقال أبراهام متهرباً:

- وكيف أحتفظ بغموضي إذن؟

كان أبراهام يتوق إلى التحدث مع أحمد عن ذلك، وعن أمور كثيرة أخرى، خاصة أن إجابته كانت تتم على خبرة كبيرة في الأديان، لأنه فعلاً لا يزال (حريدي حسيدي)، ولأنه فعلاً لا يستطيع أن يصنف نفسه للآن ضمن أي فرقة في ذلك الإطار العام. ولكنه تعجل في الإجابة بشكل تلقائي، كأن لسانه قد نطق بها دون سيطرة منه، وقد عزا ذلك إلى كونه لا يزال يستعظم الخوض في مثل هذه المواضيع مع غوييم، ولكنه كان يدرك بأنه إن أضع هذه الفرصة فإنها لن تتكرر بسهولة: فما يعرفه عن أدب أحمد واحترامه للخصوصيات يجعله يجزم بعدم معاودته لعرضه ثانية، وهذا ما سيضع عليه عبء اختلاق فرصة أخرى لذلك الحديث، وقطع شوط كبير فيه، قبل أن

(١) أي أرثوذكسية متدبنة.

يُقبل أحمد على المشاركة بفعالية. لذا ما لبث أن استدرك قائلاً:

- إن بالك مشغول بأمر تلك الرسوم المسيئة، ولا أريد أن أثقل عليك في هذا الظرف الذي تمر به.

- على العكس تماماً، فربما كان في الحديث معك فرصة جيدة كي أخرج قليلاً من الجو القاتم الذي خلفه الإعلان عن إعادة نشر الرسوم المسيئة.



## ◀ جذور الصهيونية

فكر أبراهام قليلاً، ثم بدأ النقاش قائلاً:

- في البداية. كيف ترى الحسيدية؟

فتبسّم أحمد قائلاً:

- ومن أنا لأحكم على الحسيدية أو على أي مذهب أو دين؟!؟

- أقصد، هل تراها - من وجهة نظرك- أقرب إلى الحق من المذاهب اليهودية

الأخرى؟

- هي أقرب من الفرق التنويرية على أية حال.

- لماذا؟

- لأنها لا تزال تحتفظ بجزء كبير من رونق الإيمان بالله سبحانه وتعالى وتوحيده،

الذين قد شحبا كثيراً في فرق كالإنشائيين أو الإصلاحيين أو حتى المحافظين

والتقليديين.

- ولماذا أيضاً؟

- لأنهم يستندون إلى الشريعة بمقدار أكبر من استناد تلك الفرق.

- ولماذا أيضاً؟

- ألا يكفي ذلك؟

- بالنسبة إليك كعربي، أي الفريقين تفضل: الحسيديم والأرثوذكس الحريديم

بشكل عام، أم التنويريين؟

- هناك خلل في سؤالك، ولكنني فهمت قصدك على أية حال. أنا شخصياً أظن

أن الفرق التنويرية هي المسؤولة عن توفير "الدعم العالمي" لعودة اليهود إلى فلسطين،

عن طريق دعوة الاندماج وخروج اليهود من الجيتوات ليتغلغلوا في مراكز التأثير على صنع القرار في البلاد المقيمين فيها، بالإضافة إلى إطلاقها لمفهوم "الحضارة اليهودية مسيحية". كما أنها هي المسؤولة أيضاً عن تقديم "السند الديني" للصهيونية عن طريق مفاهيمها عن تقديس الشعب والأرض والتاريخ، و"إعادة جدولة النبوءات"، وأنا أرى أن كل هذه الأمور مجتمعة قد أدت إلى احتلال أرضي، وتشريد السواد الأعظم من شعبي.

- أي إنك تعتقد بأنه لولا ظهور تلك الحركات التنويرية بين اليهود لما كانت دولة إسرائيل قائمة الآن! هل تعرف يا عزيزي أحمد أنني لم أنظر إلى هذا الموضوع من تلك الزاوية بتاتا؟! فعلاً، فزمن الأرثوذكس لم يكن من الممكن تخيل انتشار حركة صهيونية علمانية بين اليهود، ولا حتى مجرد التفكير في انشاء دولة لهم في أرض إسرائيل قبل قدوم المسيح. ومع أن تلك الحركات التنويرية كانت تطالب بالاندماج والإصلاح والتحرر، إلا أن النتيجة كانت مزيداً من الشعور القومي والمؤامرات والاستيطان، ومن ثم وُجِدَت إسرائيل. أنت محق فعلاً.

- على رسلك يا بن العم، فلا يوجد زمن مستقل للأرثوذكس، بل نشأت التسمية أساساً لتمييز الحسيديم و"المتغديم"<sup>(١)</sup> عن التنويريين.

- أقصد زمن اليهودية الحاخامية، (Rabbinical Judaism) أي قبل التنويريين عموماً، لم يكن يمكن تصور حدوث شيء كهذا.

(١) المتغديم تعني المعارضين، وهم يعدون مع اليهود المتدينين، (الحريديم) ولكنهم معارضون للحسيديّة، ويمثلهم في الكيان الصهيوني النخبة الليتوانية (الليثفاك) وحزب "ديجيل هاتوراه" (راية التوراة) الذي انشق عن حزب "أغودات بسرائل" بسبب علاقته الوثيقة مع طائفة حيد الحسيديّة، التي أوشك أتباعها على الإعلان عن أن زعيمهم الديني المقيم في نيويورك، الحاخام "مناحيم مندل شنيورسون" من لوبافيتش، هو المسيح المنتظر. وقد سئل الحاخام "إليعازر مناحيم شاخ"، رئيس يشيفات بويناج. في بني باراك، والزعيم الروحي الأعلى للطوائف الليتوانية عن أقرب الديانات إلى اليهودية، فقال: حيد. وهي إجابة ساخرة تعني أنه لا يعتبر الحسيديين يهوداً.

- هذا صحيح. والأدق أن تسميها باليهودية التلمودية. (Talmudic Judaism)

فتساءل أبراهام بدهشة:

- مهلاً. كنت أظن أنكم، كمسلمين، ضد التلمود! أعني، بما أنكم تؤمنون بالتوراة

ككتاب سماوي. فإنكم تُرجعون كل فساد اليهودية إلى التلمود. أليس كذلك؟

- أنت تخلط بين وجهة نظرنا كمسلمين، وبين الدعاية المسيحية التي تبناها قسم

كبير منا دون وعي؛ فالمسيحيون وبعد اعتمادهم للتوراة وبقية أسفار التناخ كما نقلها

أخبار اليهود، مطلقين عليها اسم "العهد القديم"، لم يعد بإمكانهم إرجاع فساد اليهود

إلى تحريف تلك الأسفار التي باتت تشكل القسم الأكبر من الكتاب المقدس في المسيحية،

ومن ثم لم يبقَ أمامهم إلا التلمود ليوجهوا سهامهم إليه، لاسيما وأنه مليء بالتهجم على

المسيحية وشخص السيد المسيح عليه السلام، ولكن المسلمين لم يعتقدوا ذلك مطلقاً:

ففي الوقت الذي كان يُحرق فيه التلمود ويضطهد اليهود بسببه في مختلف أرجاء

العالم المسيحي، لم يبد المسلمون على مر العصور أي مظهر عدائي تجاهه.

- فكيف اختلفت نظرة المسلمون إلى التلمود إذن؟!

- بعد احتلال اليهود لأرض أول الحرمين، وبعدما عانى المسلمون من ويلات

الصهيونية وإسرائيل، صاروا مستعدين لتلقف وتبني أية مقولة معادية لليهودية أينما

كانت. ولما كانت أدبيات الإسلام والمسلمين تكاد تخلو من أي مظاهر عدا لليهود، فقد

اتجه المسلمون إلى أدبيات العالم المسيحي الزاخرة بالعداء لليهود، وبالذات تلك التي

كتبت قبل تهويد المسيحية، أو على الأقل قبل التصالح معها، عندما كان العدا لا يزال

مستشرباً بين المسيحيين واليهود الملقبين بـ "قتلة الرب". وكان من ضمن الأفكار المعادية

لليهود التي تبناها المسلمون، فكرة أن التلمود هو أصل كل بلاء اليهود وفسادهم! مع أن

المتتبع المسلم يجد أن التلمود، رغم عدائه لمختلف الأديان الأخرى ونعتها بالوثنية، يكاد

يخلو (نسبياً) من أي مظاهر عدا تجاه الإسلام والمسلمين، بل على العكس من ذلك

فإنه يَكُنُّ نوعاً من الاحترام للإسلام بالذات، باعتباره ديناً توحيدياً مثله، بل إنه لم يكن يساوي بين اليهودي الذي يعتنق الإسلام وبين اليهودي الذي يعتنق المسيحية: فالأول ضال خرج عن اليهودية إلى دين آخر، والثاني كافر خرج عن الدين إلى الوثنية. كما أن "الكيلتلاه"<sup>(١)</sup> فيه تقتصر على الكنائس، وأماكن العبادة التي تخص المسيحيين وغيرهم، في حين استُثِيت أماكن العبادة الخاصة بالمسلمين لخلوها من مظاهر الوثنية، ومع أن التلمود يطالب اليهودي الصالح الغيور على دينه بالبصاق<sup>(٢)</sup> حينما يرى صليباً، وتلاوة الإصحاح التالي من سفر التثنية: "ولا تدخل رجساً"<sup>(٣)</sup> إلى بيتك لئلا تكون محرماً مثله، تستقبحه وتكرهه لأنه محرم"، فإنه لم يذكر أياً من الرموز الإسلامية بسوء قط.

- قل لي بصراحة وتجرد: كيف تنظرون إلى التلمود؟

- إن التلمود هو كتاب تفسير للتوراة التي أنزلت على الأنبياء عليهم السلام، ونجد فيه الكثير مما نعتقد أنه حذف منها، مثل قضية البعث على سبيل المثال. وأنت تعلم أن نصوص التناخ (العهد القديم) الأصلية قد فقدت وتم تناقل التناخ شفاهاً، وأن بعض المختصين بالدراسات التوراتية يرجحون تعرضه إلى ما تتعرض له عادة كل الأقوال المنقولة سماعياً: كالتناقضات وتداخل النصوص والمصادر. وقد بدأ تدوين أسفار التناخ في فترة زمنية تبعد عن الأنبياء المنسوبة إليهم بمئات السنين، وتبعد

(١) الكيلتلاه هي مصطلح ديني يهودي يعني "اللعة".

(٢) لا يزال رجال الدين المسيحيون الذين يحملون الصليب في الأعياد يتلقون بصقات تلاميذ المدارس الدينية في الكيان الصهيوني حتى الآن، وعلى مرأى وتشجيع من أساتذتهم. وقد صرح "دانييل روسينج"، مدير مركز التقارب بين اليهود والمسيحيين في القدس مؤخراً: "إننا نلمس في الآونة الأخيرة تزايداً في هذا الإزعاج وذلك في ضوء جو عدم التسامح العام الذي يسود إسرائيل". ويصف "شموئيل أفينار"، مستشار رئيس مدينة القدس الأسبق للشؤون المسيحية، الوضع في المدينة بأنه "عار كبير". ومع أن الإسرائيليين يدينون للمسيحيين بقيام دولتهم واستمرارها بسبب دعمهم اللامحدود لها، إلا أنه عندما فتح موضوع "البصاق على الصليب ورجال الدين المسيحيين" في أحد المنتديات الصهيونية، كانت أغلب التعليقات مهينة للمسيحيين، مثل: "فليعطوا خدكم الآخر لبصقة أخرى. فهم يستحقون المزيد".

(٣) يفسرون الرجس هنا بالصليب.

كذلك عن كثير من الأحداث التي تم التأريخ لها، كما أن عملية التدوين لم تتم دفعة واحدة، وإنما تمت خلال مدة زمنية طويلة، وتم اختيار بعض النصوص المقدسة من بين نصوص مقدسة أخرى. ومن الممكن أن تكون بعض تلك النصوص المستبعدة قد وجدت طريقها إلى التلمود. وربما كان بينها فعلاً بعض أحاديث موسى والأنبياء عليهم السلام وتفصيلهم لما أجمل في التوراة<sup>(١)</sup>، إلا أننا نعتقد أنه مليء أيضاً بالأقوال المساء نقلها أو تفسيرها، بل المكذوب فيها، أو حتى المدسوسة تماماً<sup>(٢)</sup>. كما أنه مليء ولا ريب بشطحات المعلقين والمفسرين الذين تعاقبوا على تنقيحه والزيادة عليه خلال قرون طويلة، ولا تنس أن التلمود وليس صهيون كان بالنسبة إلى اليهود الوطن الذي يستطيعون التمرکز حوله وتطوير هويتهم وضرب أسوار العزلة حول أنفسهم من خلاله. فقد كان التلمود يحظر عليهم العودة الجماعية إلى أرض الميعاد قبل أن ينتهي شتاتهم بأمر الرب نفسه. ويدعو لاعتبار الهجرة الفردية إليها كأنها ضمن أرض الشتات. وكان يشدد في الوقت نفسه على ضرورة احترامهم لقوانين دول الشتات التي يعيشون فيها بالنسبة إلى الأمور الدنيوية: أي: "دينا ذي مالكوتا دينا"<sup>(٣)</sup>، مما لا يوفر غطاءً مناسباً لحركة علمانية قومية استيطانية.

- (١) للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع رواية بشارت هائمة. ورواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.
- (٢) وهو ما أثار حفيظة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه، حين اجتهد بحرق جميع الأحاديث التي دونت بعد وفاة الرسول ﷺ قائلاً: "مشنا كمشناة يهود". وذلك خوفاً من احتمال أن يتكرر في الإسلام مستقبلاً، ما سبق أن حدث في اليهودية في الماضي. ولما كان الله تعالى قد تعهد بحفظ القرآن الكريم، فقد انحصر خوف عمر رضي الله عنه من أن تدخل المحدثات إلى الإسلام عن طريق الدس في الأحاديث بالذات. وهذا ما حصل فعلاً، إلى أن قام علماء أجلاء كالبخاري ومسلم ببذل جهود جبارة في تصنيف تلك الأحاديث وتحقيق صحة نسبتها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك فقد بقي تحت التداول كثير من الأحاديث التي لم تصنف على أنها صحيحة، ولكنها وفي الوقت نفسه، لم يثبت نفي احتمال الدس عنها.
- (٣) عبارة آرامية من أقوال الحاخام صموئيل في التلمود البابلي بمعنى "قانون المملكة (الحكومة التي نعيش تحت ظلها) يظل هو القانون" (نداريم ٢٨ أ، بابا قاما ١٣٣ أ).

فرك أبراهام رأسه قائلاً:

- وجهة نظر مثيرة للاهتمام فعلاً. إذن أنت ترى أن الحركة الصهيونية وقيام دولة إسرائيل قبل مجيء المسيح لم يكونا ليجدا مرتعاً خصباً بين اليهود زمن اليهودية التلمودية كما تسميها.

- بالضبط. ولكن بعد ظهور حركات التصوف (الحسيديين)، ثم حركات الإصلاح والتجديد (التويريون) تغيرت الظروف تماماً.

- يبدو أن الأمور قد اختلطت عليك: فالحسيديين يؤمنون بالتلمود.

- أجل، ولكنهم تاريخياً قاموا بالأساس لمعارضة التلموديين، وقد نجحوا فعلاً بالتقليل من شأن الدراسة التلمودية وحتى التوراتية، فهم يعتبرون أن الهدف من الحياة ليس الدراسة، وإنما التأمل في الرب، والاتصاق به، والتوحد معه، وعبادته بكل الطرائق، وهذه العملية لا بد أن تستغرق وقتاً طويلاً، وهو ما لا يترك للإنسان أي وقت لدراسة التوراة والتلمود وفق الطريقة القديمة. كما أن التواصل المباشر مع الرب يطرح إمكانية أمام اليهود العاديين، ممن لم يتلقوا تعليماً تلمودياً، لأن يحققوا الوصول و"الديفيقوت"<sup>(١)</sup>، بل إن الجهل، في إطار التجربة الوجودية المباشرة، يصبح ميزة كبرى، فهدف التجربة الدينية هو الفرح والنشوة وتأكيد العاطفة كوسيلة للوصول إلى الرب، بدلاً من الشعائر والدراسات التلمودية، وقد فتحوا بذلك الباب واسعاً أمام "الكابالا" وبالذات اللوربانية<sup>(٢)</sup> على حساب التلمود الذي كان دون منافس قوي قبلهم، ولم يقفوا عند ذلك الحد، بل طوعوا التلمود نفسه ليتفق مع وجهات نظرهم المختلفة، بعد أن كان الحاخامات يطوعون في السابق وجهات نظرهم لتتفق معه، فلم تعد وسيلة الوصول إلى الإله هي التفكير العقلاني الجاف، وإنما الفرح والرقص والنشوة

(١) الديفيقوت هو مفهوم كابالي يعني الاتصاق بالرب أو التوحد به.

(٢) الكابالا اللوربانية نسبة إلى إسحق لوريا، وهي تختلف قليلاً عن كابالا الزوهار.

وصفاء الروح والنية الصادقة، فقد نادى الحسيديون بأن عبادة الإله يجب أن تتم بكل الطرائق، كما يجب أن نخدمه بكل شكل، بالجسد والروح معاً، مادام أنه إله غير مفارق، لا يتجاوز الطبيعة والتاريخ، كامن في كل شيء، حتى في مذاق الطعام وتدخين التبغ وفي العلاقات الجنسية والتجارية. وقد قال أحد زعماء الحسيديّة: إن على المرء أن يشتهي كل الأشياء المادية، ومنها المرأة، حتى يصل إلى ذروة الروحانية، فالفرح الجسدي عند الحسيديين، يؤدي إلى الفرح الروحي، والحسيديّة تؤمن بروحانية المادة لأن الروح ليست إلا شكلاً من أشكال المادة، بل إن العبادة والخلاص بالجسد يصلان إلى حد عبادة الإله من خلال العلاقات الجنسية، وهكذا فكما وفرت الفرق التويرية للصهيونية كلاً من السند الديني والدعم العالمي، وفرت الحسيديّة لها كلاً من المناخ الفكري المواتي لظهورها وتهميش التلمود.

فقاطعه أبراهام مستفسراً:

- ماذا تعني بتهميش التلمود؟

- أي رفع شأن كتب أخرى غيره بين عموم اليهود، وجعله مقتصراً فقط على النخبة من الحاخامات الذين يؤولونه كيفما شاؤوا، ليصبح كل واحد منهم هو المصدر المركزي للتشريع بالنسبة إلى مريديه، وإن تعارض قوله صراحة مع التلمود. وطبقاً لإحصاء أجري عام ١٩٨٧، أقر ٨٤% من الإسرائيليين أنهم لم يقرؤوا التلمود قط، ولم يطلعوا على أي جزء منه. وفي بقية أرجاء العالم، فإن الأغلبية العظمى من أعضاء الجماعات اليهودية جهلون التلمود وما جاء فيه، بل لا يعرفون حجمه.

- إذا كان ذلك صحيحاً، فكيف تفسر أثر التلمود التشريعي الواضح في قوانين الأحوال الشخصية في إسرائيل؟ فالتشريعات التي تضبط قضايا الزواج والطلاق فيها مشتقة من الأحكام التلمودية الواردة في "أسفار سدر ناشيم". وفي شؤون الطلاق، لا

يزال "سفر جيطين" المصدر الأساسي للأحكام المتعلقة "بالجيط"<sup>(١)</sup> التي يكتبها الزوج وبدونها تصبح المطلقة "أجنوت"<sup>(٢)</sup>. وفي مسائل الزواج وتسجيل المواليد، لا تزال أحكام الشريعة التي حددها التلمود هي الشريعة السائدة، فاليهودي هو المولود لأم يهودية، أو من اعتنق اليهودية على يد حاخام أرثوذكسي طبقاً للشعائر التلمودية، مع أن الكثيرين لا يرونها مناسبة<sup>(٣)</sup>. وكذلك تطبق في إسرائيل الشرائع التلمودية الخاصة بقوانين الطعام والقوانين الزراعية التي وردت في "سفر براخوت" من "سدر زراعيم". ثم كيف تفسر تدريس التلمود في إسرائيل، بل اقتصار الدراسة عليه بشكل شبه كامل في "اليشيفوت"<sup>(٤)</sup>؟! وكيف تفسر أن "جامعة بار إيلان" مثلاً تشترط على طلابها تحصيل معرفة تمهيدية بالتلمود؟! معرفة تمهيدية بالتلمود؟!

تساءل أبراهام باستتكار، فأجابه أحمد بنفس اللهجة قائلاً:

- وأنت كيف تتصور أن تقوم دولة يهودية وتعتبر نفسها تحقيقاً لوعده الرب أو على الأقل تمهيداً لتحقيقه، ويكون التشريع بها غير يهودي؟! يبدو هذا مضحكاً ليس كذلك؟! وحيث أن التلمود هو الصياغة العملية للتشريعات اليهودية، فهم مجبرون على اعتماده. ومع ذلك هناك المحكمة المدنية لأولئك الذين يرغبون في التنصل من تشدد تلك التشريعات، كما أنهت المحكمة العليا في إسرائيل مؤخراً احتكار عملية التحول إلى الدين اليهودي على الحاخامات الأرثوذكس طبقاً للشعائر التلمودية. ويسمح هذا الحكم لأولئك الذين لم يتلقوا تدريباً أرثوذكسياً، وتحولوا في الخارج<sup>(٥)</sup> من خلال مذاهب أخرى، بأن يصبحوا يهوداً. أما تدريس التلمود واشتراط بعض الجامعات

(١) الجيط هي وثيقة الطلاق.

(٢) أجنوت هي المرأة التي لا تستطيع الزواج مرة أخرى عندما يرفض الزوج منحها وثيقة الطلاق (كالمعلقة).

(٣) يقصد "الحمام الطقوسي" الذي يجب أن تخضع له الأنثى التي تريد التهود، فتدخل الحمام عارية تماماً، وتستحم حسب الشريعة بحضور ثلاثة من الحاخامات وتحت أنظارهم.

(٤) اليشيفوت هي "المعاهد الشرعية" اليهودية.

(٥) لم يتناول الحكم أولئك الذين تحولوا داخل الكيان الصهيوني.



تحصيل معرفة تمهيدية به فهو للسبب ذاته؛ أي التعلق بأهداب الشريعة اليهودية وإبراز مظاهرها، ولا تتسأنهم يعتبرونه مجرد كتاب مهم، دون أن يكون ملزماً، وأما بالنسبة إلى المدارس الشرعية فهي للمتدينين المتشددين فقط، كما أن التلمود لم يعد يحتل بها نفس مركزه الأوحد لتفسير التوراة بعد ظهور تفاسير الزعماء "التساديك"<sup>(١)</sup>، وتعاليمهم وأقوالهم، وقصص الأفعال العجائبية التي أتوا بها. كما لم يعد، كشأنه سابقاً، مهيمناً على كتب الكابالا، ولا حتى على التوراة نفسها التي بدأت تخرج عن احتكاره لتفسيرها. وبعض المؤرخين يؤكدون أن إحدى أذكى الخطوات التي أقدمت عليها الصهيونية عموماً ودافيد بن غوريون على وجه الخصوص يتمثل في "إعادة الاعتبار للتوراة". فقد رأت الصهيونية وبين غوريون في هذا الكتاب الديني الأساس الفكري الأهم لإقامة الدولة اليهودية، ولذلك جرت عملية فكرية واسعة لتعميق مفاهيم هذا الكتاب في الذهن الصهيوني، وتحويله من مجرد كتاب ديني إلى برنامج عمل<sup>(٢)</sup>، فهو بحكم كونه مصدراً للتاريخ استعمل لتأكيد الشرعية التاريخية للاحتلال. وذلك بعد أن كان المتدينون اليهود، وطوال قرون، يركزون على التلمود الذي يحوي التشريعات والشرائع الدينية، ويخلو تقريباً من الأبعاد التاريخية. غير أن التوراة كانت في العرف الصهيوني مصدراً للتاريخ، وفيها تكمن كل مبررات الادعاء اليهودي بالحق التاريخي في أرض الميعاد، وهذا لم يكن ممكناً قبل تهميش التلمود.

(١) "الصدیق" كلمة عبرية معناها "الصالح"، وهو الزعيم الروحي لجماعة حسيديّة كما كان يدعى أحياناً "أدمور"، وهي اختصار للكلمات "أدونيئو" و"مورينو" و"رايينو"، أي "سيدنا" و"أستاذنا" و"معلمنا".

(٢) البروفيسور زئيف هرتسوغ في بحث له بعنوان "علم الآثار يكشف زيف الحق التاريخي الإسرائيلي".

## ◀ الحلوية بوجه آخر

تتهد أبراهام بعمق، ثم قال واجماً:

- حسناً، كان هذا بشأن دور الحسيديم في "تهميش التلمود" كما أسميته، فماذا عن دورهم في "توفير المناخ الفكري" للصهيونية؟
- كان ذلك عن طريق ترسيخ الفكر الحلولي.
- رويدك، فأنت تخلط الأمور. إن الحلوية هي سمة التتويريين، أما نحن فتوحيديون.

رد أبراهام معترضاً، فأجاب أحمد بهدوء محاولاً توضيح وجهة نظره:

- نسبياً فقط، فأنتم ترون أن العالم بمنزلة ثوب الرب، صدر عنه ولكنه جزء منه، تماماً مثل محارة الحيوان البحري المعروف بالحلزون، قشرته الخارجية جزء لا يتجزأ منه! وتؤمنون من ثم بأن الرب هو كل شيء وما عدا ذلك وهم وباطل. كما كان مؤسس الحسيدية "بعل شيم طوف" مؤمناً بـ"شفيرات هكليم"<sup>(١)</sup> وقد أكد وجود الرب فعلاً في النبات والحيوانات، وفي أي فعل إنساني، بل في الخير والشر كليهما.
- لكن لبعل شيم طوف وضع خاص.

- إذا سلمنا بخصوصيته، فماذا عن "التساديك"، الذي هو تعبير متطرف عن الرؤية الحلوية الحسيدية المتأثرة بتصورات الكابالا اللوربانية؟ فهو أولاً شخص ذو قداسة خاصة يقف في منزلة لا تعلوها إلا منزلة الإله، وهو أحد التجليات النورانية العشرة (سفيروت)، أي إنه جزء من الإله، بل هو أحد العمدة التي تستند إليها الدنيا، وهو أساس العالم. وأكثر من ذلك، فإن العالم خُلِقَ من أجله. وكما هو الحال دائماً مع

(١) شفيرات هكليم تعني تبعث الشرارات الإلهية.

الحلولية، ينتهي بها الأمر إلى تعادل بين الإله ومخلوقاته، ثم إلى ترجيح كفة المخلوقات على حساب الإله، فالتساديك شخصية تبلغ حداً من القداسة يجعلها تقترب بكلام الإله وتتوحد معه، ولذا فقد كان الحسيديون يقولون دائماً: "حديث التساديك تورا"، أي إن كلامه في قداسة التورا وقداسة الإله، ولذا فإن من يعارضه كأنه يجدف على الإله نفسه.

فرد: أبراهام ممتعضاً:

- دعك من هذا، فإن التساديك هو مجرد شخص يتصف بالتقوى والزهد والتضحية بالنفس، وله مريدون يجلونه على أساس تفوقه الأخلاقي والروحي، وهو ليس تجسيداً للرب.

- ربما يكون هذا صحيحاً بالنسبة إلى التساديك الخاص بجماعتك، لكن بقية التساديكيم<sup>(١)</sup> ليسوا بهذا التواضع، وكثير منهم ينسبون لأنفسهم قدرات خرافية خارقة. وقد جاء في الأدب الحسيدي أنهم كانوا قادرين على شفاء المرضى، ولهم سلطة على الحياة والموت قد تتفوق على قدرة الإله نفسه أحياناً، إذ يمكنهم أن يتدخلوا بقضائه، ويجعلوه يرجئ قراره بشأن موت فرد ما. وقد ورد في أحد الكتب الحسيدية أن مجموعة من الحسيديين كانوا في طريقهم بحراً إلى فلسطين، حين هبت عاصفة هددت السفينة، وحينئذ جمع التساديك كل رعاياه، وأمسك مخطوط التورا، وقال للإله: "إذا كان قد تقرر في محكمة الأعالي أن نقضي نحبنا، فإننا نعلن، باعتبارنا محكمة الجماعة المقدسة، أننا لا نوافق على هذا القرار". وقال الجميع: "آمين"، فتوقفت العاصفة. وكان بعض القادة التساديك يلومون الإله على أي أذى يحل بهم، ويتناقشون معه بصوت مرتفع.

(١) التساديكيم هي جمع تسديك (صديق) في العبرية.

- أنت لن تفهم ذلك أبداً، وأنا لست معنياً بشرحه لك، وكل ما يمكنني قوله هو أنه يوجد فعلاً بعض الأتقياء ممن قد يصل صفاء أرواحهم وشفافيتها حداً يمكنهم من الوصول إلى سفىروت (العوالم) التي لا توجد فيها أي قرارات أو حدود، لأن الرحمة وحدها هي التي تسود فيها.

- ولكن لم يتمتع التسادىك بكل هذه القوى الخارقة وبكل هذه الإعجازية التي لم تمنح لعظماء اليهود في الماضي؟! ولم يتمتع وحده بهذه الشفافية وهذه المقدرات!؟

- أنا حقاً لا أرغب في الخوض في هذه المسائل مع...

- مع غوييم؟

قال أحمد متبسمًا، فرد أبراهام معتذراً:

- لا، لا أقصد ذلك.

- إذن هي سر.

فقال أبراهام محاولاً التهرب:

- كلا. ولكن هذه الأمور عصىة على فهم من لم يتعمق بها.

- جربني.

- حسناً، سأحاول الإجابة حتى لا تأخذك الظنون بعيداً، نحن كحسيديم نؤمن أن الشعب اليهودي يوجد الآن في المنفى، ولذلك، قد تحل قدرة الرب في أي إنسان متواضع، شأنه في هذا شأن الملك المسافر الذي يمكنه أن يحط رحاله في أي منزل مهما بلغ تواضعه. وعلى العكس من هذا، فلو أن الملك كان في عاصمته، فإنه لن ينزل إلا في قصره وحده. وفي الماضي، كان الزعماء والأنبياء اليهود هم وحدهم القادرون على الوصول إلى الروح الإلهية، ولكن الشعب الآن في المنفى، ولذلك تحل قدرة الرب في أية روح خالية من الذنوب.

- حسب علمي، فحتى في زمن النبوة والرسالة لم يتمتع أنبياء بني إسرائيل بتلك الخوارق التي يدعيها بعض التساديك لأنفسهم.
- لم يستطع أبراهام الإجابة، فتابع أحمد قائلاً وهو يبتسم:
- على أية حال، حتى لو سلمنا بتفسيرك، فإن التساديك أصبح تجسيد الإله، ومن ثم وسيلة اليهودي المنفي للوصول إلى الإله، إنها إذن الحلولية اليهودية في المنفى، أليس كذلك؟
- ولكن مهما بلغ التساديك من سمو روحي، فليس بإمكانه وحده تغيير نظام العالم أو الإسراع بالخلاص مثلاً.
- أو تعرف لماذا؟
- نظر أبراهام بدهشة إلى أحمد، ثم رد باستخفاف:
- كلا. أتعرف أنت؟!
- لقد قرأت عن عقيدتكم في ذلك، فالتساديك ليس منفصلاً عن جماعته، ولذا فإنَّ سُمُوهُ الروحي عديم الجدوى بل قد يأتي ذلك بأثر عكسي: فحينما يتسامى ولا يلحق به أتباعه، لأنهم لا يمكنهم أن يصلوا إلى الأعالي التي وصلها، فإن السماء ستحكم عليهم بقسوة ودون رحمة، ولذا سيلحق بهم الأذى نتيجة تقوى التساديك. ولهذا، فلكي يحقق لشعبه إمكانية الالتصاق بالإله من خلاله دون أن يلحق بهم الأذى، عليه أن ينزل من سموه الروحي حتى يرتفع بالناس، ويقود أتباعه إلى النور المقدس، فهو يختلط بالناس في السوق بتواضع، ولكنه في الوقت نفسه ملتصق بالإله في أعاليه. ويمكن القول بأن المفهوم الحسيدي الخاص: "يريداه لتسورخ هعالياه"<sup>(١)</sup> هو

(١) يريداه لتسورخ هعالياه تعني الهبوط من أجل الصعود أو "التسامي عن طريق الغوص في الرذيلة" إن شئت الدقة. (حسب تعبير الدكتور عبد الوهاب المسيري في موسوعته الشهيرة).

ترجمة حسيدية معتدلة للتصور الشبتائي<sup>(١)</sup> للمسيح الفاسد ظاهراً الطاهر باطنياً. وقد نجحت الحسيدية في تحقيق قدر من الاستقلال عن المؤسسة الحاخامية (التلمودية)، فاتبعت بعض التقاليد السفاردية في الشعائر<sup>(٢)</sup>، بدلاً من التقاليد الأشكنازية، كما أدخلوا بعض التعديلات على طريقة الذبح الشرعي<sup>(٣)</sup>. وأصبح للحسيدين معابدهم المستقلة، وتقاليدهم وطقوسهم الخاصة، ولذلك تحولت الحركة من يهودية حسيدية إلى يهودية تساديكية، وقد أصبح هذا مفهوماً محورياً في الفكر الحسيدي. وكان الحسيديون يعمدون إلى إحلال التساديك محل الحاخام<sup>(٤)</sup> كلما كان ذلك بوسعهم. وقد تحولت الحسيدية (التساديكية) إلى بيروقراطية دينية لها مصالحها الخاصة، واستولت على الكهال<sup>(٥)</sup> في كثير من الأحيان، ولكنها لم تدخل أية إصلاحات اجتماعية، بل كان الكهال أحياناً يزيد الضرائب على اليهود بعد استيلاء الحسيدين عليه.

- لا تستطيع تعميم ذلك على كل التساديكيم.

(١) نسبة إلى "شبتاي تسفي" وهو مشيخ كاذب بدأت دعوته في سالونيك والدولة العثمانية، ثم انتشرت منها إلى أرجاء العالم. وقد ألهم حماس معظم اليهود في القرن السابع عشر، ووعدهم بالعودة إلى فلسطين، وعين بعض أتباعه حكاماً للأرض. ولكن بعد محاكمته من قبل السلطات العثمانية، ومناظرته من قبل علمائها، أعلن إسلامه. وشكل ذلك خيبة أمل شديدة لأغلب أتباعه فتحلوا عنه، ولكن بعضهم ظلوا على ولائهم القديم لمسيخهم المزعوم، فاعتنقوا الإسلام علناً، وأبقوا على انتمائهم اليهودي سرّاً، وهم "يهود الدوثة". والمسيخ في التصور الكابالي: "سيكون خيراً من داخله، شريراً من خارجه"، وقد رأوا أن هذه مواصفات تنطبق على تسفي تمام الانطباق.

(٢) ربما كان ذلك تحت تأثير الكابالا اللورانية ذات الأصول السفاردية.

(٣) وهو ما يعني في واقع الأمر السيطرة على تجارة اللحم.

(٤) الحاخام هو رجل الدين الرسمي، وهو آنذاك من المتغديم تحديداً، شأنه كشأن المؤسسة الحاخامية بشكل عام.

(٥) كهال هي كلمة عبرية بمعنى "جماعة"، وهي تشير إلى الهيئة الإدارية أو المجلس الذي كان يدير شؤون التجمعات اليهودية المختلفة في دول الشتات، وتمكنهم من تطبيق شرائعهم الخاصة. وكما هو الحال دائماً نشأت الحاجة إلى مثل هذا النظام في الممالك والإمبراطوريات التي تضم مجموعة سكانية غير متجانسة كبولندا، وذلك لتيسر عملية جمع الضرائب من أعضاء الجماعة وضمان ولائهم لها.

- طبعاً لا، فقد كثر عددهم حتى صار من المستحيل تعميم أي فكرة بعينها عليهم جميعاً. وقد ارتبطت كل جماعة حسيدية بالتساديك الخاص بها، وهكذا انقسمت الحركة إلى فرق متعددة، فبعض هذه الفرق اتجه اتجاهاً صوفياً عاطفياً محضاً، في حين اتجه بعضها الآخر، مثل حركة "حبد" (لوبافيتش)، اتجاهاً صوفياً ذهنياً يعتمد على دراسة كل من الكابالا والتلمود، كما أن وجود هؤلاء الحاخامات داخل دول مختلفة، زاد من هذا الانقسام. فأتثناء الحرب النابليونية ضد روسيا مثلاً، أيد بعض الحسيديين الروس روسيا ضد نابليون، ولكن بعض الجماعات أيدته ضد روسيا، بل تجسست لحسابه، وقد حاولت المؤسسة الحاخامية (المتغديم) القضاء على الحسيدية، فأصدرت قراراً بطرد اليهود من حظيرة الدين، وحرقت كتاباتهم كلها، وعدم التزاوج معهم. ومع هذا، ورغم الانقسامات والخلافات بين الحسيدية واليهودية الحاخامية، فقد وحدوا صفوفهم في النهاية بسبب انتشار حركات التنوير والمثل العلمانية والنزعات الثورية بين اليهود. ولما كان الكهال قد تداعى كإطار تنظيمي، فإن الحسيدية استطاعت أن تحل محله كإطار تنظيمي جديد.

- لم أكن أتصور أنه يمكن لشخص غير يهودي أن يلم بكل هذه التفاصيل.

- أيزعجك ذلك أم يسرك؟

فأجاب أبراهام بلامبالاة:

- لا هذا ولا ذاك، إنه يثير دهشتي فحسب. ولكن يجب أن تعلم أن التساديك هو رجل صالح يعيش قريباً من الجماهير، ومحبوب منهم، ويُدخل على قلوبهم الطمأنينة التي يفتقدونها.

- تقصد على عكس الحاخام المتغديم البعيد عنهم والمنغلق على دراساته التلمودية؟! أتعلم أن هذا التصور لقائد الجماعة هو من أهم أشكال التمرد الحسيدي على المؤسسة الدينية، وعلى القيادة الحاخامية التي انعزلت عن الجماهير الفقيرة

وارتبطت بالأقلية المالية التي كانت تسيطر على الكهال. فقد كان منصب الحاخام، مع منتصف القرن الثامن عشر يُباع ويُشترى، وتتحكم فيه الأقلية الثرية، وقد تحدث الحسيدية المؤسسة الحاخامية، وخلخلت قبضتها على الجماهير في عدة مجالات من بينها وظيفة الحاخام الذي حل التساديك محله<sup>(١)</sup>، وبهذا صار نوعاً من القيادة الكاريزمية التي تتجاوز المؤسسات، لدرجة أن المريدين كانوا يسافرون يوم السبت إلى بيت التساديك ليسمعوا مواظمه، وليستأنسوا بمشورته. وقد كان التساديك يعيش على معوناتهم؛ فمن فرط حبهم له كانوا يساعدهونه مالياً، وهو من فرط حبه لهم كان يعتمد عليهم مالياً؛ أي إن المساعدة المالية كانت وسيلة للارتباط الروحي والعاطفي، فكان يقف "الجباي"<sup>(٢)</sup> على بابه فيكتب اسم المريد ويدون احتياجاته الروحية والمالية، ويقوم التساديك بإسداء النصح له، ويعطيه "السيجيلوت"<sup>(٣)</sup>، وكان لدى التساديك أحجبة لا حصر لها لكل المناسبات والأمراض. وبعد الزيارة، يقوم المريد بإعطاء الجابي "فيديون نيفيش"<sup>(٤)</sup>، ألا ترى معي أن هذه العادة تشبه من بعض الوجوه صكوك الغفران المسيحية في العصور الوسطى؟

- أتفق معك في ذلك، فمع أنني حسيدي، إلا أن هناك أموراً كثيرة تزعجني في الحسيدية، لا أجد لها أي تبرير، وهذه إحداها. لكن دعنا من ذلك كله ولنعد إلى أصل الموضوع.

(١) عاد منصب الحاخام بين الحسيدين أنفسهم، بعد تحالفهم على المتخديم.

(٢) المحصل أو الجباي.

(٣) الصيغة الصوفية التي تضمن له النجاح.

(٤) الترجمة الحرفية في العربية: "فدية النفس" وهي مبلغ نقدي.



## ◀ بين التشدد والتساهل

هز أحمد رأسه بالإيجاب قائلاً:

- يبدو أننا قد خرجنا عن أصل الموضوع فعلاً، ولكن أنت تعرف كيف يتفرع النقاش دائماً إلى مسائل جانبية في مثل هذه المواضيع الشائكة.

- أجل.

- ذكرني من فضلك يا ابن العم، أين توقفنا؟

- كنت نتحدث عن التغيرات التي أدت إلى ظهور الصهيونية بين اليهود، ومن ثم قيام دولة إسرائيل، وأن ذلك كان نتيجة لظهور كل من التنويريين والحسيديين، وأن دور التنويريين كان بتوفير الدعم العالمي وإطلاق مفهوم الحضارة اليهودية المسيحية، وتقديم السند الديني اليهودي للتنويري للصهيونية، في حين كان دور الحسيديين هو تهميش التلمود، وما نتج عن ذلك من ترسيخ الحسيديم لمفهوم الحلولية بطريقتهم الخاصة، ودور التساديك في ذلك. وقد أوضحت فكرتك جيداً، إلا أنك لم توضح كيف وفر ذلك "مناخاً فكرياً" مواتياً لقيام حركة علمانية كالصهيونية!

- حسناً، تأمل معي. فقد أخذت الصهيونية عن الحسيديّة الإيمان بحلولية متطرفة تُضفي قداسة على كل الأشياء اليهودية وتفصلها عن بقية العالم. وكما هو معروف فإن معظم المفكرين والزعماء الصهاينة إما نشؤوا في بيئة حسيديّة، أو تأثروا بفكرها الحلولي بشكل أو بآخر، بل إن الصهيونية صُرب من "الحسيديّة اللادينية" أو الحسيديّة داخل إطار حلولية بدون رب. والدارس المدقق يكتشف أن ثمة تشابهاً بين الحسيديّة والصهيونية، فالجماهير التي اتبعت كلاً منهما كانت في وضع طبقي متشابه، أي جماهير توجد خارج التشكيلات الرأسمالية القومية بسبب الوظائف المالية

والتجارية التي اضطلعت بها. لذلك، نجد أن جماهير الحسيديّة، شأنها شأن جماهير الصهيونيّة، تتفق على حب صهيون، الأرض التي تشكل الميراث الذي سيمارسون فيه شيئاً من السلطة. كما قامت الحسيديّة بإضعاف انتماء يهود اليديشية الحضاري والنفسي إلى البلاد التي يقيمون فيها، الأمر الذي جعل اليهود مرتعاً خصباً للعقيدة الصهيونيّة. وفي الحقيقة، فقد كانت الهجرة الحسيديّة التي تعبر عن النزعة القوميّة الدينيّة فاتحة وتمهيداً للهجرة الصهيونيّة. وكما قال المفكر الصهيوني "مارتن بوبر"<sup>(١)</sup> فإنه لا يمكن بعث اليهودية دون الحماس الحسيدي، وإن الرواد الصهاينة قد بعثوا هذا الحماس. فالصهيونية، مثل الحسيديّة، حركة مشيخانية تهرب من حدود الواقع التاريخي المركب إلى حالة من النشوة الصوفيّة، تأخذ شكل أوهام عقائديّة عن أرض الميعاد التي تنتظر اليهود. كما أن عدداً من التساديك قد ادعوا، أو على الأقل سمحوا لأتباعهم بالادعاء، بأن كلاً منهم هو المشيخ! وهكذا فقد أصبحت هناك مشيخانية بلا مشيخ واحد، وأصبح هناك عدد من المشيخين الصغار، يظهرون في شخصيّة التساديك، وتتوزع عليهم القداسة أو الحلول الإلهي، وهو ما قلل من تركزه. وإذا كانت الرؤية المشيخانية التقليديّة رؤية تحدث بغتة عن طريق تدخل الإله في التاريخ، فالمشيخانية الحسيديّة تدريجيّة<sup>(٢)</sup>، تحولت إلى حركة بطيئة متصاعدة يشترك فيها كل جماعة يسرائيل، بقيادة عدد كبير من التساديك، ولا تتوقع أية تحولات فجائية. وقد تأثر الفكر الصهيوني بهذه الفكرة، فاستغلها في إقامة كيانه، والعمل التدريجي على تحقيق الوعد والتحضير لقدم المشيخ.

- (١) مفكر يهودي ألماني، وجودي النزعة ومتطرف في حلوليته. وكان لا يؤمن باليهودية الحاخامية أو بضرورة تطبيق الشريعة، ولم يقرأ التلمود على الإطلاق. (رأى التلمود لأول مرة في حياته في عيد ميلاده الستين) ومع هذا، فإنه يعد من أهم المفكرين الدينيين اليهود في القرن العشرين. وهو من دعاة التصوف اليهودي، ويعتبر أحد كبار مفسري العهد القديم، وأحد أهم مفكري الصهيونية ذات الديباجات الثقافية.
- (٢) بعض الأتباع الذين يظنون تسديكهم هو المشيخ، يظنون على إيمانهم ذلك حتى بعد موته! بل إن حيد بنت قصر التسديكها الميت ومشيخها المزعوم حتى يسكن فيه بعد عودته.

- لا تتسّ أن الحسيديين عارضوا فكرة الدولة الصهيونية منذ البداية .  
 - أعرف . وأعرف أيضاً أنهم أول من ساهم بتأسيس حزب أغودات إسرائيل لمعارضة فكرة الدولة الصهيونية، ولكن بعد إعلان الدولة عام ١٩٤٨ انفجرت الحزب على أفكاره الرفضة لدولة إسرائيل الصهيونية، وبرر لنفسه الاشتراك بانتخابات كنيست دولة إسرائيل في عام ١٩٤٩ ضمن تجمع ديني ضم أحزاباً دينية صهيونية، وأخرى معادية للصهيونية<sup>(١)</sup> وبعد احتلال الضفة الغربية، وقطاع غزة في حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ بدأت بعض القوى الحريدية الحسيدية المعارضة للصهيونية تبدل في علاقتها مع الدولة الصهيونية، معتبرة الانتصار في تلك الحرب معجزة إلهية، وإشارة ربانية للخلص المشيخاني . فانطلق الحاخام "شنيور سون"<sup>(٢)</sup> قائلاً: إن دولة إسرائيل ككيان صهيوني، تعد تعبيراً عن الكفر، والتمرد على إرادة رب إسرائيل، وهي لذلك ليست تعبيراً عن الخلاص، ولكن أرض إسرائيل تحت السيادة اليهودية لها معان دينية مهمة، لذلك يهمننا عدم التنازل عن بقية "أرض إسرائيل"<sup>(٣)</sup> . ومع أنه لا تزال هناك بعض الفرق الحسيدية التي تعارض الصهيونية ودولة إسرائيل بجدية، كجماعة ساتمريم وناطوري كارتا، إلا أنهم قليلو العدد والتأثير، كما أن الأخيرة مُقاطعة من قبل كافة التجمعات والمنظمات اليهودية عالمياً بسبب معتقداتها الدينية ومساندتها لما يسمونه "بالحركات الإرهابية" كحماس، وإنكارها للمحرقة اليهودية .

(١) فاز التجمع بـ ١٦ مقعداً من أصل ١٢٠ (٢، ١٢٪) قبل أن تنشق أغردات عنه وتدخل انتخابات عام ١٩٥١ بشكل مستقل . (فازت حينها به مقاعد أي ٤٪) .

(٢) شنيور سون زعيم حركة جيد، وأحد كبار زعماء التيار الديني الحريدي الحسيدي .

(٣) مع استمرار الكيان الصهيوني أخذت آراء بعض التيارات الدينية الحريدية غير الحسيدية (المتنغديم) تصبح أيضاً أكثر براغماتية من دولة إسرائيل، رغم استمرار معارضتها للصهيونية مثل تيار "المدارس الدينية اللتوانية" بزعامة "الحاخام الكبير اليعازار شاخ" الذي لا يخفي تكفيره للكيان الصهيوني العلماني، برغم تعامله معه .

لم يكن أبراهام يرى الأمور من هذه الزاوية قط، ولم يسمع في حياته مثل هذا التحليل، فرجع بظهره إلى الوراثة سارحاً في منطلق أحمد، ثم تنهد قائلاً:

- أي إنك ترى أن ظهور كل من الحسيدية والتتويرية (رغم تضادهما) قد أدى في النهاية إلى ابتعاد اليهودية عن أصولها. أليس كذلك؟

- أو ربما عودة اليهودية إلى أصولها حسب التاريخ.

عاد أبراهام إلى وضعيته السابقة كنائم ألقى على رأسه دلو من الماء، وقال مستوضحاً:

- مهلاً، مهلاً. لقد اختلطت علي الأمور ثانية، ولم أعد قادراً على متابعتك، فأرجو التمهّل والتوضيح.

- هل أستطيع التعبير عن رأيي دون مواربة؟ أعني هل ذهنك متفتح لسماع الرأي الآخر دون تعصب، وإن كان معارضاً لما تؤمن به؟

كان أبراهام حانقاً على أحمد لجرأته على التفوه أمامه بما اعتبره تجديفاً على دينه، إلا أنه كان متشوقاً أكثر للإمام بوجهة نظره التي بدت له غاية في الإثارة، مما جعله يكتم غيظه، ويقول متصنعاً الموضوعية والتجرد:

- أنا أدرك تماماً بأنني أتحدث مع غير يهودي، وأن أفكاره ولا ريب تختلف اختلافاً جذرياً عن أفكاري، ولا أرى غضاضة في ذلك، بل أطالبك بالتعبير عن وجهة نظرك بكامل الحرية، ففي النهاية هذا هو الشرط الأساسي لأي حوار هادف.

انفجرت أسارير أحمد، وتابع قائلاً:

- أنا سعيد لكونك تنظر إلى الموضوع من هذه الزاوية، وأتفق معك تمام الاتفاق في ذلك. أنا كمسلم أعتقد أن الدين عند الله سبحانه وتعالى واحد لا يتغير وهو دين جميع أنبيائه على اختلاف شرائعهم، من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام. ومن ثم أعتبر اليهودية بحد ذاتها تحويراً لشريعة موسى عليه السلام، ولا ريب أنك لاحظت

عدم وجود أي كلمة تدل على اليهودية في أسفار التناخ الأولى، لا في التوراة، ولا في أي من الأسفار الأخرى في التناخ. حتى عند قيام مملكة يهودا، فقد استخدمت الكلمة آنذاك كناية عن النسبة إلى أرض يهودا أو "اليهودية" كما كانوا يصفونها نسبة إلى سكانها من سبط يهودا، لا نسبةً إلى الدين اليهودي، الذي لم يكن له وجود أصلاً. ثم نُحِتَت التسمية لاحقاً لتمييز دين سكان مملكة يهودا العائدين من السبي البابلي، عن دين بقية سكان السامرة<sup>(١)</sup> الذين بقي بعضهم في ديارهم بالإضافة إلى القسم الصغير الذي عاد من الأسر الآشوري السابق ذكره. وإمعاناً في التمايز، أو ربما بتأثير لغة البابليين الآرامية، استخدم اليهود الحروف الآرامية المربعة لكتابة اللغة العبرية، وذلك لتمييز توراتهم عن التوراة التي استمر السامريون (Samaritans) في تدوينها بالحروف العبرية القديمة (القريبة من الكتابة الفينيقية). ولذلك أعتقد أن الدين اليهودي هو نتاج إعادة صياغة أحبار مملكة يهودا المنفيين في بابل لشريعة موسى عليه السلام. وبالطبع لم يعترف السامريون بالأسفار التي أضافها اليهود إلى الكتاب باعتبار أنها لأنبياء يهود<sup>(٢)</sup>، ولأن اليهود العائدين رفضوا، باستعلاء، انضمام بقايا الإسرائيليين إليهم، إذ إنهم أحفاد أعدائهم السابقين عبدة العجل<sup>(٣)</sup>، ولأنهم تزوجوا مع الآشوريين<sup>(٤)</sup>، وسكان فلسطين المحليين، ولم يحافظوا على نقاء عرقهم، كما حافظوا هم، طبقاً لقوانين عزرا<sup>(٥)</sup>. وأيضاً لأن أسفار توراتهم الخمسة، تختلف في مواضع عديدة عن أسفار التوراة الخمسة كما دونها عزرا الكاتب لليهود.

(١) عاصمة مملكة إسرائيل البائدة. وتسمى حالياً نابلس.

(٢) من سكان مملكة يهودا المعادية لمملكة إسرائيل سابقاً.

(٣) سيأتي ذكر هذا بعد قليل.

(٤) وهم الذين استقروا للسكن في أرض مملكة إسرائيل البائدة بعد أسر أهلها ونفيهم إلى منطقة الخابور (في العراق).

(٥) قوانين عنصرية تمنع اختلاط اليهود بالأُمم، وتجعل اليهودي هو من ولد من رحم يهودية. وتنسب هذه القوانين إلى "عزرا الكاتب" الذي يعتبرونه من حفظ التوراة من الضياع معيداً تدوينها. وربما يكون عزرا هذا هو "عزير" الوارد ذكره في القرآن، ولكنهم نسبوا بعض محدثاتهم إليه، والله أعلم.

صمت أحمد قليلاً كأنه يخشى أنه قد تجاوز الخطوط الحمراء في حديثه، إلا أن أبراهام حثه على المتابعة قائلاً:

- استمر.

- هل أنت واثق من ذلك؟

- طبعاً. فرغم اختلافي التام معك، إلا أنني أرى الكثير من الإثارة في وجهة نظرك وأرغب في سماعها للنهاية.

- حسناً. أنا أعتقد أن اليهودية هي تحريف لدين الله وشريعة موسى عليه السلام. وحتى لا تسيء فهمي أريد أن أوضح لك معنى التحريف عن طريق مثال بسيط. فلو أنك كتبت رسالة إلي، ثم أريتها أنا للناس بعد أن تلاعبت قليلاً بمحتواها وفق قناعاتي، أو مصلحتي لكنت مُحرفاً لرسالتك. أما إذا كتبت رسالة كاملة من بنات أفكارني ونسبتها إليك، مع أنك لم تكتب منها حرفاً واحداً، فعندها أكون قد لفقت رسالة باسمك. ففي الحالة الأولى حذفت، وأضفت وبدلت في بعض كلامك، وهذا يعني أن بقية كلامك لا يزال في الرسالة المحرفة، أما في حالة الرسالة الملفقة فلا شيء من كلامك فيها. هل مثالي واضح؟

- تابع.

- وهكذا فأنا أعتقد أن تاريخ اليهودية، التي أراها تحريفاً لدين الله جل جلاله وشريعة موسى عليه السلام، تميز في منعطفاته الرئيسية باجتماع صنفين من التدين: أحدهما متطرف بتزيمته أو تشدده، والآخر متطرف بدنيويته أو بعلمانيته<sup>(١)</sup>.

- ماذا تعني؟!

- تأمل معي في انقسام مملكة النبوة بعد وفاة سليمان عليه السلام سنة ٩٣٥ ق.م إلى مملكتين: يهودا بهيكلها وكهنوتها، وإسرائيل بعجلتها ومعابدها، الذي أنهاه

(١) أي مُغفلاً للبعد الأخروي.

الله سبحانه وتعالى بالأسر الآشوري لسكان إسرائيل سنة ٧٢٢ ق.م، ومن بعده السبي البابلي لسكان يهودا سنة ٥٨٦ ق.م، ثم جاء كل من معلمي الشريعة "الفريسيين" (Pharisees)<sup>(١)</sup> بتشدهم في اعتماد الشريعة الشفوية<sup>(٢)</sup> التي تعيد للتوراة معناها الحقيقي، وفقاً لما نسبوه إلى موسى عليه السلام وبقية خلفائه اللاويين، وتفسيراتهم الملهمة لها، وبدعوتهم الأمم من غير اليهود إلى دينهم الذي يعتبرونه الدين الحق؛ والكهنة "الصدوقيين" (Saducees)<sup>(٣)</sup> بتساهلهم بالتوراة وأخذهم بنصها الحرفي، وبعدم إيمانهم بالملائكة، أو البعث والآخرة أو نشر الدين بين غير اليهود. وقد أنهى الله فترتهما بإنهاء تفضيلهم على الأمم منزلاً كتاباً جديداً وشريعة أخرى<sup>(٤)</sup> اتخذت لاحقاً طابعاً عالمياً. وأوقف الدعوة إلى اليهودية بين الأمم، وهدم هيكلهم، منهياً الكهانة والقرابين التي كانت تشكل لب اليهودية القربانية.

- هل ستروي لي تاريخي؟!

- لا تكن عجولاً يا بن العم.

- حسناً، تابع.

- وبعد ذلك جاء الحسيديم بتصوفهم وقبالتهم، والتتويرون بعلمانيتهم واندماجهم، بل انضم إليهم الإثيون بيهوديتهم الإلحادية الصريحة، والذين رفضوا الأسس التشريعية الدينية لليهودية القائمة على التلمود، وتبنوا جوهر التوراة. والتاريخ التوراتي المعبر عنه في أسفار التوراة مثل: يهوشع، القضاة، والملوك، والتي توحدت كنتاج إيديولوجي ثيولوجي، تحول في عقليتهم العلمانية إلى أساس ثقافي، وتعزيز الارتباط بالأرض

(١) بالعبرية فروشيم ومعناه بالعربية المعتزلة.

(٢) المشنا.

(٣) نسبة إلى "صدوق" وهو كبير كهنة كانوا يعظمونه.

(٤) على عيسى عليه السلام.

ومشاهدها . الغريب أنهم اختاروا لدولتهم اسم "إسرائيل" مع أنهم من اليهود<sup>(١)</sup>، ومع أنه تم اقتراح بعض الأسماء الأخرى للدولة الجديدة، من بينها: يهودا، عيبر، تسيون (أي صهيون).

- وما الغريب في ذلك؟

- لأن هذا هو الاسم نفسه الذي اختاره أصحاب "الفساد الأول"، عندما انشقوا بعد وفاة سليمان عليه السلام على ابنه "رحبعام"، وأسسوا مملكة إسرائيل التي اقتطعت من بني إسرائيل عشر قبائل من قبائلها الاثنتي عشرة.  
زفر أبراهام بعصبية قائلاً:

- لماذا تعتبر هذا فساداً؟ ولماذا دعوته بالأول؟

- كان ذلك فساداً لأنه شق عصا الطاعة على مملكة النبوة، ولأن ملكهم المنشق "يربعام بن ناباط" خاف من أن تحن قلوب رعيته إلى "رحبعام بن سليمان" ابن سيدهم القديم عندما يذهبون للحج في أورشليم، فصنع عجلين ذهبيين وقال لهم: "لا حاجة لكم بعد الآن إلى الصعود إلى أورشليم، هذه آلهتكم التي أخرجتكم من مصر. ووضعهما في بيت إيل والآخر في دان"<sup>(٢)</sup>. وبهذا ارتد إلى الوثنية قسم كبير من الشعب الوحيد الذي كان يعبد الله ويوحده في ذلك الزمان<sup>(٣)</sup>، وامتد هذا الفساد إلى بقية بني إسرائيل في مملكة يهودا، باعتراف كتبكم، حتى اعتادوا على الشرك وتكذيب - بل قتل - الأنبياء الذين أرسلهم الله لإصلاحهم وإعادتهم إلى التوحيد على الصراط المستقيم<sup>(٤)</sup>، فأى وصف يمكن إطلاقه على هذا أفضل من "الفساد في الأرض"؟ أما لماذا دعوت ذلك الفساد بالفساد الأول، فلأن الله تعالى أخبرنا بذلك في سورة الإسراء

(١) بقايا مملكة يهودا . أما بقايا مملكة إسرائيل (الأسباط العشرة) فقد ضاعوا بين الأمم .

(٢) الملوك الأول ١٢ : ٢٧ - ٢٩

(٣) قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْحَيِّتِ وَالطَّاعُوتِ ﴾ [النساء : ٥١] .

(٤) قال الله تعالى : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة : ٥٧] .



أو سورة بني إسرائيل كما كان يسميها بعض الصحابة.

- وهل تحدثت تلك السورة عن فساد آخر؟

- أجل تحدثت عن الفساد الثاني، وتحدثت عن وعد أولاهما ووعد الآخرة، وعن

العلو الكبير.

- وماذا كان وعد أول الفسادين؟

- حدث ذلك على مرحلتين: انهيار إسرائيل على يد الملك الآشوري "سرجون

الثاني" سنة ٧٢٢ قبل الميلاد، وما صاحب ذلك من "الأسر الآشوري" إلى الخابور في

بلاد الرافدين، ومن ثم ضياع القبائل العشر. والمرحلة الثانية انهيار يهوذا على يد

الملك البابلي "نبوخذ نصر" سنة ٥٨٦ ق.م. وما صاحب ذلك من "السبي البابلي". ولكن

اليهود<sup>(١)</sup> لم يضيعوا لأن عزرا قد جمع لهم التوراة وحفظهم حولها.

- وما هو الفساد الثاني؟

- ترسيخ الربا ونشر فلسفاتهم المادية والإلحادية ومعها التحرر والانحلال بين

الأمم، وتجارة السلاح والمخدرات والدعارة، والتأمر على حكومات العالم وشعوبها،

وإيقاد نيران الحروب والفتن، ثم تتويج ذلك بسفك الدماء وتشريد شعب كامل،

واحتلال أرضه باسم الدين، وتحريف النبوءات بما يتوافق مع ذلك الاحتلال للأرض

المقدسة<sup>(٢)</sup>، مع أنهم نُهوا عنه باعتراف كتبكم نفسها كما تعرف<sup>(٣)</sup>.

فيما كان أحمد يتحدث بإسهاب عن فساد بني إسرائيل، كان أبراهام يسترجع

بعض آيات التوراة مثل: "ويل لمن يكوم لنفسه الأسلاب، ويثرى على حساب ما نهب،

(١) رعايا مملكة يهوذا المنفيون إلى بابل.

(٢) لم يطلق القرآن الكريم وصف الأرض المقدسة على غير فلسطين، ولا حتى على الحجاز التي بها مكة والمدينة.

(٣) يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ [الحشر: ٣].

إنما إلى متى؟ ألا يقوم عليك داثوك بغتة، أولاً يثورون عليك ويملؤونك رعباً، فتصبح لهم غنيمة لأنك سلبت أمماً كثيرة، فإن بقية الشعوب ينهبونك ثأراً، لما سفكت من دماء، وارتكبت من جور في الأرض، فدمرت مدناً، وأهلكت الساكنين فيها. ويل لمن يدخر لبنيه مكسب ظلم، ويشيد مسكنه في مقام حصين، ليكون في مأمن من الخطر. لقد لطخت مؤامرتك بيتك بالعار، حين استأصلت أمماً عديدة، وجلبت الدمار على نفسك، حتى حجارة الجدران تصرخ من شرك، فتردد الدعائم الخشبية أصداءها. ويل لمن يبني مدينة بالدماء، ويؤسس قرية بالإثم". (سفر حبقوق ٢: ٦-١٢)، ولم يفق أبراهام من شروده في تلك الآيات، إلا على صوت أحمد الذي قال مستفسراً:

- أبراهام، هل تجاوزت الحد، وقلت ما أزعجك؟
- لا بتاتاً، فأنت تعبر عن وجهة نظرك بطريقة منطقية أكاديمية.
- إذن فإم إعراضك؟
- لم أعرض عنك، ولكنني كنت أفكر بما قلت. تابع أرجوك.

## ◀ وعد الآخرة

نظر أحمد ملياً إلى أبراهام محاولاً استنتاج ما إذا كانت حقيقة مشاعره موافقة فعلاً للحياة الذي يدعيه، إلا أنه لم يجد إلا ملامح جامدة لا تبيّن عما في داخلها، فتابع قائلاً:

- حسناً. كما قلت لك، فقد اختاروا اسم "إسرائيل" لكيانهم مع أنهم ينتسبون إلى اليهود (سكان مملكة يهودا) وليس إلى الإسرائيليين (سكان مملكة إسرائيل) الذين ضاعوا بين الشعوب. وهكذا استخدم الفسادان الاسم نفسه: "إسرائيل". وكان الأجدد بهم أن يسموها "يهودا" أو "الدولة اليهودية" كما اقترح "تيدور هرتزل" في كتابه "الدولة اليهودية"، أو "فلسطين" كما قال وزير خارجية إسرائيل الأسبق "ابا إيبان" الذي اعتبر اسم إسرائيل خطأ فادحاً، وأن تسمية فلسطين "تعني في النهاية إسقاط أية ادعاءات فلسطينية ضد الكيان الصهيوني الناشئ، لأنه كيان فلسطيني"، وذلك لإنهاء أية مطالب فلسطينية. ولكن أمر الله سبق، واختاروا لفسادهم الثاني اسم فسادهم الأول نفسه. فسيحان الله خير الماكرين!

فرد أبراهام بخبث قائلاً:

- لقد كان إيبان محقاً، ولكن ليس للسبب الذي تدّعيه؛ فهذه التسمية قد خلقت مشاكل أخرى أمام المشرعين الصهاينة، حيث انتقلت صفة الإسرائيلي من الشعب (وهي صفة مذكرة في العبرية) إلى الدولة (وهي صفة مؤنثة في العبرية)، وهو الانتقال الذي أدى إلى انطباق هذه الصفة "المقدسة" على كل من يقيم داخل إسرائيل بمن فيهم المسلمين والمسيحيين أيضاً، وأرغم السلطات الإسرائيلية على اعتمادهم كإسرائيليين رغم كونهم غوييم، ولكن قل لي من فضلك متى سيأتي وعد الفساد الثاني

(وعد الآخرة) والعلو الكبير كما تعتقدون؟

- نحن نعيش حالياً علوهم الكبير؛ فقد هَوِّدوا الدين المسيحي نفسه ثم صهيونيه، وصاروا أسياد المال والثقافة والإعلام، أما عن وعد الآخرة، فقد اقترب كثيراً؛ فقد قال الله تعالى في الآية رقم ١٠٤ في تلك السورة: ﴿وَقُلْنَا مَنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤]، وعندما سيكتمل جمع هذا اللفيف<sup>(١)</sup> بأصوله القومية المختلفة<sup>(٢)</sup>، ومعتقداته المتناقضة، وتقاليد المتباينة، في الأرض المقدسة التي بارك الله حولها، وتحسبهم جميعاً، مع أن قلوبهم شتى، فستحل عليهم النهاية التي قضى بها الله جل جلاله في الكتاب<sup>(٣)</sup>.

- هذا ما يتنبأ به قرآنكم وليس الكتاب.

- بل هذا ما قضاه الله تعالى في الكتاب الذي آتاه موسى عليه السلام أولاً، ثم ذكَّر به في القرآن الذي نزل على محمد عليه الصلاة والسلام بعد ذلك. وقد جاء في سفر حزقيال ٢٠: ٢٣-٢٥: "حي أنا، يقول السيد الرب، إنني بيد قوية وبذراع ممدودة

(١) اللفيف هو "ما اجتمع من الناس من قبائل شتى أو من أخلاط شتى" المعجم الوسيط وهذا هو حال يهود اليوم كما سنرى في الهامش التالي.

(٢) آخر من خرج من المؤرخين اليهود بتأكيد ما يسميه القرآن الكريم بـ"اللفيف" من جهة الأصول القومية المتعددة هو المؤرخ "شلومو ساند"، وهو أستاذ التاريخ في جامعة تل أبيب وله عدد من المؤلفات. ولكن مؤلفه الأخير "متي وأيخ هومصي هاعام هايهودي" (متي وكيف أختلق الشعب اليهودي؟) الذي أصدره مؤخراً قد أصبح أشهر مؤلفاته وأكثرها مبيعاً. ويفند في كتابه الادعاءات الصهيونية، مؤكداً أن أغلبية يهود العصر لا علاقة لهم باليهود القدماء، وأنهم "من نسل يهود الخزر وغيرهم ممن اعتنقوا اليهودية، ولا علاقة لهم بأرض فلسطين. فأغلبية اليهود تهودوا عبر مراحل تاريخية وليس ثمة أمة يهودية قومية". أما أشهر أولئك المؤرخين اليهود (الذين تطرقوا إلى ذلك) على الإطلاق فهو "آرثر كوستلر"، وقد أثبت في كتابه "القبيلة الثالثة عشرة" أن معظم اليهود الحاليين من أصول خزرية "يايفية" وليس عبرية "سامية".

(٣) ولن يرغب بالاستفاضة في تفسير سورة الإسراء، ونبوءاتها، والإعجاز العلمي العددي فيها، ننصحه بالرجوع إلى مؤلفات رائد هذا العلم الأستاذ "بسام جرار"، وغيره من الباحثين. جزاهم الله عنا كل خير.

ويسخط مسكوب أملك عليكم، وأخرجكم من بين الشعوب وأجمعكم من الأراضي التي تفرقت فيها بيد قوية وبذراع ممدودة ويسخط مسكوب، وآتي بكم إلى برية الشعوب، وأحاكمكم هناك وجهاً لوجه".

- ولكنك قلت قبل قليل إن النبوءة قد أنزلت على موسى، فما بالك تستشهد بسفر

النبي حزقيال!!!

- ضحيح أن النبوءة أنزلت على موسى عليه السلام، ولكن جميع أنبياء بني إسرائيل قد تابعوا التذكير بها وبعقابها كما قرأت - لا ريب - في الكتاب. وما ذكرت ذلك النص إلا للاستدلال.

- لا أنكر أن أغلب أنبيائنا تحدثوا عن فساد شعب إسرائيل، وبتوعد الرب لهم بالعقاب<sup>(١)</sup>، وأشهرهم أرميا الذي لُقب بالنبي البكاء، ولكن ذلك لم يكن كما جاء في تلك النبوءة المزعومة لقرآنكم.

- رغم كل التبديل الذي طرأ على كتبكم، إلا أن بقايا تلك النبوءة لا تزال ماثلة فيها إلى الآن. وأنا لن ألجأ هنا لاستعراض تحذيرات الأنبياء فهي أكبر من أن تعد وتحصى، ولكنني سأستعرض ما بقي من نبوءة موسى عليه السلام نفسه<sup>(٢)</sup>، مما يتوافق مع النص الأصلي لها في القرآن:

في الإسراء: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدَنَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤]،

وفي سفر التثنية: " وقال الرب لموسى: ما إن تموت وتلحق بآبائك ... حالما أدخلهم إلى الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً، ...، فيأكلون ويشبعون ويسمنون، فإنهم يسعون

(١) بحسبة ارتجالية، بلغت نسبة الإصحاحات التي تطرقت إلى ذلك في التوراة ما يقارب الثلث.

(٢) في الإصحاحات من ٢٨-٣١ من سفر التثنية. ويتفق جميع الدارسين على أن هذا السفر هو أوفر الأسفار الخمسة خطأً من جهة النسبة إلى موسى عليه السلام، ويؤكد البعض أنه السفر الوحيد له.

وراء آلهة أخرى، ويعبدونها ويذرون بي، وينكثون عهدي. فيحتدم غضبي عليهم في ذلك اليوم، وأنبذهم وأحجب وجهي عنهم، فيكونوا فريسة، ... فمتى حلت بهم شرور كثيرة، ومصائب جمة، يشهد هذا النشيد عليهم، لأنه سيظل يتردد على أفواه ذريتهم، إذ إنني عالم بخواطرهم التي تدور بخلدهم الآن، قبل أن أدخلهم إلى الأرض كما أقسمت" (٢١: ١٦-٢١).

في الإسراء: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾ [الإسراء: ٥٠]،

وفي التثنية: "ويجلب الرب عليكم أمة من بعيد، من أقصى الأرض، فتنقض عليكم كالنسر، ٥٠: أمة يثير منظرها الرعب، لا تهاب الشيخ ولا ترأف بالطفل، ٥١: فتستولي على نتاج بهائمكم، وتلتهم غلات أرضكم حتى تفنوا، ولا تبق لك قمحاً ولا خمراً ولا زيتاً، ... حتى تفنيك، ٥٢: وتحاصركم في جميع مدنكم، حتى تهدم أسواركم الشامخة الحصينة، التي وثقت بمناعتها، ...، ٥٨: فإن لم تحرصوا على العمل بجميع كلمات هذه الشريعة المكتوبة في هذا الكتاب، ٥٩: فإن الرب يجعل الضربات النازلة بكم وبذريتكم، ضربات مخيفة وكوارث رهيبة دائمة، ...، ٦٣: وكما سر الرب بكم، فأحسن إليكم وكثركم، فإنه سيسر بأن يفضيكم ويهلككم فتستأصلون من الأرض التي أنتم ماضون إلى امتلاكها، ٦٤: ويشتتكم الرب بين جميع الأمم، من أقصى الأرض إلى أقصاها، ...، ٦٥: ولا تجدون بين تلك الأمم اطمئناناً، ولا مقراً لقدم، بل يعطيكم الرب قلباً هلعاً، وعيوناً أوهنها الترقب، ونفوساً يائسة ( الذلة والمسكنة بين الأمم)، ٦٦: وتعيشون حياة مفعمة بالتوتر، مليئة بالرعب ليلاً ونهاراً" (٢٨: ٤٩-٦٥).

في الإسراء: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَجْعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ [الإسراء: ٦٠]،

وفي التنثية: " ويعيدكم إلى الأرض التي امتلكها آباؤكم فتمتلكونها، ويحسن إليكم ويكثركم أكثر من آباتكم" (٥: ٣٠)، وأيضا: " ويحول الرب إلهكم كل هذه اللعنات على أعدائكم، وعلى مبغضيكم الذين طردوكم" (٧: ٣٠).

في الإسراء: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧].

وفي التنثية: " وإن أطعتم صوت الرب طاعة تامة، حرصاً منكم على تنفيذ جميع وصاياها فإن الرب إلهكم يجعلكم أسمى من جميع أمم الأرض. وإذا سمعتم لصوت الرب إلهكم، فإن جميع هذه البركات تنسكب عليكم وتلازمكم" (٢٨: ١، ٢).

في الإسراء: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (الآية السابعة أيضاً)،

وفي التنثية: " ولكن إن عصيتم صوت الرب إلهكم، ولم تحرصوا على العمل بجميع وصاياها وفرائضه، التي أنا أمركم اليوم بها، فإن جميع هذه اللعنات تحل بكم وتلازمكم" (٢٨: ١٥)، وكذلك: "ها أنا أشهد عليكم اليوم السماء والأرض، قد وضعت أمامكم الحياة والموت، البركة واللعنة، فاختاروا الحياة لتحياوا أنتم ونسلكم" (٣٠: ١٩).

في الإسراء: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤].

وفي التنثية: " وعندما تحل بكم هذه البركات واللعنات كلها التي وضعتها نصب أعينكم، ورددتموها في قلوبكم بين الأمم، حيث شتتكم الرب إلهكم، ٢: ورجعتم إلى الرب إلهكم أنتم وبنوكم، ... ٢: فإن الرب إلهكم يرد سبيكم ويرحمكم، ويلم شتانكم من بين جميع الشعوب التي نفاكم الرب إلهكم إليها" (٣٠: ١-٣)، وأيضا: "اجمعوا إلي جميع شيوخ أسباطكم وعرفائكم (النقباء)، لأتلو على مسامعهم هذه الكلمات، وأشهد عليهم السماء والأرض، ٢٩: لأنني واثق أنكم بعد موتي، تفسدون وتضلون عن الطريق الذي أوصيتكم بها، فيصيبكم الشر في آخر الأيام، لأنكم تقترفون الشر أمام الرب" (٢٩، ٢٨: ٣١).





في بعض الأمور في اليهودية، ولكن حسب مثالك نفسه فإن اعتقادي هو أن الإسلام مجرد تزوير رسالة على لسان الرب، وليتكم اكتفيتم بذلك؛ لكنكم لفقتم كماً من الأكاذيب عن رسالته الحقيقية، ووصل بكم الغرور إلى ادعاء أنكم أصبحتم خبراء في تفسير نصوصها. يبدو أنه على المرء أن يتسلح بحبتين "باندول" قبل النقاش مع مسلم، فقد أصابني الصُداق بعد كل تلك التفاهات التي سمعتها منك.

ثم استدرك قائلاً بأدب مصطنع:

- اعذرني أرجوك، فقد تأخر الوقت وحن موعد نومي. أتمنى لك ليلة هادئة.

أطفأ أبراهام الأنوار في غرفته وأخذ يذرعهما جيئةً وذهاباً، والحنق يملأ نفسه من هول ما سمع.

- أنا أستحق هذا: فأنا من أنزل نفسه إلى ذلك المستوى الوضعي بتحدثي مع غويم في مثل هذه الأمور المقدسة، مفسحاً المجال له بالتجديف على الرب وشعبه ودينه. يا للذل والهوان، يا للعار الذي كللني من قمة رأسي حتى أخمص قدمي. ثم أضاء الأنوار وأخذ يحزم أغراضه بعصبية، ولكنه ما لبث أن توقف، ثم أطفأ الأنوار ثانية، وتهاوى على السرير واضعاً الوسادة على وجهه ليغرق في ظلام دامس. لم يعرف أبراهام كم بقي على هذه الحال، ولا كم هي الساعة الآن، ولكنه قام وفي ذهنه موضوع واحد فقط... التدخين.

لم يكن أبراهام مدخناً، بل كان يمقت المدخين، حتى عندما رغب في التدخين في فترة المراهقة لم يستطع أخذ نفس واحد دون أن يسعل بشدة، وهو ما سبب له حرجاً بالغاً بين أقرانه، فتركه مقتنعاً بعدم صلاحيته له. ولكنه الآن يريد فقط أن يدخن. ذهب إلى أحد محال الـ٢٤ ساعة، واشترى علبة سجائر وقداحة، ثم جلس على مقعد في موقف للحافلات، وأشعل لفاقة تبغ، نافثاً الدخان من فمه قبل أن يصل إلى

بلعومه، وما إن انتهى منها حتى أشعل لفاقة ثانية، ثم الثالثة، ورابعة وخامسة. وعندما عزم على العودة لاحظ وجود ثلاث لفائف فقط من أصل عشرين كانت بها، فعاد واشترى علبة أخرى، في طريق عودته.

في المنزل، استلقى على سريره وأخذ ينفث الدخان محاولاً تشكيل دوائر كالتي كان يرى أقرانه في الصغر يتبارون فيها، وعندما نجح في تشكيل أول دائرة، ارتسمت على وجهه ابتسامة نصر، ثم وقف مقابل المرآة ينظر بصيانية ساذجة كيف يدخن، ويتظاهر بأنه يبلع الدخان كالمدخنين المحترفين، ثم عاد ليستلقي على السرير، مشعلاً لفاقة تلو الأخرى وهو يفكر بأحداث تلك الليلة، وبقي على هذه الحال حتى غالبه النعاس فأطفأ اللفاقة التي بيده واستسلم لنوم عميق.

قام أبراهام متثاقلاً وشرب الماء المتبقي في الكأس الذي على طاولته، ثم أشعل لفاقة تبغ وأخذ نفساً عميقاً، ولبالغ دهشته كان يبتلع الدخان هذه المرة! وعندها سمع طرقاً على الباب فقال بعفوية:

- تفضل.

- صباح الخير.

قال أحمد وهو يدخل الغرفة، ولكنه ما لبث أن توقف عندما لاحظ الملابس المتناثرة بين الحقيبتين، فتراجع قليلاً بحركة لا إرادية بحيث لم يعد يرى ذلك القسم من الغرفة، وتابع كلامه كأنه لم يره أصلاً:

- هل تعلم أن الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر؟!

- صباح الخير.

قال أبراهام متلعثماً وهو يتساءل في نفسه أيكون أحمد قد انتبه للحقائب؟ ولكن شكوكه بذلك تبددت عندما قال أحمد بلهجة طبيعية:

- جئتُ أذكرك بموعدنا مع مالكة الشقة .
- آه، طبعاً . ولكن أمهلني حتى أرتب غرفتي وأغتسل سريعاً .
- خذ وقتك كاملاً .
- شكراً .
- غريبة . لم أكن أعرف أنك تدخن .
- أحياناً فقط، وليس بشكل مستمر .
- يبدو أنه في الأحيان التي تدخن فيها، تُعَوِّضُ عن كل الفترات السابقة التي قضيتها دون تدخين!
- قال أحمد وهو ينظر إلى صحن فنجان القهوة، الذي امتلأ عن آخره بأعقاب السجائر، فابتسم أبراهام بخجل، ولم ينبس ببنت شفة . انتظر أحمد جوابه هنيهة، ثم ما لبث أن غادر قائلاً:
- أعلمني حين تكون جاهزاً .
- أخذ أبراهام بإعادة ملابسه إلى الخزانة بسرعة ثم رتب الغرفة، ورمى بأعقاب لفافات التبغ، بالإضافة إلى الأربع لفافات المتبقية والولاعة في سلة المهملات، وفتح النافذة لتهوئة الغرفة، ثم أخذ منشفته وتوجه نحو الحمام، فخلع ملابسه وفتح صنوبر المياه على آخره، ووقف تحت المرذاذ دون أن يحرك ساكناً، فيما كانت الأسئلة تعصف برأسه:
- لماذا غضبت من أحمد؟ ألسنت أنا من حثه على التعبير عن رأيه بديني بصراحة، ألسنت أتوق شوقاً لمواصلة الحديث معه عن ذلك؟! لماذا كان كلامه عن ديني منطقياً ومؤدباً، في حين كان كلامي عن دينه هجوماً ووقحاً؟! فواقع حال الفرق اليهودية التي عرفتها لا يوحي بتاتاَ بأن اليهودية لا تزال موطن الحقيقة، خاصة بعد إدراكي لمدى

التشابك بين الدين والإلحاد لديها، والذي لم ينج من بعض شظاياها حتى الأرثوذكس أنفسهم؟ لماذا بدأت بحزم أمتعتي، رغم عدم استكمال الفائدة التي كنت أرجوها من وراء بقائي؟ لماذا دَخنت؟ لماذا التزم أحمد الصمت عن تجاوزاتي الصببانية دون أن يعاتبني؟ لماذا يفوقني نبلاً مع أنه غوييم مسلم؟ لماذا يبدو منطقته كأنه الحق بعينه، مع أنه يستند فيه إلى دين باطل؟؟؟؟!!!

تذكر حديث هافا عنه، فوجد نفسه متفقاً معها تماماً. فقال متهدداً:  
- ليته كان يهودياً.

## ﴿ امرأة من زمن آخر

للوهلة الأولى بدت السيدة "سارة تيتلباوم" لأبراهام في أواخر الستينيات من العمر، إلا أن صوتها وحيويتها وخفة حركتها، ما لبثوا أن تكفلوا بإعادة تقييمه لعمرها، مقدراً أنه أقل بعشر سنوات على الأقل، وأن ظروفها بالغة القسوة، لا بد قد مرت بها، وتركت آثاراً على محياها. كانت تتحدث مع أحمد بحنان بالغ كأنه أحد أبنائها، وعاملته هو أيضاً بكثير من اللطف والكرم، مرحبة بمشاركته في الشقة، وموصية أحمد أن يعتني به جيداً. وقد شجعه كل ذلك على التقرب منها، خاصة أنها كانت تذكره بجدته في كثير من حركاتها، وهو ما ولد لديه شعوراً بالارتياح. وعندما ودعها، كان مصمماً على انتهاز أقرب فرصة لزيارتها والتبسط معها في الحديث. وقد أتت الفرصة على طبق من فضة، ومن جهتها هي: فقد اتصلت به بعد يومين لتدعوه إلى تناول طعام الاحتفال بيوم السبت عندها في جو أسري يهودي. وبالطبع لم يتردد أبراهام للحظة واحدة في قبول الدعوة والترحيب بها. كانت السيدة تيتلباوم أرملة وأماً لثلاثة أبناء وبنت واحدة، يعيشون في مدن مختلفة، وقلما تسمح ظروفهم بزيارتها، مما جعلها تشعر بالوحدة والملل، خاصة أن حياتها كانت في السابق مليئة بالمسؤولية والمشاركة؛ فقد كان زوجها حريدياً متمرداً على الحكومة، ولذلك لم يكن يحصل على أي إعانة منها. وكان شأنه كشأن الكثير من الحريديم الذين تعمل زوجاتهم كي يتفرغوا لدراسة التوراة بدوام كامل، فضلاً عن أنه كثيراً ما كان يُعتقل، فتقوم هي ببعض مهامه التنظيمية، بالإضافة إلى عملها مدرسة<sup>(١)</sup>.

(١) إن حاخامات الحريديم لا يجذون الدراسات الأكاديمية حتى للرجال فضلاً عن النساء، إذ إنها تفتح الباب أمام التفاعل مع المجتمع المفتوح. وأقلية فقط من أفراد هذه الطائفة ينالون الشهادات الجامعية، لذا فإن الوظائف في مجال التعليم، والتي لا يتطلب معظمها شهادات جامعية، أصبحت تقليدياً وظيفة شعبية تدعم من خلالها نساء الحريدم عائلتهن.

ومسؤولية تربية الأولاد. وكانت قد اعتادت على ذلك المزيج من الإثارة والمعاناة اللذين طَبعا حياتها، وسعدت به.

بعد وفاة زوجها فقدت السيدة تيتلباوم سيطرتها على أبنائها الذين رضخوا للدعاية الصهيونية وتساهلها، بعد طول ملل من تشدد أبيهم وتزمتهم، فترك الأولاد المدارس الدينية التي كان يصر والدهم على أهميتها البالغة في حياة كل يهودي، والتحقوا بالجيش كي يتمكنوا من العمل لاحقاً<sup>(١)</sup> وشق طريقهم باستقلالية في المجتمع الإسرائيلي المتفتح بعيداً عن مجتمعهم المغلق. كما رحلت ابنتها "راحيل"<sup>(٢)</sup> للدراسة في "معهد لوستيغ"<sup>(٣)</sup> في "رامات جان" كي تحصل على شهادة أكاديمية في أحد المجالات غير التقليدية، وتحديدًا في "الهاي تك"<sup>(٤)</sup>، ولكن ليس بنية مساعدة زوجها المستقبلي على التفرغ لدراسة التوراة، بل من أجل العمل خارج مجتمع الحريديم، حيث الأجور أكثر ارتفاعاً، وسيطرة الحاخامات أقل إحكاماً، خاصة أنها كانت غير راضية عن الوضع المتشدد تجاه المرأة بجالييتها، ولطالما انتقدت مقولات بعض الحاخامات التي اعتبرتها مُجحفة بحق المرأة<sup>(٥)</sup> مما دفعها إلى محاولة تغيير واقعها ككثير النساء

(١) حسب النظام المعمول به في الكيان الصهيوني، فعلى جميع طلبة المدارس الدينية (الحريديم) أن يفروا بأن "التوراة هي مهنتهم"، كي يتم إعفاؤهم من الخدمة العسكرية. وهم يحتاجون إلى تكرار هذا الإقرار من وقت لآخر حتى يظل إعفاؤهم من الخدمة ساري المفعول. ولكن في مقابل ذلك يحظر عليهم العمل ويحرمون الكثير من الحقوق التي تقتصر عادة على من أدى الخدمة العسكرية.

(٢) اسم عبري آرامي بمعنى النعجة الصغيرة، ويقابلها في اللغة العربية الفصحى رجلة أو راخلة بالمعنى نفسه.  
(٣) وهو جزء من كلية القدس للتكنولوجيا. فتح أبوابه في العام ١٩٩٩ بوجود نحو ٣٠ امرأة شابة، وهو اليوم يضم ٤٥٠ امرأة من الحريديم، معظمهن متزوجات من رجال يدرسون في المدارس الدينية.

(٤) التكنولوجيا العالية. حيث بدأ اقتصاد الكيان الصهيوني في السنوات الأخيرة في الاعتماد على الفرصة السانحة في ثورة التقنية العالية. وانجبه الحريديم أيضاً إلى هذه الصناعة المربحة، فجددوا نساءهم في المصانع. ويوجد اليوم ما لا يقل عن ١٧ ألف عاملة من النساء اليهوديات المتدينات في قطاع هذه الصناعة المتطورة، ويقول أصحاب العمل إن هؤلاء النساء بالذات متميزات في الإلتقان وفي الإخلاص.

(٥) مثل: "المرأة ليست أهلاً لدراسة التوراة"، و"مكان النساء كومة القاذورات مع البهائم والعبيد".

الحريديات، اللاتي صرن يطالبن حالياً بـ"حقوق الإنسان"، و"الحرية"، و"منع التمييز على أساس الجنس". وهي ما تُعتبر في نظر الحاخامات المتشددين تعابير "علمانية عدائية"، وتصنف من المحرمات، ويُعد من يلجأ إليها خائئاً.

عبثاً حاولت السيدة تيتلباوم إعادة أبنائها إلى مبادئ والدهم، التي ظلت وحدها وافية لها، وعبثاً حاولت جمع شمل أسرتها المبعثرة، مما ولد لديها شعوراً بالإحباط والكآبة، زاد من حدته رتابة حياتها التي فقدت معناها. ومع أنها وجدت بعض العزاء في شخص أحمد الذي كانت تعامله كابنها، إلا أن كونه غوييم كان يكبح الكثير من مشاعرها الفياضة تجاهه، لذا فقد سعدت كثيراً بزميله اليهودي الجديد، وحاولت أن تُعوض به عن مرارة هجران أولادها لها.

كان السبت، بالنسبة إليها، كباقي اليهود المتدينين، أكثر بكثير من يوم راحة؛ فهو يوم إنعاش ديني واجتماعي وفكري، وكذلك إنعاش جسدي للقيام بواجب الامتثال للإرادة الإلهية. فقد كان السبت بمنزلة منحة في الزمن وفرصة للتجديد وشحن للطاقة. كانت مقتنعة أن الالتزام بيوم السبت كان سبباً رئيسياً في الحفاظ على اليهود عبر القرون بالرغم من المصاعب الكثيرة التي واجهوها؛ إذ إن الالتزام بالسبت في حد ذاته علامة العهد بين الرب وبني إسرائيل كما جاء في التوراة. (الخروج ١٦: ١٧-٢١).

تذكرت كيف كانت تهيئ وجبات الطعام اليومية في نهار الجمعة، وكيف كان كل فرد من أفراد الأسرة يلبس أفخر ثيابه المريحة بعد أن يغتسل، ثم تُضاء الشموع في البيت قبل غروب الشمس مع أداء صلاة الاعتراف بقدسية اليوم. وبعد ذلك يتوجه زوجها وأبناؤها إلى السيماغوغ، وعند عودتهم يتم تناول وجبة طعام دسمة يُدعى لها أعضاء الأسرة الممتدة والضيوف. وكيف كانت تعنى عناية خاصة بالخمير التي هي علامة لفضل الرب وبركته، ثم يتلو زوجها دعاء خاصاً عليها، يبين فيه قداسة السبت،

قبل أن يرتل دعاء البركة على رغيبي "الحالة"<sup>(١)</sup>. وكيف كانوا يذهبون كلهم في اليوم التالي (نهار السبت) للعبادة الجماعية في السيناغوغ، حيث تأخذ شعيرة صلاة يوم السبت وقتاً أطول من الصلاة اليومية العادية؛ لأن في الوقت متسعاً للقيام بالصلاة والدراسة. وهناك يتم ترتيل ومناقشة القراءة الأسبوعية من لفائف التوراة التقليدية، وتضاف صلاة نافلة للعبادة الصباحية، ثم يعودون بعد ذلك إلى البيت لتناول وجبة دسمة أخرى وللراحة بعد الزوال. وفي العصر تقام الصلاة المتأخرة التي تشتمل على قراءة قصيرة من التوراة، وتحتوي هذه المرة على الجزء الذي سيتم ترتيله في السبت المقبل، ليتم بناء جسر بين يوم السبت والسبت الذي يليه. وبعد هذا يتم تناول وجبة أخرى مصاحبة بالأناشيد والدعاء والابتهاج، وتبدأ صلاة المساء بعد ظهور ثلاثة نجوم في السماء معلنة انتهاء يوم السبت، وبداية يوم جديد.

كانت تتذكر تلك الأيام بحسرة، كلما أعدت طعام السبت لشخص واحد؛ فهي لم تكن تتمتع بعلاقات اجتماعية جيدة مع جيرانها، خاصة بعد أن عانت هي وزوجها وأبنائها الكثير من مضايقاتهم ووشاياتهم في الماضي، سواء العلمانيون منهم أو حتى من المتدينين الصهاينة. أما هذه المرة فهي تعد الطعام لشخصين، وبدا أن هذا السبت قد يستعيد شيئاً من رونقه وبهجته، فقد انشرح قلبها لأبراهام، وقدّرت من حديثه أنه يهودي حقيقي وليس مؤيداً للهرطقة الصهيونية، بل حسيدي، وربما كان أيضاً من الساتمريم، أو حتى الناطوري كارتا على أقل تقدير<sup>(٢)</sup>.

(١) خبز دسم خاص يذكر اليهود بفضل الله ورزقه لبني إسرائيل في صحراء سيناء.

(٢) توجد وحدة حال بين فرق الحريديم المعادين للصهيونية مثل الساتمريم، والناطوري، و "ذرية أهارون"، و "المدرسة الدينية" التابعة لتلاميذ "دوشنسكي"، وقسم من جماعة "المقدسنيين: هيروشلميم" وكان الحاخام "يواليش طايبليوم" (أدمور الساتمريم الراحل) هو الزعيم الروحي لكل الطوائف الحريدية بما فيها حركة ناطوري كارتا، التي تحصل على مساعدات مالية من الساتمريم.



- جلس أبراهام بدوره سعيداً بعد تناول وجبة حقيقية دسمة أعدت حسب أدق تفاصيل الكشروت، وفي جو عائلي مميز. كان يشعر أنه يجلس مع جدته، بل كاد يجزم أن روحها حاضرة في ذلك المكان.
- إذن أنت من الناطوري كارتا.
- قالت السيدة تيتلباوم مبتسمة.
- ظهر الاحراج على وجه أبراهام وقال متلعثماً:
- في الحقيقة ... ليس تماماً.
- ماذا تعني؟
- أعني أنني لا أعد نفسي جديراً بهذا اللقب فأنا يهودي عادي.
- قال أبراهام ذلك ليتهرب من إعادة شرح ما قد مل منه.
- يالتواضعك! فلو لم أكن أعرفك لظننتك حاخاماً؛ فقلما تجد يهوداً ملمين بدقائق الطقوس اليهودية مثلك.
- ولكن كيف عرفت بمذهبي؟
- لم أحتج إلى كثير من الذكاء في ذلك؛ فيبدو جلياً أنك لست منا معشر الساتمريم، ومادمت أرثوذكسياً متديناً وضد الهرطقة، فالأرجح أنك من ناطوري كارتا.
- لماذا تعتقدين أن الصهيونية هرطقة، سيدتي؟
- لأنها عقيدة وإيديولوجية شيطانية، ولأنها أعظم الشرور خطراً في هذا العصر وأكثرها ضرراً وسوءاً على اليهود؛ فكل المآسي والكوارث التي حلت باليهود في عصرنا هذا سببها الصهاينة ووسائلهم الشريرة، فما قام به النازيون كان بسببهم بعد أن خالفوا أوامر الرب وثاروا على الأمم، وإن أعمالهم هي التي أعطت الوسائل للذين ظلموهم. كما أن إنشاء دولتهم المزعومة في أرض إسرائيل كان معوقاً لظهور المخلص، ومؤخراً له، ولولا ظهور الدولة لكان المخلص قد ظهر على الأرجح.

- ولكن هناك من يقول إن قيام الدولة هو تعجيل لقدوم المخلص ومقدمة للخلاص، وليس العكس!

- هراء. إن إنشاء الدولة اليهودية الحقيقية هي مسؤولية المسيح المخلص، فهو الذي يُنشئها ويقوم على شؤونها ويحكمها. وكل دولة تنشأ باسم اليهود وتقوم قبل العصر المشيخاني هي دولة مزيفة وفاقدة للشرعية حتى لو كان القائمون عليها ملتزمين بالشرعية اليهودية، والتاريخ يشهد بذلك: "فحكومة باركوخبا"<sup>(١)</sup> فشلت مع أنها كانت ملتزمة بالشرعية اليهودية ومطبقة لها، وكانت تحث اليهود على التمسك بها، ومع ذلك فقد جرت على اليهود الدمار والويلات لأنهم كانوا يحاولون تعجيل الخلاص. وكذلك زعماء إسرائيل الذين ولو كانوا من أكثر اليهود تديناً وأشدهم التزاماً بوصايا التوراة وأحرصهم على تطبيقها، فإن دولتهم ستظل دولة فاقدة للشرعية، فما بالك وهم ملحدون كفرة؟! إن دولتهم ليست بداية خلاص بالتأكيد. وأنا لا أحب مخالطة من يعتقد ذلك حتى لو بقيت وحدي إلى الممات.

- هل تتمنين زوال هذه الدولة؟

- دون شك، وذلك من أجل أن تقوم على أنقاضها دولة المسيح المخلص. ولكن لا بد أن يكون ذلك الزوال بضربة إلهية، وليس من قبل الشعوب الأخرى: إذ لو حصل ذلك، لا قدر الرب، فإن الخطر سيكون عظيماً على كل اليهود.

- لكن ألا ترين معي أن انتصارات إسرائيل المتتالية تُعد معجزة إلهية، وبالذات في

حرب الـ٦٧؟

- تلك الحرب لم تكن انتصاراً لإسرائيل، إنما إغراء من الشيطان واختبار من الرب لليهودي المؤمن؛ فالشيطان يحاول بقوة أن يمنع خلاصنا وإنقاذ أرواحنا بظهور المخلص،

(١) باركوخبا هو الذي ثار على الرومان في فلسطين في القرن الثالث الميلادي وسيطر على بعض أجزائها لثلاث سنوات.

عن طريق وهم المعجزة والخلاص حتى يخدع اليهود ليؤيدوا الصهاينة والهرطقة الذين جاؤوا للقضاء على التوراة بمجملها. ولا تنس كمية الأسلحة والنقود التي ضُخت إلى إسرائيل من قبل الغرب المسيحي لتصفية حساباته مع الشرق الإسلامي. الغرب المتقدم كله كان وراء إسرائيل ضد حفنة من العرب المتخلفين، ففي باريس وحدها خرج المثقفون الفرنسيون بمظاهرات قبل حرب سنة ١٩٦٧ يحملون لافتات كتب عليها وعلى جميع صناديق التبرعات لإسرائيل جملة واحدة: "قاتلوا المسلمين" (١) فالتهب الحماس الصليبي الغربي، وتبرع الفرنسيون بألف مليون فرنك خلال أربعة أيام فقط!!! كما طبعت إسرائيل بطاقات معايدة كتب عليها "هزيمة الهلال" بيعت بالملايين.

هز أبراهام رأسه موافقاً، ولكنه تابع طرح وجهة النظر المقابلة كي يسمع حججها التي راقت له كثيراً:

- وماذا تقولين في الكثير من الحاخامات الحريديم اللذين أيدوا الحرب واعتبروها مقدسة من وجهة نظر دينية.

- إن عمل "أنبياء الزور" هؤلاء يجب أن يقارن بعمل "أنبياء البعل" أيام الهيكل اليهودي، بل إنهم أسوأ منهم. إن التوراة تأمرنا ألا نَقرب أنبياء الزور، وألا نسمع كذبهم وتلفيقهم ولو كان كلامهم له علاقة بالفرائض، ولو كان كلامهم في خدمة الخالق: لأن من أوامر التوراة ألا نسمع لأنبياء الكذب حتى لو كان الهدف نبياً. إن الاستماع إلى ما يقولونه حرام؛ فهم يعطون تبريراً من التوراة التي يحرفون معانيها لتتفق مع أفكارهم الباطلة، فعموا على أعين اليهود البسطاء الذين يتعبدون بالتوراة، ليصدقوا بأن التوراة تتفق مع آرائهم والطرائق الخبيثة لزعمائهم. وقد سمعتمهم يدعون بأن تلك الحرب إنما كانت واجبة طبقاً لتعاليم التوراة، وكانوا يحثون الجنود عليها، ويُفهمونهم بأنها "حرب

(١) حتى الليبراليون اليساريون مثل "جان سارتر" ساروا تحت هذه اللافتات.

مقدسة"<sup>(١)</sup> وأنها واجبة، ويعطونهم تبريرات كاذبة باسم التوراة. من الواضح أنهم هم من يجب أن يُلام ويُعنف على ضياع آلاف الجنود اليهود في تلك الحرب، التي كانت عملاً مخالفاً لتعاليم التوراة ومناقضاً لها، والأدلة على ذلك كثيرة.

- هل لك أن تذكر بعضهما؟

- من الواضح لكل إنسان حقيقة أن الصراع وأصل المشكلة وخطر الحرب إنما هو نتيجة لإنشاء الدولة الصهيونية؛ إذ إن الدولة الصهيونية قد أثارَت العرب بعدة طرائق. وإنه من الطبيعي أن الصهاينة لو لم يُصروا على إنشاء دولة تُحكم من قبل الأشرار، لما كانت هناك حرب. وهي دولة لم يكن لها حاجة، ولم ينتفع منها اليهود، حيث سببت تدمير الدين واستتصال التوراة، بل لما كانت هناك حاجة لجعل حياة اليهود في خطر بواسطة تهديد الحرب. ومما لا شك فيه أن التوراة لا تُجيز قتل اليهودي حتى لو كان ذلك مقابل الدولة الصهيونية برمتها. ومع أن هؤلاء الأشرار يريدون بقاء الدولة، والعالم معهم كذلك على رأيهم الخاطئ هذا، فإن رأي التوراة لن يتغير تجاه الحق. إن الإنسان لتصيبه الدهشة والعجب الشديد عندما يسمع يهوداً يعتبرون أنفسهم متدينين يؤيدون هؤلاء الكفار والهرطقة باسم التوراة!!! إن هؤلاء أيدوا الصهاينة في دخولهم الحرب بتبؤات كاذبة، وأخبروا الصهاينة بأنهم سينتصرون من خلال قوة التوراة. لقد غشّوهم عندما قالوا لهم إن تلك الحرب كانت حرباً مقدسة، فالتوراة توجب علينا العمل بكل ما في وسعنا من أجل السلام والابتعاد عن الحرب، ولكن هؤلاء الأشرار الصهاينة يعملون على التقيض، ويحاربون الشعوب الأخرى بشكل مستمر. وهم من أجل أن يخدعوا البسطاء الملتزمين بالشرعية، يستخدمون الصهاينة المتدينين الذين

(١) إن "صهينة اليهودية" في هذه النقطة أيضاً هي شبيهة بـ"صلبنة المسيحية" سابقاً؛ فما ميز الحروب الصليبية عن غيرها هو قسوتها وفظائعها الفريدة، باعتبار أنها "حروب مقدسة". فأى تردد في تطبيق نصوص الحرب المقدسة، وأي شفقة تجاه الأعداء "الكفرة" كان من شأنه أن يدنس شعب الله المختار الجديد ويسحب الدعم الإلهي منه.

يلبسون ثوب الأوثوكسية الدينية، ويُحرفون التوراة ويجعلونها سخرية، حيث يؤولونها بشكل كاذب ليثبتوا أن التوراة تتفق وآراء هؤلاء الهراطقة القتلة، قاتلهم الرب.

- لكن تلك الحرب فرضت على اليهود فرضاً.

- هذه حجة واهية لا تستحق حتى النقاش، إذ إنهم كانوا مصممين على الحرب، وأخذُ القرار عنها كان بيد هؤلاء الزعماء الكفار الذين لا يرون لحياة اليهودي أي قيمة؛ بل إنهم عرّضوا حياة كل يهودي للخطر من أجل المحافظة على حكومتهم. إنهم مستعدون للقضاء على أكثر اليهود من أجل أن يحققوا هدف حكومتهم ودولتهم الملعونة. إن السماء لتنفطر من مراوغتهم وخداعهم ووقاحتهم العلنية التي هي أوضح من الشمس للناس. إن الذي يجعل التوراة تتفق مع آراء الكفار هو كافر مثلهم ولو كان لابساً ثياب الحاخامات، ولو كان رئيس الحاخامات نفسه. إن تبريرهم حرب الـ٦٧ بأنها كانت من أجل الدفاع عن النفس لأن العدو قد هددهم بالقضاء عليهم هو تبرير غير منطقي.

- أوضحني من فضلك.

- حسناً، من المعروف أن تهديدات العرب ليست جديدة ولا جدية، وكانوا قد هددوا دون حساب طوال السنين السابقة للحرب، فلم أخذوا تهديدهم على محمل الجد فجأة؟ ألم يخافوهم آنذاك، ولماذا لم يخافوهم في السنين الماضية قبل أن يستكملوا شروط تفوقهم؟! بل إنه كان بإمكانهم أن يجتمعوا معهم في السابق حول اتفاق سلام، ويمتنعوا عن إثارتهم إذا كانوا حقيقة خائفين منهم. إنه ليس هناك ذرة صدق في قولهم في أنهم قلقون وخائفون من التهديد، وإن تبريرهم المبني على الدفاع عن النفس ضد تهديد العرب إنما هو من أجل خداع الناس؛ والواقع أنهم لم يخافوا العرب، بل سخروا منهم. وإلى اليوم، فإن هؤلاء يتنازعون مع العرب ويستفزونهم، ويخوضون الحرب تلو الحرب، معرضين حياة آلاف اليهود في العالم للخطر. وحتى إن كان هؤلاء صالحين

فإنهم قد ارتكبوا ذنباً عظيماً بخوضهم الحروب ومخالفة الشريعة. فقد قال "موسى بن ميمون"<sup>(١)</sup>: "حتى لو قرر اليهود الدخول في الحرب في سبيل الرب فإنهم سيعاقبون عقاباً شديداً، إذا لم يأخذوا الموافقة الشرعية على ذلك". إذن كيف يكون عقاب الذين يندسون اسم الرب ويجتثون التوراة والدين اليهودي؟! إنهم لم يحققوا نصراً في حروبهم، ولكن الذي حدث هو أن الرب أنقذ شعبه المختار برحمته، وليس للصهاينة الأنداليد في ذلك، بل إنهم كانوا مسببين للخوف والفضوض. إنهم لم يخدموا اليهود بحربهم، ولقد كان أفضل لهم لو أنهم لم يبدؤوا النزاع ولم يدخلوا الحرب أصلاً. إن من يمدح هؤلاء ويمدح جيشهم، فإنه يُجذف على الرب دون أدنى شك.

(١) موسى بن ميمون هو فقيه يهودي أندلسي، ولد في قرطبة لأسرة من القضاة والعلماء اليهود. ومن الأفعال المأثورة بين اليهود قولهم: "لم يظهر رجل كموسى من أيام موسى إلا موسى" ومن أهم كتبه كتاب "السراج" وهو تفسير دقيق للمشناة. ومن كتبه الأخرى كتاب "مشنيه توراه" أي "تثنية التوراة" وهو الكتاب الوحيد الذي كتبه بالعبرية حتى يستطيع كل قضاة اليهود قراءته والاستفادة مما جاء فيه. وبالإضافة إلى فقهه، كان بارعاً في الطب والعلوم الرياضية والفلسفة.

## ﴿ يهود ضد الصهيونية ﴾

نظر أبراهام باعجاب إلى السيدة تيتلباوم وقال مبتسماً:

- يبدو أنكم (الساتمرم) ضد الحكومة بامتياز.

فرفعت رأسها بشموخ مؤكدة:

- طبعاً؛ فنحن لا نتعاون معها، ولا نؤدي قسم الولاء لها، ولا نشارك في انتخاباتها، ولا نحتكم إلى محاكمها، ولا نبحث عن وظائف فيها، بل لا نسعى حتى للحصول على جوازات سفر منها، كما أننا لا نصلي عند حائط المبكى ولا نذهب إليه. بل إن بعض المتشددين منا يكللون عيد "البوريم"<sup>(١)</sup> بحرق العلم الإسرائيلي، ويتظاهرون ضد إسرائيل في جميع أنحاء العالم، وبالذات أمام مبنى الأمم المتحدة حاملين لافتات يكتبون عليها عبارات مثل: "دولة إسرائيل لا تمثل اليهودية الأصيلة"، و"دولة إسرائيل تدنيس لعقيدة اليهود"، و"الصهيونية غسلت أدمغة اليهود". كما أنهم ينظمون اعتصامات بين فترة وأخرى أمام القنصلية الإسرائيلية في نيويورك ويقفون محتجين أحياناً أمام البيت الأبيض على الاضطهاد الديني في إسرائيل، وهم يطالبون كذلك بإيقاف إلغاء الشريعة اليهودية في إسرائيل وإلغاء تدنيس مدينة القدس بشكل متعمد.

اتسعت حدقتا أبراهام، وقال كمن تنبه للتو إلى أمر غاب عنه:

- كلامك يذكرني بآراء الحاخام "يوتيل تيتلباوم"<sup>(٢)</sup>، وقد لاحظت الآن أنك تحملين

اسم عائلته. فهل هناك صلة قرابة بينك وبينه؟

(١) عيد البوريم (عيد المسارح) هو ذكرى إنقاذ الجالية اليهودية في فارس من المخططات التي كان ينويها هامان وزير الملك حسب "سفر أستير".

(٢) يوتيل تيتلباوم كان زعيم الساتمرم الأكبر (توفي سنة ١٩٧٩). وكان من أكثر اليهود المتدينين كتابة وخطابة ضد الصهيونية وكيانها. ومن أوائل الذين عقدوا مؤتمراً (سنة ١٩٢٤) ضد الصهيونية مع حاخامين آخرين، وأغلب ما جاء على لسان لسيدة تيتلباوم في هذا الفصل (الموقف) مقتبس من خطبه وكتاباته، هو والأخوين بلاو واللذين سيأتي ذكرهما بعد قليل.

- لا أدعي هذا الشرف، فالأمر مجرد تشابه بالأسماء، إلا أن تلك المصادفة كانت من دواعي سرور الحاخام يوئيل تيتلباوم الذي كان يعتبر زوجي كابن له فعلاً، ولطالما زارنا.

- إذن كنتم قريبين منه فعلاً.

- أجل، وبالمناسبة فقد كان لزوجي معارف من قيادات الناطوري كارتا أيضاً.

- حقاً! من منهم؟

- كلهم تقريباً وأبرزهم الحاخام "عمرام بلاو"<sup>(١)</sup> الذي أصبح زعيمها عقب الانفصال عن أغودات إسرائيل. وأخوه "موشيه بلاو" الذي كان لفترة زعيماً لأغودات إسرائيل نفسها.

فتهد أبراهام بحسرة قائلاً:

- لا يزال يدهشني للآن انتقال أغودات إسرائيل من معسكر المناهضين للصهيونية إلى معسكر المرتمين تحت أقدامها.

- لقد قرأت مرة أنهم سعوا منذ البداية إلى عقد اتفاق مع الفلسطينيين بعدما رأوا معارضتهم الشديدة للاستيطان، فقامت "الهاجاناه"<sup>(٢)</sup> عام ١٩٢٤ باغتيال "يعقوب إسرائيل دي هان" أحد أبرز زعمائهم، فأجهضت المحاولة، وتوقفت المحادثات.

- لم أكن أعلم هذا، ولكن ذلك لا يبرر استسلامها للصهيانية.

- لقد كان لوصول المهاجرين الجدد من بولندا وألمانيا بعد صعود النازية في تلك الفترة، وحديثهم عن اضطهاد اليهود المستمر أثر كبير على توجه أغودات إسرائيل، فأخذت تميل إلى التعاون مع المؤسسات الصهيونية تدريجياً.

(١) وهو من مواليد القدس. توفي سنة ١٩٧٤.

(٢) الهاجاناة هي عصابة صهيونية مسلحة، كانت تحارب الفلسطينيين. وقد أصبحت الأساس للجيش الصهيوني بعد قيام الكيان.



- لقد كان ذلك خيانة للهدف الذي أنشئت من أجله أساساً .
- أجل . ولهذا رفضت مجموعتكم هذا التوجه، واستقلت بنفسها متخذة اسم "حبرت (جمعية) حاييم" ثم بعد فترة قصيرة اتخذت الاسم الحالي (ناطوري كارتا)، وأصدرت صحيفة "هاحوماه"<sup>(١)</sup> تدافع فيها عن موقفها، وتتقد الحركة الصهيونية وكذلك أغودات يسرائيل، وأذكر أنها كتبت ذات مرة في أحد أعدادها ما معناه: "إن أغودات يسرائيل أنشئت لتحارب الهرطقة (الصهيونية)، ولكنها اليوم أصبحت أخطر أعداء اليهود المتدينين"، وأنذرت من يتعاون معها بالمقاطعة، كما سحبت أبنائها من مدارسها .
- لقد قرأت عن كل هذا .
- أما أنا فعاصرته . ولا أزال أذكر الحاخام عمرام بلاو في أثناء الحرب العربية اليهودية يخرج إلى الشوارع ويقول لليهود: "لا تُغَرِّبكم زعامة الصهيونية التي ترفض التوراة، ولا تسمحوا لأولادكم وبناتكم أن يُذبحوا من أجل هذه الدولة الفوضوية . إننا مع السلام ومع العرب، وسنلجأ إلى الحكومة البريطانية لتخلصنا من هذه المحنة" .
- طيب الله ذكراه . كم كنت أود مقابلته<sup>(٢)</sup> .
- وفي اليوم الذي يسمى زوراً بـ"يوم الاستقلال"، كان الحاخام عمرام بلاو يخرج فيه لأبساً مسوحاً؛ فهو لم يفوت فرصة للتظاهر ضد الدولة الكافرة، والاحتجاج عليها والتشهير بها، وقد اعتقل بسبب ذلك مئة وثلاثاً وخمسين مرة . وقال مرة للقاضي عندما كان يحاكمه: "إنني أرغب في توضيح مسألة: وهي أن أورشليم مدينة دولية بالنسبة إلى منظمة الأمم المتحدة، ولا بد للمحكمة أن تحكم بقانون دولي، ولما كنت من سكان القدس فليس لكم الحق في أخذني إلى سجن يافا التي هي ضمن المنطقة التي يسمونها دولة إسرائيل" .

(١) "هاحوماه" تعني السور أو "الحمى" .

(٢) في عام ١٩٨١ حلت أرملته (روث) ضيفة على الشيعين الفلسطيني واللبناني بدعوة من القائد الراحل الشهيد خليل الوزير "أبو جهاد" وكانت تلبس الحجاب ولا تصافح باليد . وأتذكر أن نشر دار الكلمة كتابها "يهود لا صهيانية" باللغة العربية .

فعلق أبراهام سارحاً:

- لم تكن تنقصه لا الجرأة ولا الشجاعة.

- مطلقاً. فقد وضع على باب داره لوحة كتب عليها: "أنا يهودي ولست صهيونياً"

بالعربية والإنجليزية والعبرية.

- لقد تعلمنا مبادئه منذ الصغر، حيث كنا نرى بأن إسرائيل ليست دولة علمانية

فحسب، بل إنها تقوم كذلك على رفض الرب ورفض التوراة ورفض الشعب اليهودي:

لذا فهي دولة غير شرعية ومخالفة لمعتقدات الشريعة اليهودية. وكنا نردد دائماً أن

عمل الصهيونيين: "حمل على دنس، وولد على دنس". وكان الحاخام عمرام بلاو قد

كتب رسالة وجهها إلى العالم قبل وفاته بقليل وجعل عنوانها: "إلى الذين يؤمنون

بالعدالة"، وطلب توزيعها على الناس. وقد جاء في بعضها: "إن الشعب اليهودي يعارض

أي أذى للشعب العربي، وإن هذا الشعب لم يؤذ الشعب اليهودي قط إلى أن جاءت

القومية الصهيونية. إن التوراة توجب على الشعب اليهودي أن يعيش بسلام في البلدان

التي يعيش فيها، وألا يثور ضد أي دولة، خاصة إذا كان ذلك يتعلق بفلسطين، حيث

نحن ممنوعون أن نهاجر إليها بشكل جماعي".

- أذكر ذلك. وهو في هذا المقطع يشير إلى ما ذكره التلمود من أن اليهود عاهدوا

الرب على ثلاثة أشياء وهي: ألا يستعجلوا الخلاص، ولا يدخلوا فلسطين بالقوة، ولا

يثوروا على الشعوب التي يعيشون بينها. وقد جاء في رسالته أيضاً مقطع يتضمن

قراءة تنبؤية للمستقبل، جاء فيه: "إن أي شخص في العالم يؤمن بالعدالة لا بد أن

يتأكد بأن العالم كله سيصيبه الأذى إذا سمح للتجربة الصهيونية أن تستمر، لأن هذا

الأذى سيصيب الكثير من الأبرياء. وكل شخص عادل وعنده رحمة لا بد أن يقف ضد

الصهيونيين ويوقفهم"، وما تراه اليوم من قتل للأبرياء منذ نشوء الدولة الصهيونية

يؤكد ما تنبأ به هذا الحاخام، وما زلت أتوقع المزيد، لكن قدرنا مع هؤلاء العصاة

(الصهاينة) إنما هو بسبب ذنوبنا، وما علينا إلا أن نصلي وندعو الله لإنقاذنا من هذا القدر المشؤوم، وينجيننا منه.

- آمين.

قال أبراهام وهو ينظر إليها بمزيد من الاحترام والتوقير، ثم تابع مبدياً إعجابه:  
- يبدو أنك قد كنت متابعة واعية للأحداث، وأن تاريخك كان حافلاً بكل ما في

الكلمة من معنى؟

- أجل للأسف "كان"، أما الآن فأنا مجرد عجوز وحيدة لا تملك من الدنيا شيئاً.

- أتعرفين، مع أنك أصغر من جدتي كثيراً، إلا أنك شديدة الشبه بها.

- حقاً؟ يبدو أنها كانت جميلة جداً.

قالت مداعبة، فأجابها أبراهام موافقاً:

- تماماً. كما كانت مثلك أيضاً قوية وراجحة العقل، وكانت تحرك يديها في أثناء

الحديث كما تفعلين تماماً. وقد كنت أحبها كثيراً، وكنت الأثير عندها من بين كل أحفادها.

- وستكون الأثير عندي أيضاً.

- يبدو أنني قد حصلت للتو على جدة جديدة.

- ويبدو أنني قد حصلت على زوج لابنتي.

رددت السيدة تيتلباوم في قلبها: فقد كانت قلقة على جميع أبنائها ولكن قلقها

على صغيرتها راحيل كان يأخذ منحى آخر: فقد قاربت على التخرج، وإن نفذت ما

برأسها فسوف تلتحق بالجيش كباقي إخوتها، لتتخلص تماماً من مجتمع الحريديم

الذي ضاقت به ذرعاً. وكانت كلما قرأت بالصحف عن الفضائح الجنسية المخجلة التي

باتت أمراً اعتيادياً في الجيش الإسرائيلي، اعتصر قلبها حزناً على المصير المرعب

الذي ينتظر ابنتها الوحيدة.

توالت زيارات أبراهام للسيدة تيتلباوم، وكلما عرفته أكثر، ازدادت ثقته أنه هو بالذات فارس الأحلام الذي يمكن أن ينفذ ابنتها، ويعيدها إلى جادة الصواب. كانت ترى أن أبراهام يحظى بكل المواصفات التي تتمناها أي أم حريدية لابنتها من جهة الالتزام والتدين، وفي الوقت نفسه كان عصياً، وليس من أولئك المتزمتين ذوي الملابس السوداء والرائحة العفنة، كما يحلو لراحيل أن تصفهم.

شرعت السيدة تيتلباوم في تنفيذ المخطط الذي رسمته، فأخذت تقتنص الفرص لتعدد لأبراهام محاسن راحيل ومميزاتها، مثيرة حميته ضد الأفكار الصهيونية المضللة التي قد بدأت تؤثر عليها، والتي قد تأخذها جهة الحريديم المتعاشين مع الصهيونية. وفي الوقت نفسه صارت تُكثر من الاتصال بابنتها، ساعية بمختلف الطرائق إلى إثارة اهتمامها بالمستأجر الجديد، الذي صارت تعتبره من العائلة لكثرة خصاله الحميدة، وتعامله الراقي، دون أن تتسى الإشادة بوسامته ومظهره الأنيق، وأسلوبه العصري في الحياة. وبالفعل نجحت في إثارة اهتمام كل منهما بالآخر، وبدا أن خطتها تسير على أكمل وجه، وهو ما شجعها على الانتقال إلى المرحلة الثانية منها، لابعة على وتر الذكريات السعيدة، ومثيرة شوق ابنتها لحنانها السابق. وعندما أحست أن الظروف باتت مثالية للقاء الأول بينهما، ادعت المرض، وطلبت من ابنتها الحضور لعيادتها فوراً. جلست السيدة تيتلباوم إلى المائدة تنظر بطرف عينها، كيف يُظهر كل من راحيل وأبراهام انهماكهما بالطعام، وهما يسترقان النظرات خلسة، في محاولة لمطابقة الصورة التي رسمها كل منهما عن الآخر. وما أبلغ سعادتها حين لمحت ابتسامتيهما الخجولتين، عندما التقت نظراتهما معاً في إحدى المرات، فتناولت المملحة وأخذت ترش الملح على طبقها لتظهر انشغالها بأمر آخر؛ فكما توقعت اتجهت نظراتهما إليها بحركة لاشعورية في محاولة لاكتشاف أتكون قد انتبهت لما حدث؟ لكنهما اطمأنا إلى كونها غير عابئة بما يحصل حولها ولا تفكر إلا بتمليح طبقها. وقد كانا محقين

تماماً في ظنهما: ففي تلك اللحظة بالذات، كان طبق الطعام المبالغ في تملیحه، وكيف ستأكله، هو جل ما يشغل بالها .

- يا لها من عنيدة! فمع أنها مريضة إلا أنها رفضت بشدة أن أساعدها في غسل الأطباق .

قالت راحيل لأبراهام بحزن بعد أن طردتها أمها من المطبخ، فقال أبراهام مادحاً:  
- إن والدتك إنسانة عظيمة .

- أعرف . بالمناسبة، فهي أيضاً تذكرك بكل خير، لدرجة أنني صرت أشعر بالغيرة، وأخشى أن تفوقني منزلة عندها قريباً .

- أشعر بالإطراء لسماح ذلك منك بالذات وأنت الأثيرة عندها من بين إخوتك .

- ولم تظن أنني الأثيرة عندها؟

- لأن أغلب حديثها معي كان عنك؟

- عني أنا؟ وماذا قالت؟

- كل خير، ولكنها نسيت أن تذكر أهم شيء .

- وما هو؟

- أنك فائقة الجمال .

- شكراً .

قالت ذلك بعدم اكتراث، ثم أشاحت بنظرها عنه، فأحس أبراهام بسذاجته، وندم على تسرعه الأرعن، ولكنه كان صادقاً فيما قاله، فقد كانت راحيل أجمل فتاة رآها في حياته، وقد خفق قلبه بشدة حين قابلها، لدرجة أنه خاف أن تسمع هي وأمها صوت دقاته . كانت شديدة بياض الوجه، شديدة سواد الشعر، الذي كان طويلاً، ناعماً، وكثيفاً ينسدل عبر كتفها حتى يكاد يغطي معظم ظهرها، زرقاء العينين كأنهما بحر هائج تتلاطم أمواجه، دقيقة الأنف، الذي ارتفعت أرنبته بشموخ . مكتنزة الشفتين، اللتين

كانتا حمراوتين دون أن تضع أحمر شفاه، كأن الدم يوشك أن ينفجر منهما. كانت تقريباً بدون ماكياج، إلا أن وجهها بصفاء لونه كان أشبه بلوحة فنية غاية في الإبداع. كما كانت نحيلة القد، ممشوقة القوام، وطويلة الساقين. باختصار كانت فتاة أحلامه، وبأجمل مما تخيلها في يوم من الأيام.

بدأ العرق يتصبب من جبين أبراهام وهو يبحث في مخيلته عن شيء يقوله ليصلح ما أفسده برعونته حتى يستعيد زمام المبادرة، ويبدأ بمحاولة خطب ودها من طريق آخر غير مديحه الساذج، الذي لا ريب أن فتاة بجمالها قد سمعت منه الكثير حتى ملته. لكنه عبثاً كان يحاول، ففكرة أنه قد قلل من شأن نفسه بنظرها قد ألجمت لسانه، خاصة أنه أحس بأنه قد أضعاف تعاطفها السابق الذي لمح فيهما كانا يتاولان الطعام.

أحست السيدة تيتلباوم بالقلق عندما لم تعد تسمع صوتيهما، فغزمت على التدخل، مع أنها كانت قد افتعلت أكثر من سبب في المطبخ لتشغل نفسها في محاولة لتركهما معاً أطول فترة ممكنة. وعندما خرجت وجدت أبراهام ينظر إلى الأرض، وراحيل تعبت بهاتفها الخليوي. فقالت كأنها تعلن خيراً مفرحاً:

- لقد قررت أن أصنع الفطائر التي تحببها احتفالاً بمقدمك.

- هذه المرة سأساعدك سواء وافقت أم لا.

قالت راحيل وهي تقوم من مكانها، فقام أبراهام أيضاً قائلاً:

- وأنا يجب أن أذهب. شكراً سيدة تيتلباوم فقد كان الطعام شهياً. فرصة سعيدة

آنسة راحيل.

- مهلاً، مهلاً. ستبقى اليوم معنا للعشاء فأنت لم تذق فطائري الشهيرة بعد. وأنت

لن تساعدني حتى لا تفسدي سمعتي، وإذا أردت صنع الفطائر فتستطيعين فعل ذلك غداً، وعندما سيحكم أبراهام أيننا تعد الفطائر أفضل.

- أنا متأكد أن كليكما تجيدان ذلك تماماً، ولكنني مضطر للذهاب، حيث...
- لا كلمة، فلن أقبل أي اعتذار، إلا إن لم يكن زعلي يهكم.
- قالت السيدة تيتلباوم ذلك بلهجة بدت وكأنها رجاء أكثر من كونها مجرد دعوة للمجاملة، فأذعن أبراهام دون نقاش، ولاسيما أنه لم يكن راغباً بالذهاب قدر رغبته بالهروب من موقف لم يحسن التعامل معه. وقبل أن تذهب همست في أذن ابنتها بلهجة شبه أمره:
- راحيل. كوني لطيفة مع ضيفنا ريثما أنتهي من إعداد العجين وتحضير الفطائر للخبز.
- بالطبع ماما.
- ثم أردفت بشرود بعد أنا تبعتها بنظراتها إلى أن غابت في المطبخ:
- غريبة. هذه أول مرة أرى أمي بهذا القدر من التحرر، وهي التي كانت تخاف علي من الجميع كأنهم ذئاب بشرية يريدون التهامي.
- ثم نظرت إلى أبراهام نظرة عطف، وقالت وهي تحاول أن تكون لطيفة معه كما أرادت أمها:
- يبدو أنها تتق بك كثيراً، وتحبك أكثر مما كنت أتصور.
- هذا شرف كبير لي، وأتمنى أن أستحقه فعلاً.
- أنت تستحقه، فمع أنه من الواضح جداً أنني أعجبتك كثيراً، إلا أنك لا تكاد تنظر إلي مباشرة. حتى مغازلتك قبل قليل، كانت وكأنها أفلتت من بين شفطيك دون تفكير، ويبدو أنك لا تزال تشعر بالحرج بسببها.
- لم أكن أعني المغازلة، صدقيني.
- أعرف، أعرف. ولكن هذا يبقى اسمها على كل حال.
- أنا آسف.
- لا داعي للأسف. فلنسمها مجاملة، وقد كانت مجاملة لطيفة من قبلك.

كانت راحيل تتحدث بثقة وتحزر كبيرين، وكان أبراهام لا يُفضل جرأة الفتاة عادةً، وخصوصاً في مثل هذه المواضيع، فهي تنحدر في نظره عندها إلى منازل الساقطات، ولكن هذه المرة بالذات، أعجبتَه تلك الجرأة. أما ما لم يعجبه، فهو أنه كان يبدو أمامها مبهوراً وضعيفاً كأنه قروي ساذج يتحدث مع فتاة لأول مرة في حياته، لذا فقد قرر استجماع كل قوته، واستعادة رباطة جأشه ليسمو فوق أهوائه ويتصرف بما هو أهل برجل يسعى إلى نيل إعجاب فتاة مثلها: فأخذ يتحدث معها في مجال دراستها بنبرة حاول أن تكون مُفعمة بالقوة والثقة بالنفس، مستعرضاً كل معلوماته في مجال الكمبيوتر والتقنية العالية.

وما أعظم سعادته عندما نجح أخيراً بإثارة اهتمامها، بل إعجابها أيضاً؛ فقد كانت تظن أن رجال الحريديم لا يعلمون أي شيء خارج نطاق التوراة والتلمود والكابالا. وهو ما شجعه على اقتناص الفرصة تلو الأخرى لاستخدام كل ما قرأه بالأشهر القليلة الماضية عن نظرية النشوء والارتقاء، والأديان الوضعية، ومعتقدات الفرق اليهودية المختلفة، ومعتقدات الطوائف المسيحية والمذاهب الإسلامية، استخداماً ينبئ بأنه يعرف أكثر بكثير مما يكشف عنه. كما تحدث معها عن الصهيونية بعقلانية وتفهم، وبدون أي تحامل عندما لاحظ تأثرها بها، وبشكل أظهر سعة اطلاعه على إيجابياتها، وفي الوقت نفسه ترك الطريق مفتوحاً لانتقاد سلبياتها بطريقة أكاديمية وحيادية. مترفعاً عن التعصب الأعمى.

ورويداً ورويداً عادت ثقته بنفسه، ولم يعد بحاجة إلى التصنع؛ فانبهارها بسعة معلوماته، وتحزره النسبي كحريديم، جعلها تنظر إليه بمزيج من الاحترام المشوب بالإعجاب، مما أمدّه بقوة إضافية شعر معها أنه بات يمتلك زمام الموقف تماماً، ويتمتع ببعض الأستاذية عليها بعد أن انتزع تقديرها لشخصه باستحقاق.



## ◀ عنصرية متبادلة

لم تكن السيدة تيتلباوم بحاجة إلى تمليح طبقها بأكثر من اللازم هذه المرة، ولا حتى إلى اختلاس النظرات إليهما؛ فقد جلست تتناول نصيبها من الفطائر وتتأملهما بحرية وهما يتبادلان أطراف الحديث، وبعض النكات أيضاً، وهما يلتهمان الفطائر بشغف شديد، وكأنهما معرفة قديمة التقيا بعد زمن طويل من القطيعة. وقد اندمجا معاً لدرجة أن أياً منهما لم يعترض على رغبتها بأخذ قيلولة صغيرة لشعورها ببعض الإرهاق. وقبل أن تتوجه إلى غرفتها نظرت إلى أبراهام نظرة ملؤها الحنان قائلة:

- أبراهام، أرجو أن تعتبر نفسك كأنك في بيتك تماماً، وألا تتحسس مطلقاً؛ فلم أكن لأذهب للنوم لو كنت أعتبرك غريباً. وأرجو ألا تغادر قبل أن أنهي غفوتي؛ فكل ما أحтаجه هو قليل من الراحة.

- هذا شرف عظيم لي سيدتي. أنا أعرف أنك قد أجهدت نفسك كثيراً هذا اليوم، وأتمنى لك غفوة هنيئة.

- شكراً. ولكن لا تدع راحيل تمد يديها للأطباق، فالיום هي ضيفة مكرمة، أما غداً فسألقي عليها كل مهام المنزل، وعندها ستتذوق طهوها.

- كلي شوق لذلك.

وما إن غابت السيدة تيتلباوم عن أنظاره، حتى عاد ليملاً عينيه مجدداً من جمال راحيل، قبل أن يرمي بقنبلته الصغيرة في وجهها.

- إذن فقد استبدلت بأصحاب الطواقي<sup>(١)</sup> أصحاب الطواقي المشغولة<sup>(٢)</sup>؟

(١) يقصد الطواقي السود التي تميز الحريديم عن غيرهم وبالذات الخاخامات ودارسي الشريعة.

(٢) يقصد اليرمولكا التي يرتديها المتدينون القوميون دائماً.

توقفت راحيل عن قضم قطعة الفطائر التي بيدها، ونظرت إليه بدهشة كبيرة وهي تقول:

- ماذا تعني؟؟؟

- أعني أنك لم تستبدلي بالحريديم المعادين للصهيونية الحريديم المتعاشين مع الصهيونية، بل استبدلت بالحريديم عموماً المتدينين القوميين الصهاينة. وبمعنى أدق، أصبحت من مؤيدي حزب المفدال.

- من الذي أخبرك بذلك؟

- أنت.

- أنا؟؟ متى؟

- ليس بشكل مباشر، ولكن هذا معنى كلامك؛ فأنت متمردة على الساتمرين، بل على الحريديم بشكل عام. كما أنك تنتقدين حتى أولئك المتعاشين منهم مع الصهيونية والممثلين في حكومة إسرائيل مثل "يهودات ها تورا" و"شاس".

- هذا صحيح. ولكن لماذا تظن أنني أتبنى وجهة نظر المتدينين القوميين بالذات؟

- لأنك بالتأكيد بعيدة عن الإلحاد أو حتى العلمانية، كما أنك تستكرين تساهل

الفرق المسماة بالتنويرية في الشريعة، وفي الوقت نفسه تنتقدين ضعف الانتماء القومي لدى القرائيين، والسامريين، ولا يحتاج المرء إلى كثير ذكاء حتى يستتج أنك لا تزالين أرثوذكسية. ولما كنت تؤمنين بالصهيونية، وأراؤك مناصرة للاستيطان، فلم يبق إلا المتدينون القوميون. كما ترين، الأمر في غاية البساطة.

- استتج موفق. ولكن أرجو ألا يكون الوصول إليه بهذه البساطة، خصوصاً على

أمي التي لا أرغب مطلقاً بأن تعلم بذلك.

- اطمئني، فهي تظن أنك مغترة بالدعاية الصهيونية، لذا فإنك قد تميلين إلى

تقبلها والتعايش معها ككثير من الحرديم البرغماتيين<sup>(١)</sup>، حسب تعبيرها، وهذا بحد ذاته يربعها كثيراً. ولا أظنها تتصور، ولو في الأحلام، أن الأمر قد وصل عندك إلى هذا الحد.

نظرت إليه بريبةً قائلةً:

- وأنت لن تخبرها أليس كذلك؟

- بالتأكيد لا.

- أشكرك.

- لا داعي للشكر. ولكن ما سبب هذا التحول؟

- لأن الأمر بالنسبة إلى بقية الطوائف كما قلت تماماً.

- ما يهمني هو سبب ارتدادك عن أصلك الحردي.

- لأن الجمهور الحردي هو أكثر الفئات عنصرية في دولة إسرائيل.

- عنصرية تجاه من؟

- تجاه الجميع، ولكن بالذات تجاه بقية اليهود، والأدهى أن عنصريتهم تظهر

واضحة حتى من بعضهم تجاه البعض: فالحرديم ليس لديهم زواج بين السفارديم

والأشكنازيم. وفي الحالات القليلة التي يحدث فيها هذا، يكون دائماً مقاطعاً من أحد

الجانبين.

- وهذه العنصرية أهي من جهة السفارديم أم الأشكنازيم؟

- من كليهما معاً، مع أنها جاءت في الأساس من جانب الحرديم الأشكناز، وهم

لا ينكرون عنصريتهم، وإنما يعللونها بضرورة "الحفاظ على التمييز": أي حرص كل

طائفة، أو تيار ديني، أو جماعة دينية على الحفاظ على العادات والقواعد الخاصة

(١) الشخص البرغماتي هو الذي يتعامل مع الواقع فحسب، وليس للأخلاق عنده أي معنى إلا من خلال ما يجنيه منها من مصلحة.

بها. وفي الواقع، لم يعد هناك اختلاط أكثر من اللازم حتى بين الجماعات الأشكنازية نفسها؛ فقليلاً ما يتزوج أبناء الفرق الدينية الحسيدية مع أبناء التيار الليتواني<sup>(١)</sup>، كما تحرص بعض الفرق الدينية الحسيدية نفسها على تباعد بعضها عن الآخر، ولكن ذلك يختلف عن التحريم التام للزواج من السفارديم.

- يمكن تفهّم ذلك بسهولة: فمن المستحسن أن يكون الزوجان من نفس الدين والخلفية الثقافية.

قال أبراهام مُعللاً، فردت راحيل موضحةً:

- إن الأمر لا يقتصر على الزواج فحسب: فالحريديم الأشكنازيم يحتقرون السفارديم تماماً في جميع المجالات. ففي مجال السياسة، ينتظر حزب يهدوت هاتوراه الأشكنازي أن يُصوت حزب شاس السفاردي مثله في المجالات كافة، مع أن حزب شاس أكبر منه بكثير. وعندما انضم شاس إلى الائتلاف بمفرده، تعرض زعماءه لسباب وشتائم، ولعنّف جسدي من أنصار رجال الدين الأشكناز. وعلى صعيد الشريعة، لا يكن الأشكنازيم الاحترام لرجال الدين السفارديم، الذين لا يُدعون لحضور الاجتماعات الدينية المهمة، ولا تحظى كتبهم، بما في ذلك كتب "الحاخام عوفاديا يوسف"<sup>(٢)</sup> نفسه، بمكانة كبيرة في المكتبات الدينية بالمدارس الدينية الأشكنازية. كما لا يثق الأشكناز في "شهادات الصلاحية" التي تمنحها محاكم العدل السفاردية للمطاعم.

- غريب. ولكن ما السبب في ذلك؟

- حتى ثلاثين عاماً مضت كان معظم رجال الدين الأشكنازيم على يقين من أن الطوائف الشرقية "نسيت الدين"، وتعاملوا معها كأوصياء على أطفال متخلفين، ينبغي إنشاء مؤسسات تعليم خاصة من أجلهم. وقد تعلم الحاخام عوفاديا نفسه في مؤسسة

(١) تقصد المتنغديم.

(٢) عوفاديا يوسف هو الحاخام الأكبر السابق لليهود الشرقيين والزعيم الروحي لحركة شاس.

من هذا النوع في شبابه. وقد أمر الحاخام "إليعازر مناخم شاخ" خلال الستينيات والسبعينيات بقبول تلاميذ سفارديم في المدارس الدينية الأشكنازية الراقية، ولكن لم يسمح مطلقاً حتى للمتفوقين منهم بشغل المناصب القيادية فيها، ولم يتمكنوا من الخدمة كحاخامات سوى في المؤسسات الخاصة بأبناء الطوائف الشرقية. وكان التمييز الأشد في مدارس الفتيات، ففي كل عام تتوقف مئات الفتيات السفارديات من أورشليم و"بني باراك" عن الدراسة نتيجة منعهن من الالتحاق بدور المعلمين الأشكنازية. وقد قامت حركة شاس بسبب التمييز من جانب الحريديم الأشكنازيم، وليس من أجل النضال ضد العلمانيين كما يظن كثيرون. فصحيح أن الحاخام "شاخ" أصدر قراراً لمريديه من الحاخامات والتلاميذ بتأسيس حزبين حريديين هما "ديغل هاتوراة" (علم التوراة) عن الأشكناز، وشاس<sup>(١)</sup> عن السفارديم، من أجل أن يكونا ورقة قوة في يده أمام الحاخامات الحسيديم، وخطوة مهمة لإضعاف حزب "أغودات ישראל" (الحسيدي)، ولكن بعد أن تولى زعامة أولهما، اضطر إلى الدخول في صراع مع الحاخام عوفاديا يوسف حول الزعامة الروحية للحزب الآخر (شاس)، بعد أن هُشمت زعامته من قبل أتباعه السفارديم أنفسهم. حتى إن الحاخام "ديفيد قدوري"<sup>(٢)</sup> قد انضم لعوفاديا يوسف وصرح أنه سيحمي زعماء شاس بالتعاون والحروز.

- لماذا اتخذ شاخ هذا الموقف من السفارديم، وهو من شجع على قيام حزب خاص بهم؟  
 - لأنه، وإن كان يردد أنه: "قد أمكن بعد عدة أجيال خلق علماء دين كبار من السفارديم"، إلا أنه كان يؤمن أيضاً بأنه: "لم يحن الوقت بعد لتوليتهم مناصب قيادية" حسب ما صرح به مراراً. بل إنه حذر صراحة من خطورة سيطرة السفارديم على اليهود في إسرائيل! أرأيت كيف يتعامل الحاخامات الأشكنازيم مع الحاخامات السفارديم:

(١) شاس هو اختصار لعبارة: القائمة السفاردية التقليدية.

(٢) نجل الحاخام "يسحاق قدوري" كبير علماء الكابالا.

أوصياء على متخلفين؟ وإلا فكيف يمكن أن يكون شاخ، الحاخام الغربي (الأشكنازي)، زعيماً روحياً لحزب شرقي (سفاردي)؟ ثم كيف يكون شاخ وعوفاديا يوسف أباً روحياً لنفس الحركة؟ والأهم من ذلك كيف يكون شخص واحد (شاخ) زعيماً روحياً لحزبين اثنين مختلفين (شاس وديغل هاتورة)؟!

- الغريب أنك تقولين هذا وأنت مولودة في إسرائيل أي من "الصابرا"، وقد قرأت سابقاً أن جيل الصابرا يُكون هوية جديدة تماماً من أبناء كل شرائح الإسرائيليين، وأن لا علاقة لهم بالهويات السابقة لآبائهم. هزت راحيل رأسها بسخرية قائلة:

- إن اليهود المولودين في إسرائيل ينقسمون أيضاً إلى سفارديم وأشكناز، ومن ثم يطلق مصطلح الصابرا في واقع الأمر على أولاد اليهود الأشكنازيم وحدهم. وبالمناسبة فإن الدارسين يتنبؤون بأن هؤلاء الصابرا سيكونون غوييم يتحدثون العبرية، ولا تربطهم بأعضاء الجماعات اليهودية في العالم سوى روابط واهية.

- ولكن مع ذلك تبقى الانقسامات تفاصيل داخلية خاصة ولا يجب أن تزعجك كثيراً.

- إنها ليست مجرد مشكلة حريدية داخلية، ففي منتصف عام ٢٠٠١م مثلاً، أعلن دافيد قدوري عن تشكيل "مجلس أعلى للحاخامات" من كبار علماء الكابالا. والهدف الوحيد من هذه الانقسامات التي تفرق الناس وتثقل كاهل الدولة هي: التأثير على وحدة حزب شاس، والدخول في تنافس مع مجلس حكماء التوراة.

- ولكنك قلت أن قدوري قد تحالف مع عوفاديا وأيد استقلالية شاس!

- أجل، ولكنه عاد فانقلب عليه بعد رفض تسمية "يوسي دوري" عضواً في الكنيست عن الحزب. ولأن عائلة الحاخام قدوري يرغبون في الاستئثار بزعامة علماء الكابالا، وجعل هذا المنصب وراثياً. وقد أدت مثل هذه الانقسامات التي تسميها "تفاصيل

داخلية خاصة" إلى أن أصبح لدى الجمهور الحريدي مئات المدارس ليس بكل منها سوى عشرات التلاميذ، وكذلك إلى وجود مؤسسات تعليمية منفصلة للبنين والبنات، وللأشكنازيم والسفارديم، والحسيديم وللتوانيين، والكثير من التقسيمات الفرعية الأخرى التي لا تعد ولا تحصى. ونتحمل نحن، دافعي الضرائب، العبء الاقتصادي الناجم عن وجود هذه المؤسسات المنفصلة. وهذا هو أيضاً السبب الرئيسي للمعارضة الشديدة من جانب الحريديم لـ "تقرير دوفرات" الذي يدعو إلى إغلاق المدارس الصغيرة.

- ومع ذلك أظن أنك تهولين الأمور قليلاً، وحتى لو كانوا عنصرين كما تقولين فعنصريتهم داخلية ولا تؤثر على تفاعلهم مع بقية اليهود: فقد أسسوا "مئير بانيم - قوح لاتيت"<sup>(١)</sup> وهي تقدم خدماتها لكل عناصر المجتمع الإسرائيلي: المتدينين والعلمانيين، الشباب والجنود، الطلاب وذوي الاحتياجات الخاصة. وهي تعتمد على أموال المتبرعين فقط ولا تتبع الحكومة. وكذلك "يد سارا"<sup>(٢)</sup> ومنظمة "زكا"<sup>(٣)</sup> التي تحولت الآن إلى جزء لا يتجزأ من قوات الإنقاذ والأمن الإسرائيلية. تنهدت راحيل بضيق، وقالت موضحة:

- إن العنصرية ليست داخلية فقط كما تظن: فالمجتمع الذي يوجد به كل هذا

(١) مئير بانيم - قوح لاتيت هي شبكة أسسها دافيد ورفكا زيلبرشليج عام ٢٠٠٠، تخليداً لذكرى أبنائهما الذين لقوا مصرعهم إثر إصابتهم بمرض خطير، بهدف إيجاد حل أساسي وعاجل لمشاكل المعوزين في الكيان الصهيوني.

(٢) يد سارا هي جمعية كبيرة من المتطوعين تقدم خدمات متنوعة في مجال الرعاية المنزلية، وتلبي الاحتياجات الخاصة للفرد الذي يواجه صعوبات أداءية. وهذه النوعية من الخدمات تتيح لهذا الفرد التكيف مع عائلته ومع أفراد المجتمع.

(٣) زكا هي اختصار لثلاث كلمات عبرية هي "زيهوي قوربانوت آسون" وتعني بالعربية "تعرف ضحايا الكوارث". وهي منظمة تطوعية تأسست عام ١٩٩٥ ويرأسها الحاخام شلومو أيزنخ، هدفها جمع الجثث من مكان الحادث وإخلائها، حرصاً على تكريم الميت، ومعرفة هويته، ودفنه في مدافن يهودية حسب الشريعة.

الازدراء لطوائفه المختلفة، تكون الكراهية تجاه من ليسوا من هذا المجتمع أعمق بكثير، سواء كانوا غوييم أو علمانيين أو حتى يهوداً قوميين. ولن تفلح كل مظاهر ادعاء الوحدة التي تبديها مؤسسات مثل يد سارا ومثير بانيم، فهي بمنزلة وصاية. ومن الممكن أن يساعدك الحريديم إذا كنت جائعاً أو معاقاً، وأن تجمع جمعية "زكا" أشلاءك في حالة الكوارث، ولكن يجب ألا تنسى أن العلماني أو التنويري أو اليهودي القومي يحتلون لدى الحريديم مرتبة أدنى من الحريدي السفاردي الذي يحتل بينهم مرتبة وضيعة للغاية.

على الرغم من اقتناع راحيل الواضح برأيها المتطرد، إلا أن أبراهام لم يفقد الأمل في إمكانية ترشيد فكرها، عن طريق لفت نظرها إلى أن المتدينين القوميين يعانون عيوباً أكبر من تلك التي تتسببها إلى الحريديم، فقال محاولاً توسيع مجال رؤيتها:

- ولكن مع ذلك فعنصريتهم كما تسمينها لا تقارن بعنصرية المستوطنين ضد العرب، وممارستهم للحقد والكراهية.

- الحريديم أيضاً عنصريون تجاه العرب، ويحقدون عليهم، وبالذات أولئك الذين تسميهم أنت وأمي بالبرغماتيين. ولا ريب أنك تذكر فتوى عوفاديا يوسف الأخير بكون العرب أفاعي وصراصير. كما أن "حاتانيا" الكتاب الأصولي الشهير لحركة "حيد"<sup>(١)</sup>

(١) تأسست حركة حيد (أو حباد) الحسيدية على يد الحاخام "شنيور زلمان ملادي" (١٧٤٥ - ١٨١٣)، لنشكل تياراً مستقلاً في الحسيدية، لا يتجاهل دور العقل وتعاليم التوراة، ويرفض فكرة "التسمي عن طريق الغوص في الرذيلة". نشأت الحركة في بيلوروسيا، ثم انتقلت إلى لاتفيا، ثم بولندا، ثم الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٠. ويوجد أكبر تجمع للحركة اليوم في الولايات المتحدة، ثم في الكيان الصهيوني. ونظراً لأن الحركة تهتم بدراسة التوراة والتأمل العقلي؛ فقد كانت من أوائل الحركات الحسيدية التي بادرت إلى إنشاء مدارس دينية، كما دافعت عن مصالح اليهود في كل مكان، وقدمت العون للناجين منهم من النازية. وتهتم الحركة كذلك بتقديم الخدمات الدينية والاجتماعية والثقافية لأتباعها في كل مكان. وللحركة منظمات نسائية، وأخرى خاصة بتربية الأطفال، ويُقدر عدد مراكزها، في قارات العالم الست، بنحو ألف وخمسة مئة مركز (منها مراكز في المغرب، وسورية، وتونس، وأغلب دول أمريكا الجنوبية، وأوروبا وجنوب إفريقيا، وهونج كونج). وتمتلك محطة إذاعة=



يفيد أن كل غير اليهود مخلوقات شيطانية "ليس بداخلها أي شيء جيد على الإطلاق"! حتى الجنين غير اليهودي يختلف نوعياً عن الجنين اليهودي، كما أن وجود غير اليهودي مسألة "غير جوهرية" في الكون، فقد نشأ كل الخلق من أجل اليهود فقط<sup>(١)</sup>. وتفيد شهادة "شلوميت ألوني" عضو الكنيست، أن دعاية حيد ازدادت بصورة ملحوظة قبل اجتياح إسرائيل للبنان في آذار/مارس ١٩٧٨، وذلك لحث الأطباء العسكريين والممرضين على عدم تقديم الإسعافات الطبية "للجرحى الأغيار"، لم تشر هذه النصيحة النازية إلى العرب أو الفلسطينيين بصفة محددة، لكن أشارت ببساطة إلى "الأغيار". وكان اثنان من رؤساء الكيان السابقين (شازار، وكاتسير)، أتباعاً متحمسين لحيد، التي تحظى بتأثير واسع على الساسة الإسرائيليين رغم الاستياء الشعبي العام في الكيان من حاخام لوبافيتشر، الذي يُنتقد على نطاق واسع لأنه يرفض القدوم إلى الأرض المقدسة، حتى للزيارة، ويبقى نفسه في نيويورك لأسباب مشيخانية غامضة. أما أفكاره العنصرية المعادية للسود فهي معروفة تماماً في نيويورك.

- لو كانت حيد كما تقولين فعلاً، فكيف تفسرين تعيين إحدى الدول العربية

ليهودية من أتباع هذه الحركة كسفيرة لها في الولايات المتحدة الأمريكية<sup>(٢)</sup>!

---

= خاصة في نيويورك، وأخرى في فرنسا، تبث برامج دينية ودروساً في التوراة يومياً. وتقدر مصادر الحركة عدد مؤيديها في العالم بأكثر من مليون يهودي، أما أتباعها الملتزمون بتعاليمها فيقدرون بنحو مئة وخمسين ألف شخص، يتمركزون في الولايات المتحدة والكيان الصهيوني.

(١) هذا الكتاب متداول بطبعات لا تعد ولا تحصى، ويجرى ترويج أفكاره عبر خطابات لأخ حيد الوراثي الحالي، المدعو حاخام لوبافيتشر: "م. م. سنورز سوهن" الذي يقود هذه المنظمة المنتشرة في أنحاء العالم في مركزه في نيويورك. وتنتشر تلك الأفكار على نطاق شعبي واسع في الكيان، وفي المدارس والجيش.

(٢) اليهودية البحرينية (من أصل عراقي) "هدى نونو"، وحسب موقع حركة حيد على شبكة الإنترنت <http://www.chabad.org> فإن السفارة البحرينية تقوم بأداء الصلوات اليهودية بشكل دائم في المعبد التابع لحركة حيد بواشنطن.

## ◀ انتهازية

مضت راحيل توضح حقيقة أولئك اليهود ذوي الوجهين قاتلة:

- يرجع ذلك بقدر كبير إلى المعالجة الماكرة والمضللة من جانب معظم المثقفين الذين كتبوا عن حيد، خصوصاً باللغة الإنجليزية، وصّوروها حيادية نزيهة، متكتمين على الأدلة العنصرية الصارخة في النصوص الحيدية، وكذلك مواقفها السياسية العدائية تجاه العرب والأغيار بشكل عام<sup>(١)</sup>، ولكن كل ذلك يبرز أمام أعيننا واضحاً في الصحافة العبرية التي ينشر على صفحاتها حاخام لوبافيتشر وزعماء حيديون آخرون أكثر التصريحات المتعطشة للدماء ضراوة. كما أن حيد من أغنى المنظمات اليهودية في العالم، ولها مصادر تمويل لا حصر لها، وقد حققت بواسطة ذلك نفوذاً واسعاً في الولايات المتحدة، وإسرائيل، وفي كل مكان يوجد فيه يهود<sup>(٢)</sup>، ففي الولايات المتحدة وفرنسا على سبيل المثال، يسعى مختلف المرشحين للانتخابات إلى الحصول

(١) أحد المخادعين الكبار في هذا المجال، والنموذج الجيد لقوة الخداع هو "مارتن بوبر"، الذي تمتدح أعماله الغزيرة كل الحركات الحسيدية (بما فيها حيد). وكتاباته لا تزال تحظى بشعبية واسعة بين أوساط المثقفين في العالم.

(٢) شنت حيد والمنظمات الصهيونية هجوماً على أكبر جامعات أوكرانيا لسماح الجامعة بنشر كتاب "كتائب حيد" الذي يتهم اليهود "بالسيطرة على الحلبة السياسية الداخلية والاقتصاد الأوكراني"، ومن جانبه شن ميكولا جولباتي رئيس جامعة "MAUP" الأوكرانية هجوماً عنيفاً على حركة "حيد" قائلاً: "هذه الجماعة ترتبط بكل ما هو سئ في العالم، إنها ترتبط بالنظر والإرهاب". وجدير بالذكر أن وزيرة خارجية الكيان تسيبي ليفني أكدت أن هدف الهجمات المسلحة في مدينة مومباي الهندية عام ٢٠٠٨ كان مقر جماعة حيد اليهودية، وأن المهاجمين الذين استولوا على المقر كانوا يتعمدون ذلك. وجاء في نشرة صادرة عن حركة ناطوري كارتا المعادية للصهيونية: "إن ما حدث لكينيس حيد في مومباي جاء جزءاً وفاقاً لما صنعت حركة حيد الحسيدية، عندما قبلت أن تنضوي تحت لواء الصهيونية، فعاقبتها الله على ما ارتكبتة من أفعال شائنة عندما قبلت أن تكون عميلة للصهيونية".

على أصواتهم، وهي تحظى بتقدير الرؤساء وأعضاء الكونغرس وكبار الساسة، الذين يتوددون إليها سراً وعلانية في كل مناسبة. وربما كان ذلك هو الدافع الرئيسي وراء اختيار دولة عربية ليهودية من حيد سفيرة لها في واشنطن.

- لا تنسى أيضاً أن حيد ضد الصهيونية، كما أنها حركة غير حزبية، ولم تشارك في أية انتخابات عامة أو محلية، ولم تؤيد رسمياً أية قائمة انتخابية إسرائيلية.

- هذا هو الظاهر المعلن. ولكن أتباعها مأمورون بالتصويت دوماً لبوعالي أغودات إسرائيل، عدا عام ١٩٦٥، حينما أمرهم "شنيورسون" بالتصويت للمفدال. كما كان للحاخام شنيورسون مكانة مرموقة عند ساسة الدولة وكبار المسؤولين فيها، وكثيراً ما كانت شخصيات مثل "بيجن"، و"بيريز"، و"شارون"، و"يوسف بورغ"، و"أهارون ياريف"، و"بنيامين نتياهو" وغيرهم تطلب مشورته. وقد قامت حيد بتمويل الحملة الدعائية لبنيامين نتياهو في آخر أسبوعين من حملته الانتخابية في سنة ١٩٩٦ التي فضلها حسم فوزه على شيمعون بيريز<sup>(١)</sup>.

- لم أن أعلم هذا! ما هي حقيقة العلاقة بين حيد والصهيونية؟

- في مطلع القرن العشرين شن الأدمور الخامس للحركة "شالوم دوف بار" حملة شعواء على الحركة الصهيونية، ووصفها بأنها مبادرة سلبية لاستعجال النهاية، بما يتناقض مع التقاليد اليهودية، ورفض نظرية المراحل التي أخذت بها الصهيونية فيما يتعلق بخلاص اليهود، وقد ارتكزت معارضة الحركة الصهيونية على أساس أن على اليهود أن يظلوا في المنفى حتى يظهر المسيح المخلص، فهو وحده المكلف من قبل الرب بإنقاذ الشعب اليهودي والعودة به إلى أرضه لتأسيس مملكة إسرائيل. ومن ثم رفض الأدمور الخامس الحركة الصهيونية وأكد أنه: "حتى لو اتبع الصهاينة أوامر الإله

(١) كان نتياهو قد صرح في العام الماضي في اجتماع القادة البارزين في المؤتمر اليهودي عقب خطابه في الجمعية العامة للأمم المتحدة، بأن خطابه في الأمم المتحدة كان "بالهام" من الحاخام مناخم مندل شنورسن.

بشكل دقيق فإنه لا يجوز لليهودي أن ينضم إليهم لكي يبحث عن الخلاص بجهود ذاتية". ولهذا أفتى دوف بار بعدم جواز استخدام السبل المادية والسياسية للهجرة إلى فلسطين لتعجيل الخلاص، لأن ذلك يخالف وصايا التوراة.

- ما الذي تغير إذن؟

- مع قدوم الأدمور السابع مناحيم مندل شنيورسون، راحت الحركة تقترب من الصهيونية، حيث أعلن شنيورسون أن إنشاء الدولة: "فضل من الإله، والتفاته منه نحو اليهود، من أجل خلاصهم"، غير أن الصهاينة - في رأيه - أضعوا الفرصة، وبنوا الدولة على: "أسس لا يجمعها جامع مع توراة شعب إسرائيل". وعندما اندلعت حرب ١٩٦٧، اعتبر أن النصر الإسرائيلي يشير إلى بداية الخلاص واقترب ظهور المسيح. وإبان حرب ١٩٧٣، طالب باحتلال دمشق كشرط لتحقيق الخلاص، وخلال حرب لبنان نادى باحتلال بيروت كبداية للخلاص. ومع أن حركة حيد (رسمياً) هي حركة دينية معارضة للصهيونية، ولا تعترف بالدولة، إلا أنها لم تقاطعها، بل إن طلاب مدارسهم يخدمون بالجيش بعد انتهائهم من دراستهم<sup>(١)</sup>. كما أنها تؤيد فكرة "أرض إسرائيل

(١) كان رقيب أول من جماعة حيد هو الوحيد الذي وجد في نفسه القوة العقائدية العسكرية الكافية لإطلاق النار على الفدائي "خالد محمد أكر" بطل "عملية قبية" كما أسماها "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة" أو "ليلة الطائرات الشراعية" كما سماها الإعلام الصهيوني. وكان ذلك الفدائي البطل تمكن في ٢٥ / ١١ / ١٩٨٧ م من الهبوط بطائرة شراعية على الطريق الواصل من كريات شمونة شرقاً باتجاه هضبة الجولان، واقتحم وحده معسكراً تابعاً لقوات غولاني الشهيرة، واستمر بإطلاق النار وتصيد الجنود الصهاينة الهاربين كالفئران بين أروقة المعسكر لمدة تسعين دقيقة دون أن يجرؤ أحد منهم على الوقوف بوجهه، إلى أن تشجع الرقيب أول صيانة في السرية وأطلق النار تجاهه فأصابه في خصيته، وعندما وقع الفدائي أرضاً، ركض الرقيب وهو يطلق النار حتى وصل إليه، حيث أطلق النار على رأسه مباشرة من مسافة قصيرة. انتقل الفدائي البطل إلى جوار ربه تعالى ولكن بعد أن قتل وجرح ٣٥ عسكرياً صهيونياً على الأقل (مراسلو صحف الكيان أكدوا أن عدد القتلى والجرحى أكثر بكثير مما أعلن عنه الجيش، حيث تطلب نقل الجرحى تفرغ مستشفيات كبيرين، أحدهما في مدينة صفد والثاني في مدينة =

الكاملة"، ومن ثم ترفض فكرة "الأرض مقابل السلام"، وتطالب الحكومات الإسرائيلية بضم الأراضي المحتلة وعدم إرجاع الأراضي التي غنمتها إبان حرب الأيام الستة، وذلك لأن السيطرة اليهودية على كامل "أرض إسرائيل" هي شرط مسبق لا غنى عنه لظهور المسيح المنتظر. وارتباطاً بهذه الأفكار دعا الحاخام شنيورسون إلى ترحيل العرب عن أراضيهم، بل نادى، في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٨، بقتل العرب صراحة، وقال: "إن العرب يبتغون شيئاً واحداً لا غير، وهو القضاء علينا إن عاجلاً أو آجلاً وإن علينا أن نتبع القول المأثور (عجل بقتل من يسعى لقتلك)"، كما احتج هذا الحاخام مراراً وبشدة على بقاء العرب في أورشليم، وعلى ما أسماه بـ"المعاملة الحسنة" التي تعامل بها إسرائيل مخربي فتح والفصائل الفلسطينية. وكان شنيورسون من القادة الحريديين

=حيفا) بينهم ضباط وصف ضباط . وتمكن من تدمير ثلاثة مهاجع وحرق خمس خيم وتدمير وإعطاب أكثر من ست آليات مختلفة . صحيفة ידיעות أحرونوت أوردت جانباً من التحقيقات التي عتم عليها كي لا يظهر الجين الصهيوني قائلة : " كان الجندي (الحارس المناوب) الذي هرب فور رؤية الفدائي المهاجم مجرد دلالة لظاهرة أكثر اتساعاً وعمقاً، مما مكن الفدائي المهاجم من إفراغ ستة مخازن رصاص وإلقاء عدة قنابل يدوية الواحدة تلو الأخرى داخل قواعد الجيش الإسرائيلي قبل أن يتمكن جندي بسيط من جماعة حبد الدينية من أن يجد الجرأة للرد عليه بالمثل وقتله . وقد تمكن قائد هذا الجندي الشجاع من الظهور على أرض المعركة، مسلحاً، فقط بعد أن انتهى كل شيء . . . لكن الحقيقة هي أن روني (روني الموج الحارس الهارب) وآخرين في وحدته لم يكونوا ظاهرة شاذة؛ فمنذ أن دخل الجيش الإسرائيلي لبنان حتى اليوم كانت هناك ظواهر مماثلة أبدى فيها جنود إسرائيليون روحاً وأتماطاً متدنية وعاجزة في أثناء الاصطدام بالفدائيين . كان أبرز تلك الأحداث حينما تمكن أربعة من الفدائيين من أسر ثمانية جنود إسرائيليين من حركة الشبيبة الطلابية المقاتلة (الناحل)، وقد اتضح من نتائج التحقيق في أعقاب عودة أولئك الثمانية أنه مع كونهم أكثر عدداً وعدة من أسريهم إلا أنهم ساروا خلفهم كالنجاج دون إبداء أية مقاومة تذكر، كما أفاد التحقيق بأنه لو تصرف هؤلاء كما ينبغي لاختلقت النتائج اختلافاً بيناً . وأجرت الصحيفة مقابلة مع أبي الحارس قال فيها : " ربما أرادوا الروني أن يكون بطلاً ميتاً!! لكنني أفضله حياً، خاصة إذا كان سيموت بسبب غباء قادته " . ידיעות أحرونوت ٢٧ / ١١ / ١٩٨٧ م . يذكر أنه كان بالإمكان إلحاق خسائر أعلى من ذلك بمراحل كبيرة فيما لو استهدف الفدائي المدنيون الذين كانوا تحت سيطرته التامة من الجو حيث طار فوق مستوطنة الخالصة وكفار جلعادي وكفار يوفال، لكن التقيد بالتعليمات بمهاجمة الموقع العسكري حصراً منعه من ذلك .

القلائل، الذين أعربوا عن دعمهم لحركة "غوش أيمونيم"، ومشاريعها الاستيطانية في الضفة الغربية والقطاع.

- يفهم من كلامك أنتِ نفسك أن الحريديم المتعاشين مع الصهيونية أشد عنصرية ممن يرفضونها تماماً، إذن فالعيب ليس في التيار الحريدي نفسه، بل بالاتجاه النفعي فيه. ثم إنني لست هنا في معرض الدفاع عن الحريديم أو غيرهم، ولكنني أردت تببيهك إلى حقيقة عنصرية أولئك الذين تتبنين موقفهم.

- يبدو أنك تنظر إلى الأمور من وجهة نظر يسارية. ولكن صدقني يا عزيزي أبراهام، إن الأغلبية العظمى من اليهود المستوطنين في "يهودا والسامرة"<sup>(١)</sup> كانوا سيسعدون بالعيش في سلام مع جيرانهم، لولا الإرهاب الفلسطيني. فكراهية العرب ليست دافعاً، ولا حتى جزءاً من مبادئ الحركة الاستيطانية في يهودا والسامرة، وهم فقط يقومون بواجباتهم تجاه وطنهم عن طريق الالتحاق بالجيش والدفاع عن المستوطنات. كما أنهم، ممثلين بالمفدال، يهتمون بالشأن العام والسياسة الخارجية للوطن. وبالمناسبة هذا أكثر ما يميز المفدال بنظري عن الأحزاب الحريدية.

- لماذا؟! ألا تهتم الأحزاب الحريدية بالشأن العام والسياسة؟

- أُمي تسميهم برغماتيين، وأنت تسميهم نفعيين ومتعاشين مع الصهيونية، فكيف تتصورون أنهم قد يهتمون بالشأن العام؟! إن جل ما يشغلهم هو خدمة مصالحهم وفعاليتهم الدينية، وخدمة جمهورهم الخاص الذي يصوت لهم في الانتخابات. وغالباً ما يكون شرط انضمامهم للحكومة محصوراً في الامتيازات المالية التي يحصلون عليها من ميزانية الدولة لتمويل مدارسهم ونشاطاتهم الدينية بغض النظر عن توجه تلك الحكومة. كما أنهم استغلوا مكانتهم الدينية لإملاء شروطهم على دولتهم، وطالبوها بإعفائهم من تقديم الخدمات ودفع الضرائب والخدمة العسكرية: وذلك لأنهم في

(١) التسمية اليهودية للضفة الغربية وقطاع غزة.

حالة انشغال دائم بدراسة التوراة وتدريسها، والتي يدعون أنها هي من تحمي دولة إسرائيل قبل الجنود. وهذه المطالب المبنية على التمييز دفعت اليهود العلمانيين إلى ترديد حكمة تقول: "أي توراة غير مصحوبة بالعمل تكون باطلة، وتكون غاية هذا الشخص أن يسرق الناس"، لتعزيز قناعاتهم بأن كل الحاخامات، وخاصة في إسرائيل، هم مجرد لصوص<sup>(١)</sup>.

- إنك تعممين، وهذا غير جائز.

- بل جائز وعليهم جميعاً. والدليل على ذلك، هو الصراع حول رسوم شهادات الطعام الكوشير (الحلال). حيث امتد إلى الحاخام الأكبر نفسه، وفجر خلافات كثيرة وكبيرة بين مختلف الطوائف المتباينة في أصولها وولائها ومصالحها. فالحاخام "شموئيل شولز ينجر" حاخام شمال إسرائيل تعرض ختمه على شهادات الذبح للمقاطعة بعد فتوى الحاخام الأكبر السابق "عوفاديا يوسف"، مما أصاب مجازر الشمال بالكساد، وانعكس على دخل الحاخام الشمالي. فاندفع يسخر من الحاخام الأكبر، ويستهجنه، ويؤكد أنه مصاب بمرضين هما "حب المال، وكراهية اليهود". ولم يسلم الحاخام الأكبر للشرقيين "إلياهو بقشي" من توجيه بعض التهم إليه مثل: "أن الحماسة سيطرت على أفعاله، وأن من حوله هم مثل كلاب الصيد والقتلة، وأن اليهود الشرقيين مجرمون وقتلة". كما أنهم يدنسون أماكن عبادة بعضهم الآخر، وبعض المنتمين إلى حزب شاس يؤمنون بأن سبب حصوله على المركز الثالث بين الأحزاب السياسية يعود أولاً إلى "الحروز" التي كتبها الحاخام "قدوري".

(١) هناك حالة مجتمعية للفرار من الديانة اليهودية يقودها العلمانيون. وفي المقابل هناك فرار للمتدينين من الدولة بمعنى الانسحاب وعدم الرغبة في المشاركة. والصراع العلماني/ الديني هو تعبير عن حقيقة تعكس آثارها في الانقسام الواضح في مجتمع الكيان وهو صراع مستمر ومتطور. اللات للنتظر هو أنه مع تطور هذا النزاع وإدارته على أكثر من جبهة، أهمها التعليم، السياسة، القضايا المجتمعية، ومع قلة عدد المتدينين بالنسبة إلى العلمانيين، ومع الانخفاض المستمر في نسبة التدين، يرفض المجتمع الصهيوني بشكل عام وضع دستور علماني للدولة، لأن هذا ينسف المجتمع الصهيوني من أساسه.

- هل وصل الأمر إلى هذا الحد؟

- من أجل المال والنفوذ يمكن أن تصل الأمور إلى أكثر من ذلك؛ فمع أن أحزاب الحريديم غنية، وتحصل على الأموال من ميزانية الدولة وتمارس نفوذاً كبيراً في الحكم، إلا أن العشرات من قاداتهم قد ضُبطوا بالسرقة وخيانة الأمانة، ودخل بعضهم السجن بعد إدانته في المحكمة. ومع هذا ظلوا في قيادة تلك الأحزاب يحظون بالنفوذ وجمهورهم أغلبه يعتبر سجنهم مؤامرة وانتقاماً من العلمانيين!!! بل إن الحاخام عوفاديا يوسف، أصدر في إحدى المرات فتوى سبقت وناقضت حكم المحكمة المركزية التي أدانت أحدهم<sup>(١)</sup> بالفساد وحكمت عليه بالسجن، مبرراً إياه. وقد أثارت تصرفات هذه الأحزاب غضباً عارماً عليهم وسط الجمهور الإسرائيلي، وتعمقت الهوة بين المتدينين والعلمانيين. وكان من انعكاسات هذا الغضب نشوء حزب علماني متخصص في محاربتهم هو حزب "شينيوي". وقد حصل شينيوي على ١٥ مقعداً (من مجموع ١٢٠ مقعداً) في الكنيست سنة ٢٠٠٢ بسبب الأجواء المعادية للحريديم في الشارع العلماني، وهذا ما دفع "أرييل شارون" في حكومته الثانية إلى استبدال شينيوي بشاس، إلا أن زعماء شاس عادوا ففقدوا معه صفقة في السنة الأخيرة من حكمه (٢٠٠٥)، فأخرج حزب شنيوي من الحكومة ودخلوا هم مكانه.

- وما هذه الصفقة؟

- تأييدهم لخطته في الفصل (الانسحاب الأحادي الجانب من قطاع غزة) مع أن هذا ضد مبادئهم. ومثل هذه التوجهات النفعية، هي ما أكسبهم سمعة سيئة خارج إطار أتباعهم وجماهيرهم المباشرة. فالأغلبية في إسرائيل والوسط الإعلامي، وحتى في أوساط النخبة السياسية العلمانية التي تضطر إلى الخضوع لابتزاز هذه الأحزاب لضمان الحصول على أصوات نوابها في البرلمان لتمرير سياساتها، غالباً ما تستخدم

(١) يدعى أريه درعي .



مفردات تحقيرية في وصفهم، وأشهر هذه التوصيفات ما نسب إلى "يهود باراك" حين نعتهم "بالقمل والطفيليات". وكثيراً ما تصفهم وسائل الإعلام بمصاصي الدماء والنمل الأسود والجراد الذي يأكل الأخضر واليابس.

- لا تتسي أن الحريديم في الأصل ضد الدولة، ويشككون في شرعيتها، بل يعتبرونها تدخلاً في عمل الرب، ومن ثم فهم غير معنيين باحترام أنظمتها، بل معنيون فقط بخدمة الشريعة، ومصالح جمهورهم الملتزم بها.

- إذا كانوا يشككون في شرعيتها، ويعتبرونها تدخلاً في عمل الرب كما تقول، فلماذا يعيشون على حسابها وحساب بقية شرائح المجتمع دون أن يساهموا في عملية الإنتاج؟! فبن غوريون أعفى طلاب المدارس الدينية من الخدمة العسكرية لأن عددهم كان قليلاً آنذاك. أما اليوم فهم يقدرون بعشرات الآلاف. والدولة مضطرة إلى الإنفاق عليهم، وعلى عائلاتهم من خلال نظام الضمان الاجتماعي الحكومي، لأنهم لا يعملون ومتفرغون للعلم الشرعي.

- إن المساعدات الحكومية ضئيلة جداً، وهي أقل مما يجب على الدولة أن تقوم به لرعاياها، بغض النظر عن معتقداتهم الدينية أو موقفهم السياسي.

قال أبراهام مدافعاً، فعقبت راحيل قائلة:

- ولكن لا تتس أن أغلب المتدينين ينتمون إلى عائلات كبيرة العدد، فمتوسط عدد أبناء العائلة المتدينة سبعة أطفال إلى ثمانية، وفي حالات عديدة يزيد على ذلك كثيراً مع التحفيز العقائدي المستمر على الإنجاب. وتشير الإحصاءات الحكومية إلى أن ٦٠٪ من المتدينين لا يعملون، ومن ثم فإن الإنفاق عليهم وعلى عائلاتهم الكبيرة يكلف ميزانية الدولة كثيراً. وكمثال على ذلك إن حزب يهودات ها تورا تقدم بمشروع قانون عرف باسم "قانون العائلات الكبيرة" إلى الكنيست وتم إقراره، وهو قانون يهدف إلى زيادة الدعم المالي المقدم للعائلات التي يزيد عدد أطفالها على خمسة، وهذا ينطبق

على العائلات الحريدية تحديداً، وتطبيق هذا القانون وحده كلف الميزانية العامة ما يزيد على مئة وعشرين مليون دولار عام ٢٠٠١ فقط.

- وما العيب في ذلك؟ فأغلب الدول المتحضرة في أوروبا وأمريكا تقوم بإجراءات مماثلة لمواطنيها عديدي الأطفال للتحفيز على الإنجاب<sup>(١)</sup>؟

- العيب هو أن مثل هذه الامتيازات تسبب الكثير من الإزعاج والقلق لأغلبية الإسرائيليين الذين يعتبرون أن إنتاجيتهم، والضرائب التي يدفعونها عن دخولهم تذهب للإنفاق على من لا يعملون، وتشجعهم من ثم على عدم البحث عن عمل. ويزيد الأمر سوءاً مع ما يتكشف من حالات الفساد في المؤسسات التابعة لهذه الأحزاب: فالعاهد الدينية مثلاً تتلقى الدعم من الحكومة طبقاً لأعداد طلابها، ولهذا يلجأ البعض منها إلى تضخيم هذه الأعداد بتسجيل أسماء وهمية لا وجود لها. وهناك حالات من جمعيات خيرية وهمية ليس لها وجود حقيقي.

- هذه حالات فردية، وليست هي ولا المساعدات الحكومية لب الموضوع: إن ما يهم الفرق اليهودية التنويرية والعلمانيين في إسرائيل هو كسر الاحتكار الذي تمارسه الطائفة الأرثوذكسية على الشؤون الدينية في إسرائيل. وقد شهدت السنوات القليلة الماضية مجموعة من القضايا القانونية التي كشفت بؤرة التوتر هذه بين الطرفين.

- ماذا تعني؟

فأجاب أبراهام شارحاً:

- حكم المحكمة العليا في إسرائيل بإلغاء قانون إعفاء طلاب العلم الشرعي من

(١) آخر مثال على ذلك هو إعلان رئيس الوزراء الفرنسي " دو فيليان " أنه حين يتوقف أحد الأبوين عن العمل ليرعى ثلاثة أطفال فيحصل على ٧٥٠ يورو (٦, ٩١٥ دولار) شهرياً لمدة عام، وهو ما يزيد بنحو ٥٠ في المئة على المبلغ الشهري الذي تحصل عليه الأسر التي لديها طفلان. السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا تقدم هذه الدول " المتحضرة " كل هذه المعونات والمساعدات للنساء عندهم للبقاء في البيوت لرعاية الأبناء وزيادة الإنجاب، ولكنهم في الوقت نفسه يطلبون منا تحديد النسل وخروج نساتنا إلى العمل!؟

الخدمة العسكرية مثلاً. فقد صدم ذلك قادة الأحزاب الدينية، خاصة أن المحكمة العليا أصدرت حكماً آخر بعد فترة وجيزة، يبيح "للكيبوتسات" بالاستمرار بمزاولة أعمالهم يوم السبت، مع أن العمل يوم السبت يعد واحداً من أعظم الخطايا التي يرتكها اليهودي. أما الطامة الكبرى فقد حدثت عندما أصدرت المحكمة العليا حكماً يقضي بالسماح لممثلي طائفتي الإصلاحيين والمحافظين بالمشاركة في المجالس الدينية المحلية. وجاء هذا الحكم بُعيد حكم آخر أعطى نوعاً من المشروعية للطائفتين المذكورتين، وكان الحكم يقضي بضرورة أن تعترف الدولة بيهودية من يعتنقون الديانة اليهودية على أيدي حاخامات الطائفتين.

- أوافقك في ذلك، ولكننا نعيش في دولة ديمقراطية، واحتكار الأرثوذكس الحريديم للشؤون الدينية فيها يعتبر منافياً للمنطق، نظراً إلى كونهم معادين لقوانينها، وغير منتجين فيها، وغير معنيين بالقيام بواجبهم للدفاع عنها، وفوق ذلك كله لا يشكلون إلا أقلية صغيرة فيها<sup>(١)</sup>، وإذا أرادوا تثبيت احتكارهم ذاك، فعليهم المشاركة الفعالة في الإنتاج والدفاع، واحترام قوانين الدولة، ولكنهم عوضاً عن ذلك ردوا بهمجية ووقاحة تفوق التصور: فقد وصف "مناحيم بورش"<sup>(٢)</sup> قرار المحكمة بأنه "تدمير لليهودية وخيانة للتراث اليهودي". أما عوفاديا يوسف فقد وصف قضاة المحكمة العليا بأنهم: "العبيد الذين يحكموننا، وينتهكون السبت، ويعلم أي طفل في السابعة من عمره عن التوراة أكثر منهم". وبلغت لهجته من الهجومية أن طالب البعض بتقديمه إلى المحكمة بتهمة التحريض، ولكن المدعي العام لم يفعل ذلك "حرصاً على الوحدة الوطنية". هل تلاحظ الفرق بين همجيتنا وتحضرهم؟

(١) ينقسم المجتمع اليهودي في الكيان الصهيوني إلى عدة شرائح طبقاً لدرجات التدين؛ فهناك ٢٥ إلى ٣٠٪ تقريباً من العلمانيين، في حين يمثل من ٥٠ إلى ٥٥٪ من اليهود التقليديين غير المتدينين، أي الذين يحافظون على بعض التعاليم المهمة للديانة اليهودية، ويقدمون الخاضعات والشرائع اليهودية، ويمثل المتدينون نحو ٢٠٪ من يهود الكيان. وهم ليسوا جميعاً من الحريديم، بل إن جزءاً معتبراً منهم هو من القوميين. ومع ذلك يحتكر الحريديم السلطة على الشؤون الدينية الرسمية في الكيان.

(٢) زعيم حزب أغودات إسرائيل.

- وأين كان تحضرهم عندما وصفوا المتدينين "بالقمل والطفيليات ومصاصي الدماء والنمل الأسود والجراد الذي يأكل الأخضر واليابس" كما قلت أنت بنفسك؟ وأين كان تحضرهم عندما سيّرت الأحزاب الدينية مظاهرة احتجاج على قرار المحكمة زاد عدد المشاركين فيها على ربع المليون شخص. فنظم اليساريون في الوقت نفسه، وعلى مقربة منها، مظاهرة مضادة شارك فيها خمسون ألف شخص، بعضهم من كبار الشخصيات السياسية العلمانية مثل وزير العدل آنذاك من "الليكود" اليميني، ويوسي ساريد" زعيم حزب "ميريتس" اليساري، ورافائيل إيتان من حزب "تسوميت" العنصري، وهم يمثلون إيديولوجيات متناقضة تماماً، ولا يجمع بينهم إلا بغضهم للأحزاب الدينية. وقد فسر ساريد ذلك بأنه "حرب حول هوية بلدنا".

- للأسف فإن استخدام لفظ "الحرب" لم يعد مجازياً فقط؛ فقد اعتاد المجتمع الإسرائيلي على سماع وقراءة أخبار الحريديم الذين يقذفون الحجارة على السيارات التي تمر في شوارع أحيائهم في يوم السبت، أو يرمون بالكراسي النساء (من الإصلاحيين والمحافظين) اللواتي يقرأن التوراة عند حائط المبكى، أو يلقون الحبر على ملابس النساء "غير المحتشمتات" في أورشليم.

- لكن الطرف الآخر يرد الصاع صاعين في بعض الحالات، وقبل اندلاع الانتفاضة الثانية كثرت الأخبار عن حوادث في الاتجاه المعاكس: طعن شاب من طلاب المعاهد الدينية. الاعتداء على مدرسة دينية في أورشليم. الاعتداء بالضرب على حريدي وهو عائد إلى بيته. وهذا يأتي نتيجة طبيعية للتحريض والتحريض المضاد بين الطرفين: ففي أوائل التسعينيات من القرن الماضي أجرى أحد المراكز الإسرائيلية استفتاء في أوساط طلاب المدارس الابتدائية الحكومية (غير الدينية)، وعندما سئلوا عن الحريديم كانت الإجابة الدارجة "هم أناس لهم رائحة كريهة، وتعضش الحشرات في لحاهم" وهذا مؤشر على الصورة النمطية التي تزرعها الأغلبية العلمانية في إسرائيل

وإعلامها القوي عن المتدينين اليهود. وقد بلغ الأمر ببعض السياسيين، مثل "شولاميت ألوني" من مؤسسي حزب ميرتس العلماني اليساري، أن قالت: "عندما أرى المتدينين اليهود أستطيع أن أفهم دوافع النازيين". وهي ترى أن ما كان يقال عن اليهودي من أنه يستغل الغويم ويتاجر بدمهم ويضحك عليهم ينطبق على الحريديم اليوم، مع فارق أن الغويم في هذه الحالة هم الجمهور اليهودي، التتويري والعلماني.

- هذه التوصيفات لها ما يقابلها في خطاب الحريديم الذين يصفون غيرهم بـ"كارهي أنفسهم، والملوثين والمدمرين روحياً". حتى إن الحاخام "الياهو بكاشي" قد هاجم مرة الإصلاحيين بشكل تحريضي، وشبههم بالنازيين، متهماً إياهم بإبادة ثلث اليهود عن طريق إذابتهم في المجتمعات الوثنية<sup>(١)</sup>.

- ولكن لا تنسى أن الحاخام "أروي رجف" قد بالغ وقتها بتضخيم تلك التصريحات واعتبر أنها تشكل تهديداً جدياً على حياة الإصلاحيين، وطالب الحكومة بفتح تحقيق مع الحاخام بكاشي لإهداره دمهم.

(١) يقصد المسيحية تحديداً.

## ◀ حرديم وقوميين

- لاحظ أبراهام مدى عمق الحديث عن الصراع السياسي القائم بين شرائح الشعب، فقرر العودة إلى الموضوع الأهم من وجهة نظره؛ فقال مركزاً على البُعد الديني:
- إن إسرائيل آخذة بالانقسام إلى "يهود" يؤمنون بالشريعة و"إسرائيليين" يبنون هوية وطنية بين أمم الغرب، وعليك أن تختاري إلى أي طرف تنتمي.
  - طبعاً طرف اليهود.
  - ثم أردفت قائلة بشيء من الاستفزاز:
  - ولكن ليس على طريقة المتدينين الحرديم، بل على طريقة المتدينين القوميين.
  - لماذا؟!
  - لأنهم يؤمنون بأن الخلاص قد بدأ وسرعان ما يكتمل بالمجيء الوشيك للمسيح، ويرون أيضاً أن هناك ظروفاً خاصة تبرر التخلي مؤقتاً عن بعض القيود بما يساعد على التعجيل بعملية الخلاص. وأستطيع أن أؤكد بثقة وعن مصدر قيادي في المبدال بأنهم قطعوا شوطاً كبيراً في ذلك، ولعل قيامهم بتأييد انخراط مُعلمي التلمود بالخدمة العسكرية خير مثال على واقعتهم وخروجهم من دائرة التنظير. أما الحرديم فهم على النقيض من ذلك؛ كثيرو التنظير والتأويل، ويكبلون أنفسهم بكل القيود الوهمية.
  - مثل ماذا؟
  - مثل اتشاحهم بالسواد، مع أن الشريعة لا تلزم اليهود بارتداء الملابس السوداء أو تلك القبعات السخيفة. أما المتدينون القوميون فهم عادة يرتدون الملابس العادية التي يرتديها بقية الإسرائيليين ويضيفون إليها اليرمولكا لإضفاء البعد الديني.

- صحيح أن الشريعة لا تنص على تلك الملابس السوداء، ولكن الحريديم يتمسكون بها كنوع من الاعتراض على البدع.

- ولكن هذا الزي نفسه بدعة؛ فهو لم يتم ارتداؤه إلا في حدود سنة ١٨٥٠ ميلادية من خلال يهود شرق أوروبا، وقد كان خاصاً بالنبلاء البولنديين آنذاك. والأكثر من ذلك أنهم يضيفون إلى تلك القيود قيوداً جديدة ما أنزل الله بها من سلطان.

- مثل ماذا؟

- تحريمهم لأي ابتكار حديث كالتلفزيون مثلاً. كما أن لهم مواقف بالغة التعقيد تجاه المرأة؛ فهم يحرمون على اليهود الذكور الاستماع إلى غنائها، سواء في مجموعة أو على شكل منفرد بصرف النظر عما يتم غناؤه. حتى إنه بعد انتخابات عام ١٩٨٨ ونزولاً على رغبتهم قام مطرب رجل بغناء "الهاتيكفاه"<sup>(١)</sup> بالكنيسة في أثناء مراسم الافتتاح، وكانت تقوم مجموعة من الرجال والنساء قبل ذلك بأداء هذا النشيد، وقد تمكنوا من ذلك عن طريق الابتزاز السياسي، تماماً كما هدد حزب شاس سابقاً بالانسحاب من حكومة رابين؛ لأن وزيرة التعليم "ألوني" تم تصويرها وهي تأكل خلاف المواصفات اليهودية، وكما احتج مع عدد من الأحزاب الدينية والحاخامات على تدنيس التعاليم اليهودية من قبل عضو الكنيسة "يائيل دايان" لأنها كانت ترتدي ثوب الاستحمام، وتقرأ كتاباً عن عيد الغفران على شاطئ تل أبيب.

- ولكن لا تنس أن المفدال أيضاً قد قام باستتجار مخبرين سريريين من أجل التجسس على الوزراء لمعرفة الذين ينتهكون التعاليم اليهودية. فلم لا تعتبرين ذلك أيضاً من قبيل الابتزاز السياسي؟  
فاعترضت راحيل قائلةً:

(١) الهاتيكفاه هي النشيد الوطني للكيان الصهيوني.

- شتان بين هذا وذاك: فقد قام المتدينون القوميون بذلك من باب حرصهم على المحافظة على الشريعة بين إخوانهم اليهود، وليس لهم مصلحة غير ذلك. أما الحريديم فمن باب الاستعلاء على الآخر، مهما كان مركزه. فرابين لم يستطع الاتصال ببعض الحاخامات، لأنهم كانوا يرون "أن التواصل مع شخص آثم مثله يحط من قدرهم"، وأفتى الحاخام عوفاديا يوسف أن يهود باراك يكره إسرائيل ويكره اليهود. وشارون رغم علمانيته وعمره وسمنته، اضطر أن يسير أكثر من نصف كيلو متر متجهاً إلى الحاخام "رينغن" البالغ من العمر فقط خمسة وأربعين عاماً ليطلب رضاه! كما أنه خضع لطقوس لا يؤمن بها لمجرد اللقاء مع الحاخام إسحاق قدوري! ولأجل هذا فهم ينفصلون عن باقي المجتمع اليهودي، الذي يرون أنه مجتمع آثم ابتعد عن الله، وفي الوقت نفسه يريدون فرض آرائهم على المجتمع الإسرائيلي بأسره. وقضية "التبرع بالدم من غير يهودي" مثال آخر على ذلك، فهم يعتبرون أن اليهودي الذي يحصل على دم "ملوث" من علماني أو غير يهودي يجعل اليهودي النقي يتصرف على نحو شرير، ويجعله يخل بالتزامات الدين اليهودي. وطبقاً لفتوى أحد كبار حاخاماته<sup>(١)</sup> فإن الدم الذي يأتي من شخص يتناول طعاماً حراماً<sup>(٢)</sup> يمكن أن يؤدي إلى تأثيرات سلبية على من يتلقونه من اليهود! فربما يحدث صفات مكروهة مثل الوحشية والتبذل! وعلى هذا فإن اليهودي الذي لا يحتاج إلى نقل دم عاجل والذي لا خطر موت عليه يجب عليه انتظار الحصول على دم من يهودي متدين! ومن المفاهيم السخيفة الأخرى لديهم، وهي أكثر ما يغيظني، أن المرأة رجس: فهم يشددون على ضرورة ألا يسمح رجلان لأية امرأة أو عربي أو كلب أو خنزير بالمرور بينهما، وعلى كل الذكور الحريديم الذين تتعدى أعمارهم العاشرة أن يلتزموا بهذا الأمر بمنتهى الصرامة. كما يحظرون على

(١) تقصد عوفاديا يوسف .

(٢) أي ليس كوشير .



النساء القيام بأي دور مهم في السياسة مهما بلغت ضآلته<sup>(١)</sup>، ولا القيام بأي نشاط عام يظهر فيه بمظهر القائد للرجال. والمرأة محظور عليها أيضاً أن تقود حافلة أو سيارة أجرة، ويمكنها أن تقود سيارة خاصة إذا كانت لا تحتوي في داخلها على رجال غرباء، أو تحتوي فقط على النساء.

- لا تنس أن كثيراً من هذه الأمور، هي من أصول الدين فعلاً، مع أنني أعترف بأنهم تزمتموا بها أكثر من اللازم، وحملوها أكثر مما تحتمل. وأتفق معك في أن ذلك خطأ، ولكنه لا يقارن بأي حال من الأحوال، مع أخطاء المتدينين القوميين.

- كيف ذلك؟

تساءلت راحيل باستنكار، فأجاب أبراهام بهدوء:

- لأنهم قرروا أنهم يجب أن يتولوا عمل الرب بأنفسهم حتى يعجلوا الخلاص وقدوم المسيح، بعد أن عيل صبرهم في انتظار جمع الرب للمنفيين، فوقفاً للشرعية، كما تعلمين، فإن كل من يتولى الأمور الإلهية بنفسه سيتسبب لا محالة بكوارث لليهود. كما أنهم يعتبرون إسرائيل هي مملكة الرب التي وعدنا بها، ولذلك يعارضون بشكل دائم أي انسحاب من الأراضي المحتلة منذ عام ١٩٦٧م. وسبق أن عارضوا بعنف الانسحاب الإسرائيلي من سيناء عام ١٩٧٨م، والآن يعارضون أي انسحاب من الضفة الغربية، في حين يعارض الحريديم بشدة مبدأ الاستيطان فيها. وقد قام المتدينون القوميون بطباعة وتوزيع أطلس يبين أرض إسرائيل المزعومة التي تشمل على سيناء والأردن ولبنان ومعظم سورية والكويت، وهم يدافعون بشدة عن السياسات العنصرية لحكومات إسرائيل تجاه الشعب الفلسطيني. كما أن أشهر سفاحي إسرائيل في القرن

(١) يعتبر الحاخامات الحريديم أن " النساء اللاتي يشاركن في الحياة السياسية ساحرات أو عاهرات أو ملعونات. وأن الكيان الصهيوني خسر الحرب يوم الغفران (حرب رمضان - تشرين الأول - أكتوبر) ١٩٧٣ لأن رئيسها كان امرأة (غولدا مائير)."

العشرين وعلى رأسهم "باروخ جولدشتاين"<sup>(١)</sup> و"إيجال عامير"<sup>(٢)</sup> هم من أبطالهم ويلقون إعجاباً وإكباراً من أغلبيتهم.

- لكن المتدينون القوميون لم يأتوا بهذا من فراغ! وهم أيضاً يستندون إلى مرجعية دينية في ذلك، فالاستيطان في كل أرض إسرائيل فريضة إلهية، والجمع بين "شعب وتوراة وأرض إسرائيل" عقيدة مركزية، والإيمان بالتفوق الديني هو من أصول الدين أيضاً، لنتمكن من رؤية النور الإلهي. وعليه، فهم ينتمون إلى أصولية شرعية.

- هذا يلتقي مع النظرة الصهيونية المؤمنة بتفوق العرق اليهودي!

- وهل من شك في ذلك التفوق؟!

- العرقي نعم. ولكن دعينا من ذلك الموضوع كي لا يحرفنا عن اتجاه حوارنا، وقولي

لي كيف نالت تلك الأصولية الاستيطانية التي تتحدثين عنها مصداقيتها وشرعيتها؟

- لقد نالت الأصولية اليهودية مصداقية وجودها، عندما بُسِطت السيادة اليهودية

على "أرض إسرائيل"؛ فقد أحدث ذلك ثورة حقيقية في بنية الحياة اليهودية، وكان

الحافز المباشر إلى بزوغها "حرب الأيام الستة"<sup>(٣)</sup>، ثم انتهت المرحلة الأولية من تطورها

على شكل حركة "غوش اليمونيم"<sup>(٤)</sup> بعد سبعة أعوام، عقب حرب "يوم الغفران".

- وهل ثمة حركات دينية قومية أخرى؟

(١) باروخ جولدشتاين هو سفاح مذبحه الحرم الإبراهيمي .

(٢) إيجال عامير هو الذي قام باغتيال إسحاق رابين رئيس الوزراء الأسبق .

(٣) تشكلت بعد مرور أقل من شهرين على حرب الأيام الستة في آب/ أغسطس ١٩٦٧ ، حيث التقى نفر من

الكتاب والمثقفين والفنانين والعسكريين وزعماء الكيبوتسات وعدد من الزعماء والشخصيات البارزة،

الذين كان لهم دور ملموس في الصراع من أجل تكوين الكيان الصهيوني ، وأعلنوا تأسيس الحركة التي

جعلت لها هدفاً أساسياً يتمثل في الضغط من أجل الاحتفاظ بكامل الأراضي المحتلة التي سقطت في

قبضة الكيان بعد هزيمة ١٩٦٧ ، وكان مؤسسها الجنرال السابق في الجيش "أبراهام يوفي" .

(٤) ظهرت داخل حزب المفدال سابقاً ثم خرجت كحركة غير حزبية في مطلع العام ١٩٧٤ .

- أجل بالطبع؛ فهناك حركة كاخ<sup>(١)</sup>، وحركة "أرض إسرائيل الكاملة"، وعصابات "أمناه"<sup>(٢)</sup>، وجماعة "آيال"<sup>(٣)</sup>، وحركة "جبل البيت" السرية، وحركة "هذه الأرض لنا"، ومجموعة "معهد الهيكل".

- ولكن هؤلاء هم عتاة المستوطنين العنصريين، وأغلب مشاكل إسرائيل بسببهم.  
- أرجوك أبراهام لا تدعي البراءة، فشاس وكثير من الأحزاب الدينية الحريدية التي تدافع عنها، يؤيدون الاستيطان بجميع أشكاله، ويعادون العرب بشكل خطير. كما أن حزب أغودات إسرائيل قد رفض في النهاية فكرة انتظار المشيخ، وقام بتكليفها لتتفق مع أفكاره، معلناً أن المشيخ سوف يأتي إذا استحق اليهود الخلاص في الأماكن المقدسة، ومن ثم رأى أن على اليهود العمل لإثبات أنهم يستحقون ذلك. وقد ترجم الحزب أفكاره عبر إنشاء سلسلة من "الموشافيم"<sup>(٤)</sup> في أماكن مختلفة من البلاد، وأيد جميع السياسات التوسعية التي انتهجتها الحكومات الإسرائيلية المختلفة، رابطاً ذلك بمدى استجابة الحكومات لمطالبه الدينية والمالية، أما المتدينون القوميون فصريحون منذ البداية مع أنفسهم.

(١) تعني "هكذا"، وقد تأسست على يد الإرهابي الحاخام "ماتير كهانا" عام ١٩٧٣ كامتداد لـ"رابطة الدفاع" اليهودية التي أنشأها كهانا في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٨، وحركة كاخ حركة يمينية إرهابية متطرفة مثلت في الكنيسة وتستمد مواقفها من تأويلات عنصرية للتوراة، وترى أنه يجب اضطهاد الفلسطينيين وطردهم، ولا تستثني من ذلك فلسطيني ١٩٤٨. وقد انقسمت الحركة بعد مقتل كاهانا إلى تنظيمين هما: حركة كاخ ومقرها كريات أربع ويقودها "باروخ مرزل" و"نوعام فدرمان" و"تيران بولاك"، وتنظيم "كهانا حي" ومقره في مستعمرة كناد تبواح في قضاء نابلس، ويتزعمه نجل ماتير كهانا ويساعده "ديفيد اكسلرود".

(٢) جبل الهيكل.

(٣) تعني التنظيم اليهودي المقاتل، وقد شكلت من قبل مجموعة من طلاب جامعة "بار إيلان" (جامعة دينية) في عام ١٩٩٢، وبعد اغتيال راين تم توجيه الاتهامات لجهاز الشين بيت (جهاز الاستخبارات الداخلي) بأنه يقف خلف نشأة آيال. وزعيم تلك الجماعة هو "أفيشاي رافيف"، وكان من أعضائها "ايغال عامير" قاتل راين، الذي تلقى بعض تدريبه في الشين بيت.

(٤) جمع موشاف.

- ومن قال إنني أدافع عن أحزاب بعينها؟!
- حسناً. يكفيننا حديثاً عن السياسة والدين. ولكن هل لي أن أسألك عن كيفية حصولك على كل تلك المعلومات رغم قصر المدة التي قضيتها هنا في إسرائيل؟
- أنا أحب أن أفهم طبيعة الناس المحيطين بي حيثما حللت، لذا فقد لجأت إلى بعض القراءة.
- هل تمنع إن دخنت لفاقة تبغ؟
- لا، بتاتاً.
- إذن هيا بنا نتابع حديثنا في الشرفة حتى لا تشم أمي رائحة الدخان.
- كانت راحيل تتابع أبراهام باهتمام وهو يشرح لها كيف تستطيع أن تصنع حلقات من الدخان، ولكنها عبثاً استطاعت تقليده. وفي النهاية قالت له مازحة:
- يبدو أنك مخادع كبير؛ فأمي تعتقد جازمة بأنك خالٍ من أي عادات ضارة، وأنت ملتزم دينياً، مع أنني أرى أنك مدخن عريق، ومن الأحداث التي مرت عليك، كما رويتها لي، فإنك لست بذلك الالتزام الذي أوهمتها به.
- اسمحي لي بالأوفاقك على ذلك؛ فأنا لست من أصحاب الوجهين. أما التدخين، فباستثناء التجارب الصبانية الفاشلة، تعد هذه المرة هي ثاني مرة أدخن بها في حياتي. صحيح أن المرة الأولى استمرت عدة ساعات متواصلة، واستهلكت خلالها نحو علبتين، مجرباً كل الحركات التي كنت أرى أقراني يقومون بها وقت الصغر، حتى نجحت في إتقان بعضها، إلا أنها مع ذلك كانت نفس المرة.
- وما الذي دفعك إلى التدخين بتلك الشراهة؟!
- تلك قصة طويلة.
- هل تريد التحدث عنها.

- ليس هناك ما يمكن التحدث عنه، فقط كنت أمر بوقت عصيب بعد أن رأيت الأمور من منظور يختلف كثيراً عما اعتدت عليه. ومع أن ذلك تضمن نقداً قاسياً لمعتقداتي، إلا أنه للأسف كان نقداً موضوعياً وهادئاً، بحيث لم يدع لي أي فرصة للرد المناسب عليه كما أفعل غالباً، ولم أجد وقتها غير التدخين لأشفي غليلي به، خاصة أن الرغبة بتجربة طعم التدخين كانت تراودني من مدة طويلة. وأما عن الالتزام الديني فهو شرف لا أدعيه، ولم أوهم والدتك بالالتزامي من قريب ولا بعيد.

- لا تأخذ الأمور بهذه الحساسية فقد كنت أمازحك فقط، وأنا أفهم أمي جيداً في اعتقادها بالالتزام الديني، بل أوافقها الرأي أيضاً. فرغم سعة اطلاعك على السياسة وبقية الأديان والعلوم العصرية، والجهد والوقت الذي بذلته في ذلك، وبالرغم من تحررك وعدم تعصبك المذهبي، إلا أنني أعتقد أنك ملتزم دينياً، وبشكل أكبر مما تظن أنت نفسك. أما التدخين، فانا واثقة من صحة ما قلته عن أن تجربتك فيه هي بضع ساعات. ويبدو أنك أستاذ في أي أمر ترغب به، بسيطاً كان أم معقداً، فتلك الساعات علمتك ما لم أستطع تعلمه خلال ثلاث سنوات من التدخين، وبعض القراءة علمك أكثر مما تعلمته خلال سنتين من الدروس والكتب الدينية، والاجتماعات الحزبية، مع أن عندي أستاذاً قديراً.

- شكراً للمجاملة.

- هذه ليست مجاملة؛ فأنت فعلاً أذكى وأبرع شاب تعرفت به في حياتي، فعادة يكون مثل هذا الذكاء والبراعة من صفات الرجال الأكثر نضجاً.

كاد قلب أبراهام يطير من الفرح لدى سماعه جملتها الأولى، إلا أن الجملة التي تلتها، والطريقة التي تفوهت بها، والتهيدة التي أتبعتها، ثم شرودها لبعض الوقت كأنها تسترجع في مخيلتها ذكريات حميمة، لم يدع كل ذلك له مجالاً للشك من كونها تعني شخصاً بعينه، هو الذي وصفته بالأستاذ القدير قبل قليل. رجلاً، قيادياً في

المفدال أو غوش أمونيم، مُعاد للحرديم، متقدم في السن، شديد الذكاء، بيرع في عدة مجالات ويتمتع بثقافة واسعة وقدرة على التأثير، وقد استحوذ على تفكيرها وقلبها... ومن الكيفية التي شردت بها، والطريقة التي أمسكت بها لفافة التبغ، قبل أن تسحب منها نفساً عميقاً، وتتنظر نحو الأفق البعيد غائبة عن كل ما حولها... فلربما يكون قد استحوذ أيضاً... على جسدها. هز رأسه بعنف محاولاً طرد تلك الأفكار من رأسه، وبالذات الفكرة الأخيرة التي أصابته بقشعريرة سرت من قمة رأسه حتى أخمص قدميه.

- أبراهام!!!

- عفواً؟

- أين سرحت؟

- أنا!!! بل أين سرحت أنت؟!

- ألم أقل لك إنك مخادع، لقد ناديتك عدة مرات قبل أن تتكرم وتستجيب لي أخيراً.

- حسناً ربما سرحت أنا أيضاً بعض الشيء، ولكن أخبريني، أين سرحت أنت؟

- سرحت في مدينتي: لقد دب الشوق إليها في قلبي، وأتلهف للعودة إليها ثانية.

لم يستطع أبراهام أن ينام تلك الليلة، ولم يهدأ له بال لليال طويلة بعدها: فقد ملكت عليه راحيل كل جوارحه، ولم يعد يفكر إلا بها. ومع أنها كانت ودودة معه، إلا أن حبها لذلك الوغد العجوز كان يسد الطريق على علاقة أكثر عمقاً معها: فقد تعمد التطرق معها إلى مواضيع معينة، انتزع من خلالها، ودون أن تشعر، معلومات تكاد تؤكد شكه بوجوده، واستنتاجاته حوله، مما زاد من نيران الغيرة المشتعلة في قلبه. ولكن فهمه لطبيعة شخصيتها جعله يكبح جموح مشاعره تلك ويخفي مخاوفه، خشية خسارتها، عبر التدخل بحياتها الشخصية دون وجه حق.

بدا وكأن أبراهام قد نسي كل شيء في حياته إلا راحيل، وصار يقضي جل وقته في زيارتها وأمها، أو التزّه معهما في ربوع مدينة القدس الجميلة. وعندما ودعها في محطة الحافلات أحس بأن جزءاً منه قد غادره معها، وسيطرت عليه كآبة وخمول لم يستطع منهما فكاًكاً لعدة أيام. وصار شغله الشاغل بعدها هو التفتن بشتى الطرائق لحث السيدة تيتلباوم على بذل جهد أكبر لتعميق علاقتها بابنتها ومداومة الاتصال بها يومياً. كما بالغ في تحذيرها من مغبة التفاضي عن قضاء فتاة بريئة كراحيل لفترات العطل في سكن الطالبات بعيداً عن رقابة الأهل، مُسهباً في وصف مخاطر أوقات الفراغ ورفيقات السوء.

وفعلاً، اجتهدت السيدة تيتلباوم في تطبيق نصائح أبراهام لاقتناعها بتبريراته، وفي الوقت نفسه لتعاطفها مع دوافعه التي كانت أصلاً من تديبرها. وبالتدرج عادت المياه إلى مجاريها مع ابنتها، وعادت معها الزيارات، التي أخذت بالتزايد تدريجياً حتى صارت راحيل تقضي كل إجازاتها تقريباً عند أمها. وبالتأكيد لم تُقوّت السيدة تيتلباوم الفرصة في أي منها دون أن تدعو أبراهام إلى الغداء، كأنها توحى له بأنه هو المقصود بزيارات راحيل المتكررة لها، وفي الوقت نفسه لم تكن تدخر جهداً في سبيل إقناع ابنتها بمحاسن أبراهام وفضائله، وكونه الزوج المثالي الذي يجب أن تفكر فيه. لم تكن راحيل مستعدة لتقبل فكرة الزواج في تلك المرحلة من حياتها، إلا أن ذكاء أبراهام وكياسته، بالإضافة إلى جهوده الدؤوبة في محاولة جعل إجازاتها ممتعة حقاً، جعلته يحظى بإعجابها وتقديرها؛ فقد كان يصطحبها وأمها في كل مرة إلى مكان جديد من أماكن القدس الترفيحية الراقية، ويحاول تفهم آرائها الدينية والسياسية قدر الإمكان رغم عدم اقتناعه بها. ومع مرور الزمن توطدت صداقة حميمة بينهما، تطورت سريعاً، من جهته على الأقل، إلى حب عنيف، نسي معه الدنيا وما عليها.

## ◀ عسكرة التعليم

لأول مرة في حياته شعر أبراهام أنه يعيش قصة حب كتلك التي كان يسمع أو يقرأ عنها . فعندما يكون بقرب راحيل كان يشعر بأنه أسعد إنسان على وجه الخليقة، ويمتلئ حيوية ومرحاً، وعندما تغادره إلى كليتها، كان يعود إلى حزنه وانطوائه، وبعد الأيام في انتظار إجازتها القادمة . وفي إحدى المرات التي طال غياب راحيل فيها، جلس في الحديقة التي اصطحبها إليها في الإجازة السابقة ليسترجع بعض الذكريات . وبينما هو كذلك، جاء زوجان شابان بصحبة أطفالهما الثلاثة، الذين ما إن شاهدوا المراجيح حتى تسابقوا إليها يلعبون ويصخبون . فحلق في خياله بيني قصراً في الهواء، يسكنه مع راحيل وجيشاً من أبنائهما الصغار يلعبون حولهما في سعادة وحبور، إلى أن أعاده إلى الواقع صوت امرأة عجوز تطلب الإذن بالجلوس على مقعده، فأجاب متلعثماً:

- بالطبع سيدتي تفضلي .

- شكراً لك يا بني .

ثم حنت جسدها وهي لا تزال تستند إلى عصاها حتى استقرت على المقعد، وبعد أن التقطت أنفاسها إثر ذلك الجهد المضني، نظرت إليه قائلة:

- إن التهاب المفاصل يقيّد حركتي، وارتفاع نسبة السكر في الدم يدعوني إلى

المشي والرياضة كي أتمكن من حرقه، فقل لي بالله عليك، ماذا أفعل!

- شفاك الرب من كليهما .

- كنت طوال الطريق أراقب كيف تنظر إلى أولئك الأطفال، أظنك ستكون أباً

حنوناً .



- هذا لطف منك. ولكن هل قضيت وقتاً طويلاً وأنا أنظر إليهم؟
- كل الوقت الذي استغرقته أنا للانتقال من ذلك المقعد.
- وأشارت بيدها إلى مقعد يبعد نحو عشرة أمتار، ثم أردفت غامزة:
- وهو زمن طويل بالنسبة إلى سرعتي الحالية في المشي.
- هل تأتين إلى هنا كثيراً؟
- أجل فييتي في ذلك البناء المقابل. بالمناسبة، لقد شاهدتك هنا قبل عدة أيام مع زوجتك وحمامتك. لا تقلق يا بني إن تأخرت زوجتك بالإنجاب، فأنتما لا تزالان شابين وسيكون لديكما متسع من الوقت لذلك مستقبلاً.
- ما الذي جعلك تظنين أنها زوجتي؟
- أوه. إذن أنت لست محروماً من نعمة الأولاد كما ظننت، بل تفكر في بناء أسرة.
- ربما.
- من أين أنت؟
- من روسيا؟
- يا للمصادفة السعيدة: فأنا أيضاً من روسيا. ولكن يبدو أنك مهاجر جديد أليس كذلك؟
- لقد قاربت على السنة في إسرائيل.
- أوه. أنت لا تزال طازجاً. تزوج يا بني إن أردت، ولكن تراث بالنسبة إلى الأولاد، أو على الأقل لا تدعهم يربون هنا<sup>(١)</sup>.
- لماذا؟

(١) كشفت نتائج استطلاع "المقياس" الإسرائيلي "للمديمقراطية" أن أغلب المهاجرين اليهود الروس لا يثقون بالكيان، كما بلغت نسبة المتفائلين بمستقبله ٩٪ فقط، أما نسبة الذين يثقون بالبقاء وتربية أولادهم في الكيان الصهيوني فبلغت ٢٨٪ فقط.

فأجابت العجوز بحسرة:

- لأنك تعيش في المكان والزمان الخطأ، وحولك الكثير من الأشرار أمثالي.

- عفواً؟

- لقد قضيت جزءاً كبيراً من حياتي في إسرائيل في حقل التدريس، ولست أفخر بذلك. فعندما يأتينا الأطفال إلى المدرسة يكونون كهؤلاء الأطفال الذين تنظر إليهم: أبرياء وحالمين. ولكننا نصنع منهم وحوشاً عديمي الضمير.

- ماذا تقصدين؟

- إن المناهج الدراسية هنا قد تم تصميمها لإحاطة الطلاب منذ صغرهم ببيئة عسكرية تمجد الجيش وتهيئهم ليصبحوا من جنوده في المستقبل، وتعلمهم أن الخدمة العسكرية هي تحقيق لوعد الرب، وأنها من ثم أعلى الواجبات الدينية. وأول درس يتعلمه الطفل هنا هو أن أرض الرب الموعودة قد سرقها العرب المسلمون لأنهم "لصوص كافرون"، وأن واجبه الديني يتطلب منه "تحقيق رغبة الرب بتطهير الأرض الموعودة منهم، وإعادة بناء الهيكل على أنقاض مسجدهم".

تتهدد بحسرة، ثم تابعت قائلة:

- كنا نغسل أدمغة الناشئة بفكر صهيوني عسكري متعصب، وملوث بصبغة دينية مشوهة، يربي كراهية ضد العرب، ويجردهم من إنسانيتهم، ويصفهم بالهمجية والتأخر والإجرام، والقذارة.

- لماذا؟

- لننزع الرحمة من قلوبهم تجاه العدو، ونزرع القسوة عوضاً عنها، متجاهلين أننا عندما نتجح في ذلك، فمن الطبيعي ألا يقتصر عنفهم على العرب فحسب! فبين الفترة والأخرى تهز المجتمع الإسرائيلي جرائم بشعة يقوم بها طلاب المدارس بجرائم

القتل أو الانتحار أو الاغتصاب الجماعي<sup>(١)</sup>.

- كيف استطعت فعل ذلك؟

- كنا نقوم بتنظيم رحلات مدرسية إلى القواعد العسكرية، بهدف تعريف الطلاب عن قرب على الحياة العسكرية، وجميع أنواع الأسلحة. وكنا نشجعهم على التقاط صور تذكارية مع الجنود، وعلى مشاهدة تدريباتهم العسكرية بالرصاصة الحي. كما كنا نحثهم على توقيع القذائف التي تطلقها المدافع العسكرية على الأحياء العربية لقتل الأطفال.

- إذا كانت هذه هي وجهة نظرك في التعليم بإسرائيل، فكيف تفسرين مشاركتك فيه؟  
- عندما قدمت إلى إسرائيل كنت شابة اشتراكية متحمسة، ومغرراً بها من قبل الدعاية الصهيونية. وقد قبلت في "المؤسسة"<sup>(٢)</sup> بسرعة نظراً لجمالي وتحريري وحيبي

(١) آخرها ما تناقلته وسائل إعلام الكيان عن اغتصاب جماعي لبنت عمرها ١٢ عاماً، وقالت الصحف إنه تم الكشف عن هذه القضية بعد أن قدمت الفتاة المغتصبة وعائلتها شكوى إلى الشرطة التي فضلت القيام بحملة الاعتقالات بعد انتهاء عطلة عيد "لاغ بعومر" اليهودي!!! وبالفعل قامت بعد العيد بحملة اعتقالات واقتحامات لعدة مدارس في مدينة "حولون". وقد ربطت وسائل الإعلام تلك القضية بالقضية السابقة التي قام بها ١٣ شاباً صهيونياً باغتصاب فتاة بشكل مستمر خلال فترة طويلة. يذكر أن الكيان الصهيوني يقف (بلا منازع) في مقدمة الدول التي يعاني طلابها العنف في المدارس، فقد أعلن ٢٤٪ من التلاميذ الذين سئلوا عن الأمر أنهم وقعوا ضحية لاعتداءات جسدية من زملائهم داخل أسوار المدرسة. ويلى الكيان في هذا السلم أستراليا ولكن بفارق كبير جداً ١٤٪، تليها تشيلي ١٢٪، ثم الولايات المتحدة ١١،٥٪، وتقف في قاع هذا السلم كل من أندونيسيا والمغرب وتونس التي قال تلاميذها إنهم لم يتعرضوا في حياتهم لاعتداء جسدي داخل المدرسة. ويتقاسم الكيان وأستراليا المرتبة الأولى أيضاً في سلم العنف الكلامي. حيث روى ٥١٪ من التلاميذ أنهم تعرضوا للشتم وكلمات التحقير من زملائهم. تليهما هولندا ٤٩٪، والولايات المتحدة وكندا ٤٦٪، وتختتم القائمة كل من أندونيسيا ولتوانيا ولاتفيا؛ التي قال ٣،١٪ من تلاميذها إنهم تعرضوا للعنف الكلامي. وكشفت وزارة التربية والتعليم الصهيونية عن معطيات تشير إلى أن نحو ٦٦٪ من الحوادث الجنسية التي وقعت في الكيان قام بها تلاميذ، ويحتل الكيان الصهيوني المرتبة الثانية عالمياً في نسبة الأطفال الذين يتعاطون الخمر. ثم يقولون إن مدارسنا هي معامل لتفريخ العنف والإرهاب!!!!

(٢) تقصد الموساد أي "مؤسسة الاستخبارات والوظائف الخاصة".

للمغامرة والإثارة، فكانت نوعية العرب الذين علي الإيقاع بهم، لا تختلف كثيراً عما تروجه تلك الدعاية بشأنهم. وبعد تقدمي في العمر عملت بالتدريس بقدر مضاعف من الكراهية والعنصرية تجاههم، لكن كلما تعرفت أكثر على نظام التعليم، وكلما زاد احتكاكي مع عرب إسرائيل، كنت أزداد شكاً في مبادئ الصهيونية ودعايتها. وبعد أن وعيت الحقيقة، كان الوقت متأخراً، فتابعت حياتي كالأخرين. وقد تقاعدت منذ خمس سنوات كانت كافية لأن أعيد النظر في جميع حساباتي.

- ولكن بعد فوات الأوان. آه من الاشتراكية. لماذا يبتعد الجميع عن طريق الرب؟! فردت عليه العجوز مؤنبة:

- يبدو أنك لم تفهم ما قلته لك! ليست الاشتراكية هي السبب، بل على العكس من ذلك تماماً؛ فاليسار هو منبع دعوات السلام والتعايش والمساواة بين الشعوب. ولكن طريق الرب، الذي تتكلم عليه، هو الذي أوصلنا إلى ذلك.

- ألم تكونوا أنتم الاشتراكيين التقدميين تنظرون إلى العرب على أنهم أسوأ أنواع الرجعية.

- أجل، وكنا بوصفنا أوريبيين ننظر إليهم بوصفهم متخلفين آسيويين يقفون في وجه طموحاتنا الوطنية، ولكن الأكثر تأثيراً آنذاك هو أننا كنا نحن اليهود ننظر إليهم على أنهم غوييم يجب قتلهم. والحاخامات هم المسؤولون عن تلك النظرة الأخيرة.

- أي منهم؟

- كلهم تقريباً. هل لديك الوقت الكافي لأسرد أسماءهم وفتاواهم؟ لأن هذا قد يستغرق أياماً. استعد فسأبدأ: أصدر الحاخام الأكبر "مردخاي إياهو"<sup>(١)</sup> فتوى دينية حلل فيها إبادة الفلسطينيين كواجب ديني. أما الحاخام "إيعازر ملمييد" فقد أصدر فتوى حلل فيها للمستوطنين سرقة المحاصيل الزراعية الخاصة بالعرب وحرقتها،

(١) كبير حاخامات الكيان الصهيوني السابق.

وقتل مواشيهم وتسميم مياه آبارهم، إلى أن أصبحت هذه الجرائم مغامرات ليلية لشبابنا ضد القرى العربية المجاورة. أما أكثر الفتاوى تطرفاً فقد صدرت من الحاخام عوفاديا يوسف الذي وصف العرب مرة بـ"الأفاعي" ومرة بـ"الحشرات والصراصير" التي يجب أن تداس بالأقدام. كما أمر بدفن جثث الإرهابيين<sup>(١)</sup> داخل جلود الخنازير لتجسيها، وكذلك ادعى أن المشيخ القادم سيلقي جميع "الكفار العرب" في جهنم. وفي شهر أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥ قام كبار حاخامات إسرائيل بقيادة الحاخام "دوف لينور" بتقديم فتوى دينية لرئيس الوزراء آنذاك (آرييل شارون) يحللون له فيها قتل المدنيين الفلسطينيين مستشهدين بذلك بملوك إسرائيل القدامى، مثل الملك شاول والملك داوود، اللذين "أرسلهما رب إسرائيل لذبح جميع الغوييم دون استثناء، أطفالاً وشيوخاً. والحاخام...

- حسناً، حسناً. لا داعي للمزيد، فقد أثبت وجهة نظرك.

- ليس بعد، فهذه الفتاوى وغيرها أصبحت قوانين، صرنا ندرسها في المدارس جنباً إلى جنب مع كتب الدين الحديثة، التي تمجد مجرمي الحرب الصهيونية واصفة إياهم "بالأبطال الوطنيين وبالقديسين" لقتلهم الغوييم الفلسطينيين، مثل كتاب "باروخ البطل" الذي نشره الحاخام "إسحق جينزبرغ"<sup>(٢)</sup>، وهذا ما أضفى شرعية دينية على عسكرة مناهج التعليم في إسرائيل وعنصريتها.

أطرق أبراهام مفكراً، فأردفت العجوز قائلة وهي تحاول أن تشرح وجهة نظرها

بشكل أوضح:

(١) شهداء المجاهدين الفلسطينيين .

(٢) الكتاب هو تمجيد لذكرى الإرهابي باروخ غولدشتاين منفذ مذبحه الحرم الإبراهيمي عام ١٩٩٤ حين اغتال ٢٩ فلسطينياً وجرح العشرات في أثناء ركوعهم للصلاة قبل أن يقتله بقية المصلين . وقد رفع المستعمرون الصهيونية رتبة هذا الإرهابي إلى درجة "القديس" ، وأقاموا له "مزاراً دينياً" في مستعمرة "كريات أربع" حيث يزوره المتطرفون المتدينون الصهيونية .

- أنت لا تزال جديداً هنا يا بني، وكما تأثرت أنا سابقاً بالدعاية الصهيونية، فيبدو أنك تأثرت بالدعاية الدينية التي تدعي بأنها تختلف عنها. ولكن الحقيقة يا بني أن اليهودية لا تختلف عن الصهيونية، والعلاقة بينهما علاقة المقدمة بالنتيجة، أو كما قال هرتزل: "علاقة بين الرأس والجسد". بل إن اليهودية تفوق الصهيونية أحياناً في صهيونيتها، وقد ظهر هذا واضحاً عام ٢٠٠٤ عندما طبق رئيس الوزراء السابق أرييل شارون خطة الانفصال بنقل المستوطنات الصهيونية خارج قطاع غزة، فأصدر الحاخام البارز "أبراهام شايبير" أوامره إلى طلابه وإلى أتباعه بأن يهجروا الجيش في حال تطبيق خطة الانسحاب، كما أمر الحاخام "حاييم دروكمان" طلابه وأتباعه بإطلاق النار على رجال الأمن إذا حاولوا إخلاء المستعمرات بالقوة.

- ما الآليات التي كنتم تستخدمونها لزرع الروح العسكرية في قلوب الناشئة؟  
 - إن كثيراً من الواجبات المدرسية التي كنا نكلف الطلاب بها هي كتابة رسائل إلى الجنود لشكرهم على "قتل أعداء شعب الله المختار"، أي أولئك الأطفال الفلسطينيين. وكثيراً ما كنا ندعو ضباط الجيش وجنوده إلى المدارس ليحدثوا الطلاب عن الحروب، مادحين الجيش "الذي لا يقهر بسبب الحماية الإلهية"، ويحدثوهم عن المجازر التي يوقعونها بأعداء الرب من أجل تقسية قلوبهم ضد هذه الفظائع لتبدو وكأنها أعمال جلييلة.

- هل سيطر العسكريون على المدارس على هذه الدرجة؟  
 - وأكثر. فما الذي جعلني أتقاعد قبل أوان تقاعدي؟ وما الذي جعلني أبقى مدرسة دون أن أترقى، مع أن خدماتي جلييلة لإسرائيل أيام شبابي، إلا سيطرتهم عليها؟  
 - وما دخل ذلك بتقاعدك المبكر أو بترقيتك؟  
 - لقد استحوذ العسكريون على إدارة المؤسسات التعليمية، وعلى تدريس الطلاب. فوقوف جنرال عسكري أمام الطلاب يتطلب اهتماماً جدياً، ويكون مثلاً أعلى يحتذى

به الطلاب. وقد تبنت وزارة التعليم في إسرائيل برنامجاً باسم "تسافتا" لتأهيل العسكريين ورجال المخابرات المتقاعدين ليصبحوا معلمين ومديري مدارس. وأعرب مدير هذا البرنامج "موتي ساجي"، أن هدف هذا البرنامج ليس البحث عن معلمين محترفين مؤهلين، بل البحث عن قادة عسكريين ذوي خبرات خاصة. وقد استطاع اليمين العسكري المتطرف احتلال المناصب العليا في وزارة التعليم جاعلين النظام التعليمي أكثر عسكرية، خاصة بعد أن تولت "ليمور ليفنات" وزارة التعليم عام ٢٠٠٠.

- الجميع يعلم أن الضباط الحاليين والسابقين هم الذين يحركون عجلة الحياة في إسرائيل، وها أنت ذي تقولين إنهم سيطرون على إدارة المؤسسات التعليمية أيضاً. وهم بأغليبيتهم من العلمانيين، مما يبرئ المؤسسة الدينية من جزء كبير من اتهاماتك. وأستشهد هنا بكتاب "مصير اليهود" للمؤلفة اليهودية "فيورليخت" حيث قالت فيه: "إن أول مساهمة لليهودية كانت القانون الأخلاقي، وإن عظمة اليهودية، لم تكن في ملوكها وإنما في أنبيائها. وإن الله لم يأمر اليهود بالموت، ولكنه أمرهم بالحياة. وقد دلت على قولها بنص من التوراة: لقد وضعت أمامكم الحياة والموت ... ولذلك عليكم أن تختاروا الحياة"، وتضيف قائلة: "ومع ذلك، فإن الإسرائيليين بوضع مصيرهم بيد الجيوش والأسلحة، وبتشريفهم الجنرالات أكثر من الحاخامات، لا يختارون الحياة وإنما يختارون الموت"، وتحذر من أن "أولئك الذين يجعلون من إسرائيل إلهاً يعبد، يدفعوننا في هذا الاتجاه".

- لا تبرئ حاخاماتك تماماً، وإلا فماذا نقول عن الـ"شيفوت هاهسادير"<sup>(١)</sup> التي زاوجت بين التطرف الديني والتطرف العسكري برباط مقدس. إن هذه المؤسسات تدار بواسطة حاخامات متطرفين يستقبلون خريجي المدارس الثانوية ليزرعوا في نفوسهم التعاليم الدينية الصهيونية العنصرية عدا عن التدريبات العسكرية. ومع أن

(١) مؤسسات عسكرية دينية توجد بشكل رئيسي في المستوطنات وفي مدينة القدس.

وزارة الدفاع تمويل هذه المؤسسات إلا أنها لا تتحكم بها، بل ينفرد الحاخامات بجميع شؤونها. والمناهج الدينية لهذه المؤسسات مبنية بشكل رئيسي على الفتاوى الدينية الصهيونية المفعمة بالعنصرية والكراهية ضد الغوييم، وخاصة العرب منهم. والمعروف عن الحاخامات، المعلمين في هذه المؤسسات، تهجمهم على العرب ومعارضتهم لأي معاهدة سلام معهم. فمثلاً الحاخام الشرقي البارز "إيلي البارز" مشهور بتهجماته الشديدة على الإسلام وعلى نبيه تحديداً. أما الحاخام "إياهو ريسكين" فمشهور بتهكماته على محاولات الحوار الدينية التي تجمع ما بين حاخامات اليهود من جهة والقساوسة المسيحيين وشيوخ الإسلام العرب من جهة أخرى، إذ ينادي بأن اللغة الوحيدة التي يفهمها العرب هي لغة الرصاص.

- هل تقصد المتدينين القوميين؟

- ليس هناك فرق جوهري بين المتدينين المتشددين من اليهود بمختلف طوائفهم، فهم في النهاية "أصوليون".

- على كل الأحوال فأنا أوافقك على أن من تتحدثين عنهم، مهما كان توجههم الديني، هم مجرمون فعلاً. وأنا أعجب كيف يصمت العالم عنهم؟

- ومن ذا الذي يجروا على التعرض إلى العنصرية اليهودية في الغرب؟! ومن ذا الذي يغامر باحتمال اتهامه بعمادة السامية؟! وإن أراد دعاة حقوق الإنسان التهجم على الدين وتأثيره على أنظمة التعليم، فيستطيعون التهجم على المسيحية إن عادت إلى عبارات "لعن اليهود"، أو على الإسلام إن تابع التشجيع على "الجهاد"، ولكن بالتأكيد سيفكرون ألف مرة قبل التهور بالمساس باليهودية من قريب أو بعيد.

- أنت تبالغين بلا شك.

- مطلقاً، وسأثبت لك ذلك.



## ◀ لعبة الكبار

قالت السيدة العجوز بلهجة مُدرسة تحاول أن تشرح لتلميذها أحد أمور الحياة:

- أنت لا ريب سمعت عن تسخير وسائل الإعلام والفن في سبيل ترميم صورة "يهودا الإسخريوطي"، من دراسات وأفلام وروايات هدفها فقط تبرئته من الخيانة. حتى أوصى مقربون من البابا الجديد بتغيير صورته في عين الكنيسة الكاثوليكية من اليهودي الخائن، الذي يسلم المسيح إلى جنود الكاهن الكبير الشرير، إلى تلميذ أمين ليسوع، يقوم بوظيفته في البرنامج الإلهي. وإذا كان الله هو الذي قرر مسبقاً بأن يموت ابنه على الصليب، فما ذنب يهودا المسكين!

- لم أفهم ما هو وجه الأهمية في ذلك؟

تساءل أبراهام غير مدرك لعلاقة مثل هذا الأمر بما تحاول اثباته، فأجابت موضحةً:

- لو كان أحد الأحد عشر تلميذاً الآخرين هو الذي نفذ الخيانة، فمن الممكن ألا يكون لذلك أهمية، ولكن لأن اسم يهودا هو الاسم الذي اشتق منه اسم اليهود جميعاً<sup>(١)</sup>. فإن خيانة الرجل الواحد تتحول في وعي المسيحيين إلى خيانة اليهود كلهم. لذا واجب تبرئة يهودا بأي طريقة.

- إلى هذه الدرجة؟

- بل هذه درجة من العيار الخفيف، نظراً إلى أن نظام التعليم المسيحي قد تم ترويضه بشكل كامل أصلاً، وإن أردت درجة أعلى فيمكنك أن تستحضر توظيف وسائل

(١) كما بينا في هذه الرواية، فإن تسمية اليهود هي نسبة إلى مملكة يهودا، التي هي نسبة إلى القبيلة الأكبر من السبطين أو القبيلتين القاطنتين فيها (يهودا وبنيامين)، ويهودا هو ابن يعقوب عليه السلام الذي اختص بالملك ومن نسله كان داوود وسليمان عليهما السلام وبقية ملوك يهودا التسعة عشر.

الإعلام الرئيسية في الغرب للنقد والتهمج على أنظمة التعليم العربية والإسلامية وتصويرها على أنها "منايع للكراهية والعنصرية والعنف الديني والإرهاب". وآخر ما وصل إليّ بهذا الخصوص هو توجه "باربارا والترز"، مذيعة برنامج ٢٠/٢٠ في محطة تلفزيون ABC الأمريكية، إلى المملكة العربية السعودية لانتقاد المدارس الإسلامية هناك. فاختارت نصوصاً قرآنية تنتقد اليهود، ووصفتها بأنها آيات تثير الكراهية ومعاداة السامية. ومع ذلك استمع إليها المسؤولون السعوديون برحابة صدر، واعدن بتحديث المناهج الإسلامية. إن "الترز" وصحبتها من الناقدين الغربيين لم يتجرؤوا على تفحص مناهج التعليم في إسرائيل ومقارنتها بما انتقدوه.

- لماذا؟

- لماذا؟؟!! لأن ذلك يعد خروجاً عن المخطط المرسوم من قبل أساطين الدعاية ومشكلي الوعي العالمي.

- هل تلمحين إلى "نظرية المؤامرة" وما يقولونه عن بروتوكولات حكماء صهيون؟! ارتسمت تعابير مأكرة على وجهها وهي ترد قائلة:

- فلنسمها ببساطة مجموعة اجتماعات عقدها حكماؤنا في الخفاء، لتدأرس أوضاعنا في العالم، ومنع تكرار ما حصل معنا في الماضي من مذابح وطرد، والاستفادة من كل إمكانياتنا مجتمعة وتنظيمها لرعاية مصالحنا وضمان سيطرتنا على مقدرات العالم، وعدم التورع عن أي شيء في سبيل ذلك.

- غريب أن تتحدثني عن هذا دون تحفظ!

- أنا في أواخر أيامي، ولم أعد أخشى شيئاً، كما أنه ليس عندي أصلاً ما أخسره، ولذلك أستطيع أن أؤكد لك أن النظام العالمي الحالي يسير على مخطط تأمري مرسوم بدقة، وكل من يخرج عن السرب يلقي مصيراً محتوماً. وأنا نفسي كنت إحدى أدوات تلك المؤامرة.

- وهل سيحدث السعوديون مناهجهم فعلاً.

- لم لا؟ فلا تنسَ أن هناك سوابق لدول عربية أخرى حذفت فعلاً كل الآيات القرآنية التي تنتقد اليهود من مناهجها المدرسية، في حين بقيت المناهج الإسرائيلية مليئة بالنصوص التوراتية والتلمودية التي تمجد قتل الكنعانيين<sup>(١)</sup>، بالإضافة إلى الفتاوى التي تحدثنا عنها قبل قليل.

- فعلاً.

- كما أن شارون نجح في إقناع منظمي إحدى القمم بالتركيز على الدعوات التي تحض على الكراهية والحقد، والتي تنتشر في كل أقسام الصحافة الفلسطينية، من البرامج الموجهة للأطفال، وحتى أفلام الخيال. وقد ساندته في ذلك الرئيس الأمريكي آنذاك "كلاينتون" ووزيرته "مادلين أولبرايت"، التي اكتشفت وجود مخيم في غزة لتدريب الأطفال الفلسطينيين، وتم الاتفاق على تشكيل لجنة أمريكية إسرائيلية فلسطينية لدراسة الأمر. وبعد سلسلة من الاجتماعات في أورشليم و"رام الله" وغزة ووزارة الخارجية الأمريكية، افتتح الأمريكيون أن "الكتب المدرسية الفلسطينية لا تذكر إسرائيل إلا تحت مسمى "الكيان الصهيوني"، وبلهجة عدائية وحاقدة! وكذلك الأمر بالنسبة إلى البرامج التلفزيونية، التي تحض على العنف والكراهية ضد اليهود"، ونتيجة للانحياز الأمريكي، أسقط في أيدي القادة الفلسطينيين، ولم يقدرُوا على الدفع عن أنفسهم!!! هل تتصور ذلك؟ لم يخطر في بال الرئيس الأمريكي أو وزيرة خارجيته أن يطلعا على صحافتنا اليمينية التي تقطر كراهية وعنصرية وعداء، ولا أن يكلفا أحداً بدراسة المناهج الإسرائيلية المليئة بعمليات غسيل الأدمغة لعسكرتها وتكريس الكراهية والعنف فيها، وكأن ذلك لم يعد كافياً، فوجهت الأبصار نحو ترويض الإعلام العربي أيضاً.

- كيف ذلك.

(١) تسمية الفلسطينيين في التوراة، وقد سميت فلسطين في الفترة التي وصل فيها بنو إسرائيل بـ"أرض كنعان".

- لقد أقامت الدوائر الثقافية الغربية الكثير من الندوات الثقافية ومنتديات حوار الحضارات بشكل لافت للنظر في السنوات الأخيرة الماضية، تكفلت فيها بتذاكر سفر المثقفين والإعلاميين العرب وإقامتهم ومصاريفهم ومكافآتهم، وأحياناً بحوافز أكثر سخاء ومغريات أكثر إثارة. هل تفهم ما أعنيه؟

قالت جملتها الأخيرة وهي تبسم بخبث، فتبسم قائلاً:

- بالتأكيد. ولكن ما الهدف من وراء كل ذلك؟

- إيجاد أرضية للتواصل والتفاهم معهم على أسس علمانية تحررية بعيدة عن التعصب وتشجيع الإرهاب. بالإضافة إلى دعوتهم إلى "تخفيف" حدة لهجتهم العدائية تجاه الغرب وإسرائيل، ومنح فرصة لـ "الرأي الآخر" كي يصل عبرهم إلى المواطن العربي العادي.

- وهل نجح هذا الأسلوب؟

- أوه هو هو هو، أكثر مما تتصور. فكما ترى، مع أن إسرائيل قد زادت من عدوانها واعتداءاتها في تلك الفترة، إلا أن العرب زادوا من اعتدالهم واستجدائهم للسلام! وأصبحوا يتحدثون عن دولة إسرائيل كأنه أمر واقع يجب التعامل معه، وهم من كانوا ضد الاعتراف بها أصلاً.

- بسبب التواصل مع أولئك الإعلاميين!!!

- ليس هذا فقط، فهناك أساليب أخرى: كالتواصل مع أهل السياسة والحكم أنفسهم. ولكن لا تستهين بدور الإعلام إلى هذا الحد يا بني، فبدون إقناع المواطن بالهزيمة وتحضيره للخسوع، لن يقوى أي حاكم مهما بلغت دكتاتوريته على أن يفرض على شعبه الاستسلام. وحتى أولئك الحكام الذين يدعون الممانعة لتبرير قمع شعوبهم ونهب خيراتهم، فمن غير الإعلام يقنع المواطن بصدق دعواهم ويصرف عينيه عما يحصل فعلياً على الأرض.

- قد أصدق إمكانية ترويض بعض الإعلاميين العرب ليصبحوا مُثبطين أو مُنفثين، ولكن ما الذي يدفع الحكام العرب إلى قبول ذلك؟

- أسباب كثيرة، فبعضهم يحيط به المنافسون والطامعون، ويعلم مدى تأثير الأيدي الخفية في قلب الأنظمة والعروش، ومنهم من يعيش على مساعدات خارجية تلزمهم ببرامج محددة، وهناك أيضاً المستفيدون من وجود اسرائيل لتحقيق أهدافهم كما ذكرت. هذا بالإضافة إلى ما تحدثنا عنه من "الغسل الثقافي للأدمغة" بمختلف الطرائق؛ فأغلب الحكام العرب باتوا مدركين لحقيقة أن دولهم ليست بحالة تسمح لها بدخول حرب مع إسرائيل، ولا حتى ردعها عسكرياً عن أي عدوان؛ لأن قواعد اللعبة في الشرق الأوسط<sup>(١)</sup> يتحكم بها "الكبار" الذين يساندون إسرائيل، سواء بشكل مباشر أم غير مباشر، وهم غير مستعدين لمواجهة عواقب التمرد على كل تلك القوى العالمية.

(١) مصطلح "الشرق الأوسط" قد نُحِت في الأساس من أجل الكيان الصهيوني تحديداً. وهو تعبير ماكر من تعبيرات الغزو الفكري يراد به إيجاد مكان للكيان لا يثير الاستنكار، فلو وصفت المنطقة بالعالم العربي، فكيف يجد الكيان مكاناً له فيه؟ أما حين يصبح الوصف الجغرافي لا صفة له، وغامضاً، ومطاطاً، فيصبح الأمر طبيعياً ولا يثير الريبة والاستنكار وينطلي على البسطاء من الأمة العربية! كما انطلت غيره من الحيل السابقة التي أرادوا بها تسفيه تاريخنا وعقولنا كما يفعلون حالياً بإبراز ما سموه السوق الشرق أوسطية، ودعوا إلى قمة اقتصادية للشرق الأوسط في الدوحة بحضور اليهود واختراع ما سمي بنك التنمية للشرق الأوسط الذي روح له اليهود مع السادات منذ عام ١٩٧٧م وأبرزوه ١٩٩٣م ويسعى الكيان إلى إنشائه بدعم أمريكي وغربي وبأموال عربية (من دول الخليج العربي خاصة). وقد رفضت أكثر الدول العربية الدخول في مثل هذا المشروع المشوه المنتقص من السيادة العربية والداعم للكيان رغم كل الضغوط. وقد أورد مجلس الأمن القومي الأمريكي في تقريره المؤرخ بـ ٦ آذار/ مارس ١٩٩١م دوراً بارزاً لهذا المشروع حيث نص التقرير على أنه: "لتوزيع ثروة دول الخليج التي أصبحت حافزاً للهجوم العدواني سيتم إنشاء بنك التعمير تموله دول الخليج. على أن السياسة الرئيسية لهذا المصرف ستضعها أمريكا وبريطانيا وفرنسا، وستكون المهام الرئيسية له هي الإشراف على عملية السلام، وتمويل القوات الموجودة، وبناء مشاريع تعمير كبيرة في الأقطار التي دعمت القوات المتحالفة.

ويجدون أنفسهم من ثم مضطرين إلى السير في الركاب، والرضى بما يُقدم لهم<sup>(١)</sup>.  
 - وهل الشعوب العربية أغبياء إلى هذه الدرجة كي يلعب بهم حفنة من الإعلاميين  
 والساسة؟  
 - إنهم أغبياء فعلاً، ولكن ليس إلى هذه الدرجة، فلا يستطيع حتى أشد الناس  
 غباء ألا يلاحظ كل هذا الظلم.  
 - فما وجه غبائهم إذن؟  
 - في تصديقهم للأوهام التي تبرر لهم الاسترخاء، ومن ثم يتجردون من سلاحهم  
 الأقوى.

- أي سلاح؟

- الإسلام.

- ماذا تقصدين؟

- لقد قال "هركابي"<sup>(٢)</sup> في كتابه "العقل العربي": "إن الجندي المصري الذي قال:  
 "الله أكبر" وعبر القناة وحطم "خط بارليف" سنة ٧٣ هو هالة يجب أن نتوقف عندها.  
 فلو تكرر الأمر ثانية، خاصة في حال توحدت أكثر من دولة في حربنا، فأخشى ألا

(١) ذكر أحد المسؤولين الأهلين الكبار في إحدى الدول العربية، أنه التقى زعيم بلده مباشرة في أعقاب  
 مذابح جنين في نيسان/ أبريل عام ٢٠٠٢، وأنه وجد ذلك الزعيم، المعروف بأنه أقرب إلى الغرب، في  
 حالة غضب عجيب، وأنه قال له: "لماذا لا تعملون، ماذا تنتظرون، اعملوا، اعملوا أي شيء يؤدي إلى  
 فضح أمريكا وإسرائيل وعزلهم، أنتم منظمات أهلية غير حكومية، بإمكانكم فعل الكثير في سبيل ذلك  
 أكثر منا، نحن هناك ما يقيدنا، افعلو ذلك أنتم". ما قاله ذلك الزعيم يلخص حقيقة الموقف، فالزعماء  
 والحكومات مقيدون بحسابات دولية وإقليمية وارتباطات وديون وعلاقات، عليهم أن يحسبوا لها ألف  
 حساب، ولذلك تؤثر تأثيراً مباشراً على أنشطتهم وتوصياتهم وقرارات مؤتمراتهم.

(٢) "يحوشوا هركابي" شخصية صهيونية مؤثرة، وقد كان المنسق العام بين كل أجهزة الاستخبارات  
 الإسرائيلية، الخارجية (الموساد) والداخلية (الشين بيت) والعسكرية (أمان) وغيرها. كما يعتبر الأب  
 الروحي لحزب العمل.

نستطيع النجاة ثانية. لذلك أنا أنصح الكنيست<sup>(١)</sup> ألا نخوض حروباً أخرى مع العرب، بل نحل مشكلتنا معهم عن طريق "المفاوضات"<sup>(٢)</sup>، فالعربي ملول بطبعه وليس عنده دافع ومثابرة وتتبع، بل مجرد نزوات أو هبات حماسية مؤقتة<sup>(٣)</sup>، لذلك علينا المفاوضة معهم، وبعد فترة سيسلمون كل الأوراق لنا"<sup>(٤)</sup>.

- تقصدين أن مفاوضات السلام مجرد لعبة؟

- بالطبع، ولكنها "لعبة كبار". وهي بالنسبة إلى هدفها المعلن (أي السلام) تعتبر مفاوضات عبثية تماماً، أما بالنسبة إلى هدفها الحقيقي (أي تحطيم الحاجز النفسي والبدء بالتطبيع) فهي فعالة جداً. والصهيوني الأمريكي البارز "جوردن توماس" ألمح إلى هذا في كتاب "جواسيس جدعون"<sup>(٥)</sup> الذي ذكر فيه أنه لم يعد هناك خط فاصل بين الموساد وبين بعض المخابرات العربية؛ فهناك دورات تدريب لعناصر تلك الأجهزة في الموساد.

- هذه مبالغة واضحة.

- ربما ليست كذلك، فهو يؤكد أن بعض الزعماء العرب يستشيرون الموساد قبل زيارتهم للعواصم العربية الأخرى، ويأخذون اقتراحاته على محمل الجد.  
- وماذا عن الصغار غير المشاركين في اللعبة، أعني الشعوب العربية؟

(١) كتابه هذا كان تقريراً رفعه للكنيست، ثم نشر لاحقاً.

(٢) كانت تلك هي الحرب الأخيرة فعلاً. وكل ما تلاها هو اعتداءات (عمليات) خاطفة، ثم تعود الراجية بعدها إلى الدبلوماسية التفاوضية للترقيع بعد أن ضرب من ضرب وهرب من هرب.

(٣) هبات حماسية مؤقتة هي ترجمة توفيقية للكلمة الإنجليزية whims.

(٤) كان شامير يرفض الذهاب إلى المؤتمر، وهدده بيكر، وذهب إلى المؤتمر مكرهاً، بعد أن أعلن أنه سيفاوض الفلسطينيين عشرين عاماً (وقد تحقق ذلك فعلاً).

(٥) يعد هذا الكتاب توثيقاً لتاريخ الموساد ولنشاطاته في العالم العربي. وهو لا يرجع انتصار الكيان على العرب إلى قوته، بل إلى استغلاله للثغرات الموجودة في صفوف الزعماء العرب.

- هذا هو مغزى اللعبة، الذي يدور حول التخدير وإرخاء الهمم وتمييع الهبات الحماسية، ألا تلاحظ أن اسمها هو "عملية" السلام!!! إن استمرار العملية (بروسيس) هو الهدف، وليس تحقيق السلام. فالتسويق يلائم الطبيعة العربية، ولكن أخشى ألا تتجح هذه "المراوغة" إلى الأبد.



## ◀ صهاينة وصلبيين

نظر أبراهام مجدداً إلى أولئك الأطفال، واسترجع الصورة التي كان قد رسمها في مخيلته قبل أن تأتي هذه السيدة العجوز، ولكن المشهد هذه المرة بات يقترن بالحديث الذي يسمعه منها، لتكتمل فيه الصورة على نحو لا يتمناه أبداً. وهنا تفتحت عيناه على أسئلة لم يكن قد فكر فيها مسبقاً: أهنالك أمل في أن تبادل له راحيل نفس مشاعره؟ أو يمكن أن تنتهي قصتهما بالزواج؟ وإذا حصل هذا، فأين سيعيش مع أسرته الجديدة؟ في إسرائيل؟! هذا محال. وكيف يقبل أن يربي أبنائه في هذا الجو العفن من التدين الزائف المشوب بالعنصرية والظلم وعدم الأمان؟

فتحت تلك الأسئلة مجالاً لأسئلة أخرى أعادته إلى أرض الواقع مجدداً، ودفعته إلى مواجهة حقيقتين كان يهرب منهما لعدة أشهر، هي عمر قصة الحب الذي يذوق طعمه للمرة الأولى في حياته: الأولى أن همته في البحث عن الحقيقة قد فترت كثيراً خلال تلك الفترة. والثانية أن قصة حبه تلك لم تكن مثالية بأي وجه من الوجوه. فبالإضافة إلى عدم تأكده من حقيقة مشاعر راحيل نحوه، وشكه القاتل بوجود رجل آخر في حياتها، كانت هناك أيضاً هوة عميقة من الاختلاف تفصل بين فكر كل منهما وإيمانه. وحتى في حال جرت الرياح بما يشتهي قلبه، وكتب لعلاقتهما النجاح، فإن إيمان راحيل الشديد بالصهيونية والاستيطان قد يخلق الكثير من المشاكل بينهما، وربما يؤثر في مسار بحثه عن الحقيقة، وقد يجبره في نهاية المطاف على الاستقرار نهائياً في إسرائيل، إذ إن راحيل لن تقبل بسهولة أن تعيش خارج أرض الميعاد.

لم يكن أبراهام ليقبل بذلك، ولا سيما أنه لم يكن يؤمن بمستقبل تلك الدولة المارقة. وهذا ليس رأيه وحده، فخلال الأشهر الطويلة التي قضاها في إسرائيل كان يلاحظ تنامي ما بات يعرف بـ "هاجس النهاية" في أوساط المفكرين الإسرائيليين أنفسهم.

وكان هذا يؤكد قناعته بأن زمن استحقاق أرض الميعاد لم يحن بعد، وأن دولة إسرائيل بصيغتها الاستيطانية لا توحى مطلقاً بكونها تحقيق لوعده الرب، ولا حتى مجرد خطوة في ذلك. وعليه: فإن طريقها هو إلى الزوال حتماً، كي تقوم مملكة الرب على أنقاضها. كان يدرك أنها قامت على يد ملحدين، وسلبت حقوق السكان الأصليين، ولا تزال لليوم تبالغ في اضطهادهم. ودولة هذا شأنها لن تنعم بالأمن مطلقاً، فالفلسطينيون على تضليلهم وضعفهم، لن يسمحوا لها بذلك إلى الأبد، ومهما أفرطت إسرائيل في استخدام العنف في حصارهم، ومهما توالى الانتصارات العسكرية لجيشها في قصف مخيماتهم واستهداف قادتهم، فستستمر مقاومتهم على ضعف إمكاناتهم، وهو ما سماه المؤرخ الإسرائيلي "يعقوب تالمون" بـ"عقم الانتصار".

- عدت إلى النظر إلى الأطفال وتخيل بناء أسرة. أليس كذلك؟

قالت السيدة العجوز محاولةً إنهاء فترة الصمت، فتتهد أبراهام قائلاً:

- بل كنتُ أفكر بمصيرهم في إسرائيل.

- الأجدى أن تفكر بمصير إسرائيل نفسها، فالنهاية ماثلة دائماً في العقول.

- هل تعتقدين ذلك أنت أيضاً؟

- أجل للأسف؛ فالظروف التي أوجدت دولة إسرائيل، وحافظت على بقائها واستمراريتها قد تغيرت الآن.

- أضحي أكثر.

- بعد خروج الجيش البريطاني، وفور الإعلان عن قيام الدولة اليهودية، استطاعت الجيوش العربية قهر الجيش الإسرائيلي، والوصول إلى مشارف تل أبيب، ولولا استجابة العرب للأوامر الأمريكية بوقف القتال، لما استطاع الغرب إمدادنا بالعدة والعتاد، وهذا ما مكننا من الانتصار عليهم لاحقاً. ولو تتبعنا جميع حروبنا مع الدول العربية، لوجدت أننا لم نكن قادرين بأي حال من الأحوال على هزيمتها، بل لم نكن قادرين على حماية

دولتنا لولا الدعم الغربي على الأصدقاء كافة، وبالذات على الصعيدين العسكري والاستخباراتي، فالجسور الجوية من الإمدادات العسكرية هي التي مكنتنا من الانتصار في تلك الحروب. ومجمل نوايا القيادات العربية وتحركات جيوشهم وإمداداتها، كانت معروفة لدى قادتنا باليوم والساعة، ولكن الغرب الذي يمدنا بكل أسباب الحياة والإنعاش لكي نقوم بوظيفة معينة، لن يستمر كذلك إلى ما لانهاية، ونحن في بيئة معادية، وعرضة لأن يُفتك بنا في أي لحظة يتوقف فيها الدعم الخارجي عنا.

- لا أتفق معك في هذه الناحية؛ فأنا لا أظن أن دعم الغرب، وأمريكا تحديداً، يمكن أن يتوقف عن إسرائيل يوماً من الأيام.

- بل يمكنك أن تظن ذلك. ولكن حتى إن لم يحصل هذا قريباً، فلا تنس أن حصننا المنيع، أمريكا، ومع قوتها وعظمتها، إلا أنها تبعد عنا آلاف الأميال، وليس بالضرورة أن تتجح كل مرة في كسب الوقت كي نتقذنا من الهلاك. كما أن حصننا الآخر، وهو الطوق الأمني من معاهدات السلام والأحلاف العسكرية والأمنية، مع بعض أنظمة دول الجوار لا يكفي للشعور بالأمان؛ فهناك أنظمة عربية لم تتمكن من عقد اتفاقيات علنية معها، بالإضافة إلى العداء المستفحل الذي تكنه لنا الشعوب العربية بشكل عام، بما فيها تلك التي لدينا اتفاقيات سلام وتعاون مشترك مع حكوماتها.

- ولكن ربما كان بُعد أمريكا عن إسرائيل هو أحد أهم أسباب انتشار قواعدها العسكرية بكثافة في الشرق الأوسط حالياً. ولا تنس ما فعلته بالعراق عندما قصف إسرائيل وهدد قائده "صدام حسين" بحرق نصفها، وحاول إعلان "الجهاد" ببدئه في تشكيل ما سماه بـ "جيش الأقصى". كما أنها تُسخّر كل قواها الدبلوماسية في ممارسة كافة أنواع الضغوط، بما فيها الترغيب والتهديد، كي تشمل تلك الاتفاقيات جميع دول الطوق، بل ودولاً أخرى عربية وإسلامية ليس لها حدود مشتركة أصلاً مع إسرائيل، هذا بالإضافة إلى جهودها الإعلامية والثقافية الحثيثة لتجميل صورة إسرائيل في الشارع العربي، حيث نجحت في تجبيش العديد من الكتاب والصحفيين والإعلاميين

العرب أنفسهم في سبيل ذلك. وأنتِ نفسكِ قد أشرتِ إلى هذا بشكل أكثر دقة.

- أعرف ذلك يا عزيزي. وأعرف أنه لولا كل هذا، ولولا الفيتو الأمريكي والدعم الغربي بشكل عام، لما استمرت دولتنا في الوجود حتى الآن، ولكننا لا نستطيع التعويل على ذلك إلى ما لانهاية. فحال انقطاع الصلة مع الغرب المسيحي لأي سبب من الأسباب، فإن دولتنا ستتبدل ثم تندثر تماماً. ولا تتسنّ أنه بعد الانفتاح الإعلامي، وعالمية وسائل الاتصال، أتيح للرأي العالمي رؤية الجانب الآخر من الصورة الذي حرصت وسائل إعلامنا الغربية على التعتيم عليه فيما مضى. فبات الكل يعلم مثلاً أن فلسطين لم تكن يوماً من الأيام أرضاً بلا شعب، بل فيها شعب لا يفتأ أبداً يُذكر بحقوقه ويطالب بها حتى الآن. وبات الكل يعلم أيضاً، أن الشعب الذي كان يتباكى من الاضطهاد النازي له، هو في الحقيقة أكثر نازية ووحشية من النازيين أنفسهم، خاصة مع صفاقة زعمائنا المتزايدة. ولعلك تذكر قول رئيس الوزراء السابق "يهود باراك" عندما اعترف بكل وقاحة أن فلسطين: "كانت عامرة بالسكان، وقمنا بطردهم وهدم قراهم ودمسنا على وجودهم، ولسنا نادمين أو مصابين بعقدة الذنب لطردهم". وهكذا أصبحت قضية الفلسطينيين تكتسب نوعاً من التعاطف في الغرب، خاصة مع بدء تحررهم من "عقدة الهولوكوست"<sup>(١)</sup> وما يسمى بـ "معاداة السامية"، وهكذا تبدل التعاطف معنا إلى استياء وخجل عالمي من تجاوزاتنا. كما أنه لا يمكننا التعويل

(١) عقدة الهولوكوست، أي شعور الغرب بالذنب بسبب المحرقة. وقد حرص أساطين الإعلام الصهيونية هناك على إبقاء جذوة ذلك الشعور مشتتة دائماً عن طريق المبالغة بالتذكير بالمحرقة وأهوالها بكل الوسائل الممكنة. (مؤتمرات وندوات ومنتاحف ومعارض، وأفلام وثائقية وسينمائية ومسلسلات وبرامج تلفزيونية ومناهج مدرسية وكتب وروايات ومقالات صحفية. . . إلخ)، ولكن الكثير من الشرفاء أصروا على فضح تلك الأكاذيب التي ملوا من تكرارها إلى ما لانهاية. ونتيجة لدراساتهم وأبحاثهم الأكاديمية الموثقة، بدأ بعض الغربيين بالتحرر تدريجياً من ذلك الوهم. ولكن للأسف فإن النفوذ الصهيوني هناك لم يكن ليترك بسهولة تلك الدجاجة التي تبيض له ذهباً؛ فحرص دول الغرب (قلعة حرية الفكر) على تعديل قوانينها الجنائية، وجعل التشكيك في رقم المحرقة جريمة يعاقب مرتكبها بالسجن، في حين ظل التشكيك بوجود الرب والأنبياء وكل المقدسات الدينية، محمياً بمبادئ حرية التعبير والنقد والإبداع!!!

على التخاذل العربي إلى ما لانهاية أيضاً، وخاصة مع ازدياد وعي أحفاد ضحايانا الذين طردناهم من ديارهم وتحولهم إلى مجاهدين يقرعون الأبواب بتصميم متزايد، ويطالبون بالأرض التي سلبت من أجدادهم.

- ما الذي يجعلك تظنين أنهم سينجحون فيما فشل آباؤهم وأجدادهم في تحقيقه؟  
 - لأن الغلبة لهم في نهاية المطاف، فهم لن يظلوا مُخَدَّرين إلى ما لانهاية. وأبرز دليل على ذلك أن أعداداً متزايدة منهم لم تعد تحاربنا وفق المنطلقات العلمانية التي شكلناها نحن في الأصل كالاشتراكية والليبرالية مثلاً، ولم يعودوا منضوين تحت ألوية قياداتهم الرسمية المكبلة بالمفاهيم والاتفاقيات الدولية التي أرسينا دعائمها بكل خبث ومكر، بل بدؤوا بمحاربتنا من منطلق عقيدتهم الدينية نفسها، وخارج مظلة الأنظمة الرسمية الملتزمة بقواعد اللعبة.

- هل تصدقين فعلاً ما يروجه الإسلام عن زوال دولة إسرائيل؟  
 - أخشى أن ما أعرفه عن الإسلام وعن النبوءات في كتبنا المخفية<sup>(١)</sup>، بل في التوراة نفسها<sup>(٢)</sup>، لا يتعارض مع هذا الاحتمال مطلقاً. ولكن الأمر لا يقف عند هذه الغيبيات

(١) تقصد بعض الكتب الخفية "سفاريم جينوزيم" (راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف) التي تعتبر أن دولتهم ستهاجر بعد ٧٦ سنة من قيامها، وأن ذلك سيجر على اليهود ويلات ومذابح.  
 (٢) وهي نبوءات عديدة. منها ما ذكر في هذه الرواية، وما ذكر أيضاً في رواية بشارات هائمة في السلسلة الثانية من رحلة أبراهام. ونذكر أيضاً - للاستئناس - ما جاء في "سفر دانيال (١١ : ١)": "فتهاجم بعض قواته حصن الهيكل وتنجسه، وتزيل المحرقة الدائمة (أي الحكم الإسلامي)، وتنصب الرجس المخرب (أي الكيان الصهيوني). ويغوي بالمداينة المعتدين على عهد الرب (اليهود)، أما الشعب الذين يعرفون إلههم (الفلسطينيون) فإنهم يصمدون ويقاومون. والعارفون منهم يعلمون كثيرين، مع أنهم يقتلون بالسيف والنار، ويتعرضون للأسر والنهب أياماً (في ترجمة أخرى سنين معدودة)، ولا يتلقون عند سقوطهم، إلا عوناً قليلاً، وينضم إلههم كثيرون نفاقاً (حال بعض الأنظمة العربية)، ويعثر بعض الحكماء تمحيصاً لهم وتنقية، حتى يأزف وقت النهاية (زوال الكيان الصهيوني)، في ميقات الله المعين (أي عند مجيء وعد الآخرة)".

فحسب؛ إذ له ما يؤكده من استقراء التاريخ والتحليل المنطقي<sup>(١)</sup>.

- كيف ذلك؟

- ثمة قانون يسري على كل الدول الاستيطانية؛ وهو أن الدول التي نجحت في قهر السكان الأصليين مثل دول أمريكا وأستراليا كتب لها البقاء. أما تلك التي أخفقت في ذلك مثل الممالك الصليبية، ونظام الفصل العنصري السابق في جنوب إفريقيا، فكان مصيرها الزوال. ورفض الفلسطينيين للاستسلام بعد هذه الأجيال يعني أن إسرائيل تنتمي إلى النمط الثاني. وخرائب قلاع الصليبيين هنا تشهد بانتصارهم في الماضي، وتذكرنا بتجربة استيطانية أخفقت وزالت، مع أنها احتلت رقعة من الأرض أوسع من تلك التي احتلتها دولتنا، ولمدة أطول من عمرها اليوم.

- هل هذا رأيك الخاص؟

- بل استقراء عدد من العلماء والمفكرين الإسرائيليين بعد دراستهم للأسباب التي أدت إلى زوال الممالك الصليبية في محاولة لتفادي مصيرها المشؤوم، حتى إن أحد رؤساء الوزراء السابقين<sup>(٢)</sup> قد عقد مقارنة بين الممالك الصليبية وإسرائيل في أحد

(١) بالإضافة إلى النبوءات الإسلامية في الحديث والإعجاز الرقمي في سورة الإسراء، وبالإضافة أيضاً إلى تفسير النبوءات اليهودية في الكتب القانونية والخفية؛ بالإضافة إلى كل ذلك، حدد د. عبد الوهاب المسيري رحمه الله عدة علامات لزوال الكيان الصهيوني، منها التفاوت بين الطبقات غير المنصهرة في مجتمعهم، تدني مستويات الهجرة مقابل تزايد النزوح من الكيان، اتساع الهوة بين العلمانيين والمتدينين، الفشل في تحديد ماهية الدولة اليهودية (يرى بعض حاخاماتهم أن إعلانها هو علامة انهيارها)، عدم القضاء على السكان الأصليين وتزايد أعدادهم فيما يعرف بالقنبلة الديموجرافية (يشكل فلسطينيو ٤٨ وخدمهم ٢٠٪ من سكان الكيان الصهيوني، في الوقت الذي تراجع فيه عدد اليهود نتيجة التحول عن اليهودية والزواج من غير اليهود وانخفاض نسبة المواليد)، استمرار الجهاد الذي سماه "جرثومة النهاية للكيان الصهيوني"، تزايد اعتمادهم على الدول كبرى، وتنبه البعض فيها أن الكيان أصبح يشكل عبئاً استراتيجياً على الغرب.

(٢) تقصد إسحاق رابين.

تصريحاته<sup>(١)</sup>، وخلص فيها إلى أن الخطر الأساسي الذي يهدد إسرائيل هو تجميد الهجرة، وأن هذا هو الذي سيؤدي إلى اضمحلال الدولة: بسبب عدم سريان دم جديد فيها. وهناك من يرى أن المشروع الصهيوني هو نفسه المشروع الصليبي بعد تهويده، أو علمته الدينية اليهودية إن تحريت الدقة.

سرح أبراهام في مقارنتها الغربية، ثم قال معترضاً

- لا أرى تشابهاً كبيراً بين دولة الصهاينة ومملكة الصليبيين.

- أوه يا عزيزي! إن نقاط التشابه بينهما أكثر من أن تعد أو تحصى؛ فكلاهما استمداً مُتلهما العلياً من مصدر واحد هو التوراة، والأدب الصليبي يغص بالإشارات التوراتية وبمقارنات بين أبطال الصليب وأبطال التوراة الذين كانوا مثلهم الأعلى، ومنافسيهم بالوقت نفسه لاحتلال مرتبة شعب الله المختار. والأرض الموعودة كانت مرتبطة بشكل جدلي بمسألة شعب الله المختار، فكما أن الله قد خص اليهود بأرض فلسطين، فإن المسيحيين أصبحوا بالضرورة الورثة الشرعيين لفلسطين، حين ورثوا من اليهود صفة شعب الله المختار بعد أن رفضوا المسيح!!! وقد شعر الصليبيون أنهم أولى المسيحيين بهذه الأرض الموعودة: لأنهم لبوا نداء المسيح وضحوا بأنفسهم لتحرير أرضه. وكان هذا الحق قطعياً لا يقبل المناقشة، فقد رأوا أنفسهم ليسوا ورثة اليهود، وممثلين لكل المسيحيين فقط، بل الورثة الشرعيون لأنبياء إسرائيل أنفسهم أيضاً. فيضع مؤلف "Gesta الفيستا" الحوار التالي على فم أم القائد التركي الذي خسر معركة أنطاكية: "تقول الأم لابنها قبل بدء المعركة محذرة إياه ومتنبئة بانتصار الصليبيين: "هؤلاء المسيحيون هم ورثة المسيح حسب أقوال الأنبياء، ولهم أعطى الرب الأرض الموعودة"<sup>(٢)</sup>. وهذا ما عبر عنه أحد الكتاب الكنسيين آنئذ قائلاً: "للمؤمنين

(١) في أيلول/سبتمبر ١٩٧٠.

(2) Gesta Francorum, P. 54.

الحق بطرد الكافرين من ديارهم. وتاماً كما طرد اليهود أعداء الله من الأرض الموعودة، فإن المسيحيين الآن يحتلون أراضي أولئك الذين أغضبوا الله<sup>(١)</sup>. ويصف "يوشع براور"<sup>(٢)</sup> التاريخ الصليبي بأنه محاولة يائسة من الصليبيين لربط مغامرتهم بالتاريخ التوراتي، وزج أنفسهم في النبوءات وخلق مبررات تاريخية لاغتصاب إرث إسرائيل<sup>(٣)</sup>، فالمسيحيون ما فتئوا يريدون أن يشاركونا بكتابتنا المقدس وإلهنا. فيقدم المسيح نفسه في الحلم لأحد الكهنة الصليبيين كالتالي: "أنا هو... ألم يكتب عني بأني قوي وجبار في ساحة المعركة"<sup>(٤)</sup>. وبعد فتحهم لأورشليم سنة ١٩٠٩ دار الصليبيون وهم يقطرون دماً في موكب ديني حول المدينة، وهم ينشدون نشيداً من التوراة: "غنوا إلى يهوه يا كل سكان الأرض"<sup>(٥)</sup>.

- لم أكن أعلم ذلك!

- إن التشابه لا يقف عند الحد الذي ذكرته، فالتاريخ يقول إن أوروبا كانت تعتبر الجنود الصليبيين مادة بشرية فائضة وعنصراً تائراً يجب التخلص منه، وأن تصديرهم إلى الأراضي المقدسة سوف يخدم الأمن والاقتصاد الأوروبيين بالإضافة إلى تحقيق بعض المنافع الدينية. وكذلك الأمر بالنسبة إلى يهود أوروبا في عصر قيام إسرائيل، كما أن توسع أولئك الصليبيين استمر على مدى جيل أو جيلين على الأكثر، ثم بدأ الإرهاق يحل بهم. وتبع ذلك تناقص المدد المالي والسكاني من أوروبا، وازدياد التوتر بين

(1) F. Russell, The Just war in the Middle Ages (Cambridge, London, and New York, 1975), P P. 113-14.

(٢) مؤرخ معاصر من الكيان الصهيوني .

(3) Joshua Prawer. The Latin Kingdom of Jerusalem: European Cccolonialism in the Middle Ages (London, 1972), P P. 432, 469, 475.

(4) Peters, The First Crusade, P. 182.

(5) Fulcher of Chartres, Chxoicle of the First Crusaele, transtated by M.Mc. Ginty (Philadelphce and London), P. 69



المسيحيين الفرنجة (الغربيون) من جهة، وأبناء الطوائف المسيحية المحلية (الشرقيون) من جهة أخرى، مما أدى إلى إضعاف مجتمعمهم الاستيطاني، وهذا ما حصل ويحصل في إسرائيل، فانت ترى زعماءنا الآن ونقص معدلات الهجرة وارتفاع الهجرة المعاكسة سواء خارجياً، أو حتى داخلياً<sup>(١)</sup>، وازدياد التوتر بين الأشكناز والسفارد، وقد تزامن هذا عند الصليبيين مع بعث إسلامي جديد، أشعل الحمية الدينية لتحرير "القدس". وبعد رحيل الأجيال الأولى من أعضاء النخبة القيادية في الممالك، حل محلهم ورثة ضعفاء، وفي الوقت نفسه ظهرت سلسلة من القادة المسلمين "المتمردين" من خارج الأسر العريقة في الحكم، وحلت محل ملوكها "المتخاذلين"، مثل التركي "نور الدين زنكي"، والكردي "صلاح الدين الأيوبي"، والمملوكي "الظاهر بيبرس". وأخشى أن هذا ما سيحصل معنا قريباً.

- تقصدين تراجع قادة العرب التقليديين ليحل محلهم قادة "المجاهدين".  
- أجل، هذا ما أخشاه؛ ففي الوقت الحاضر بدأ بعث جديد في الانتفاضة الأولى، وتبلور في الثانية بهبة الفلسطينيين للدفاع عن مقدساتهم واسترخاصهم للأرواح في سبيلها، ويجري التحضير على قدم وساق للإنفاضة الثالثة. والأمر اللافت هنا أن من قاموا ويقومون بهذا هم من الجيل الذي راهن الآباء المؤسسون للدولة على أنه سينسى ويسلم.

(١) أوضح تقرير لمؤسسة القدس الدولية أن الهجرة اليهودية إلى القدس في تراجع مستمر، وأن الفارق بين عدد المهاجرين إليها من اليهود والمهاجرين منها بلغ ١٠٥ آلاف شخص تركوا المدينة بين أعوام ١٩٨٠ - ٢٠٠٥، وفي عام ٢٠٠٥ بلغ هذا الفارق ٥٩٠٠ شخص، حيث ارتفع عدد المهاجرين من القدس إلى ١٦,٢٠٠ في حين بلغ عدد المهاجرين إليها ١٠,٣٠٠ شخص، أما في عام ٢٠٠٧ فقد ارتفع هذا الفارق محققاً هجرة سلبية وصلت إلى ٦,٤٠٠ شخص.

## ◀ هاجس النهاية

هز أبراهام رأسه كناية عن الموافقة، وعلق قائلاً:

- ربما تكونين محقة يا سيدتي، فقد لاحظت في أثناء بحثي في أرشيف الصحف الإسرائيلية أنه قد تزايدت وتيرة الجهر في موضوع نهاية إسرائيل خلال الانتفاضة الأولى ١٩٨٧، حيث حذر "إسرائيل هاريل" المتحدث باسم المستوطنين من أنه إذا حدث أي شكل من أشكال الانسحاب والتنازل، فإن هذا لن يتوقف عند الخط الأخضر (حدود ١٩٤٨)، حيث سيكون هناك انسحاب روحي يمكن أن يهدد وجود الدولة ذاتها<sup>(١)</sup>. وتعاضم ذلك الهاجس خلال انتفاضة الأقصى، فقد نشرت جريدة ידיעות أحرونوت<sup>(٢)</sup> مقالاً بعنوان: "يشترون شققاً في الخارج تحسباً لليوم الأسود، اليوم الذي لا يجب الإسرائيليون أن يفكروا فيه: نهاية إسرائيل!". والموضوع نفسه ظهر في مقال "يا عيل باز ميلماد"<sup>(٣)</sup> الذي يبدأ بالعبارة التالية: "أحاول دائماً أن أبعاد عني هذه الفكرة المزعجة، ولكنها تطل في كل مرة وتظهر من جديد: هل يمكن أن تكون نهاية الدولة كنهاية الحركة الكيبوتسية؟ ثمّة أوجه شبه كثيرة بين المجريبات التي مرت على الكيبوتسات قبل أن تحتضر أو تموت، وبين ما يجري في الآونة الأخيرة مع الدولة". وقد لخص "جدعون عيسست" الموقف في عبارة درامية: "ثمّة ما يمكن البكاء عليه: إسرائيل"<sup>(٤)</sup>. وأخبر رئيس مجلس السامرة الإقليمي شارون في مشادة كلامية معه:

(١) الجيروزاليم بوست ٣٠ كانون الثاني / يناير ١٩٨٨ م.

(٢) في ٢٧ كانون الثاني / يناير ٢٠٠٢ م.

(٣) في صحيفة معاريف ٢٧ كانون الأول / ديسمبر ٢٠٠١ م.

(٤) في صحيفة ידיעות أحرونوت ٢٩ كانون الثاني / يناير ٢٠٠٢ م.

"إن هذا الطريق الدبلوماسي هو نهاية المستوطنات، إنه نهاية إسرائيل"<sup>(١)</sup>. ويردد المستوطنون أن "الانسحاب من نابلس يعني الانسحاب من تل أبيب". بل إن مجلة "نيوزويك"<sup>(٢)</sup> صدرت وقد حمل غلافها صورة نجمة إسرائيل، وفي داخلها السؤال التالي: "مستقبل إسرائيل: كيف سيتسنى لها البقاء؟"، وقد زادت المجلة الأمور إيضاحاً حين قالت: "هل ستبقى الدولة اليهودية على قيد الحياة؟ وبأي ثمن؟ وبأية هوية؟". أما "ليرون لندن" فقد كتب مقالاً بعنوان: "عقارب الساعة تقترب من الصفر لدولة إسرائيل"<sup>(٣)</sup>، وجاء فيه: "في مؤتمر المناعة الاجتماعية" الذي عقد هذا الأسبوع أن معدلاً كبيراً جداً من الإسرائيليين يشكّون في كون الدولة ستبقى بعد ٣٠ سنة". كما كتب الصحفي يونتان شيم مقالاً بعنوان: "أسست تل أبيب في العام ١٩٠٩، وفي العام ٢٠٠٩ ستصبح أنقاضاً"<sup>(٤)</sup>. وقد قال "شيمون بيريز"<sup>(٥)</sup> حين سئل في الذكرى الستين لقيام الدولة، أتعيش إسرائيل ستين سنة أخرى، فقال: "أسألني هل ستبقى عشر سنوات قادمة؟" واليوم تسمعين عن الضجة الكبيرة التي أثارها تصريح رئيس الوزراء الإسرائيلي المستقيل "إيهود أولمرت" بـ"موت فكرة إسرائيل الكبرى"<sup>(٦)</sup>.

(١) في صحيفة هآرتس ١٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢ م.

(٢) في ٢ نيسان/أبريل ٢٠٠٢ م.

(٣) ידיעות أحرونوت ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣ م.

(٤) معاريف ١٧ آب/أغسطس ٢٠٠٦ م.

(٥) رئيس الوزراء السابق للكيان الصهيوني، والرئيس الحالي له.

(٦) وفي حديثه الوداعي فيما بعد قال أولمرت أيضاً: "سأقول ما لم يقله أي سياسي أو رئيس وزراء؛ إن الدولة تحرك الدبابات ووراءها مستوطنون، ولا أعرف ما نهاية هذه الدولة؟". ومع أن أولمرت كان فعلاً هو أول رئيس وزراء في الكيان يقول هذا في العلن، إلا أن أشكول قالها قبله ولكن على نطاق أضيق. فطبقاً لمحاضر اجتماعات قيادة الكيان قبيل حرب ٦٧ قال أشكول لقادة الجيش: "إلى متى ستظل إسرائيل تعيش بالسلاح والجيش هو الذي يقرر سياستها؟" محمد حسنين هيكل، حلقة يوم الخميس ١٦ نيسان/أبريل ٢٠٠٩، من برنامج "مع هيكل" تجربة حياة.

- أجل. وإن كنت تبحث في هذا الموضوع فأنصحك أن تدرس الهجرة المعاكسة من إسرائيل، فهي مؤشر جدي على الخوف من النهاية، وقد سجلت أرقاماً قياسية في الآونة الأخيرة، مقارنة بتراجع الهجرة إلى إسرائيل في السابق. فحسب تقديرات إسرائيلية يجري الحديث عن نحو ١٢ ألف شخص غادروا إسرائيل في العام الماضي<sup>(١)</sup>، ووصل العدد الإجمالي الذي اعترفت به إحصاءات وزارة الاستيعاب في الكيان إلى نصف مليون خلال السنوات العشر الأخيرة، علماً أن أرقام الهجرة المعاكسة تفوق الأرقام التي يصدرها الجهاز الإحصائي، لأنه لا يتم تسجيل المغادر إلا بعد انقضاء ٤ سنوات على هجرته خارج إسرائيل، في حين يتم تسجيل المهاجر القادم إليها منذ الساعات الأولى لوصوله، مع حصوله على مساعدات عالية لتحقيق التوازن الديموغرافي مع العرب. وقد أعلنت الوزارة عن شن حملة مكثفة في ٢٠٠٨ لجذب يهود جدد وتشجيع مواطنيها المهاجرين على العودة إلى الكيان، وحددت هدفاً لها إعادة ١٥ ألفاً منهم في تلك السنة، وزيادة عدد المهاجرين اليهود إلى عشرين ألفاً، وهو ما لم تنجح به. فبحسب الوزارة نفسها، فإن عدد المهاجرين بلغ أدنى مستوى له منذ ١٩٨٨ رغم سلسلة من الإعفاءات الضريبية والإجراءات المالية المشجعة، ورغم دعوة رئيس الوزراء إيهود أولمرت المباشرة ليهود العالم للذهاب إلى الكيان كي يبقى حق عودة فلسطينيي الشتات من "لاءات إسرائيل" التي تعطل أية مفاوضات. يضاف إلى هذا، أن تقديرات "الوكالة اليهودية" تشير إلى أن مصادر الهجرة اليهودية إلى إسرائيل لم تعد قائمة عملياً، باعتبار أن ٩٠ بالمئة من اليهود في العالم، يعيشون في دول فيها مستوى معيشي أعلى من إسرائيل. ويظهر ذلك - ولا ريب - أن إسرائيل تواجه وضعاً حرجاً لم يسبق أن واجهته في مرحلة من تاريخها، فانتقاد إسرائيل بدأ يشق طريقه في أوساط النخب اليهودية في العالم، ولاسيما في أوروبا وأمريكا. فهذه النخب باتت

(١) العام المقصود هو عام ٢٠٠٧ م.

تتبرأ من سياسات إسرائيل القمعية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وبالذات مسألة حصارها الحالي لغزة، وتحملها مسؤولية ازدياد نغرة العداة لليهود في العالم، رافضة في ذلك ادعاءات إسرائيل المتعلقة بالمساواة بين أي نقد لها وبين اللاسامية، معتبرة نقد إسرائيل شريعياً، وينسجم مع نقد أي اتجاه عنصري آخر. الأهم من ذلك أن هذه الاتجاهات باتت ترى أن إسرائيل، وبسبب سياسات حكامها، هي أكثر دولة تتهدد فيها حياة اليهود لكونهم يهوداً، وتأخذ على إسرائيل تحولها إلى دولة عسكرية أصولية متطرفة، لا تراعي القيم الإنسانية ولا الشرعية الدولية<sup>(١)</sup>.

- لقد تنبتهت لذلك.

- ولا ريب أنك تنبتهت أيضاً إلى أن نظرة العالم إلى إسرائيل لم تعد كالسابق يا عزيزي، فهذه الدولة التي تعتبر نفسها جزءاً من الغرب، باتت أكثر دولة يحرص الغرب على انتقادها واعتبارها عبئاً أخلاقياً وسياسياً وأمناً عليه. ففي أوروبا عموماً لم تعد تلك النظرة تتأسس على كونها واحة للديمقراطية والحادثة في "صحراء الشرق الأوسط"، إذ إن هذه الدعاية استهلكت، وبدلاً منها ظهرت إسرائيل على حقيقتها باعتبارها دولة استعمارية وعنصرية مارقة من القانون، تستخدم القوة للسيطرة على شعب آخر، وتمنع عنه مقومات الحياة بوحشية منقطعة النظير، وباعتبارها عاملاً من عوامل التحريض على ما يسمى بـ"صراع الحضارات"، وسبباً من أسباب تأجج المشاعر العدائية ضد الغرب، في هذه المنطقة الاستراتيجية من العالم، خاصة بعد أن كشفت عن وجهها القبيح بمغامراتها العسكرية في جنين وجنوب لبنان، وحصارها الحالي للأخلاق لغزة.

- أرى في ذلك خروجاً عن السرب الذي تحدثت عنه قبل قليل.

(١) تدل الإحصاءات أن نسبة مهمة من اليهود الشباب في الغرب لا تعتبر زوال إسرائيل كارثة. كما يربط بعض الدارسين (مثل "بولين بيرتر") هذه التحولات بخروج هذه الفئة الشبابية من بوتقة المجموعة اليهودية الإثنية عن طريق الزواج المختلط مع العناصر السكانية الأخرى.

علق أبراهام غامزاً، فردت العجوز موضحةً:

- أعترف أن أساطين الدعاية الذين تحدثت عنهم قبل قليل لا يستطيعون التغطية على كل هذه الانتهاكات المتكررة، خاصة مع وجود "الإعلام الجديد"<sup>(١)</sup> وبالذات "الإعلام البديل"<sup>(٢)</sup> وبعد أن أصبح العالم كالقريّة الصغيرة. ولكن مع كل ذلك فلا تزال سيطرتهم فعالة، وهم يعملون بخبث شديد على إبراز شيء بسيط من الحقائق المنتشرة أصلاً، ثم يُبعونها بكم هائل من الدعايات المضادة والمعلومات المضللة التي يكررونها باستمرار حتى تصيح بدورها حقائق أيضاً. وذلك على مبدأ خبير الدعاية النازي "جوزيف غلابس" الذي علّم أن من الممكن قلب أي كذبة إلى حقيقة، فيما لو تمت معاودتها مراراً وتكراراً، وكلما كان الكذب أكبر ازدادت فرص تصديقه كحقيقة. وإذ إنهم يشكلون الوعي العالمي بأبواقهم المختلفة، فسيظلون يكررون حجج الدفاع عن إسرائيل (رغم كل انتهاكاتها المعروفة) بكل السبل المتاحة وغير المتاحة، سواء عبر السياسة أم الإعلام أم الندوات والمؤتمرات أم الفن أم حتى بالتسلل إلى أدوات الإعلام البديل نفسها. ولعلمك الخاص فهناك أعداد متزايدة من العرب، صاروا يتغنون بـ"الديمقراطية الإسرائيلية" رغم كل ما يجري حالياً.

- ولكن هناك قاعدة تقول: "قد تستطيع خداع بعض الناس لبعض الوقت، ولكن لن تستطيع خداع كل الناس لكل الوقت".

- اسمح لي يا عزيزي أن أقول بمنتهى التواضع: لقد حطم حكماء صهيون هذه القاعدة منذ زمن طويل. وكما تعرض أولئك الخارجون عن السرب في الماضي إلى غسيل دماغ أو تهميش وتشهير وتصفية فكرية، أو حتى لتصفية جسدية إن لم تجد بقية الوسائل نفعاً معهم، فيمكنك أن تتوقع المصير نفسه للخارجين الحاليين.

(١) الإعلام الجديد هو الإعلام عبر الشبكة العنكبوتية، وعبر الفضائيات، والهواتف المحمولة.

(٢) الإعلام البديل يشمل وسائل الإعلام الفردية أو المستقلة، التي لا تتبع حكومات معينة، ولا تخضع لشروط الهيمنة الإعلامية وقوانينها، كالمدونات والمنتديات الشعبية، ومواقع التواصل الاجتماعي وغيرها.

- لن يستطيعوا قتل ذلك العدد الكبير من الناس الذين ضجوا من إسرائيل وأفعالها. فقد علت الأصوات، التي كانت خجولة في الماضي، في كل مكان، تطالب بمحاكمة قادتها على استخدامهم الزائد للعنف بشكل غير مبرر، وتنتقد سلطة الجيش الذي ضج حتى بعض الإسرائيليين أنفسهم من هول انتهاكاته. فمؤخراً أعلنت منظمتا "بيت سيلم" و"هاموكيد" غير الحكوميتين للدفاع عن حقوق الإنسان عن استيائهما البالغ من استخدام الجيش للاعتقال الإداري بشكل مبالغ فيه: فهناك حالياً ٣٣٥ فلسطينياً معتقلون من دون محاكمة وفق تلك الآلية القضائية المزعومة المسماة بـ"قانون الطوارئ"<sup>(١)</sup>، بينهم قاصر وثلاث نساء، وأحد السجناء معتقل منذ نحو خمسة أعوام، ومضى على اعتقال ٢٨ آخرين بين عامين وأربعة أعوام دون سبب واضح. وفي شباط/فبراير ٢٠٠٨، أحصت منظمة بيت سيلم ٥٤٨ فلسطينياً معتقلين من دون محاكمة بموجب قانون الطوارئ، هذا غير ثمانية آلاف فلسطيني تعتقلهم إسرائيل بتهمة ممارسة أنشطة معادية للدولة، ليس فقط بسبب المشاركة في اعتداءات، بل حتى لمجرد الانتماء إلى منظمات غير قانونية، وهو ما يثبت تأثير القوى الأمنية في الحياة العامة في إسرائيل، وزيف ديمقراطيتها المزعومة، وتمييزها ضد العرب.

تهتدت السيدة العجوز بحسرة، وقالت والمرارة تعتصر قلبها:

- ليت الأمر يقف عند تمييزها ضد العرب فقط، إذن لهان الأمر؛ ولكنها تميز بين شرائح مواطنيها اليهود أنفسهم: فتتسم العلاقات في الكيان الصهيوني بين الشرقيين والسفارديم من جهة، والأشكناز من جهة أخرى، بالتوتر الشديد، فيشير الأشكناز إلى الشرقيين بوصفهم "شفارتز"<sup>(٢)</sup>، بكل ما تحمل هذه الكلمة من إيحاءات قذحية.

(١) "قانون الطوارئ" في الكيان الصهيوني يعود إلى الانتداب البريطاني، أي إلى ما قبل عام ١٩٤٨م، ولكنه لا يزال معمولاً به في الكيان حتى الآن، حيث لا يتم إطلاع المسجونين على عناصر ملف الاتهام، مما يعتبر انتهاكاً واضحاً للقانون الدولي الذي لا يسمح بهذا الاعتقال إلا في حالات نادرة جداً.

(٢) شفرنز تعني "سود"، وهي باللغة اليديشية (والألمانية)، ويقابلها "شحوريم" باللغة العبرية، وهي تقابل تعبير "المشحرين، أو المشحبرين" في العامية العربية.

والرد الشرقي السفاردي هو الإشارة إلى "الأشكي نازي" بكل تداعيات كلمة نازية في الذهن الإسرائيلي. ومن تجربتي الخاصة كمدرس، أستطيع أن أقول لك إننا لا ندرس تاريخ السفارديم إلا بمرور عابر كلمح البصر، وكأن تاريخ اليهود هو فقط تاريخ يهود أوروبا الأشكنازيم. هل تعلم أن "ميثير جل" أصدر كتيباً أطلق عليه "تسعة من بين أربع مئة" يتناول فيه كتاب "شمشون كيرشنبويم" الذي يحتوي على تسع صفحات فقط عن السفارديم؛ أي ٢-٣٪ من صفحات الكتاب الأربع مئة. ويدل تحليل الكتب الدراسية على وجود مؤشر ثابت لم يتغير على ما يبدو منذ زمن، حيث تصل مساحة عرض الشرقيين في كتب التاريخ الحالية إلى نحو ٤٪ في المتوسط.

- حقاً؟

- أجل. وليت الأمر يقف عند قلة ما كتب عنهم.

- وماذا هناك أيضاً؟

- محتواه: فقد عرضت "روت بيرار"، التي أجرت دراسات حول الكتب الدراسية بين السنوات ١٩٤٨-١٩٦٧، مجموعة من الصفات السلبية المنسوبة إلى الشرقيين، وهي أوصاف تتكرر كثيراً، من بينها: الجمود، العجز، الإيمان بالخرافات، الفقر والقدارة، الضعف الجسدي والأمراض، القصور الثقافي، الدونية والإحساس بالمهانة. وتتسبب بعض الكتب الدراسية إلى الشرقيين سمة احتقار العمل والتأثير الضار على الاستيطان القديم<sup>(١)</sup>.

- هه. هكذا يُدرسون تاريخ إسرائيل!!! إن العكس هو الصحيح، على الأقل حتى

(١) في عملية تهريب يهود اليمن المعروفة باسم عملية "بساط الريح"، تم رشهم بمبيدات للتطهير DDT، واشترط عليهم أعضاء الوكالة اليهودية عدم حمل أي شيء معهم من اليمن، مهددين أن كل من سيصعد إلى الطائرة ومعه أغراض سيتم إنزاله. وبعد وصولهم إلى الكيان تعرض ٥٠٠ من أطفالهم للخطف بتواطؤ من قبل السلطات الأمنية، وتم تسليمهم إلى عائلات أوروبية محرومة من الأطفال لتبنيهم وتربيتهم تربية أكثر رقياً.



القرن السابع عشر. حتى الهجرة اليهودية في الغرب كانت تبدأ بأعضاء جماعة سفاردية تمتلك من الخبرات ورؤوس الأموال والاتصالات الدولية ما يجعل منها جماعة تجارية إدارية متقدمة، ثم تأتي الجماهير الأشكنازية وتلحق بهم. وكان السفارديم يشغلون في معظم الأحيان قمة الهرم؛ فكان لهم دور مهم في تطور الرأسمالية الغربية وبرزوز النظام الاقتصادي الجديد في العالم، وفي اتساع نطاق حركة الاكتشافات الجغرافية أيضاً، في حين ظل الأشكناز على هامش هذا التطور؛ ونادراً ما تعدوا مكانة صغار التجار أو المرابين المرتبطين بالنظام الاقتصادي القديم<sup>(١)</sup>.

- وأوافقك تماماً. ولكن إن شئت الدقة، فهنا لا يدرسون "تاريخ أرض إسرائيل"، لأن القسم الأعظم من تاريخها يقع خارج نطاق الحكم اليهودي. بل يدرسون "تاريخ الشعب اليهودي". وكما أشرت سابقاً، فإن هذا الشعب من منظور الدولة هو الأشكناز فقط.

- هل لي أن أسألك سؤالاً وتجيبيني عنه بصراحة تامة؟

- لك هذا.

- كثيراً ما قرأت مقالات لمسؤولين سابقين، كالرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر مثلاً، ينتقدون فيها سياسة إسرائيل، ويتحدثون بشيء من العدل عن مأساة الفلسطينيين، مع أنهم كانوا على العكس من ذلك تماماً، عندما كانوا بموقع يسمح لهم باتخاذ أو حتى توجيه القرار؛ فلو عاد بك الزمن إلى الوراء، أكنت ستغامرين بالتمرد

(١) ولعل هذا يفسر بقاء المسألة اليهودية مسألة أشكنازية، لم توجد إلا في البلاد التي توجد فيها أقلية أشكنازية، وحينما وجدت أقلية سفاردية وأخرى أشكنازية في بلد واحد، كما كان الحال في فرنسا مثلاً، اصطدم النظام الجديد بعد الثورة بيهود الأتراس واللورين، وهم من يهود الديدشية الأشكناز، في حين لم تحدث أية مواجهة بين هذا النظام وبين يهود بايون وبوردو من السفارد. وفي إنجلترا، لم تكن هناك مسألة يهودية إلا بعد هجرة يهود الديدشية بجحافلهم المتخلفة إليها. وقد حقق السفارديم بروزاً غير عادي في المجتمعات الغربية خصوصاً هولندا، وكان منهم أعداد كبيرة من يهود البلاط، كما اشتركوا في تمويل بعض الشركات الاستيطانية، وقد بلغ اليهود السفارد قمة نفوذهم المالي في نهاية القرن السابع عشر، ولكن وضعهم أخذ في التدهور بعد ذلك التاريخ، وذلك مع ظهور القوة البريطانية وانكماش القوة الهولندية، ومع الانفجار السكاني الهائل في صفوف الأشكناز.

على كل هذا الذي تتقدينيه الآن وتدمين عليه، أم كنت ستسيرين على المخطط المرسوم نفسه كالبقية؟

أطرقت العجوز برهة، ثم استندت إلى عصاها، وقالت وهي تقوم:  
- اعذرني فيجب أن أتابع المشي لأحرق مزيداً من السكر، عوضاً عن حرق أعصابي بتلك الذكريات أو بفرضية لن تحصل.

ذهبت العجوز وظل أبراهام جالساً يفكر في المتناقضات التي أفرزتها حالته الراهنة، فهو لم يكن ليتصور فكرة استقراره إلى الأبد في جحر الأفاعي هذا، ولكنه للأسف لم يكن قادراً أيضاً على تحمل فكرة خسارته لحبه الأوحده من أجل ذلك. كما أن احترامه لذاته بدأ يتزعزع، لكون قصة حب من طرف واحد قد نجحت في شغله طوال هذه المدة عن الهدف الذي نذر حياته من أجله، خاصة أنه لم يعد قادراً على إقناع نفسه بأن فرصة العثور على الحب الحقيقي لن تأتي إلا مرة واحدة في العمر، في حين سيجد الفرصة دائماً لمتابعة البحث عن الدين الحق.

لم يكن أبراهام ليرضى بأن تستمر الأمور بهذه الضبابية لأكثر من ذلك، وصار لزاماً عليه أن يحسمها نهائياً، لذا فقد عقد العزم على طلب يد راحيل عندما تأتي في الإجازة القادمة؛ فإما أن ترفض، ويرتاح من عذابه، ويعود إلى بحثه عن الحقيقة، وإما أن تقبل، وتتبدد كل شكوكه ومخاوفه عن حقيقة شعورها نحوه، أو علاقتها برجل آخر، وعندها سيحاول، بكل ما أوتي من قوة، أن يقنعها بعدم شرعية إسرائيل الحالية وحتمية زوالها، وبانتظار مملكة الرب الحقيقية التي سيقمها الشيخ.

ولكن التقدم للخطبة لم يكن قراراً سهلاً بالنسبة إلى شاب مثل أبراهام، وبالذات من فتاة مثل راحيل؛ فقد كان يخشى الرفض، كما كان يخشى أكثر القبول، الذي قد يتبعه التخلي عن بعض مبادئه، وربما إعاقة بحثه عن الحقيقة.

## ◀ حسابات خفية

- هل توقعت ذلك يا بن العم.
- قال أحمد لأبراهام، الذي دخل لتوه إلى المنزل. وبعد أن أغلق الباب وراه، ألقى أبراهام بنفسه على أقرب مقعد، مجيباً بلامبالاة:
- توقعت ماذا؟
- فوز سناتور إيلينوي<sup>(١)</sup>.
- متى أُعلنت النتائج؟
- وااو. يبدو أنك لا تعيش معنا في هذا العالم! فطوال الفترة السابقة كان الجميع مشغولين بمتابعة المناظرات المتلفزة بين "بارك أوباما" و"جون ماكين" في انتظار هذا اليوم، ولا أظن أن في العالم من لم يعلم بفوز أوباما بعد، سواك.
- أحس أبراهام حينها أن قصة حبه العنيفة لم تشغله فقط عن البحث عن الحقيقة، وإنما شغلته عن العالم بأسره؛ فقد غاب عن ذهنه تماماً موعد إعلان نتائج الانتخابات، مع أنه كان يتابع سباق الرئاسة الأمريكية منذ بدايته، ويقرأ الكثير من التحليلات بشأنه، فقال مبرراً:
- أنت تعرف أنني لا أشاهد التلفاز، بالإضافة إلى أنني أعاني حالياً بعض الفتور واللامبالاة، ولا يعنيني حقاً من الذي سيسكن البيت الأبيض.
- ربما كنت محقاً في لامبالتك بهذا الأمر، فتوابت السياسة الأمريكية، ومن أهمها الالتزام بالعدم المطلق لإسرائيل، لن تتغير بتغير شخص واحد، وإنما قد يتغير الأسلوب وترتيب الأولويات. والإسرائيليون بشكل عام ليسوا قلقين بشأن هذا الأمر، فهم واثقون من أن عبارة "رئيس غير ملتزم بدعم إسرائيل" غير موجودة في قاموس السياسة الأمريكية الخارجية.

(١) إيلينوي هي الولاية الأمريكية التي كان يمثلها بارك أوباما في مجلس الشيوخ.

- أنت تعرف بأن إسرائيل، بمعنى الدولة الحالية، لا تعينني من قريب ولا من بعيد، كما أنني لا أتفق معك مطلقاً بحتمية دوام الالتزام الأمريكي بالدعم المطلق لإسرائيل؛ فاليوم انتخبوا رئيساً من أصول إسلامية<sup>(١)</sup>، ولا يعلم أحد ما الذي سيحصل غداً. تبسم أحمد قائلاً:

- كون باراك أوباما من أصول إسلامية لا يعني شيئاً؛ فهو مسيحي أولاً وأخيراً، ولم يقابل أباه المسلم إلا مرة واحدة في حياته.

- ولكن لا تنس الشائعات التي روجت عن أنه هو نفسه قد يكون مسلماً<sup>(٢)</sup>.

- أنت بنفسك قلت إنها شائعات. وقد رد عليها أوباما بنفسه خلال محادثات تليفونية مع عدد من قادة اليهود والإسرائيليين، ثم قام بنشر إعلانات في الصحف

(١) والده "حسين"، كان كينياً مسلماً من أصل سوداني، جاء إلى أمريكا للدراسة، وقابل فتاة أمريكية علمانية بيضاء، فأحبها وأحبته، وتزوجا، وأنجبا ابنتهما الوحيد "مبارك" الذي غيرت أمه اسمه بعد انفصالها عن أبيه إلى باراك. ثم تزوجت من مسلم آخر من إندونيسيا، وانتقلت معه إلى بلده الآسيوي المسلم هي وطفلها. حيث عاش باراك هناك حتى التاسعة من عمره، قبل أن تعيده أمه إلى الولايات المتحدة عند أبويها. ولم ينكر أوباما أصوله الإسلامية، وأنه قضى سنوات طفولته في بلد مسلم، ولم ينكر حتى أنه كان يطرب لصوت المؤذن الذي يؤذن للصلاة، من أعلى مآذن المساجد. ولكن بعد ذلك قامت جدته وجدته لأمه بتنشئته على ديانتهم المسيحية ببقية صباه وشبابه، صار منذ ذلك الوقت مسيحياً وقيماً لكنيستته، ولقسيه "جراميا رايت".

(٢) ظلت هذه الإشاعات ورقة ضغط هامة على أوباما بعد انتخابه، تثار من حين إلى آخر. وكان آخرها الضجة الكبرى للإعلام الأمريكي في ٢٥ شباط/فبراير ٢٠١٠ عندما اختار أوباما شعاراً لقوة الدفاع الصاروخي الأمريكي (الدرع الصاروخي) يحتوي على "هلال"، متهمين الرئيس باراك أوباما - مجدداً - أنه يخفي إسلامه. ووصفت العديد من الصحف والمواقع الشعار الجديد بأنه "شعار إسلامي" بحت، يكشف صدق ما أثير حول إسلام أوباما وأنه يخفي ذلك لتحقيق ما يريد! وفيما وصفت محطة فوكس الإخبارية الشعار بأنه "صدمة"، تساءل موقع صحيفة "واشنطن تايمز" بمكر: "هل الشعار إشارة من الأمريكيين إلى المسلمين بأنهم لن يسقطوا صواريخهم التي قد تطلق على الولايات المتحدة؟!!" وتوقعت مواقع إخبارية أن يشغل الشعار الإعلام الأمريكي لفترة طويلة، وأن تحاول المجموعات المعارضة لإدارة أوباما استغلال "الأزمة" للخروج بمكاسب سياسية، فيما جادل معارضون للشعار مشبهين الإسلام بالنازية، قائلين إن أحداً لم يكن يتخيل خلال الحرب العالمية الثانية أن يكون شعار أي مؤسسة حكومية أمريكية شبيهاً بالصليب المعقوف (شعار النازية)، ولكن أوباما فعلها!!!

اليهودية لتشجيع اليهود على التصويت له. وتخوفاً من أن تقلل الصلة المزعومة بينه وبين الإسلام فرصته في السباق الرئاسي، حرص أوباما على تجنب أي علاقات وطيدة مع المسلمين، لدرجة أن منظمي حملته الانتخابية أبعدا مسلمتين محجبتين كانتا تقفان خلفه في أحد الاجتماعات بمدينة ديترويت الأمريكية<sup>(١)</sup>، كما دفع أحد مستشاريه المسلمين<sup>(٢)</sup> إلى الاستقالة من وظيفته أوائل آب/أغسطس الجاري بعد جهود قام بها نشطاء معادون للإسلام للربط بينه وبين ناشط مسلم "أتهم" بتمويل حركة حماس الفلسطينية. وقد قال أوباما في مؤتمر صحفي مع صحفيين يهود وإسرائيليين: "لم أمارس الإسلام قط. لقد تربيت مع أم علمانية وأنا أنتمي إلى الديانة المسيحية، فأنا مسيحي نشط". وأضاف: "إن التزامي القوي والعميق وصلتي بالمجتمع اليهودي لا يجب أن تكون محط التساؤلات". وعند سؤاله أكان رفضه لمدح الكنيسة لـ"لويس فرخان" قائد جماعة "أمة الإسلام"<sup>(٣)</sup> الأمريكي كافياً بدلاً من تقدمه بالاستقالة منها،

(١) عاد أوباما واعتذر لهما بنفسه، بعد حملة انتقادات شنتها منظمات إسلامية.

(٢) وهو "مازن صبحي".

(٣) أمة الإسلام هي حركة دينية أنشأها "والاس د. فارد" بعد عودته من مكة المكرمة. وكان أول مسجد أقامته الحركة في ديترويت عام ١٩٣٠. ولكن فارد اختفى بشكل غامض في عام ١٩٣٤، ليخلفه "إيليا محمد"، الذي ما لبث أن أعلن نفسه رسول الله إلى السود كما كان محمد عليه الصلاة والسلام رسول الله إلى العرب!!! وأن السود هم العرق الأسمى والبيض من الشيطان. وقد كان الداعية الإسلامي الشهير "مالكوم إكس" (أو الحاج مالك الشيباز لاحقاً) من عداد المخدوعين به، إلى أن اكتشف فضائحه الجنسية وبقية انتهاكاته. وكان للشيخ "أحمد حسون السلفي" (الزعيم الأسبق لحركة أنصار السنة المحمدية بالسودان) أثر كبير في فتح أعين مالكوم على الإسلام الحقيقي؛ فسافر إلى الحج وقابل عدداً من العلماء والزملاء العرب خلال جولة في العالم الإسلامي. وبعد عودته صاغ أفكاراً جديدة تدعو إلى الإسلام الصحيح، وأخذ يدعو إليه. ثم أسس "منظمة الاتحاد الإفريقي الأمريكي" التي اجتذبت قسماً كبيراً من أعضاء أمة الإسلام بالإضافة إلى كثير ممن دخلوا الإسلام على يديه. بعد وفاة إيليا محمد خلفه ابنه "وارث دين محمد"، وأزال كثيراً مما يتنافى مع الإسلام التقليدي، كما غير الاسم من أمة الإسلام إلى "المجتمع العالمي للإسلام"، ثم "البعثة الإسلامية الأمريكية"، إلا أنه في نهاية المطاف حل المنظمة وأصبح أتباعه جزءاً من الإسلام التقليدي. وفي ١٩٧٨ أعاد فراخان إنشاء أمة الإسلام باعناً الكثير من تعاليم إيليا محمد السابقة.

كرر أوباما إدانته لآراء فرخان، معتبراً أنها "معادية للسامية". وأضاف: "إن كنيسةي لم تطلق عبارات معادية للسامية، ولم أسمع أي قس يطلق مثل هذه العبارات... وإذا سمعت ذلك، لكنت تركت الكنيسة فوراً"<sup>(١)</sup>.

هز أبراهام رأسه بالموافقة، وأردف معقياً:

- يبدو أن هذا صحيح فعلاً: فقد نشر قادة ٩ جماعات يهودية خطاباً مفتوحاً يدين ما أسموه بـ"رسائل الكراهية" التي قالوا إنها تروج الأكاذيب عن معتقدات أوباما ونواياه. وبحسب "نيويورك تايمز"، قال هؤلاء القادة: "إن رسائل الكراهية التي نشرت على البريد الإلكتروني تستخدم الأكاذيب، وتسعى إلى تشويه سمعة أوباما كشخص، وكذلك تشويه معتقداته الدينية". وأضافوا: "إن هذه الرسائل تحاول زرع القطيعة بين مجتمعنا (اليهودي) والمرشح الرئاسي، معتمدين في ذلك على الهجوم الكاذب وتلميحات تعتمد على الدين". وأوضحوا: "إن مثل هذه المحاولة لتضليل الناخبين لا يجب أن تكون جزءاً من عملنا السياسي، ويجب أن تُرفض من قبل كل الذين يؤمنون بديمقراطيتنا". وقالت صحيفة "جيروزاليم بوست" عن القلقين من اسم أوباما الأوسط "حسين": "عليهم أن يتذكروا أن ملك الأردن الراحل "الملك حسين" كان يعتبر من أكثر قادة الشرق الأوسط احتراماً واعتدالاً وتنويراً، حتى قبل أن يوقع معاهدة السلام مع إسرائيل في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٤"<sup>(٢)</sup>، ولكنني مع كل ذلك، لا أزال أرى أن انتخاب

(١) قسيسه جرمياريات هو أحد القساوسة الزوج الأكثر غضباً وتمرداً على المؤسسات الأمريكية الحالية.

(٢) لم يعد للأسماء أي معنى؛ فالكيان الصهيوني يُسمى بأسم أحد الأنبياء "إسرائيل" (يعقوب) عليه السلام، وجيش الاحتلال هناك يُسمى جيش "الدفاع"، ومنظمة السلام الفلسطيني تسمى منظمة "التحرير". والاحتلال والقمع الصهيوني والفرقة بين المواطنين يسمى "الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط". واحتلال العراق ونهب ثرواته والتحكم بحكومته يسمى "تحريراً من النظام الديكتاتوري السابق". والجهاد يسمى "إرهاباً". والإرهاب يسمى "نشر الديمقراطية". و"معاداة السامية" تقتصر على معنى معاداة اليهود مع أنه ثبت أن أغليبتهم ليسوا ساميين، ولا تشمل معاداة العرب مع أنهم ساميون برمتهم، والعالم الإسلامي مطالب بالعلمانية التي تعني "فصل الدين عن الدولة تماماً"، أما العلمانية نفسها في الغرب فتعني "إفساح المجال للتأثير الديني اليهودي المسيحي". . . . إلخ.

رئيس من أصول إسلامية هو أول مسمار يثق في نعش الصهيونية، ومقدمة لتحرير السياسة الأمريكية من هيمنتها المطلقة.

تنهد أحمد قائلاً:

- كم أود أن تكون محقاً يا بن العم، ولكنني للأسف لست بمثل هذا التفاؤل: فلولا دعم اليهود، لما فاز أوباما بالانتخابات الرئاسية، ولما كان فاز أصلاً بتمثيل الحزب الديمقراطي، إذ إن اليهود بالذات هم من ساندوه ضد المرشحة الديمقراطية المنافسة "هيلاري كلينتون"<sup>(١)</sup> مع أنها كانت أقرب إلى اليهود الديمقراطيين منه.

- أنا أعرف أن اليهود قد دعموه بسبب ظروف وحسابات معينة، ولكنني مع ذلك أظن أن السحر سوف ينقلب على الساحر.

- أي ظروف وحسابات تعني؟

- أما هيلاري فقد تم استبعادها بسبب الذاكرة الحاقدة لبعض القادة اليهود، الذين لم ينسوا أنها عندما ذهبت إلى رام الله في عام ١٩٩٩ لحضور إحدى المناسبات، لم ترد على اتهامات "سها عرفات" قرينة الرئيس الفلسطيني الراحل "ياسر عرفات" لإسرائيل بتسميم النساء والأطفال الفلسطينيين بالغازات السامة، واكتفت بإظهار الضيق على وجهها حين كانت تستمع إلى ذلك، ثم قبلت سها وتركتها بهدوء. ولأجل ذلك شنوا عليها حرباً شرسة، ساهمت في إخراجها من حلبة الصراع، ولم يشفع لها أنها أعادت صياغة مواقفها عندما دخلت السباق على عضوية مجلس الشيوخ الأمريكي في العام التالي سعياً لكسب ود لوبي إسرائيل في نيويورك، وذلك عندما أعلنت تأييدها لجعل أورشليم عاصمة أبدية لإسرائيل، وطالبت بنقل السفارة الأمريكية إلى هناك، وتفانت في نقد مناهج التعليم الفلسطينية باعتبارها تنشر الكراهية وتعلم الأطفال الفلسطينيين كراهية الإسرائيليين! بل طالبت بمراقبة "العداء للسامية" ومكافحته في

(١) اختارها أوباما فيما بعد لتكون وزيرة الخارجية في إدارته.

أوساط الفلسطينيين. واليهود بشكل عام لا يحبون الحلفاء المتقلبين كثيراً، خاصة بعد ما حصل من زوجها تجاه "بنيامين نتياهو"، والذي اضطرتهم لإذلاله بقسوة عن طريق تفجير فضيحة "مونيكا لوينسي". وليس من مصلحتهم إعطاء فرصة لمن يحمل ضغينة لهم، مهما تقادم عليها الزمن.

- حسناً. لو سلمنا بأن قلب هيلاري، واحتمال تأثرها بالفضيحة اليهودية التي زلزلت بيتها ومستقبلها السياسي هما سبب تخليهم عنها، فماذا عن المرشح الجمهوري "ماكين"!!! إن مواقفه ثابتة، ولم يحدث أي صدام بينه وبين اليهود، كما أنه - وهو الأهم - أنسب لإسرائيل بكثير بسبب تشدده مع إيران، واعتبار أنه الرجل الحديدي الذي سيقف في وجهها، وهو بالتأكيد لن يحاول منع إسرائيل من تسديد ضربة جوية لتدمير قوة إيران النووية، وإنما سيساندها في ذلك إلى أقصى مدى ممكن.

فتبسم أبراهام، ورد موضحاً:

- هذه النقطة بالذات ليست مفصلية لدى قادة اليهود: فهم يدركون بأن إيران لا تشكل تهديداً حقيقياً على إسرائيل، مقارنة بالتهديد الذي تشكله على الدول العربية نفسها. وقد كتب الصحفي اليهودي "يوسي مليمان" في لوس أنجلوس تايمز: "في كل الأحوال فإن من غير المحتمل أن تقوم إسرائيل بهجوم على المفاعلات الإيرانية، وقد أكد عدد كبير من الخبراء تشكيكهم بأن إيران - بالرغم من حملاتها الكلامية - تعتبر إسرائيل عدواً لها. وأن الشيء الأكثر احتمالاً هو أن الرؤوس النووية الإيرانية موجهة ضد العرب"<sup>(١)</sup>، ولا أظنك تنسى رئيس الجمهورية الإيرانية الأسبق "محمد خاتمي" (المعتدل) عندما ظهر أمام الإعلام العالمي في الولايات المتحدة (نيويورك) وقال: "الحمد لله أسلمنا ولم نكن عربياً"، ولا تصريحات "اسفنديار مشائي" النائب

(١) جريدة الأنباء العدد (٧٩٣١).



الأول للرئيس الإيراني الحالي أحمددي نجاد عن صداقة الإيرانيين والإسرائيليين<sup>(١)</sup>. ثم إنك ولا ريب لاحظت أن إيران لا تهدد أي جزء من إسرائيل ولا تتدخل بشؤونها الداخلية، وتعامل مواطنيها اليهود بمنتهى الاحترام<sup>(٢)</sup>، وبشكل أفضل من المسلمين السنة بكثير؛ فهم يمارسون شعائرتهم بحرية تامة، حتى في العاصمة طهران التي لهم فيها كنس كثيرة، في حين يمنع فيها بناء أي مسجد سني واحد. وفي المقابل تحتل إيران ثلاث جزر إماراتية، ويصدر قادتها تصريحات بين الحين والآخر أن "البحرين" محافظة إيرانية، وعينوا نائباً عنها في برلمانهم! بالإضافة إلى نفوذها في العراق، وتدخلها في الشأن اللبناني، وأطماعها المبيتة في الكويت، وتشجيعها لتمرّد الزيديين

(١) طوال أكثر من عام كان اسفنديار مشائي (المجاهر بالصداقة بين الإيرانيين والصهاينة) يتعرض للانتقاد على إعلانه ذلك، ثم تدخل المرشد الأعلى "آية الله علي خامنئي"، وبعث برسالة إلى أحمددي نجاد قال له فيها: إن "تعيين مشائي ليس في مصلحتك ولا في مصلحة الحكومة"، كما قال خامنئي في رسالته التي أذاع التلفزيون الإيراني الحكومي نصها: "إنه من الضروري الإعلان عن إلغاء هذا التعيين". ولكن الرئيس أحمددي نجاد، في سابقة تعد الأولى من نوعها، تحدى المرجع الأعلى في الدولة الإيرانية، مدافعاً عن نائبه الأول بضراوة، واصفاً إياه بأنه "موال للنظام الإسلامي". وبعد مواجهة دامت أسبوعاً كاملاً بين نجاد وخامنئي، أعلنت وكالة إيران الإيرانية الرسمية للأنباء على لسان أحد مستشاري الرئيس الإيراني قوله: "إن مشائي لم يعد يعتبر نفسه نائباً أول لرئيس الجمهورية".

(٢) في كتابها (اليهود الإيرانيون) تصف د. هويدا عزت محمد علاقة اليهود بإيران كالآتي: "أرض إيران بالنسبة لليهود هي أرض كورش مخلصهم، وعليها ضريح استر ومردخاي، وفيها توفي النبي دانيال ودفن النبي جبقوق، وهي دولة شوشندخت الزوجة اليهودية الوفية للملك يزدجرد الأول، وتحوي أرضها جثمان بنيامين شقيق سيدنا يوسف عليه السلام، لذا يكن يهود العالم وافر التبجيل لهذه الأرض. ومنذ فتح بابل على يد الملك كورش، وتوجه العديد من اليهود إلى إيران، ترفض تلك الطائفة دعوة العودة إلى فلسطين، وفاق حبهم لإيران حبهم لأورشليم، ورغم قيام حكومة إسرائيل الصهيونية، التي عملت على تشجيع يهود إيران على الهجرة إليها، إلا أنهم رفضوا ترك إيران. وكان عدد اليهود الذين انتقلوا من الدول الأوروبية إلى إسرائيل يفوق بكثير عدد اليهود الذين انتقلوا من إيران إلى فلسطين"، وعن تمرّكهم هناك تقول: "يهود إيران يتوزعون في طهران، همدان، أصفهان"، وأصفهان هذه هي التي ذكرها الرسول ﷺ في حديثه: "يتبع الدجال سبعون ألفاً من يهود أصفهان عليهم الطيالة". (صحيح مسلم، رواه عن أنس بن مالك رضي الله عنه، ٢٩٤٤م)، وجدير بالذكر أن رئيس إسرائيل السابق كان من يهود إيران، وهو "موشي كتساف" (قصاب).

في اليمن، ودعمها لمثيري شغب شيعة في السعودية<sup>(١)</sup>، ونشرها لشبكات تجسس الحرس الثوري في مختلف البلدان العربية، والأهم من ذلك كله هو مساعدتها في شق الصف الفلسطيني، وتمويلها لانقلاب حكومة منافسة للسلطة الفلسطينية التي لم تمنح فرصة لترسيخ سلطتها بعد. وبفضل الدهاء الإيراني، انقسم الفلسطينيون لأول مرة في تاريخهم إلى معسكرين متعادين، أحدهما الفصائل تحت مظلة منظمة التحرير، والآخر هو الفصائل تحت مظلة التمويل والمساعدات الإيرانية. هذا بالإضافة إلى سعي إيران المحموم لنشر مذهبها الشيعي في مختلف الدول ذات الأغلبية السنية، ودعم الأقليات الشيعية فيها، على الرغم من اضطهادها هي نفسها لمواطنيها السنة وقمعها لذوي الأصول العربية في منطقة الأهواز (عربستان). ولا بد أنك سمعت ما تناقلته وسائل الإعلام عن نائب وزير الخارجية الإيراني ونبأ الإفراج عن الجواسيس اليهود الإيرانيين الذين ضُبطوا بتهمة التجسس لدولة إسرائيل. أما أمريكا، أقوى حليف وأفضل صديق لإسرائيل، فلا تزال ترفض الوساطات المتكررة للإفراج عن جاسوس يهودي واحد<sup>(٢)</sup>!! وإسرائيل تدرك جيداً أن كل هذه الخطوات العملية على الأرض لا تُقاس أبداً بتهديدات إيران الكلامية بمسحها عن الخريطة. وصُناع القرار يعلمون أن حُطبة قادة إيران الحماسية الرنانة هي للاستهلاك المحلي، ولترويج إيديولوجيتها في الشارع العربي ليس أكثر، بل يستثمرون تلك الخطب نفسها في زيادة الدعم الغربي لإسرائيل، وتقويتها أكثر، كي يصعب على أحمدني نجاد محو إسرائيل "المسكينة" عن الخريطة كما يخوفها دائماً!

(١) مثل "حسن الصفار" وعصبته الذين يهددون بإثارة الشغب والاضطرابات وتكوين كتائب الموت والإعدام في المنطقة الشرقية التي يسمونها دولة "الإحساء والقطيف"، ولهم موقع على الشبكة العنكبوتية بهذا الاسم.

(٢) بولارد الذي حكم عليه بالمؤبد.

- قد أوافقك في هذا .

عقب أحمد مبتسماً، ثم أردف غامزاً:

- ولكن ماذا لو انتقلت إيران من دورها الدعائي إلى دور فعلي يشكل خطراً حقيقياً

على إسرائيل؟

- هذا لن يحصل أبداً .

- لمَ تظن هذا؟

- بل لمَ تفكر أنت بذلك أصلاً؟!!! يبدو أنك أنت أيضاً قد وقعت تحت تأثير

البروبوغاندا (الآلة الدعائية) الإيرانية الضخمة، وخذعت بالمساعدات المالية التي

تقدمها إلى حركتي حماس والجهاد الإسلامي، وبالمساعدات من مختلف المجالات

التي تقدمها لحزب الله . وأنا لا ألومك، فأنت كعربي مسلم مهوور، ترى في مجرد

تحدي إسرائيل الكلامي، وشتمها من وراء الميكروفونات، وتمويل إطلاق عدة صواريخ

بدائية عليها من هنا أو هناك، ترى في ذلك قمة النضال ولا ريب، ولا سيما مع تخاذل

حكوماتك وتقايسها حتى عن ذلك النوع البسيط من "التنقيس" المسمى بالمقاومة،

ولكنني على عكسك تماماً، أنظر إلى هذا الموضوع بتجرد تام، دون أن أوخذ من جهة

العاطفة، فأنا أرى النتائج على الأرض، ولا يعميني عن ذلك المشاعر التي تدغدغك

بالوهم .

- وما النتائج التي تراها على الأرض؟

- أرى صحيفة هاآرتس الإسرائيلية تمدح أمين حزب الله بسبب محافظته على

الهدوء في شمال إسرائيل، بدرجة تفوق جيش "أنطوان لحد"؛ وأرى التسليح الضخم

(المثير للشك) الذي يمتلكه هذا الحزب، مع أن ضحاياه من الصهاينة يعدون على

الأصابع!!! أرى "صبحي الطفيلي"، الأمين السابق لحزب الله الذي عُزل بسبب تمرده

على الإملاءات الإيرانية يصرح بحسرة قائلاً: "ما يؤلني أن المقاومة تقف الآن حارس

حدود للمستوطنات الإسرائيلية، ومن يحاول القيام بأي عمل ضد الإسرائيليين يلقون القبض عليه ويسام أنواع التعذيب في السجون". أرى انتشار النعرات الطائفية بين المسلمين، وأنها وصلت إلى درجة التصفية الجسدية "على الهوية" وإلى الصدام المسلح وتفجير المساجد والحسينيات. أرى الإيرانيين يحصلون على الجنسية العراقية ويتولون مناصب قيادية حساسة، في حين يُقتل فلسطينيو العراق (المقيمون هناك منذ مدة طويلة وكثير منهم ولدوا في العراق) لأنهم سنة، ويطردون إلى معسكرات صحراوية على الحدود، لامتناع الحكومة العراقية عن مساعدتهم بحجة أنها لا تعترف بهم أصلاً، لكونهم يحملون هويات صدرت إبان حكم الرئيس العراقي السابق صدام حسين<sup>(١)</sup>! أرى تهجماً وتشكيكاً وشتماً وصل إلى رموز تاريخكم الإسلامي، بل ورموز الإسلام الأوائل. أرى تناقص عدد أتباع أكبر مذهب في الإسلام، وانقسام من بقي منهم بين منبهر بالنصر الإلهي للشيعه، ويدعو إلى التماهي معهم، وبين مكفر لهم ويدعو إلى قتلهم وإنقاذ الإسلام من فسقهم. أرى مزيداً من التباعد وفقدان الثقة بين الحكومات العربية وبين شعوبها، ومزيداً من اتهامات الخيانة، والعمالة، ومزيداً من القلاقل في مختلف أرجاء الوطن العربي. أرى مساهمات إيرانية حيوية لم تكن دول التحالف

(١) انتقد مركز "العودة الفلسطيني" ومقره لندن، ما وصفه بالتهميش والتقصير العربي بحق اللاجئين الفلسطينيين في العراق. وقال المركز إن البلدان العربية لم تحرك ساكناً لحل قضية هؤلاء اللاجئين في وقت تقوم فيه بلدان أجنبية بتوطينهم فيها، في إشارة إلى كل من السويد وأيسلندا والبرازيل والهند وقبرص وماليزيا والولايات المتحدة. ويتزامن ذلك مع إفادة تقارير صحفية بموافقة واشنطن على إعادة توطين ١٣٥٠ لاجئاً فلسطينياً هجروا من العراق بعد الغزو الأمريكي في إحدى الولايات الأمريكية. وقال المركز: "تجاهلت الحكومات العربية منذ عام ٢٠٠٣ وقبله، ومعها منظمة التحرير الفلسطينية حقوق هؤلاء اللاجئين، ولم يتم تقديم أي دعم سياسي أو مادي من تلك الحكومات، بل تعرضوا للذبح والقتل الطائفي على أيدي الميليشيات الطائفية في العراق". واتهم الحكومة العراقية بأنها "لا تقوم بالواجب المطلوب تجاه اللاجئين، حيث لا تعترف بهم لأنهم يحملون هويات صدرت إبان حكم الرئيس العراقي السابق صدام حسين، كما أنها لا تمنحهم هويات جديدة"، وطالب المركز السلطات العراقية بتوفير الحماية الضرورية لمن تبقى من اللاجئين الفلسطينيين في العراق".

لتمكّن دونها من احتلال أفغانستان بتلك السهولة<sup>(١)</sup>! أرى مساهمات أكبر في العراق، سواء بالنسبة إلى اختراق القاعدة الشعبية وتقسيمها، أو القضاء على الجيش الذي كان أقوى الجيوش العربية، ومن ثم تمكينها من نهب النفط وبقية الثروات دون رادع. أرى تدمير البنية التحتية للبنان، وخلق دولة داخل الدولة فيها، وتأمين حدودها مع إسرائيل بقوات دولية. أرى إلهاء الفلسطينيين بصراع داخلي فارغ على السلطة والنفوذ بين "فتح لاند" و"حماسستان". أرى تخلي الدول العربية عن غزة في حصارها الحالي، لكون حكومتها قد أصبحت بنظرهم من أقوى أدوات النفوذ الإيراني في المنطقة. وكما ترى، فإن إيران هي المسبب أو على الأقل العامل المساعد الرئيسي في كل هذه الأمور التي تصب بالنهاية في مصلحة إسرائيل والغرب. والقاعدة الذهبية للسيطرة على مر الزمان هي "فرّق تسد"، فما الحكمة من ذبح الدجاجة التي تبيض كل هذا الذهب لإسرائيل والغرب؟!؟

فرد أحمد متسائلاً:

- وماذا عن التنافس الأمريكي الإيراني في العراق؟!؟
- وهل كانت إيران لتقوى في العراق لولا المباركة الأمريكية؟ ألم تشارك طهران في التخطيط لغزو العراق مع واشنطن منذ مؤتمر لندن الشهير؟ أليس عملاء أمريكا في العراق هم عملاء إيران أيضاً؟ على من يضحكون؟!؟

(١) لقد عبر المسؤولون الإيرانيون عن ذلك في أكثر من مناسبة، منها ما أعلنه محمد علي أبطحي النائب السابق للرئيس الإيراني محمد خاتمي في محاضرة ألقاها في ختام أعمال مؤتمر "الخليج وتحديات المستقبل" الذي عقد بإمارة أبوظبي عام ٢٠٠٤ عندما قال إن بلاده قدمت الكثير من العون للأمريكيين في حربهم ضد أفغانستان والعراق، و"لولا التعاون الإيراني لما سقطت كابول وبغداد بهذه السهولة"، واعتراف رفسنجاني أيضاً بهذا قائلاً: "لولا إيران لما استطاعت أمريكا غزو العراق وأفغانستان"، كما قال أحمددي نجاد: "لقد وضع الله ثمار احتلال البلدين المجاورين لإيران وهما العراق وأفغانستان في سلة إيران"، وأحدث تلك التصريحات ما جاء على لسان القائم بالأعمال الإيراني في الكويت السيد محمد شهابي في مقابلة أجرتها معه جريدة النهار الكويتية العدد ١٠١٨ الأربعاء ١١ آب/ أغسطس ٢٠١٠-٠١ رمضان ١٤٣١هـ: "لولا إيران في أفغانستان لما انتصرت أمريكا في حربها هناك".

- ألا تستمع إلى الأخبار!!! إن أمريكا وإسرائيل، والغرب بشكل عام، ليس لهم حديث إلا عن فرض عقوبات على إيران واحتمال ضربها عسكرياً بسبب برنامجها النووي!!!

- أوه يا عزيزي. إنني أسمع هذا منذ سنوات طويلة، ومتأكد أنني سأسمعه لسنوات أخرى قادمة دون أي تغير جدي. ولكنني أعرف أن إسرائيل والغرب لو شكوا للحظة واحدة بأن الخطر النووي الإيراني موجه ضدهم، لأنها الموضوع بضربة جوية واحدة. كما فعلوا مع العراق سابقاً<sup>(١)</sup>، ولمّا ضيعوا كل هذا الوقت حتى تستكمل إيران عدتها. لهذا فأنا أرى أن موضوع إيقاف إيران لا يشكل أولوية للمؤثرين على نتائج انتخابات الرئاسة الأمريكية، واليهود ليسوا بحاجة، حالياً على الأقل، إلى رجل حديدي يقف بوجه الخطر الإيراني، ومن ثم فإن ماكين ليس رجلهم حتماً في هذه المرحلة.

(١) يقصد تدمير المفاعل النووي العراقي (مجمع السابع عشر من تموز) في ٧/٦/١٩٨١م. يذكر أن رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان قد صرح مراراً أن لا داعي للعقوبات على إيران. وفي إشارة ذات مغزى، كشف أن الدول التي كانت تفرض العقوبات على إيران، هي نفسها من كانت تخرق ذلك الفرض.

## ◀ العلمانية الدينية

كان أحمد يدرك جيداً أن أبراهام محق في رأيه عن حقيقة الدور الإيراني المشبوه، إلا أنه لم يرغب الدخول في مناقشة عن المذاهب الإسلامية وخلافاتها ومؤامراتها مع شخص يحاول أن يقدم له الصورة الحقيقية للإسلام، فقال محاولاً تغيير اتجاه الحديث:

- ربما كنت محقاً في هذه أيضاً؛ ولكنني مع ذلك أكاد لا أصدق أن الأمريكيين قد انتخبوا أوباما بالذات.

- لماذا؟!

- لأن أوباما أسود وهم عنصريون<sup>(١)</sup>، ولأن أوباما لا ينتمي إلى اليمين الديني المحافظ، وغالباً ما يتم تصنيف الولايات المتحدة على أنها من بين أكثر المجتمعات الغربية الصناعية تديناً، وبالذات خلال فترة سيطرة المحافظين الجدد بقيادة بوش.  
- أما الأولى فلا تتس تعاضم أعداد الأمريكيين من أصول إفريقية ولاتينية وآسيوية في مقابل البيض، وتشير الإحصاءات أنهم سيشكلون الأغلبية بين سكان الولايات المتحدة قبل حلول عام ٢٠٥٠م<sup>(٢)</sup>. أما عن كونه لا ينتمي إلى اليمين الديني المحافظ،

(١) يقوم "مارك بوتوك" من المركز القانوني الجنوبي المعني بإعطاء برامج تعليمية عن التسامح، وقد وصف حال بعض المواطنين البيض منذ فوز أوباما كالاتي: "ما نراه الآن من غضب هو دون شك رد فعل عنيف من جانب بعض البيض . . الكثير من المواطنين البيض يشعرون أن بلادهم التي شيدها أجدادهم قد سلبت منهم . (صحيفة "كريستيان ساينس مونيتور" الأمريكية، الإثنين ١٧/١١/٢٠٠٨م. وقد رصدت تقارير للمركز وقوع أكثر من ٢٠٠ حادثة كراهية في ولايات جنوبية، منذ أن هزم أوباما منافسه الجمهوري جون ماكين في الانتخابات الرئاسية التي أجريت يوم ٤/١١/٢٠٠٨. وقبل أسبوع من الانتخابات، ألقى القبض على شاين أبيضين من "حليقي الرؤوس" في ولاية تينيسي؛ بتهمة التخطيط لإطلاق النار وقطع رؤوس ١٠٢ أمريكي من أصول إفريقية، بينهم أوباما.

(٢) للمزيد حول هذه المواضيع راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف؟!

فربما لأن الأمريكيين بشكل عام قد ملوا من المحافظين الجدد الذين لوثوا الدين عن طريق إقحامه في تبرير مخططاتهم الخاصة، كما مل اليهود المتنفذون من وراء الكواليس من بوش، الذي تجاوز الحد، وصار يُعتبر أكثر الرؤساء الأمريكيين تديناً خلال عقود مضت، بل إن بوش وصل إلى مرتبة أنه يوحى إليه، وأنه يتلقى تعاليمه من الله مباشرة!!! حتى إن المستشار الألماني السابق "جيرهارد شرودر" أشار في مذكراته إلى أنه جلس مع بوش ذات مرة، فأخبره أنه يتحدث مع الله، وأن أغلب ما يقوم به يتم بوحى منه!!! حينها لم يجد شرودر لنفسه مكانة أو موضوعاً يتحدث فيه مع رجل يتحدث مع الله<sup>(١)</sup>. وقد أحصت صحيفة "التايمز" البريطانية ٥٠ تصريحاً لبوش حول "الدين، الله، والحديث مع (أو) باسم الرب"<sup>(٢)</sup>، وهو ما أزعج بعض الأصوليين

(١) علق الرئيس الألماني على ذلك بأنه: "لا يوجد أي شعب يتلقى الأوامر من الرب لكي يحرر شعباً آخر، التوراة لا تتحدث عن حروب صليبية، وكلام بوش لا يعني المسيحيين".

(٢) هذه بعضها: "لقد خولني الرب للقيام بمهمة، وقال لي: اذهب يا جورج، وحارب هؤلاء الإرهابيين في أفغانستان، وفعلت، ثم قال لي: اذهب يا جورج وضع نهاية للطاغية في العراق، وفعلت". (شرم الشيخ، آب/أغسطس ٢٠٠٣). "أؤمن أن الرب يتحدث من خلالي، وبدون ذلك لن أستطيع إكمال مهمتي". (في أثناء زيارة لمخيم طائفة (أميش) الدينية، بمدينة (لانكستر) بولاية بنسلفانيا، ٩ تموز/ يوليو ٢٠٠٤). "الرب يحبك، وأنا أحبك. يمكنك الاعتماد علينا باعتبارنا رسالة قوية مفادها أن الذين يتساءلون عن مستقبلهم يستطيعون أن يسمعوا". (لوس أنجلوس كاليفورنيا، ٣ آذار/ مارس ٢٠٠٤). "إن الكنائس في أنحاء وطننا متصلة بالكنس (المعابد اليهودية)، وأتباع جميع الأديان يفهمون أن ذلك من شأنه مساعدة أبرشياتهم لتدرك مزايا تلك الخطئة". (صن سيتي سنتر- فلوريدا، ٩ أيار/ مايو ٢٠٠٦). "إنها إشارة من فوق" (تعليق حينما احترق تلفاز فوق جمع من الحاضرين في سيوكس فالز- داكوتا الجنوبية، ٩ آذار/ مارس ٢٠٠١). "إن تاريخنا، وقراراتنا ومستقبلنا يرتكزون على قيم راسخة، وأولى هذه القيم أننا جميعاً أبناء الله" (العاصمة واشنطن، ١٦ تموز/ يوليو ٢٠٠٣). "كلكم، وكل هذا الجبل من جيشنا، تصدرونا لنداء التاريخ الأعظم، وحمينا الأبرياء من الأذى. وأينما تذهبون، فإنكم تحملون رسالة الأمل، وهي رسالة قديمة جديدة. يقول النبي إشعياء: فلتخرجوا أيها الأسرى، ولتحرروا أيها القابعون في الظلمات". (من على ظهر حاملة الطائرات الأمريكية أبراهام لينكولن، ١ أيار/ مايو ٢٠٠٣). "لدينا نداء جاء من وراء النجوم أن نقف من أجل الحرية، وأمريكا ستظل دائماً ودية لتلك القضية". (العاصمة واشنطن، ١٩ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٥).



المسيحيين أنفسهم<sup>(١)</sup>.

- إن صح هذا، فهو يؤكد ما ذهب إليه من أن اليمين المسيحي لا يزال هو المسيطر على الساحة الأمريكية.

علق أحمد غامزاً، فتبسم أبراهام قائلاً:

- لم أنكر هذا، بل على العكس تؤكد تماماً.

- إذن فكيف وصل إلى البيت الأبيض رجل من خارج اليمين الديني في مثل هذه الظروف؟ فالمحافظون لا يزالون يشكلون الأغلبية بين النخبة السياسية الأمريكية، ويحظون بأكبر تأييد، وهم معروفون أكثر ما يكون بخلط الدين بالسياسة، ليس فقط فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، بل حتى حول بعض القضايا الداخلية مثل الإجهاض، والمثلية الجنسية والتمويل العام للمعاهد التعليمية والاجتماعية التي يديرها الدين.

- أنت تهمل النفوذ اليهودي وقدرته على تشكيل الوعي الأمريكي عن طريق وسائله الإعلامية المختلفة التي تعتبر مصدر الثقافة الوحيد لدى أغلبية الأمريكيين، وهم لا يريدون أن يتماذى المد الأصولي المسيحي عن القدر المحدد له. واستطلاع مركز "بيو"<sup>(٢)</sup> الذي أجراه قبل أشهر قليلة، يظهر لك نتيجة تأثير الإعلام في هذه النقطة. فلعقود مضت، فضل أغلبية الشعب الأمريكي تدخلاً دينياً منظماً في المشهد السياسي، على

(١) في إحدى خطبه قال بوش ضاحكاً إنه أشهر رجل في العالم، ليس لأنه رئيس الولايات المتحدة فحسب، بل لأن الملايين على وجه الكرة الأرضية يستخدمون كل يوم حرف W المميز لاسمه. George W. Bush ليس مرة واحدة بل ثلاث مرات! وذلك عند استخدامهم للإنترنت www. وسرعان ما تنبه علماء الكتاب المقدس في أمريكا إلى خطورة تلك الملاحظة، فنشروها مع تعليقاتهم على الإنترنت لتصل إلى أكبر عدد من الناس. فلهذه الأولى تبدو الملاحظة دعابة عادية، ولكن الـ W تعادل حرف "و" في حساب الجمل وهو ٦، وبذلك يكون www هي ٦٦٦، وبالخطورة هذا الرقم الذي أشار بوش إلى أنه يمثل! فهذا العدد عند المسيحيين يمثل المسيح الدجال! (جاء في سفر الرؤيا ١٨: ١٣: "من له فهم فليحسب عدد الوحش فإنه عدد إنسان وعدده: ست مئة وستة وستون") ولزيت من المعلومات حول هذا الموضوع راجع الفصل نفسه (الموقف) المشار إليه قبل قليل.

(٢) مركز رائد في الاستطلاعات الدينية.

نحو أدهش معظم اليهود الأمريكيين الليبراليين. والآن، ثمة أغلبية ضيقة (٥٢٪) ممن يعتقدون بأن الأمة ستكون بحال أفضل بكثير لو بقي الزعماء الدينيون خارج المشهد السياسي. وطبقاً لاستطلاعات المركز نفسه قبل خمس سنوات، كانت نسبة من يتبنون هذه الفكرة هي ٣٠٪ فقط، وحسب المركز فإن معظم إعادة النظر حدثت في أوساط جمهور من المسيحيين المحافظين أنفسهم.

- ولكن كيف يمكنك التوفيق بين استنتاجات الاستطلاع، وبين الجهود المحمومة للمرشحين الرئاسيين وحزبيهما طوال الانتخابات، لتكريس هوياتهم الدينية؟ هل ستقول، كالعادة، إن الساسة يظلون متخلفين خطوة أو اثنتين عن العاطفة الشعبية، بغض النظر عن مدى ما يحاولون أن يبدوا ذوي رؤية؟

- كلا، فمع أن هذا ليس عارياً من الصحة تماماً، لكن ثمة إجابة أفضل، وهو أن أسئلة الاستطلاعات تكون مركزة على نحو أضيّق، ولأهداف معينة، ولذلك فإنها تنتج إجابات ضيقة على السوية نفسها. وفي النهاية لا تنسَ أن هذه الاستطلاعات نفسها، هي إحدى وسائل توجيه الرأي العام!

- ولكن هذا التوجيه لا يصب في مصلحة المؤثرين خلف الكواليس الذين تتحدث عنهم، فهم أكثر المستفيدين من سيادة التأثير الديني في الولايات المتحدة.

- على العكس تماماً يا عزيزي، والدليل هو الانتقادات التي أثارته أوساط الدوائر اليهودية ضد المرشح "مايك هوكابي"، وهو قس إنجيلي سابق، لأنه كان يدعو إلى "أمريكا المسيحية". وقد كان لها أكبر الأثر في انسحابه من المنافسة على الترشيح الرئاسي الممثل للحزب الجمهوري. فمصلحة اليهود في ألا تكون هناك سلطة مسيحية على السياسة، ولكن في الوقت ذاته، أن يكون التأثير المسيحي (الصهيوني) له بالغ الأثر عليها، وهو ما ألمح إليه الحاخام "براد هيرسشفيلد" من نيويورك<sup>(١)</sup>، على الموقع

(١) رئيس المركز الوطني اليهودي للتعليم والقيادة.

الإلكتروني للواشنطن بوسست حين علق على ذلك الموضوع قائلاً: "إن فصل الكنيسة عن الدولة هو واحد من الأفكار العظيمة للعالم الحديث، وقد حاول هذا المبدأ وضع حد لتقليد عمره ألف سنة، حيث يستخدم الناس سلطة الدولة لقتل أناس آخرين كي يجعلوا الرب سعيداً. لكن الفكرة القائلة بأن الإيمان ينبغي فصله عن السياسة كليا، تظل واحدة من أسوأ التعبيرات عن أن فكرة إخراج الطفل من ماء الحمام، قد جاءت أيضاً منذ عدد مساو من السنوات".

ابتسم أحمد قائلاً:

- رغم تحفظي على قصده من وراء ذلك، إلا أنني أوافقه في عقم فصل الإيمان عن السياسة، حتى مع تبني مبدأ فصل الكنيسة عن الدولة: فوجهات النظر السياسية لرجال الحكومة تصاغ بناء على طبيعة إيمانهم، وسواء كانوا واعين لذلك أم لا، فالجميع يتأثرون، في جميع الشؤون تقريباً، بالثقافة الدينية التي ولدوا فيها.

- إن الأمر مقبول جداً لهم عندما يقف عند هذا الحد، ويمكن توجيهه، أما عندما يبدأ الموضوع بالخروج عن السيطرة، ويتزاوج الدين مع السياسة إلى هذه الدرجة المتصاعدة التي نشهدها في حقبة بوش حالياً، فإن الأمر يصبح عندئذ بحاجة إلى إعادة النظر.

- لا أوافقك في هذا يا ابن العم؛ فأنا في واقع الأمر لا أرى تراجعاً لتداخل الدين المسيحي مع السياسة في الغرب، بل أرى - على العكس من ذلك - تزايداً في وتيرة هذا التدخل على حساب العلمانية التقليدية نفسها. ففي فرنسا، معقل العلمانية ومهد فصل الدين عن الدولة، ورغم المعارضة الشديدة، استقبل الرئيس "نيكولا ساركوزي"<sup>(١)</sup>

(١) عندما كان ساركوزي وزيراً للداخلية استهل حملته الانتخابية لمنصب الرئاسة بخطاب انتقد فيه التشريعات الإسلامية في جانب الأسرة، فأعلن رفضه لتعدد الزوجات، وختان الإناث، وإجبار الفتيات على الحجاب. وكان يوحى من خلال تصريحاته أنه في حال نجاحه، فسوف يعيد الاعتبار للكاثوليكية في فرنسا، ويقود حرباً صليبية تشريعية جديدة غرضها تحجيم مظاهر التدين الإسلامي هناك، وإثناء الفرنسيين عن اعتناق الإسلام ولاسيما أن رؤية المحجبات في شوارع باريس، عاصمة الصليبية، قد صارت أمراً مألوفاً.

قبل شهرين، البابا بندكت السادس عشر في قصر "الإليزيه"، وذلك في خطوة كسرت محظوراً فرنسياً قديماً، وهو ما أثار حفيظة "الحزب الاشتراكي" (حزب اليسار) و"الاتحاد من أجل الديمقراطية الفرنسية" (حزب الوسط) بقيادة "فرانسو بايرو"، الذي ذكّر ساركوزي بقوانين "جمهورية فرنسا العلمانية" التي تحظر الخلط بين الدين والسياسة، ولكن ساركوزي صرح آنذاك أن علمانيةً فرنسية أقل صرامة هي مجرد اعتراف بجذور فرنسا المسيحية<sup>(١)</sup>!

- أنت تؤكد رأيي في الواقع: فالبابا هو من دعا فرنسا، في هذه الزيارة بالذات، إلى علمانية أقل صرامة، وعلى الطريقة الأمريكية، التي تترك مجالاً للدين في الحياة العامة، ويبدو أن أوباما قد وعى حقيقة هذه العلمانية الأمريكية الدينية أكثر من غيره. فقد أدرك مكانة الدين لدى الأمريكيين وتأثيره في السياسة، ولكنه أدرك في الوقت نفسه تجاوزه للحد اللازم خلال العهود السابقة للمحافظين الجدد، كما أدرك أيضاً طبيعة النظام الجديد الذي لن يسمح للمسيحية بأن تتخطى الدور المرسوم لها، لذا فقد لعب بورقة الإيمان الشخصي<sup>(٢)</sup>، وتأثيره على سياسته، وفي الوقت نفسه أظهر بوضوح أنه سيبعد الدين عن التسلط الكارثي على السياسة.

- ولكن المحافظين الجدد لن يختفوا عن المشهد السياسي بهذه السهولة بعد أن ربطوا كل خيوط السياسة الأمريكية بأصابعهم؟ وعلى الأغلب سيضطّر أوباما إلى الاستعانة ببعضهم؟

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن أول ما فعله البابا بندكت السادس عشر حينما تولى نيكولا ساركوزي رئاسة فرنسا أن وصفه مذكراً: "أنه أصبح يحمل لقب الرئيس الفخري لكنيسة سان جان دي لاتران".  
 (٢) في هذا الإطار يقول "جوشوا دوبيوز" مدير الشؤون الدينية لحملة باراك أوباما الانتخابية: إن أوباما جعل عقيدته الدينية عنصراً ثابتاً في حملته الانتخابية، وعمد إلى أن يكون الدين حاضراً بقوة في أعمال المؤتمر العام للحزب من أجل خلق تواصل مع الناخبين الدينيين. ويضيف: "أوباما يدرك أن للدين والقيم والمعتقدات مكانة خاصة في حياة الأمريكيين". ومع أن التركيز على الدين يعتبر منافياً لمبادئ حزبه الديمقراطي، إلا أن الفوز في الانتخابات من شأنه أن يغفر ذلك.

- هذا محتمل جداً<sup>(١)</sup>؛ فهم عناصر مهمة ومؤثرة في النظام العالمي الجديد . وكل ما سيختلف في عهد أوباما أنهم لن يحظوا بالحرية السابقة نفسها التي تمادوا فيها خلال العهود المنصرمة .

- أوافقك تماماً في هذه النقطة بالذات، فأوباما ليس على حافة الخرف كـ"رونالد ريغان"، وليس ضعيفاً كـ"جورج بوش الأب"، وليس جاهلاً بالسياسة الخارجية كـ"جورج بوش الصغير".

- تعتبر الرئيس جورج بوش الابن جاهلاً بالسياسة الخارجية؟  
علق أبراهام مستوضحاً، فرد أحمد مؤكداً:

- بالطبع: فقد ولد وبفمه ملعقة من ذهب، ونفوذ عائلته مكنه من الهرب من الجيش عبر وظيفة مكتبية. ومع أنه الرئيس الأمريكي الوحيد الذي تخرج في جامعة "هارفارد"، إلا أنه من المؤكد أن عائلته أيضاً كانت وراء ذلك وليس ذكاءه، فهو صاحب أدنى معدل من بين كل الرؤساء الأمريكيين الذين خضعوا لاختبارات تحديد مستوى الذكاء. والمخرج الأمريكي "مايكل مور"<sup>(٢)</sup> قال: "لأشياء بحياته كان ينبئ بأنه قد يصبح رئيساً، لأنه سكير عرييد و... غبي". حتى في برنامجه الانتخابي كان بوش "الصغير" يركز على أوضاع الولايات المتحدة الداخلية، ويدعو إلى التقليل من تسخير إمكاناتها في الشأن الدولي على حساب الشأن المحلي. ولكن بعد ١١ سبتمبر اضطر إلى دخول معترك السياسة الخارجية، وفقاً لخبرة وتوجيهات من عصابة المحافظين الجدد التي سيطرت عليه كلية. وهذا أمر غير وارد مع أوباما المحامي الدستوري العصامي، ابن المهاجر الكيني ذي الأصل السوداني، وابن المرأة العلمانية التي ربته دون أب. فهو رجل قوي، وقد كنت متابعاً للانتخابات منذ بدايتها، ولم أره يفعل مرة واحدة: لا من الغضب، ولا من السرور، ولا حتى حين أعلنوا فوزه.

(١) أهم الجمهوريين الذين استعان بهم أوباما وأبقاهم في وظائفهم بعد فوزه هو وزير الدفاع "روبرت غيتس".  
(٢) صاحب فيلم فخر نهايت ١١/٩، وهو فيلم وثائقي من إنتاج عام ٢٠٠٤ م ينتقد فيه ولاية بوش الابن وحكمه.

- أوافقك في هذه النقطة.

- ثم إن جزءاً محترماً من المبلغ الضخم الذي جمعه لحملة الانتخابية كان من المئة دولار والمتين التي تبرع بها مواطنون عاديون في سبيل رغبتهم في التغيير<sup>(١)</sup>، وهو ما يضيف استقلالية أكبر لقراره، فهو غير مدين كلياً لـ"اللوبيات" وأصحاب رؤوس الأموال الذين يمولون الحملات الانتخابية في العادة، ثم يفرضون مطالبهم بعد ذلك من باب عرفان الرؤساء بجميلهم<sup>(٢)</sup>، ولذلك سيكون أوباما أكثر واقعية، ولن يستطيع أولئك الذين تفوق طموحاتهم إمكانياتهم الحقيقية، توريطه كما فعلوا مع غيره.

قال أحمد بحماس، فتهد أبراهام بأسى، وعلق قائلاً:

- يبدو أنك متفائل جداً به يا عزيزي، وأتمنى ألا يخيب ظنك، مع أنني لا أتوقع منه الكثير في واقع الأمر. ويكفيك أن تمتن للظروف التي سمحت بكسر احتكار فئة معينة للسلطة في أمريكا، ووصول أسود من أصول إسلامية إلى هرمها، وانتهاء عهد الحروب الصليبية والتكليف الإلهي بقتل الأبرياء. ومن هذه الناحية بالذات، أنا متفائل أيضاً، ولكن بحذر، ودون أن أعلق عليه أمالاً كبيرة كانت أم صغيرة.

- أبراهام، مع أنني مسرور بالاستماع إلى تحليلاتك الممتعة، إلا أنني لا أستطيع

تجاهل نبذة الكآبة والحزن في صوتك! فما الذي ألمَّ بك في الآونة الأخيرة؟!

(١) ألهم أوباما جيلاً كاملاً من الشباب الأمريكي، الذين ظلوا غير مكترثين بالمشاركة السياسية في شؤون بلادهم، فاستجابوا له زرافات ووحदानا، ليس فقط بالتصويت له في الانتخابات التمهيدية، ولكن أيضاً بالتطوع للعمل في حملته الانتخابية، والتبرع لتلك الحملة، بمعدلات غير مسبوقه في تاريخ الحملات الانتخابية الأمريكية. وهو ما دفع الرئيس بيل كلينتون، زوج هيلاري، وصاحب الاسم والخبرة الواسعة في الحملات الانتخابية، التي خاض عدداً قياسياً منها، وفاز في معظمها، إلى القول إن هذه هي المرة الأولى التي يجد المرشحون ضد أوباما أنفسهم في مواجهة "حركة اجتماعية جماهيرية" (Social mass Movement) غير مسبوقه.

(٢) صرح أوباما لاحقاً بعد توليه للرئاسة، بأن اللوبيات لن تحظى بالفرص السابقة مرة أخرى، وأن أعضاءها يجب أن يراعوا مصلحة الولايات المتحدة وليس مصلحة لوبياتهم.

- لا شيء، فقط بعض الفتور كما أوضحت سابقاً. وكل إنسان يمر بمثل هذه الحالة من فترة إلى أخرى.
- آه. بالمناسبة، اتصلت راحيل وسألت عنك.
- ماذا؟! ... راحيل؟! ... لمّ لم تقل ذلك منذ البداية؟! متى اتصلت؟ وماذا قالت؟ هل هي هنا في أورشليم؟ لماذا لا تجيب؟
- على رسلك يا صديقي، على رسلك، فأنت لا تعطيني فرصة للإجابة. خفف من توترك قليلاً ودعني أجيب عن أسئلتك بانتظام. لقد اتصلت قبل قدومك بنحو ساعة أو أكثر قليلاً، وهي هنا في القدس. و... أبراهام إلى أين تذهب؟
- لقد نسيت شراء بعض الأغراض، وأريد أن أذهب إلى السوق قبل إقفال المحلات.
- هل ستأخر؟
- أجل، فلا تنتظرنني.
- قال أبراهام على عجل وهو يصفق الباب وراءه، فهز أحمد رأسه بأسف، فقد كان واضحاً أن الذي نسيه أبراهام في واقع الأمر هو نفسه ذاتها، ولا ريب أنه يركض الآن لاهتاً ليحظى بشرف المثول بين يدي راحيل، والتبرك برؤية طلعتها البهية.

## ◀ المستوطنون

طوال الطريق كان أبراهام يفكر بالطريقة التي سيفتح فيها راحيل بحقيقة مشاعره، وتقدمه لطلب يدها . ولكن ما إن جلس إليها حتى بدأت تروي له كيف رتبت له زيارة للحاخام "إليعازر إيلون" في إحدى المستوطنات التابعة لغوش إيمونيم، فذهبت كل السيناريوهات المحضرة في رأسه أدراج الرياح، على الأقل لذلك اليوم. كان هدف راحيل من ذلك، كما أوضحت، أن يتعرف عن قرب منطلق المستوطنين، كي يتفهم وجهة نظرها على أرض الواقع. وفي الحافلة وبينما كان يفكر بالمبادرة التي فقد زمامها، وبمعاكسة الظروف له على ذلك النحو المشؤوم، كانت راحيل تكرر تحذيراتها له من محاولة الخوض في جدال بيزنطي قد يقود إلى إغضاب الحاخام، لكونه لا يتمتع برحابة صدرها في الأمور التي يعتبرها من صميم الشريعة وغير قابلة للنقاش.

كان إليعازر قصيراً نحيلاً، يوحى تقوس ظهره وقسمات وجهه البليدة بالضعف والغباء، مما حدا بأبراهام إلى الاستخفاف به، والسخرية بينه وبين نفسه من إسهاب راحيل في التخويف منه، وهو الذي يبدو كأن كلباً صغيراً قادر على إخافته بكل بساطة. ولكن ما إن فتحت راحيل موضوع الاستيطان، حتى تحولت قسمات وجهه فجأة إلى الصرامة، واندفع يتحدث بقوة وهيبة يتعارضان مع مظهره الوديع. وعندما سأله أبراهام عن مصدر تلك الأفكار الأصولية التي كان يطرحها بمنتهى الثقة، قام إليعازر ليحضر التوراة كي يستشهد بها، وعندها ظهر رشاش الـ"عوزي"<sup>(١)</sup> المعلق خلف ظهره، بدأ أبراهام يدرك حقيقة المصدر الفعلي لتلك القوة والثقة، اللتين تبرأ التوراة

(١) بندقية آلية صغيرة حظيت في الغرب بشهرة واسعة، وبالذات من خلال الأفلام الأمريكية . والسبب الأساسي لتلك الشهرة هو الدعاية اليهودية، لكونها صنعت في الكيان الصهيوني .



منهما، براءة الذئب من دم يوسف. وبدا له أن السلاح في ذلك المكان هو صاحب الحجة والمنطق، وهو من يجعل الفأر أسداً هصوراً.

- أجهل ما تعني بالأصولية، يمكنك التعبير عنها كيفما شئت، لكن لم الاتجاه إلى

الأفكار المعقدة؟

أجاب إيلعازر وهو يعود إلى مكانه ممسكاً بالتناخ<sup>(١)</sup>، ثم أردف قائلاً وهو يشير

إليها:

- حين تساورني الشكوك بشأن الطريق الذي اخترته أفتح التناخ، فهو يحوي الكتب

المقدسة التي كتبت قبل أن أفد إلى هذا العالم بوقت طويل، فأرى فيها أن ما أفعله هو

ما تنبأ به الأنبياء، وما أمرنا به الرب. حين أرى مدن إسرائيل مثمرة كما قال النبي

"حزقيال"، وأرى الشعب الإسرائيلي مجتمعاً ووافداً من كل حذب وصوب من العالم كما

قال النبي أيضاً، أفهم طبيعة هذه الظاهرة، فالرب ينفذ مشيئته، وأنا جزء من هذه

المشيئة؛ فأنا يهودي مؤمن، أوّمن بما أمرنا الرب به في هذه التوراة، وبرؤى رسلنا. كما

أوّمن بعودة اليهود إلى وطنهم، وتوبتهم كي يصبحوا أمة عظيمة تبارك كل أمم العالم.

أوّمن بأن كل ما حدث في إسرائيل: من عودة اليهود، إلى انهيار جدران الكرملين

بأعجوبة، والمفاجأة بوصول مئات الآلاف من اليهود إلى هنا، كل هذا يدل على أن الرب

أعادنا إلى يهودا والسامرة، كما أعادنا إلى عمق الجليل والسهل الساحلي. وأعتقد

أن الرب يتوقع منا تنفيذ وصيته المهمة بالاستيطان في الأرض، وإعادة مظاهر الحياة

اليهودية إليها، فإن كنت تعتقد بأن هذه هي الأصولية...

وأشار بيديه بمعنى "أنت حر"، فقال أبراهام معلقاً:

(١) التناخ هو التوراة وبقية الأسفار المقدسة لدى اليهود، وهو أيضاً ما يُعرف لدى المسيحيين بـ "العهد القديم"

كما أوضحنا سابقاً.

- ولكن هذه "مستوطنة غير شرعية"<sup>(١)</sup>، ماذا عن أصحابها الشرعيين من السكان العرب؟

- على مدى ٢٠٠٠ سنة حين لم نكن هنا، لم تدع أي أمة أن المنطقة الممتدة من المتوسط إلى الأردن هي موطنها، ولهذا لم يقيم أحد بأي مجهود لتطوير الأرض واستيطانها، فبقيت صحراء ومستنقعات<sup>(٢)</sup>، ولهذا لم تمثل أرض إسرائيل الممتدة بين المتوسط والأردن كياناً وطنياً سياسياً بحد ذاتها على مدى ٢٠٠٠ سنة، ولم تكن أورشليم عاصمة لأي دولة في تلك الحقبة. غير أن اليهود حتى في خضم تشبثهم كانوا يدعون دائماً إلى العودة إلى القدس في العام التالي، فهذا ليس موطن أي أمة أخرى غير اليهود. أحياناً أتمنى أن أقول لهذه الأرض التي انتظرتنا ٢٠٠٠ سنة حتى عدنا إليها أخيراً، تلك التي يستعد بعض اليهود للتخلي عنها: "لا تيتسي. لقد عدنا إليك ونحن نحبك وسنبقى في رحابك ولن نهجرك ثانية".

لم يرغب أبراهام في توتير الأجواء بمناقشة تلك المغالطات التاريخية الفادحة، ولكنه لم يستطع السكوت أيضاً، فقال مُذكراً:

- الفلسطينيون لا يوافقونك على هذا، فهم يعتبرون أنفسهم أصحاب حق في هذه الأرض التي سكنوها منذ أجيال. واستناداً إلى ذلك الحق الذي يؤمنون به، لا يزالون مستمرين في المقاومة رغم كل هذه المدة التي انقضت على تأسيس إسرائيل، ولا تستطيع إنكار أن ضرباتهم لا تزال موجعة فعلاً.

(١) أقامت منظمة غوش إيمونيم، التي خرجت من صفوف حزب العمل، العديد مما يسمى بمستوطنات غير شرعية، إلا أنهم تمكنوا في النهاية من فرض سياساتهم وتحويلها إلى سياسة رسمية. والمستوطنات التي أقيمت بطريقة غير مشروعة صار التمسك بها لاحقاً خطأ أحمر لتل أيبب، ونجح المستوطنون بدعم من الحكومات المتعاقبة في قضم نحو ٤٠٪ من أراضي الضفة ونهب ثلثي مصادرها المائية.

(٢) هذه الحججة خدعت الكثيرين في الغرب قبل أن يوقنوا بخطئها التام، ومع ذلك لا يميل الصهاينة من تكرارها إلى الآن بكل صفاقة، متجاهلين كل الحقائق.

- ليس للعرب أي حق في هذه الأرض، لأنها أرضنا نحن، هكذا تقول التوراة، لذا فإنه أمر لا نقاش فيه، ومن أجل ذلك لا أجد أي مبرر للتحدث عن ادعاءاتهم المناهضة لنا. إن الأقوى هو الذي يحصل على الأرض. وكما قالت "غولدا مائير"<sup>(١)</sup> ذات مرة: "من هم الفلسطينيون؟ أنا فلسطينية". إن الإرهابيين العرب ليس لهم إلا هذا (وأشار إلى رشاشه). فمقابل كل حجر يرموننا به، نرميهم بقذيفة، ثم نأخذ عشرة حجارة ونستمر بالبناء؛ ومقابل كل قنبلة "مولوتوف" يحرقون بها بيوتنا وحقولنا<sup>(٢)</sup>، نسمح قراهم عن الخريطة، ثم ننتزع منهم المزيد من الأراضي ونزرع الحقول ونبني المزيد من البيوت. ومقابل كل جريح منا نقتل عشرة منهم، ثم يحث بعضنا بعضاً على أن نلد المزيد من الأطفال موسعين مجتمعاتنا وعائلاتنا. إن دفاعنا عن أنفسنا شرعي، وفي نهاية المطاف سيكون ردنا على ضرباتهم الإرهابية، قاتلاً لهم بأضعاف ما هي موجعة لنا. أنا شخصياً غيرت الحاجب الزجاجي الأمامي لسيارتي سبع مرات على مدى السنوات الثلاث والنصف المنصرمة، وقد جرحت قبل سنتين حين أصابتي رصاصة في قدمي، كما جرحت حين أصابني حجر في وجهي، ولكنني في المقابل لا أزال حياً وقد أرسلت عشرات العرب إلى الجحيم.

- عنف الطرف الآخر يعد "إرهاباً" أما عنفنا نحن فيعد "دفاعاً شرعياً عن النفس"؛ هل تجد هذا التلاعب بالألفاظ منطقياً؟ إن كلاً من اليهود والفلسطينيين استخدم الإرهاب في تحقيق أهدافهم السياسية. ثم إنه كان يجب أن تفتخر بتطبيق الشريعة، لا باستهتارك بحياة العشرات من الناس.

(١) غولدا مائير كانت ثالث رئيس للوزراء في الكيان الصهيوني.

(٢) سياسة حرق الحقول يتبناها المستوطنون وليس الفلسطينيون، فقد نشرت صحيفة "نيويورك تايمز" الأمريكية على موقعها الإلكتروني تقريراً مطولاً عن الاستيطان وتطرف المستوطنين في الضفة، وأرقت التقرير بالعديد من الصور التي تظهر حرق الحقول في شمال الضفة، وبقية الانتهاكات التي يرتكبها اليهود بحق المواطنين الفلسطينيين، ومن بين تلك الصور صورة لمستوطن يسكب الخمر على مواطنة فلسطينية في أثناء مرورها في شارع الشهداء وسط مدينة الخليل.

- حين يثبت اليهودي نفسه على الأرض، ويستجيب لتاريخه، فهذا تعبير حي عن تمسكه بالحياة الحقيقية المقدسة (اليهودية)، ويصبح كل شيء خلاها سهلاً ولا يستحق التوقف عنده. لا شيء هنا يشذ عن عالم كتابة التاريخ، وهذا ما سيكتب عنه في كتب التاريخ اليهودي بعد مئة سنة أو مئتين من اليوم، لا عن دكان بيتزا يراعي الكوشير في جنوب بروكلين.

في تلك اللحظة دخل بعض الفتية إلى المنزل، وما إن فتح أبراهام فمه للرد، حتى قاطعته زوجة إيلعازر بوقاحة طالبة منه التوقف عن الحديث مؤقتاً، ثم ذهبت إلى الفتية، الذين ما إن تلقوا بعض الكلمات من أمهم، حتى عادوا من حيث أتوا، ثم رجعت "تمارا إيلون" إلى مكانها وقالت موضحة:

- أنا لن أمنح أي شخص لا يفكر مثلي فرصة ليعبر عن آرائه أمام أطفالي، أريد أن يقتنع أولادي كل الاقتناع بأن هذه الأرض هي أرض يهودية.

- ولكن يجب أن تعطوهم الفرصة ليسمعوا مختلف وجهات النظر بعقل متفتح يا سيدتي.

- لن أسمح لهم بالإصغاء إلى ترهات من هنا وهناك بحجة ساذجة عن تفتح العقل.

نظر أبراهام إلى راحيل التي أشارت إليه بقسمات وجهها بأنها قد حذرتة مُسبقاً، ولكنه لم يصغ إليها. فأشار إليها بالقيام، وكان يعزم فعلاً على الانسحاب من هذه المهزلة، ولكن تمارا لم تمنحه تلك الفرصة، بل تابعت حديثها معه كأن شيئاً لم يكن:

- أغلب الناس لا يعلمون ويهملون التاريخ، أما أنا فلا أرتبط بعلاقات عملية مع من يهمل تاريخه. تماماً كرجل الأعمال الذي لا يتعامل مع من يقول له: "اسمع أنت رجل طيب لكن فيما يتعلق بدفع ثمن بضاعتك دعنا نهمل المال، فأنا لا أستخدمه لأنه قذر". حين أتعامل مع المستوطنات أعتبر التاريخ بمنزلة المال، لا أستطيع العمل من

دون التاريخ، فإن لم يكن التاريخ فماذا عساي أقول؟ ماذا أخبرك؟ أنني أعيش هنا لأن المنظر جميل!!! لا شك في أن النرويج تحوي مناظر أجمل، أعلم ذلك علم اليقين لأنني كنت هناك، ولا بد من أن سويسرا جميلة وربما اليابان وكل أنحاء العالم، إنني أعيش هنا لأنه موطني بكل ما تعنيه الأرض كموطن بالنسبة إلى أمة. لهذا أنا هنا ولن أتنازل عن حقي التاريخي في استيطان أرض أجدادي، كي أرضي رئيس وزراء إسرائيلي علماني فاسد، كفر بإسرائيل الكبرى، ويسعى إلى تحسين صورته أمام العالم، على حساب المستوطنين، كما حصل قبل أيام<sup>(١)</sup> تمهيداً لعقد تسوية مع العرب الأنجاس.

- أولاً: لم يكن ذلك منزلهم بل اقتحموه عنوة، وثانياً: إن الحكومة التي تتهمونها بالسعي إلى التسوية مع العرب على حساب المستوطنين، تغض النظر عن انتهاكهم للقانون ولسلطة الدولة نفسها؛ فالمستوطنون لا يزالون حتى هذه اللحظة يعيشون في مدينة الخليل فساداً، عن طريق قيامهم باعتداءات متكررة على السكان العرب العزل، وحرقت منازلهم، تحت أنظار وأسماع الشرطة التي لا تحرك ساكناً، وما اعتداءات المستوطنين الأخيرة في مدينة عكا عنا ببعيدة. كما أن هذه الحكومة لا تزال تفرض حصاراً على غزة، ليس بعيداً عن القيم اليهودية فحسب، بل بعيداً عن كل القيم الإنسانية؛ فتحرم سكانها من الغذاء والدواء والوقود والكهرباء، وتخرق اتفاقية الهدنة، وتمنع إيصال المساعدات إليهم. كل ذلك لأن قلة قليلة منهم أطلقت بعض الصواريخ على المستوطنين، مع أنها لم تؤدِّ إلى أي أضرار تذكر.

- يبدو أن اليساريين الخونة قد غرروا بك، أما أنا فلن أتنازل عن حقي في الاستيطان إرضاء لتمسحهم بالديمقراطية الزائفة.

(١) تشير إلى ما ذكرناه عن رئيس الوزراء المستقيل (آنذاك) " أولمرت " ، وتنفيذه لقرار المحكمة العليا القاضي بإخراج مستوطنين بالقوة من منزل في الخليل استولوا عليه .

- لا أعتقد أنك يجب أن تتركي الاستيطان إرضاء لليسار أو للديمقراطية، بل إرضاء لدينك اليهودي، ورفضاً للصهيونية.

- عليك أن تفهم أنني إنسانة مؤمنة، وقد كنت كذلك طوال حياتي، ومن هنا فإن اختيار العيش في إسرائيل، وإنشاء دولة، والتمركز في يهودا، واستيعاب المهاجرين: كل هذا يشكل جزءاً من ديانتنا، والصهيونية نفسها هي جزء من ديانتنا أيضاً. وحسب معتقداتي، فإن ديننا لا يأمرنا بالجلوس وعدم القيام بشيء وتفويض أمرنا إلى الرب، بل يدعونا إلى تأدية دورنا، وبعد ذلك نلتفت إلى الرب ونقول له: "والآن حان دورك". أليس كذلك يا إيلعازر؟

فأجاب الحاخام، دون أن يرفع عينيه، اللتين يتطاير منهما الشرر، عن أبراهام:

- أجل، هذا صحيح يا عزيزتي... سيد أبراهام، إن هذه أرضنا ولن نغادرها أبداً، ولو قرأت التوراة جيداً لعرفت أن ذلك واجب ديني، وأنا واثق من أن أصغر أبنائي، الذي لم يمه دراسة التوراة بعد، يستطيع أن يُدرّسك ذلك.

- ولهذا أمرتموه بالخروج هو وإخوته الأكبر منه، والذين ربما أنهوا دراسة التوراة وكانوا أقدر منه على تعليمي أمور ديني؟!

فقال إيلعازر بحنق، وهو يسحب حزام رشاشه ليدينه منه أكثر:

- لا داعي للسخرية سيد أبراهام. لقد كنت وأسرتي نعيش في "يمينيت"<sup>(١)</sup>، لكن الحكومة أجبرتنا على المغادرة، وجرفت المستوطنة في مقابل تسوية تافهة مع مصر، ونحن لن نسمح لحادثة يمينيت أن تتكرر، بل إنها لن تتكرر أبداً. والسبب الأول هو نوعية الرابطة، فرباطنا بهذا المكان وثيق كعمق ارتباطنا بالتاريخ اليهودي والدين اليهودي، كل الدم الذي يسري في الحياة اليهودية مصدره هذا القلب. قد يحاول البعض لكنهم لن

(١) مستوطنة يهودية في صحراء سيناء أخذت عنوة من مصر بعد حرب الأيام الستة، لكنها ردت إليها بموجب اتفاقية "كامب ديفيد" عام ١٩٨٢م.

ينجحوا، لن يستطيعوا قطع الشريان الذي يضح الدم في كل ما هو يهودي، وهذا ينبع من هنا. وبعدها أنشأنا مقبرتنا هنا<sup>(١)</sup>، ودفنا في هذه الأرض صديقاً عزيزاً، نشعر جميعنا بأن الرابط بهذا المكان قد أصبح أقوى، فبعدها أضفنا طبقة أخرى صار حيننا لهذا المكان أقوى، صرنا أكثر وعياً بأننا جئنا هنا كي نبقى، وفي هذه المقبرة نتصل إلى الأبد بالأرض التي نعيش عليها ونسير عليها في حياتنا. بعدما أوجدنا هذه المقبرة أصبحنا نتعلق بهذه الأرض أكثر، ولن نقبل بأن نهجرها يوماً.

- ولكن "مناحيم بيغن" صاحب معاهدة كامب ديفيد التي تنتقدها كان متديناً أيضاً، وبعد اعتزاله السياسة تفرغ للتوراة وفسر بعض نصوصها، وأدخلت هذه التفسيرات في التلمود.

- كان بيغن على رأس حكومة علمانية، ومعلوم أن بيغن بعد المعاهدة المشؤومة أصيب بحالة نفسية سيئة، لأنه أدرك خطأ ما قام به ومخالفته للنبوءات التوراتية بوجوب التقدم إلى الأمام وليس التراجع.

- ومع ذلك فلا تستطيع أن تنكر أن إسرائيل قد استفادت من معاهدة كامب ديفيد إلى أقصى درجة.

- لقد استفاد العلمانيون فقط، وفائدتهم مؤقتة، حيث سترتد إلى نحورهم عندما تقوم مملكة الرب.

- فكر معي بروية، فإن الوقت لم يحن بعد لإقامة مملكة الرب في أرض الميعاد، لأن المشيخ المكلف بإقامتها لم يظهر بعد. واستيطانكم فيها حتى الآن، لا يعدو كونه نوعاً من الشتات، حتى إن كان داخل أرض إسرائيل. فلماذا لا تتصالحون مع العرب وتقتسمون معهم الأرض لتنعموا بالسلام، ولتجنبوا إزهاق الأرواح اليهودية المقدسة، حتى يأتي أمر الرب.

(١) المقبرة بالعبرية تعني بيت ألين؛ أي البيت الأبدي، أما حياة الإنسان على الأرض فهي مؤقتة.

- بغض النظر عن أن هذه هي مملكة الرب أم لا، فهل تقبل أي أمة في العالم بأن تتاجر بشبر من وطنها حين تهددها أمة أخرى وتقول لها: "إما أن تعطيني جزءاً من وطنك وإلا فلن أمنحك السلام"؟!
- ولم لا ما دام الموضوع من أجل قضية نبيلة كالتسوية بين شعبين، كلاهما مضطهد تاريخياً، وغير قادرين على العيش معاً في سلام.
- وأين اضطهاد العرب أمام الهولوكست؟!
- ولماذا يجب على الشعب الفلسطيني أن يدفع ثمن أخطاء أوربية مسيحية ليس له يد فيها؟!
- لأنه لدينا الحق في هذه الأرض بالذات.
- مهما كانت علاقتكم العاطفية بالأرض التي تستوطنونها الآن، ومهما كانت دواكم الدينية والتاريخية بأحقيتها، فإنكم حللتم محل شعب آخر لن ينسى لكم ذلك، لأن له أيضاً حقوقاً فيها.
- مط إلعازر شفثيه باستهتار قائلاً:
- لا تساوي بين حقوقنا الدينية وحقوقهم التافهة بسبب سكانهم في هذه الأرض لبضعة أجيال.
- أنت حاخام وتعرف جيداً أنه إلى أن يظهر المشيخ فلا حقوق دينية لنا في استيطان، ليس فقط هذه الأرض، بل كل أرض إسرائيل بما فيها أورشليم نفسها. ولكننا الآن نتحدث عن المستوطنات فقط، تلك التي وصفت في عام ٢٠٠٢ من قبل "ميخائيل بن يائير"<sup>(١)</sup> بأنها "مجتمع استعماري". فالمحصلة أننا أقمنا نظاماً عنصرياً في المناطق المحتلة بعد احتلالها مباشرة. وذلك النظام المستبد ما زال قائماً إلى يومنا هذا، ويجب تسوية ذلك الأمر، لأن المستوطنات المستحدثة تعطي الفلسطينيين سبباً مادياً للمضي في كراهية الإسرائيليين ومهاجمتهم.

(١) المدعي العام في حكومة رئيس الوزراء المغتال "إسحاق رابين".



- تريد أن نعطيهم نصف أرضنا؟

- أي نصف هذا؟! فواقع الأمر يؤكد أننا قد استولينا على ٨٠٪ من أرض فلسطين أيام حرب ١٩٦٧، ثم التهمنا بالجدار ٤٥٪<sup>(١)</sup> من أراضي يهودا والسامرة (الضفة الغربية)، أي إن الجزء المتبقي الذي تدور حوله المفاوضات حالياً لا يتعدى ٩٪ لا غير. كما أن الجدار يفصل بالفعل مدينة أورشليم عن مدن السلطة عند رام الله في الشمال، وبيت لحم في الجنوب، وأبو ديس في الشرق، بل اخترق حرم جامعة القدس واقتلع ثلث مساحتها، وهذا يعني حماية مدينة "أورشليم الكبرى" كما حددتها الدولة، وينفي أي احتمال لحصول العرب عليها مستقبلاً. ولا تنس أن قادة السلطة الفلسطينية يزودوننا بالأسمت لبناء الجدار، والحكومة المصرية تزودنا بالغاز بأقل من ثمن التكلفة، كما تزودنا بمياه النيل عن طريق ترعة السلام، وكذلك أيضاً تفعل الحكومة الأردنية<sup>(٢)</sup> رغم حاجة رعاياها إلى المياه التي تقدمها لنا. فلماذا لا نعطي العرب في مقابل حصولنا على الأمن وكل هذه المكاسب، شيئاً من تلك الـ ٩٪؟! ولا

(١) يبلغ طول الجدار الفاصل ٧٣٠ كيلومتراً بارتفاع ثمانية أمتار من الأسمنت المسلح، وبه برج مراقبة كل ٣٠٠ متر، وأسلاك شائكة مكهربة، إضافة إلى خندق بعمق مترين. والجدار يقام بتكلفة أكثر من مليون دولار للكيلومتر الواحد بدعوى حماية الصهاينة المساكين الذين لا يملكون حولا ولا قوة، فضلاً عن ترسانة نووية وكيميائية وأضخم ترسانة أسلحة تقليدية في الشرق الأوسط وأكثرها تطوراً وفتكاً، لحمايتهم من حجارة الانتفاضة!! ويا له من منطق يبلعه الذين فُرض عليهم الصمت والتواطؤ. جدير بالذكر أن نسبة السكان المعزولين عن الأراضي الزراعية بسبب هذا الجدار هي ٤، ١٢٪، أي نحو ٣٠٠ ألف فلسطيني من أبناء الضفة الغربية، أما نسبة السكان المعزولين غربي الجدار عن باقي الضفة الغربية فهي ٦، ١٠٪، أي نحو ٢٥٦ ألف فلسطيني. ومجموع الأراضي المقتطعة من الضفة الغربية جراء الاستيطان والجدار ٢، ٧٠٣ كم<sup>٢</sup>، أي ٤٦٪ من مساحة الضفة الغربية.

(٢) كشفت إحصائيات وزارة الزراعة الأردنية أن الصهاينة أحرقوا ١٢٥٠ دونماً بعد معاهدة وادي عربة ١٩٩٤م وأتت الحرائق منذ ١٩٩٦م على نحو ٣٢١٢ شجرة منها أشجار مثمرة يزيد عمرها على ٥٠ عاماً، وسبب هذه الحرائق الصهيونية إما إطلاق القنابل التنويرية أو انفجار الغمام أو حرق أعشاب لمراقبة الحدود.

سيما أنها ستكون منزوعة السلاح<sup>(١)</sup>.

- ها أنت ذا قلتها بنفسك. فلماذا نقدم التنازلات للعرب إذن، ما داموا يقدمون لنا كل ما نطلبه وهم صاغرون!!! إن هؤلاء العرب كالقطط لا يحترمون إلا من يخنقهم، ولا يفهمون إلا لغة القوة والصرامة.

- لماذا تسمي الأمر تنازلاً؟ إنه مجرد تسوية. خذ الموضوع ببساطة: فرغم صرامة أبي مع أمي وسيطرته الكاملة عليها، إلا أنه كان يقوم بتسوية ما عندما يتطور الخلاف بينهما، فيرضيها بشيء صغير، كي يسكتها ويحافظ على جو الألفة والسلام في البيت، وهكذا عشنا بوتام رغم الاختلاف الشديد بين طبيعة الاثنين.

- إنني أؤمن بدوري بنبالة التسوية، وأتقهم تسويات أبيك مع أمك، وربما أعتبر ذلك حكمة منه إذا سار ضمن الأصول، ولكن إن سار على نهجك أنت، فسيساوم على أمك نفسها وليس معها. أما أنا فلست مستعداً لمشاركة زوجتي مع أي أحد آخر، ولو بشكل جزئي وبسيط، كما قد تفعل أنت ما دمت تتبنى هذا المنطق الضعيف، فأنت لا تفهم أن في الحياة أشياء لا تقبل التسوية.

امتقع وجه أبراهام بشدة لصفافة إليعازر، الذي نظر إلى الأسفل بوجل ليتبقي نظراته النارية، ولكن ما إن اصطدم نظره برشاشه، الذي ابتعد عن ظهره كثيراً في أثناء النقاش، حتى انقلب خوفه إلى جراءة، فرفع نظره مجدداً إلى أبراهام بتحدٍ وفتح

(١) الغريب أن هذه "الدويلة التي يتردد الصهاينة كثيراً في "التكريم" بها، ويتكالب عليها قادتنا مقدمين التنازل تلو التنازل هي دولة "لن تعتبر دولة كبقية دول العالم" كما أوضح رئيس الكنيسة الصهيوني "روبي ريفلين" في ٢١/٧/٢٠٠٩ في "الإذاعة الإسرائيلية العامة" قائلاً: "إن الدولة الفلسطينية المقترحة لن تتعدى كونها نطاق حكم ذاتي"!!! وفي سياق آخر قال ريفلين خلال لقاء جمعه بالسفير الإيطالي: "إن العلاقات بين "إسرائيل" وواشنطن شهدت مداً وجزراً، بيد أن القاسم المشترك يغلب الأفكار الجديدة التي يحملها الرئيس الأمريكي باراك أوباما". من جانبه أعرب السفير الإيطالي عن تفهم بلاده لرفض "إسرائيل" المخاطرة فيما يتعلق بحدودها، وتكرار ما حدث في قطاع غزة، حسب الإذاعة.

وهو يتحسس رشاشه. تأمل أبراهام وجهه المشجوج طويلاً، كان ذلك التناقض بين ضعف شخصيته، وجبنه وبلادة مظهره، وبين جرأته ووقاحته وقوة تمسكه بالباطل، لا يعادله إلا جمعه بين اليرموكا، المثبتة على رأسه، بكل ما تحمله من معان دينية سامية، وبين الرشاش المعلق خلف ظهره أينما ذهب، بكل ما يحمله من معان أبعد ما تكون عن الدين. استأذن أبراهام بالذهاب، ثم قام دون أن ينتظر الرد، فتبعته راحيل بعد أن تبادلت مع الحاخام وزوجته عبارات الوداع باقتضاب. وفي الطريق إلى موقف الحافلات، لاحظ أبراهام أن كل سكان المستوطنة كانوا مسلحين مثل إلعازر، وينظرون إلى الغرباء بعدائية ممزوجة بالخوف.

جلس أبراهام على مقعده ينظر عبر زجاج الحافلة بوجوم، دون أن ينبس ببنت شفة. وبعد فترة طويلة من الصمت قال كأنما يتحدث مع نفسه:

- لقد كان "أبراهام برغ"<sup>(١)</sup> محقاً حين قال: "يبدو أن كفاح ٢٠٠٠ عام من أجل البقاء اليهودي انتهى إلى دولة من المستوطنات، مُدارة من قبل زمرة من الفسقة أو منتهكي القانون الفاسدين، ممن هم صمُّ لمواطنيهم ولأعدائهم".

- أنا آسفة لاصطحابك إلى هناك.

- أما أنا فأسف لأننا قد قطعنا كل تلك المسافة للتحدث مع أولئك المعتوهين، الذين يحسبون كل صيحة عليهم، فإجازتُك سويعاتٌ قليلة، وقد خسرت جزءاً كبيراً من وقت ثمين كان يمكن أن أقضيه معك بشكل أفضل.

فوضعت يدها على يديه قائلة:

- لا تقلق لهذا الأمر: فإجازتي هذه المرة أسبوع كامل.

عقدت الفرحة لسان أبراهام، وأحس بالدم يتدفق في عروقه التي جمدها وقاحة إلعازر وزوجته، ولم يدر بأيهما سُرَّ أكثر، بخبر طول إجازة راحيل هذه المرة، أم بلمسها

(١) سياسي من الكيان الصهيوني.

يده للمرة الأولى؟ سرت رعشة في جسده، تمنى معها لو أن تلك اليد المخملية الناعمة تبقي بتماس معه طوال الرحلة. ولكن راحيل نزعته يدها بعنف بعد أن طال انتظارها لردة فعله دون جدوى، وقالت ببرود:

- يبدو أن الخبر لم يعن لك شيئاً!

- يكفيني سوء فهم اليوم يا راحيل، فلا يكن ذلك من جهتك أنت في آخر المطاف. إن هذا هو أسعد خبر سمعته منذ مدة طويلة.

- حقاً! لماذا صمتت طويلاً إذن.

- صدقيني لقد عقدت الفرحة لساني وتسارعت دقات قلبي، ولولا هدير محرك الحافلة لسمعها كل الركاب.

- ها قد وصلنا أيها المخادع، وسيصمت هدير المحرك بعد قليل، وعندها أتمنى لو أسمعها أنا فقط على أقل تقدير.

مرت بقية ذلك اليوم كلمح البصر، وكان من أسعد أيام حياته، ولكنه مع ذلك لم يستطع مفاتحتها بالأمر، وعندما عاد إلى بيته كان يحس بقلبه يكاد ينفطر غيضاً من جنبه. وفجأة تفتق ذهنه عن فكرة تسمح له باستغلال تلك الأيام المتبقية من الأسبوع لطلب يدها بطريقة رومانسية، وبعيدة عن ذلك الجو المشحون، فخرج من منزله مسرعاً لتنفيذها، دون أن يعطي نفسه وقتاً كافياً لسبكها أو التهيئة لها.

- لقد تأخرت هذه المرة، لدرجة جعلتنا نقلق عليك.

قالت راحيل وهي تفسح له مكاناً للجلوس. فجلس أبراهام منشرحاً ثم قال وهو يناولهما ظرفين أنيقين:

- لو عرفتما السبب في تأخري لعذرتما.

- ما هذا؟

- تذاكر رحلة سياحية إلى مصر تشمل الإقامة بفندق لمدة أسبوع، وجولة سياحية في المناطق الأثرية فيها، وبالذات تلك التي أقام بها أجدادنا قبل "الخروج". فقد كنت ماراً بالقرب من مكتب للسفريات، ورأيت إعلاناً كبيراً عن جولة سياحية إلى مصر بسعر تشجيعي مخفض، فوجدت العرض مغرياً، وفكرت بمفاجأتكما .

أفلتت ابتساماً مأكرة من فم السيدة تيتلباوم، فأشاحت برأسها جانباً حتى تخفيها . أما راحيل فقد احمر وجهها غضباً وقالت بعصبية:

- هل تخفيض سعر سلعة كاسدة يعد سبباً كافياً لشرائها رغم عدم الحاجة إليها؟! فما حاجتنا للسفر إلى مصر والمساهمة بدعم اقتصاد أعدائنا، حتى إن كان ذلك الدعم زهيداً؟

امتقع وجه أبراهام، وعقدت المفاجأة لسانه: فهو لم يكن يتوقع عنف ردها، ولا الطريقة التي نظرت بها إلى الموضوع، لاسيما أن ما أسمته "المساهمة في دعم اقتصاد الأعداء" لم يكن زهيداً كما ادعى، وأحس بأنه قد عاد فأفسد الأمر ثانية. فانكمش كطفل ارتكب لتوه حماقة كبيرة، وينتظر التوبيخ.

كان لا يزال لدى راحيل الكثير لتضيفه، إلا أن فرصة تأنيب من أمها، التي عضت على شفيتها بقوة، جعلتها تصمت وتلتفت إلى أبراهام لتلاحظ أنه مطأطئ الرأس بشكل يثير الشفقة، فشعرت بالندم على تماديها برده فعلها، التي لم تكن في الحقيقة بسبب دعم اقتصاد الأعداء، قدر ما كانت بسبب لهفتها للقاء عشيقها الذي وعدها بالتفرغ من عمله بضعة أيام حالما تعود، وهي لم تكن مستعدة للتضحية بذلك لمجرد أن عرضاً سخيفاً قد أسال لعاب أبراهام لشدة رخصه. وزاد من شعورها بالندم، أنها لاحظت كم أصبحت مادية؛ فالمقارنة بين تلك الرحلة، التي لا ريب ستكون بحافلة غير مكيفة، وبأقذر فنادق مصر، وبين رحلاتها مع "مردخاي" بالطائرات إلى أوروبا، أو حتى

بسيارته الفارهة المحاطة بموكب حراسة، وإقامتهما بأفخر الفنادق، هي مقارنة غير عادلة، فهذه هي حدود إمكانيات أبراهام، وهذا العرض لا بد أنه قد كلفه مبلغاً من المال، وهو مهما كان ضئيلاً، فلا ريب أن لديه أموراً أهم بكثير ليستخدمة فيها، ومع ذلك أثرها على نفسه في محاولة للتقرب منها. وحتى إن رفضت عرضه، فيجب عليها إبداء بعض التقدير لتصرفه، لذا قالت بلهجة حاولت أن تكون لطيفة قدر المستطاع:

- أشكرك طبعاً على تفكيرك بنا، ولكن كان من الأفضل أن تستشيرنا في ذلك، فأنت تعلم أنني يجب أن أعود إلى جامعتي بعد خمسة أيام.

- إنها جامعة وليست مدرسة، وقد ظننت أنه إن أعجبتك الجولة فلن يصعب عليك التغيب ليومين آخرين، وإن لم تعجبك عدنا قبل انتهاء إجازتك. ولكن يبدو أنها كانت فكرة سخيفة فعلاً. أنا آسف جداً.

- لا داعي للأسف فقد كانت لفتة كريمة منك، ولكن للأسف ليست بوقتها. قصدت راحيل مجاملته بذلك الكلام، إلا أنه زاد من خيبة أمله وإحباطه، وتمنى لو تشق الأرض وتبتلعه، لاعتناً التخبط والتسرع، اللذين يبدو أنهما قد أصبحا من شيمه في الآونة الأخيرة.

لكن السيدة تيتلباوم، التي كانت تعلم بما يختلج في صدره وتشجعه عليه، قررت التدخل لمساعدته، فقالت وهي تتصنع تنهيدة عميقة:

- آه لطالما كنت أتمنى السفر إلى مصر.

ثم أردفت بنبرة توسل:

- ألا تستطيعين تمديد إجازتك قليلاً يا راحيل؟

فنزطت راحيل إليها باستهجان، وقالت مستغربة:

- لم أكن أعرف أن السفر يستهويك يا أماء، خصوصاً إلى مصر.

- لقد قضيت حياتي كلها في خدمتكم، وقد ملأتم علي حياتي حينها، ولم أرغب بأي شيء آخر، ولكن بعد تشنتكم في البلاد صرت أشعر بالوحدة، وأتمنى لو أن أحكمكم فكر بذلك لإسعادي، وها هو ذا أبراهام يفعل من أجلي ما لم يفكر أي منكم بفعله، ولكنك تعرفلين الأمور.

تكرر أبراهام حول نفسه أكثر وهو مكلل بالخجل لمحاولة السيدة تيتلباوم المكشوفة مساعدته، فالجميع يعرف أن خطب ود راحيل وليس أمها هو الهدف من دعوته الساذجة، وأخذ يلوم نفسه على خفته ورعونته، فيبدو أن وقوعه في شباك الحب أفقده رزاقته وحسن تدييره المعهودين حتى صار عرضة للشفقة والمساعدة.

أطرقت راحيل تفكر بكلام أمها ثم نظرت إلى أبراهام وقالت بتودد:

- أنا لن أستطيع التأخر عن الجامعة فالأسبوع القادم أسبوع امتحانات، ولكن بعد

أسبوعين ستبدأ العطلة، فهل تستطيع تأجيل الرحلة؟

- طبعاً.

- هذا رائع.

- كان يجب علي التفكير بذلك مسبقاً، فهذه الأمور تتطلب إعداداً، وترتيباً، ولا

يجب أن تحدث فجأة هكذا.

- لا عليك، لقد كانت مفاجأة سارة فعلاً، ولكن كما قلت قبل قليل، لا بد لها من

بعض الإعداد والترتيبات.

- كفي عن الكلام راحيل، فقد أزعجتنا بما فيه الكفاية. قومي بسرعة لارتداء

ملابسك كي تذهبي مع أبراهام لتغيير الحجز إلى الموعد المناسب لك.

قالت السيدة تيتلباوم بسرور، ثم التفتت إلى أبراهام قائلة وهي تحاول أن تخفي

ابتسامة ماكرة:

- وأنت يا بني لك مني كل الشكر على لفتتك الكريمة.

فتهرب أبراهام من الإجابة سائلاً:

- لماذا لا تذهبين معنا؟

فانتظرت حتى غابت راحيل عن ناظرها، ثم قالت ببعض الخبث وهي تلوح ببرنامج

الرحلة المرفق مع التذاكر:

- لا، شكراً، فيجب أن أدخر قوتي لمصر منذ الآن، لأنه حسب برنامج الرحلة الذي

يبدو أنك اخترته بعناية، فسوف نضطر إلى الكثير من المشي في الصحراء، وحتى

لتسلق الجبال والأهرامات.

فطأطأ أبراهام برأسه خجلاً، وقد أدرك ما تعنيه.



## من يهودا إلى الناصرة

وتشمل:

من עליاء البحث عن الحقيقة إلى حضيض الحب

فارس في الزمن الخطأ

وجاء دور الموساد

من يُنقذ من؟

المواجهة

يهود مصر

خارج التلمود

القرائيون

تملص من القيد

ياباني عبري

الاخوة الكذبة

مفاهيم جديدة

إعادة بناء الهيكل

انقسامات لاهوتية

الوقوع في الفخ

رحيل راحيل



## من يهودا إلى الناصرة



### ◀ من علياء البحث عن الحقيقة إلى حضيض الدب

- لم أر أثراً لذلك الإعلان الكبير الذي تحدثت عنه!  
 قالت راحيل ببعض الخبث. فاستدار أبراهام بحركة مسرحية نحو مكتب السفريات  
 الذي غادره قبل قليل، وقال متصنعاً الاستغراب:  
 - آه صحيح لم ألاحظ ذلك، يبدو أن عرض الأسعار التشجيعية قد انتهى. الشكر  
 للرب أنهم لم يطالبوا بفارق السعر مع أننا أجلنا الرحلة لتسعة عشر يوماً.  
 - أبراهام، كف عن هذا، فلم يكن هناك أي عرض، وتكاليف الرحلة ليست تشجيعية  
 على الإطلاق، بل إنها الأعلى من بين ثلاثة مستويات خدمة يقدمونها، والفنادق التي  
 سنقيم بها في أثناء الرحلة هي من أفخم الفنادق المصرية. كما أنني عرفت بأنك قد دفعت  
 مبلغاً كبيراً من المال، وغير قابل للاسترجاع، في سبيل الحصول على موعد مبكر وإجراء  
 كل المعاملات الخاصة بالفيز والتصارح خلال يوم واحد، وأنت لم تشترط مصر بالذات  
 بل أي جولة تبدأ غداً، "حتى إن كانت إلى المريخ" كما قلت لهم بانفعال... لماذا فعلت ذلك؟

أدرك أبراهام أن السحر قد انقلب على الساحر، وترنح بمشيته كأن الأرض توشك أن تميد به لانكشاف أمره، فتمالك نفسه بصعوبة، وتابع سيره بصمت، وهو يجر أذيال الخيبة. كانت الحجج قد نفذت ولم يعد يدري كيف يبهر خداعه. فيبدو أن تلك الموظفة النحيلة، التي شاء سوء طالعه أن تكون إحدى زميلات راحيل في الدراسة الابتدائية، كانت ثرثارة جداً، وأن حديثهما الحميم، حين كان مشغولاً بإجراءات التأجيل، لم يكن بالتأكيد عن ذكريات الطفولة فقط. وبدا له أن القدر يعانده ويضيق عليه السبل، وأنه لا يجب أن يكابر أكثر، فلن يكتب لهذه العلاقة الأحادية الجانب أي فرصة للنجاح، إلا أنها أوقفته بلطف ونظرت في عينيه الحزینتين مطولاً، قبل أن تطبع على وجنته قبلة تعمدت أن تقترب كثيراً من شفتيه، ثم همست بأذنه قائلة:

- أشكرک، فأنت لا تتصور مدى تقديري لما فعلته من أجلي.

كاد أبراهام يطير من شدة الفرح، وأحس بدقات قلبه تتسارع على نحو لم يعهده من قبل. في البداية ظن الأمر أحد تلك الأحلام التي صارت تراوده بكثرة في الآونة الأخيرة، سواء في النوم أم في اليقظة، إلا أن شعوره بحرارة قبلتها التي أذابت كل الجليد الذي كساه من جراء انكشاف حيلته، قد أكد له بما لا يدع مجالاً للشك أن ما يحصل هو حقيقة ملموسة هذه المرة، خاصة أن يديها لا تزالان تمسكان بيديه.

- مرحباً أبراهام. يبدو أنك لا تضع وقتك سدى في إسرائيل، أليس كذلك؟

التفت أبراهام باستغراب نحو مصدر ذلك الصوت المألوف، فإذا بهافا تقف أمامه متصنعة الابتسام، والشرر يتطاير من عينيها.

عاد الشعور بالإحباط إلى أبراهام، فلم يمض ثوان على حصول ما كان يحلم به، حتى جاءت مفاجأة لم تكن في الحسبان لتفسد الأمر ثانية، إلا أنه قال وهو يحاول إخفاء ضيقه:

- مرحباً هافا كيف حالک؟

- بخير. شكراً للسؤال. أَلن تعرفني بصديقتك الجديدة؟
- آه أنا آسف. هافا هذه راحيل سنة ثالثة بالتقنية العالية. راحيل، هذه هافا، حاخام وأستاذة فلسفة في الجامعة.
- كان تعريف أبراهام الموفق لهافا عن طريق ذكر مركزها الديني، وطبيعة عملها الأكاديمي قد ألجم لسانها عن التمادي بتعليقاتها الجارحة، وفرض عليها نوعاً من الوقار أمام طالبة جامعية، فما كان منها إلا أن غادرت مسرعة بعد أن تبادلت وراحيل عبارات المجاملة بفتور.
- من هذه؟
- سألت راحيل وهي لا تزال تنظر إليها وهي تبتعد، ملتفتة نحوهما بين الفينة والأخرى.
- من معارفي السابقين.
- أجاب أبراهام متظاهراً بالبلا مبالاة، رغم أن دمه كان يفور من الغيظ، فسألته غامزة:
- هل حصل بينكما شيء؟
- كلا بالطبع. ماذا دهالك؟ لماذا تظنين هذا؟
- هذه المرأة لا تزال تحبك، أو على الأقل لا تزال تفكر بك.
- أنت واهمة.
- لا. صدقني فأنا لم تفتني نظرات الغيرة التي كادت تخترقني، كما أنني أميز نظرة امرأة محطمة القلب.
- أنت تبالغين كثيراً.
- إذن هناك أصل لما استنتجته؟
- إنني أشتم رائحة غيرة.

- أنا؟! أغار من هذه المتبرجة؟! لو نزعنا عنها أصباغها لرأيت البون الشاسع بيننا.

- وحتى بدون ذلك يبقى البون بينكما شاسعاً، ولكنك مع ذلك تغارين.  
- لا تكن مغروراً.

- أنا لست كذلك، ولكن قولي لي أنت: ما سبب كل هذه الأسئلة؟

- اعتبرها كما تشاء، ولكن قل لي أنت، وبدون موارد، ما هي حقيقة علاقتكما؟  
- بكل سرور. لقد عرفتني في أول أيامي هنا، فهي تسكن في الحي نفسه الذي أسكن به، وكانت قد رأته قبل ذلك في معبد إصلاح زرتة من باب الفضول، ويومها أخذتني في جولة سياحية لتريني معالم أورشليم، ثم زرتها بضع مرات، وتعرفت عن طريقها بأشخاص من مذاهب تنويرية أخرى. ثم بدأ الفتور يغزو علاقتنا حتى انتهت ببساطة كما بدأت ببساطة.

- ولم يخرج حديثكما عن المعالم السياحية، أو مقارنة الأديان؟

- خرج فعلاً، ولكن من جهتها فقط، وقد أوضحت لها بأدب أنه لن يحصل أي شيء بيننا.

- لماذا؟

- إنها ليست من النوع الذي يثير اهتمامي.

- وما هو النوع الذي يثير اهتمامك؟

- هناك عدة أنواع تثير اهتمامي، ولكن نوع واحد فقط يقودني إلى الجنون ويقتلني هيماً.

فابتسمت راحيل ابتساماً رضا، وقالت وهي تتابع سيرها:

- إذن عليك الحذر، فهذا النوع ليس من السهل إرضاءه.

- أنا مستعد لبذل روحي في سبيله.

- تعقل، ليس إلى هذه الدرجة.
  - وأكثر، صدقيني.
  - ولكنك لم تعرفني إلا منذ ستة أشهر.
  - كيف عرفت أنني أتحدث عنك؟
  - ها... ها... ها... مضحك جداً.
  - آآه. أخيراً بحت لك بذلك.
  - هل أنت جاد فعلاً.
  - كل الجدية فأنا أحبك من أعماق قلبي.
  - أنت مجنون.
  - إن كان حبك جنوناً فأنا أفخر بكوني أكثر الناس جنوناً.
  - لا تخف هناك من هو أكثر جنوناً منك.
- قالت راحيل ذلك بطريقة مبتذلة، صدمت أبراهام، الذي كان على وشك أن يتقدم بطلب يدها، فقال بمرارة:
- ذلك العجوز المتصابي، مصدرك القيادي في المبدال، الذي أقنعك بالصهيونية وملاً قلبك بالكراهة لأبناء جلدتك من الحريديم.
- توقفت راحيل وهي تنظر إلى أبراهام بدهشة مشوبة بالغضب، ثم تابعت سيرها قائلة:
- يبدو أن الحظ الذي أدى إلى نجاحك في تحليلاتك السابقة قد غادرك أخيراً، فهذه المرة لم تكن موقفاً تماماً. أولاً، هو ليس عجوزاً متصابياً فهو لم يتجاوز الخمسين بعد، بل يبدو في بدايات الأربعين. ثانياً، هو لا يعمل في ذلك الحزب وإن كان ينتمي إليه، ولكنه يشغل موقفاً حساساً في الحكومة. وأخيراً، فكرتني عن الصهيونية وعن الحريديم كانت من قبل أن أعرفه بكثير.

- لماذا تقبل فتاة مثلك بأن تكون مجرد عشيقه لرجل متزوج يتسلى بها ليروي حاجاته الجنسية؟

لفظ أبراهام جملته الأخيرة بشكل اعتيادي، كأنه ليس ضد الممارسة الجنسية قبل الزواج، وأنه يراها أمراً مفروغاً منه، وكان يهدف من وراء ذلك إلى إيهاها بتحرره، واختصار مرحلة الدفاع عن نفسها بادعاء عفة العلاقة بينهما، وللأسف حدث ما توقعه، فقد انطلت الحيلة عليها بسهولة، وأكدت شكوكه، حين ردت مدافعة:

- أوه، كيف تجرؤ؟.....على كل حال هو ليس متزوجاً حالياً، فزوجته قد توفيت منذ خمس سنوات. وهو لا يتسلى معي، وعلاقتنا ستنتهي بالزواج.

- وكيف تأكدت من ذلك؟

- هو قال لي.

- إذا كان شخصاً مهماً في الحكومة، فأين تقابليته إذن؟

عاد أبراهام إلى سابق أسلوبه في استدراجها، ولكن النتيجة هذه المرة صدمته فعلاً، فقد أجابت ببرود وهي تشعل لفاقة تبغ:

- في الفنادق.

أحس أبراهام أن الأرض تميده من تحت قدميه فعلاً هذه المرة، ولكنه تمالك نفسه وسألها محاولاً إخفاء احتقاره:

- إذا كانت زوجته متوفاة فعلاً، فلماذا لا يأخذك إلى بيته؟

- هو لم يستطع فتح الموضوع مع ابنته حتى الآن، ولكنه يمهد لها تدريجياً، فلا تنس بأنه لن يكون سهلاً عليها الرضى بأم جديدة.

- بالطبع لا، والأمر يحتاج فعلاً إلى بضع سنوات من التحضير.

قال أبراهام متهمكاً، فردت راحيل بغضب لم تحاول كبح جماحه:



- كَوْنِي سمحت لك بالتدخل في حياتي الخاصة، فإن هذا لا يعني أبداً السماح لك بالسخرية منها.

التفت أبراهام إليها بعد أن لاحظ حشرجة في صوتها، فإذا بعينيها قد اغرورقتا بالدموع. وعندها صار كل همه هو أن يواسيها، رامياً كل شيء آخر وراء ظهره، فقال معتذراً، وهو يشعر بمسؤوليته عن حالتها تلك:

- أنا آسف، ولكن خوفي عليك هو ما دفعني إلى هذا القول.

- أنا أدري بمصلحتي، ولست بحاجة إلى وصاية من أحد.

- كما تشائين، كما تشائين. هيا بنا نعد إلى المنزل.

وهنا انفجرت بالبكاء صائحة:

- أنا لا أريد الذهاب إلى المنزل في هذه الحالة... هل تظن بأنني لا أفكر أحياناً

بأنه يخدعني، وأن ابنته التي يتذرع بها ليست العائق، بل أمها التي على الأغلب لا تزال حية ترزق وتقيم معه؟ أتظنني أقتنع دائماً بحجة "الأسباب الأمنية" التي تمنعني من رؤيته عندما أريد، مع أنه يكفيه اتصال هاتفي واحد، وإرسال سائقه، حتى آتي إليه في المكان الذي يحدده؟... أتظنني بهذا الغباء؟ أتظنني بهذا الغباء؟ قل لي أتظنني بهذا الغباء؟ كلا. كلا. أنا لست كذلك، ولكنني أحبه، أحبه. وأحاول أن أقتنع نفسي بصدقه، وأنا سنتزوج في يوم من الأيام، مع أنه كما أخشى يريد التسلية فقط.

امتلاً أبراهام حنقاً على ذلك الوغد الذي يتسلى بها، وود لو كان أمامه آنذاك، إذن لأطبق على رقبته، حتى يتزوجها إن كان صادقاً، أو يدعها وشأنها إن كان غير ذلك. تنهد بعمق، ثم قال لها مواسياً:

- هدئي من روعك أرجوك. راحيل أتوسل إليك، كفي عن البكاء. أرجوك، أنا آسف

على كل ما قلته. لا تنسي أنني لا أعرفه أبداً، ومن المؤكد أنني مخطئ بشأنه، فربما كان صادقاً معك فعلاً، ولكن ظروفه تمنعه.

كفكفت عبراتها قائلة:

- وأنا أيضاً أظن ذلك.

- هل تحببته فعلاً؟

- أجل.

- هيا بنا نجلس في ذلك المقهى ريثما تتجاوزين هذه الحالة.

ثم قادها بلطف إلى المقهى، وهي صامتة. وهناك انتظرها بضع دقائق ريثما ذهبت إلى الحمام لتزيل آثار البكاء عنها، وعندما عادت كانت حالتها أفضل بقليل، مع أن عينيها كانتا لا تزالان حمراوين، فاستقبلها بوجه بشوش قائلاً:

- يبدو أن جمالك يزداد أكثر بدون ماكياج.

- أشكرك.

- أنا لا أجاملك: فعيناك مكحلتان طبيعياً ولون بشرتك رائع الصفاء. أنا لا أفهم فعلاً حاجة فتاة بمثل جمالك إلى الماكياج!

- أنا أستعمله في الحدود الدنيا فقط. ولكن دعنا من هذا، فما دمنا قد فتحنا موضوع مردخاي فلنكمله، أنا فعلاً أرغب بالتحدث عن ذلك مع شخص أثق به.

- اسمه مردخاي؟

- الجنرال مردخاي ليحمان.

- جنرال أيضاً.

- نعم، ولكنه ليس بجنرال عادي بل واحد من أهم الشخصيات في الحكومة الإسرائيلية.

- لم أسمع به مطلقاً.

- لأنه لا يحب الظهور. وطبيعة عمله تتطلب السرية.

- وما طبيعة عمله؟

- إن قلت لك فسأضطر عندها إلى قتلك.

ثم قهقهت على دعابتها تلك، إلا أن أبراهام الذي ابتسم لترطيب الأجواء، لم تعجبه تلك الدعابة بتاتاً.

- حقاً. ما طبيعة عمله؟

- صدقني لا أعرف بالضبط، فهو متكتم جداً بشأن ذلك.

- كيف تعرفت به.

- كنت أعمل مندوبة تسويق في شركة للعطور، وقد رأني في إحدى جولاتنا التسويقية في تل أبيب، فأعجب بي، واستغل نفوذه لمقابلتي في ما ظننته في البداية عرضاً تسويقياً جديداً، ثم تكررت لقاءاتنا أكثر من مرة في أوقات عملي، وبإذن مدير التسويق الذي كان في الماضي شديد الصرامة معي، ثم أصبح فجأة في غاية التساهل المشوب بالرهبة. كان مردخاي لطيفاً معي ولم يخرج عن حدود اللباقة والأدب، فقد كان يرتاح لمجرد الحديث معي كما كان يقول. وبعد فترة قصيرة عرض علي أن أترك العمل، وأنفرغ للدراسة. متكفلاً براتبتي دون أن أكون مضطرة إلى أي شيء في المقابل، سوى عدم مواعدة أي شخص آخر. وبالفعل ظلت مقابلاتنا بريئة، ولكن في إحدى المرات عرض علي مرافقته إلى مزرعته لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، فرفضت بشكل قاطع. ورغم خوفي الشديد من عاقبة ذلك الرفض، إلا أن شيئاً لم يحدث، ولم يحاول الضغط علي بأي شكل من الأشكال، بل استمر حتى في التزاماته المادية نحوني دون تغيير. وبعد فترة عرض علي السفر معه إلى باريس وأوضح لي فوراً أنه ستكون لي غرفة مستقلة في الفندق الذي سنقيم به، وقد كان ذلك فعلاً، وقضينا هناك ثلاثة أيام من أجمل أيام حياتي، وهناك صارحني بحبه وبرغبته في الزواج بي، وأوضح ظروفه التي تمنعه من ذلك حالياً. وصرت أصحبه في جميع سفرياته، وهي كثيرة، وتعمقت العلاقة بيننا، فصرنا نحجز غرفة واحدة، بل صارت مقابلاتنا في إسرائيل نفسها تتم في الفنادق، أو في مزرعته أحياناً.



- هل أنت سعيدة معه؟
- كثيراً. فمعه تعرفت العالم الواسع، والحياة الرغيدة، والسلطة.
- السلطة؟!
- أجل. فهو قادر على فعل أي شيء، ونفوذه يصل إلى جامعتي. وفي المطار نحن لا نمر بالإجراءات العادية، بل نعبر مباشرة من صالة كبار الزوار، ويتبارى الموظفون في تقديم كل التسهيلات لنا، وكل معاملاتي الحكومية تُنجز وتُقدم لي دون أن أحرك ساكناً.
- لقد سألتك، أكنت سعيدة معه؟
- طبعاً؛ فهو يعطيني أي شيء أطلبه، ويوفر لي كل ما أحتمه.
- لقد أعدت عليك السؤال مرتين، وفي كل مرة تتحدثين عن الأمور المادية. فهل أنت سعيدة معه نفسه، وإن لم يكن غنياً وذا سطوة؟ هل أنتما على توافق ذهني؟ هل يوفر لك الأمان العاطفي والحب والإخلاص، وبقية الأمور المعنوية، كما يوفر لك الحاجات المادية؟
- ماذا تعني؟
- هذا هو بالضبط ما أعنيه، وهو أنك لا تفهمين ما أعني؛ فأنت لست سعيدة معه، بل سعيدة بما يتوافر لك عن طريقه.
- المهم أنني سعيدة.
- هل تحبينه؟
- قلت لك؛ أجل.
- وهل هو جاد بحبه لك؟
- أظن ذلك.
- ربما كنت تعنين "أظن ذلك" بالنسبة إلى السؤال الأول، و"كلاً" بالنسبة إلى السؤال الثاني.

- أرجوك، لا تتق بحدسك إلى هذه الدرجة.
- ليس المهم أن أثق أنا بحدسي، بل أن تثقي أنت بعواطفك. فهل أنت واثقة؟
- أظن ذلك.
- تظنين أنك واثقة!!!
- أنا واثقة بأنني أحتاج مردخاي، وأنه هو أيضاً يحتاجني.
- تقصدين تبادل منافع؛ هو يوفر لك الحياة الرغيدة، و"السلطة" كما تسمينها، وأنت توفرين له المغامرة العاطفية، والمتعة.
- لقد تجاوزت حدودك مرة أخرى.
- أنا أم أنت؟!
- فهبت راحيل واقفةً بعنف، وقالت وهي ترفع سبابتها في وجهه:
- أنت مجرد مستأجر عندنا، وعلاقتك الأساسية بأمي فقط. أما عن السفر إلى مصر فتستطيع أن ترجع تذكرتي وتسافر مع أمي فقط، أو أن ترجع التذاكر كلها، فكلانا يعرف سبب موافقتها على هذه الرحلة. وإذا رغبت في زيارتها، فأرجو أن تفعل ذلك بعد رحيلي. شكراً على القهوة.
- ظل أبراهام جالساً على مقعده دون حراك لفترة طويلة بعد مغادرتها. كان مشنت الذهن، ومصدوماً بالتطورات غير المتوقعة التي حدثت في ذلك اليوم الحافل. فراحيل، التي كان يظنها ملاكاً، ليست سوى فتاة عادية كهافا، أو كرستينا أو غيرها ممن عرفهن في روسيا، والأدهى أنها هي التي ترفضه هذه المرة، إلا أنه، ومع ذلك لم يكن يستطيع أن يوقف نفسه عن التفكير بها، فهل يجب عليه الركوع تحت قدميها موافقاً على علاقتها الشاذة برجل متزوج، على أمل أن تقبله عشيقاً بدرجة ثانية في أوقات فراغها!!!

## ◀ فارس في الزمن الخطأ

دخل أبراهام إلى المنزل، وتوجه إلى غرفته، حيث أسدل الستائر وأطفأ الأنوار وجلس في ظلام دامس، يفكر فيما ستؤول إليه الأمور. إلا أن جرس الهاتف الذي لم يتوقف عن الرنين، كان يمنعه من التركيز. وفي النهاية قرر الرد على المكالمة، ثم فصل الهاتف نهائياً. وعندما رأى رقم منزل راحيل على الكاشف تسارعت دقات قلبه بقوة، وتساءل: أتكون قد راجعت نفسها وتريد الاعتذار، أم أنها تريد إكمال المشاجرة. وأخيراً رفع السماعه، وما أعظم سعادته عندما كلمته بلطف شديد، إلا أنه ما لبث أن سمع كلمة "بني" ليرجع إلى أرض الواقع ثانية، فالسيدة تيتلباوم، التي يشبه صوتها بالهاتف صوت راحيل كثيراً، كانت هي المتصلة. وبعد عبارات المجاملة المعهودة سألته بقلق:

- ما الذي حصل يا بني؟

- لاشيء سيدتي.

- ولكن راحيل رجعت غاضبة، ودخلت غرفتها وهي إلى الآن ترفض الكلام مع أي

أحد. فما الذي حصل بينكما؟

- لقد تشاجرنا.

- كيف؟

- لا أعرف، ربما بسبب صديقة قديمة لي شاهدتنا في الشارع وتكلمت معها

بجفاء.

- لا تغضب يا بني، فراحيل شديدة الغيرة.

ثم تنهدت بارتياح مردفة:



- عم تتحدثين؟
- أوه يا حبيبتي. أنت لا تزالين تبكين إلى الآن، تعالي إلى صدر أمك الحنون، تعالي يا صغيرتي.
- ماما. ما الأمر؟
- لقد اتصلت بأبراهام وأخبرني عن كل شيء. أنا سعيدة جداً لصدق مشاعرك تجاهه. ولم أتمنَّ لك يوماً عريساً أفضل منه، ولكن يجب أن تتعلمي الغفران إذا كنت ترغبين بأن تكوني زوجة ناجحة.
- ما الذي قاله لك بالضبط؟
- كما قلت لك لا شيء أكثر. بالمناسبة، هو أيضاً ظنني أنت. أشكر الرب على أن صوتي على الأقل ظل شاباً ولم تؤثر به السنين.
- ماما. أريد أن أقول لك شيئاً.
- لا داعي لذلك، فهو سيصل خلال دقائق وعندها سيوضح كل شيء شخصياً، وبإمكانك عندها أن تقولي له هو كل ما تريدين.
- من الذي سيصل؟
- أبراهام. ومن غيره؟
- ماما أرجوك أخبريني بالتفصيل وكلمة كلمة بكل ما دار بينكما من حديث. بالتفصيل أرجوك.
- يا للحب وأفعاله! حسناً سأحاول أن أتذكر كل كلمة نطق بها محبوبك.
- استمعت راحيل باهتمام إلى أمها وهي تروي تفاصيل المكالمة بجزايفها، وأدركت محاولة أبراهام للتستر عليها عن طريق وضع نفسه في موقف محرج. وبينما كانت تستمع لدفاع أمها عن أبراهام، مبررة قسوته عليها بالكلام، ومسهبه بالتحدث عن مغامرات الرجال قبل الزواج، رغم ثقتها ببراءته، كانت تدوب من الخجل وهي من



قست على أبراهام، وهي صاحبة المغامرة، التي بالتأكيد ليست بريئة منها، خاصة أنها كانت تظن أن أمرها قد انكشف، وأن أمها لا ريب ستعرف علاقتها بمردخاي، وكانت تُحضر للرد على ذلك عن طريق التشكيك بصدق أبراهام، واختلاق قصة عن تحرشه بها.

- مرحباً أبراهام، أنا غاضبة منك كثيراً. هيا اذهب وصالح راحيل.

قالت السيدة تيتلباوم لأبراهام وهي تفتح له الباب، فيما كانت تغمزه بطرف عينها. جلس أبراهام والارتباك باد على وجهه، بينما كانت راحيل تنتظر إلى الأرض ساهمة. وقد فسرت السيدة تيتلباوم ذلك بتحرجهما من الحديث أمامها، فما كان منها إلا أن قالت:

- سأذهب لتحضير العشاء.

ثم مشت نحو المطبخ، وما إن أصبحت خلف راحيل، حتى استدارت وأشارت لأبراهام من ورائها أن كل شيء أصبح على ما يرام، وأنها قد بذلت ما بوسعها، وأن الدور عليه الآن لإصلاح ما قد أفسده.

ران الصمت بينهما فترة قصيرة إلى أن قطعت راحيل قائلة:

- شكراً لعدم كشفك للموضوع.

- لا داعي للشكر، فلم أكن لأخون ثقة أحد بي مهما حصل.

- أنا آسفة على الكيفية التي تركتك بها في المقهى، ولكنك أهننتني بما قلته.

- إهانتك هي آخر ما يمكن أن أتعمده في حياتي. ولكنني حاولت أن أفتح عينيك

على حقيقة ما يحصل معك.

- دعنا لا نفتح الموضوع ثانية، أنا لا أدري كيف بحث لك بأسراري رغم تكتمي

عادة، وبالذات عن ذلك الموضوع الحساس، ولولا استدراجك لي...

- بل لولا ثقّتك بي؛ فأنا لم أستدرجك لشيء، لقد سألتك وأجبت.

- ولكنك فاجأتني بمعرفتك عنه، واستثرتني بنعته بالمتصابي وبأنه صاحب التأثير على قناعاتي.
- إنه يُغرر بك، وأنا واثق أن زوجته لم تمت، وأنه اخترع تلك الكذبة ليمنيك بالزواج، ومن ثم يحصل على مبتغاه بعد أن عرف أنك لست من ذلك النوع من الفتيات. وسأتحرى بنفسني عن الموضوع وأتيك بصورةٍ حديثةٍ له معها إن أردت.
- إياك أن تفعل شيئاً كهذا أرجوك.
- حسناً، كما تريد.
- هل تعدني بذلك؟
- حسناً. دعينا ننسى الموضوع.
- أتمنى ذلك من أجلك.
- ماذا تعنين؟
- أبراهام أنا فعلاً أخاف عليك. لقد حدثني عن بعض من ضايقوه وكيف كانت نهايتهم. أرجوك، ابتعد عنه.
- يا له من وغد حقيق. لقد كان ذلك تهديداً مبطناً لك كي لا تتركه. أنا سأصرف معه.
- أبراهام استمع إلي، أنا أعرف عم أتحدث، وأعرف ما الذي يستطيع فعله. يا لي من حمقاء، ليتني لم أخبرك باسمه. أرجوك انس موضوعه تماماً، أتوسل إليك.
- ألهذه الدرجة تخافين منه؟
- بل لهذه الدرجة أخاف عليك. وأنا نفسي مندهشة لذلك.
- هل يمسك عليك شيئاً ما؟
- لماذا لا تريد أن تفهم؟ أنا لا أخاف على نفسي بل عليك؛ فأنا أعرف كيف يتحرى عمن يزعجه حتى يجد في حياتهم ما يعاقبهم به، بل إنه يتحرى عن أصدقائه، ليكون جاهزاً في حال تسببوا له بأي إزعاج ... أوه. يا للمصيبة.

- ماذا؟
- لقد حدثني مرة عن كاميرات ينصبها أعوانه في غرف النوم، ما الذي يدريني بأنه لم يصورني أنا نفسي؟
- ربما كان ذلك من قبيل التهديد فقط؟
- إن مردخاي لا يهدد، بل يفعل، وبقسوة عند الحاجة. يا إلهي، ماذا سأفعل إن رأيت أمي وجيراني مثل تلك الصور؟! ما الذي فعلته بنفسي!!!
- هدئي من روعك، وقولي لي ما هي طبيعة عمل مردخاي بالضبط.
- صدقني لا أعرف، ولكن مما رأيته منه فهو لا ريب ضابط كبير في "الموساد" إن لم يكن رئيسه أيضاً.
- إذا كنت قد رأيت كل ذلك منه فعلاً، فكيف لم تحتاطي منه؟
- لم أكن أتصور أن يفعل ذلك معي أنا.
- هدئي من روعك أرجوك. فما دام قد حدثك بكل تلك الأمور، فلربما يثق بك، ولا يفعل ذلك معك أنت بالذات.
- مردخاي لا يثق حتى بأبيه.
- صمتت وهي تسترجع بعض الذكريات، ثم قالت بارتعاش ظاهر:
- إنني أربط الأمور بعضها ببعض الآن، وقد صرت واثقة من أنه قد أمر بتصويري. فمرة قال لي مازحاً بأنه سيخبر أمي أية فتاة شقية أنا، ولكنني قلت له بأنني أعرف كيف أشكك بمصداقية كل من يذكرني بسوء عندها، وأنها لن تصدق أي شيء سيئ عني. وحتى إن لم يكن قد فعل ذلك قبلها، فهو لا ريب صورني بعدها ليكون بيده دليل في حال كذّبه.
- أنت تقولين أنه شخصية مهمة ويتجنب الظهور. أليس كذلك؟
- أجل.

- إذن لن يضرك بصور سيكون هو المتضرر الأساسي منها .  
 - نعم. هذا منطقي، فأمر كهذا سيخلق مشاكل أسرية لي، ولكنه سينهي حياته المهنية.

فكرت قليلاً ثم قالت بتوتر:

- ولكن ربما أخضى وجهه، أو أبقى فقط على الصور التي أظهر فيها وحدي، أو ربما فعل شيئاً آخر ليس بحساباني.  
 - يبدو أنك تماديت معه كثيراً؟  
 - آسفة أبراهام أرجوك سامحني، الآن فقط أدركت فداحة خطئي.  
 - لماذا تتأسفين لي أنا .

- أبراهام. أنا بحالة صعبة الآن، ولا أريد التفوه في مثل هذه الظروف بكلمة غير متأكدة منها، خشية أن تكون مجرد ردة فعل غير صادقة، ولكنني أشعر الآن بأني أحبك، وأقسم أنني في خضم شعوري هذا بالخطر لا أفكر بأحد غيرك أستطيع أن ألبأ إليه .

تسارعت دقات قلب أبراهام، وأحس أنه مستعد لأي شيء من أجلها . فقال مهدتاً:

- ماذا تريد مني أن أفعل؟  
 - لاشيء أرجوك. أنا سأتصرف، لا أريد منك أن تتدخل في الموضوع نهائياً .  
 - ماذا ستفعلين؟

- لقد قررت تركه، حتى قبل أن أفكر بكل هذه الأمور. فقد قضيت وقتاً طويلاً أفكر بتلك العلاقة، وأدركت فعلاً عقمها وحتمية فشلها، وعزمت على أن أبدأ حياة جديدة. وكل ما اختلف الآن هو أنني سأفعل ذلك بعقلانية وبالتدرج كي لا أغضبه .  
 - هل تعنين ذلك حقاً؟

- بكل تأكيد؛ فقد فتحت عيني على الحضيض الذي وصلت إليه بماديتي وتهوري .

- ولكن لماذا بالتدريج؟ يكفي أن تقطعها بهدوء دون أن تثيري غضبه. وحتى إن غضب فلن يستطيع فعل أي شيء ضدك، فما تعرفينه عن أفعاله ليس بالقليل، وهو بالتأكيد لا يرغب بفضح ذلك.

- أرجوك، دعني أتصرف فهو لا يُهَدَّد، وقد يلجأ إلى ما لا يخطر لك على بال، بما في ذلك حادث عرضي في الطريق، أو تدبير حادثة انتحار، وقد روى لي الكثير عن ذلك.

- كان يخيفك فقط.

- إن مردخاي متكتم جداً، وكل الذي أعرفه عن عمله هو من فلتات لسانه عندما يكون مخموراً. لذا أنا متأكدة أن ذلك لم يكن من باب التخويف. دعني أتصرف أرجوك.

- إذا كنت تعتقدين ذلك... ولكن لي رجاء حار عندك.

- ما هو؟

- فيما تنفذين ذلك "بالتدريج"، كما تقولين، لا تسلميه نفسك بأي شكل من الأشكال.

- لك ذلك.

- وإن لم يقبل تخليك عنه، فوقتها اتركي الأمر لي وسترين ماذا سأفعل؟ وكيف سأخلصك منه؟

فقامت إليه وقبلته ثم عانقته وألقت برأسها على كتفه بانكسار، وهي تهمس قائلة:

- أعدك بذلك، حبيبي... أنا ممتنة لك لأنك فتحت عيني على كل هذا، وسعيدة

جداً لكونك بجانبني، وأتمنى أن ينتهي كل ذلك بسرعة، وعندها سأعود كما كنت سابقاً، وكما تريدني أن أكون.

- سأعد الساعات، بل الثواني بانتظار ذلك. ولكن لا تدعيني أنتظر طويلاً.

- فقط حتى موعد سفرنا إلى مصر يا حبيبي. أعدك بذلك.

في هذه اللحظة كانت السيدة تيتلباوم، تراقبهما من بعيد، سعيدة بالنهاية التي آلت إليها الأمور، إلا أنها قالت بنفسها:

- آآه. يبدو أن راحيل ليست قوية وتمرّدة حقاً كما كنت أظن، فهي بواقع الحال ضعيفة ومنقادة لسيطرة الرجال كأمرها تماماً. إنها لم تكتفِ بمسامحته فقط، بل قامت إليه بنفسها وقبلته. وها هي ذي تعانقه وتضع رأسها على كتفه باستسلام، كأنها هي المخطئة. حقاً إن الثمرة لا تسقط بعيداً عن الشجرة، فهذا المنظر يبدو مألوفاً لي، ويبدو أن تاريخي يعيد نفسه معها. لكم أتمنى أن يتكرر الأمر مع بقية أبنائي وأن يعودوا في النهاية إلى أصلهم، تماماً مثل أبيهم.

## ◀ وجاء دور الموساد

كانت السعادة تملأ قلب أبراهام بتعمق علاقته مع راحيل، وبدا أن كلاهما قد عثر على حلمه ممثلاً في الآخر. وقد قضيا اليومين الباقيين لها في أورشليم دون أن يفترقا إلا للذهاب إلى النوم. وبعد مغادرتها اشترى هاتفاً جوالاً لأول مرة في حياته، وصار يكلمها يومياً، وأحياناً أكثر من مرة في اليوم. ولما كان لا يستطيع الحديث عن مردخاي بالهاتف، بناء على طلبها، فقد كان يكتفي دائماً بعبارة "هل تسير الأمور على ما يرام؟" كلما حاول الاستفسار تلميحاً. وفي اليوم الموعد ذهب لاستقبالها والخوف يملؤه أكثر من الشوق، وما إن وصلت حتى ركض إليها معانقاً، وهو يجبر نفسه على التقوه بعبارات الترحيب والاشتياق المعهودين، إلى أن سألها أخيراً:

- هل تركت مردخاي؟
- دعني أذهب إلى البيت لأرتاح أولاً، ثم أخبرك بكل شيء.
- راحيل لا تماطلي أرجوك، فأنت تعلمين أننا لن نستطيع التحدث أمام أمك عن هذا.
- إذن دعنا نجلس بمقهى ما على الأقل.
- هيا بنا.
- طوال الطريق كان أبراهام يضرب أخماساً بأسداس، فكل ما كان يأمله هو كلمة "أجل"، وهي لا تحتاج إلى كل هذا الوقت، ولا إلى الجلوس في مقهى، الأمر الذي يحمل معنى واحداً فقط، وهو أن الموضوع لم ينته بعد.
- الآن أخبريني.
- لا أعرف ماذا أقول.

- الحقيقة فقط.
- أنت لا تدرك الكم الكبير من المخاطر الذي سيحيط بي لو تفوهت بالحقيقة كما تريد. ولكنني سأخاطر لأنني وعدتك ولأنني أثق بك، ولكن يجب عليك أن تقسم لي بألا تفعل أي شيء دون موافقتي.
- أقسم لك.
- أغلظ القسم.
- أقسم باسم الرب الأعظم.
- حسناً. لقد حاولت تركه، لكنه رفض رفضاً قاطعاً، ولم تقنعه كل الأسباب التي اختلقتها. وفي النهاية أخبرته أنك تقدمت لخطبتي وأني قد وافقت.
- هذا رائع، وأنت لم تكذبي في هذا؛ فأنا قد خطبتك فعلاً، واتفقت مع أمك على مفاجأتك اليوم بذلك.
- أرجوك لا تزد من عذابي فأنا لا أستحقك.
- قالت راحيل وهي تغطي وجهها بكفيها، فأبعدهما أبراهام برفق، وقال بلهجة حاول ألا تكشف ما يعتمل بصدره من خوف وقلق:
- لماذا؟ ما الذي حصل؟ ألم تخبريه بأنك ستتزوجين قريباً.
- لقد ظهر على حقيقته أخيراً، وقد كان ذلك بشكل أسوأ مما كان يظن أي منا.
- تابعي.
- لقد قال لي إنني حرة في أن أتزوج من أشياء وقتما أشاء، ولكن بشرط واحد.....
- فهمت. إن كان الموضوع موضوع استرداد ما أنفقه عليك، فلا داعي للقلق.
- ليت الأمر كان كذلك.
- راحيل أنا لم أعد أحتمل، قولي أرجوك ما هو الشرط.



- أن يبقى الحال بيننا على ما هو عليه، وأن أوافيه لقضاء ليلة معه كلما رغب بذلك.

- ماذا؟!!

- أرجوك عد إلى مقعدك واهدأ قليلاً، فجميع الحاضرين ينظرون إلينا.

- أهدأ !!؟ وبماذا رددت عليه؟.... راحيل هل وافقت؟

- بالطبع لا. لقد قلت له إنه لن يوافق أي رجل في العالم على ذلك الشرط، وبالذات أنت. فقال لي إنه لا داعي لأن تعرف، وسوف يصطنع لي عملاً يسمح لي بمثل هذا التغيب عن المنزل عندما يطلبني، وأنني لو رفضت ذلك فلن يسمح لي بالزواج.

- ومن هو حتى يسمح أو لا يسمح!!؟

- أبراهام، لقد عرف أنك أنت من قصدته بكلامي، وتحرى عنك جيداً في هذه الفترة البسيطة، لقد أخبرني بجميع تفاصيل حياتك، بدقائق ربما كنت أنت نفسك تجهلها.

أخذت راحيل تذكر له نماذج من تلك المعلومات التي جُمعت عنه. وفي هذا الوقت بالذات، وفي أحد مكاتب "الموساد" كان موضوع تلك المعلومات أيضاً على طاولة البحث، ولكن من جانب مختلف تماماً.

- هل طلبتني سيدي؟

قال النقيب "ناحوم حزان" وهو يدخل مكتب العميد "يحيئيل شنيورسون".

- أجل ناحوم. لقد أنهيت قراءة تقريرك الجديد بشأن أبراهام دوخافيتسكي.

وأردت التحدث معك شخصياً عن ذلك.

- رهن إشارتك سيدي.

- إنه شخصية غامضة ذلك الرجل، ألا تعتقد ذلك.

- اسمح لي أن أختلف معك بالرأي سيدي. فقد تكون شخصيته مثيرة للاهتمام، وربما محيرة قليلاً، ولكنها بالتأكيد ليست غامضة.
- غريب أن يصدر هذا الكلام منك أنت بالذات، وأنت من أعد هذا التقرير.
- كل ما في التقرير واضح لا لبس فيه سيدي، وقد أجرينا تحريات واسعة عنه في روسيا وإسرائيل، ولا يوجد فعلاً ما يُقلق من جهته.
- طبقاً لتقريرك، فقد كانت له مشاركات كثيرة على شبكة الإنترنت يدافع فيها عن اتجاه معروف بعدائه لكل الوسائل الحديثة وبالذات الإنترنت، ألا ترى تناقضاً في ذلك؟ ثم صار يدخل في منتديات معادية ويشارك فيها بفعالية مع أن معظمها ضد دينه! ثم ترك طائفته بعد مشادة حامية بينه وبين أساتذته، وبعد ذلك تقدم ببلاغ للشرطة عن اجتماع لعبدية الشيطان وسلمهم الفتاة المزمع التضحية بها. ثم صار يدخل بمواقع عبدة الشيطان والبوذيين وكثير من الأديان الوضعية، وبعد ذلك استبدل بثوبه الأسود ملابس أوروبية أنيقة وغالية، وقضى بضعة أشهر في منتجع روسي حكومي، حيث تصادق مع الدكتور...
- ثم أخذ يقلب بصفحات التقرير، فقال ناحوم مذكراً:
- د. أصلانبيك حجرالدينوف سيدي.
- أجل، وأصلانبيك هذا شخص معاد للسامية حسب التقارير. وبعد ذلك غادر المنتجع فجأة دون أن يشكر مضيفه، وبناء على تقرير ذلك المضيف الذي يدعى...
- أيوسف بيلتش سيدي.
- أجل، أيوسف. وقد أفاد في تقريره أن نوعية الكتب التي استعارها أبراهام من المكتبة كانت مريبة، كما أنه يتهمه بتبني أفكار معادية لإسرائيل. ثم فجأة يسافر إلى إسرائيل دون أن يقدم طلباً للهجرة، وتشاء المصادفات الغريبة أن يتعرف بمسلم له إضبارة كبيرة عندنا للاشتباه بارتباطه بنشاط ذي توجه سلفي، ويقرر مشاركته في

السكن. ثم يتعرف بإصلاحية لها مواقف أممية جريئة، ومناصرة للعرب وللاندماج، وعن طريقها يتعرف بأشخاص من فرق يهودية أخرى. وطبقاً للتقرير الذي أرسله الحاخام أفرام فإنه شخص مثير للشبهة، يتظاهر بالبساطة، ويخفي دراسته الدينية وانتماءه كي يستدرج الآخرين للحديث عن أديانهم بحجة رغبته في تغيير فرقته، كي يصل في النهاية إلى طرح مواضيع حساسة للنقاش، بل إنه يشكك بيهوديته أيضاً. وحسب المعلومات المتوافرة عنه فهو لا يسكر، ومع ذلك فقد شرب حتى الثمالة في مطعم، وبكمية لا يستطيع تحملها أعتى مدمني الخمر، وتصرف كأنه بخماره رخيصة، فقرع الأكواب بقوة وعلا صوته بالضحك، ثم جرت بينه وبين صديقه الإصلاحية اليسارية مشادة كلامية خرج فيها عن حدود اللباقة. وطبقاً لتقريرها فإنه كان ثملاً تماماً وحدثها عن دقائق حياته، ولكن بمقارنة تقريرها بالمعلومات التي حصلنا عليها نجد أنه أخفى عنها الكثير. مما يدل أنه لم يكن ثملاً تماماً، وربما تناول بعض الزيت على طريقة "رفعت الجمال"<sup>(١)</sup>، وربما كانت معلوماتنا ناقصة وأنه سكير عريق، من النوع الذي يجيد التحكم بنفسه جيداً، وأنه اندس بين مجتمع المتدينين لهدف ما.

- هذا مستحيل سيدي، فأنا متأكد من مصادر معلوماتي تماماً: فهو منذ ولادته حتى الأشهر الأخيرة من إقامته في روسيا كان طالب مدرسة دينية متشدداً، ولم يغادر مدينته، ولا حتى مجتمعه الضيق، باستثناء علاقات عابرة ومتباعدة جداً مع بعض الفتيات، ليعود بعدها ويتشدد في عبادته أكثر كمحاولة للتكفير عن ذنبه على ما أظن. ولكن لا تنس سيدي أنه روسي، ومعروف عن الروس قوة تحملهم للكحول، والذي يعتبر في روسيا من الذين يشربون في المناسبات فقط، يستطيع الانتصار بسهولة على سكير

(١) الجاسوس المصري المعروف شعبياً باسم "رأفت الهجان"، وكان يقول مازحاً إنه قد أصبح "مدمن زيت"، لكثرة تناوله لتلك المادة في سهرات السكر التي كان يدعو إليها كبار رجال الكيان الصهيوني، ويستدرجهم فيها إلى البوح بأسرار الدولة. يُذكر أن الزيت يغطي غشاء المعدة الداخلي، مما يقلل كثيراً من امتصاص الكحول المتناول بعد ذلك.

تقليدي من أي مكان آخر في العالم فيما لو جرت مسابقة بينهما على تحمل الكحول. وهناك نكتة روسية تقول إن الروسي يشرب الفودكا في بداية حياته مع الماء، وعندما يبلغ يشربها بدون ماء، وعندما يشب يشربها عوضاً عن الماء.

- حتى وإن كان الأمر كذلك، فقد مر بحائط المبكى ولم يُصلِّ هناك ولم يلمسه حتى! مع أنه من الحريديم كما هو مفترض.

- لقد كانت معه فتاة متحررة. ربما من أجل ذلك.

- ولكنه لم يعد مجدداً بدونها. وفوق ذلك زار ياد فاشيم ولم يُصلِّ هناك أيضاً.

- إنه من جماعة الناطوري كارتا وأنت تعرف موقفهم من الهولوكست.

- وجدله الاستفزازي مع الحاخام إيلعازر إيلون، وتهجمه على الاستيطان

والصهيونية؟

- وذلك أيضاً لم يخرج عن موقف جماعته الدينية المعادية للصهيونية والاستيطان.

- لماذا تدافع عنه باستمرار، وتختلق له الأعذار؟

- أنا لا أفعل سيدي. ولكنني أطلعك على نتائج تحليل المعلومات من قبل الفريق

الذي كلفتموني برئاسته.

- ألا ترى معي أنه لمن الغريب، بل المستحيل، أن تجتمع كل هذه المصادفات

عشوائياً؟!

- للوهلة الأولى نعم سيدي، ولكنني جِششت - بناء على أوامركم - قوى الموساد

والشين بيت<sup>(١)</sup> والوكالة اليهودية لجمع أدق التفاصيل عنه، وعملت شخصياً مع خيرة

مساعدتي على تحليلها، وفي النهاية توصلنا إلى نتيجة مفادها أن ذلك الأبراهام، ومع

كل الملابس المحيطة به، نظيف تماماً، وليس تابعاً لأي جهاز استخباراتي أو منظمة

مشبوهة، وتاريخه الأقل من عادي يشهد بذلك.

(١) الشين بيت هي بمثابة الاستخبارات الداخلية في الكيان الصهيوني، وهي على نمط جهاز الإف بي أي الأمريكي.

- ماذا لو تم تجنيده مؤخراً؟ فطبقاً لتقريرك، فإن كل تلك التي تسميها مصادفات حصلت في السنة الأخيرة فحسب، وهي لا تتوافق مطلقاً مع رتابة حياته المملة سابقاً. - ولكن تحقيقاتنا مع أقربائه وزملائه وأصدقائه لا تدع لنا مجالاً للشك بذلك؛ فقبييل ذهابه إلى المنتجع كان يقضي الأربع والعشرين ساعة معهم، وفي المنتجع لم يغادر غرفته إلا إلى المكتبة أو صالة الطعام باستثناء ذلك اليوم الذي التقى د.حجرالدينوف به.

- ولماذا تنفي احتمال تجنيده عن طريق شبكة الإنترنت وهو جالس في بيته وبين أبيه وأمه؟

- لقد راجعنا كل الاتصالات من عناوين الـ IP التي كان يستخدم الإنترنت بها، سواء في روسيا أو هنا في إسرائيل، واستعرضنا كل تاريخ الصفحات التي زارها والبريد الذي تلقاه أو أرسله، وليس فيه ما يشير إلى ذلك.

- ألم يتصل بالإنترنت من مكان آخر؟

- بلى. في بعض الأحيان كان يزور مراكز الإنترنت.

- لماذا وهو يملك اتصالاً منزلياً؟

- كي يُحمّل الكتب سيدي. فالاتصال عن طريق الهاتف بطيء جداً.

- وهل تحرّيتم عن المواقع التي زارها هناك؟

- ممم. أجل سيدي.

- ما بك؟ يبدو عليك بعض التردد.

- في الحقيقة ليس كلها سيدي؛ فهو لم يكن يذهب إلى مركز معين، وكان دائم التنقل بينها. وقد راجع عملاًؤنا تاريخ زيارته في أكثر من مركز، ولم تخرج عن نطاق ما كان يزوره من البيت، فلم يروا حاجة إلى التحقيق في بقية المراكز كي لا يثيروا الانتباه.

فصرخ العميد يحيئيل شنيورسون قائلاً:

- ومن هم حتى يروا شيئاً مخالفاً للأوامر الواضحة الموجهة إليهم؟ إن واجبهم هو جمع المعلومات المطلوبة منهم بدقة، وأنا من يقرر متى يتوقفون. وأنا واثق أنه تعمد الاتصال من أكثر من مركز بهدف التضليل.

- أرجو المعذرة سيدي. سأتصل بهم حالما أخرج من مكتبك وأطلب إليهم إنهاء تحرياتهم في بقية المراكز.

- أنا واثق من أن شيئاً ما وراءه. ربما كان جاسوساً يعمل لمصلحة الروس، أو إحدى الدول العربية.

صمت يحيئيل مفكراً، ثم تابع قائلاً:

- وربما لمصلحة تنظيم "القاعدة". أه بالمناسبة هناك بعض المعلومات التي لم تُضمنها بتقريرك.

- مثل ماذا؟

- كعلاقته بالإسلام مثلاً.

- أي علاقة سيدي!!!

- أعني أن تقرير تلك الفتاة اليسارية يفيد بأنه كان مهتماً كثيراً بالإسلام وأن جزءاً كبيراً من نقاشهم كان عنه، وأنه في الفترة الأخيرة كان دائم الاستفسار عن الحكومة الخفية وحقيقة بروتوكولات حكماء صهيون والمؤامرات الماسونية وعن كل تلك الأمور التي تتدرج تحت اسم "نظرية المؤامرة" التي جُهد إعلانها كثيراً في محاربتها، وتسفيه كل من يؤمن بها، حتى نجح في إيقاف الحديث عنها نهائياً. وكما تعلم فهذه النظرية لم تعد متداولة حالياً إلا بين الإسلاميين فحسب، كما أنكم في إحدى المرات الثلاث التي فتشتم فيها غرفته، وجدتم كتاباً يتحدث عن الإسلام، والجيران أفادوا بأنهم صاروا يسمعون صوت القرآن أكثر مما اعتادوا، منذ أن سكن أبراهام بعمارتهم، وأحياناً في الأوقات التي يكون أحمد فيها على رأس عمله. وأخيراً اختيازه بلداً إسلامياً لرحلته مع خطيبته وأمها.

- في الحقيقة أنا لم أربط بين تلك الأمور من هذه الزاوية.  
 - بل يجب أن تربطها. ولا تنس أنه قضى هنا قرابة العام يجمع المعلومات عن الفرق الدينية وأحزابها السياسية ومناهج التعليم وإحصائيات الهجرة المعاكسة منها، وتحليلات الدارسين عن أوجه التشابه بينها وبين الممالك الصليبية وهاجس النهاية لديهم. ومن المحتمل جداً أن يكون الإرهابيون الإسلاميون هم من كلفوه بجمع كل تلك المعلومات التي ملأت جهازه المحمول لآخره.

- معقول؟

قال ناحوم ذلك وهو يكاد ينفجر من الغيظ لاضطراره إلى مجازاة ذلك الخيال المريض لمديره، الذي أردف قائلاً وهو يتابع حياكة شبك التهمة المزعومة:  
 - بالطبع معقول، بل منطقي تماماً، وهذا يفسر سبب إسرافه الشديد، فيبدو أن الإرهابيين يمولونه جيداً.

- شقة جدته سيدي. وقد أشرت إلى ذلك بالتقرير.

- ربما كان يبيعه لشقة جدته مجرد غطاء لذلك التمويل.

- هذا محتمل سيدي.

- وماذا عن قضائه أغلب وقته ببياد فاشيم في القسم المخصص للألبان المسلمين.

- بالفضول سيدي. حتى أنا أثارني موضوعهم الذي لم أكن أعلم عنه شيئاً أبداً.

رمقه يحيئيل باستخفاف، ثم أغلق الملف بعصبية قائلاً:

- للأسف فإن تقريرك هذه المرة أيضاً ليس شاملاً أيها النقيب. أريد منك إعادة

صياغته للمرة الثالثة والأخيرة، بعد أن تحصل على كل المعلومات الناقصة عن اتصالاته

بمراكز الإنترنت والتركيز بدقة عن أي علاقة أخرى له بالإسلام من قريب أو بعيد،

حتى وإن كانت بسيطة وتظن أنه لا داعي لربطها مع بقية المعلومات، أريد مُستمسكاً

قوياً عليه.

- حاضر سيدي.
- ثم صمت قليلاً وأضاف بصوت خافت:
- حتى وإن اضطررت لخلقه.
- هل فهمتك بشكل صحيح سيدي؟
- استدار يحيئيل بكرسيه نحو الورا وتابع كلامه بصوت عال:
- وأنت مخول باستخدام كل ما تراه مناسباً من أجل ذلك.
- هل تقترح شيئاً معيناً؟
- عاد واستدار بكرسيه نحوه قائلاً:
- لنربطه بذلك السلفي مثلاً، فربما جنده في روسيا! ألم يدرس أحمد في مدينة أبراهام نفسها؟
- أجل سيدي. في سانكت بطرسبورغ.
- وماذا تريد أكثر من ذلك؟ لماذا ليس بتقيريك تفريغ للتسجيلات؟
- لأننا منذ بدأنا التسجيل إلى الآن لم يجر بينهما أي نقاش ذي بال.
- ربما أحسوا بشيء؟
- مستبعد جداً سيدي؛ فالفريق الذي تولى زرع الميكروفونات على درجة عالية من الاحترافية.
- لا يعقل أنهم يسكنون معاً دون أن يجري بينهم نقاش واحد عن أمور كالدين أو السياسة، خصوصاً أن أبراهام مهتم بالإسلام، وأحمد كثير النقد والشكوى، ويريد أن يصلح العالم وفقاً لمعتقداته الفاسدة، ولن يُضيع أي منهما فرصة وجود الآخر للثرثرة.
- ربما يستخدمون الإشارات أو الكتابة في ذلك.
- كان ناحوم مستغرباً من خيال رئيسه الخصب وتشككه غير المبرر، إلا أنه كان يدرك الهدف من وراء كل ذلك، لذا لم يملك إلا أن يهز برأسه موافقاً وهو يتصنع الاقتناع بوجهة نظره:



- هذا جائز سيدي.
- هذا جائز، معقول، محتمل. ما هي وظيفتك هنا؟ وهل يجب أن أقوم بكل شيء بنفسني؟ يجب أن تُعمل عقلك أنت أيضاً في تحليل المعلومات.
- أنت محق سيدي، سأفعل كل ما أشرت به.
- إذن اطلب من فريقك المحترف زرع بعض الكاميرات هناك فوراً.
- أمرك سيدي. هل هناك شيء آخر؟
- لا. فقط أنه ما أمرتك به بدقة وسرعة.
- سأفعل سيدي.
- أريد تقريراً شافياً مفصلاً ونهائياً على مكثبي بأسرع ما يمكن. ولا تنس بأنك مخول باستخدام كل ما تراه مناسباً من أجل ذلك. انصراف.
- قال ذلك وهو يناوله التقرير القديم، فأخذه ناحوم وهو يحاول إخفاء تدمره الشديد من قلة خبرة رئيسه في الأمور الأمنية، وتحكم مصالحة الشخصية في العمل. ثم قال وهو يؤدي التحية العسكرية:
- حاضر سيدي. سأبذل كل ما في وسعي.
- دخل ناحوم مكتبه حانقاً وألقى بالتقرير على مكتبه بعنف. فسألته سكرتيرته، وعشيقته في الوقت نفسه، "نتاشا":
- ما بك يا حبيبي؟
- ذلك العميد الأحمق يحيثيل، ما الذي جاء به إلى هنا؟ ربما كان ناجحاً في الجيش من حيث أتى، ولكنه لا يفقه أي شيء في الاستخبارات التي يتصورها كأفلام 'جيمس بوند' أيام الحرب الباردة.
- لماذا كل هذا؟! ما الذي حصل؟!!

- إنه يلوي عنق الحقيقة مئة وثمانين درجة، مُحملاً الأمور أكثر مما تحتمل. كان يجب عليه أن يعمل بجهاز استخبارات عربي: فهناك سوف يُقدرون خياله ومواهبه التليفية حق التقدير.

- اهدأ قليلاً يا عزيزي، وأخبرني ماذا طلب منك الآن.

- الأحمق. يريدني أن أزرع كاميرات في شقة حاخام سابق مخبول لا يُشكل أي خطر على أحد، ويريدني أن أنقب في سجلات زيارته للمواقع في جميع مقاهي الإنترنت التي زارها في روسيا وإسرائيل من السنة المنصرمة حتى الآن. هل تتصورين ذلك؟!

- ربما لديه سبب وجيه لذلك تقتضيه المصلحة العليا، ولم يرَ داعياً لإخبارك به.  
- أنا المسؤول عن ملف ذلك الحاخام، وأعرف عنه ما لا يعرفه أقرب المقربين منه. إنه بعد ذاته لا يشكل أي خطر لا على المصلحة العليا ولا حتى السفلى، ولقد توصلت إلى السبب الحقيقي الذي لم يطلعني عليه: وهو ليس وجيهاً كما تظنين، فذلك الحاخام يحب عشيقة شخصية مهمة في الحكومة.

- أتعني أن كل تلك التحقيقات...

صمتت نتاشا، فهز ناحوم رأسه موافقاً، وقال مُكماً عنها:

- هي مجرد تزلف لذلك الذي جاء به إلى هنا حتى يبعد منافسه عن طريقها، وعندما تأكدنا أن لا غبار عليه، أصبح المسار نحو تليفك تهمة له.

- أووووووه... إن الذي رشحه لذلك المنصب هو الجنرال ليحمان. هل تقصد أنه هو تلك الشخصية الحكومية المهمة!!!

- نتاشا. انسي الموضوع من فضلك، ولا تذكره بعد ذلك أبداً.

قال ناحوم فزعاً من زلة لسانه التي كشفت ذلك السر، فأجابته نتاشا بغنج ودلال وهي تداعب وجهه:

- ألا تتق بي؟
- على العكس تماماً يا حبيبتي. ولكن دعينا من هذا الموضوع أرجوك، فيبدو أنه لن يجر إلا المتاعب.
- كما تريد حبيبي. إلى أين سنذهب اليوم؟
- لن نذهب إلى أي مكان. فقد بدأت الشكوك تراود زوجتي، وأفضل أن نخفف من وتيرة لقاءاتنا مؤقتاً.
- ولكن طبيعة عملك بما فيها من سفريات واتصال بعملاء توفر لك أفضل غطاء للتغيب عن المنزل بالقدر الذي ترغب فيه، فما الذي يخيفك؟
- أفضل غطاء للتغيب عن المنزل، وليس لوجود شعرة شقراء عالقة في ملابسني.
- ولكنك تقابل الكثير من العميلات أيضاً كما هو مفترض. أليس عندك خيال كخيال يحيئيل؟
- لا أظن أحداً يستطيع مجاراة خيال يحيئيل، ولكن حتى خياله لن يستطيع الكثير عندما تكون تلك الشعرة الشقراء عالقة بالملابس الداخلية. أليس كذلك؟
- آه. عزيزي أنا آسفة.
- لا عليك إنه خطئي أنا؛ فكان يجب أن أكون أكثر حذراً.
- وأنا أيضاً سأتوخى الحذر بشأن ذلك الموضوع في المستقبل. ولكن كيف تصرفت مع زوجتك؟
- لقد ادعيت بأنني أرسلت الثياب إلى المصبغة في الأسبوع الماضي نظراً لانشغالها في مؤتمرها الطبي.
- وما علاقة ذلك بالشعرة الشقراء؟

- لا يغسلون في المصابغ ملابس كل شخص على حدة، بل يضعون كل مجموعة في شبكة مربوطة، ثم يغسلونها مرة واحدة في آلة غسيل كبيرة، ويبدو أن شعرة عالقة بملابس شقراء ما، قد انتقلت إلى ملابسني في أثناء دوران الآلة.

- وهل صدقتك؟

- بصعوبة بالغة، وذلك بعد أن اتصلت أمامها بالمصيفة لأسأل عن جورب ناقص، ووبختهم على إهمالهم.

- يبدو أنه لا يعادل خصوبة خيالك إلا خصوبتك أنت نفسك.

قالت ذلك وهي تدنو منه وقد اشتعلت عيناها بالرغبة، إلا أنه دفعها<sup>(١)</sup> بلطف

قائلاً:

- ولكنها للأسف، لا تزال تشك بعض الشيء؛ فهي تعلم بأن ترتيب ذلك ليس صعباً

على شخص مثلي، ولذلك لا بد أن نهدي من اللعب قليلاً، ريثما تتبدد شكوكها.

- إلى متى ستظل تتعذب معها؟ لم لا تتركها من الآن، وتريح نفسك وتريحني؟!

ألا تحبني؟!!

- بالتأكيد. ولكنني لا أستطيع الانفصال عنها في مثل هذه الظروف يا حبيبتي.

لقد تحدثنا عن ذلك مراراً، وأوضح لك حساسية وضعي الاجتماعي والأسري حالياً،

ولكن الأمر لن يطول كثيراً. أعدك.

- أرجو ذلك. فأنا لا أستطيع الحياة بدونك.

ثم قامت فجأة كأنها تذكرت شيئاً، وتوجهت إلى مكتبه وأخذت تفتش في أحد

الأدراج بعصبية. فسألها مستهجنًا:

- ماذا تفعلين؟

(١) راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

- لا شيء حبيبي. فقط أبحث عن مطاطة... ها قد وجدتھا.  
مشطت نتاشا شعرھا إلى الخلف بسرعة، وربطته بتلك المطاطة حتى لا يتساقط  
شيء منه، ثم فتحت ذراعيھا قائلة:  
- لم يعد لديك عذر الآن.

## ◀ من يُنقذ من؟

استمع أبراهام إلى كل ما قالته راحيل بهدوء، ثم سألها واجماً:

- وماذا لديهم أيضاً ضد أحمد؟

فصرخت متعجبة:

- تهتم لأحمد، ولا تهتم لنفسك؟

- لأنه ليس لديهم أي شيء ضدي، ولأنني أعرف كيف أتصرف معهم، لا تقلقي،

المهم أن تدعي الأمر لي، وكل ما أطلبه منك هو أن تتجاهلي مردخاي تماماً، ولا تردي

على اتصالاته، بل لا تردي على أي رقم غريب أبداً.

- سأفعل كل ما تريد ولكن أخبرني أولاً ماذا ستفعل بالضبط؟

- لم أقرر بعد، ولكن أعذك أنه لن يستطيع لمس ظفرك بعد اليوم؟

- لا تتس بأنك وعدتني بألا تفعل أي شيء دون موافقتي.

- اطمئني فلست من الذين يحنثون بوعودهم أو يتناسونها. المهم ماذا لديهم أيضاً

ضد أحمد؟

- لقد أخبرتك بكل ما أخبرني، ولكنني واثقة بأنه لم يخبرني بكل شيء.

- حسناً. هيا لأوصلك إلى البيت، قبل أن تقلق أمك عليك.

- تتكلم كأنك لن تصعد معي.

- لا، فلدي ما أقوم به.

- ماذا ستفعل؟ لقد وعدتني.

- اطمئني فقط أريد تحذير أحمد.

- هل جننت؟ ستعرضنا للخطر من أجل تحذير مسلم؟

- ثقي بي أرجوك، فأنا أعرف كيف أتصرف.
- حسناً. ولكن لا تذهب إليه فوراً، انتظر حتى تعود إلى البيت بموعدك الاعتيادي، فنحن مُراقِبون.
- إلى هذه الدرجة؟
- يبدو أنك لم تستوعب الأمر جيداً. لقد وصف لي حتى أثاث غرفتك ونوعية ثيابك والكتب التي تقرؤها.
- هيا بنا.

ما إن ركبا المصعد حتى كتب لها على ورقة الملاحظة التالية:

"إنه لمن غير المستبعد أنه قد وضع جهاز تنصت بين أغراضك. لذا فما إن تُسَلِّمي على أمك حتى تدخلني إلى غرفتك، وتمرري كل أغراضك وملابسك على مذياع يعمل، ثم لاحظني إن حصل تشويش ما على بث الراديو. ثم تخلصي من كل هداياها، وانزعي حتى ثيابك التي ترتدينها الآن ومرريها على المذياع أيضاً. ومهما كانت النتيجة، فلا تحدثيني في هذا الموضوع في المنزل، حتى ولو بغياب أمك إلا إشارة أو كتابة، فمن الممكن أنهم قد زرعو أجهزة تنصت في شقتكم أيضاً".

كانت راحيل تقرأ كلماته وقت كتابتها، فأخذت القلم والورقة منه فور انتهائه، ثم

كبست زر المصعد للأسفل ثانية، وكتبت التالي:

"أنت محق تماماً في شكك: فقد حاول فعلاً إهدائي ساعة ورفضتها، ثم حاول إهدائي جهازاً محمولاً ورفضته دون أن أفهم سبب إصراره على إهدائي في مثل تلك الظروف. لكن اطمئن فأنا لم آخذ شيئاً منه، ولم أنم معه، وكل أغراضي نظيفة، ولكنني سأفعل ما قلته لي بدقة. وتستطيع أن تتسلل إلى غرفتي وتتأكد بنفسك إن أردت. أحبك".

- عاد أبراهام إلى المنزل في المساء كعادته. وانتظر حتى دخل أحمد إلى الحمام، فدخل وراءه مسرعاً وقال له هامساً:
- المنزل مراقب وأنت في خطر. قابلني غداً بالمصادفة أمام المقهى المجاور لمقر عملك عقب انتهاء الدوام، وسنتحدث.
- وبالفعل تقابلا حسب الموعد، وكلاهما يُظهر الدهشة لتلك المصادفة الغريبة، ثم دخلا معاً إلى المقهى، وهناك أخبر أبراهام أحمد بكل شيء بالتفصيل. وما إن انتهى من حديثه حتى بادره أحمد قائلاً:
- أشكرك يا بن العم على تحذيرك وعلى ثقتك الغالية التي لن أنساها ما حييت.
- لا داعي للشكر، فهذا هو أقل ما أفعله بعد عام من العشرة.
- ولكن لماذا كنت تستمع إلى القرآن في غيابي؟
- لا أريد بالخيال أن يجمع بك بعيداً، أنا فقط ارتحت لصوت "الجزان"<sup>(١)</sup>.
- لم ترتح لصوت القارئ بل للقرآن نفسه.
- بل لصوته فقط، فلا تنس أنني لا أفقه العربية أصلاً، فلا يوجد أي احتمال لتأثير معاني الكلمات فيّ. إن الأمر ببساطة هو كمن يستمع لمغن أجنبي ذي صوت عذب دون أن يفقه معنى ما يتغنى به.
- هذا ليس صحيحاً؛ فقد أجروا تجربة في إحدى المصححات العقلية في الولايات المتحدة على أي أنواع الموسيقى أكثر أثراً في تهدئة المرضى، وبعد أن جربوا أنواعاً كثيرة، جربوا القرآن بناء على اقتراح طبيب مسلم من قبيل التجربة، وقد سجل القرآن أعلى المستويات على الإطلاق، مع أن أياً من المرضى لم يكن يفقه كلمة عربية واحدة، وليس هذا فقط بل إن سماع الإنسان للقرآن الكريم يعمل على تنشيط الجهاز المناعي.
- وما دخل المناعة بسماع القرآن؟

(١) "الجزان" هي كلمة عبرية تعني "المرتل" في الكنيس.



- من المعروف أن التوتر يؤدي إلى نقص مستوى المناعة في الجسم، وهذا يظهر عن طريق إفراز بعض المواد داخل الجسم، أو ربما حدوث ردود فعل بين الجهاز العصبي والغدد الصماء، ويتسبب ذلك في إحداث خلل في التوازن الوظيفي الداخلي بالجسم، ولذلك فإن الأثر القرآني المهدئ للتوتر يؤدي إلى تنشيط وظائف المناعة لمقاومة الأمراض والشفاء منها<sup>(١)</sup>.

- هذا مثير.

- على كل، ليس هذا موضوعنا الآن، فأنا أعرف مردخاي ليحمان جيداً، وهو أخطر مما تظن أنت أو حتى راحيل نفسها. وقد كان في شبابه يتولى عمليات القتل بنفسه عندما كان ضابطاً في الموساد، وكان سلاحه المفضل هو مخلب مع قفاز خاص، ركب فيه نصلاً على طول إبهام الإصبع، يبدو مثل سكين عسكري سويسري صغير، ونصلاً آخر على طول إصبع السبابة يبدو مثل مشرط السجاد، وكان يقبض على الضحية من حَنَجْرته، ثم يفلق قبضته ضاماً النصلين بعضهما إلى بعض كالمقص.

فقال أبراهام باشمئزاز:

- وما الذي يميز هذا السلاح البغيض عن غيره؟

(١) قدم د. " أحمد القاضي " رئيس مجلس إدارة معهد الطب الإسلامي للتعليم والبحوث في أمريكا وأستاذ القلب المصري، دراسة في مؤتمر طبي عقد في القاهرة عن: " كيفية تنشيط جهاز المناعة بالجسم للتخلص من أخطر الأمراض المستعصية والمزمنة " وقد تم استخدام جهاز " ميداك ٢٠٠٢ " المزود بالكمبيوتر لقياس التوتر ومعالجته، وهو من ابتكار المركز الطبي لجامعة بوسطن الأمريكية، ويقاس ردود الفعل الدالة على التوتر عن طريق الفحص النفسي المباشر، وكذلك قياس التغيرات الفسيولوجية في أعضاء الجسم وتسجيلها، بالإضافة إلى كمبيوتر من نوع خاص مزود بقرصين متحركين وشاشة عرض، هذا غير أجهزة المراقبة الإلكترونية. وهذه التجارب أجريت ٢١٠ مرات على متطوعين أصحاء تتراوح أعمارهم بين ١٧ - ٤٠ سنة، وكانوا من غير المسلمين. وتم ذلك خلال ٤٢ جلسة علاجية تلت خلالها قراءات قرآنية باللغة العربية وكانت النتائج إيجابية، فالأثر المهدئ للقرآن الكريم على التوتر وصل إلى نسبة ٦٥٪. وهذا الأثر المهدئ له تأثير علاجي إذ إنه يرفع كفاءة الجهاز المناعي ويزيد من تكوين الأجسام المضادة في الدم.

- حسب تعبير ليحمان: "إن ضربته قاضية، ولكنها غير فورية" وهو أمر كان يتمتع كثيراً، ولذلك بالذات كان يفضل مثل هذه الأسلحة عن الأسلحة النارية. وقد كشف أحد الضباط المنشقين من الذين تدربوا على يديه، أن ليحمان كان يفخر بأن ضحيته تبقى تتعذب لفترة قبل أن تموت، ولكنه كان يُحذّر من أن استخدام القفاز يتطلب شخصاً قوياً جداً مثله، أما المتدربون الأقل قوة والأكثر تواضعاً، فكان ينصحهم بخنجر صغير له نصل ضيق يتسع في اتجاه نهايته، ثم يضيق ثانية حتى يستدق. وهو أيضاً يسبب آلاماً مبرحة تنتهي بالموت البطيء، كما أنه لا يحدث نزفاً خارجياً. وكان يعلمهم طريقتة في استخدامه قائلاً: "أفضل ميزة لهذا الخنجر أنك تستطيع أن تطعن به بين الأضلاع، وتلويه حين يكون في الداخل فيمزق كل ما يطاله، وبعد ذلك تلفة نحو وضعية الإدخال وتسحبه بهدوء، فيغلق اللحم مرة أخرى". وهو متدين بتشدد، ويصر دائماً على ارتداء اليرمولكا مهما كانت الظروف، ولذلك فقد نسج واحدة من شعره نفسه، كي يرتديها في أثناء مهماته السرية أيضاً؛ فكان يحلق الشعر تماماً في المكان الذي يثبت فيه اليرمولكا المنسوجة من الشعر، ثم يسدل عليها من خصلات شعره الباقية كي يتفادى لفت الأنظار. وهو من أولئك الذين يتقربون إلى الرب بقتل الغوييم، بل قتل اليهود أنفسهم إذا شكلوا خطراً، سواء على مصلحة النظام، أم على مصلحته الخاصة<sup>(١)</sup>.

(١) قصتا اليرمولكا الشعرية والقفاز واقعتان، وصاحبهما "إميكان" وكذلك قصة الخنجر، وصاحبها هو "دان دروري". وكتلتهما وردتا في كتاب "عن طريق الخداع" تأليف "فيكتور أوستروفسكي" و"كبير هوي". وفيكتور هو ضابط موساد منشق يعيش حالياً تحت حماية السلطات الكندية. كما أن الكثير مما ذكرته وسأذكره عن رجال الموساد وأساليبهم واقعي أيضاً. فبالإضافة إلى الكتاب السابق قمت بالاستعانة بكتب أخرى تحدثت عن الموساد من الداخل وتاريخ نشاطاته مثل: "أمراء الموساد"، تأليف "يوسي ميلمان" و"دان رافيف"، وعن التفاصيل الفضائحية لعلاقاته، وبالذات مع "السي أي إيه" مثل: "علاقات خطيرة"، تأليف "اندرو، وليسلي" "كوكبيرن". وذلك تحريماً لسبب الحبكة الروائية بشكل مقارب للواقع قدر الإمكان.

- هل أنت متأكد من ذلك؟
- تمام التأكد. ولذلك أنصحك بمغادرة البلاد نهائياً.
- صادف ذلك هوى في نفس أبراهام، وقدم له على طبق من الفضة فرصة لإخراج راحيل نهائياً من إسرائيل. فسأله مستفسراً، كي يستخدم تبريراته من أجل إقناعها:
- لماذا؟
- لأنه مستعد لقتلك وقتل ألف مثلك، من أجل شهوته، خاصة أنه لا يزال يرغب بفتاتك، كما فهمت منك، ولم يَمَل منها بعد.
- حذار؛ فأنت تتكلم على الفتاة التي سأتزوجها.
- إن الموقف لا يحتمل أي مجاملة يا بن العم، ولكني مع ذلك أعتذر بسبب افتقادي لللباقة في التعبير. أنا آسف.
- لا عليك، ولكن ما هو منصبه بالضبط؟
- وظيفته المعلنة حالياً هي مدير لمعهد للدراسات الاستراتيجية. ولكنني أعرف أنه تنقل بين مناصب أمنية قيادية في غاية الخطورة والأهمية في أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية المختلفة، وأن له نفوذاً يمتد كالأخطبوط في جميع الدوائر الأمنية على طول البلاد.
- إذن سأذهب الآن لأحجز تذكرتين إلى روسيا.
- إياك.
- ألم تقل...
- إن غيرت وجهة سفرك فستثير شكه، ولن تصل بعدها إلى أبعد من المطار. إنه يعرف أنكما ستسافران إلى مصر لمدة أسبوع، وهكذا يجب أن يكون. ولكنكما لن تعودا إلى هنا، بل ستسافران من هناك إلى مكان آخر، ليس روسيا؛ فيدُهُ قد تطالكما هناك أيضاً، بل ربما بأسهل مما يستطيع في أي مكان آخر.

- لماذا؟

- لقد كان ليحمان رئيس "مكتب الارتباط" الذي ينسق جهود إسرائيل لمساعدة اليهود السوفيت على الحصول على الحق في الهجرة، وتهريب البعض منهم، لذا فإن صلاته هناك قوية جداً، ليس فقط مع دوائر الأمن والاستخبارات الروسية، بل ومع المافيات الروسية نفسها.

- إلى أين سنسافر إذن.

- إلى أي بلد يتمتع بالأمن وتضان فيه القوانين، لتصعيب الأمر عليه، ولكنه في النهاية سيطالكما في أي بلد تسافران إليه إن لم تبالغا في الحذر.

- ألا تبالغ قليلاً؟

- ولا واحداً بالمئة.

- إلى أين تتصحني أن أسافر بعد مصر؟

- سافر إلى ألمانيا أو السويد أو أي بلد من هذا النوع؛ فالتعرض لكما بسوء قد يكون أصعب بكثير في تلك البلاد الآمنة.

- على فكرة، جدتي سارة ولدت بألمانيا.

- حقاً! أين؟

- في مدينة صغيرة تدعى "إيزرلون"، وقد كانت جدتي تحدثني عن جمالها بحنين كبير.

- كل مدن ألمانيا جميلة، فألمانيا هي مسطرة العالم بالنسبة إلى المدن؛ سواء بنظافتها، أم بتنظيمها أم بشوارعها العريضة، أم حتى بسكانها ورفيهم.

- أجل لقد سمعت عن هذا. وأنت ماذا ستفعل؟

- ألا تزال بطاقتي معك؟

- أجل. لماذا؟

- إن بها عنواني الإلكتروني، ما إن تتم إجراءات سفرك إلى البلد الذي ستختاره، حتى تبعث إلي برسالة إلكترونية، تقول فيها إنك ستعود غداً، وعندها سأختفي فوراً؛ فلو سافرت الآن، فسأثير الشك حولك وربما لن تستطيع المغادرة. هناك شيء آخر.

- ما هو؟

- معلوماتك قديمة جداً؛ فأجهزة التنصت الحديثة لا تشوش على المذيع، ولا تُكتشف إلا بأجهزة بالغة التعقيد، لذا لا تطمئن لخلو راحيل من جهاز تنصت.

صمت أحمد هنيهة، ثم تابع قائلاً:

- بالمناسبة هل دخلت غرفتي مؤخراً؟

- كلا. لماذا؟

- إذن فقد زرعوا فعلاً أجهزة تنصت في الشقة، أو على الأقل فتشوها ثلاث مرات متتالية؛ فأنا معتاد على وضع أوراقى بحيث يظهر ترقيم كل الصفحات معاً، وقد لاحظت تغطية جزء الترقيم في بعض الصفحات لثلاث مرات متتالية.

- أود الاعتراف لك بأمر يقلقني.

فتبسم أحمد قائلاً:

- لا داعي لذلك، فالأمر ليس خطيراً. على العكس تماماً لقد سررت بقراءتك لمذكراتي.

- كنت تعرف ذلك؟

- لم أكن متأكداً، في البداية، ولكنني تأكدت عندما لاحظت اهتمامك بكتاب ذرية إبراهيم.

- لاحظت ذلك أيضاً؟ أنا فعلاً آسف، ولم أقصد.

- قلت لك لقد سررت بذلك، والآن قل ما هو رأيك بتجربتي؟

- لقد استمتعت كثيراً بقراءتها، هل فكرت بنشرها؟!



- لماذا؟ أتظن أن هناك أحداً قد يهتم بذلك؟
- لم لا؟
- للأسف الناس لا تهتم كثيراً بمثل هذه المواضيع.
- لا أتفق معك في هذا.
- ليس كل الناس مثلنا أنا وأنت يا بن العم. بالمناسبة هناك نصيحة أخيرة أود أن أقدمها لك.
- تفضل.
- لا تثق بأي أحد تتعرفه في هذه الفترة بالذات، وخصوصاً من المسافرين معكم في الرحلة؛ فحسب معرفتي بليحمان، فإنه سيبعث لكما بشخصية لطيفة لتصادقكما، وتكون عيناً عليكم، أو ربما يبعث بفتاة مثيرة تحاول جذب انتباهك، وإضعاف ثقة راحيل بإخلاصك.
- سأكون حذراً، شكراً. الغريب أنني جئت لأساعدك رداً لجميل، وتكفيراً للذنب، وإذا بك أنت من تساعدني ثانية، وتحملني جميلاً آخر، وتسامحني على ذنبي. يبدو أنني لن أستطيع اللحاق بك أبداً.
- هناك جملة اعتدنا نحن المسلمون تبادلها، وهي: "إني أحبك في الله". ومع أنك لست مسلماً إلا أنني أحبك في الله فعلاً، ولا أدري لماذا. ربما لأنه لدي إحساس قوي بأنك ما دمت تبحث بجديّة عن الحقيقة، فإنك لا بد ستجدها يوماً من الأيام، وتصبح مسلماً.
- وكيف تردون على هذه الجملة؟
- نقول: "أحبك الذي أحببتي من أجله".
- أحبك الذي أحببتي من أجله.
- اللهم اهد عبدك أبراهام إلى الحق. اللهم آمين.

- آمين. ولكنني أخشى أن تكون مبالغاً بشأن ليحمان، كما تبالغ بشأن احتمال إسلامي.
- لست مبالغاً لا بهذه ولا بتلك، وستثبت لك الأيام هذا. وأخاف أنني لست مبالغاً في أمر آخر لم أذكره لك، وأتمنى صادقاً أن أكون مخطئاً بشأنه.
- وما هو؟
- هل تعدني ألا تغضب مني؟
- أعدك.
- إن الطبيبات للطيبين، والخبيثات للخبيثين. أنا أعرف راحيل أكثر منك، وهي لا تناسبك، ولم تكن تستحق منك كل ذلك العناء، صدقتي، إنها ليست لك.
- أنا أقدر أن مشاعرك الطيبة تجاهي، بالإضافة إلى معرفتك السابقة براحيل، هي سبب قولك هذا، لذا فلن أغضب منك، ولكنني أريدك أن تعرف أن جوهر راحيل في حقيقة الأمر هو أنقى بكثير مما يظهر عليها، وكل ما في الموضوع هو أنها مرت بظروف غير اعتيادية، ولم يكن بجانبها أحد ليردعها، فتصرفت على نحو خاطئ، ولكن الأمور الآن قد عادت إلى نصابها، وما أعرفه عنها حالياً يؤكد ذلك.
- أما ما أعرفه عنها أنا، فيؤكد أنها فتاة لا يتعدى حدود تفكيرها أبعد من التسلية واللهو.
- أنا أعلم أنكم تنظرون إلى المرأة على أنها ناقصة عقل ودين كما جاء في قرآنكم، ولكن هذا ليس صحيحاً، فكثير من النساء أكثر ذكاء من كثير من الرجال.
- لقد ورد هذا في الحديث وليس في القرآن، كما أن الحديث لا يقصد ذلك بالمعنى الذي فهمته. فنصه هو "ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب

منكن" (١)، وفي هذا الحديث يتعجب الرسول ﷺ من قدرات النساء، وأن الواحدة منهن تغلب "ذا اللب": أي الرجل الذكي جداً. فإذا كان المقصود من "ناقصات عقل" هو الغباء، فكيف تغلب غيبة رجلاً ذكياً جداً!!! كما جاء في الحديث ذاته أن امرأة منهن "جزلة" ناقشت الرسول ﷺ، والجزلة في العربية هي ذات الرأي (التفكير) والوقار، مما يعني أن الحديث بالتأكيد لا يعني غباء المرأة وضعة منزلتها.

- ما معنى كلمة عقل إذن؟!

- كلمة "عقل" في اللغة العربية من جذر (ع ق ل) أي "ربط" و"حزم" و"ضبط" الأمور على حقائقها. وقد أُطلق اسم عقل تجاوزاً على مركز الربط والحزم والقرار في الإنسان وهو الذي يسمى في اللغة العربية بـ"المخ". أي إن النساء ناقصات حزم وربط وقرار، ولا يعني هذا مطلقاً أنهن ناقصات ذكاء وفطنة، فنقص الحزم والربط هو بالذات ما يلزمهن لتنمية عاطفة الأمومة، لأن العقل هو الذي يحكم الهوى والعاطفة، وبذلك فالنساء ناقصات عقل لأن عاطفتهم أزيد. ففي حين نجد الأب يقسو على الولد ليحملة على منهج تربوي، نجد الأم تهرع لتمنعه بحكم طبيعتها. ولهذا أيضاً نرى الأم تستيقظ لطفلها عدة مرات في الليلة، أما الأب فيهرب من الغرفة أو يغطي رأسه بوسادة عند أول صرخة بكاء من طفله. والإنسان يحتاج إلى الحنان والعاطفة من الأم وإلى العقل من الأب، فليس عاراً على المرأة أن تكون أقل حزمًا وربطاً من الرجل، وليس عاراً على الرجل أن يكون أقل عطفًا وحناناً من المرأة. ويكفيك أن تعلم أن لنصفي الدماغ وظائف مختلفة: فالنصف الأيسر مسؤول عن التفكير العقلاني؛ أي المنطق،

(١) روى الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه، في باب الإيمان، عن رسول الله ﷺ أنه قال: "يا معشر النساء، تصدقن وأكثرن الاستغفار؛ فإني رأيتكن أكثر أهل النار. فقالت امرأة منهن جزلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن. قالت: يا رسول الله، وما نقصان العقل والدين؟ قال: أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي ما تصلي وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين". ومعنى الجزلة أي ذات العقل والرأي والوقار، وتكفرن العشير أي تنكرن حق الزوج.



الصواب، الاستنتاج، التحليل، والكلام. أما النصف الأيمن فمرتبط بالتفكير العاطفي؛ أي المعلومات البصرية، الإدراك الحسي، الحدس، الخيال. وقد ثبت أن النصف الأيسر أكثر تطوراً وحجماً لدى الرجل، في حين أن النصفين متعادلان ومتشابهان لدى المرأة. و"العقل" لم يرد بصيغة اسمية في القرآن، إنما بصيغة فعلية توحى أن المقصود هو هذا المعنى العلمي بالذات، مثل ما جاء عن أهل النار: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ [الملك: ٨ - ١٠]، وعن الشيطان: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٢]؛ فالعقل هنا ليس الذكاء، ولكن الحزم في اتباع الحق وضبط الأمور، وعدم العقل هو ما قادهم إلى التشكيك والضلال وعدم ضبط الأمور على حقيقتها.

- ولكن حتى في هذا هناك نساء لهن نصيب من الحزم والربط أكثر من الرجال.  
 - تلك حالات فردية، وليس ظاهرة عامة، ولكل قاعدة شواذ. وألئك النساء الأكثر حزمًا وربطاً من الرجال يوصفن عادة بالمسترجلات أو على الأقل بالمتسلطات، تماماً كما يوصف الرجال الأقل حزمًا وربطاً من النساء بالميوعة أو على الأقل بالضعف. وكما ترى فالمجتمع ينفر من كلا الصنفين ويعتبرهما طفرة. أما النساء الأكثر ذكاء أو الرجال الأقل ذكاء فليسوا بطفرة في المجتمع ولا يعتبر ذلك سبباً للنفور منهم.  
 - وأوافقك على ذلك. ولكن حتى إن كان اصطلاح "ناقصات عقل" مجازياً وليس حرفياً، كما فهمت منك، فهذا لا ينفي أن نبيكم لم يكن موقفاً في هذا التعبير، وأنه أهان المرأة بصفة هي بريئة منها تماماً، فالمتعارف عليه عند الناس أن العقل هو الدماغ وليس الحزم والربط.

- أنت ترتكب خطأ شنيعاً بإلقاء الاتهام جزافاً فيما ليس لك به من علم؛ فقد أوتي الرسول عليه الصلاة والسلام جوامع الكلم، كما أنه لم يكن ينطق عن هواه بل عن وحي.

وقد أثبت العلم دقة تعبيره عليه الصلاة والسلام من الجهة المادية أيضاً؛ حيث يزن مخ الرجل البالغ نحو ١٤٠٠ جرام، ومخ المرأة البالغة نحو ١٣٠٠ جرام. وعدد الخلايا العصبية في مخ الرجل تزيد على مثيلاتها في مخ المرأة بنحو أربعة مليارات خلية عصبية.

- ربما كنت محقاً في ذلك أيضاً، وأعتذر عما قلته بشأن نبيكم، ولكن صدقتي عندما أقول لك أن مجال تفكير راحيل يصل إلى أبعد مما تظن، فهي مثقفة جداً وواعية، وفوق ذلك كله نقية السريرة، وكل ما تحتاج إليه هو نفص الغبار الذي يغطي جوهرها حتى يشع بريقه الأخاذ ثانية.

- أتمنى ذلك.

- إنه لكذلك فعلاً، صدقتي. ثم إنني لم أشعر في حياتي كلها بذلك الشعور الذي خبرته معها، ومعها فقط.

- هذا واضح. أتمنى لك السعادة من كل قلبي. حسناً، سأذهب الآن. وبالمناسبة، فمن الأفضل ألا نتكلم حول موضوع ليحمان أبداً، فيما لو تقابلنا ثانية قبل سفرك.

- كما تريد.

- إذن أستودعك الذي لا تضيع ودائعه.

- يا لها من عبارة وداع جميلة!

- ليتك تفهم العربية، فهي أجمل بكثير بدون ترجمة.

ثم وضع كلتا يديه على الطاولة استعداداً للقيام، وقال مودعاً:

- "لا إله إلا الله". وهذه عبارة وداع أخرى جميلة اعتدنا نحن المسلمين أن تكون آخر كلامنا قبل الفراق على أمل اللقاء إن شاء الله، وأنت توافقتني على الإيمان بمعناها. وكلني أمل أن توافقتني، عندما نلتقي ثانية، على جوابها.

- "لا إله إلا الله"، ولكن ما هو جوابها؟

- "محمد رسول الله".

## المواجهة

عاد أبراهام مسرعاً إلى راحيل، وأخذها إلى الحمام حيث روى لها باختصار كل ما عرفه من أحمد، وطلب منها أن تأخذ معها كل ما يهتمها لأنها لن تعود قريباً، إلا أنها رفضت ذلك بشدة، متهمة أحمد بالإفراط في خياله: بسبب كونه عربياً حالمًا، أو على الأقل، لأنه ربما يُكثر من مشاهدة أفلام جيمس بوند. وأعربت عن عدم استعدادها لترك أمها أو جامعتها أو أرض الميعاد بسبب هلوسة إرهابي حاقد على اليهود واستيطانهم لما يعتبرها أرضه. وفي النهاية اتفقا على أن تأخذ معها جميع ما يهتمها احتياطاً، على أن يبتأ في موضوع العودة أم الهجرة بعد مغادرتهم لإسرائيل.

كانت راحيل ضد فكرة "الهجرة المعاكسة" من إسرائيل بشكل قاطع، وكانت حانقة على الأفكار التي يبدو أن أحمد قد ملأ رأس أبراهام بها. لذا، ولكي لا تؤكد شكوكه التي بذلت جهداً كبيراً في الاستهانة بها والتقليل من شأنها، فهي لم تخبر أبراهام بأن مردخاي قد حاول الاتصال بها عدة مرات دون أن ترد عليه، وأن ذلك قد أثار حنقه، فأرسل رسالة قصيرة على جوالها، تفيد بأنه يريد أن يقضي وقتاً ممتعاً معها قبل سفرها، وأن سائقه سينتظرها عند مدخل العمارة في تمام السادسة لاصطحابها، وأنها ستندم في حال رفضها. كانت تظن أن مردخاي ليس بذلك السوء الذي بالغت بوصفه لأبراهام حتى يبتعد عن طريقه، وبالتأكيد ليس بالسوء الذي نعته به أحمد بهلوسته، ولكنها احتياطاً أغلقت هاتفها النقال، وتركته بالمنزل، ثم تنكرت مغطية جزءاً كبيراً من وجهها بوشاح أمها، وغادرت مع أبراهام قبل السادسة.

كانت السيدة تيتلباوم ترتب غرفة راحيل عندما لاحظت أن هاتفها النقال مغلق، فشغلته كي تشحنه، فهدأ باكراً سيسافرون إلى مصر، ويجب أن تكون بطارية الهاتف

ممتلئة، ولكن ما إن اشتغل الهاتف حتى بدأ بالرنين. كان مجرد رقم، وليس اسماً كي تتعرفه، فقررت عدم الإجابة، ولكنه عاود الاتصال بإلحاح مرة ثانية وثالثة، وعندها خافت أن يكون الأمر مهماً، فضغطت على زر الاستقبال وأرادت أن تعرف بنفسها، إلا أن المتحدث لم يعطها فرصة لذلك، وقال بصوت غاضب:

- يا بنة العاهرة. لماذا لا تردين على الهاتف؟! ولماذا لم تنزلي بعد؟! آآه، أنا أنتظرك بالسيارة ومتممس للإستمتاع بالخدمات التي تقدمينها.

- ماذا تقول!!!

- مادمت لا تفهمين بالأدب، فلا يبقى إلا تلك الألفاظ حتى تستوعبي فعلاً أيتها. المومس.

- أنت قليل الأدب وسافل.

- واو. لقد أصبحت وقحة جداً بعد أن رجعت إلى أصلك الحريدي العفن. إن لم تنزلي فوراً فسيصعد رجالي لإنزالك بالقوة.

- وهل نعيش في غابة أيها المعتوه حتى تهددنا هكذا؟! أليس في البلد شرطة؟ سوف أجعلك تندم على ما تفوهت به، وأعدك بأن تدخل السجن قريباً، فأنا أعرف عنك ما يكفي لذلك.

ثم أطفأت الهاتف وهي ترتجف من الغضب، واتصلت فوراً بالشرطة، وروبت لهم أن شخصاً بالأسفل اتصل بها على هاتف ابنتها راحيل، ظناً منه أنها هي، وأنه تفوه بألفاظ بذيئة، وهددها بالصعود مع رجاله للاعتداء عليها، ثم أعطتهم اسمها وعنوانها ورقم الهاتف الذي اتصل منه ذلك المعتوه.

كان ذلك الرقم الذي ظهر على الشاشة عند اتصاله، هو ما عنته تلك المسكينة الساذجة بعبارة أنها تعرف عنه ما يكفي لوضعه في السجن. أما مردخاي، الذي كان يظنها راحيل، فقد ظن أنها تهدده بأشياء ربما تفوه بها في أثناء سكره، فقرر الصعود

بنفسه، ليتفاهم معها، خاصة أنه يعرف أنها وحدها بالمنزل: فقد أخبره رجاله بأن أبراهام وأمها قد غادرا منذ ساعتين تقريباً. وفعلاً صعد مع ثلاثة من رجاله، وترك الرابع أمام باب العمارة لتعطيل أبراهام وأمها، وتبنيه حال عودتهما.

كان الغضب قد ملأ نفس مردخاي من تمرد راحيل بعد كل ما أغدق به عليها من نقود وهدايا حتى أعماه تماماً، فقرر تلقينها درساً لا تنساه في حياتها، كي تعود إلى رشدها، وتسمح بأقدامه كما كانت تفعل في الماضي. وما إن وصل إلى الشقة حتى أعطى الأمر بأن يُخلع قفل الباب بهدوء، وأن يبقى أحد رجاله هناك، ثم دخل عنوة مع الآخرين. استغرق موضوع اقتحام الشقة بضع ثوان فقط، فرجاله محترفون في هذه المجالات، وقد قصد مردخاي إرعاب راحيل وإقناعها بأنه قادر على فعل أي شيء وفي أي وقت، دون أن يخاف العواقب، ولكنه فوجئ أمامه بالسيدة تيتلباوم، التي ما إن رآته ورجاله حتى علا صوتها بالصراخ والاستجداء بالجيران.

تلك المفاجأة التي لم تكن في الحسبان صدمته تماماً، ولا سيما أنه كان قد أزال تنكره فور دخول الشقة، مما يعني أن أم راحيل باتت قادرة على تعرفه في المستقبل بكل سهولة. وقف الرجلان بحيرة وقلق ينتظران الأوامر، في حين كان سيدهما مأخوذاً بالصدمة ومعقود اللسان على غير عادته، وتناهت إلى أسمعهما أصوات من الخارج تجمعت على صوت استغاثتها، فقال أحدهما مستفسراً:

- هل أسكتها سيدي.

- أجل.

أجاب مردخاي بسرعة دونما تفكير، فما كان من ذلك الرجل، إلا أن أطلق رصاصه من مسدسه ذي الكاتم للصوت نحو رأسها تماماً.

- ماذا فعلت أيها المجنون؟

- لقد نفذت أوامرك سيدي.

- أيها الأحمق. في البداية معلومات خاطئة، والآن جريمة قتل بوجودي وفي وضع النهار. سأحاسبكم لاحقاً. هيا بنا.

أعاد مردخاي ترتيب تنكره على عجل، وجعل رجاله يحيطون به من كل جانب، ثم شقوا طريقهم إلى الخارج بسرعة، أمام أعين الجيران الذين تفرقوا من أمامهم كالضئان، ليراقبهم فيما بعد من وراء شقوق الأبواب، دون أن تبدر من أحدهم أي بادرة لإيقافهم.

كانت راحيل مذخرجت مع أبراهام تختلق الحجة تلو الحجة كي يتأخرا قدر الإمكان، وذلك لتفادي مقابلة السائق الذي كتب مردخاي أنه سيرسله. وعندما قدرت أنه قد مر وقت كافٍ كي يبتس مردخاي ويصرف سائقه، وافقت على أخيراً على العودة إلى المنزل لتتال قسماً من الراحة استعداداً للسفر. ولكن ما أن اقتربا من عمارتها حتى ملأ الرعب قلبها، فقد كانت هناك سيارات شرطة وسط جمهرة من الناس، وما إن رآها أحد الجيران، حتى هرع إليها مهرولاً ليعلمها بمقتل أمها، فكادت تسقط أرضاً من هول الفاجعة لولا أن أمسكها أبراهام وقادها، بل حملها تقريباً، إلى الأعلى وهي تجهش بالبكاء، وهناك قابلهما الضابط المسؤول، وشرح لهما كيف تم الموضوع بسرعة فائقة، حيث هرب الجناة قبل وصول الدورية التي توجهت لنجدة المغدورة فور اتصالها بهم.

كان واضحاً أن التحقيق لن يسفر عن أي نتيجة، فالشرطة تلكأت، ولم تأخذ تهديد ذلك الرجل المجهول بعين الاعتبار، وأسفر التحقيق بشأن رقم الهاتف الجوال أنه كان باسم شخصية وهمية. ولم يقبل أي من الجيران الإدلاء بأوصاف القتلة، متعللين بأن الأمر حدث بسرعة خاطفة، لم تمكنهم من التدقيق في ملامح وجوه أولئك الأشباح. كما تباينت الشهادات بشأن أوصاف وعدد السيارات التي انطلق بها الجناة هاربين تحت سمع الجميع وأبصارهم.

كان واضحاً أيضاً أن المسؤولين عن التحقيق أنفسهم يتعمدون قيادته إلى مسار آخر غير الذي تفرضه الأحداث، وأنهم لم يبذلوا أي جهد في حث الجيران على الإدلاء بمعلومات ذات قيمة، كما أنهم لم يعرضوا حتى توفير حراسة لراحيل مع أن مكالمة الشكوى والاستغاثة التي سُجّلت كالعادة من قبل الشرطة، تؤكد أنها هي من كانت المقصودة بعملية الاغتيال، وليست أمها المسكينة.

لم تتوقف راحيل عن البكاء لحظة، فقد كانت تشعر بمسؤوليتها المباشرة عن مقتل أمها؛ فهي التي تعرفت بذلك المجرم، وهي التي لم تأخذ تهديداته على محمل الجد، ولم تخبر أبراهام بها، وهي التي سَفَّهت توقعات أحمد عن المدى الذي يمكن لمردخاي أن يصل إليه، وأخيراً هي التي هربت من الموقف تاركة أمها لمصيرها المشؤوم، الذي كان يجب أن يكون مصيرها هي، كتمن تدفعه تكفيراً عن طيشها ومجونها، عوضاً عن أمها البريئة، التي لم تقترف ذنباً إلا أنها جاءت للعالميا بمثلها.

جلس أبراهام يواسيها، والألم يعتصر قلبه هو نفسه، فقد عنت السيدة تيتلباوم له الكثير، وأسرته بلطفها وحنانها وتدينها. ومع أن معرفته بها قصيرة نسبياً، إلا أنه كان يعتبرها كأمه فعلاً، بل إنه لم يكن يبالغ، حين كان يقول أنها بمقام جدته التي لم يحب أحداً من أهله كحبه لها. تذكر بحسرة لطفها معه، ومع أحمد، وتذكر حبهما لأولادها، ورغبتها بإنقاذهم مما تسميه "حباطل الصهيونية العلمانية النجسة"، ومساعدتها له في الارتباط براحيل، وكيف كانت تظنه الزوج المثالي الذي سيعيد ابنتها إلى جادة الصواب، فازداد إصراره على تنفيذ رغبتها بشأن راحيل، وقال لها وهو يكفكف دموعها:

- عزيزتي راحيل، يجب علينا مغادرة إسرائيل فوراً، فهم بالتأكيد سيحاولون الوصول إليك ثانية.

- ليته وصل إلي فعلاً، إذن لكانت أمي حية الآن.

- لقد كانت تحاول حمايتك منه بعدما سمعت تهديده لك بالهاتف، فلا يجب أن

تضيّعي تضحياتها سدى.

- ما كان علي ترك الهاتف بالبيت، كان يجب أن أتوقع أن أمي قد تُشغله.  
 - لا تلومي نفسك، إنها مشيئة الرب.  
 فصرخت قائلة:

- هي مشيئة غير عادلة إذن؛ فلماذا يموت الأختيار مثلها، ويبقى الأشرار مثلي  
 ومثل مردخاي على وجه الأرض!!!  
 - لا تتفوهي بمثل هذا الكلام أرجوك؛ نحن لا ندرك حكمة الرب من تصرفاته،  
 وأمك لا ريب في الجنة الآن.

- هل تؤمن حقاً بهذه التفاهات!!! لقد ماتت أمي وانتهى الموضوع، ولا يوجد هناك  
 لا جنة ولا نار.

- راحيل توقفي أرجوك. دعينا نهتم الآن بموضوع السفر، ونستطيع التحدث عن  
 ذلك مستقبلاً.

- لا الآن ولا مستقبلاً ولا سفر. لم أعد أريد شيئاً من الدنيا، وإذا كان مردخاي  
 يريد قتلي فمرحباً بذلك، لم أعد أخاف شيئاً، بل لم أعد أرغب في الحياة أصلاً.  
 - راحيل. بقي على موعدنا لنكون بالمطار ثلاث ساعات فقط، ولم يعد يربطك أي  
 شيء بإسرائيل.

- إختوتي. يجب أن ننتظر " شلومو"، و"صموئيل"، و"آمنون".

- لقد قال الضابط بأنه سيُعلم شلومو عن طريق شرطة تل أبيب، وأنه سيرسل  
 إلى قيادة الجيش التي ستتولى إعلام صموئيل وأمنون بالحادث وملابساته بالطرائق  
 المتعارف عليها هناك، وعندما سيُعرف إختوتك أن حياتك في خطر، فسيتفهمون  
 سفرك؛ فهم لن يرضوا بأن يفجعوا بك أنت أيضاً، فقط لمجرد تبادل التعازي قبل  
 سفرك.



ففت وجهها بيديها وهي تتمتم:

- يا إلهي... ما الذي فعلته؟

- لا وقت الآن لمحاسبة النفس، ولا حتى للندم. قومي لجمع أغراضك حتى نغادر في أسرع وقت ممكن.

- اذهب، وأحضر حقيبتك ريثما أنتهي من جمع أغراضي وأختلي بنفسي قليلاً.

- لن أتركك وحدك، ولو لثانية واحدة فقط. حقيبتني جاهزة وعندما تجهزين سنذهب معاً لإحضارها، ثم نتوجه إلى المطار فوراً.

- كما تريد، فأنا لم أعد قادرة على التفكير.

جلس أبراهام يتأمل في مدى صحة تقديرات أحمد، وصدق توقعاته؛ فما قاله عن ليحمان كان صحيحاً، وها هو الدكتور "حاييم روبنشتاين"، أحد المسافرين من مجموعة الجولة السياحية، يحوم حوله هو وراحيل بكل لطف عارضاً مساعدته بين الفينة والأخرى، حتى إن راحيل نفسها قد ارتاحت له، ولاسيما بعد أن أعطاها مهدياً ساعدها كثيراً على استعادة توازنها. وعبثاً حاول أبراهام تنيها عن تناول أي شيء من قبله، مُذكراً إياها بتحذيرات أحمد من الشخصية اللطيفة التي ستحاول مصادقتهما، ولكنها عادت من جديد إلى الاعتراض على الأخذ بنصيحة عربي مسلم.

أراد أبراهام أن يُذكرها بأنها لو أخذت بتحذيرات ذلك العربي المسلم ونصائحه، فلربما قد كانت أمها حية ترزق، وتجلس الآن بجانبها في الطائرة بدلاً من ذلك المتطفل المزعج، ولكنه آثر السكوت حرصاً على حالتها النفسية الراهنة، واكتفى بأن يسد جميع الطرائق على من كان يشك بكونه جاسوس لليحمان. وعندما خرجوا من المطار، تعمد أن يترك الدكتور حاييم ليصعد قبلهما إلى حافلة "فندق الشيراتون"، ثم تلكأ مفسحاً المجال لبقية أفراد مجموعة الجولة السياحية الذين تحلقوا حول باب الحافلة، ثم غافل الجميع ودفع راحيل داخل إحدى سيارات الأجرة ودخل وراءها طالباً من السائق التوجه إلى "فندق الهيلتون" بأقصى سرعة.

فعل أبراهام ذلك بسرعة وخفة، على الرغم من عدم استجابة راحيل الفورية لرغبته تلك، معتبرة أن ذلك التصرف لم يكن ضرورياً. وقد ازداد ضيقها أكثر عندما غيّر أبراهام رأيه في منتصف الطريق، وغادر السيارة إلى سيارة أخرى، أوقفها على الضفة المقابلة للشارع بعدما غابت السيارة الأولى عن أنظاره تماماً، ثم طلب من السائق الجديد أن يُقلهما إلى أي فندق محلي بسيط. كان أبراهام قد وضع في حسبانته إمكانية تحسب الموساد لمثل ذلك التصرف، عن طريق وضع سائقين معينين حول الحافلة، أو على الأقل إيجاد سائق السيارة التي استقلها عن طريق التحقيق مع بقية سائقي التاكسي في المطار، ومن ثم استجوابه لمعرفة الوجهة المقصودة. كما وضع أيضاً في حسبانته أن الوصول إليهما في الفنادق الكبيرة سيكون أسهل بكثير منه في ذلك الكم الهائل من الفنادق الصغيرة التي تكتظ بها أحياء القاهرة الشعبية. أما راحيل فقد كانت تشعر بالأسف على النقود التي دفعت مقدماً لفندق الشيراتون الفخم، وعلى اضطرارها إلى الإقامة بفندق شعبي قدر، تماماً كما كانت تنتظر سابقاً من أبراهام قبل أن تعرفه جيداً.

عاد الشك والريبة يغزوان قلب أبراهام عندما طلب السائق بقشيشاً محترماً لأنه اختار لهم "بنسيوناً" صاحبه يهودية مثلهم، بعدما ميّز بشطارته، كما قال، أنها كانا يتحدثان بالعبرية. لكن تلك "الشطارة" لم تعجب أبراهام كثيراً، فانتظر حتى غابت السيارة عن ناظره، ثم حاول أن يوقف سيارة جديدة لتقلهم إلى فندق آخر، خوفاً من أن يكون الموضوع مُدبراً، إلا أن راحيل، التي ملّت من احتياطاته المبالغ فيها، وشكوكه التي زادت عن حدها، أقنعتة أن ذلك لا ريب هو توفيق من الرب، كي لا يضطروا إلى الإقامة في فندق عربي قدر. كما أن تلك اليهودية أحق وأولى بنقوده من مسلم، قد يكون إرهابياً ويستخدمها في النيل من أبناء جلدتهما، وأنه من غير المعقول أن تصل قدرة الموساد أو غيره إلى تجنيد كل سائقي الأجرة في القاهرة.

بعد تفكير قصير وافق أبراهام على مُقترح راحيل، ولكن ليس فقط للأسباب التي ذكرتها؛ فما دامت راحيل تنظر إلى العرب بهذه الطريقة، فربما من الأفضل لهما فعلاً ألا يقيما في فندق عربي، خاصة أنها تحمل جواز سفر إسرائيلياً، وربما كان القائمون على ذلك الفندق ينظرون إلى الإسرائيليين بذلك العداء الذي تنظر به هي تجاههم<sup>(١)</sup>، كما أن إقامتهما في بنسسيون لن يكون به توثيق مُحكم بسجلات حكومية، ومن ثم قد لا تعلم به الجهات المختصة، التي عن طريقها يعلم الموساد بمكانهما. وأخيراً لأن هذا سيوفر عليهما مشكلة كبيرة بالنسبة إلى القوانين العربية الإسلامية التي تمنع شاباً وفتاة غير متزوجين من الإقامة معاً في غرفة واحدة.

(١) بغض النظر عن الأسباب الدينية أو السياسية، فإن سواح الكيان الصهيوني غير مرحب بهم عالمياً بسبب بخلهم وسرقاتهم وسوء طباعهم. وقد أجرت جريدة "يديعوت أحرونوت" دراسة في ١٨/٨/٢٠٠٩ مفادها أن السياح الصهاينة يسرقون ٤٠٠ ألف منشقة سنوياً من الفنادق التي يصطافون فيها، فضلاً عن كميات كبيرة من الشامبو و مواد أخرى، وأضافت الصحيفة أن هذه البيانات المفاجئة كانت نتيجة لمسح أجري على عدد كبير من فنادق الكيان في مختلف المدن. ونقلت عن مدير أحد الفنادق قوله: "الفرق بين المصطاف الإسرائيلي والسائح الأجنبي بسيط جداً، وهو المنشقة فقط". كما أعلن أحد فنادق إقليم تيرول بالنمسا أنه لن يقبل يهوداً ورفع شعار "لا يوجد غرف لليهود"، وذكرت صحيفة "تيرولر تسايتونغ" النمساوية أن القرار تسبب في إحداث صدمة في وسائل الإعلام المحلية وفي أوساط صناعة السياحة، إلا أن مالك الفندق رد بأنه لن يقبل نزلاء من اليهود بسبب تجارب سيئة معهم في الماضي. يذكر أيضاً أن "إستيفان كراوس" نائب زعيم أكبر منظمة يهودية في المجر قد استقال من منصبه بعدما صورته كاميرات أمنية لدى سرقة محفظة أحد الزبائن حين كان يتبضع في المتجر. وأصدرت محكمة بلدية بيكس في آب/أغسطس ٢٠٠٨ حكماً عليه بالمراقبة مدة عام، بينما صرح رئيس اتحاد الجاليات اليهودية المجرية "بيتر فلدمير" لوكالة "ام.تي.آي" المجرية للأنباء أن تصرفات كراوس "أمر لا يمكن فهمه"، واصفاً إياها بمجرد حماقة.

## يهود مصر

لم يُضِعْ أبراهام وقته سدى، فما إن حجز غرفة في البنسيون ووضع الحقيبتين فيها، حتى اصطحب راحيل إلى السفارة الألمانية، حيث قدم طلبين للهجرة إلى ألمانيا، وقام بكافة الإجراءات التي يتطلبها ذلك. وبعدها فقط عاد معها إلى غرفتيهما حيث استسلمت هي إلى نوم عميق بعد يومين حافلين لم تذق خلالهما طعم الراحة. أما هو فذهب إلى صاحبة البنسيون اليهودية للتعرف عليها.

- مرحباً مسيو دوخافيتسكي. كيف وجدت القاهرة؟

قالت "مدام فيومي" بتودد.

- في الحقيقة لم تسنح لي الفرصة بعد للتجول بأحيائها بعد، ولكنها تبدو جميلة جداً.

- أكثر مما تتصور مسيو دوخافيتسكي. أكثر مما تتصور.

- أرجوك ناديني بأبراهام.

- كما تريد يا بني.

- لم أكن أعرف أن هناك يهوداً لا يزالون بمصر.

- هذه هي مؤامرة الفكر الصهيوني والخطاب القومي العربي على يهود مصر؛

فكلاهما يود اختزالنا في صورة أشخاص يتآمرون ضد وطنهم، وينتظرون اللحظة المواتية للهجرة إلى إسرائيل حتى لم يعد أحد منهم بمصر، وكأننا كائنات منقرضة.

- فعلاً. لقد تذكرت مقالاً قرأته في روسيا للباحث والمؤرخ "جوتل" يفند الادعاءات القائلة

بأن يهود مصر هرولوا إلى إسرائيل في أول فرصة سنحت لهم، وأنهم على تنوع خلفياتهم

الاجتماعية، وتوجهاتهم الفكرية كانوا بمنزلة "طابور خامس" يدين بالولاء لإسرائيل.

- من الجيد أن أحد المؤرخين تصدى لتفنيد تلك الادعاءات الزائفة التي روج لها بشدة كل من الفكر الصهيوني والخطاب القومي في مصر: فقد اتفقا كلاهما وبمصادفة تاريخية نادرة، رغم تناقض الدوافع، على ضرورة خروج اليهود من مصر، ثم بعد ذلك على إنكار وجودهم فيها، كأن اليهود المصريين مجرد هواء، ولم يكونوا في يوم من الأيام ضمن النسيج الاجتماعي والاقتصادي والديني لمصر. إن السرد التاريخي القومي الإسرائيلي يضع التجارب الحياتية لليهود المصريين بأكملها في نطاق مسيرة المشروع الصهيوني، ويصر على انسلاخها الكلي والمطلق عن مسقط رؤوسهم: بحجة أن الأوطان التي انتمى إليها اليهود قبل قيام دولة إسرائيل هي مجرد شتات من المفترض أن ينتهي دوره فور قيام الدولة العبرية.

- الغريب أن هذا لا ينطبق بتاتا على تمسك إسرائيل بتاريخ اليهود في أوروبا!

- تلك هي اللعبة الدنيئة.

ردت مدام فيومي بحسرة. ثم تنهدت وأردفت قائلة:

- لقد اختزلوا التاريخ اليهودي فقط إلى تاريخ اضطهاد اليهود في أوروبا الذي وصل إلى ذروته على يد النازية، وجعلوا تاريخ اليهود في أرض الإسلام بقُدرة قادر مجرد سلسلة من القمع والاضطهاد المستمرين منذ عهد النبي محمد، حتى حرب السويس ١٩٥٦ وفقاً لرؤية "المفهوم البكائي الجديد للتاريخ اليهودي العربي". والذي كانت "بات ياؤور" واحدة من أوائل الكُتّاب الذين تبسّوه، وذلك في كتابها "اليهود في مصر: سرد موجز لتاريخ ثلاثة آلاف عام"<sup>(١)</sup>.

(١) نشرت نسخة عبرية موسعة منه عام ١٩٧٤ عن مكتبة معاريف والمجلس اليهودي العالمي، وهو ما يفسره الباحث "بينين" بقوله: "إن الموافقة على نشر هذا الكتاب من قبل مؤسسات رئيسية في إسرائيل، بالإضافة إلى الحركة الصهيونية ويهود العالم ودار النشر التابعة لجريدة ذات توزيع ضخم مثل معاريف، لا يدل على شيء سوى أنه تكريس لوجهة نظر بات ياؤور البكائية الجديدة بوصفها التفسير المعياري لتاريخ اليهود في مصر".

- ولكن رؤية بات ياؤور لحياة اليهود في مصر قد لاقت قبولاً واسعاً بين كل من العلماء وعمامة الناس في إسرائيل والغرب.

- أجل للأسف، وقد كان ذلك لأسباب عديدة: أولها أننا - اليهود المصريين - التزمنا الصمت التام حيال حياتنا في مصر منذ عام ١٩٤٨ إلى أواخر السبعينيات. وثانيها أن التفسير البكائي الجديد الخاص بالتاريخ اليهودي العربي قد صرف الانتباه عن مطالبات الفلسطينيين بممتلكاتهم التي جردتهم إسرائيل منها عن طريق سرد روايتي يُركز على المعاناة الأبدية لليهود تحت حكم المسلمين. فبعض الموالين لهذه الطريقة يوحون بأنه حتى لو كان حقيقياً أن العرب الفلسطينيين قد جُردوا من ممتلكاتهم، فإن عدداً مساوياً تقريباً من يهود الشرق الأوسط قد هربوا من منازلهم وفقدوا ممتلكاتهم. ومن ثم فإن الفلسطينيين ليست لهم أية مطالبات قانونية ضد إسرائيل!!

- ولكنني قابلت بعض اليهود المصريين في إسرائيل، وهم يركزون على أنهم كانوا صهاينة في مصر، وأنهم كانوا ضحايا الاضطهاد المعادي للسامية. هزت مدام فيومي رأسها بأسى، وقالت موضحةً:

- إنهم يفعلون ذلك من أجل إثبات هويتهم، ووجودهم الجماعي المتميز هناك، وهذا ما خلق نقاط اتصال بينهم وبين التجربة الحديثة لليهود الأوروبيين. وكما كانت ذكرى القتل الجماعي للشعب اليهودي الأوربي قد قدمت مبرراً أخلاقياً شديد القوة لقيام دولة إسرائيل، وأصبح التفسير الصهيوني لمغزى هذه الذكرى عاملاً مركزياً في تشكيل القيم والمعايير الإسرائيلية، فقد عملوا على ترسيخ ادعاء يطالب بالاعتراف بهم من خلال هذه المفاهيم ذاتها، مدخلين تاريخهم وتجربتهم في مصفاة أسلوب الخطاب الصهيوني الأشكنازي، مخلفين ذكريات ونقاط تفاهم متضاربة خلفهم في مصر.

- هذا منطقي جداً. ولكن ماذا عن الخطاب القومي في مصر، لماذا تماهى هو أيضاً مع هذه الكذبة!؟
- آه يا بني. إن السرد التاريخي القومي المصري يفسر زوال الطائفة اليهودية المصرية من خلال المؤامرات الصهيونية. فيهود مصر هنا لا يتم التعامل معهم على أنهم مواطنون مصريون لهم نفس الحقوق، وعليهم نفس الواجبات، لكن على أنهم مجموعة متجانسة تدين بالولاء لإسرائيل، وتعمل في الخفاء لنشر الفكر الصهيوني في خيانة صريحة لمسقط رأسهم. وفي هذا السرد يتم التركيز على فكرة أن رجال الأعمال والأثرياء اليهود كانوا جميعاً وكلاء محليين للأجانب، هدفهم الأساسي هو السيطرة على الاقتصاد المصري لمصلحة الصهيونية. ولذلك يتم تجاهل حقائق مهمة في هذا الصدد؛ منها أن "حزب الوفد" نفسه، وهو أعرق الأحزاب المصرية قاطبة، قد دعا المصريين فيما بين عامي ١٩٢١-١٩٢٢ إلى شراء احتياجاتهم فقط من متاجر وطنية احتجاجاً على نفي سعد زغلول لجزيرة "سيسل"، وكان متجر "شيكوريل" اليهودي من ضمن تلك المتاجر الوطنية. وأن "يوسف شيكوريل بك" و"يوسف قطاوي باشا" كانا في مجلس إدارة بنك مصر جنباً إلى جنب مع "طلعت حرب".
- إذن فالقوميين المصريين كانوا ضد طبقة رجال الأعمال والأثرياء اليهود فحسب.
- كلا؛ فقد كانوا ينظرون بارتياب إلى الدور المركزي لليهود المصريين في الحركة الشيوعية المصرية، وإلى دورهم في الصحافة المصرية. وفي تعميم غريب يصبح أي شيء وكل شيء يخصنا، هو جزءاً من مؤامرة كبرى تصب في مصالح إسرائيل، سواء عبر إضعاف الاقتصاد المصري، أو عبر المساس بأمن مصر من خلال التجسس والأعمال التخريبية، أو عبر تنظيم الهجرة إلى إسرائيل.
- كلانا يهودي، ولا داعي لادعاء البراءة التامة. فمن قبل الـ ١٩٤٨ حتى انكشاف أمر "التنظيم اليهودي" الشهير كان العملاء الصهاينة "المحليون" واليهود الأجانب نشطين في تنظيم هجرة اليهود من مصر، والقيام بعمليات التجسس.

- لا أنكر إن أقلية من اليهود كانوا نشطاء صهاينة، ولكنهم كانوا قلة قليلة فعلاً، كما أن معظم اليهود الذين غادروا مصر، خاصة ممن كان لديهم موارد تكفي ليختاروا ما يريدون، لم يذهبوا إلى إسرائيل. والعديد من اليهود المصريين على اختلاف البلدان التي هاجروا إليها حاولوا تشكيل أنماط من الحياة الطائفية والممارسات الجماعية التي تحافظ على رابطة بينهم وبين مصر.

- هل تعرضتم إلى اضطهاد ديني قبل قيام إسرائيل؟

- لا قبل ولا بعد، فلم نُضطهد دينياً في مصر أو غيرها من العالم الإسلامي، ولكن في حالة الحرب مع إسرائيل تعرض يهود مصر إلى الكثير من المضايقات لأسباب سياسية أمنية، وليست دينية، والدليل على ذلك تأثرها من حيث القوة أو الضعف بمجريات الأحداث على الجبهة<sup>(١)</sup>.

- أقصد كيف كان ينظر إليكم قبل الحرب؟

- قبل اندلاع الثورة العربية في الأرض المقدسة فيما بين عامي ١٩٣٦ - ١٩٣٩، كان التيار السائد بين المصريين المثقفين ينظر إلى اليهود المصريين على أنهم أعضاء ذوو عضوية كاملة في الأمة. وكانت هناك صحافة صهيونية تصدر في مصر، وكانت هناك جمعيات صهيونية، وكان "وايزمان"<sup>(٢)</sup>، يُستقبل في مصر على أنه زعيم سياسي مُعتبر. كما كان "ليون كاسترو" الذي أدار حملة دعائية لحزب الوفد في أوروبا، هو في الوقت نفسه رئيس المنظمة الصهيونية بالقاهرة. فعندما ظهرت الحركة الصهيونية في مصر في أواخر القرن التاسع عشر كانت نشطة بشكل أساسي وشبه كامل بوصفها حركة خيرية تمول الأنشطة الثقافية والاجتماعية المختلفة، وظلت كذلك حتى الأربعينيات.

(١) على سبيل المثال تعرض اليهود وممتلكاتهم إلى هجمات متكررة في صيف وخريف ١٩٤٨. وفي ٢٠ حزيران/يونيو ٤٨ انفجرت قنبلة في حارة اليهود القرائين بالقاهرة مما أدى إلى مقتل ٢٢ يهودياً وجرح ٤١ آخرين. وبعد قيام الطائرات الإسرائيلية بإلقاء القنابل على حي سكني بالقرب من قصر القبة، في ١٥ تموز/يوليو، تم الرد بإلقاء قنابل على متجر شيكوريل وأوريكو، ثم على متجر عدس وجاتينيو.

(٢) رئيس الوكالة اليهودية، والحركة الصهيونية العالمية، ورئيس إسرائيل لاحقاً.



وفي تلك الحدود لم يكن الكثيرون من اليهود أو غيرهم ينظرون إليها على أساس أنها تتعارض مع الحس الوطني المصري، بل إن مسؤولاً مصرياً رفيعاً و كاتباً مشهوراً هنا<sup>(١)</sup> قد اشترك في افتتاح الجامعة العبرية في أورشليم، والتي كانت المنظمات الصهيونية المصرية تمول إنشاءها، ولم يكن هناك أي شك لدى المصريين بأنّ خطراً قد يأتي من جهة اليهود الذين أحسنوا إليهم وعاشوا تحت حمايتهم كل تلك القرون، ولا من جهة تنظيمهم الصهيوني الجديد. وحتى بعدما ظهرت نوايا الصهيونية، أصبح التعليق السياسي العلماني يميز بشكل واع بين اليهودية والصهيونية. ولكن الجماعات ذات التوجه الإسلامي<sup>(٢)</sup> أو القومي المتطرف<sup>(٣)</sup> ما لبثت أن فرضت رؤيتها على الأحداث.

- إذن لم تكن لديكم مشكلة حقيقية في مصر؟

- ليس تماماً. فمن وجهة نظري الخاصة فإن مشكلة اليهود الأساسية كانت في غياب مفهوم المواطنة بمعناه الحديث، فأحياناً ما كان كل من الطائفة اليهودية والمسؤولين الحكوميين يصورون علاقتهما بشكل يمكن للفرد أن يطلق عليه اسم "الذمة الجديدة"، وهو مفهوم مُستقى من تعريف القرآن لليهود كذميين أو كأهل ذمة، وليس من المفاهيم الحديثة للمواطنة التي تؤمن بالمساواة التامة بين المواطنين بغض النظر عن دينهم.

- وما هي الذمة القديمة؟

- لا يوجد ذمة قديمة. ولكنني أقصد باستخدام هذا المصطلح تمييزه عن مصطلح أهل الذمة أيام الخلافة الإسلامية، حيث كان لنا فيه نحن الذميين حقوق تضمن لنا حياة كريمة فعلاً. أما الحكومة المصرية فلم تكن تطبق الشريعة الإسلامية بشكل

(١) تقصد طه حسين .

(٢) أهمها جماعة الإخوان المسلمين .

(٣) أهمها جمعية مصر الفتاة .

كامل، بل بانتقائية تسمح بتداخلها مع القوانين والمفاهيم الغربية، مما أفقد البُعد الإسلامي المتكامل الذي كان أيام الخلافة لحقوقنا كذميين. فقد رسخت ثورة ١٩ مفاهيم علمانية حديثة تمثلت أول ما تمثلت في شعارها "الدين لله والوطن للجميع"، لكن هذا الخطاب العلماني تجاوز مع الخطاب الديني، واختلط به لدرجة أن نشأ مزيج لا ينتمي لا إلى الشريعة الإسلامية، ولا إلى العلمانية بشكل تام، ومن ثم فلم نعد أهل ذمة كما هو الأمر في التشريع الإسلامي الأصيل، ولم نصبح مواطنين ذوي حقوق كاملة بناء على مبادئ العلمانية والديمقراطية الحقيقيتين، ومن هنا جاءت تسمية الذمة الجديدة.

- لأية فرقة دينية ينتمي يهود مصر بشكل عام؟

- نحن نُشكل مزيجاً تكوّن من خلال عملية متميزة من التكاثر الخارجي التاريخي. وقلب ذلك المزيج هو السكان المحليون المتحدثون بالعربية من اليهود الحاخاميين، واليهود "القرائيين" (Karaites) ذوي الثقافة اليهودية العربية مثلي أنا مثلاً. وإقامتنا نحن القرائيون تعود إلى فترة ما قبل الإسلام. وكان يبلغ عددنا ٢٠ ألفاً من بين ٧٥ إلى ٨٠ ألف يهودي في مصر عام ١٩٤٨. لقد مثل ذلك العدد طائفة "متعددة العناصر" ذات خليط عالمي، وذلك الأمر كان يشكل نقطة قوة لنا، كما كان بالمثل أحد العناصر التي أدت إلى زوالنا.

- كيف ذلك؟

- بسبب التنوع داخل الطائفة اليهودية والاختلافات في الطبقة الاجتماعية والأصول العرقية والشعائر والنظرة السياسية، لم تكن هناك تجربة حياتية مشتركة بين كل اليهود المصريين، مما أدى إلى تآكل التضامن الطائفي اليهودي دون محوه تماماً.

- من أين أتى اليهود ذوو الثقافة غير العربية؟

- من أوروبا، وعاشوا بيننا محتفظين بجنسياتهم السابقة، مع أن أبناءهم وأحفادهم لم يروا الوطن الذي هاجر منه آباؤهم وأجدادهم.

- وهل طالب هؤلاء بالجنسية المصرية؟

- في بداية العشرينيات، كان اليهود الذين يستحقون الحصول على الجنسية المصرية، طبقاً لقانون الجنسية الصادر عام ١٩٢٩ وما تلاه من قوانين، يشكلون ما يقرب من نصف الطائفة اليهودية. لكن في عام ١٩٤٨ كان ٥٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ يهودي فقط من مجموع يهود مصر، البالغ عددهم قرابة ٨٠ ألفاً، يحملون الجنسية المصرية!! وقد شجع الحاخام الأكبر "ناحوم" اليهود المؤهلين للحصول على الجنسية أن يتقدموا للحصول عليها خلال الثلاثينيات والأربعينيات، لكن طلباتهم غالباً ما كانت عرضة لتأخير الإجراءات المكتبية المعقدة والرفض.

- ولكنك قلت قبل قليل أنه لم يكن هناك تمييز ديني ضدكم آنذاك!

- هذه الممارسات لم تكن موجهة تحديداً إلى اليهود، حيث كان أبناء الطوائف المتمصرة الأخرى من المقيمين لفترة طويلة في مصر مثل المسيحيين السوريين واليونانيين والإيطاليين والأرمن يعاملون بالمثل تماماً.

- متى بدأ التمييز ضدكم بالضبط؟ أو متى بدأت - بتعبير أدق - مشاكلكم في مصر؟

- آه... لقد بدأت مع "عملية سوزانا"<sup>(١)</sup>؛ فقد كانت نقطة تحول أساسية في حياة

(١) عملية سوزانا أو "فضيحة لافون" (كما تسمى بالأدبيات العربية)؛ نسبة إلى وزير دفاع الكيان "بنحاس لافون" الذي لم يكن يدري شيئاً عن تلك العملية التي نظمها وخططها في الخفاء بعيداً عن رؤسائه رئيس الاستخبارات الصهيونية "جيفلي بنامين". وفي هذه العملية تورط يهود مصريون في أعمال تخريب وتجسس ضد مصر نظمها المخابرات العسكرية الصهيونية (أمان)، الأمر الذي أثار أسئلة جوهرية بشأن هوياتهم وولائهم. وسميت بعملية سوزانا نسبة إلى خطيبة العميل اليهودي "ليني فيكتور"، أحد الأركان الأساسية في تنفيذ أعمال التخريب وتخطيطها. وبعدها عاد المخربون الصهاينة إلى مصر فور انتهاء تدريبهم، كانوا قد اتفقوا على البدء في سلسلة الأعمال التخريبية فور سماع الأغنية الأمريكية الشهيرة "أوه.. سوزانا" على موجة الإذاعة الصهيونية.

يهود مصر، بل أبرز حدث سياسي في حياة الطائفة اليهودية في مصر من عام ١٩٤٩ إلى عام ١٩٥٦ على الإطلاق. ولم تؤثر تلك العملية في أسلوب الخطاب في مصر فحسب، بل في إسرائيل أيضاً.

- كيف أثرت في أسلوب الخطاب في إسرائيل؟

- لقد استغلت إسرائيل عملية سوزانا، والقبض على المتورطين فيها، وإعدام اثنين منهم، في صياغة أسلوب خطاب يصف نظام الحكم المصري، وفي النهاية كل العرب، بأنهم نازيون جدد يضطهدون اليهود ويقتلونهم، وذلك في وقت كانت فيه الإبادة الجماعية والمحرقّة النازية ما تزال ماثلة في الأذهان، فبالغت الصحف الإسرائيلية والغربية في متابعة موجة اعتقالات واضطهاد تعرض لها اليهود المصريون عقب العملية، حيث ظهرت تقارير صحفية تؤكد بشكل لا يقبل الشك وجود نازيين ألمان على رأس إدارة الحكومة المصرية، قاموا بتنظيم محاكمة للمتورطين في العملية، ويقومون بالإعداد لمحاكمات إضافية!! وقد غيَّب الخطاب الإسرائيلي الرسمي حقيقة أن المتورطين في "فضيحة لافون" قاموا بأعمال تجسس وتخريب ضد مصر، ومن حقها محاكمتهم، وركزوا بدلاً من ذلك على كره النظام المصري لليهود وتماويه مع النظام النازي، وصوروا عبد الناصر على هيئة هتلر جديد يخطط لإبادة اليهود، في محاولة منهم للحد من موجة الإعجاب به في الغرب. وقد نجحوا بالفعل في إقناع دوائر عديدة بروايتهم لما حدث.

- وماذا عن المصريين؟

- لقد أصيبوا بالذهول من جراء ردود الأفعال الغاضبة التي تلقوها بشأن تقديم المتآمرين في "فضيحة لافون" للقضاء؛ لأن القضية بالنسبة إليهم كانت قضية تجسس وتخريب واضحة، بل مكتملة الأركان تقريباً، إلا أنهم لم ينجحوا في جعل الجمهور الغربي يتقبل روايتهم لهذه القصة.

## ◀ خارج التلمود

كان أبراهام مسروراً جداً لإسهاب السيدة فيومي في الحديث معه، فيبدو أنها تعاني من بعض الوحدة هذا اليوم، كما سُر أكثر بسعة إدراكها. لذا حاول استثمار ذلك في تعرّف عقيدة القرائيين عن كثب. فقال لها مشجعاً:

- يعجبني فيك أنك قادرة على إيصال فكرتك بسهولة، حتى إلى من هو غير مطلع على خلفيات الأمور التي تتحدثين عنها.

- أوه. شكراً يا بني. في الواقع لقد كنت أعمل مدرسة، وقد اعتدت على الشرح والإيضاح في كل حديثي.

- هل يضايقك إن شرحت لي حقيقة اعتقادكم أنتم اليهود القرائيين بالدرجة نفسها من الإيضاح؟

- مطلقاً. لكن لماذا يهكم هذا الموضوع!!!

لم يكن أبراهام يتوقع سؤالاً كهذا مطلقاً، فمن المفترض أن أي شخص سيسعده اهتمام الآخرين بدينه، دون أن يسأل عن السبب مباشرة، ولكنه مع ذلك خرج من المأزق بسهولة، عندما تذكر نصيحته لأحمد بنشر تجربته في مقارنة الأديان. فرد قائلاً:

- في الواقع، أنا أعمل حالياً على تأليف كتاب عن الأديان.

- هذا مشير جداً. أهنئك.

- شكراً.

- حسناً، إن القرائيين هم فئة من اليهود تتمايز تمايزاً كبيراً عن اليهودية الحاخامية، لأنها ترفض الإضافات التي أُدخلت على الشريعة من قبل الحاخامات.

- تقصدون بالشريعة أسفار التوراة الخمسة فحسب؟

- بل وسفر يوشع أيضاً، باعتبارهم المصدر الوحيد للفكر الديني اليهودي ولتشرية الفرائض. ونحن نؤمن بالتفسير والتطبيق الحرفيين للتوراة.
- أي إنكم تُسقطون بقية أسفار التناخ تماماً؟
- بكل تأكيد، ونبذ أيضاً ما تسمونه بالشرعية الشفوية (التلمود)، والكابالا وكل الأعمال الحاخامية الأخرى، التي هي في الحقيقة مجرد أعمال بشرية أُدخلت على الشريعة اليهودية بهدف تحريفها، سواء عن قصد أو عن غير قصد.
- أنا أوافقكم في هذه النقطة بالذات. وبالمناسبة، فباستثناء اليهودية الأرثوذكسية بفروعها المتشعبة<sup>(١)</sup>، واليهودية المحافظة إلى حد ما؛ فإن جميع فرق اليهود الأخرى يوافقونكم بشأن بشرية التلمود والكتب الأخرى.
- أنت تقصد اليهودية الإصلاحية، والإنشائية؟ صحيح أنهم لا يؤمنون بإيحاء التلمود وبقية الكتب التي جاءت بعد التوراة وقدسيتها، ولكنهم يعترفون بها على أنها فلكلور ونتاج مهم للحضارة اليهودية، أما نحن فلا نعترف بها أصلاً.
- كلُّ له وجهة نظره الخاصة في تلك الكتب، ولكنني عنيت قدسية التلمود وإيحاءه بالذات، ورفض هذا الأمر يتعدى الفرقتين اللتين أشرت إليهما. فهناك "السامريون" الذين لا يؤمنون بالتلمود، بل لا يؤمنون حتى ببقية أسفار التناخ مثلكم، وإنما يؤمنون بأسفار موسى الخمسة فقط، ولكن بنسختها المختلفة عن تلك المتداولة بين اليهود كافة، وقبلتهم إلى جبل جرزيم في نابلس، لا جبل صهيون. وهناك بقايا "يهود كايضنج" في الصين. يعبدون "يهوه" الذي يسمونه (تتين السماء)، ويتعبدون في معبدين يهوديين، أحدهما لعبادة يهوه والآخر لعبادة الأسلاف. وهم لا يؤمنون بالتلمود، ولا يعرفون لا التلمود ولا التوراة. ويقدمون لأسلافهم قرايين من لحم الضأن، وهم لا يمانعون في أكل لحم الخنزير.

(١) يندرج تحت الأرثوذكسية اليهودية كلاً من الحسيديم، والمتنغديم، والقوميين الدينين، والأرثوذكسين الجدد، كما تنقسم أغلب تلك الفرق الأرثوذكسية الرئيسية إلى عدد أكبر من الفرق الفرعية، وتتداخل فيما بينها أيضاً.

- يمكن أن نشير إلى يهوديتهم بأنها كونفوشيوسية<sup>(١)</sup>، تماماً مثلما أظن أن يهودية جماعة "بني إسرائيل" في الهند يهودية هندوسية. وبالمناسبة أنت محق في شأنهم أيضاً، فهم كذلك لا يؤمنون بالتلمود.

- تماماً. كما أن الفلاشا الذين كانوا يشكلون تجمعاً صغيراً هامشياً ومنعزلاً في أثيوبيا قبل هجرتهم إلى إسرائيل لا يؤمنون بالتلمود أيضاً. وهناك أيضاً بعض الأمريكيين السود الذين يدعون "العبرانيين السود"<sup>(٢)</sup>، وهم يؤمنون بعقيدة شبه يهودية تتحدث عن مؤامرة الإنسان الأبيض لفصل آسيا عن إفريقيا عن طريق شق قناة السويس، ويدعون أنهم هم العبرانيون الحقيقيون، ومن ثم يرون أنهم هم وحدهم أصحاب الحق في (استرداد إسرائيل) والاستيطان فيها وحكمها، وتوجد جماعة منهم في شيكاغو هاجرت أعداد منها إلى إسرائيل حيث استقروا في جوار ديمونا، وفي أماكن أخرى، وهم أيضاً لا يؤمنون بالتلمود. وهناك "الكرمشاكي"، وهم ينتمون إلى جماعة يهودية صغيرة من شبه جزيرة القرم، يتحدث أعضاؤها باللغة التترية، ويبدو أنهم من بقايا "يهود الخزر". وكما الباقون، فهم أيضاً لا يؤمنون بالتلمود.

- معلوماتك قيمة فعلاً، بل جديدة. كم أود قراءة الكتاب حالما تنتهي من تأليفه: فأنا لم أسمع عن أغلب من ذكرت.

(١) الكونفوشية: هي مجموعة من المعتقدات والمبادئ في الفلسفة الصينية، طورت عن طريق تعاليم كونفوشيوس (夫子) وأتباعه، تتمحور في مجملها حول الأخلاق والآداب، طريقة إدارة الحكم والعلاقات الاجتماعية. وهي تقوم على عبادة إله السماء أو الإله الأعظم، وتقديس الملائكة، وعبادة أرواح الآباء والأجداد. وقد أثرت الكونفوشيوسية في منهج حياة الصينيين، وحددت لهم أنماط الحياة وسُلم القيم الاجتماعية، كما وفرت المبادئ الأساسية التي قامت عليها النظريات والمؤسسات السياسية في الصين. انطلاقاً من الصين، انتشرت هذه المدرسة إلى كوريا، ثم إلى اليابان وفيتنام، أصبحت ركيزة ثابتة في ثقافة شعوب شرق آسيا. وعندما تم إدخالها إلى المجتمعات الغربية، جلبت الكونفوشيوسية انتباه العديد من الفلاسفة الغربيين.

(٢) يقال إن بعضهم ثمرة الجماع بين بعض أصحاب المزارع اليهود وخليلاتهم السود، والبعض الآخر ثمرة التهود.

- شكراً على المجاملة. هذا لطف منك لا أستحقه.

- بل تستحقه بجدارة، ولكن حدثني أكثر عن يهود الفلاشا بالذات: فقد تردد ذكرهم كثيراً في الأخبار دون أن يشرحوا أي شيء عنهم. وموضوعهم يهمني فعلاً، فأنا أشعر بالمهانة عندما أرى في التلفاز مجندين إسرائيليين سود البشرة. نظر إليها أبراهام شزرراً، وقال دون أن يحاول إخفاء امتعاضه من ملاحظتها العنصرية:

- أنت اليهودية تشعرين بالمهانة لأنهم سود البشرة!!! فماذا يشعر العرب إذن عندما يرون جندياً يهودياً أثيوبياً في الثامنة عشرة من العمر يستطيع في إسرائيل أن يوقف عربياً في السنتين، ويأمره أن يريه بطاقة هويته، ثم يفتشه بامتهان!!! فهذا العربي وعائلته الذين حرثوا الأرض منذ أجيال عليهم الآن أن يخنعوا أمام صبي له في إسرائيل بضعة أشهر. أستطيع تفهم لماذا يشعر العرب بالمهانة لذلك، فلديهم قضية وجيهة، أما عنصريتك فلا أستطيع تفهمها، كما لا أستطيع تفهم عنصرية من رش يهود اليمين بال-DDT لتطهيرهم قبل السماح لهم بالسفر إلى إسرائيل.

- أنا آسفة... فلم أقصد أي عنصرية... ربما خانني التعبير، فكنت أقصد أنني... أنني أستغرب أن يكون هناك يهود سود البشرة، فالعرق اليهودي ليس به هذا اللون. قالت مدام بيومي بارتباك بعد أن فوجئت بردة فعل أبراهام العصبية المفاجئة. وكان أبراهام قد ضاق ذرعاً بالعنصرية التي تملأ قلوب بني إسرائيل بعضهم ضد بعض، خاصة أنها صدرت هذه المرة من أحد من عانوا بأنفسهم مرارة التمييز والعنصرية من قبل باقي شرائح اليهود، ولكنه مع ذلك أحس بأنه قد تجاوز حدوده قليلاً، فقال معتذراً:

- بل أنا الآسف سيدتي: فيبدو أن أعصابي متوترة بعض الشيء، ربما كان ذلك بسبب إجهاد السفر.



- نستطيع إكمال حديثنا في وقت لاحق إن أردت .  
 - لا داعي لذلك، فأنا بخير الآن... حسناً. فيما يتعلق بالفلاشا فهم بالتأكيد يرجعون إلى أصول إسرائيلية استوطنت أثيوبيا في الماضي، إلا أن ملامحهم لا تختلف كثيراً عن ملامح بعض قبائل أو أقوام إثيوبيا لطول مكثهم هناك وتزاوجهم مع السكان المحليين. أما الشعائر فهي تختلف لديهم بعض الشيء عنها في اليهودية الحاخامية، ولكنهم ملتزمون بها تماماً، وقد صُدموا حينما هاجروا إلى إسرائيل بسبب عدم التزام أعضاء الدولة اليهودية بها. ويرأس يهود الفلاشا رجال دين يقال لهم "قسيم" (جمع قس)، ويعترفون بنظام الرهينة. ويصلون في معبد يهودي يسمى "مسجد"، ويخلعون نعالمهم قبل دخوله. ويرتدي يهود الفلاشا شالاً يختلف عن الطاليت، وهو أشبه بما يرتديه مَنْ حولهم من أبناء أثيوبيا. ومع أنهم لا يعرفون التلمود أو العبرية، ويتعبدون بـ"الجعزية" لغة الكنيسة الأثيوبية المقدسة<sup>(١)</sup>، وتضم كتبهم المقدسة مقتطفات من العهد الجديد، ولا يوجد عندهم حاخامات وإنما قساوسة ورهبان: إلا أن إسرائيل قبلتهم كيهود في الثمانينيات مع تزايد حاجتها إلى المادة البشرية، وقبلت كذلك "الفلاشاها مورا" مع أن هذه الجماعة تنصرت بشكل كامل منذ قرنين من الزمان تقريباً، وياتت منبوذة من بقية الفلاشا باعتبارها جماعة متنصرة.

- وماذا عن السامريين؟ فقد أثرت اهتمامي بما ذكرته عن مشابھتهم لنا .  
 - بعد أن انتصر "سرجون الثاني" ملك آشور على مملكة إسرائيل، وأسر سكانها إلى الخابور في آشور، بقي فيها ضعافهم. وعندما نقل "سنجاريب" ملك الموصل بعض أهل كوشا وبابل وحماه إلى السامرة ليعمروها، تعلموا دين بقايا الإسرائيليين، الذين لم يكن معهم إلا التوراة، لأنهم لم يكونوا يعترفون أصلاً بأنبياء مملكة يهودا. وعندما

(١) لغة الفلاشا الوطنية هي "الأمهرية"، ويتحدث بعضهم بـ"التيجرينية".

رجع اليهود من السبي البابلي وشرعوا في بناء الهيكل الثاني، أراد السامريون، كما أصبح اسمهم نسبة إلى السامرة<sup>(١)</sup>، مشاركتهم في ذلك فأبوا. ولكن عندما خرج الإسكندر الأكبر من بلاد اليونان يريد غزو الفرس مر على السامرة، فخرج إليه كبيرهم "سنبلاط" وحمل إليه أموالاً جمّة وهدايا جلييلة، واستأذنه في بناء هيكل على الجبل الذي يسمى في توراتهم<sup>(٢)</sup> "طوربريك" وهو جبل "جرزيم"، فأذن له. وبالفعل بنى سنبلاط هيكلًا شبيهاً بهيكل أورشليم مستنداً إلى آية في التوراة تقول: "اجعل البركة على طوربريك (جرزيم) واللعة على عيبال"<sup>(٣)</sup> (تثنية ١١ : ٣٠). وكان سنبلاط قد زوج ابنته لكاهن اسمه "منشا"، فغضب عليه الكهنة بسبب مصاهرته تلك، وجردوه من منزلته، فأقامه سنبلاط كاهناً في الهيكل الجديد، وتبعه بعض اليهود منضمين إلى السامريين، فصارت القرابين تقدم في ذلك الهيكل، إلى أن جاء الكاهن "هوركانوس بن شمعون"، فسار في عام ١٢٨ إلى السامرة وحاصرها حتى وقعت في يده، فهدم هيكل طوربريك من أساسه، وقتل من كان فيه من الكهنة، ولا يزال السامريون إلى يومنا هذا يقدمون قرابينهم على الجبل حيث كان هيكلهم، يستقبلونه في صلاتهم حيثما كانوا.

- كيف يعاملهم الإسرائيليون.

- لقد أعطتهم الحكومة الجنسية الإسرائيلية لأسباب قومية، ولكنها مع ذلك

(١) يقول السامريون إن اسمهم يعود إلى اللفظة العبرية (شامرم) التي تعني المحافظين، نسبة إلى محافظتهم على التوراة المنزلة دون تحريفها.

(٢) تختلف التوراة السامرية عن التوراة العبرية فيما يقرب من ستة آلاف موضع، ويتفق نص التوراة السامرية مع الترجمة السبعينية في ألف وتسع مئة موضع من هذه المواضع، مما يدل على أن مترجمي السبعينية استخدموا نسخة عبرية تتفق مع النسخة السامرية.

(٣) وهو الجبل الآخر المحيطة بمدينة نابلس.

تعاملهم على أنهم مواطنون بدرجة دنيا . وبشكل عام يعدهم اليهود المتدينون أعداء<sup>(١)</sup>، في حين ينظر إليهم اليهود العلمانيون على أساس أنهم أقلية يجب الحفاظ عليها، فهم يُعتبرون الطائفة الأصغر في العالم، ويقدر عددهم بـ ٦٧٠ شخصاً موزعين بين مدينة نابلس ومنطقة حولون بالقرب من تل أبيب<sup>(٢)</sup>.

- يبدو أنك تعرف الكثير حقاً .

- أشكرك مرة أخرى . أنا لا أعرف الكثير بل القليل، ولكنني متأكد من القليل الذي أعرفه، وأسعى إلى معرفة المزيد بهدف الوصول إلى الحقيقة، ولذلك قلت بأنكم ربما كنتم محقين بنبذكم التلمود وبقية كتب الحاخامات ونفي الإلهام والوحي عنها .

- أؤكد لك بأننا محقون بأكثر من ذلك .

(١) كان العداء مستحكماً بين اليهود والسامريين على مر التاريخ، ولم يكن اليهود يسمحون بأي علاقة اجتماعية أو دينية معهم . وفي عام ٦ ق . م ألقى بعض السامريين عظاماً نجسة في هيكل أورشليم، فصار اليهودي يستنكف من أن ينجس شفتيه بنطق كلمة " سامري "، وصار يعتبر طعام السامري نجساً كلحم الخنزير .

(٢) السامريون يعتبرون أنفسهم فلسطينيين تماماً، ويتحدثون باللغة العربية في حياتهم اليومية . وكانوا سابقاً يتمتعون بتمثيل نيابي في المجلس التشريعي الفلسطيني، حيث أعطاهم الرئيس السابق ياسر عرفات مقعداً تحت نظام الكوتا، إلا أنه تم إلغاء هذا الكرسي لاحقاً بعد وفاة عرفات، ولم تبد أية جهة أسباباً لذلك . وكبقية الفلسطينيين، تضرر السامريون جراء الاحتلال الصهيوني للضفة الغربية، وأصبحت حركتهم صعبة نتيجة الحواجز الأمنية والحصار بواسطة الجيش . وفي الفترة الأخيرة سمح لهم الجيش بالدخول والخروج من منطقتهم ضمن مواعيد زمنية يومية .

## ◀ القرائيون

نظر أبراهام إلى مدام فيومي بحياء قائلاً:

- أنا لا أعرف عنكم الكثير يا سيدتي، ولكنني كنت أسمع دائماً أنهم يكفرونكم.  
 - ذلك نتيجة الاختلاف الجذري بيننا وبين بقية اليهود، مع أن ذلك الاختلاف لا يصل إلى الخلاف حول الذات الإلهية وصفات الله، بل يتركز بشكل أساسي حول الأحكام الدينية اليومية والمناسبات.

- مثل ماذا؟

- مثل أحكام يوم السبت، وبعض المحرمات الواجب مراعاتها فيه، كما أننا نعتبر أن هناك صلاتين مفروضتين فقط يومياً.  
 - نحن نؤمن بأنها ثلاث.

- أعرف ذلك، بل إنكم تختلفون عنا أيضاً في وقت الصلاة وأسلوب أدائها.

- ولكنني سمعت أنكم أنتم الذين تسقطون الكثير من الأحكام والطقوس المتعلقة بالصلاة، كعدم قراءة الأدعية الثمانية عشر مثلاً.

- بل أنتم من ابتدع فيها تلك الأدعية المستحدثة وكثير من البدع الأخرى التي ليس لها أصل في اليهودية الحقة. وكما قلت لك فنحن نؤمن بالتوراة المنزلة فقط ونرفض الإضافات البشرية من قبل أحباركم وحاخاماتكم، لذا فإن الفكر الديني القرائي لا يتضمن هذا العدد الضخم من الأوامر والنواهي التي ابتدعها الفكر الحاخامي عبر العصور، والتي يصل عددها إلى ٦١٣ فرضاً شرعياً. وبالمناسبة نحن نعتزل العمل في يوم السبت نهائياً، ولا نلجأ إلى التبريرات التي يُخادع اليهود بها أنفسهم في الالتفاف عليها.

ظهر الإحراج على أبراهام، فقد كانت محقة تماماً في ذلك، ولكنه تمالك نفسه وقال غامزاً:

- أحقاً يعود نشوء الطائفة القرائية إلى القرن الثامن بعد الميلاد على يد "عنان بن داوود" المولود في العراق، وأن سبب انشقاكه هو تأثره بالفلسفة الإسلامية<sup>(١)</sup>، وأنه كان مقرباً من خليفة المسلمين آنذاك<sup>(٢)</sup>؟

- بالطبع لا. فعنان بن داوود هو مجرد حبر يهودي قام بحركة إصلاح ديني، نادى فيها بأنه "لا قداسة إلا للتوراة فحسب" منكرًا للتفسيرات الشفوية، وداعياً إلى نبذ التلمود وكل الفروع الشفوية الأخرى. وقد كان مقرباً من جميع كبراء عصره نظراً لكونه حبراً لاوياً، ومن كبار حكماء اليهود، ولأنه من نسل الملك داوود أيضاً. وقد كان ناسكاً عابداً، لدرجة أن أجمع معاصروه اليهود على أنه لو ظهر في العصور الأولى لكان نبياً. وإن كان قد تأثر بفكر ما، فبالتأكيد ليس بعلم الكلام عند المسلمين، ولا بخليفتهم، وإنما بآراء الصدوقيين على الأغلب. وقد انضم إليه الكثيرون من ذوي الثقافة العالية، مما أعطى حركته زخماً قوياً، وسعة انتشار، فكثر أتباعه في الأراضي البابلية أولاً، ثم جاوزتها إلى خارج بابل، وخاصة بلاد الفرس. وفي القرن التاسع الميلادي، انبعثت حركة نشيطة على يد تلميذه "مردخاي النهاوندي"، الذي عمل بقوة على تثبيت الحركة، ولكنه هذبها بعض التهذيب. فمع عدائه، مثل أساتذته، للشريعة الشفوية، لم يتشدد مثله في التمسك بحرفية نص الشريعة المكتوبة. والميزة التي امتاز بها أنه كان ذا نزعة فلسفية أكثر عمقاً، فأدخل فلسفته على تعاليم التوراة، وكساها ثوباً جديداً. ولم يقصر تغييراته على الطقوس والعبادات، بل تعداها إلى جوانب عقديّة كانت مثار جدل من قبله، وظلت أيضاً من بعده.

(١) يقصد الفكر المعتزلي تحديداً.

(٢) يقصد الخليفة أبا جعفر المنصور.

- يبدو أن عمله كان مجرد تحويل في المذهب، لأنه بتفسيره التوراة بآراء فلسفية وقع فيما عابه عنان على الحاخامات، إذ فسروها بآراء ونقول شفوية.
- في هذه أنت محق؛ فمن تفسيراته الفلسفية أن الله تعالى أسمى من أن يتصل بالمادة أو بهذا العالم الدنيوي، ولذا فهو لم يخلق العالم، وإنما خلقه ملك كلفه الله بذلك، وقد حملته هذه الفكرة على أن يعتبر نصوص التوراة من الرموز والمجازات، فابتعد بذلك بالمذهب عن أصله، وحملته فلسفته بعد ذلك أن ينكر حياة الروح منفصلة عن الجسد. وبوجه عام كان عمل النهاوندي تحويلاً واسعاً لمذهبنا القرائي وبعداً به عن أصله. ولكن عاصره متفلسف آخر هو "دانيال الخوميسي"، وكان صاحب نزعة مخالفة لصاحبيه معاً، سواء في العقيدة أو الشريعة، فقد أنكر النزعة التأملية التي دعا إليها عنان، وكذلك أنكر النزعة الرمزية التي نادى بها النهاوندي، كما أنكر الحساب الفلكي الذي أبتكر من قبل لإثبات بدايات الشهور العبرية ونهاياتها، وجعل الاعتماد على الرؤية وحدها، لأنه لا يعتمد شيئاً من أعمال الحاخامات اليهود.
- كيف ذلك؟
- نحن نثبت الشهور برؤية الأهلة، ولا نبالي في أي يوم وقع من الأسبوع، كما يفعل الحاخامات، ومن ثم لا نكبس الشهور.
- تقصدين كما يفعل المسلمون؟
- ليس تماماً. فنحن نعمل مبادئ الشهور من الاجتماع الكائن بين الشمس والقمر. أحس أبراهام أن الموضوع سيتهجه إلى أمور ثانوية لا تهمه، ولا تساعد في بحثه عن الحقيقة، فقال مغيراً الموضوع:
- أصحيح أنكم تتكرون وجود الملائكة؟
- هذا رأي الخوميسي الذي خالف النهاوندي في هذه النقطة منكرًا وجود الملائكة نهائياً، ولكنه جعل الخلق والإفناء من مظاهر الكون راجعة إلى قوى الطبيعة، والله هو الذي يسير هذه القوى.

- فكيف تعامل مع نصوص التوراة التي تذكر الملائكة؟!
- لقد أولها بأنها هي الطبيعة، وبذلك لوى نصوص التوراة التي يدعو إلى التمسك الحرفي بها.
- يبدو أن هناك بعض التفرعات المذهبية عندكم أيضاً.
- أجل للأسف، فقد كان لكل واحد من هؤلاء الثلاثة الكبار مدرسته وأتباعه، وبهم تشقق المذهب وصار مذاهب مختلفة متضاربة، ولكن من الظلم الادعاء بأن فرقنا بدأت بهم فقط، فأصولنا ترجع إلى أبعد منهم بكثير.
- إلى متى؟
- إلى أيام "يريعام الأول"<sup>(١)</sup>، أي إلى القرن العاشر قبل الميلاد<sup>(٢)</sup>، وعليه فنحن أحفاد من تسمونهم "بالأسباط العشرة الضائعة"<sup>(٣)</sup>.
- كيف تنظرون إلى المسيحية والإسلام؟
- نحن نرى في محمد وعيسى أنبياء أرسلهم الله لخدمة البشر وتوجيههم<sup>(٤)</sup>.
- قد أفهم ذلك عن يشوع، ولكن كيف تعتبرون محمداً نبياً من عند الرب؟! إن إيمانكم بذلك يستلزم ترك اليهودية واعتناق الإسلام، أليس كذلك؟
- ليس هذا دقيقاً، فهو نبي أرسل إلى العرب، وليس إلى بني إسرائيل.
- وكيف تنظرون إلى الصهيونية؟

(١) المنشق يريعام بن ناباط أول ملوك المملكة الشمالية المعروفة بـ "مملكة إسرائيل".  
 (٢) عاد يريعام من منفاه في مصر بعد موت سليمان عليه السلام سنة ٩٣٥ ق. م، وفي نفس هذه السنة أسس مملكة إسرائيل مستقلاً بعشرة أسباط (قبائل) من الأسباط الاثني عشر.  
 (٣) الأسباط العشرة الضائعة هم رعايا مملكة إسرائيل، الذين أسرههم سرجون الثاني إلى آشور بعد أن حطم مملكتهم. ويعتقد اليهود أنهم ذابوا بين الشعوب.  
 (٤) يطلقون على ذلك اسم "النوبة التوجيهية".

- لقد رفضناها، كسائر الطوائف والجاليات اليهودية التي قطنت أرجاء العالم الإسلامي، كما رفضنا محاولات الصهاينة في أوائل القرن الماضي لإنشاء دولة يهودية في فلسطين. فمن ناحية، لم تكن الصهيونية تخاطبنا، بل كانت تخاطب يهود أوروبا، بالإضافة إلى أننا لم نكن معنيين بما يسمى بالمسألة اليهودية وأسباب نشوئها: لكوننا عشنا في محيط إسلامي متسامح، وهذا معاكس لما عاناه يهود أوروبا الشرقية في حينه.

- كم عددكم في إسرائيل؟

- أكثر من عشرين ألف شخص، معظمهم من أصل مصري. وقد هاجروا في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي نتيجة سوء فهم وإدراك لدى بعض القيادات العربية، التي عاملتهم كصهاينة. ويقطن القرائيون في إسرائيل بشكل أساسي في كل من الرملة وأشدود وبئر السبع، ولا يتشاركون مع اليهود الحاخامات في محاكمهم الشرعية، بل لهم محاكم خاصة بهم، ويميلون إلى التزاوج داخل الطائفة نفسها. ونتيجة لعدم التجانس بين أفراد الطائفة القرائية واليهود الأرثوذكس، تسجل بين الحين والآخر خلافات وحوادث تقع بينهم، خاصة في المناطق المشتركة<sup>(١)</sup>، ولكن لنا وجود ملحوظ في الولايات المتحدة، وبالذات في كاليفورنيا، وأماكن محددة في بالتيمور ونيويورك وبوسطن وشيكاغو. كما أن لنا حضوراً في وطنك روسيا، ولكنهم هناك ليسوا على وفاق معكم بتاتاً، أليس كذلك؟

- أجل للأسف. وذلك يعود إلى أيام "أبراهام فيركوفيتش"<sup>(٢)</sup>، الذي بذل جهوداً كبيرة لفصل اليهود القرائيين عن اليهود الحاخاميين، فهاجم كلاً من المتغديم والحسيديم

(١) يجري في الكيان الصهيوني إهمال كبير ومتعمد للقرائين. وأبرز مثال على ذلك هو الإشادة بأحد أبطال فضيحة لافون وهو الدكتور موسى مرزوق الذي أدين وأعدم عام ١٩٥٥ دون أن يتطرقوا بتاتاً لذكر انتمائه القرائي من قريب أو بعيد.

(٢) عالم قرائي روسي، ولد في بولندا.



هجوماً لاذعاً، حتى إنه قدم مذكرة عام ١٨٢٥ إلى الحكومة الروسية القيصرية بئب فيها أن القرائيين يتسمون بالنشاط والإنتاجية، على عكس اليهود الحاخاميين الذين يتسمون في رأيه بالكسل والطفيلية. وقد اقترح في المذكرة أن تقوم الحكومة القيصرية بتهجير الحاخاميين من المناطق المتاخمة للحدود الغربية، حتى توقفهم عن الاشتراك في عمليات التهريب، وحتى يتم تشجيعهم على الاشتغال بالزراعة.

- كان محقاً في ذلك: فقد كان القرائيون في شبه جزيرة القرم يشتغلون بكل المهن، ومنها الزراعة، والتجارة، ولم يمارسوا الربا بشكل موسع. هل تعرف أن "قبيلة الخزر" التي ربما تنحدر أنت أيضاً منها قد تهودت على أيديهم؟

- ربما انحدر منها بعض قومي من الأشكناز ولكن ليس أنا: فأنا لاوي. ولكن مع ذلك لا أظن أن الخزر تهودوا على أيديكم سيدتي.

- ولكن أبراهام فيركوفيتش نفسه قام بجمع العديد من المخطوطات العبرية في فلسطين، كما استشهد بالاكشافات الأثرية، وخاصة شواهد القبور اليهودية، ليثبت ذلك. وقد نشر آراءه عام ١٨٧٢، فقبلها كثير من المؤرخين اليهود في عصره.

- بعض العلماء يرون أن فيركوفيتش كان يضيف الشواهد التاريخية لتأييد وجهة نظره.

- دعك من هذا يا بني: فأنت لا ريب تعلم أن مجموعتي فيركوفيتش بالمكتبة العامة في سانكت بطرسبرغ أكبر مجموعتي كتب ومخطوطات عبرية في العالم، ولكن اختلافاتنا الدينية هي السبب في تشكيككم فيها.

- على أية حال فإن هذه القضية لا تزال خلافية، شأنها شأن باقي قضايا نقاء العرق العبري. ورغم إنكار كثير من اليهود، فمن المؤكد أنهم اختلطوا بالأمم، واختلفت أصولهم، بالإضافة إلى أنهم تزوجوا مع الأمم التي يعيشون بين ظهرانيها، واصطبغت كل جماعة منهم بصبغة البلد الذي تعيش به حتى صاروا لفيفاً من أصول

شتى<sup>(١)</sup>. حتى المجموعتان العرقيتان الرئيسيتان الأشكنازيم والسفارديم، تتفرع عن كل منهما مجموعات عرقية أضيق؛ فيهود الولايات المتحدة تتبع هويتهم من انتمائهم إلى مجتمعهم الأمريكي، وهذا ما حمل أحدهم على الإشارة إلى أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة بأنهم "واسب"<sup>(٢)</sup> يهود. ويشير يهود فرنسا الأصليون إلى المهاجرين المغاربة بوصفهم "كوشير كسكس"<sup>(٣)</sup>، ويقال الشيء نفسه عن يهود الهند وبقية يهود البلدان الأخرى.

- لماذا تُهمل "المزراحيم"<sup>(٤)</sup>؟

قالت مدام فيومي مؤنبةً، فرد أبراهام مستفسراً:

- عفواً؟

- لقد قلت إن السفارديم والأشكناز هما المجموعتان العرقيتان الرئيسيتان؟ وجعلت المزراحيم ضمن السفارديم مع أنهم مجموعة رئيسية منفصلة. إن اليهود المزراحيين هم يهود الشرق. ويتضمن هذا المصطلح أيضاً يهود إيران، ويهود الجبال (القفقاس)، ويهود الهند، ويهود كردستان، ويهود جورجيا، ويهود البربر، ويهود بخارى (آسيا الوسطى)، ويهود الجزيرة العربية، ويهود اليمن. إضافة إلى السكان الأصليين من يهود العراق ويهود سورية ويهود مصر قبل أن يفد عليهم اليهود السفارديم الهاربون من الكاثوليك بعد سقوط الأندلس.

(١) جاء في "لسان العرب" عن معنى كلمة لفيف: (مُجْتَمِعٌ مَلْتَفٌ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ)، واللفيف (القوم يجتمعون من قبائل شتى ليس أصلهم واحداً)، واللفيف (ما اجتمع من الناس من قبائل شتى)، واللفيف (الجموع العظيم من أخلاط شتى فيهم الشريف والذنيء والمطيع والعاصي والقوي والضعيف).

(٢) W E S P وهي اختصار لعبارة "وايت أنجلو ساكسون بروتستانت"؛ أي "بروتستانت أبيض من أصل أنجلو ساكسوني"، وهو العنصر المسيطر بين مسيحي الولايات المتحدة.

(٣) كسكس اسم أكلة مغربية. أي إن يهودية يهود المغرب مرتبطة ولصيقة بهويتهم المغربية، وطعامهم لا تقررهم العقيدة اليهودية وحدها، وإنما أيضاً انتمائهم الإثني، ولذا فهو كوشير كسكس.

(٤) بالعربية مشرقيون.

- لأنهم من الناحية الدينية يتبعون المذهب اليهودي السفاردي.
- هذا ليس دقيقاً. فمنهم القرائيون والسامريون ويهود اليمن<sup>(١)</sup>، وفرق كثيرة لا تتبع المذهب السفاردي، أم أنكم لا تعتبرون هؤلاء من اليهود؟ يبدو أنني لست العنصرية الوحيدة هنا.
- أنت محقة فعلاً، فأنا لم أفكر بذلك على هذا النحو، ولا سيما أن لقب مزراحي له الآن معنى آخر مختلف تماماً ينتمي إليه الأوروبيون بشكل خاص<sup>(٢)</sup>، ولكن مع ذلك، فيبدو أنني أنا أيضاً أعاني بعض التعصب العرقي الذي أمقته. على كل حال أشكرك سيدة فيومي على لطفك الكبير ووقتكم الثمين الذي أنعمت به علي.
- بل أنا التي يجب أن تشكرك، فقد استفدت كثيراً من معلوماتك القيمة.
- لطف كبير منك أن تعتبري الأمر كذلك.
- انتظر. هل تعرف شيئاً عن فرقة "مكوبا"؟
- كلا، لم أسمع بها.
- إذن، جاء دوري الآن لأخبرك عن طوائف لم تكن تعرف عنها؛ إنهم الصهاينة اليابانيون.
- إن أغلبية شعب اليابان يدينون بالبوذية، وهناك ديانات أخرى كـ "الشتنوية"<sup>(٣)</sup>

(١) يهود اليمن يتبعون مذهباً دينياً خاصاً بهم، ويختلف جذرياً عن بقية المذاهب اليهودية التقليدية.

(٢) قام أول تنظيم ديني صهيوني في أوروبا عام ١٩٠٢، تحت اسم حركة "همزراحي"، أي الشرقي، على يد الحاخام "إسحاق يعقوب رينز"، (١٨٣٩ - ١٩١٥)، في رد فعل تجاه تزايد نفوذ التيار العلماني بين اليهود الصهيونيين المتأثرين بالغرب، ثم قام تنظيم "بوعالي همزراحي"، أي العامل الشرقي. وبعد أن خاض حزبا المزراحي والعامل المزراحي ثلاث دورات انتخابية، برز اتجاه قوي داخل الحزبين لدمج الحزبين معاً، وهو ما تمخض عن قيام المفضل منذ عام ١٩٥٦ م.

(٣) الشنتوية هي ديانة وضعية اجتماعية ظهرت في اليابان منذ قرون طويلة، وما زالت الدين الأصيل فيها، وقد بدأت بعبادة الأرواح، ثم قوى الطبيعة، ثم تطور احترام الأجداد والزعماء والأبطال فيها إلى عبادة الإمبراطور الميكادو الذي يعد من نسل الآلهة، كما يزعمون.

والكونفوشيوسية، وهنالك أقليات مسلمة ومسيحية ويهودية صغيرة جداً ليس لها تأثير يذكر، إلا أنني لم أكن أعرف أن هناك يهوداً في اليابان تحت هذه التسمية.

- إنهم ليسوا يهوداً: بل مسيحيون صهاينة، مع أنهم يدعون امتداد نسبهم إلى أسباط بني إسرائيل الضائعة، لذلك فهم يعتبرون إسرائيل قبلة لهم، يتبركون بها، ويحتفلون بذكرى إنشائها، ولا يتخلفون عن زيارتها، بل يرونها أعظم معجزة ظهرت في القرن العشرين.

- وأين سمعت بهم؟

- من أحدهم، وهو يسكن هنا في الغرفة المجاورة لغرفتك، اسمه السيد "ميازاكي".

- وما هي طبيعة معتقداتهم؟

- هو يقول أنهم من أكثر الفرق المسيحية نشاطاً، وأوسعها شهرة في اليابان، ولهم مجلتان هما "الإنجيل الأصيل" و"نور الحياة" كما قال. ولكنني لم أتحدث معه مطولاً في شأن معتقداتهم، لعدم أهمية الأمر لي. أما بالنسبة إليك فالأمر مختلف تماماً، وقد يساعدك في الكتاب الذي تؤولفه.

- إممم... أجل، بالتأكيد. أشكرك كثيراً على اهتمامك ولطفك.

- لقد كان ذلك حقاً من دواعي سروري.

- حسناً سأذهب الآن إلى النوم.

- أتمنى لك ليلة هادئة.

- ولك أيضاً.

- شكراً.

## ◀ تملص من القيد

استيقظ أبراهام على صوت جميل، اكتشف أنه يصدر من المسجد المقابل، فاستنتج فوراً أنه - ولا بد - نداء المسلمين للصلاة. فدخل إلى الحمام حيث أطلال الوقوف تحت سيل الماء المنهمر، وهو يسترجع أحداث الأمس المتسارعة، وعندما خرج، تعجب من أن النداء كان لا يزال يتردد، فجلس في الشرفة يستمع إليه، وينظر إلى أحياء ذلك البلد الجديد، الذي لم تسمح له ظروف البارحة بالتأمل فيه.

بدا وكأن ذلك النداء لن ينتهي أبداً، فذهب إلى الصالة، حيث طلب من الخادم إعداد فنجان من القهوة. وبينما هو يعدها، سأله مستفسراً:

- هل يتكرر هذا النداء الطويل فعلاً خمس مرات في اليوم؟
- هذا ليس أذاناً، وإنما "تكبير العيد"، إذ إن اليوم هو أول أيام العيد.
- أي عيد؟
- عيد الأضحى.

ثم أخذ الفتى يحدثه عن قصة أبي الأنبياء إبراهيم مع بكره الذبيح إسماعيل عليهما السلام، وكيف افتداه الله تعالى بكبش عظيم.

عاد أبراهام إلى غرفته حاملاً قهوته، ثم جلس يتناولها في الشرفة باستياء بالغ؛ فيبدو أن المسلمين قد زوّروا هذه الحقيقة الإيمانية التاريخية أيضاً، وجعلوا الذبيح هو إسماعيل! فقط لأنه الجد البعيد للعرب ونبيهم. مع أن الذبيح في الحقيقة، وكما يعلم الجميع، هو أخوه إسحاق الجد المباشر لبني إسرائيل. ثم نظر إلى جموع المصلين، من تحته، وهم يتجهون إلى المسجد بثيابهم البيضاء الفضفاضة، فهدأت تأثرته قليلاً، وقرر فيما كان ينظر إليهم بإعجاب، أن يتحرى جيداً عن هذا الموضوع، فأحضر

التناخ وأخذ يراجع النصوص التي وردت عن إسماعيل ليعلم علامَ استند المسلمون في دعواهم الغريبة تلك<sup>(١)</sup>؟ إلا أن صوت راحيل المفعم بالاستياء والضيق قطع عليه سلسلة أفكاره، عندما صاحت قائلة:

- يا ربي.... ما هذه الضجة؟! وإلى متى ستستمر، أنا لا أستطيع النوم.
- صباح الخير يا حبيبتي.
- لم كل هذه الضوضاء؟ ما الذي حصل؟
- اليوم هو أول أيام العيد الكبير عند المسلمين.
- يا لحظي العاثر، وهل سيستمرون طويلاً بهذا النعيق؟
- حسب الفتى الذي أعد القهوة، فهم يشارفون على الانتهاء. هه. لاحظت، لقد توقفوا.

- الشكر للرب.
- هل أطلب الفطور؟
- لا، أريد متابعة النوم.
- قالت ذلك ثم أدارت رأسها محاولة النوم، وعاد أبراهام لقراءة التناخ، إلا أن راحيل ما لبثت أن قامت كالمذعورة وهي تصرخ ثانية:
- وما هذا أيضاً؟
- هذه الخطبة التي تلي التكبير. ما بك انزعجت هكذا؟ إن هذا الصوت أخف بكثير.
- ولكنه مزعج أيضاً، وأنا أريد النوم.
- لا تقلقي؛ فقد قال أنه لن يستمر لأكثر من نصف ساعة.
- نصف ساعة!!! ما أعظم كرهى للعرب والمسلمين.
- ولماذا كل ذلك التحامل عليهم؟

(١) للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

- لماذا؟ لأنهم أعداؤنا. هذا هو لماذا.
- هدئي من روعك يا حبيبتي. إنهم يمارسون طقوساً دينية.
- بل طقوساً وثنية وهرطوقية. هل تعلم سبب ذلك العيد؟
- كلا، ما هو؟
- غيرة نبيهم من اليهود. فعندما جاء إلى يثرب رأهم يحتفلون به، فقال نحن أولى بإبراهيم منهم<sup>(١)</sup>.
- هل أنت متأكدة من ذلك؟
- طبعاً. بل إنه ادّعى أن الله أمر بذبح جدّهم "شماعيل"، وليس "يتسحاق" جدنا، ومن ثم افتداؤه.
- وهل تحرّيت عن ذلك فعلاً؟
- عن ماذا؟
- عن حقيقة هوية الذبيح.
- نظرت راحيل إلى أبراهام بذهول قائلة:
- هل جننت؟ وهل يشك عاقل في كونه يتسحاق.
- لا أدري، فقد سمعت عن الموضوع اليوم فقط، ولكنني أذكر من خلال قراءاتي السابقة في التوراة، أنه لطالما أثارت انتباهي دلائل كثيرة لم أفهمها حينها بشأن شماعيل وبكوريته.

(١) هذا ما سمعته من بعضهم، ولكن الرواية الحقيقية بعد أن تحققت منها هي أن اليهود كانوا يصومون يوم العاشر من شهر المحرم، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وجدّهم على ذلك، فقال: مَا هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ أَنْجَى اللَّهُ فِيهِ مُوسَى وَأَغْرَقَ فِيهِ فِرْعَوْنَ، فَصَامَهُ مُوسَى شُكْرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "نَحْنُ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ". فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ. (سنن ابن ماجه، بَاب صِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ). وأمره يقتضي الوجوب، فكان صيام عاشوراء واجباً حتى نسخ بنزول آية البقرة الموجبة لصيام شهر رمضان، فصار صيامه سنة ندى إليها رسول الله ﷺ أمته. وقبل موته بأيام قال عليه الصلاة والسلام: "لَنْ يَبْقِيَتْ إِلَيَّ قَابِلٌ لِأَصُومَنَّ التَّاسِعَ"، فلم يأت العام المقبل حتى توفي عليه الصلاة والسلام.

- يبدو أن أحمد قد أثر عليك فعلاً.

- وما علاقة أحمد بهذا الموضوع؟

تساءل أبراهام بضيق، فتابعت راحيل حديثها دون أن تكثرث لسؤاله:

- كما يبدو أن تقرير الموساد لم يكن بعيداً كثيراً عن الصحة عندما اتهمك

بالتعاطف مع الإسلام، لقد بدأت أصدق أنك كنت تستمع إلى القرآن فعلاً.

- نعم كنت أستمع إليه، ولكن فقط عندما أكون متضايقاً، فصوت الحزان في تلك

الأسطوانة المدمجة التي عند أحمد، كان صوتاً عذياً، ومريحاً جداً للأعصاب.

- وتدعوه بالحزان أيضاً؟ يا سلام. أرادت أمني من تعريفك بي، أن تخرجني مما

تظنه يهودية محرقة لأعود إلى ما تظنه يهودية أصيلة، فإذا بها تختار رجلاً يريد أن

يخرجني من اليهودية كلها ويرمي بي إلى الإسلام. تفووو.

بصقت بقرف، ثم وضعت الوسادة فوق رأسها كأنها لا تريد أن تسمع منه شيئاً

آخر.

- الطيبات للطيبين، والخبيثات للخبيثين.

ردد أبراهام في قلبه مسترجعاً تلك العبارة التي سمعها من أحمد، ثم نظر إلى

التناخ الذي بين يديه، وتهدد مفكراً؛ فحتى الآن تشير كل الأحداث إلى أن أحمد لم

يخطئ بأي مما افترضه أول البارحة. ولكن أمرين فقط كان يتمنى أن يكون قد أخطأ

بشأنهما، الأول أن راحيل ليست مناسبة له، وأنها فعلاً لا تستحق كل ذلك العناء.

والثاني هو أنه سيكتشف أخيراً أن الحقيقة التي يبحث عنها هي... الإسلام. هل يعقل

أن يكون أحمد محقاً في هذين الأمرين أيضاً؟! فما هو ذا قد بدأ يشك في صلاحية

راحيل كزوجة، ويخشى أن نظرته إلى الإسلام ربما قد بدأت تتغير كثيراً عنها في

الماضي. تهدد أبراهام مفكراً:



- ليته يكون مخطئاً في هذين الأمرين فقط؛ فأنا لا أريد أن أخسر راحيل، ولا أريد أن أصدق أن الرب قد نزع النبوة من بني إسرائيل وجعلها في أحد البدو. بالتأكيد لا يعقل هذا؛ فإنه إسرائيل لا يمكن أن يختار أحداً من شعب آخر غير "هاعام هانبحار"<sup>(١)</sup> ليعطيه عهده.

وبعد تفكير قصير قرر أبراهام أن يتجاهل ما قاله أحمد في هذين الأمرين تماماً، فهو لا يتصور مجرد التفكير بترك اليهودية أو حتى راحيل. لكنه ما لبث أن عاد يتفكر مجدداً: لقد تعرفت عن كذب كل الفرق اليهودية، ودرستها بترؤ، فوجدت أن دسائس الشيطان قد حرفتها كثيراً عن الحقيقة، بل قادتها إلى الكفر البواح في أغلب الأحيان، ولم يبق من إيمانهم بالرب إلا الادعاء الأجوف بذلك، وهم إلى الإلحاد أقرب، ولكنني لم أدرس طوائف المسيحية بعد! ف"يشوع" هو من شعب إسرائيل، وكون إله إسرائيل قد عمّم عهده ليشمل جميع الناس عن طريق أحد أبناء شعبه المختار، يبقى أمراً منطقياً، وليس مستبعداً أبداً. خاصة بعد فسوق بني إسرائيل والتفافهم على أوامره ونواهيهم، وإلحادهم ومؤامراتهم ودسائسهم. أجل، أظن أن هذا ما حدث فعلاً، فمجد الرب يجب أن يعم جميع الناس، خاصة بعد فساد شعبه المختار. ولأن يشوع ورسله كانوا من بني إسرائيل فهذا يعني أن الرب قد جعل عهداً جديداً لجميع الناس، ولكن من خلال الشعب المختار بالذات، فبشروا بالتناخ بين الأمم، ولكن بدون شروح الرابين التي تخرجه عن نهجه الظاهر. يجب أن أقرأ العهد الجديد كي أفهم الموضوع أكثر.

هل يعقل أن "المسيح" الذي ننتظره إلى الآن كان في واقع الأمر يشوع نفسه!... يسوع؟! ولم لا؟ فلو كان فعلاً مجرد أفاق منتحل للمسيحانية، وابن زنا، ويتعذب إلى الآن في جهنم ببركة من الغائط المغلي<sup>(٢)</sup>، فكيف أصبح أتباعه بهذه الكثرة والقوة والسؤدد، في حين انتهى ملكنا وتشردنا في كل بقاع الأرض تحت حكمهم طوال كل هذه

(١) هاعام هانبحار هو مصطلح عبري يعني "الشعب المختار".

(٢) هذا بعض ما جاء في التلمود عن رسول الله عيسى عليه السلام.

السنين؟ حتى دولة الصهاينة على أرض الميعاد، لم تكن لتقوم دون مساعدتهم، وليس لها أن تستمر دون دعمهم.

فإذا كان أتباعه من اليهود الذين آمنوا به ومن بقية المسيحيين من سائر الأمم، ليس لهم عهد جديد من الرب، فكيف استطاعوا التسلط على بقية اليهود (الذين كفروا بيسوع) كل هذا الزمن؟. فحتى أولئك الذين يتحكمون باقتصاد العالم من اليهود عن طريق الذهب والألماس والمصارف، أو يتحكمون بتوجيهه وعيه عن طريق الإعلام والفن والتعليم، أو حتى أولئك اليهود الذين يؤثرون في السياسة العالمية عن طريق مناصب بعضهم في حكومات العالم المسيحي ولوبياتهم، وعن طريق دولتهم التي فرضت نفسها في الشرق الأوسط، كل هؤلاء لا يعدون بالنهاية كونهم مجرد أفراد أو منظمات أو جمعيات سرية استغلوا الدول والشعوب المسيحية المسيطرة عليهم، عن طريق الكم الهائل من الحرية والديمقراطية والتسامح، الذي أنعموا به عليهم، مستفيدين، بالدرجة الأولى، من مواطنتهم في تلك الدول المسيحية المتقدمة وحقوقهم فيها: تلك الحقوق التي لا يتمتع، ولو بعشرها، مواطنو إسرائيل من غير اليهود، حسبما رأيت بأب عيني. ومع كل ذلك الاستغلال وكل تلك المكاسب التي حققها يهود العالم، فلا يمكن نفي حقيقة أن الشجرة تظل أرفع مقاماً من الطفيليات التي تتغذى عليها وأن الذين اتبعوا يسوع هم فوق الذين كفروا به إلى الآن<sup>(١)</sup>.

(١) صدق الله تعالى إذ يقول: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْفُاعِكْ إِلَيَّ وَمُطَهِّرْكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥]. أما من يعتبر أن الذين كفروا بسيدنا المسيح عليه السلام (أي اليهود) قد أصبحوا حالياً (في زمن "العلو الكبير") فوق الذين اتبعوه (أي المسيحيين بغض النظر عن صحة معتقدتهم وصدق التزامهم بتعاليمه عاينهم السلام) ففي قولهم وجهة نظر؛ فهم ينظرون إلى عبارة: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ باعتبار أن اليوم عند الله تعالى يساوي ألف سنة مما نعد، وأن فوقية المسيحيين على اليهود لها منتهى حدته هذه الآية بدء يوم القيامة الذي ربما قد بدأ فعلاً بالمقات السماوي والله أعلم. وعليه؛ فإن علوهم الكبير ووعد الآخرة في سورة الإسراء هما من علامات بدء يوم القيامة. وهذا التفسير قد يحتمل الصحة.

كما أن إسرائيل، وإن وصلت في منطقة الشرق الأوسط، التي تعد بحق قلب العالم، إلى مدى لا تستطيع أي من القوى المسيحية الكبرى أن تتجاهله أو تستغني عنه، فهي في النهاية صنيعتهم؛ مجرد مستسخ مشوه بشري الصنع عن الأصل الرباني الذي لم يحن موعده بعد، فنقلوا صهيونيتهم المسيحية<sup>(١)</sup> إلى بعض اليهود ليبتدعوا بواسطتها عقيدة يهودية جديدة، بعد أن استبطؤوا قضاء الرب، فرضوا في سبيل ملك زائل، بأن تصبح إسرائيل مجرد عميل مأجور يرتبط وجوده بالقيام بالأعمال القذرة التي تأنف تلك القوى المسيحية الكبرى من القيام بها. أو، وفي أحسن الأحوال، أن تصبح وكيلاً عسكرياً، يجيد استغلال قواعد اللعبة الدولية في تلك المنطقة الحساسة من العالم، فيعزف على أوتار طالما أطربتها، من عرقلة رجوع "الرجل المريض"<sup>(٢)</sup> وشفائه، إلى وقف المد الشيوعي، وأخيراً وليس آخراً، إلى مكافحة الإرهاب. ولكن الوتر الأكثر طرباً لتلك الدول وبالذات "البروتستانتية" منها، يبقى التحضير لعودة مسيحيهم. فرجوع اليهود إلى فلسطين وإقامتهم دولة هناك هو الشرط الرئيسي، حسب معتقداتهم، لرجوعه الثاني. ولكن ماذا لو كانوا محقين في ذلك؟ أيعقل أن يكون المشيخ الحقيقي قد جاء فعلاً، ولكن اليهود لم يعترفوا به، وخسروا فرصة الخلاص؟ وهل يعني هذا أن المسيحية هي اليهودية بعد ظهور المسيح أي مشيخ الرب؟ وأنها بذلك قد أصبحت دين الرب الحق؟! لماذا يجب علي أن أكابر وأحتمل كل هذا العذاب في سبيل حماية وتبرير دين أصبحت تراودني كل هذه الشكوك حول انتهاء صلاحيته؟ ولماذا لا أفكر جدياً في المسيحية؟

(١) كما بينا فقد ظهرت الأفكار الصهيونية الأولى إلى العلن بين المسيحيين البروتستانت قبل اليهود، فهم يؤمنون أن المسيح يجب أن يعود بين قومه، الذين يجب قبل ذلك أن يعودوا بدورهم إلى فلسطين ليشكلوا "أمة" حسب التعبير التوراتي. وللإحاطة ببعض جوانب الجدل عن كون منح الصهيونية مسيحياً أم إحياءً يهودياً. راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

(٢) يقصد بالرجل المريض الخلافة الإسلامية، وقد شاعت هذه التسمية في أواخر أيام الخلافة العثمانية.

- حبيبي. أين سرحت؟
- أحسّ أبراهام بيدي راحيل النديتين تغطيان عينيه بلطف، وبهمستها العطرة الشجية تنساب في أذنه برقةً. فأجابها قائلاً:
- كنت أقرأ في التوراة.
- ألا تزال غاضباً مني؟
- كلا، أنا فقط منشغل بالقراءة.
- هذا ليس صحيحاً، فأنت تتعمد تجاهلي، متظاهراً بالقراءة.
- لا، بتاتاً.
- إذا كنت منشغلاً بالقراءة فعلاً، فلم لم تقلب الصفحة منذ مدة طويلة.
- لماذا تظنين ذلك؟
- لأنك كنت تنتظر إلى هذه الصفحة عندما كلمتك أول مرة قبل أن أذهب للاستحمام، وها أنا ذا قد عدت لأجلك لا تزال تنتظر إلى الصفحة ذاتها.
- يبدو أنني كنت سارحاً فعلاً، ولكنني بالتأكيد لم أتعمد تجاهلك.
- إذن تعال معي إلى السرير.
- كلا. فأنا فعلاً أريد أن أقرأ التوراة.
- فقالت بغنج:
- فليكن، اقرأ علي إذن بعض أناشيدها الشهوانية أو قصصها الجنسية<sup>(١)</sup>.

(١) جاءت هذه العبارة في أحد الأفلام الأجنبية (وهو فيلم من إنتاج إيطالي أمريكي (أو بريطاني) مشترك، ومبني على أساس رواية "دكتور جاكيل ومستر هايد" (التي تظهر النزعة الكالفينية في الصراع بين جانبي الخير والشر في نفس الإنسان)، ولكنني للأسف لا أذكر اسمه تحديداً) على لسان بطة الفيلم بعد أن لجأ البطل إلى قراءة الكتاب المقدس ليثنيها عن محاولتها الأثمة. وبعد أن سمع جوابها، أسقط في يده، فترك الكتاب المقدس ليبحث عن طريقة أجدى في مقاومة إغرائها!!! وقد شاهدت ذلك الفيلم عندما كنت صغيراً، ومع أنني قد نسيت جميع أحداثه، إلا أنني لا أزال أذكر اللقطة التي جاءت فيها عبارة البطة وردة فعل البطل عليها كما لو أنني شاهدتها بالأمس، فقد صدمت آنذاك بالكيفية التي تحدثوا بها عن كتابهم "المقدس"!

سرح أبراهام في قولها وهو يتساءل كيف يمكن أن يوجد مكان في التوراة لقصص الجنس والزناة ونكاح المحارم والأناشيد المأجنة<sup>(١)</sup> والحكايات والأحداث السياسية والحروب المحلية وأسماء ملوك وأشخاص غابرين ليس لهم أي أهمية تاريخية، في الوقت الذي لا يوجد فيه مكان لكثير من العقائد التي لا بد أن نحصل عليها من تعاليم كبار الرابينين؟ فهل التوراة الحالية هي مجرد تراث فلكلوري فعلاً؟!!!

ولكن راحيل قطعت سلسلة أفكاره مجدداً وهي تدير كرسيه من جهة الشرفة إلى جهتها في الغرفة، دون أن ترفع يديها عن عينيه، فقال لها بفتور:

- دعيني أرجوك.

(١) من الأمثلة على تلك الأناشيد الشهوانية في العهد القديم: إنشاد (٧: ١-٤) الذي يقول: "ما أجمل رجليك بالنعلين يا بنت الكريم! دوائر فخذيك مثل الحلبي صنعة يدي صناع. سرتك كأس مدورة لا يعوزها شراب ممزوج. بطنك صبرة حنطة مسيجة بالسوسن. ثدياك كخشفتين توءمي ظبية". أما القصص الجنسية عن الزناة والعاشرات وزنا المحارم والعري فهي بتفاصيل أكثر مجنوناً مثل: حزقيال (٢٣: ١٩)، حزقيال (١٦: ٣٥)، هوشع (١: ٢)، صموئيل الثاني (١٢: ١١)، إشعيا (٢٠: ٢)، إشعيا (٣: ١٦)، القضاة (١٦: ١)، راعوث (٣: ٤)، الملوك الأول (١: ١، ٣)، التكوين (٣٨: ١٣)، حزقيال (٢٣: ١). ويقول "ول ديورانت" في كتابه المشهور "قصة الحضارة": "مهما يكن من أمر هذه "الكتابات الغرامية" فإن وجودها في العهد القديم سر خفي . . . . . ولسنا ندري كيف غفل أو تغافل رجال الدين عما في هذه الأغاني من عواطف شهوانية، وأجازوا وضعها في الكتاب المقدس". (٣/ ٣٨٨).

ويجدد التنبيه هنا إلى أن علماء الكتاب المقدس أنفسهم لا يؤكدون أن تلك الأسفار التي استشهدنا بها، أو على الأقل كل ما فيها، هي من كتابة الأنبياء الذين وضع اسمهم عليها. ففي كتاب revised standard version النسخة المنقحة للكتاب المقدس ١٩/ ٧١ ص ١٢ وما بعدها جاء عن التكوين (الكاتب غير معروف، ولكن عامة ينسب إلى موسى)، هوشع (جزء منه ينسب إليه والباقي كاتبه غير معروف)، القضاة (الكاتب غير معروف، احتمال أن يكون صموئيل)، راعوث (الكاتب غير معروف، احتمال أن يكون صموئيل)، صموئيل الأول والثاني (الكاتب غير معروف)، أخبار الأيام الأول والثاني (الكاتب غير معروف، احتمال أن يكون قد تم تجميعه وترتيبه بواسطة عزرا)، مزامير داوود (يعتقد أن داوود كتب أغلبها ولكن هناك كتبة آخرون غير معروفين)، سفر الجامعة (الكاتب مشكوك فيه، ولكن السفر ينسب عادة إلى سليمان)، الملوك الأول والثاني (الكاتب غير معروف، احتمال أن يكون صموئيل)، إشعيا (جزء كبير مكتوب بواسطته ولكن هناك جزء منه كاتبه غير معروف).

- كنت أود الاعتذار عن فظاظتي، صدقني لم أقصد أي سوء. ولكنني فزعت من نومي، وأنا أكره ذلك كثيراً.  
 - لا عليك يا حبيبتني.  
 - بل عليّ. عليّ أن أكفر عن سوء أدبي معك بشكل يرضيك عني، ويمحو أي أثر له في نفسك.

قالت هذا وهي ترفع يديها عن عينيها، وتدير كرسيه من جهة الشرفة، إلى جهتها في الغرفة. ثم أخذت تجفف بقايا الماء الذي كان لا يزال يقطر من شعرها ويندي كل جسدها، وهي تتعمد أن تكشف في كل حركة عن شيء من مفاتها، قبل أن تسقط المنشفة دفعة واحدة، وتندس في حضنه بحياء مصطنع، كأنها تتقي سهام نظراته التي انتبهت إليها للتو فقط، إلا أن الحياء ما لبث أن فارقها مجدداً، وهي تمطره بقبالاتها اللاهبة، التي غمرته من رأسه حتى أخمص قدميه.

- أنا واثق الآن تمام الثقة من خطأ أحمد بالنسبة إلى الأمر الأول، وأكاد أجزم بخطئه بالنسبة إلى الأمر الثاني أيضاً.

قال أبراهام في نفسه بسعادة بالغة، وهو يستمتع باعتذار محبوبته، التي لم يكن يتصور ولا بأكثر تخيلاته جموحاً، أن تكون بمثل هذه الفتنة التي لم ير لها مثيلاً في حياته.

## ◀ ياباني عبري

فكر أبراهام أن يستغل فعلاً وجود السيد ميازاكي إلى جواره، ليبدأ معه تعرّف المسيحية، لا سيما أن طائفته تستند إلى الأصول اليهودية كما يبدو. لذا جلس يحتسي قهوته في الصالون، بناء على نصيحة مدام فيومي، منتظراً خروجه من غرفته. وعندما خرج قامت مدام فيومي بتعريفه على أنه باحث يهودي يؤلف كتاباً عن مقارنة الأديان. وقد بدا على ميازاكي السرور الشديد لمقابلة يهودي آخر في مصر، وأبدى استعداداه التام للرد على جميع استفساراته. بعد عبارات المجاملة المعهودة، افتتح أبراهام الحوار مستفسراً:

- ما معنى كلمة ماكويآ؟

- إنها ترجمة يابانية للكلمة العبرية "مسكن"<sup>(١)</sup> التي يقصد بها هنا المعنى الديني-التاريخي: وهو "الخيمة المقدسة"<sup>(٢)</sup>، وهي تسمى أيضاً "أهل موعد" بالعبرية وقد كان يوضع فيها تابوت الرب طبقاً لما جاء في التوراة المقدسة.

- ومتى ظهرت فرقتكم؟

- في منتصف القرن الماضي<sup>(٣)</sup> حيث أنشأها تاجر ياباني اسمه "أبراهام"<sup>(٤)</sup> وقد كان مسيحياً متديناً انضم إلى حركة مسيحية جديدة تسمى "بدون كنيسة"، كان قد أنشأها "كانزو أوشيمورا" في بداية القرن العشرين، وكانت تدعو إلى مسيحية

(١) "المسكن" باللغة العربية.

(٢) خيمة الاجتماع.

(٣) تحديداً سنة ١٩٤٨م بالتزامن مع قيام الكيان الصهيوني.

(٤) كان اسمه قبل ذلك "إيكورو تشيما"، ولكنه اتخذ ذلك الاسم العبراني كعادتهم، وقد توفي سنة

ليس للكنائس أو القسيسين دور فيها، وأصبح من الداعين إليها، والنشيطين فيها. وقد تأثر أبراهام كثيراً بكانزو، الذي درس في الولايات المتحدة الأمريكية، وتأثر فيها بالفكر المسيحي الصهيوني، وكتب عنه في بعض كتبه التي يصل عددها إلى الثلاثين، وأحد هذه الكتب كتاب عن نبوءات الكتاب المقدس، وإنشاء دولة لليهود في فلسطين. كما أشاد بـ"هرتزل" وبالحركة الصهيونية التي أنشأها، وامتح وعده بلفور واعتبره تمهيداً لظهور دولة المسيح. كما كان يؤكد دائماً على أن الرب إلى جانب اليهود.

- وكيف بدأ أبراهام<sup>(١)</sup> دعوته؟

- عندما كان معتكفاً في أحد الكهوف ليختفي عن الأنظار بعد قرار ظالم بالقبض عليه، سمع صوت الرب يأمره بالرجوع إلى تعاليم الكتاب المقدس الصحيحة، وإلى الأصل العبري للمسيحية. وأنشأ حلقة لدراسة الكتاب المقدس تطورت فيما بعد إلى "حركة الإنجيل الأصلي"، ثم أطلق عليها الاسم الحالي مكوبا.

- ما الذي تعنون بالعودة إلى الأصل العبري للمسيحية؟

تتهد ميازاكي قائلاً:

- نحن لا نضفي قدسية على الأمور المبتدعة في المسيحية الحالية مما يسمونها "تعاليم الآباء"<sup>(٢)</sup>، مثل الصليب والسيدة مريم والقديسين، ونعطي للتوراة أهمية كبيرة. نحن نقدر "رب إسرائيل" فحسب، ونتقرب إلى اليهود ونعمل معهم. وقد قال أبراهام في مقدمة أحد كتبه الذي يضم مواعظه: "إذا أردنا أن نرجع إلى المسيحية الحقيقية، فإنه من الضروري لنا أن نعطي احتراماً مناسباً لليهود"، وقال: "من أجل فهم حقيقي للكتاب المقدس لابد من فهم أعمق للعقيدة اليهودية والتاريخ اليهودي". ونحن نستعمل

(١) يقصد إيكورو تشيما.

(٢) التقليد. لمزيد من المعلومات راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.



"الشمعدان" اليهودي<sup>(١)</sup> كرمز لنا، ونضعه في مكان بارز في أثناء أداء طقوسنا بدلاً من الصليب، ونحتفل بـ"سمحت مكويا".

- وبم تختلف سمحت مكويا عن "سمحت تورا"<sup>(٢)</sup> عندنا؟

- لاشيء، فقط التسمية. ونحن نعتبر يوم السبت يوم راحة، ونشعل الشموع في ليلته كما تفعلون أنتم تماماً. كما أننا نستعمل كتاب الصلاة اليهودي في صلواتنا، ونطبق الكشروت ونتعلم العبرية. ولنا الشرف بأن قمنا بتأليف أول قاموس عبري/ياباني. كما أننا نتخذ أسماء عبرية إضافة إلى أسمائنا الأصلية، وأنا مثلاً اسمي العبري هو "إيهود".

- تشرفنا سيد إيهود.

- الشرف لي أنا سيد أبراهام. كما أننا نهتم كثيراً بالأغاني الشعبية الإسرائيلية، ونغنيها دائماً، لاسيما أغنية "أورشليم الذهبية" التي ترتبط مناسبتها باستعادة أورشليم.

- وهل زار أبراهام إسرائيل؟

- طبعاً. وقد كانت أول مرة في عام ١٩٦١، وفي السنة التي تلتها أخذ مجموعة من أتباعه وسكن إحدى المستوطنات لفترة. ومنذ ذلك الوقت تكررت زيارات الفرقة إلى إسرائيل، وفي كل سنة يذهب المئات منا. وقد كنت هناك العام الماضي ولكنني سافرت للأسف ضمن جولة سياحية اعتيادية، لذا فإن الأمر لم يعجبني بتاتاً، بل تقدمت أشد الندم.

- لماذا؟

انتظرني قليلاً، وسوف آتيك بجدول تلك الجولة السياحية وأنت ستعرف بنفسك

لماذا.

(١) شعار ديني يهودي، أصبح أيضاً شعاراً وطنياً للكيان الصهيوني.

(٢) سماحة أو سعادة التوراة.

ثم ذهب ميازاكي إلى غرفته سريعاً، ليجلب الجدول، في حين جلس أبراهام منبهراً، يحاول استيعاب ما سمعه قبل قليل، لكن يهود، لم يمنحه وقتاً كافياً لهضم تلك المعلومات الجديدة، فعاد بأسرع مما توقع، وناوله ورقة ذات طباعة فاخرة فقرأها أبراهام بتمعن<sup>(١)</sup>، ثم أعادها إليه قائلاً:

(١) رأيت أن أضع صورة عن أحد البرامج التدريبية الصيفية في الكيان الصهيوني لإلقاء نظرة على أحد جوانب الجهود الدعائية الصهيونية مع السواح:

الثلاثاء ١٧ آب/ أغسطس: السفر من اليابان إلى إسرائيل عبر أوروبا (أوساكا ٣٠، ١٠ - أمستردام ١٥، ١٥) (أمستردام ١٩، ٥٠ - تل أبيب ١، ٢٠)

الوصول يوم ١٨ آب/ أغسطس الأربعاء إلى مطار بن جوريون في الصباح الباكر، الانتقال بسيارة ركاب صغيرة إلى فندق ماونت زيون في أورشليم، راحة ساعات قليلة، ٩، ٠٠ جولة سياحية يقودها مرشد سياحي إلى الأماكن المقدسة الكبرى المسيحية والإسلامية واليهودية بالقدس الشرقية: نظرة من فوق جبل الزيتون، الحرم الشريف بما في ذلك المسجد الأقصى وقبة الصخرة، عمليات حفر الحائط الغربي والجنوبي، محاكاة الكمبيوتر للهيكل الثاني بمركز بن ديفيد. تناول الغداء في المربع اليهودي، بعد الظهر التحرك إلى طريق الحزن، وزيارة كنيسة سيبلشر المقدسة التي تخلد ذكرى صلب المسيح وقيامته، وإذا سمح الوقت زيارة نموذج القدس في الهيكل الثاني بفندق الأرض المقدسة. (القدس الغربية): (مرشد سياحي لهذا اليوم ويومي ٢١، ٢٤ آب/ أغسطس (هالفوررونج بوشنان رونن)، تناول العشاء بالقرب من الفندق.

الخميس ١٩ آب/ أغسطس: يوم دراسي بمعهد شيشتر للدراسات اليهودية (التابع لمعهد اللاهوت اليهودي الأمريكي) (المدرسة الرئيسية لحركة المحافظين) المضيف: الحاخام الدكتور هارفي ميروفش عميد المدرسة التوراتية. المنظم: الحاخام الدكتور أنيات رامون، الموضوع: الزعامة الدينية في العالم الحديث من ٨، ٣٠ إلى ١٧، ٠٠. سيتم عقد ثلاث جلسات، وستخصص كل منها لواحدة من الديانات الثلاث، وستشمل كل جلسة على محاضرة، وقراءة للنصوص الأصلية ثم مناقشة. ويتولى الحاخام الدكتور ألكس إيفن شن (عميد مدرسة دراسات التخرج بمعهد شيشتر) رئاسة الجلسة الخاصة باليهودية، التي ستكون تحت عنوان " مفهوم الرسول عند أبراهام جوشاهيشل وما ينطوي عليه من مضامين لدى الفهم الحديث للقيادة/ الزعامة ". ثم بعد ذلك راحة لتناول مشروب. ويتولى الأستاذ الدكتور كوهارا من جامعة دوشيشا رئاسة الجلسة الخاصة بالمسيحية التي ستكون تحت عنوان " أوشيمورا كانزو " والزعامة في يابان اليوم. ثم بعد ذلك راحة لتناول الغداء، ويتولى الأستاذ محمد أبو سمرة من جامعة تل أبيب رئاسة الجلسة الخاصة بالإسلام، وستكون بعنوان " ردود إسلامية راشدة للقراءات النقدية للقرآن ". ثم بعد ذلك راحة لتناول مشروب، ثم إنهاء مناقشة اليوم ٣، ١٧. زيارة لضريح الكتاب بالمتحف الإسرائيلي حيث تحفظ لفائف =

=البحر الميت وغيرها من الوثائق التوراتية، ويقود الجولة أمين المكتبة الدكتور أدولفورثمان. ثم العشاء. الجمعة ٢٠ آب/أغسطس: ٨،٠٠ زيارة للجدار الفاصل الذي أقامته إسرائيل بالمنطقة المتاخمة للقدس، وسيكون مرشد الجولة هو ممثل حاخامات حقوق الإنسان، وهي منظمة تتدخل نيابة عن الفلسطينيين لحماية حقوقهم الإنسانية. بعد ذلك زيارة منطقة غرب القدس حيث يعيش اليهود والمسيحيون والمسلمون جنباً إلى جنب، بما في ذلك: يادهشومونا، القرية التي أنشأها مسيحيون من فنلندا حيث يعيش أيضاً اليهود المسيحيون أبوغوش، وهي قرية مسلمة بها كنائس مسيحية، ومقابلة راهب بندكتي وسيدة عربية مسلمة ستقوم بتحضير غداء عربي أصلي. زيارة عين كريم- قرية تاريخية بها كنائس وأديرة بما فيها كنيسة زيارة العذراء. ولو سمح الوقت فستقوم بزيارة لبيت مترجمي الكتاب المقدس. الذهاب إلى الكنيست (المجمع) أو المعبد اليهودي المحافظ في أورشليم الساعة ٣٠، ١٧، والمشاركة مع أناس من معهد شريشر في صلاة عشية السبت. بعد ذلك: عشاء السبت في منازل أعضاء الجالية المحافظة بما في ذلك نورت نويست ممن حضروا مؤتمر (مركز الدراسات المتعددة المواضيع للأديان التوحيدية) في شباط/فبراير.

السبت ٢١ آب/أغسطس: رحلة إلى البحر الميت حيث الاتجاه إلى أسفل إلى جيركو وزيارة نموذج كامل طبق الأصل لخيمة القفر بجانب كيبوتز كاليا، بالقرب من البحر الميت. ثم الغوص في البحر الميت عند شواطئه العامة ومن ثم الذهاب بالسيارة إلى كمران لمشاهدة عرض افتتاحي بالفيديو ومشاهدة المتحف، ثم زيارة أطلال مستعمرة البحر الميت ثم تناول الغداء في كافيتريا قمران حيث يخدم كل نزير نفسه بنفسه. العودة إلى القدس لزيارة متحف إسرائيل بقسميه الأثري واليهودي.

لأحد ٢٢ آب/أغسطس: حلقة دراسية بالجامعة العبرية بالقدس ينظمها الأستاذ الدكتور يوفمن إيمتاي، مدير معهد الدراسات الآسيوية الإفريقية. محاضرات من الساعة ٩،٠٠ إلى ١٢،٣٠ بما في ذلك راحة لتناول مشروب وتناول الغداء وجولة بمبنى المعهد. محاضرات من الساعة ١٤،٠٠ إلى الساعة ١٦،٠٠ راحة لتناول مشروب مع أعضاء أقسام الدراسات الآسيوية الشرقية (بمن فيهم الأستاذ الدكتور بن أمي شيلوني، السيدة ماريكومتسوجيتا)، ودراسات الكتاب المقدس. ١٨،٠٠ الذهاب بالسيارة إلى البلدة القديمة في حيفا بالقرب من تل أبيب، عشاء بفندق دان، جولة قصيرة في تل أبيب قبل العودة إلى القدس.

لاثنين ٢٣ آب/أغسطس: مغادرة القدس في الصباح ثم الذهاب إلى زيشرون ياكوف وقضاء يوم دراسي ينظمه قسم التاريخ والفلسفة ودراسات اليهودية بالجامعة المفتوحة. ويعقد اليوم الدراسي في بيت دانييل، وهو بيت ضيافة الجامعة المفتوحة، بعنوان: "الدين والهوية وصراعات العقائد المشتركة" المضيفون: الأستاذ الدكتور أوراليمور رئيس هيئة البحث، والدكتور رام بن شالوم رئيس القسم. المنظم: الدكتور أفريل بارليفاف.

ستقبال وجلسة الصباح ١٠،٣٠. تقديم المشاركين، التعريف بالجامعة المفتوحة بإسرائيل، التعريف بجامعة دوشيشا، كلمات مختصرة يلقيها الأساتذة (٢٠ دقيقة لكل واحد منهم يتبعها مناقشة لمدة ١٠ دقائق) الدكتور ريفكانير: أصول أدب سفر الرؤيا: اليهودية أو المسيحية ١١،٠٠. الأستاذ الدكتور أوراليمور =:

- عفواً، ولكنني لم ألاحظ ما العيب فيها!  
 - ماذا!!! إنكم تفرطون بحقكم، وتعطون أهمية للمسلمين، ولحقوق الفلسطينيين.  
 - آه. تعني ذلك. نعم أنت محق، ولكنك تعرف السياسة!  
 رد أبراهام باقتضاب، كي لا يدخل معه بمناقشات جانبية تخرجه عن موضوعه الأصلي، ثم أردف قائلاً:

- وكيف يكون برنامجكم في إسرائيل ضمن الفرقة؟  
 - إن الفرقة ترسل وفداً كبيراً كل سنة بمناسبة الاحتفال بإنشاء إسرائيل، وهناك نلبس ملابس باللون الأبيض والأزرق<sup>(١)</sup>، ونرسم عليها نجمة داوود أو الشمعدان، أو كليهما معاً، ونطوف شوارع القدس حاملين العلم الياباني، ونغني أغاني عبرية، وقد

=الأماكن المقدسة المشتركة بين الديانات الثلاث ١١،٣٠. الدكتور رام بن شالوم: تاريخ الشهداء اليهود في إسبانيا ١٢،٠٠. الدكتور أفريل بارليفاف: الشعائر اليهودية في إطار اجتماعي ١٢،٣٠. الغداء ١٣،٠٠. جلسة بعد الظهر ١٤،٣٠، الدكتور دفنا ايفرات: نشر الطرق الصوفية في مجتمعات العصور الوسطى الإسلامية - المحتوى والممارسة. الأستاذ الدكتور ميورا: الرياضيات في العصور الوسطى للإسلام ١٥،٠٠. الأستاذ الدكتور هنري ويزرمان: الدين والقومية أو ابتداء تقاليد ١٥،٣٠. الدكتور أيفا هالاماش: القدس والديانات الثلاث، ثم راحة لتناول مشروب ١٦،٠٠. جولة زخرون ياكوف ١٧،٠٠. العشاء ١٨،٣٠. عزف موسيقى وأمسية اجتماعية ٢٠،٠٠. ليلة في بيت دانيال.

الثلاثاء ٢٤ آب/أغسطس: (الصباح الباكر) الذهاب إلى حيفا وجبل كارمل لمشاهدة المناظر الطبيعية، الذهاب إلى نازاريت في زيارة لمدة ساعتين إضافيتين لمشاهدة نموذج طبق الأصل من مزرعة عمرها ٢٠٠٠ سنة حيث حقول الحبوب والكرم ودرس الدقيق ومعاصر الخمر ومعاصر الزيتون وورشة نجارة ومركز غزل وحظيرة حيوانات ودور سكن ومعبود يهودي حيث يوجد ممثلون حقيقيون يرتدون ملابس حاخامات، يقومون ببعض الأنشطة تبعاً لموسمها. الغداء بمطعم سانت بيتر بجوار بحر الجليل. زيارة أطلال مكان إقامة السيد المسيح حيث معظم كهنته العام. رؤية المعبد القديم، مرافق الدراسة وأول كنيسة بيزنطية والعودة عبر سهول أرمجدون ثم مرتفعات الكرميل عبر طريق مجدو وسهول شارون. العشاء في الطريق. الوصول إلى فندق أفيبا بالقرب من المطار لراحة قصيرة.

الأربعاء ٢٥ آب/أغسطس: المغادرة إلى المطار (تل أبيب ٥،٣٠ - أمستردام ٩،٣٥ KLM ٤٦٢)، (أمستردام ١٤،٢٥ - أوساكا ٨،٣٥) ٢٦ آب/أغسطس KLM ٨٦٧.

(١) الأبيض والأزرق هما لونا علم الكيان الصهيوني.

أصبحنا معروفين جيداً للكثيرين هناك. وكثير منا عاش لفترة طويلة في المستعمرات الإسرائيلية لتعلم التقاليد اليهودية، واللغة العبرية، وفنون الزراعة. وقد ألف بعض أعضاء الفرقة كتباً عن هذه المستوطنات، أشهرها كتاب "شالوم إسرائيل"، ألفته واحدة منا سنة ١٩٦٥ وأصبح في حينه من أكثر الكتب مبيعاً في إسرائيل. كذلك شجعنا اليابانيين على تبني فكرة المستوطنات، حيث أنشأنا مستوطنة في "أكان" على النموذج الإسرائيلي. كما أسسنا جمعية باسم "جمعية الكبوتسيم"<sup>(١)</sup> ينتمي إليها الآلاف من الأعضاء. ونحن نتبرع لإسرائيل بسخاء، وقد تبنينا بعض المستوطنات الإسرائيلية أيضاً<sup>(٢)</sup>.

- سمعت أن لكم أصولاً عبرية. هل هذا صحيح؟

- بالتأكيد. وقد قابل مؤسس فرقتنا في إحدى زيارته إلى إسرائيل رئيس دولتها آنذاك "زمان شازار" وعرض عليه أفكاره حول العلاقة المفترضة بين بني إسرائيل القدماء، واليابانيين ونسبتهم إليهم. وقد وضع أفكاره هذه في كتاب بعنوان "شتات اليهود القديم أو قبيلة الهاتا".

- ألك أن توضح لي ذلك من فضلك؟

- إن قبيلة "الهاتا" أو "الهادا" اليابانية هي نفسها قبيلة يهودا، هاجرت جماعة منها في القرن الثالث الميلادي إلى اليابان واستقرت فيها، وبقيت متميزة حتى القرن الثاني عشر، حيث اندمجت ببقية الشعب الياباني. وهذه القبيلة قد أثرت في تراث اليابان وثقافته كثيراً، حتى اللغة لم تسلم من ذلك. ونحن لا نتزوج من خارج فرقتنا للمحافظة على أصولنا اليهودية المقدسة.

- وهذا رأي المكوي فقط، أم أن هناك من يشارككم فيه؟

(١) جمع كيبوتس بالعبرية.

(٢) كثير من الجماعات المسيحية الصهيونية الأخرى تفعل ذلك أيضاً، وعادة ما يكون تمويلهم سخياً.

- هناك باحثون يابانيون معروفون<sup>(١)</sup> يرون هذا الرأي أيضاً، وكتبوا حوله دراسات وكتباً كثيرة. ومن هؤلاء "كانزو أوشيمورا" نفسه، و"نيكادا جوجي"<sup>(٢)</sup> و"أوبيي زنكيرو"<sup>(٣)</sup> وكان قد نشر كتاباً عام ١٩٢٩ حول علاقة اليابانيين بـ"أسباب إسرائيل الضائعة"، محاولاً إثبات أنهم من قبيلة "غاد" و"منسه"، وكذلك "يانيبارا تادوا"<sup>(٤)</sup>؛ وهو أيضاً من المسيحيين الصهيونيين الذين أشادوا بالحركة الصهيونية، وكتبوا عنها، واعتبروا مشروعها مشروعاً دينياً. ومنهم "سيكي يشيرو" وهو خريج جامعة أكسفورد، وقد نشر بحثاً عن هذا الموضوع عام ١٩٠٨م، ذكر فيه أن بعض قبائل بني إسرائيل قد دخلت اليابان في القرن الخامس الميلادي<sup>(٥)</sup>، وكانت مجلة يابانية شهرية قد نشرت تقريراً من تسعين صفحة عام ١٩٨٧م مدعوماً بصور لما يفترض أنه مستوطنات لبعض قبائل بني إسرائيل في اليابان، وأشهر من يبحث ويؤلف في هذا الموضوع من اليابانيين اليوم هو "أريماسا كوبو"، وقد أنشأ القسيس "أقويشي ياتاكاو" جمعية عام ١٩٩٠ تهتم بهذا الموضوع وتنتشر دراسات عنه.

- وما هي وجهة نظر الإسرائيليين في ذلك؟

- إن هذه الأفكار تلقى تشجيعاً كبيراً من إسرائيل ومن اليهود كافة. فقد أُلِّفَتْ كتبٌ، وأنشئت مؤسسات للبحث عما يسمى بالقبائل العشر الضائعة. وكان أحدث

(١) أغلبهم مسيحيون صهاينة.

(٢) كان قسيساً من المسيحيين الصهيونيين معتقداً بالأصل اليهودي لليابانيين، وكان من الذين أيدوا المشروع الصهيوني. كما أن أتباعه ساعدوا اللاجئ اليهود الذين لجؤوا إلى اليابان في أثناء الحرب العالمية الثانية.

(٣) وهو أيضاً من خريجي جامعات الولايات المتحدة الأمريكية.

(٤) رئيس جامعة طوكيو الأسبق، وقد كان من تلاميذ كانزو.

(٥) يعتقد أنه أول من قال من الباحثين اليابانيين بهذه الفكرة، وأن الذين جاؤوا من بعده من اليابانيين إنما كانوا قد تأثروا به، وربما يكون هؤلاء الباحثون قد تأثروا أيضاً بأراء المبرر الأسكتلندي "نورمان ماكلويد" الذي زار بلادهم وكتب كتاباً عن تاريخ اليابان نشره عام ١٨٧٥م واستدل فيه على العلاقة بين بني إسرائيل القدماء واليابانيين.

هذه الكتب كتاب ألفه "جوزيف أيدلبرغ" بعنوان "الأصول التوراتية العبرية لليابانيين"، وترجمه إلى اليابانية "أريماسا كوبو" (١).

- ولكن، هل يحق لكم الحصول على الجنسية الإسرائيلية بناء على كل هذا؟  
- إن المؤسسات الإسرائيلية تشجع ذلك طبقاً لـ "قانون العودة" الإسرائيلي، إلا أن تلك المؤسسات، ومع أن مساعداتها لها دون قيد أو شرط، تفرض التحول إلى اليهودية كشرط أساسي، ومن ثم رفض يسوع، وهو ما لا نقبله طبعاً.

- وما هي طبيعة مساعداتكم لإسرائيل؟  
فأجاب ميازاكي بفخر:

- قبيل حرب عام ١٩٦٧ أنشأنا "لجنة الطوارئ اليابانية لمساعدة إسرائيل"، وفي أثناء الحرب أرسلنا مساعدات مادية سخية لإسرائيل، بل ذهب زعيمنا مع مجموعة من أتباعه للدفاع عنها، حيث أصيب أحدهم.

- إلى هذه الدرجة!!!

- وأكثر: فبعد الحرب مباشرة دخل إيكورو تشيما أورشليم بعد توحيدها (٢)، وذهب إلى "حائط المبكى" وقدم صلاة شكر قال فيها: "إن هذا اليوم هو أعظم يوم في حياتي". كما طاف مجموعة من أتباعه شوارع أورشليم وهم يحملون لافتة كتب عليها: "نهنتكم على أورشليم الكبرى". وقد دعت الفرقة الجنرال "عوزي نركس" مرتين إلى اليابان.

- أليس هذا الجنرال هو الذي قاد أول وحدة عسكرية دخلت أورشليم، وأكملت

توحيدها؟

(١) إن البحث عن تلك القبائل المقترضة، يشمل كل القارات دون استثناء، ويشكل أحد الأساطير المهمة في الكيان.

(٢) أي بعد احتلال القدس الشرقية.

- أجل، ونحن نسميه "محرر أورشليم": فقلوبنا قد خفقت فرحاً لتوحيدها. ولا حدود لهذا الفرح، وقد نظمنا مظاهرات أمام مقر الأمم المتحدة في نيويورك في عام ١٩٦٨ وكذلك في عام ١٩٧١ تأييداً لإسرائيل. وبعد هجوم بعض أعضاء منظمة الجيش الأحمر الياباني<sup>(١)</sup> على مطار بن غوريون عام ١٩٧٢، هرع رئيس الفرقة على رأس وفد إلى إسرائيل ليقدم اعتذاره وتعازيه، ويعبر لحكومتها عن غضبه ورفضه لما حدث، كما تبرع بمبلغ معتبر من المال لضحايا الهجوم، وأنشأ منحة للطلاب الإسرائيليين للدراسة في اليابان. وفي السنة نفسها التي توفي فيها قاد مظاهرة من عدة آلاف طافت شوارع طوكيو تأييداً لسياسة إسرائيل في حربها عام ٧٣ مع العرب، وكانت هذه أول مظاهرة تخرج في اليابان تأييداً لإسرائيل. كما أن إيكورو تشيما أرسل ابنه للدراسة في أحد المعاهد اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد كتبت إسرائيل اسم مؤسس الفرقة في الكتاب الذهبي للصندوق القومي اليهودي مرتين تخليداً لذكوره، وتقديراً لخدماته الجليلة، ومساعداته القيمة.

- وهل يزوركم الإسرائيليون في اليابان؟

- بالطبع. وقد أنشأنا لذلك بيوت ضيافة قرب كنائسنا أطلقنا عليها اسم "بيت شالوم" يسكن فيها الزائرون خاصة من إسرائيل لفترة معينة دون مقابل، حتى صار يعرفنا الإسرائيليون بجماعة "بيت شالوم" بسبب ذلك. وعندما كانت إسرائيل والمنظمات اليهودية تطالب الاتحاد السوفييتي السابق بالسماح لليهود بالهجرة منه، كان المصلون في كنائسنا المطلة على البحر، والمواجهة لروسيا يقيمون صلاة خاصة ويتوجهون صوب روسيا يدعون لليهود بأن يسمح لهم بالمغادرة.

(١) منظمة شيوعية عسكرية تتعاطف مع نضال الشعب الفلسطيني، وبالذات مع حركاته اليسارية.



- كم عددكم؟
- أكثر من سبعين ألفاً.
- وهل لكم وجود خارج اليابان؟
- أجل، في كوريا الجنوبية، وتايوان، وهاواي، وكاليفورنيا. ويقدر عدد فروعنا بأكثر من مئة فرع.

## الآخوة الكذبة

كانت راحيل تصر دائماً على أن نشاط الموساد خارج إسرائيل، لا يتعدى جمع المعلومات وتجنيد العملاء، وأن نفوذهم لا يصل إلى درجة تصفية حسابات شخصية في دولة أخرى، دون أن ينجم عن ذلك عواقب لا يستطيع لا مردخاي ولا غيره أن يسيطر عليها بسهولة، وإذ إنه لم يفعل شيئاً إلى الآن، فالأرجح أنه لن يفعل شيئاً أبداً. كما كانت تردد دائماً أن توقعات أحمد لا تخرج عن كونها محض خيال جامع. وحتى إن أوحث الظروف بصدق بعضها، فإن ذلك لا يعني بالضرورة حتمية تحقق الباقي. ومع مضي الوقت دون أن يعكر شيئاً ما صفو حياتهما، صار أبراهام يميل إلى رأي راحيل، وبدأ يشعر ببعض الطمأنينة والأمان، خاصة مع وجود السيدة فيومي التي أصبح يثق بها، ويستأنمها على خطيبته صباحاً حين تكون لا تزال نائمة. فقد صارت راحيل تسهر طويلاً على التلفاز، وألعاب الـ"ويي Wii" التي اشتراها لها مؤخراً. في البداية كان يذهب إلى مقهى الإنترنت، لجمع المعلومات عن المسيحية، ثم صار يذهب لأبعد من ذلك المقهى المجاور، ويزور الكنائس ليتعرف عن قرب الطوائف المسيحية وحقيقة معتقداتها.

وفي إحدى المرات، وبينما كان يستفسر بالإنجليزية من أحد القساوسة الإنجلييين عن كيفية تقبل مختلف شرائح اليهود للمسيحية في عصرها الأول، وقع بأخطاء مضحكة بسبب لفظه الخاطئ لبعض الأحرف، ومما زاد الطين بلة أن القس نفسه لم يكن متمكناً من تلك اللغة بشكل كاف، وكم كانت دهشته كبيرة، عندما لاحظت إحدى المصليات لكنته الروسية الواضحة، فتطوعت لمساعدته بترجمة الحوار من العربية إلى الروسية مباشرة، فرد عليها بامتنان:

- شكراً لك، ولكن لا داعي لإزعاج نفسك.  
 - لا يوجد أي إزعاج، فهذا من دواعي سروري.  
 - أنت واثقة من أن ذلك لن يزعجك؟ فأنا أستطيع تدبر أمري.  
 - تمام الثقة. لا تقلق، فأنا لن أفوت هذه الفرصة في البقاء على تواصل مع اللغة الروسية.

- هذا كرم بالغ منك.

تحدثت الفتاة مع القس باللغة العربية، مبدية استعدادها للترجمة، فرحب بذلك أشد ترحيب لكون مفرداته الإنجليزية لم تكن كافية للتعبير بدقة عن وجهة نظره في ذلك الموضوع الحساس، حسب تعبيره، ومضى يتحدث بحماس وهو يشدد بين الحين والآخر على أن تترجم كلامه حرفياً.  
 - حسناً.

قالت الفتاة للقس، ثم أردفت موجهة الحديث لأبراهام:

- إنه يقول إن اليهود في الشتات، كانوا أكثر قبولاً لبشارة "المسيا"<sup>(١)</sup>، وأنهم لم يستهجنوها كما فعل إخوانهم في أورشليم، وهو يضرب لك مثلاً بيهود أنطاكية<sup>(٢)</sup>؛  
 فالبشارة الرسولية وصلت إليهم في زمن باكر جداً، وجعلت منهم قدوة للشراكة مع الأمم على أساس الإيمان بيسوع الناصري.

- اسأليه من فضلك: هل كانوا جالية كبيرة ومؤثرة هناك؟

(١) اللفظ اللاتيني لكلمة المسيح العبرية.

(٢) مدينة تاريخية تقع على الضفة اليسرى على نهر العاصي على بعد ٣٠ كم من شاطئ البحر المتوسط، كانت تتبع لواء إسكندرون السوري (حالياً في هاتاي) ثم أصبحت منذ العام ١٩٣٩ م ضمن حدود الدولة التركية الناشئة عن إنهيار الخلافة العثمانية. ويذهب بعض المفسرين والمؤرخين المتأخرين مثل ابن كثير وفتادة وابن إسحاق والمقريزي وابن عساكر وغيرهم إلى أن أهل أنطاكية هؤلاء هم أصحاب القرية الوارد ذكرهم في القرآن (سورة يس من الآية ١٣ - ٣١)، إذ جاءهم المرسلون من عند المسيح عليه السلام، وأن بولس كان أحد المرسلين، والله أعلم. راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف!!!

- يقول إن عدد السكان القاطنين في أنطاكية، في القرن الأول الميلادي كان يتراوح، بحسب التقديرات، بين ثلاث مئة ألف إلى ست مئة ألف نسمة. وكانت الجالية اليهودية - حسب المصادر - تتراوح بين اثنين وعشرين ألفاً وخمسة وأربعين ألف نسمة، وكانت تتمتع بازدهار اقتصادي بارز.

- كيف وصل اليهود إلى هناك؟

- في البداية كانت أغليبتهم جنوداً في جيش "سلوقس"<sup>(١)</sup>، ولكنهم مع مرور الوقت استقروا، وازدهروا اقتصادياً، وصاروا يعيشون كجماعة منظمة لها رؤساؤها الدينيون والسياسيون، ويتمتعون بامتيازات معتبرة، على نحو التجمع اليهودي الذي كان في الإسكندرية مثلاً.

- وكيف كان مركز أنطاكية في العالم آنذاك؟

- في الأربعينيات من القرن الأول الميلادي كانت أنطاكية عاصمة لمقاطعة سورية الرومانية، ومركزاً لحاكمها، وكانت الإمبراطورية الرومانية قد أحكمت سيطرتها عليها منذ ما يقرب من المئة سنة. وكانت تعد، مع روما<sup>(٢)</sup> أهم ثلاث أكبر مدن فيها.

- وكيف كان التزامهم الديني هناك؟

(١) أحد قواد "الإسكندر المقدوني"، ومؤسس الأسرة السلوقية اليونانية. وقد بدأت الإمبراطورية اليونانية حقيقة على يد الإسكندر الأكبر ذي الشخصية العظيمة الذي استطاع في سنوات قليلة إخضاع الإمبراطورية الفارسية ومعظم العالم المعروف حتى مصر جنوباً، وصولاً إلى الهند. ثم مات في أثناء عودته وهو في سن الثالثة والثلاثين. وتولى قادة جيشه الكبار حكم هذه الإمبراطورية الواسعة، بأن قسموها على أنفسهم إلى أربعة أقسام هي ١-مقدونية وبلاد اليونان، ٢- ثراكية وما حولها، ٣- مصر وإفريقيا، ٤- سورية وفينيقية. واستمر هؤلاء القادة في صراع مستمر وحروب مستمرة. وما يهمني هنا هو أن الحكم في سورية استقر للسلوقيين نسل القائد سلوقس، واستقر الحكم في مصر للبطالمة نسل القائد بطليموس.

(٢) قيمت باستخدام كلمة "رومه" عن الحديث عن الشئون الدينية، قاصداً بها مقر البابوية الكاثوليكية، أما عند الحديث عن بقية الشئون من إجتماعية وسياسية وغيرها فقد استخدمت كلمة "روما".

- على عكس الاتجاه السائد بين يهود فلسطين في تأكيد خصوصية الديانة والشعب اليهوديين منذ أيام الثورة المكابية، كان الشتات اليهودي في أرض الأمم وبالذات أنطاكية، ينظر إلى العالم بانفتاح أكبر، بسبب احتكاكه اليومي بالثقافة والحضارة الهيلينية<sup>(١)</sup>، فقد كان اليهود هناك يذهبون إلى المسرح والمسابقات الرياضية، وكانوا يبنون مجامعهم على الطراز اليوناني، وسرعان ما تعلموا اللغة اليونانية، متناسين العبرانية والآرامية. وكان الفكر اللاهوتي السائد بينهم هو قبول "دخلاء"<sup>(٢)</sup> من الأمم في جماعتهم، ووثنيين أيضاً ممن كانوا يدعون بـ"خائفي الله"<sup>(٣)</sup>.

- ألم يكن للمدارس الفكرية الأورشليمية أثر عليهم؟  
- هم لم يكونوا بمعزل عنها بالطبع، خاصة أن المواصلات كانت قوية بين أورشليم وأنطاكية لكون هذه الأخيرة مركز حكام المنطقة. وقد كان في أورشليم المعلمان الكبيران "هيلال" و"شماي"، اللذان علماً هناك في أيام الملك هيرودوس (٣٧-٤ ق.م)، وقد أسس هذان المعلمان المدرسة الثنائية التي حققت استمرارية الديانة اليهودية بعد سقوط الهيكل فيما بعد. ولكن ومع أن القاعدة العقائدية مشتركة بينهما، كان شماي وهيلال يختلفان في أسس تفسير التوراة: فهيلال، الذي درس في بابل، كان يتميز بقرائه العقلانية والإنسانية للناموس، وكان يقبل الانفتاح والنقاش المنطقي، خاصة في بعض

(١) تسمى الفترة منذ موت الإسكندر المقدوني الكبير في القرن الرابع ق.م (٣٢٣ ق.م) حتى هزيمة كليوباترا (من أسرة البطالمة) في القرن الأول ق.م على يد الرومان بالعصر الهليني أو الهلنستي. ولكن الثقافة الهلينية ظلت المسيطرة هناك حتى في أثناء الحكم الروماني، ويقال إن الرومان قد هزموا اليونان (الإغريق) عسكرياً، ولكن اليونان هزموا الرومان ثقافياً (بثقافتهم الهلينية التي تأثر بها الرومان)، ولم ينته تأثير الثقافة الهلينية إلا بالفتح الإسلامي في القرن السابع للميلاد، وانتشار الثقافة الإسلامية عوضاً عنها.

(٢) وهم من يعتنق اليهودية من غير بني إسرائيل، ملتزمين بكل الفروض الدينية بما فيها الختان.

(٣) حسب التفسير اللاهوتي فخائفو الله هم من يظنون على وثنيتهم! ولكنهم يعجبون بالديانة اليهودية، ويرون في النصوص والصلوات اليهودية ملقياً للمذاهب الفلسفية المختلفة، وجواباً للقضايا الحياتية الأساسية، فيحفظون بعض الفروض الدينية المهمة من وجهة نظرهم، دون الالتزام باليهودية بشكل كامل.

الأمور التشريعية التي تبقى على مستوى النظريات بالنسبة إلى اليهود في الشتات، بسبب كونهم على مسافات بعيدة من الهيكل. أما شمائي، الذي عاش في فلسطين منذ صباه، فكان متشدداً في طريقته في التفسير الحرفي، وفي فروضه الدينية المبينة على "التقليد الشريف"<sup>(١)</sup>. ورغم وجود تأثير لكلتا المدرستين على اليهود الأنطاكيين، إلا أن مدرسة هيلال كانت تلقى تقبلاً أكبر من قبل المؤمنين. علاوة على ذلك فإن بولس الرسول كان قد تعلم التوراة على يد المعلم "غملائيل الفريسي" الذي كان تلميذاً لهيلال، ويشهد العهد الجديد استعداد غملائيل نفسه للاستماع إلى بشارة الرسل، ولا شك أن خلفية "بولس" اللاهوتي<sup>(٢)</sup> كان لها أثر كبير على قبول اليهود الأنطاكيين لهذه البشارة.

- كيف بدأت البشارة المسيحية بين اليهود في أنطاكية؟

- هناك سفران مختلفان من العهد الجديد، أحدهما رسالة من "القديس" بولس<sup>(٣)</sup>، والآخر رواية من "لوقا الإنجيلي"<sup>(٤)</sup>، يتناولان موضوع وصول الكرازة المسيحية إلى أنطاكية. فيروي القديس لوقا، في القسم الثاني من كتابه، مرحلة أساسية في انتشار البشارة الرسولية؛ وهي النزول من أورشليم الغاضبة والمضطهدة إلى حيث يوجد من يرغب في الاستماع إلى الكلمة، ليعرض بشكل برنامج نموذجي انتقال الكلمة الإلهية من أورشليم مروراً بالسامرة أولاً، ثم بخانفي الله بين الأمم وباليهود في الشتات ثانياً، ووصولاً أخيراً إلى كل نفس في المسكونة: أي إلى كل الوثنيين. هكذا رأى لوقا مراحل التبشير، وهذا ما يعرضه نظرياً وعملياً في إخباره لأعمال "فيلبس" مع السامريين،

(١) تعبير مسيحي معناه تعاليم الآباء كما أشرنا سابقاً. أما اليهود فيفضلون تسمية "الشريعة الشفوية" أو المشنا، وإضافاتها التي صارت تعرف لاحقاً بالتلمود.

(٢) اللاهوت أيضاً هو تسمية مسيحية متأخرة، ويقصد هنا دراسة بولس للشريعة اليهودية.

(٣) يقصد الرسالة إلى غلاطية.

(٤) يقصد سفر أعمال الرسل.

و"بطرس" مع القائد "كرنيليوس"، وبولس مع اليهود في دمشق، إلى أن يتوقف في أنطاكية ليكمل منها نقطة الانطلاق للتبشير إلى الأمم. وهنا كان لليهود الأنطاكيين دور رئيسي.

- هل يقصد القس أن البشارة تمت أولاً بين اليهود بفرقهم المختلفة، ثم انتقلت فيما بعد بواسطة من آمن منهم إلى الغوييم؟

- هذا هو ما يعنيه بالضبط؛ فهو يقول إن جماعة أنطاكية كانت أولى الجماعات المختلطة بين اليهود والأمم الذين قبلوا "المسيا". وكان هذا الأمر لافتاً للنظر إلى درجة أن أورشليم، أي منبع الشهادة الرسولية آنذاك، أرسلت الرسول "برنابا" كي يراقب الوضع هناك. ويشدد لوقا على ارتضاء الله بخصوصية هذه الجماعة الجديدة، كما يشير إلى ضرورة مراعاتها من بولس وبرنابا لتحقيق استمراريتها<sup>(١)</sup>، ولذلك فإن بولس قرر التبشير بقيامة المسيا انطلاقاً من أنطاكية إلى كل المسكونة، وكان يوجه كلامه أولاً إلى اليهود في المدينة، ثم إلى الوثنيين.

- وكيف كانت ردة فعل المسيحيين من يهود أورشليم على المسيحيين الجدد في أنطاكية؟

- حسناً. كان هؤلاء "الإخوة الكذبة"، كما سماهم بولس في (غل ٢: ٤)، يطلبون من كل مؤمن وثني أن يحفظ الفروض الدينية اليهودية، أي أن يتمسك بـ"حرفية" الناموس". وكان تأثير هذه الفئة كبيراً إلى حد أن بطرس، أحد المعتبرين "أعمدة الكنيسة"، ناقض نفسه في فترة لاحقة، ونفى مقررات مجمع أورشليم عندما امتنع من الأكل مع المسيحيين من أصل وثني خوفاً من المسيحيين القادمين من عند "يعقوب"<sup>(٢)</sup>،

(١) أع ٨: ٢٥-٢٦.

(٢) رئيس مجمع القدس، وقد أطلقوا عليه لاحقاً لقب "أخو الرب"، لكونه أحد أبناء "يوسف النجار" رجل مريم عليها السلام (أم الرب) كما يعتقدون.

أي من المتزمتين في أورشليم<sup>(١)</sup>، ومع أن هذه المعركة قد تكررت مرات عديدة في أمكنة أخرى، إلا أنها حدثت للمرة الأولى في أنطاكية تحديداً، وكان تدخل بولس الرسول فيها وفي المجمع الأورشليمي المقياس الذي على أساسه واصلت الكنيسة التبشير إلى كل البشر دون تحميل تقاليد الشعب اليهودي القديم لأحد، بل بإعطاء النعمة الإلهية كما وردت في الأسفار المقدسة اليهودية، وكما وزعها الروح القدس على ضوء تعاليم يسوع المسيح الناصري وأعماله.

- وإلامَّ استند بولس في دعواه تلك، مع أن يسوع قال: "لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل"<sup>(٢)</sup>!

- لقد فهم بولس "الرسول"<sup>(٣)</sup> أنه بعد صلب المسيح، وموته، وقيامته وصعوده، حسب الكتب، يعلن الله نفسه في الإيمان في إنجيل ابنه الحبيب، الذي يعطى بنعمة الروح القدس، كما يعلمها لوقا في روايته للنعصرة<sup>(٤)</sup>. وكما قال الأنبياء بإيمان ورجاء: "قليل أن تكون لي عبداً لإقامة أسباط يعقوب ورد محفوظي إسرائيل. فقد جعلتك نوراً للأمم لتكون خلاصي إلى أقصى الأرض"<sup>(٥)</sup>.

لاحظ أبراهام أن القس قد تهرب من الإجابة، فهو لم يكن يسأل عما استند إليه بولس في نشر المسيحية بين الغوييم في أقصى الأرض، بل عما استند إليه في نقض الناموس، وتحريره للمؤمنين الجدد من الالتزام بشريعة الرب. ولكنه مع ذلك قال مسائراً:

(١) غل ٢ : ١١-١٢ .

(٢) مع أن بولس لم يكن من تلاميذ المسيح عليه السلام، الذين اصطُح على تسميتهم بـ "الرسل"، ومع أنه لم يقابله قط، إلا أنه كان يتمسك بالادعاء بكونه هو أيضاً رسول للمسيح بناء على زعمه بأن المسيح قد تجلى له بعد رفعه، وأمره بالتبشير به. للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف . .

(٣) أع ١ : ١-٤٧ .

(٤) إش ٤٩ : ٦ .



- هل يقصد أنه هكذا ترسخت "أممية المسيحية"؟
- تماماً. وصار يشار إلى هذه الجماعة الأخروية النموذجية لأول مرة كالجماعة "المسيحية"<sup>(١)</sup>، أي بمصطلح لا يدل على الانتماء إلى شعب ما أو إلى إثنية معينة، إنما يدل على تحقيق الرجاء الوارد في الأسفار المقدسة لبدء تأسيس ملك الله على كل البشر.
- وهل تقبل يهود مدينة أنطاكية هذا ببساطة؟
- بالتأكيد لم يكن انتقالهم من التقاليد الشعبية القديمة، أي من هويتهم السابقة إلى الحياة الجديدة في المسيح أمراً سهلاً عليهم، ولكن الكلمة الإلهية تثبتت في هذه الجماعة الجديدة المنفتحة إلى كل البشر، وبقوة الروح القدس أدوا شهادة بنفس واحدة مع الوثنيين القابلين بالكلام الرسولي، للإيمان بيسوع المسيا أمام كل المسكونة.

وعند وصول القس إلى هذه النقطة أخذ الحماس، فأذهب في إلقاء موعظة بلاغية بمؤثرات عاطفية مبالغ، تحدث فيها عن الصعوبات التي واجهت اليهود المؤمنين آنذاك، وكيف تخطوها، مؤمنين أن المسيا لم يأت لهدم اليهودية، بل ليكمل الدين الذي بدأه الأنبياء من قبله وينقله إلى البشر كافة. وكيف آمن الوثنيون أن دينهم الجديد ليس فقط ما أتى به المسيا، بل معه كل ما نزل على أنبياء إسرائيل، فجعلوه الجزء الأكبر من كتابهم المقدس الذي آمنوا به. ثم تحدث كيف صنع بولس من أنطاكية، العاصمة العالمية في الشرق الأوسط القديم، آية في الكتاب المقدس تشير إلى اتحاد الجنس البشري واتفاقه على عبادة الإله الحقيقي. كما تحدث عن الإيمان، والخطيئة، والتكفير عنها، مبدياً احتراماً كبيراً لليهودية وقيمها، وأنه على الجميع، مسيحيين ويهوداً، أن يبحثوا عن حقيقة الله فيما يتعلق بالتكفير عن الذنوب، وبنمط الحياة الذي يرضيه. وفي الختام شدد على أن أبراهام مرحب به

(١) أع ١١ : ٢٦ . لمزيد من المعلومات حول هذه التسمية راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف .

في هذه الكنيسة وقتما يشاء، وأنه يسعده شخصياً أن يتحدث معه عن أي موضوع، وأن يجيب عن كل استفساراته.

بعد أن ودع أبراهام القس، شاكرًا له على سعة صدره، وبالغ لطفه، التفت إلى الفتاة، ليعبر لها أيضاً عن امتنانه لمساعدتها، فقال باستحياء:

- أقدر سعة صدرك آنسة "جورجيت" في ترجمة موعظته الطويلة بأكملها. وأكرر شكري لك، على وقتك الثمين، وأسفي على إرهابك بكثرة أسئلتني.

- لا عليك. فأولاً، أنا مسرورة جداً لوجود يهودي مهتم بديني، وثانياً، لأنني أنا نفسي الذي يجب أن أشكرك؛ فاللغة الروسية غير منتشرة هنا، وأنا فعلاً أخشى من خسارتها كما قلت لك. وأخيراً، لأن وقتي ليس ثميناً جداً كما تظن. فقد أنهيت دراستي منذ ثلاث سنوات، ولا أزال للآن عاطلة عن العمل.

- غريب، ألا يُقدرون الشهادات الروسية هنا في بلادكم؟

- كلا للأسف؛ فهم يفضلون خريجي غرب أوروبا أو أمريكا علينا.

- ذلك مؤسف بالفعل. ولكن لماذا؟

- هناك الكثير من الشائعات عن عدم جدية الدراسة في روسيا، وعن شراء الامتحانات، بل الشهادات نفسها.

- لقد كان ذلك خلال فترة قصيرة من تاريخ روسيا، بعد انهيار الاتحاد السوفياتي.

أما الآن فإن الأمر أصبح من الذكريات المؤسفة ليس إلا.

- ولكن الإشاعة لا تزال تحظى بتصديق شعبي قوي للأسف.

- لا تقلقي فالمستقبل لروسيا وليس لأمريكا، التي تتجه نحو الاضمحلال.

فأجابت جورجيت ضاحكة:

- أجل، خاصة بعد ضرب رئيسها بالحذاء أمام العالم أجمع.

- ماذا تعنين؟
- ماذا؟!!! ألا تشاهد الأخبار؟! لقد قذف بوش بفردتي حذاء من مقاس ٤٤<sup>(١)</sup> في وجهه يوم أمس<sup>(٢)</sup>.
- حقاً؟!!!
- أجل، فقد رماه بهما صحافي عراقي<sup>(٣)</sup> في مؤتمر صحفي مشترك مع رئيس الوزراء العراقي، عقد في ختام زيارة وداعية، أراد بوش من ورائها التفاخر بمنجزاته في "تحرير" العراق و"نشر الديمقراطية"، و"حرية التعبير عن الرأي" فيه. فكان ذلك الزوج من الأحذية أبلغ رد على ادعاءاته الفارغة.
- يا للخسارة! كنت أود مشاهدة ذلك.
- لا تقلق؛ فمنذ يوم أمس والمشهد يتكرر في كل وسائل الإعلام. وأنا شخصياً قد شاهدته لأكثر من مئة مرة على الأقل، وتستطيع مشاهدته حتى الآن على رأس كل نشرة أخبار، وفي الصفحة الأولى من كل صحيفة صدرت اليوم، حتى الأوربية منها.
- يبدو أن لأمريكا أعداء كثيرين فعلاً.
- ولبوش بالذات، فحتى الصحافة الأمريكية سخرت منه بسبب ذلك. فنتيجة حربه المجنونة التي كلفتهم حتى الآن أكثر من ٤٠٠٠ جندي<sup>(٤)</sup> وثلاثة تريليونات دولار، وهزت
- 
- (١) فردة الحذاء الأولى مرت بمحاذاة رأس بوش، الذي انحنى وتفاذاها، أما فردة الحذاء الثانية فأصابت العلم الأمريكي خلف بوش، دون أن تسقطه، وفي هذه اللحظة خاطب الزيدي الرئيس الأمريكي قائلاً: "هذه قبلة الوداع يا كلب". ومؤخراً عرض المواطن السعودي "حسن محمد مخافة" الذي ينتمي إلى قبيلة عسير شراء حذاء الزيدي بعشرة ملايين دولار أمريكي!!!
- (٢) يوم الاثنين ٤/١٢/٢٠٠٨ م.
- (٣) مراسل قناة "البغدادية" (مقرها القاهرة) الصحفي "منتظر الزيدي". وقد صنعت لاحقاً ألعاب فيديو وهي تصور الزيدي رامياً الرئيس بوش بفردتي حذائه، وطبعت قمصان عليها صورته، بل إن بعض الآباء عرضوا عليه تزويجه بناتهم حالما يخرج من السجن.
- (٤) هذا غير المعلن عنهم من المقيمين في الولايات المتحدة والذين تطوعوا في الجيش لتسهيل حصولهم على الجنسية، وبالطبع عدا المرتزقة الذين لا يدخلون في حساب الجيوش النظامية من قريب أو بعيد.
- زيد من التفاصيل راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

سمعة البلد أخلاقياً، وتسببت في انهيارها اقتصادياً، كانت ختم دمع بحذاء عراقي.

- وماذا حل بذلك الصحفي؟

- لقد جر من القاعة بشد شعره وبضربه بوحشية أمام عدسات التصوير، حتى كسرت يده، وأحد أسنانه. ثم اقتيد إلى سجن تابع للقوات الأمريكية.

- لماذا في سجن تابع للقوات الأمريكية؟! وأين سيادة "العراق المحرر"، إن لم تكن لديه سلطة سجن مواطن عراقي ومحاكمته؟! وأين الديمقراطية وحرية التعبير عن الرأي؟! إنها فعلاً فضيحة للنظام الأمريكي ورئيسه<sup>(١)</sup>.

- وعلى الرغم من تلك الفضيحة المجلجلة، فقد تابع بوش جولته الدواعية في استعراض منجزات ولايته المنتهية قبل خروجه من البيت الأبيض في الشهر القادم، متجهاً إلى أفغانستان، ولكن هذه المرة دون ضجة إعلامية احتفالية كما كان مخططاً لها، فوصلها فجر هذا اليوم بصمت وتواضع.

- وكيف استقبله الصحفيون الأفغان؟

- لقد اتخذت القوات الأمريكية جميع الاحتياطات الصارمة لعدم تكرار ما حدث بالأمس، ولكن مع ذلك وقف صحفي أفغاني وواجه بوش علناً بأنه أخفق في تحقيق وعوده، التي تعهد بها لأفغانستان. وكما ترى أثبت الصحفيون مرة أخرى أنهم فعلاً لسان حال قومهم.

- هل أنت صحفية أيضاً؟

- أجل، ولكن مع وقف التنفيذ.

- هذا لن يستمر طويلاً، أنا واثق من ذلك. فقط لا تيأسي، واستمري في البحث عن عمل.

(١) فيما بعد نقل منتظر إلى سجن عراقي ثم حكم عليه بثلاث سنوات، ثم أطلق سراحه في ١٥ أيلول/سبتمبر، ٢٠٠٩م، بعد عدة حملات شعبية للإفراج عنه.

- والصلاة.
- يبدو أنك مؤمنة فعلاً.
- أحاول أن أكون.
- بل أظنك كذلك: ففتاة بمثل جمالك، لن تذهب إلى الكنيسة طلباً للتسلية أو لتمضية الوقت.
- اتسعت حدقتا عينيها وفغرت فاهها من الدهشة لتلك المغازلة الجريئة غير المتوقعة، ثم أخفضت رأسها وهي تبتسم باستحياء. كانت جورجيت جميلة فعلاً، وأكثر ما أعجب أبرهام بها كان شدة صفاء لون بشرتها، وبنفس الوقت شدة اسمراره الطبيعي، اللذين ليرهما مجتمعين على هذا النحو في أحد قبلها. ولكنه مع ذلك أردف موضعاً:
- أنا أسف جداً إن كنت قد تجاوزت الحدود بتعليقي، ولكنني أؤكد لك أنني لم أقصد المغازلة. خاصة أننا نجلس في الكنيسة.
- ظهر الامتعاض على وجهها لهنيهة، ثم قالت بالمبالاة:
- أنا ذاهبة للتنزه على ضفة النيل. هل تود التنزه معي؟
- بكل سرور.
- سار أبرهام مع رفيقته الجديدة وهو يعجب لعرضها الذي خيل إليه أنه دعوة لمغازلتها فعلاً، وكان متشوقاً لمعرفة أكان الأمر مقصوداً أم مجرد مصادفة؟ ولكن حيرته لم تطل كثيراً، فقد أتاه الجواب بأسرع وأغرب مما كان ينتظر:
- هل تعرف أنك تشبه الرجل الوحيد الذي أحببته في حياتي كلها؟ ولقد كان روسياً أيضاً بالمناسبة.
- ربما كان أحد أبناء عمومي.
- لا أظن ذلك، فهو لم يكن يهودياً.

- ربما كان شقيقي إذن، فأبي كان شقياً جداً في صغره.  
ضحك كلاهما لدعابته، وأحس أبراهام ببعض الغرور من كونه أصبح في الآونة الأخيرة، ولأول مرة في حياته، محاطاً بالحسناوات فائقات الجمال. فواحدة منهن تنتظره في الفندق بلهفة لترقص له، وتفعل كل ما لا يخطر على باله. وأخرى لا تقل عنها جمالاً، تنتزه معه على ضفة النيل، وتنتظر منه بلهفة أيضاً، أن يغازلها لتستعيد ذكريات حبها القديم مع فارس أحلامها الروسي الذي يشبهه. ثم سألتها مستفسراً عن ذلك الذي يذكرها به:

- ألا تزالين على تواصل معه.

أطرقت جورجيت رأسها بحزن، ثم قالت، وكأنها تحاول طرد ذكريات أليمة مرت بمخيلتها:

- لقد مات "نيكولاي" منذ خمس سنوات في حادث أليم.

- أنا أسف جداً.

- هون عليك. فقد تجاوزت تلك المرحلة منذ مدة طويلة.

- بم كان يشبهني بالضبط؟

- ربما لم يكن نيكولاي يشبهك شَبهاً كبيراً في الشكل، قدر ما كان يشبهك بالشخصية؛ فهو أيضاً كان يؤلف كتاباً عن الأديان، وكان يتلعثم عندما يناقش أحداً بهذه المواضيع، ويرتبك بالشكل نفسه الذي بدوت عليه وأنت تتكلم مع القس؛ بالحركات وتعابير الوجه نفسها، كأنه يريد أن يعرف كل شيء عن الدين الذي يتحرى عنه بجلسة واحدة. وهذا ما لفت انتباهي إليك، فأنت لا تتصور كم أحسست بالغبطة وأنا أستمع إليك وأراقب تعابير وجهك، وحركات يديك.

- أيتها المخادعة. إذن لم تساعدني من دافع ديني كما أوهمتني.

ابتسمت جورجيت باستحياء مصطنع، لكن أبراهام ما لبث أن توقف فجأة مفكراً بما قالته، ثم سألها مستغرباً:

- ما الذي يجعلك تظنين أنني أنا أيضاً أؤلف كتاباً عن الأديان؟!؟

- إم... لأنك تجمع معلومات عن الأديان بطريقة نيكولاى نفسها عندما كان يؤلف، وأنا لا أظنك تفعل ذلك بداعي الثقافة العامة أو لرغبتك باعتراف المسيحية مثلاً.

- ولكن...

فقاطعته كأنها تذكرت شيئاً مهماً:

- بالمناسبة، سأعترف لك بما قاله القس لي، فربما ستفيد من ذلك، وتشره في كتابك.

- تفضلي.

- لقد طلب مني أن أترجم ما يقوله حرفياً، دون أن أستخدم ألفاظي المسيحية التي اعتدت عليها.

- وهل كان يستخدم ألفاظاً غير مسيحية؟!؟

- ليس تماماً. ولكن لأنك يهودي، فقد حرص على استخدام مصطلحات تركز على "يهودانية إيمانه" حسب تعبيره. على سبيل المثال، بدل مصطلح "المسيح" استخدم مصطلح "مسيا" باللغة العبرية<sup>(١)</sup>.

- هذا مثير للاهتمام جداً. وماذا أيضاً؟

- كان يحرص على ألا أضمّن ترجمتي ما يمكن أن يكون إنكاراً لليهودية، وكان يذكرني دائماً بأن إنكار اليهودية يعد إنكاراً للمسيحية نفسها.

(١) هذا هو الشائع عند المسيحيين، مع أن كلمة المسيا هي اللفظ اللاتيني (الملتّن على وزن المعرب) للأصل العبري الذي هو مشيح (المسوح بالزيت) كما أسلفنا سابقاً.

- هل كان يطمح إلى إدخالي في المسيحية؟  
 - كلا. فقد أكد لي أن هدفه لا يكمن في أن يجعلك مسيحياً، فأنت كيهودي ستتمكن من التكفير عن ذنوبك، ومن اكتشاف علاقة شخصية مع إله إبراهيم وإسحاق وإسرائيل، وهو لذلك أراد أن تتسم الشهادة المسيحية معك بالتواضع والرحمة الحقيقية، فلطالما كانت انطباعات اليهود عن المسيحية تشير إلى غطرستها وفوقيتها واستخفافها بالثقافة اليهودية. وضرب مثلاً بتحذير القديس بولس من هذا النوع من الفرور المسيحي في الرسالة إلى رومة ١١ : ١٣-٣٢.

- تابعي، أرجوك.

- ولا بد أنك لاحظت أنه تعمد في موعظته الطويلة أن يستخدم آيات من كتابكم المقدس (العهد القديم) لدى مناقشة مواضيع مثل: "الخطيئة"، فقد استشهد بالمزامير (١٤ : ٢-٣ : ٥١ : ٥ : الجامعة ٧ : ٢٠)، وبإشعيا (٥٩ : ١-٢) : "والتكفير عن الذنوب"، فقد استشهد باللاويين (١٧ : ١١)، وبإشعيا (٥٣ : ٥-٦) : "والمسيح"، فقد استشهد بإشعيا (٥٣)، وبدانيال (٩ : ١٦)، وبميخا (٥ : ١ آية ٢ عند البروتستانت) : "والإيمان"، فقد استشهد بسفر التكوين (١٥ : ٦)، والعدد (٢١ : ٧-٩ و ٢٢ : ٢ آية ٣ : ٥ عند البروتستانت).

- أقدر لك كشف أسلوب ذلك القس، مع أنك تنتمين إلى كنيسته<sup>(١)</sup>.

فظهر عليها بعض الارتباك، ثم ما لبثت أن ابتسمت قائلة:

- في الحقيقة، أنا لست إنجيلية بل قبطية أصيلة<sup>(٢)</sup>.

(١) هذا الأسلوب منقول عن مجموعة نصائح بروتستانتية للتعامل مع اليهود.  
 (٢) تعني أنها أرثوذكسية لاخلقيدونية، مذهب الكنيسة المرقسية القبطية، والذي يرى أصحابه أنه المذهب الأصل لمسيحي مصر.



## مفاهيم جديدة

تعجب أبراهام من تلك المفاجأة غير المنتظرة، وعبثاً حاول استنتاج السبب الذي دعى جورجيت إلى التظاهر بكونها من دين غير دينها، فسألها مستفسراً:

- إذا كنت قبطية (أرثوذكسية)، فماذا كنت تفعلين إذن في كنيسة إنجيلية (بروتستانتية) إذن؟!

- حب استطلاع. فقد اختطف أولئك الذئاب<sup>(١)</sup> الكثيرين من الأقباط إلى دينهم، وكنت أحاول اكتشاف السبب وراء انتشار الفكر الإنجيلي بقوة في كل مكان هذه الأيام، خصوصاً في مصر بين الأقباط؟

- وما الذي توصلت إليه؟

- لست متأكدة، ولكن من الممكن أن يكون السبب هو سهولة المذهب الإنجيلي. فهو مثلاً لا يفرض الصيام مثل الكنيسة الأرثوذكسية<sup>(٢)</sup>، ومعظم الطقوس عنده ملغاة، ولا يوجد اعتراف للكاهن<sup>(٣)</sup>، ولا يوجد كاهن من الأساس<sup>(٤)</sup>، مع أن الخلاص لا يمكن أن يتم بدون عمل الكاهن؛ فالإنجيليون يعتمدون فقط على الإيمان والعماد بالروح

(١) تطلق الكنيسة القبطية الأرثوذكسية على البروتستانت في مصر لقب "الذئاب الخاطفة"؛ لأن نجاحهم الحقيقي ينحصر فقط في تحويل الأقباط الأرثوذكس إلى البروتستانتية، وليس في تصير المسلمين كما كان مأمولاً. وتشير بعض الإحصائيات المسيحية إلى أن عدد المتحولين إلى البروتستانتية من الأقباط الأرثوذكس حالياً، هو أكثر من ٧٥٠٠٠٠ شخص!!!

(٢) الإنجيليون (والبروتستانت بشكل عام) يلغون أنواع الصوم التي حددتها الكنائس التقليدية، بحجة أنه لا دليل على أنها تمت بصلوة للرسول.

(٣) الإنجيليون يعتبرون أن سر الاعتراف للذكرى فقط، وليس اتحاداً مع المسيح أو الشركة معه.

(٤) البروتستانتية لم تلغ طبقة الكهنوت تماماً، ولكنها غيرت في معالمها كثيراً.

القدس، ولكن المذهب الأرثوذكسي يطبق الطقوس والأسرار بدقة متناهية، وكأنهم يتبعون أساليب كهنة اليهود في العهد القديم.

- كيف تنظرين أنت إلى الأسرار المسيحية؟

- في رأيي أن الكنيسة من الأساس معتمدة على الأسرار؛ أي إعطاء نعمة غير منظورة بواسطة مادة منظورة. فسر الاعتراف يمنح الحل بواسطة الصليب على الرأس، وسر المعمودية يُمنح الولادة الجديدة بواسطة المياه المصلى عليها، وسر تناول عن طريق الخبز والنبيد يتحول إلى لحم ودم المسيح بعد حلول الروح القدس. فتبسم أبراهام قائلاً:

- لكن إذا كانت الأسرار مهمة إلى هذا الحد، فكيف لكنيسة مثل الكنيسة الإنجيلية أن تتجاهلها تماماً؟

- هم يدعون أنهم ينشدون العقلانية والتقدمية، وأن العقل لا يقبل كثيراً من تلك الأفكار التقليدية، التي يعتبرونها مجرد شكليات بالية. وللأسف فمع التطور وسرعة إيقاع الحياة أصبحت الكنيسة الإنجيلية أقرب إلى الواقع في نظر الكثيرين؟

- أقرب إلى الواقع والعقلانية والتقدمية!!! أليس الفكر الإنجيلي السياسي هو الذي يتحكم بالمحافظين الجدد الذين سيدمرون العالم إن استمر نهجهم؟! أليس فكر الإنجيليين اللاهوتي متهود تماماً، وتحيزهم سافر إلى جانب إسرائيل: فهم يؤمنون أن إعادة بناء الهيكل (مكان المسجد الأقصى) هو شرط لعودة المسيح؟! ألا ترى أن هذين الأمرين وحدهما كافيان لإبعاد الأقباط، والمسيحيين العرب بشكل عام، عن الإنجيلية تماماً!!!

تهدت جورجيت قائلةً:

- بل ربما كان العكس هو الصحيح.

- ماذا تقصدين؟

- إن الكثير من المسيحيين العرب يفتخرون بقوة المسيحيين في الغرب وتقدمهم، وبالذات في أمريكا، ويحاولون تقليدهم والارتباط بهم بكل ما أوتوا من قوة، ويتعالمون بذلك على مواطنيهم المسلمين المتخلفين. كما أن الغرب المسيحي يوفر لهم دعماً متزايداً في انتزاع حقوقهم الدينية والسياسية من حكوماتهم التي يسيطر المسلمون عليها. أما عن اليهود ودولة إسرائيل وإعادة بناء الهيكل فإن الأمر معقد جداً ويطول شرحه، ومن الأفضل ألا نخوض فيه.

- هل في الأمر سر من الأسرار؟

قال أبراهام بدهشة يشوبها الإستخفاف، فردت جورجيت موضحة:

- الأمر ليس كذلك بالطبع، ولكن هذه المواضيع معقدة ومتشابكة إلى درجة كبيرة جداً، وليس من السهل شرحها بحديث عابر.

- حاولي، وستجديني مستمعاً جيداً، ومحاوراً متفهماً.

- لا شك عندي في ذلك. حسناً. أنا لا أذيع سراً عندما أقول إنه رغم اختلاف الإنجيليين تحديداً وبقية البروتستانت عموماً مع أغلب المسيحيين في جزئيات تلك الأمور الشائكة وتفصيلها، إلا أن الفكر المسيحي بمعظم أطيافه متفق حيالها بشكل أو بآخر.

- كيف هذا والمسيحيون كانوا يضطهدون اليهود دوماً، ويعتبرونهم "قتلة الرب" وأن دمه عليهم وعلى أبنائهم للأبد، وأنهم لم يعودوا شعب الله المختار ولم يعودوا أبناءه الحبيبين لأنهم رفضوا المسيح وخلصه! فهل يمكن أن يتغير ذلك بكل بساطة لمجرد أن أتى شخص ما<sup>(١)</sup> وغير فكر المسيحيين، وجعلهم يؤمنون بأن اليهود أصبحوا أبناء الله مرة أخرى!!!

(١) يقصد "مارتن لوتر" راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

- صحيح أن اليهود فقدوا "امتيازات" النبوة والشعب، ولكنهم لم يفقدوا الانتماء والبنوة! والكتاب يؤكد هذا: "فأقول أعل الله رفض شعبه. حاشا. لأنني أيضاً إسرائيلي من نسل إبراهيم من سبط بنيامين. لم يرفض الله شعبه الذي سبق فعرفه" (رومه ١١: ٢١)، ويقول الوحي بأنه أخيراً سيخلص إسرائيل (رومه ١١: ٢٥ و٢٦) فاليهود هم كالابن الضال الذي ترك بيته، ومهما غضب عليه أبوه لذلك، فإنه يظل ابنه بالرغم من كل شيء، لأن البنوة ليست بالعمل إنما بالولادة، وبالتأكيد سيُسر سروراً بالغا بعودته إليه أخيراً. وكذلك حين تعود إسرائيل إلى حضن يسوع سيقول عنهم: "لأن ابني هذا كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوجد" (لوقا ١٥: ٢٤). فالشعب الإسرائيلي حتى وهو في "أرض أعدائه" ينال العقوبة من الرب بسبب عصيانه وعناده، لم يكرهه الرب ولم يرفضه: "ولكن مع ذلك أيضاً متى كانوا في أرض أعدائهم ما أبيتهم ولا كرهتهم حتى أبيدهم وأنكث ميثاقي معهم. لأنني أنا الرب إلهه. بل أذكر لهم الميثاق مع الأولين الذين أخرجتهم من أرض مصر أمام أعين الشعوب لأكون لهم إلهاً. أنا الرب" (لاويين ٢٦: ٤٤ و٤٥) فكيف وهم الآن شعب الله العائد إلى "أرض ميعاده"!!!؟

- ألا تقول الكنيسة أنها صارت شعب الله الجديد؟

- بالطبع. والرب له تعامل خاص مع شعبه الجديد، ولكن دون أن يعني هذا بأن شعبه الأول لم يعد شعبه ولا ابنه! وقد قضى الرب أن يعود بنو إسرائيل إلى أرضهم كما وعدهم هو نفسه، وهم لم يرجعوا بسبب برهم وصلاحهم، إنما أرجعهم الرب ليعلن صدق وعوده وتعظيم اسمه وتحقيق نبوءات كلمته، وتمهيداً لعودة ابنه.

- ولكن هذا ينافي ما أعرفه عن المسيحية، وبالذات طوائفها الشرقية.

- كان ذلك في السابق، أما الآن فإن الأمور تتضح أكثر بنعمة الرب يسوع. فلماذا نأخذ الكلام السلبي عن إسرائيل بحرفه، ونرفض هذه الحرفية في الحديث عن إسرائيل بالحسنى، فنقبل بـ"ضرب وتشيتت إسرائيل" حرفياً، ونرفض "جمعه وإرجاعه" حرفياً؟!

- أليس هذا هو الاعتقاد الشائع في المسيحية الشرقية!!!  
 - كان. والاعتقاد الخطأ لا يجب أن يستمر حتى إن كان شائعاً: فليس ثمة ما يدل في الكتاب المقدس على أن الله رفض هذا الشعب إلى الأبد أو حرمة الملكوت والحياة الأبدية، بل الكتاب يُشيد بفضلهم في دخول الأمم إلى نعمة المسيح. وحين احتج المسيحيون من الأمم على مركز هذا الشعب لدى الله قال لهم بولس رسول الأمم: "لم يرفض الله شعبه الذي سبق فعرفه. أم لستم تعلمون ماذا يقول الكتاب في إيليا كيف يتوسل إلى الله ضد إسرائيل قائلاً يا رب قتلوا أنبياءك وهدموا مذابحك وبقيت أنا وحدي وهم يطلبون نفسي. لكن ماذا يقول له الوحي. أبقيت لنفسي سبعة آلاف رجل لم يحنوا ركبة لبعل. فكَذَلِكَ فِي الزمان الحاضر أيضاً قد حصلت بقية حسب اختيار النعمة" (رومه ١١: ٥-٢). وهذا حق كتابي تغاضى عنه البعض للأسف. فنحن نرى نبوءات واضحة تختص بإسرائيل وتعاملات الله ومقاصده مع اليهود في الأزمنة الأخيرة، وأنه سيضم البقية الباقية منهم إلى حضيرة الإيمان. ولا يجوز لنا أن نحول هذه النبوءات لمصلحة الكنيسة. فنص العهد الجديد واضحاً: "فإني لست أريد أيها الإخوة أن تجهلوا هذا السر، لئلاً تكونوا عند أنفسكم حكماً: أن القساوة قد حصلت جزئياً لإسرائيل إلى أن يدخل ملك الأمم، وهكذا سيخلص جميع إسرائيل (أي أسباط إسرائيل الاثنا عشر وليس الجميع بالعدد) كما هو مكتوب: «سأخرج من صهيون المنقذ ويرد الفجور عن يعقوب (إسرائيل) وهذا هو العهد من قبلي لهم متى نزلت خطاياهم». من جهة الإنجيل هم أعداء من أجلكم، وأمّا من جهة الاختيار فهم أحبّاء من أجل الآباء، لأن هبات الله ودعوته هي بلا ندامة. فإنه كما كنتم أنتم مرة لا تطيعون الله، ولكن الآن رحمتكم بعصيان هؤلاء هكذا هؤلاء أيضاً الآن، لم يطيعوا لكي يرحموا هم أيضاً برحمتكم. لأن الله أغلق على الجميع معاً في العصيان، لكي يرحم الجميع" (رومه ١١: ٢٥-٣٢). فاليهود شعب المسيح أولاً وأخيراً، وإن كانوا رفضوه أولاً، إلا أنهم سيقبلونه أخيراً: لأنهم شعبه، والرب لم يرفض شعبه ولن يرفضه كما قال الوحي بضم بولس الرسول.

- هل تريدين إقناعي أن بولس قصد بهذا القول يهود اليوم الذين يشتمون المسيح وأمه في التلمود وغيره من كتبهم؟  
 - الرسول بولس كان يتحدث عن شعب إسرائيل في زمانه والذين صلبوا المسيح، وأقر بأنه غير مرفوض وسيؤمن بالمسيح، فلو لم يكن اليهود اليوم في دولة إسرائيل المقصودين، فمن هم إذن؟!!! أصدعوا إلى المريخ مثلاً وأبقوا فيه إلى أن يأتي المسيح، أم أين هم الآن؟

- وماذا عما كنت أسمعه من أن المسيحيين الشرقيين يؤمنون بـ"أورشليم السماوية" وليست الأرضية حيث سيجمع الله شعبه في "دولة" كما يقول الإنجيليون؟!  
 - أنت تخطئ في هذا الموضوع كما فعل الكثيرون للأسف. ولكن الحديث عن أورشليم سماوية يأتي ضمن حقبة زمنية تعقب مجيء المسيح ولا تسبقه. والترتيب الزمني يصنف الحوادث كالآتي: ١- تجميع اليهود (بغض النظر عن التجميع الحرفي أو الروحي). ٢- عودة المسيح إلى الهيكل (بغض النظر عن المعنى الحرفي أو الروحي للهيكل). ٣- الدينونة أمام العرش الأبيض العظيم. ٤- ثم إنهاء العمل الإبليسي. ٥- وبعدها ظهور أورشليم السماوية في نهاية المطاف.

- أي إنك كمسيحية عربية تتقبلين دولة إسرائيل؟!!!  
 - لست أنا بل الكتاب. فلماذا عاد الشعب الإسرائيلي إلى أرضه في عهد الملك كورش؟ أليس كي يولد المسيح في "بيت لحم اليهودية" (مicha ٥: ٢)؟ ثم عاد الشعب الإسرائيلي إلى أرضه في هذه العودة الأخيرة. لماذا؟ لكي يأتي المسيح ليخلص هذا الشعب من ذنوبه وآثامه عندما يؤمنون به في آخر الأيام (رومه ٢٦: ١١-٢٥)<sup>(١)</sup>، فكما كانت إسرائيل موجودة في مجيء المسيح الأول! كذلك ستكون إسرائيل موجودة

(١) في الحديث هنا تلميح لعقيدة إنجيلية تنتشر وسط أعداد متزايدة من المسيحيين في الفترة الأخيرة. ولزيد من المعلومات عن تلك العقيدة التي تسمى بـ "الضيقة العظيمة" أو ضيقة يعقوب قبل الملك الألفي. راجع حواشي رواية بشارات هائمة للمؤلف.

في مجيء المسيح الثاني! أليست هذه عظمة الكتاب المقدس وصدق نبواته القديرة المعجزة! وقد سأل الرسل الرب يسوع: "قل لنا متى يكون هذا؟ وما هي علامة مجيئك وانقضاء الدهر؟" (مت ٢٤: ٣)، أو بعبارة أخرى: "يا رب هل في هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل؟" (أع ١: ٦)، مما يدل على أن الكتاب يتحدث عن رد الملك لإسرائيل في مجيئه الثاني. وبغض النظر كيف يكون رد الملك، روحياً أم حرفياً، فإن هذا الأمر لا يتعلق بالكنيسة، بل يخص إسرائيل، وإسرائيل فقط.

- ولكن جواب المسيح حينها كان: "ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات".  
- هذا صحيح. ولكن الرب يشير إلى علامات للأزمنة الأخيرة، ويعطي مثلاً في متى ٢٤: ٢٣<sup>(١)</sup>: "فمن شجرة التين تعلموا المثل"، وشجرة التين ترمز إلى الأمة الإسرائيلية، والمقصود بأفراخها هو انتعاش هذا الشعب ونهضته: أي لا بد أن يعود هذا الشعب ويكوّن كياناً سياسياً، لكنه مجرد كيان سياسي لا روح فيه، وهذا ما يقصده الرب بإخراج الأوراق وليس الثمر، أي سيعودون إلى الأرض ويمارسون عباداتهم الطقسية، ثم يتعامل معهم الرب آخر الأيام<sup>(٢)</sup>.

(١) خلاصة القصة أن عيسى عليه السلام قد لعن شجرة التين وأكد أنها لن تثمر إلى الأبد فبيست في الحال. وطلب من تلامذته أن يأخذوا من ذلك عبرة لأن هذا لا بد سيفقد، وأنه قريب على الأبواب، وأن ملكوت الرب قريب. متى ٢١: ١٨-٢٢، ٢٤: ٣٢-٣٥؛ مرقس ١١: ١٢-١٤، ١١: ٢٠، ٢١، ١٣: ٢٨-٣١؛ لوقا ٢١: ٢٩-٣٣.

(٢) هذا التفسير يجانب الصحة كثيراً. يذكر أن اسم عيسى عليه السلام مشتق من الصفرة، وله معان كثيرة كالشفاة وكرم الأصل والصنع والإيجاد (إشارة إلى كونه مخلوقاً حادثاً، وكدليل على أن حدوثه تم بأية خارقة للنظام الكوني) وغيرها، ولكن أيضاً بمعنى اصفرار النبات، أو بمعنى الإنذار بقرب نهاية الزرع إذا خلا من الرطوبة واصفر لونه وبيس. وعيسى عليه السلام ميبس شجرة النبوة الإسرائيلية، فهو آخر أنبياء بني إسرائيل، وجاء ينذرهم بانتقال الملكوت إلى أمة أخرى تعمل أثماره، وأن ذلك قريب. (متى ٢١: ٤١، ٢٤: ٣٣؛ لوقا ٢١: ٣١؛ مرقس ١٣: ٢٩)، ولزيتون من التفاصيل راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

- لا أظن أن يسوع كان معنياً باليهود إلى هذه الدرجة.

- أنت مخطئ: فالمسيح يؤكد بأنه "ملك اليهود" مع أن اليهود رفضوا ملكه الروحي عليهم: "فوقف يسوع أمام الوالي فسأله الوالي قائلاً: أنت ملك اليهود؟ فقال له يسوع: أنت قلت"<sup>(١)</sup>، وعلى تصريحه هذا نبني الاعتقاد بأنه سيعيد ملكه على اليهود في نهاية الأزمنة، وغير ذلك لا يكون للقب ملك اليهود معنى. أليس كذلك؟!!!

- لكن المسيح قال: "ليست مملكتي من هذا العالم"، وشدد على ذلك. (يوحنا ١٨ : ٣٦).  
- أعرف أن الموضوع صعب، ولكن تأمل معي هذا المثال الذي قد يجلي لك بعض الغموض: "إنسان شريف الجنس (أي المسيح) ذهب إلى كورة بعيدة (إلى بيت الآب) ليأخذ لنفسه ملكاً ويرجع (أي في مجيئه الثاني) عند ظهوره وملكوته"، يأخذ الملك من الآب ملك السماء والأرض بحسب النبوءة القائلة: "اسألني فأعطيك الأمم ميراثاً لك، وأقاصي الأرض ملكاً لك"، "وأما أهل مدينته (اليهود) فكانوا يبغضونه. فأرسلوا وراءه سفارة قائلين: لا نريد أن هذا يملك علينا". هذا هو رفض اليهود للمسيح الملك، لقد قبلنا بالتفسير الحرفي لهذا الرفض، كما قبلنا بكل نبوءة تنبئ بضرهم وتشتيتهم، لقد قبلنا فيهم القول: "سيقعدون أياماً كثيرة بلا ملك" وبلا أرض وبلا سيادة وبلا عبادة وبلا هيكل وبلا ذبائح، هذا لأننا رأينا ما أصابهم فآمننا بما رأينا. والآن بعد الذي نراه من تجمع اليهود في دولة إسرائيل، لا ينبغي أن يصعب علينا الإيمان بالتجميع الحرفي، ومن ثم انضمام البقية الباقية من اليهود إلى خراف المسيح في نهاية الأزمنة!!! لقد قبلنا فيهم القول: "هوذا بيتكم يترك لكم خراباً"، ولكننا تناسينا الشق الآخر: "يأتي وقت تقولون فيه مبارك الآتي باسم الرب".

- هل هذا هو الرأي الغالب بين المسيحيين العرب؟

(١) وهذا التأويل أيضاً يجانب الصواب. لمزيد من التفاصيل راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.



تساءل أبراهام بحيرة، فهزت جورجيت رأسها قائلةً:  
- قد تختلف التفاصيل والألويات في التحدث عن هذا الموضوع الحساس، ولكنني  
أؤكد لك أنهم متفقون بشكل عام على خطوته الرئيسية.  
- أجد صعوبة في تصديق ذلك. ولكن ألا يعتبر العرب المسلمون، والمسيحيون  
أيضاً ممن لا يتبنون وجهة نظرك، أن ما تتفوهين به يعتبر خيانة للوطن وتحالفاً  
مع العدو؟

## ◀ إعادة بناء الهيكل

ظهر الضيق على وجه جورجيت من سؤال أبراهام وتساءلت باستنكار:  
 - لم قد يُعتبر ذلك خيانة للوطن وتحالفاً مع العدو؟ فأنا لا أحارب في صفوف  
 جيش الدفاع الإسرائيلي، بل أعبر عن رأبي فحسب. وبالنسبة للمسلمين فالزمن تغير  
 وهم لا يستطيعون إجباري على أن ألغي عقلي وديني وأتبع وجهة نظرهم بشكل أعمى.  
 أما المسيحيون في البلاد العربية، فقد استفاق أغلبهم، ولم يعودوا مخدوعين كالسابق<sup>(١)</sup>.

(١) للأسف فإن هذه الفئة (التي تمثلها جورجيت في هذه الرحلة) آخذة في التنامي بين المسيحيين العرب  
 بمختلف طوائفهم. وحسب تعبير أحد المسيحيين التقليديين الوطنيين في أحد المنتديات فإن هذه الفئة:  
 "تظن أن المسيحيين الآخرين أغبياء، ولا يفكرون ولا يمتلكون آليات البحث والتقصي، ويعتبرون أنهم هم  
 فقط دون سواهم الذين لم يندعوا بالمسلمين! "الغريب أن ذلك المشارك نفسه (وهو من أكثرهم اعتدالا  
 وتعقلاً واسمه هناك "فادي") قال موجهاً كلامه للإنجليي المشارك في الحوار (اسمه هناك "سرياني"):  
 "دي أول مرة نتكلم، بس قرينتك جملة قبل كدة غيرت فكري في أحد المجالات تغيير جذري. سعيد  
 بحواري معك"!!! وأغلب ما ورد على لسان جورجيت في هذا الموقف (الفصل) منقول من كلامهم في  
 ذلك الحوار. وحديثهم بشكل عام مؤيد لأعدى أعداء أمتهم العربية دون أي مواربة أو خجل، مع أنه  
 يظهر من كلام المشاركين أن لهم رتباً دينية في الكنائس التقليدية، وأنهم لا يزالون في الخدمة. كما يظهر  
 جلياً أن أغلبهم (باستثناء حاقد واحد دخل الحوار كضيف غير مسجل) هم من المثقفين الموضوعيين غير  
 المتطرفين! فكيف بغيرهم؟!!!! (بالمناسبة يبدو أن ذلك الحاقد معروف جيداً لبعضهم، فقد خاطبه أحدهم  
 قائلاً: "عزيزي جون (مع أنه دخل "غير مسجل" ولم يذكر أي اسم) أنا أؤمن بحق اليهود في إقامة دولة  
 اسرائيل، لكنني لا أوافقك القول أن "اليهود لا يعتدون على أحد ولا يقتلون أحداً"! وذلك الحاقد لم  
 يخفِ نشوته وشماتته بقتل الفلسطينيين المسلمين وتشريدهم على يد "الجيش الإسرائيلي الباسل"!!!  
 والمستنكر اليتيم على تعبيراته العنصرية الحاقدة (ويبدو أنه أكثرهم تديناً ووطنية واسمه هناك "لكي تجنّب  
 باسم يسوع كل ركلة") احتج فقط على طريقة صاحبها في التعبير عنها من وجهة نظر أخلاقية مسيحية.  
 دون تفنيد فهمه لنبوءات للكتاب المقدس، وأنبأه مذكراً إياه بأنه "مؤمن مسيحي"!!!: "هذا الكلام  
 مرفوض جملة وتفصيلاً أن يخرج من فم مؤمن مسيحي. مرفوض أن يحلل قتل فلان من الناس على  
 يد إعلان من الناس وتبريره على أنه مشيئة الله. لا تنسب "الجهالة" لله. ولا تفسر السياسة على أنها  
 عمل الله. إذا أراد الله أن يحقق مشيئته أو وعده لن يأخذ "طرقاً معوجة" وحاشا له أن يفعل ذلك. =

بعد أن انكشفت كل مؤامرات بعض قاداتهم المسيحيين العملاء للعربان لمحمدين<sup>(١)</sup>، والذين كانوا يُحرفون الكتاب المقدس ويخفون المعنى الحقيقي لنصوصه ونبوءاته عن الشعب لتضليلهم. وحالياً تتزايد أعداد من يتيقن منهم أن كل من يكره اليهود، يضع نفسه (بعلمه أو بدون علمه) في صف المسلمين والملاحدة واليساريين ويعمل لمصالحهم! فإسرائيل باقية ولن تزول حتى تتم كلمة الرب: " وأغرسهم في أرضهم ولن يقلعوا بعد من أرضهم التي أعطيتهم، قال الرب إلهك" ( سفر النبي عاموس ٩: ١٥).

هز أبراهام رأسه بأسف وقال متحسراً:

=دعوا السياسة للسياسيين وأعطوا الله ما هو لله . وقد رد عليه وفند كلامه أكثر من مشارك (فندوا كلام المستنكر) من وجهة نظر لاهوتية بالتفصيل، (ومن يرغب بمراجعة النص الكامل لذلك الحوار الشاق، يجده في موقع نادي الفكر العربي

(<http://www.nadyelfikr.com/printthread.php?tid=2526>)

قسم : الحوار الديني، الموضوع : الإنجيليون).

(١) للأسف فهكذا يصفون القادة المسيحيين الشرفاء الذين يحاربون انتشار الأفكار الصهيونية بين رعيتهم. وأولئك الشرفاء لا يزالون موجودين بقوة ولله الحمد، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر بيان "مجلس كنائس الشرق الأوسط" الصادر في نيسان/ أبريل ١٩٨٦م الذي رفض الصهيونية المسيحية بشكل واضح لا لبس فيه باعتبارها "سوء استعمال للكتاب المقدس وتلاعباً بمشاعر المسيحيين في محاولة لتفديس إنشاء دولة من الدول وتسويغ سياسات حكوماتها". وأجمل الأمين العام للمجلس القس "رياض غريغور" مبررات الرفض في الأسباب التالية: (إن الصهيونية المسيحية لا تمت بصلة للمسيحية لأنها تشويه مشبوه الغايات لبعض ما جاء في أسفار الكتب المقدسة. إنها مؤامرة حيكت ضد المسيحيين عامة والمسيحيين العرب خاصة، لضرب المشروع الحواري بين المسيحية والإسلام، ولتبرير أطروحات صراع الحضارات والأديان، لاسيما بين المسيحية والإسلام، وهي تستهدف ضرب العيش المشترك الإسلامي المسيحي في العالم العربي). ولا ننس هنا صاحب المواقف الوطنية البطولية المشرفة بطريك الروم الأرثوذكس في القدس الأب "عطا الله حنا"، وإصراره على تسمية تلك الفئة بـ "المجموعات المتصهنة التي تدعي المسيحية". ومثل هؤلاء القادة المسيحيين الشرفاء ما فتئوا يذكرون دائماً أن هناك تناقضاً هائلاً بين ما تعلمه وتنادي به المسيحية من سلام ووثام ومحبة، وبين ما تدعو إليه هذه الفئة من تكريس للفكر العنصري والتمييز العرقي وممارسة أساليب خبيثة شيطانية لتمرير مشاريع مشبوهة، هي أقرب إلى اليهودية الصهيونية منها إلى أي شيء آخر. وهم يحذرون من أن أهداف هذه الحركة هو استقطاب المسيحيين الشرقيين والعمل على سلبهم من هويتهم وجذورهم الشرقية وقضاياهم القومية تحت لافتة التبشير بالمسيحية.

- هل وصل تأثير بدع الإنجيليين في قلب المفاهيم المسيحية إلى هذه الدرجة؟ حتى لدى الطوائف المسيحية التقليدية!!!

- ليس في الأمر بدعة: المفاهيم المسيحية ونبوءات الكتاب المقدس ثابتة في كل عصر وزمان، وليس من جديد أتى به الإنجيليون. كل ما هنالك، أنهم اهتموا أكثر من غيرهم بدراسة علامات الأزمنة الأخيرة في عصر ساعد على نشر المعرفة وتزايدها بسرعة مذهلة. وأنا ممن يهوون دراسة النبوءات في الكتاب المقدس، وأطوب من يفعلون هذا الأمر لأن فيه إفادة روحية جمّة. "وعندنا الكلمة النبوية وهي أثبت التي تفعلون حسناً إن انتبهتم إليها كما إلى سراج منير في موضع مظلم إلى أن ينفجر النهار ويطلع كوكب الصبح في قلوبكم" (٢بطرس ١: ١٩).

- رغم قصر الفترة التي تكلمنا فيها، إلا أنكِ فاجأتني أكثر من مرة، ألسنت تكرهين الإنجيليين ووصفتهم قبل قليل بالذئاب الخاطفة؟ فكيف تدافعين عنهم الآن بهذه الضراوة؟

- أنا لا أدافع عن الإنجيليين أو غيرهم، بل أدافع عن الكتاب المقدس نفسه.

قالت جورجيت بشيء من الارتباك، ثم أردفت موضحة:

- لقد جاء في الكتاب: "ها أيام تأتي يقول الرب وأقيم لداوود غصن بر فيملك ملك وينجح ويجري حقاً وعدلاً في الأرض. في أيامه يخلص يهوذا ويسكن إسرائيل آمناً وهذا هو اسمه الذي يدعونه به الرب برنا. لذلك ها أيام تأتي يقول الرب ولا يقولون بعد حيّ هو الرب الذي أصعد بني إسرائيل من أرض مصر، بل حيّ هو الرب الذي أصعد وأتى بنسل بيت إسرائيل من أرض الشمال ومن جميع الأراضي التي طردتهم إليها فيسكنون في أرضهم" (ارميا ٢٣: ٥-٨) إلى أن قال الوحي في عدد : ٢٠ من ذات السفر والإصحاح: "في آخر الأيام تفهمون فهماً". ونحن نفهم الآن هذا الفهم.

- كلامك هذا يوحي بأن إسرائيل عادت إلى أرض الميعاد نتيجة تحقيق رباني لـ "وعد الرب" ولكن الحقيقة هي أن الرب لم يُرسل مشيخه بعد، وأن ذلك كان نتيجة لـ "وعد بلفور" وللحركة الصهيونية الإرهابية، وأن شعب إسرائيل (الملحد بمغالبته) يحتل تلك الأرض المقدسة ظلماً وعدواناً ويقتل السكان المحليين بوحشية متناهية.

- سواء عاد شعب الله بالحركة الصهيونية أو بأي حركة أخرى، وسواء بمساعدة السياسيين الغربيين أو دونها، فمشيئة الرب ستتم. أما ما ذكرته عن الاحتلال والوحشية، فهذا كله كذب وافتراء! فالشعب الإسرائيلي يدافع عن حقه بالأرض الذي يعترف به التاريخ والكتاب المقدس (بعهديه)، حتى القرآن نفسه يُثبت وجود مملكة إسرائيل ويذكر أسماء ملوكها! والجميع يعرف أن الغزاة المحمديين سكان جزيرة الإبل والماعز احتلوا أرض إسرائيل كما احتلوا مصر وباقي البلاد بقوة السلاح، وحولوها إلى حظيرة إسلامية! وإسرائيل أعطت للمسلمين أكثر بأضعاف مما يستحقون، مع أنهم تاريخياً لا يحق لهم أي شبر واحد من أرض إسرائيل، ومع ذلك أعطوهم الكثير. ولكن العربان المحمديين لا يشبعون، ويريدون إلقاء كل شعب إسرائيل في البحر عملاً بتعاليم محمد النازية. وبناء على تلك التعاليم بالذات فهم يفجرون الباصات والمقاهي والمدارس والحانات وحتى المخابز، ويقطعون البشر إرباً إرباً إلى مئات القطع اللحمية المتناثرة. فهل تعتبر ردة فعل إسرائيل إرهاباً!! هل المطلوب أن ترى إسرائيل شعبها يقتل وتتناثر أشلاؤه في الباصات والمقاهي، ويُمطر بالصواريخ يوماً، فيصفق لهم!!! القتل من جانب الجيش الإسرائيلي الباسل لا يحدث إلا مع الإرهابيين الذين يهاجمون إسرائيل! لا، بل إنهم يترصدونهم وينتظرونهم إلى أن يركبوا سيارتهم ثم يرسلون عزرائيل إليهم ليأخذهم ويريح الأرض من شرهم! وكما ترى فإن هذا الاحتياط هو أنسب فعل لتجنب المدنيين الذين يختبئ بينهم الإرهابيون الجبناء كعادتهم وأسلوبهم المنهج!

- الإسرائيليون ارتكبوا في سبيل الوصول إلى أهدافهم بشاعات يندى لها الجبين، ولا ينكرها عاقل. صحيح أن البعض قد يضع هذه الأعمال في خانة الدفاع عن النفس، أو يبررها بدرع واق من هجمات الإسلام الشرسة، لكنها تبقى في منظور كل إنسان، بل كل مسيحي بالذات، أعمالاً تخالف وصايا المسيح، ولا تتفق مع الروح المسيحية، فكيف تدافعين عنهم بهذه الضراوة؟!

أطرقت جورجيت برأسها قائلةً:

- ربما معك حق، وأحياناً كثيرة أفقع في حيرة من أمري وأنا أرى شراسة السياسة الإسرائيلية، ويقابلها في الجانب الآخر التعصب والكره الإسلامي لليهود.

ثم ما لبثت أن رفعت رأسها والشرر يتطاير من عينيها قائلة:

- ولكنني في الوقت نفسه أتساءل، هل يَثْبُت اليهود في فلسطين محاطين من كل جانب بدول عربية لا ترغب بهم وتتطلع إلى إفنائهم، إن تخلوا عن سياساتهم القمعية والعنف؟! ألن يستوطي الإسلام جدارهم إن هم أظهروا ضعفاً!!!

- لا أفهم لماذا كل هذا الاهتمام الزائد منك باليهود؟!

- أليسوا هم أصحاب المواعيد والبركات؟ إن اهتمامنا بهم هو بتأثير أكثر من ٢٠٠٠ سنة تعامل فيها الله معهم بأجلى صورة وأجمل بيان. وهذا التاريخ في كلمة تقرؤها ونتغذى بها كل يوم حتى إنها باتت جزءاً لا يتجزأ من حياتنا. وكفيئنا أن يكون المسيح منهم بالجسد لنميزهم عن باقي الشعوب. كما أن الاهتمام بهم ينشأ نتيجة أشواقنا لمعايشة إتمام النبوءات التي قيلت فيهم.

- حسناً. قد أتفق معك بشأن إدراك المسيحيين العرب أخيراً لفضل اليهود باعتبارهم شعب الله المختار أولاً، وأصحاب عهده القديم والمواعيد والبركات، وربما أتفق معك بقبولكم بدولة إسرائيل باعتبارها تنفيذاً للنبوءات ولمشيئة الرب، ولكن ماذا عن إعادة بناء الهيكل (على أنقاض المسجد الأقصى) كشرط لعودة المسيح؟! فهذا

ينسف الفكر المسيحي القائم على أن السيد المسيح قد أكمل كل رموز العهد القديم بفدائه! فلماذا يُعاد رمز من رموز العهد القديم وعبادته؟! ولماذا إعادة بناء الهيكل وهو رمز للسيد المسيح وذبيحته؟! فسفر الرؤيا يؤكد أن هيكل الله الآن هو في السماء وليس على الأرض في أورشليم أو غيرها<sup>(١)</sup>، وأن هيكل الله الذي سيعود إليه السيد المسيح هو الكنيسة أو مجموع المؤمنين. كما أن ذلك ينسف أيضاً قول المسيح بأن إقامة الهيكل هي قيامته من الموت<sup>(٢)</sup>، ومن ثم فكل المؤمنين بالمسيح والذين اتحدوا به في الإيمان والمعمودية قد أصبحوا واحداً معه في جسده وصاروا "هيكل الله الذي تم إعادة بنائه" كما جاء في العهد الجديد<sup>(٣)</sup>. ألم يأتي كل هذا في العهد الجديد الذي تؤمنون به؟!!

- وجاء في العهد الجديد أيضاً: "ثم نسألکم أيها الإخوة من جهة مجيء ربنا يسوع المسيح واجتماعنا إليه ألا تتزعزعوا سريعاً عن ذهنكم ولا ترتاعوا لا بروح ولا بكلمة ولا برسالة كأنها منا أي إن يوم المسيح قد حضر. لا يخدعنكم أحد على طريقة ما. لأنه لا يأتي إن لم يأت الارتداد أولاً ويستعلن إنسان الخطية ابن الهلاك المقاوم

(١) يقصد ما جاء في (رؤيا ١١ : ١٩): "وَأَنْفَتَحَ هَيْكَلُ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ، وَظَهَرَ تَابُوتُ عَهْدِهِ فِي هَيْكَلِهِ، وَحَدَّثَتْ بُرُوقٌ وَأَصْوَاتٌ وَرُعُودٌ وَرَزْزَلَةٌ وَبَرْدٌ عَظِيمٌ".

(٢) يقصد ما جاء في (يوحنا ٢ : ١٨-٢٢): "فَسَأَلَهُ الْيَهُودُ: «آيَةٌ آيَةٌ تُرِينَا حَتَّى نَفْعَلَ هَذَا؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «نَقُضُوا هَذَا الْهَيْكَلُ وَفِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أُقِيمُهُ». فَقَالَ الْيَهُودُ: «فِي سِتِّ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً بُنِيَ هَذَا الْهَيْكَلُ أَفَأَنْتَ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ تُقِيمُهُ؟» وَأَمَّا هُوَ فَكَانَ يَقُولُ عَنْ هَيْكَلِ جَسَدِهِ. فَلَمَّا قَامَ مِنَ الْأَمْوَاتِ تَذَكَّرَ تَلَامِيذُهُ أَنَّهُ قَالَ هَذَا فَاثْمَانًا بِالْكِتَابِ وَالْكَلَامِ الَّذِي قَالَهُ يَسُوعُ".

(٣) (كورنثوس الأولى ٣ : ١٦ ، ١٧): "أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ هَيْكَلُ اللَّهِ وَرُوحُ اللَّهِ يَسْكُنُ فِيكُمْ؟ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يُنْسِدُ هَيْكَلُ اللَّهِ فَسَيُنْسِدُهُ اللَّهُ لِأَنَّ هَيْكَلُ اللَّهِ مُقَدَّسٌ الَّذِي أَنْتُمْ هُوَ". (وكورنثوس الأولى ٦ : ١٤ - ١٩): "وَاللَّهُ قَدْ أَقَامَ الرَّبَّ وَسَيُقِيمُنَا نَحْنُ أَيْضاً بِقُوَّتِهِ. أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ أَجْسَادَكُمْ هِيَ أَعْضَاءُ الْمَسِيحِ؟ أَفَأَحَدُ أَعْضَاءِ الْمَسِيحِ وَأَجْعَلُهَا أَعْضَاءَ زَانِيَةٍ؟ حَاشَا! أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مِنَ التَّصِقِ بَرَانِيَةٍ هُوَ جَسَدٌ وَاحِدٌ لِأَنَّهُ يَقُولُ: «يَكُونُ الْإِثْنَانُ جَسَدًا وَاحِدًا». وَأَمَّا مِنَ التَّصِقِ بِالرَّبِّ فَهُوَ رُوحٌ وَاحِدٌ. أَهْرَبُوا مِنَ الزَّانَا. كُلُّ خَطِيئَةٍ يَفْعَلُهَا الْإِنْسَانُ هِيَ خَارِجَةٌ عَنِ الْجَسَدِ لَكِنَّ الَّذِي يَزْنِي يُخْطِئُ إِلَى جَسَدِهِ. أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ جَسَدَكُمْ هُوَ هَيْكَلٌ لِلرُّوحِ الْقُدْسِ الَّذِي فِيكُمْ الَّذِي لَكُمْ مِنَ اللَّهِ وَأَنْتُمْ لَسْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ؟".

والمرتفع على كل ما يدعى إلهاً أو معبوداً حتى إنه يجلس في هيكل الله كإله مظهراً نفسه أنه إله" (٢ تسالونيكي ٢: ١-٤)، تماماً كما جاء في العهد القديم: "ها أنذا أرسل ملاكي فيهيئ الطريق أمامي ويأتي بغتة إلى هيكله السيد الذي تطلبونه وملاك العهد الذي تسرون به هو ذا يأتي قال رب الجنود . ومن يحتمل يوم مجيئه ومن يثبت عند ظهوره لأنه مثل نار المحمص ومثل اشنان القصار". (ملاخي ٣: ١) وعليه: فإن الموضوع ليس بهذه البساطة. بلا شك الكتاب المقدس يتحدث عن هيكل سماوي وهيكل أرضي مصنوع من أجساد تقدست ليسكن روح السيد فيها، لكنه يتحدث أيضاً عن هيكل حجري. وعليه لا يمكننا بسهولة الفصل في هذا الموضوع، وتحديد الهيكل الذي يأتي إليه المسيح آخر الأزمنة. وبغض النظر عن ماهية الهيكل، فإن هذا الحدث مقترن بمجيء المسيح الثاني للدينونة.

- هل يعني ذلك أنك لا تُسلمين بالتفسير المسيحي التقليدي الذي يقول بالهيكل الروحي، أي أجساد المؤمنين؟!!!

- أنا كبقية الأرثوذكس أميل إلى التفسير الروحي بهذا الموضوع، ولكن حتى إن كنا لا نؤمن بعودة المسيح إلى هيكل حجري بالمعنى الحرفي، فما المانع من أن نؤمن أن هنالك بقية باقية من شعب الرب القديم تعود بقلبها للرب فتبني هيكلًا روحياً؟ أليس هذا ما يقوله رسولنا الحبيب بولس؟

- يبدو أنك غير مقتنعة تماماً بالتفسير الروحي للهيكل.

- ربما، فهنالك مشاكل تعترض ذلك التفسير، إذ إن الكتاب في النص الذي استشهدت به يتحدث عن "أثيم" مستعلٍ سيسكن الهيكل قبيل عودة الرب؛ أي إنه بالتأكيد لا يتحدث عن أجساد المؤمنين. على كل حال فلسنت من المهتمين بتفاصيل الأحداث قبيل عودة المسيح، وبهيكل حجري أم بدونه، فإن المسيح بلا شك قادم ثانية. ما يهمني هو العيش بأمانة أخدم سيدي وإخوتي منتظرة عودته.



- لو كان هذا التفسير الحرفي صحيحاً، فما الذي منع المسيحيين من إعادة بناء هيكل اليهود وقد كانت أورشليم تحت حكمهم منذ القرن الثالث حتى القرن السابع؟ بل عندما احتلها المسلمون، اشترط المسيحيون في معاهدة أورشليم مع خليفة المسلمين آنذاك<sup>(١)</sup> شرطاً عجيباً وهو "ألا يساكنهم فيها يهودي"!! وبعد ذلك سيطر الصليبيون على أورشليم لمدة قرنين من الزمن تقريباً كانت لهم وحدهم بعد إبادة من فيها، ولم يهتموا طوال تلك المدة أيضاً ببناء الهيكل!! فلماذا تذكره مارتن لوثر فجأة بعد عصور من الاضطهاد المسيحي لليهود في أوروبا؟ أليس غريباً الأمر كله، ويبدو في مصلحة اليهود أكثر منه إصلاحاً للكنائس التقليدية والمنهج المسيحي؟ وإلا لماذا تغير الفكر المسيحي في هذا الاتجاه في هذا الوقت بالذات!!!

- لا أرى غرابة في الأمر: فالجيء له علامات تسبقه وليس للبشر سلطان في استباق الحوادث وتغيير الأزمنة.

- أي إنك لا ترين في الأمر مؤامرة!!!

- بمؤامرة أم بدونها العالم ذاهب إلى نهايته، وهذه المؤامرة، إن وجدت فهي مجرد وقود يصب على النار المشتعلة أصلاً. فإرادة الله تتم بغض النظر عن سيشتك في تنفيذها، وبغض النظر عن العوامل السياسية والمصالح العامة، غير أن هذه تستخدم وتسخر إن كانت تصب في المخطط الإلهي ولا تناقضه.

- ألا تتفقين معي أنه لولا البروتستانتية، وتغير المفاهيم المسيحية، ولولا التنويرية وتغير المفاهيم اليهودية، لما قامت دولة إسرائيل؟

- ولولا أن تزوج أبي من أمي لما جئت إلى الحياة. ومع ذلك أقول إن خالقي هو الله. - جواب مفحم.

- شكراً. أنا أشبه خطة الله وتدبير مقاصده بالفتيلة المشتعلة، تارة يأتي من يحاول إطفاءها وتارة أخرى من يصب عليها وقوداً ليسارع في اشتعالها. وسواء كان

(١) عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

البروتستانت والتتويريون أم لم يكونوا، فهذا لا يعطل المسيرة، ونبوات الكتاب المقدس ستتم في النهاية. فالماسونية التي هي عدو المسيحية بالدرجة الأولى، تهتم أكثر منهم، بل تسابقهم إلى جر العالم تجاه الفصل الأخير من المسرحية، ويحضرون للشخصيات والأدوار في خفية وسرية تامة. تعمداً أم جهلاً؟ لا يهم. المهم أنهم يقومون بتنفيذ أدوارهم، وكذلك بعض الإنجيليين، وللكنائس الأخرى أيضاً دور. حتى الإسلام له دور. فلكل دور في مسرحية "نهاية العالم".

## ◀ انقسامات لاهوتية

صمت أبراهام متأملاً في منطق جورجيت، وهو يتساءل عن مدى اعتمادها في ذلك على الفكر اللاهوتي لطائفتها، وقرر أن يدرس الفكر القبطي ما دام غير بعيد عن اليهودية إلى هذه الدرجة، فقال لها مقدماً:

- مع أنني لا أتفق معك تماماً، إلا أنني معجب فعلاً بعقيدتك، وأتمنى أن أعرف عنها المزيد. هل عندك كتب عن القبطية باللغة الروسية؟

- ليس بالضبط. فعندي كتب عن الأرثوذكسية بشكل عام، ولكنها صادرة عن البطريركية الروسية وليست عن البطريركية المصرية القبطية.

صدم أبراهام من قول تلك الفتاة التي لا تزال تفاعئه المرة تلو الأخرى، فحسب معلوماته المتواضعة، يعتبر البون شاسعاً جداً بين الأرثوذكسية القبطية اللاخليدونية، والأرثوذكسية الروسية الخليدونية<sup>(١)</sup>.

- ألا يوجد فرق كبير بين طوائف الأرثوذكس المختلفة؟

- ليس تماماً، صحيح أنهم أربع عشرة كنيسة مختلفة، ولكنهم بشكل عام يكونون عائلة تقترب فيما بينها أكثر مما تقترب من بقية الطوائف المسيحية الأخرى، وبالذات البروتستانتية.

- ما طبيعة الاختلافات الطائفية بين الأرثوذكس؟

- مع أن الكنيسة القبطية تؤمن بألوهية الرب يسوع، إلا أنها ترى أن الأب والابن من جوهر واحد ومتساويان في الأزلية. أما كنيسة أورشليم الأرثوذكسية اليونانية مثلاً، ومن يتبعها، فتؤمن بأن المسيح له طبيعتان بناء على قرارات مجمع خليدونية<sup>(٢)</sup>.

(١) لفهم طبيعة الخلاف، راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف، وأيضاً: رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) وهو المجمع المسكوني الرابع. راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

ومشيئتان بناء على قرارات مجمع القسطنطينية الثالث<sup>(١)</sup>.

- لقد قرأت فعلاً أن الكنيسة القبطية تعترف فقط بالجامع المسكونية السابقة على مجمع خلقيدونية.

- هذا صحيح. فمنذ ذلك التاريخ انفصلت في كنيسة مستقلة تحت اسم الكنيسة المرقسية أو القبطية، وانفصلت معها كنيسة الحبشة وغيرها. في حين اعترفت كنيسة أورشليم الأرثوذكسية بقرارات المجمع وصارت منذ ذلك الوقت بطريركية مستقلة تحت رئاسة البطريرك "يوفينايلوس"<sup>(٢)</sup>.

- لماذا تركزين على كنيسة أورشليم الأرثوذكسية اليونانية بالذات<sup>(٣)</sup>؟

- أنا؟؟؟ كلا. الأمر ليس كذلك، ... ولكنني أحاول فقط أن أوضح نقاط الاختلاف بين الطوائف المسيحية الأرثوذكسية بناء على طلبك.  
- حسناً. تابعي من فضلك.

- بشكل عام، فإن جميع الأرثوذكس يؤمنون بأن الروح القدس منبثقة عن الأب وحده<sup>(٤)</sup>، وبأن مريم العذراء هي والدة الإله، ويوجبون تقديسها فقط، وليس تأليهها كما يكاد الكاثوليك يفعلون بمغالاتهم بإسباغ مظاهر التقديس عليها. كما أن الأرثوذكس يقدسون كل القديسين وذخائرهم، ويقدمون الصليب أيضاً باعتباره رمز المسيحية

(١) وهو المجمع المسكوني السادس سنة ٦٨١م، راجع رواية بشارات هاتمة، ورواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) الغريب أنه رغم كون القدس هي مهد بعثة عيسى عليه السلام، ومكان انعقاد المجمع النصراني الأول بواسطة الحوارين، وأول مركز للنصرانية، وفيها نشأت أول كنيسة لها، إلا أن مجمع خلقيدونية هو الذي أوجدها كبطركية، وجعل منها كياناً إقليمياً وقانونياً. والأغرب أن ذلك قدم لأسباب، أقل ما يقال عنها أنها ذرائعية!!!

(٣) راجع رواية بشارات هاتمة للمؤلف.

(٤) الكاثوليك أصبحوا يؤمنون بأنه منبثق عن الأب والابن اعتباراً من القرن الحادي عشر كما سيمر معنا لاحقاً.

وشعارها. وبالطبع يقدسون "الأيقونات" (١) غير المجسمة.

- هل هذا موقف جميع الأرثوذكس من الصور المجسمة أو التماثيل؟
- أجل، وليس الأرثوذكس فحسب، بل البروتستانت وبقية الطوائف المسيحية الأخرى باستثناء الكاثوليك الذين يقدسون حتى تماثيل مريم العذراء.
- وأنتم، ألا تفعلون ذلك؟
- كلا بالطبع. بل إنك لا ترى أيقونة للعذراء مريم وحيدة في الكنائس الأرثوذكسية، فهي دائماً إلى يمين ابنها الذي يحتل مركز الأيقونة بلا منازع أو ابنها بين التلاميذ. أما أصنام العذراء الزرقاء فهي في الواقع مرفوضة أرثوذكسياً وبروتستانتياً، وهي اختراع كاثوليكي متطرف.

- في القرنين الثامن والتاسع ظهرت حول القسطنطينية حركة تسمى "أيكونوكلازم" (٢)، رأت أن الأيقونات تشكل سقوطاً في الوثنية باعتبار أن كثيراً من المصلين أصبحوا يظنون أن الأيقونة هي نفسها الشخص المقدس المرسوم عليها. فهل كان لتلك الحركة أثر عليكم؟

- ليس طويلاً؛ فصحيح أن هذه الحركة نجحت بشكل مؤقت لتأييدها من قبل بعض الأباطرة المعادين للأيقونات، ولكنها سرعان ما قمعت، ولم يظل من آثارها إلا محاولات للفنانين البيزنطيين في الابتعاد عن التصوير الواقعي، والميل نحو التجريد، وذلك حتى يبتعدوا عن التجسيم والتوثين. ثم عادت الأمور إلى مجراها الطبيعي

(١) الأيقونة "أيكون" بمعنى صورة أو تمثال، ولها أصل في معظم الثقافات والأديان القديمة، حيث كان يعتقد أن الإله يحل في التمثال (الصنم) فتصبح الأيقونة موضع الحلول الإلهي. وفي السياق المسيحي، تشير كلمة أيقونة إلى لوحة أو رسم بارز، أو لوحة فسيفسائية للمسيح أو العذراء أو أحد القديسين، وهي تعتبر أداة مساعدة أو وسيطاً للعابدين حتى يمكن للشخص المقدس (المصور) في الأيقونة والمتجسد فيها، أن يستمع لدعواتهم، بالفعل وليس بمجرد الرمز.

(٢) أي تحطيم الأيقونات أو تحطيم الأصنام. لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

بالنسبة إلى الكاثوليك، وبشكل أقل من التجسيم بالنسبة إلينا . وحالياً بعثت تلك الحركة من جديد بعد أن تبنتها الكنيسة البروتستانتية.

- البروتستانت لا يؤمنون بكل الأسرار السبعة، فهل تؤمنون أنتم بها كاملة؟  
- بالطبع.

- هل من الشائع عندكم استخدام الآلات الموسيقية في الصلاة والترانيم الكنسية؟  
- نحن لا نستخدمها مطلقاً. كما لا يقام القداس في كنائسنا يومياً.  
- كيف تصومون؟

- الأصل هو الامتناع عن الأكل حتى الغروب، ولغير المستطيع أن يصوم على قدر طاقته، ويعفى منه خمس فئات: المرضى، والرجل العجوز، والمرأة العجوز، والأطفال أقل من اثنتي عشرة سنة، والمرأة الحامل، والمرضع. ولكن الشائع هو الصوم تبعاً لما أقر آباء الكنيسة في التقليد الشريف، بالامتناع عن اللحم بأنواعها ومستخرجاتها، والاقتصار على ما تثبت الأرض.

- هل تسمح الأرثوذكسية لرجال الدين بالزواج؟  
- فقط قبل الدخول في الرتب الكنسية، ولكن حتى عندئذ، فهم لا يُرَفَّعون فوق رتبة الكاهن (القس) إلا بعد موت زوجاتهم. وبعد وفاة الزوجة لا يسمح للكهنة بالزواج مرة أخرى سواء رفعوا أم لم يرفعوا.

- ما أهم الاختلافات بين طوائف الأرثوذكس؟  
- الاختلاف حول طبيعة الرب يسوع. وقد كان خلافاً سياسياً وسيادياً أكثر من كونه عقائدياً، ولكن الأمور تطورت حتى أصبح ذلك الخلاف من صميم العقيدة نفسها، وقسم الأرثوذكس إلى مذهبين متنافرين؛ فال"مونوفيزيقيون"<sup>(١)</sup> من جهة يؤمنون بأن للمسيح

(١) اللقب الذي يطلقه الخلقيدونيون على غرماهم اللاخلكيدونيين . ولتفاصيل أكثر حول كل هذه المواضيع راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف .

طبيعة واحدة مثل الكنيسة القبطية التي تضم كنائس الحبشة والسودان، والكنيسة الأرمنية<sup>(١)</sup>، واليعقوبية<sup>(٢)</sup>. أما الباقون فيؤمنون بمذهب الطبيعتين مثل الكنيسة الشرقية أو كنيسة القسطنطينية، وكنائس أورشليم واليونان وروسيا وأوروبا الشرقية.

- ما الفرق بين المذهبين؟

- يعتقد الأول، أي اللاخليديون أو اليعاقبة كما اصطلح على تسميتهم، أن الأفانيم الثلاثة ما هي إلا خصائص للذات الإلهية الواحدة، ومتساوية معه في الجوهر والأزلية، ومنزّهة عن التأليف والتركيب. في حين يعتبر الثاني، أي الخليديون أو الروم<sup>(٣)</sup> كما اصطلح على تسميتهم، أن أقنوم الابن أقل من أقنوم الأب في الدرجة، لذلك فهي مراحل انقلب فيها الله إلى الإنسان. حيث إن للرب يسوع طبيعة إنسانية وطبيعة لاهوتية. ومن ثم يحكمون بكفر المذهب المونوفيزيقي وهرطقته. وهم يشتركون في ذلك مع نظرائهم الروم الكاثوليك.

- إذا كان الأمر كذلك فما الذي أدى إلى الانقسام بين الروم الأرثوذكس والروم

الكاثوليك؟

- هناك فروق كثيرة، ولكنها كلها غير أساسية، ولهذا فقد حفظ دائماً أساقفة "رومه القديمة" الشركة مع أساقفة "رومه الجديدة" (القسطنطينية) والشرق لغاية ١٠٠٩ - ١٠١٤، حين استولى للمرة الأولى الأساقفة الفرنجة على كرسي رومه القديمة. فلغاية العام ١٠٠٩، كان باباوات رومه وبطاركة القسطنطينية متحدتين في الإيمان الأرثوذكسي، أي الإيمان القويم، بصراع مشترك ضد الأمراء الإفرنج وأساقفتهم الذين كانوا في ذلك الوقت يعدون مع الهراطقة.

(١) اعتقاد الكنيسة الأرمنية شبيه بالاعتقاد القبطي، مع أن لها ترتيباً كنسياً خاصاً بها.

(٢) اللقب الذي كان يطلقه الخليديون على السريان قبل أن تتوحد الرؤيا بينهم. (راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف) ويوجد معظم أتباع الكنيسة السريانية في العراق، ويقدم بطريركهم في حمص بسورية.

(٣) أي "الملكيون" كما يطلق عليهم غرماؤهم اللاخليديون.

- كيف أثر الفرنجة في الكاثوليكية؟

- لقد أدان الإفرنج في مجمع فرانكفورت عام ٧٩٤ قرارات المجمع المسكوني السابع والإكرام التبجيلي للأيقونات المقدسة. وعلى المنوال نفسه أدخلوا في العام ٨٠٩ الإضافة "الفيلوكفيه"<sup>(١)</sup> التي أقرتها غالباً<sup>(٢)</sup> وعض عليها شارلمان<sup>(٣)</sup> بالنواجذ. وقد احتج رجال الدين البيزنطيون الشرقيون وقالوا إن الروح القدس لا ينبعث من الابن بل ينبعث عن طريقه. ووقف الباباوات بين هؤلاء وأولئك إلى حين، ولم تدخل هذه العقيدة رسمياً في المذهب اللاتيني الغربي (الكاثوليكي) إلا في القرن الحادي عشر. وفي مجمع القسطنطينية الذي ترأسه "فوتيسوس الكبير" وشارك فيه ممثلون عن البابا الأرثوذكسي، أُدين كل من أدان مقررات المجمع المسكوني السابع، مع كل من أضاف الفيلوكفيه إلى دستور الإيمان.

- ماذا تقصد بالبابا الأرثوذكسي؟

- حتى ذلك الحين كان باباوات رومه لا يزالون على الإيمان القويم أي الأرثوذكسية. ولكن الأمر تغير مع استيلاء الفرنجة على البابوية: فقد أضاف البابا الفرنجي "سرجيوس" الرابع عبارة "والابن" إلى دستور الإيمان في رسالة تنصيبه عام ١٠٠٩. ومن بعده أدخل البابا "بندكت الثامن" دستور الإيمان مع عبارة "والابن" إلى خِدْم العبادة الكنسية. وعندها حُذِف البابا من ذبتيخا الكنيسة الأرثوذكسية.

- أنا لا أرى هذا الاختلاف جوهرياً!

(١) من اصطلاح: ex patri filioque procedit أي المنبثق من الأب والابن، ويقصدون به الروح القدس.

(٢) بلاد الغال أو فرنسا حالياً.

(٣) ملك الفرنجة، ولاحقاً إمبراطور الشق الغربي من الإمبراطورية الرومانية. لمزيد من المعلومات راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.



- كيف لا، والفيلوكفنيه تعني أن الروح القدس ينبثق من الآب ومن الابن، وهذا يحط من رئاسه الآب، ويعرض المساواة بين أقانيم الثالوث للشبهة. فالابن ينقص في شخصه كونه مولوداً، إذ في حال كان هناك وحدة بين الآب والابن يكون الروح القدس خاضعاً وليس مساوياً في القوة والمجد للأقنومين الآخرين<sup>(١)</sup>.

- وما الأمور الأخرى التي تعترضون عليها بالنسبة إلى الكاثوليك؟  
- لقد أصبحت حالياً أكثر من أن تعد. ولكن أهم ما نعترض عليه من طقوسهم ومفاهيمهم هو أولوية البابا، التي بحسبها يكون البابا: "أسقف الأساقفة" episcopus episcoporum ومصدر الكهنوت والسلطة الكنسية، والرأس المعصوم والقائد الأول للكنيسة التي يحكمها بطريقة ملكية كمثل للمسيح على الأرض!!! وبهذا المفهوم يرى البابا نفسه خليفة للرسول بطرس الذي أخضع له الرسل الباقون أنفسهم، بمن فيهم بولس<sup>(٢)</sup>. كذلك نعترض على نظرتهم إلى استحقاقات المسيح، والتي يوزعها البابا، إلى جانب النعمة الغزيرة التي للقديسين، والابتداعات الليتورجية في كل الأسرار السبعة، وفصل أسرار المعمودية والميرون والمناولة الإلهية، وعزلها بعضها عن بعض، وممارسة عدم مناولة الشعب من "دم" المسيح، واستعمال الخبز الفطير في القداس الإلهي، وهو ما يخالف الطريقة التي أتم بها السيد المسيح العشاء السري، وتقديس التقدمة التي لا تتم باستدعاء الروح القدس، بل بإعلان كلمات المسيح التأسيسية "خذوا كلوا... اشربوا منها كلكم..." والنظرة إلى تقدمه المسيح على الصليب على أنها إرضاء للعدالة الإلهية، والتي تصوّر الله الآب كسيّد إقطاعي متغاضية عن القيامة، وعقيدة وراثه المعصية من الخطيئة الجديدة.

(١) عقيدة الـ "ستريو" steiro؛ أي الأقنوم غير المسبّب.

(٢) راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

- تبدو نقاطاً خلافية كبيرة فعلاً. ولكن أخبريني من فضلك، كيف انقسمت الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية نفسها؟

- لقد دخل البلغار في المسيحية الأرثوذكسية بعدما أُجبر الحاكم البلغاري "بوريس الأول"<sup>(١)</sup> على قبول المعمودية من الإرساليات التبشيرية، ثم اعتنق الدوق (كناز) "فلاديمير" أمير كييف المسيحية الأرثوذكسية<sup>(٢)</sup> طوعاً، منضماً إلى الكنيسة البيزنطية أيضاً. ولكن بيزنطة نفسها عانت من هزات كبيرة فيما بعد؛ ففي عهد البابا "أنورت" الثالث<sup>(٣)</sup> انطلقت الحملة الصليبية الرابعة لاحتلال القسطنطينية والقضاء على كنيستها لتحقيق وحدة الكنيسة المسيحية بالقوة على مذهب رومه الكاثوليكي، فدخلت الحملة الصليبية الرابعة القسطنطينية عام ١٢٠٤م كالجراد المنتشر، وأتت على الأخضر واليابس، فلم تترك فيها حرمة إلا انتهكتها، ولا ديراً ولا كنيسة إلا خربتها بعد

(١) ٨٥٢-٨٨٨م.

(٢) عام ٩٩٠م. وكان ذلك في إطار جهود "كناز فلاديمير" الرامية إلى توحيد القبائل السلافية المتحاربة تحت دين واحد وحكومة واحدة، ولكسب حلفاء أقوىاء لإمبراطوريته الناشئة. وقد أرسل في سبيل تحقيق ذلك أربع بعثات لدراسة الأديان الأربعة القوية في ذلك الوقت. فتوجهت الأولى إلى بيزنطة لدراسة الأرثوذكسية، والثانية إلى ألمانيا لدراسة الكاثوليكية (لم تكن الحركة البروتستانتية قد ظهرت بعد)، والثالثة إلى بلاد الخزر لدراسة اليهودية، والرابعة إلى خوارزم لدراسة الإسلام. وقد عاد المبعوثون بحصيلة دراساتهم دون أن يعتنق أحد منهم الدين الذي سافر ليتعرفه، إلا البعثة إلى خوارزم، التي عاد أفرادها وقد اعتنقوا الإسلام فعلاً. وقد سمع منهم فلاديمير وأعجب بالإسلام، عازماً على أن يكون هو الدين الذي سيوحد به شعبه الوثني. وأقام مأدبة عظيمة لقواده، فيها ما لذ وطاب من الطعام والنبذ، معلناً عليهم دعوته الجديدة. ولكن أفراد البعثة لفتوا انتباهه إلى تحريم الإسلام للخمر، فأرسلهم إلى خوارزم ثانية، لطلب استثناء من ذلك التحريم؛ فهو لن يستطيع توحيد الروس على دين يحرم الخمر، الذي يحتل مكانة كبيرة في حياتهم، وهم سيقاومون ذلك بكل قوتهم. وجاء الجواب بالرفض، فانتهدت الدعوة الإسلامية في روسيا قبل أن تبدأ. واختار فلاديمير دين الإمبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية التي أحب إحدى أميراتها، خاصة أن الشعب الروسي كان قد عرف المسيحية عن طريق دوقته المحبوبة "أوليفا"، وإن كانت قد اعتنقته بشكل فردي (شخصي).

(٣) ١١٩٨-١٢١٦م.

نهب ما فيها من تحف وثروات. ولما استقر لهم الأمر ودانت لهم الإمبراطورية الشرقية (بيزنطة)، تم تقسيمها وعاصمتها على زعماء الحملة، وانتُخب "بلدوين دي فلاندرز" إمبراطوراً للإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية<sup>(١)</sup>، وتعين البطريرك الكاثوليكي توماس مورسيني بطريركاً لكنيستها. وحتى بعد عودة كنيسة القسطنطينية إلى سيادة الإمبراطورية البيزنطية، تتابعت محاولات ضم الكنيسة الشرقية الآخذة بالضعف إلى سلطان الكنيسة الغربية المتنامية القوة بدعوى أنها الكنيسة الأم، ولكن كل تلك المحاولات باءت بالفشل. وفي أيار/مايو ١٤٥٣م كانت الطامة الكبرى، فقد احتلت جيوش السلطان العثماني "محمد الفاتح" مدينة القسطنطينية، ومن ثم أمر بتحويل كنيسة أجا صوفيا<sup>(٢)</sup>، التي كانت بمنزلة الفاتيكان في الشرق، إلى مسجد محمدي.

- ولكنني قرأت أنه، على العكس من المحتلين الكاثوليك، أمّن أهالي القسطنطينية على أنفسهم وأعراضهم، ومنحهم حرية الاعتقاد وحرية ممارسة الشعائر والعبادات الخاصة بهم، واجتمع مع الأساقفة وهدأ من روعهم، وأمرهم باختيار بطريرك جديد يرضون عنه، فانتخبوا "جليارنوس" الذي استقبله السلطان محمد الفاتح بحفاوة وإكرام بالغين. وأن حسن معاملة ذلك السلطان وتسامحه هو ما جعل الكثير من البيزنطيين يتحولون إلى الإسلام، ولذلك تحولت أجا صوفيا إلى مسجد.

- هذا ليس مهماً، المهم أن القسطنطينية سقطت. ومع أن السلطان العثماني جعل بطريرك القسطنطينية الرئيس الديني والمدني لمسيحي الشرق كافة، إلا أن الكنيسة الشرقية كانت تمشي بخطوات حثيثة نحو التمزق. فقد جرى تقسيم الكنيسة الأرثوذكسية البلقانية إلى وحدات قومية، وأصبح للصر ببطريرك خاص في بيج بيوغسلافيا، والبلغار مطرانيتهم في أوهريد. أما سكان رومانيا فكان لهم مؤسسات دينية مشابهة.

(١) ١٢٠٤ - ١٢٦١م.

(٢) كنيسة الحكمة الإلهية.

- ولكن المؤرخين يرون أن بطريك القسطنطينية قد مارس في عهد الحكومة العثمانية سلطات أوسع من السلطات التي كانت مَحْوَلَة له في الدولة البيزنطية نفسها، وجرت أعياد الأرثوذكس وعبادتهم بحرية أوسع تحت حماية الدولة العثمانية. بل إن كنيسة القسطنطينية أصبحت جزءاً من الجهاز الحكومي العثماني، وعهد إليها بسلطة إدارة العديد من الوظائف والمهام الدينية والمدنية.

- هذا صحيح، ولكنه كان بمنزلة منة من المحمديين. ولذلك استقلت الكنيسة الروسية عام ١٥٨٨م، وأبطلت سيادة كنيسة القسطنطينية عليها، واعتبرت نفسها المركز الحقيقي والحامية للأرثوذكسية الصحيحة، وبذلك أصبحت "رومة الثالثة" حسب تعبيرها. وفي عام ١٨٢٣م استقلت الكنيسة اليونانية أيضاً عن كنيسة القسطنطينية. وفي عام ١٨٦٠م أعلن الأسقف "غيلادبون مكاريو بولسكي" استقلال الكنيسة البلغارية، ووافقت السلطات العثمانية على ذلك، وأنشأت لهم كنيسة خاصة في إستانبول تحت رئاسة مطران وهيئة مساعدة خاصة بهم<sup>(١)</sup>.

- إن معلوماتك رائعة.
- كلها، وبتفصيل أكبر، موجودة في تلك الكتب التي حدثتك عنها.
- هل تستطيعين إحضارها غداً. ونلتقي هنا في هذا المكان؟
- بكل سرور.
- إذن هيا بنا لأوصلك.
- لا داعي لذلك فأمامي بعض المشاوير التي علي القيام بها.
- وأنا أيضاً. إلى الغد إذن.
- في أي ساعة؟

(١) عقد بطريك كنيسة القسطنطينية مجمع القسطنطينية عام ١٨٧٣م ردّاً على ذلك بحضور بطاركة أنطاكية وأورشليم والإسكندرية ليصدر قراراً بحرمان جميع النظام الكنسي البلغاري. وعلى كل الأحوال فبعد سيادة الشيوعية في دول شرق أوروبا ضمت الكنيسة البلغارية والرومانية إلى الكنيسة الروسية.

- كلما كان أبكر، كان أفضل.

قال أبراهام وهو يفكر براحيل، التي لا بد أنها قد استيقظت منذ فترة طويلة، وبدأ القلق ينهش قلبها. فقد كان عازماً على ألا يتكرر ذلك بالغد، إلا أن جورجيت فاجأته قائلة:

- أستطيع القدوم في الساعة السابعة صباحاً إن أردت، أو أبكر من ذلك أيضاً.

- لا داعي لأبكر من ذلك: الساعة تناسبني تماماً. إلى اللقاء.

ولدهشته الكبيرة طبعت جورجيت قبيلتين على خديه وهي تقول:

- إلى الغد يا عزيزي.

جلس أبراهام في سيارة الأجرة يتحسس مكان القبيلتين، فيما كانت الأفكار تتضارب في رأسه. فكل ما يرجوه من جورجيت هو مجرد تعرف المسيحية عن قرب، وهو بالطبع لم يكن يفكر في إقامة أي نوع من العلاقات الخاصة معها أو مع غيرها، بسبب عدم حاجته إلى ذلك أصلاً، وبسبب حبه الشديد لراحيل أيضاً، إلا أنه مع ذلك، لم يستطع أن ينكر أن قربه من فتاة على مثل ذلك القدر من الجمال والذكاء، بالإضافة إلى الاهتمام الذي أبدته تجاهه، قد أرضيا غروره ورجولته بشكل كبير. كان يشعر بالأسى، لكونه سيضطر إلى خداع محبوبته، واختلاق الأعذار الكاذبة لتبرير غيابه الطويل، إلا أنه كان يعرف أنه لا يملك خياراً آخر، نظراً لغيرتها الشديدة، ولأنه يذكر جيداً ردة فعلها عندما شكت بأنه يفكر بترك اليهودية إلى دين آخر.

- حبيبي. لقد أقلقتني عليك كثيراً، أين كنت طوال كل هذه المدة؟

- لقد كان برنامجي حافلاً اليوم: فلقد ذهبت وأجريت كل الإجراءات المتعلقة بتمديد الإقامة في مصر ريثما تأتي الموافقة من ألمانيا على الهجرة. كما مررت على عدة سفارات أجنبية، واستفسرت عن شروط الهجرة لديهم. وسوف أتابع جولتي غداً أيضاً، ولكنني سأبدوها منذ الصباح الباكر كي لا أخسر أي دقيقة معك. هيا ارتدي ملابسك لنذهب للغداء، ثم نتزه على ضفة النيل، فالجو رائع الآن ومنظر ذلك النهر العظيم شاعري جداً في مثل هذه الأوقات.

- غريب. تبدو رومانسياً جداً هذا اليوم.
- ومن ذا الذي يرى هذا الوجه الجميل، ولا يصبح رومانسياً رغماً عنه؟
- ولكن ذلك الوجه الجميل كان أمامك طوال الفترة الماضية، ولم تكن بتلك الرومانسية، وكنت أنا دائماً من يطلب الخروج!!!... أنا ألمس بعض الغرابة في الموضوع.
- راحيل، ما بك يا عزيزتي؟ كل ما في الأمر هو أن سياراة الأجرة قد مرت على النيل في طريق العودة، فرأيت العشاق وهم يتزهون بسعادة على ضفتيه، وتمنيت لو أنني أفعل الشيء ذاته معك، فما الغريب في هذا؟!
- لا شيء، ولكنك تعرف مدى غيرتي، وقد أخذت الظنون بي كل مأخذ.
- لا تقلقي من هذه الناحية، فلا يوجد ما يثير غيرتك ولا حتى من بعيد. ثم إنني لست أحقق لأنظر إلى النجوم مادام القمر بين يدي.
- أنت مثير جداً عندما تكون شاعرياً.
- أما أنت فمثيرة دائماً، حتى وأنت تغارين، وتغضبين.
- ما أعظم حبي لك، يا أكثر رجال الأرض شاعرية.
- وما أعظم حبي لك أنا أيضاً يا أجمل نساء الأرض قاطبة، فجمالك بالذات هو ما كان ينقص ذلك المشهد الرائع الذي رأيته قبل قليل، ليصبح أجمل منظر على وجه الأرض. هيا ارتدي ملابسك بسرعة كي نخرج.

## ◀ الوقوع في الفخ

جاءت جورجيت في صباح اليوم التالي حسب الموعد المحدد، وحين كانت تتجه صوبه، وقف أبراهام يراقبها مبهوراً، وهو يتساءل في نفسه: أتكون هذه هي نفسها تلك الفتاة السمراء المحتشمة التي قابلها في الكنيسة البارحة؟ فقد كانت بتبرجها الذي جعل لون بشرتها أبيض يميل إلى الحمرة، وبملابسها المثيرة، تبدو وكأنها فتاة ليل تبحث عن صيد جديد.

ما إن وصلت إليه حتى وضعت حقيبتها المملوءة بالكتب على الأرض وطبعت على وجنتيه قبلتين أكثر سخونة من قبلتي البارحة. ودون أن يشعربادلها أبراهام القبل لشدة استثارته بمظهرها<sup>(١)</sup>، فما كان منها إلا أن عانقته بفرحة كبيرة، حتى إنها قيدت حركة يديه دون أن تشعر، وهو ما أزعجه كثيراً، فكفّاه أصبحاً في مكان غير مناسب على الإطلاق، خاصة وهي بتلك الملابس الفاضحة. وأزعجه أكثر مبالغتها الكبيرة في التعطر، كأنها قد سكبت على شعرها وملابسها لتراً كاملاً من العطر الفواح. وعندما أحس بأن العناق قد طال أكثر من اللائق، حاول إبعادها عنه بلطف، ولكنها ازدادت به التصاقاً، وتشبّثت به كأنها لا تريد عنه فكاًكاً! فاضطر إلى دفعها من خصرها، ولكن يده انزلقت إلى مكان آخر أكثر إحراجاً بينما كانت تقاوم دفعه بدلال وخنج. سرت رعشة شديدة في جسده، شلته لبعض الوقت، ولكنه ما لبث أن تمالك نفسه، وعاود المحاولة بلطف، ولكن بحزم هذه المرة. وعندما نجح أخيراً في إنهاء ذلك العناق المبتذل، أطلق زفرة طويلة أخرج بها أنفاسه التي كان يحبسها من دقة الموقف، ثم قال والعرق يتصبب من جبينه:

(١) أعتذر للقارئ الكريم بسبب المشاهد غير الأخلاقية التي ستكرر طوال هذا الفصل (الموقف). وعذري أنها لازمة لحبكة أحداثه، وستجدون في نهايته تفسيراً لكل ذلك.

- تبدين مختلفة اليوم.
- هل أعجبتك؟ لقد بذلت كل ما في وسعي لأثيرك.
- ازداد ارتباكك المشوب بالاستحياء، وقال وهو ينظر إلى الأرض ليخفي ذلك قائلاً:
- لقد نجحت في ذلك فعلاً.
- هذا من دواعي سروري.
- ثم استجمع قوته وهو يتفادى قدر استطاعته النظر إلى ملابسها المغرية، وقال
- محاولاً إدارة دفة الموضوع نحو الهدف الأساسي من مقابلته لها:
- هل أحضرت الكتب التي طلبتها منك.
- أجل.
- وعلقت حقيبتها على كتفها ثانية وهي تشير إلى الكتب المقدسة فيها، فعرض عليها
- أن يأخذها من الآن كي يخفف عنها الحمل. فأجابته بأن ذلك لا يزعجها مطلقاً، ثم
- شبكت كلتا يديها حول ذراعه وسارت معه الهوينى. وبعد فترة صمت قصيرة قالت
- محاولة أن تفتح موضوعاً جديداً للحديث:
- بالمناسبة، هل أنت معتاد على أن تكون مواعيدك بمثل هذا الوقت المبكر؟
- إنك أنت من اخترت هذا التوقيت!
- بل أنت من طلبت أن يكون بوقت مبكر، وأنا اقترحت ذلك مازحة. هل تعلم أنني
- لم أنم حتى الآن؟
- ولماذا فعلت ذلك؟
- خفت ألا أستطيع الاستيقاظ والوصول إلى هنا في هذا الوقت المبكر.
- لم يكن عليك فعل ذلك: فقد كنت أستطيع مقابلتك في أي وقت يناسبك.
- لا عليك. فأننا لم نستطع النوم على أية حال، فقد كنت أفكر بك.
- بي أنا؟! لماذا؟



عندها توقفت عن المشي واستدارت إليه وهي تنظر في عينيه مباشرة، ثم أفلتت حقيبتها ووضعت يديه أسفل ظهرها، فيما كانت تقبله ثانية، ولكن هذه المرة في شفتيه. تسمر أبراهام من هول المفاجأة، مستسلماً لقبالتها دون أن يحرك ساكناً، وكأنه مسلوب الإرادة، ثم استدارت معه ورفعت يديه من أسفل ظهرها إلى حول كتفيها وقبلته مرة أخرى، ثم حضنته بقوة. وعندما لاحظت ردة فعله الباردة ظهر عليها الارتباك، فتركته وانحنت لتلتقط حقيبتها، ولكنها فعلت ذلك بسرعة أكبر من اللازم، فاصطدم رأسها بوسطه، وهو ما أجبرها على التثبيت بقدميه كي تمنع نفسها من السقوط. وفيما هي على هذه الحال، نظرت إليه نظرة طويلة ضعفت كيانه، قبل أن تلتقط حقيبتها، وتقوم لتمسك يده متابعة السير. عبثاً حاول أبراهام أن يستوعب هذه التطورات غير المنتظرة، فسار معها مطأطئ الرأس وهو يفكر في كيفية التخلص من ذلك المأزق. بعد فترة صمت طويلة قالت جورجيت كأنها أدركت ما يجول في رأسه:

- أنا آسفة جداً على ذلك. فأنا أعرف أن تصرفاتي كان غير لائقة بالمرة، ولكنني لم أستطع أن أوقف نفسي عنها. فقد توالى البارحة على مخيلتي ذكريات تلك الوضعيات التي اعتاد نيكولاي أن يقبلني بها بينما كنت أفكر بك، حتى أحسست بأنني قد أجن إن لم أكررها معك بتلك الطريقة. هل أزعجك ذلك؟

- ما حصل قد حصل. ولكن أرجو ألا تعودني إلى ذلك مرة أخرى.  
- أكرر أسفي.

- لا عليك. أنت لم تنامي بعد، لذا أظن أنك يجب أن تذهبي إلى بيتك الآن لتتالي قسطاً من الراحة.

- لقد بقيت مستيقظة طوال الليل أتفنن بوضع الماكياج والتعطر كي أقابلك، وأنت

تريدني أن أذهب إلى النوم الآن!!!

- أظن أنك تحتاجين إليه. إلى اللقاء.

- ألن توصلني إلى البيت؟

- آه صحيح، ... أنا آسف. هيا بنا.

سار أبراهام معها دون أن ينبس ببنت شفة، فقد كان رسم في خياله مخططاً واسعاً ليوم حافل: يتضمن الذهاب معها إلى كنيسة قبطية ومحاولة تعرف أحد قساوستها وإجراء حوار معه، يشابه حوار الأمس. ولكن زيها هذا لن يجعل أي كنيسة ترحب باستقبالها، ولا حتى الكنيسة الإنجيلية التي كانا بها البارحة. وعندما وصلا إلى المنزل كررت جورجيت اعتذارها بشدة، وعرضت عليه أن يصعد معها لتناول القهوة، ولكنه رفض متذرعاً بمشاغله وبحاجتها هي نفسها إلى النوم، فوافقته على ذلك بعد أن انتزعت منه وعداً بالقدوم غداً صباحاً لتناول القهوة مع والديها، وقد قبل أبراهام الدعوة مسروراً، بعد أن عرف أن والدها هو مؤرخ كنسي كبير، وفوق هذا يجيد اللغة الروسية. وقرر في نفسه إنهاء قراءة الكتب التي أحضرتها له اليوم إن استطاع: حتى يستفيد من مقابلته لأبيها غداً على أكمل وجه.

ذهب أبراهام إلى أقرب مطعم ودخل إلى المغاسل، حيث غسل يديه ووجهه وشعره ونضح الماء على كل ملابسه ليذهب رائحة عطرها، ثم توجه نحو البنسيون مشياً على الأقدام تحت الشمس، لكي تجف ملابسه. إلا أنه ظل يشم رائحة العطر رغم ذلك، فتوقف عند أحد المحلات واشترى أقوى عطر رجالي فواح، وبخ عدة بخات على ملابسه كي يضيع أي أثر لرائحة عطرها الأنثوي نهائياً. ولكي يبرر لراحيل شراءه لزجاجة عطر وتعطره بها فوراً وعلى هذا النحو، اضطر إلى إكمال مشواره الطويل ركضاً.

- ماذا بك أبراهام؟ فتبدو كأنك خارج من معركة.

- لا شيء. ولكنني لست معتاداً بعد على حرارة مصر ورطوبة جوها.

- ما هذه الرائحة؟

- لقد اضطررت إلى شراء زجاجة عطر والتعطر بالشارع كي أستطيع الدخول إلى السفارات دون تخرج من رائحة العرق.

- أظن أن رائحة العرق خير من هذه الرائحة الغريبة، هل هي صناعة عربية؟  
- لا أظن. ها هي ذي الزجاجة إن كان الموضوع يهمك، أما أنا فستأذهب لأستحم بماء بارد.

- على رسلك. ما هذه البقعة على ملابسك؟ هل هو أحمر شفاه.  
- راحيل. لا تكوني سخيفة، أي أحمر شفاه ومن أين يمكن أن يأتي أحمر الشفاه؟  
سوف أذهب إلى الحمام الآن، فأنا أعاني الإسهال أيضاً ولا أستطيع التحمل أكثر من ذلك.

- حسناً، حسناً. اذهب إلى الحمام وستحدث فيما بعد.  
دخل أبراهام الحمام وأقفل الباب من الداخل على غير عادته، ثم فتح صنوبر مياه المرذاذ على آخره، وخلع ملابسه ليزيل أحمر الشفاه، ويفتش عن أي أثر آخر عليها لجورجيت. وفيما هو كذلك كان يلعننا ويلعن ذلك الموقف المرح الذي أوقع نفسه به، حتى إنه أقسم ألا يلاطف فتاة ثانية في حياته. وفي هذه اللحظة سمع صوت راحيل تناديه من وراء الباب:

- أبراهام لماذا تفلق الباب من الداخل؟  
- مجرد عادة اكتسبتها، عندما كنت أسكن مع أحمد.  
- افتح الباب إذن، فأنا لست أحمد.  
- انتظري حتى أرش معطر الجو.  
لملم أغراضه بسرعة ثم بلل نفسه بالماء كأنه كان تحت المرذاذ، ورش معطر الجو في الحمام وعلى ملابسه التي لاحظ أن بقايا عطر جورجيت لا تزال تفوح منها، ثم فتح الباب وعاد سريعاً إليه.

- أنت تتصرف بغرابة في الأيام الأخيرة. ما الأمر؟!
- أية أيام أخيرة يا حبيبيتي؟! لقد كنت تسخرين من جموح خيال أحمد وكثرة تشككه، وها أنت ذي تقلدينه الآن.
- أنا لا أقلد أحداً، ولكن تصرفاتك صارت غريبة جداً، خصوصاً اليوم.
- لقد كان يوماً مرهقاً، هذا هو كل ما في الأمر.
- أي يوم مرهق هذا، فالساعة لم تتجاوز العاشرة صباحاً بعد.
- ثم ألقط نظرة على ثيابه التي كومها في سلة الغسيل، وتناولت القميص فقلبته وشمته، قبل أن ترميه جانباً، وتخرج من الحمام دون أن تنبس ببنت شفة. فأنهى أبراهام استحمامه بسرعة، ولف منشفة حول خصره، ثم لحق بها مهرولاً.
- ماذا بك يا حبيبيتي؟ ما الذي يزعجك؟
- لم أزلت البقعة الحمراء عن القميص؟
- أكان يجب أن أتركها حتى تصعب إزالتها؟!
- وكيف وصلت إلى قميصك؟
- لقد كنت أكل "الهمبرغر"، وقد امتلأت يداي بالكتشب، ولعلي عدلت ياقة قميصي دون أن أنتبه لذلك.
- همبرغر؟ صباحاً؟!!!
- لقد مللت من تناول الفول والفلافل على الفطور، وهنا لن تجدي شيئاً آخر على الطريق.
- ولماذا رششت معطر الجو على قميصك؟
- لم أفعل. ولكنني أحسست بالحرج لدخولك الحمام بعد قضائي لحاجتي، فبالغت في تعطير الجو، ومن الطبيعي أن يتساقط رذاذ المعطر على الملابس.
- هناك رائحة عطر نسائي تتبعث منه.

## ◀◀ من يهودا إلى الناصرة ▶▶

- أنت تتوهمين فعلاً: فالمزيج بين العطر الجديد ومعطر الجو بالإضافة إلى غيرتك العمياء وخيالك الخصب، قد خلطت عليك الأمور.
- لا أعرف أبراهام. لا أعرف. إنني أثق بك أكثر مما أثق بنفسي، ومن أجل ذلك فقط، فإنني لن أصدق حدسي كامرأة، وأرجو أن تكون ثقتي بك في محلها.
- أوكد لك أن ثقتك في محلها، وأنا سأقطع يدي قبل أن أمدها نحو امرأة أخرى غيرك. وأقسم بالاسم الأعظم أنني لم أخنك ولن أخونك في حياتي. هل تصدقيني؟
- طبعاً أصدقك حبيبي، وأنا آسفة على غيرتي البلاء.
- لا عليك يا حبيبتني، فكلنا عرضة لذلك.
- إلى أين سنذهب اليوم؟
- لن نذهب إلى أي مكان، فقد أحضرت بعض الكتب، وعلي أن أنهي قراءتها اليوم.
- أه صحيح. ما قصة تلك الكتب المسيحية.
- لا توجد أي قصة، ثقافة عامة فقط.
- ولماذا المسيحية؟
- كان يعجبك إمامي بمختلف الأديان، أليس كذلك؟
- نعم. ولكن تثقف لاحقاً، ولنذهب اليوم للتنزه كالبارحة.
- كلا: فيجب أن أعيد الكتب غداً صباحاً.
- لمن؟
- لماذا تكثرين الأسئلة كأنك تحققيين معي؟
- ولماذا الغضب؟ لقد كان ذلك سؤالاً عادياً: فأنت لا تعرف أحداً هنا، ثم إنها بالروسية.
- استعرتهم من المركز الثقافي الروسي. هل ارتحت الآن؟
- لماذا تكلمني بهذه الطريقة.

- أنا آسف حبيبتي. اقضي اليوم بألعاب الوي التي تحبينها ودعيني أقرأ، وأنا أعدك أن تكون نزهتنا غداً أجمل من نزهة البارحة بكثير.

لم يستطع أبراهام التركيز في القراءة كما كان يأمل، فكمية الكذب الذي تراكم بعضه فوق بعض كانت تثقل كاهله وتعذب ضميره. ففي البداية برر كذبة صغيرة ليتستر على بحثه عن الحقيقة، ثم قادته تلك الكذبة إلى كذبات أخرى ليريح باله من إثارة غيرة راحيل العمياء، التي ليس لها ما يبررها. وها هو ذا الآن، وقد صار هناك فعلاً ما يبرر هذه الغيرة، مضطر إلى مزيد من الكذب خوفاً من كشف كذبه السابق، الذي قد يقود إلى تأزم العلاقة بينهما وربما إلى فقدانها. ندم على عدم مصارحة راحيل منذ البداية ببحثه عن الحقيقة، وتقدم أكثر على عدم وضع حد لجنون جورجيت ومجونها معه. ولم يحس بالراحة، إلا بعد أن أغلظ القسم بأنه سيقطع علاقته غداً بجورجيت نهائياً، بعد أن يرد كتبها، وبعد أن يتكلم مع والدها حول المسيحية وتاريخ الكنيسة، وأنه سيتفرغ بعد ذلك لراحيل، ويفعل كل ما تريده، كي يكفر عن خداعه لها، وقسوته عليها.

## ◀ رحيل راحيل

استفاق أبراهام وهو يحس بصداع شديد، ونظر حوله مستغرباً، ليجد نفسه مستلقياً على سرير في غرفة لا يعرفها وهو عار تماماً، والسرير مبلى تحته وتنبعث منه رائحة كحول قوية. وعندما قام متثاقلاً، اصطدمت قدمه بزجاجة خمر فارغة، فركلها بعصبية، وقام يبحث عن ثيابه. حاول أن يعتصر رأسه ليتذكر ما الذي جاء به إلى هذا المكان وكيف خلع ملابسه وأين تركها، ولكن دون جدوى. وعندما أطل برأسه إلى خارج الغرفة، تعرف الصالون، متذكراً أنه جلس هناك عندما دخل شقة جورجيت، فتاداها هي وأباها، إلا أن أحداً لم يجب. فبحث في بقية الغرف التي كانت لدهشته كلها غرف نوم، حتى وجد ملابسه وقد تناثرت على أرضية إحداها. ارتدى أبراهام ملابسه بسرعة ثم عاد إلى الصالون، وعندما رأى فناجين القهوة بدأ يتذكر كيف أحس برأسه يتناقل فور أن أنهى فناجانه، وطافت بمخيلته نظرة جورجيت الساخرة منه فيما كان يتهاوى على الأرض، حيث لم يعد يرى إلا أقداماً كثيرة تحيط به. كان آخر شيء استطاع تذكره هو أنهم حملوه إلى غرفة النوم ورموه بعنف على السرير.

خرج إلى الشارع، وأوقف سيارة أجرة متوجهاً إلى البنسيون ليرتاح. وعبثاً كان يحاول أن يستوعب ما الذي حصل، ولماذا فعلت جورجيت ذلك به، فقد كان لا يزال تحت تأثير المخدر الذي يبدو أنه كان قوياً جداً.

ما إن دخل أبراهام إلى الغرفة حتى رمقته راحيل بنظرة ملؤها الاحتقار، ثم تابعت ترتيب أغراضها كأنه غير موجود، فسألها مستغرباً وهو لا يزال يشعر بالدوار:

- ماذا تفعلين؟... راحيل..... لماذا تحزمين أمتعتك؟..... لماذا لا تردين علي؟

- لأنك خائن وكاذب ومزيف.

- لم كل هذا؟؟؟!

- انظر بنفسك لم.

ثم رمت وجهه بصورة من مجموعة صور كثيرة تكومت بجانب حقيبتها . فنظر إليها محاولاً تركيز بصره، فإذا به على ذلك السرير الذي استفاق عليه قبل قليل بوضعية جنسية مع جورجيت. فرماها على الأرض وقال لها حانقاً:

- كيف تصدقين ذلك؟! لقد خدروني ليلتقطوا تلك الصور.

- كفاك كذباً وتلفيقاً، فلن تخدعني ثانية.

- لقد كنت مخدراً، انظري إلى عيني.

انحنى إلى الأرض وناولها الصورة لتدقق فيها، إلا أنها رمتها بعيداً قائلة:

- أرى بوضوح أنك كنت مخدراً... ولكن بالنشوة.

- إنها مكيدة، فقد كانت تحب شخصاً يشبهني تماماً، وقد أوقعت بي لأنني رفضت

أن أجاريها في أوهامها. لقد خدرتني ومارست ألعابها القذرة معي.

- لا أعرف كيف استطعت خداعي كل هذه المدة وأنت بهذا الغباء؟؟؟! لا ريب أنني

كنت أغبي منك حين صدقت تفاهاتك السابقة.

جمعت باقي الصور التي كانت بجانبها وقالت وهي ترميهم بوجهه بالتدريج:

- ها أنت ذا هنا تقبل فتاة سوداء، فهل كانت هي أيضاً تظنك شخصاً آخر؟

وهنا على ضفة النيل حيث يمشي العشاق حسب تعبيرك: هل خدرتك هذه المومس

الرخيصة أيضاً؟ وهنا هل كنت مخدراً وأنت تقبلها من فمها القذر، يا من تأنف من

تقبيل الفم؟! وهنا تحضنها وأنت مخدر أيضاً ولا ريب. وهنا تتمشى وأنت ممسك

بيدها. هل كنت كالعادة... مخدراً؟! لا بد أنك تتزهت معها مدة طويلة حتى التقطت

لكما كل تلك الصور المختلفة. وهنا أيضاً كنت مخدراً عندما أمسكتها من أردافها؟؟!..

وها هي ذي المومس نفسها تجلس القرفصاء محتضنة قدميك وهي تمص...



ثم رمت بقية الصور في وجهه دفعة واحدة، وتابعت وضع ملابسها بالحقيبة وهي تجهش بالبكاء. فقال أبراهام مندهشاً:

- حبيبتي راحيل، كل هؤلاء الفتيات فتاة واحدة. ولكنه الماكياج، إنها مكيدة، ولا أعرف سببها.

- هل يعقل أن يصل كذبك إلى هذه الدرجة المفضوحة؟! انظر جيداً إلى صور بيت البدعارة العربي، الذي يبدو أنك مررت على كل غرفه وكل بدوية رخيصة فيه، وحاول أن تدعي أيضاً أنهم كلهن: طويلتهن وقصيرتهن، نحيلتهن وسمينتهن كن فتاة واحدة. هل يستطيع الماكياج أن يفعل ذلك أيها الكذوب الخائن؟ ما الذي كان ينقصك حتى تذهب إلى بيوت الدعارة: فأنت لم تكن تحلم يوماً بأن تنظر إليك فتاة مثلي. كيف تفضل علي تلك المومسات الرخيصات؟ أمثلي تخان؟ ومع من؟ مع هؤلاء البدويات؟! انحنى أبراهام مجدداً وجمع الصور التي رمتها، ثم تفحصها كلها بتمعن والحيرة بادية على وجهه، فقد كان مع أكثر من فتاة وفي غرف نوم شقة جورجيت المختلفة. فتملكه الإحباط من اختلاط الأمور عليه، ولكنه تذكر أن ملابسها كانت في غرفة أخرى، فذهب إلى راحيل مستعظفاً وهو يريد أن يضمها إليه ويشرح لها ما يظن أنه قد حدث، إلا أنها صرخت به صوتاً سمره في أرضه قائلة:

- إياك أن تلمسني أيها السكير النجس.

- أنا لست سكران، إنني فقط أعاني من الدوار الناتج عن التخدير.

- الشكر لله أنك سكران، ولا تدري ما تقوله حتى أكتشف مقدار كذبك وخيالك

المريض.

- أقسم باسم الرب الأعظم أنني لست سكران.

- كيف تجرؤ على ذلك، ورائحة الخمر تفوح منك؟ على أية حال فإنها ليست المرة

الأولى التي تقسم بها بهذا القسم كذباً.

شم أبراهام ملابسه فإذا برائحة الخمر تفوح منها فعلاً. فقال لها مستعظماً:

- راحيل أرجوك. لقد رشوا الخمر على ملابسني صدقيني.

- ألا تمل من الكذب؟ عندما حاولت عناقي شممت رائحة الخمر من فمك أيها

المخبول، فابحث عن كذبة أقل غباء.

نفخ أبراهام على يده وشمها فإذا برائحة الخمر تتبعث من فمه فعلاً، فطار صوابه،

ولم يعرف كيف يفسر ذلك، ثم ما لبث أن قال بعد أن فكر قليلاً:

- لا بد أنهم قد سكبوا الخمر في فمي ودهنوا به شفتيّ ولساني.

- ذكي. فهذه الكذبة فعلاً أقل غباء، ولكنها مع ذلك تبقى مجرد كذبة غبية.

- أرجوك صدقيني. هل كذبت عليك يوماً؟

- من؟ أنت؟ لا بتاتاً!!! فأنت مثال الصدق والإخلاص. ألم تكذب بشأن الهامبورغر

والكتشب الذي كان في الواقع أحمر شفاه؟ ألم تكذب بشأن ذهابك إلى السفارات

الأوربية في حين أنك كنت تدور على بيوت الدعارة المحلية؟ ألم تكذب بشأن مرورك

بسيارة أجرة على ضفة النيل ورؤيتك للعشاق، في حين أنك كنت هناك بنفسك، ومع

بنات الهوى؟ ألم تكذب حين حلفت بقطع يدك إن امتدت لغيري، في حين أنك كنت

تعبث بأرداف الفتيات وتدعهن يعبتون بعورتك في الشارع ودون خجل؟ ألم تكذب

حين قلت أنه لا يوجد ما يثير غيرتي ولا حتى من بعيد، وأنت لست أحق لتتظر إلى

النجوم ما دام القمر بين يديك؟ ألم تكذب حين غطيت رائحة عطر إحدى مومساتك

المتبرجات بمعطر الجو، وقلت إن الرذاذ تساقط لخدك من رائحة برازك النتن، وأن

رائحة عرق العفنة هي ما دفعك إلى سكب نصف زجاجة عطر جديدة على نفسك

لتغطيتها؟ ألم تكذب حين قلت إن إغلاقك لباب الحمام عادة اكتسبتها أيام سكتناك

مع أحمد، مع أنها في الحقيقة كانت لإزالة آثار جريمته؟ ألم تكذب حين ادعيت

الإسهال لتهرب من أسئلتي؟ ألم تكذب حين حلفت باسم الرب الأعظم أنك لم تخني

ولن تخونني؟ ألم تكذب وتكذب وتكذب؟

- راحيل أرجوك تذكرني تحذير أحمد لي من أن مردخاي قد يرسل فتاة إلي لتثير شكك بإخلاصي، إنها مؤامرة من الموساد ولا ريب.

- أف. وهل تظن أن مردخاي أو الموساد عندهم وقت لحبك مكائد لقذر مثلك؟

- وكيف وصلتك الصور إذن؟

صممت مفكرة، ولكنها عادت إلى ترتيب أغراضها وهي تقول:

- ربما كان رجال مردخاي هم من أرسل الصور فعلاً، ولكنني متأكدة أن كل ما فعلوه هو مراقبتك فقط، وكشف كل أفعالك الشائنة، ولا توجد مكيدة في ذلك أبراهام.

- ولكن أحمد قال...

- أحمد، أحمد، أحمد. كف عن ذكر ذلك المسلم العربي القذر. فلقد راودني عن

نفسى مراراً وصددته ولا داعي للتأثر به إلى هذا الحد.

- أحمد راودك عن نفسك!!!؟

صممت راحيل هنيهة، ثم هزت رأسها كأنه لم يعد يعنيه شيئاً البتة، وقالت

بلامبالاة:

- أتدري..... أنت لم تعد تهمني لأحاول أن أبدو ملاكاً أمامك، فقد عرفت

حقيقتك، وسقطت من عيني إلى الأبد، ولا مانع من أن تعرف حقيقتي أنا أيضاً، كي

أسقط من عينك أيضاً، ونفض هذا الموضوع تماماً، فلا تحاول تبرئة نفسك أمامي

بأكاذيبك الغبية ثانية.... أنا التي راودت أحمد عن نفسه مراراً، وقد كان يصدني

احتراماً لدينه ولأمي. وأنا التي سعت لإثارة إعجاب مردخاي وتعمدت ملاحقته من

مكان إلى آخر حتى لاحظني. وهو لم يعدني يوماً بالزواج، وقد كنت مجرد عشيقه له

من بين عشيقات كثر، مع أنني كنت دائماً المفضلة عنده نظراً لجمالي ولخبرتي الكبيرة

بالجنس، وبكل ما يثير شبق الرجال مهما كان قرفه وشدوده. وأنا لم أنظر إليك، ولم

أوافق على السفر معك إلا عندما عرفت أنك تبعث المال الذي حصلت عليه من بيع شقة جدتك، ولأنني أردت اصطلياد أكثر من عصفور بحجر واحد: فمن ناحية أثير غيرة مردخاي وجنونه، ومن ناحية أخرى كنت أريد أن أعيش مغامرة قصة حب مع رجل متدين وجاد مثل ما كنت أظنك آنذاك، لأسكت أمني إلى حين، ولأتمتع في الوقت نفسه بفترة خطبة وتخطيط زواج، طالما حلمت بهما، بالإضافة إلى كونك ستنفق علي في هذه الفترة كل نقودك التي لا تعرف أين تذهب بها. ولكنني مللت منك الآن، ومللت من كذبك وخداعك وخيانتك، والأهم هو أنني لا أريد أن أصاب بمرض جنسي من وراء مومساتك الرخيصات. أنا سأذهب الآن، وإياك أن تحاول اللحاق بي، أو حتى الاتصال بي بعد ذلك.

ثم أخذت حقيبتها وخرجت صافقة الباب وراءها بعنف.

كان أبراهام يستمتع إليها ساهماً فيما كانت تعترف بحقيقتها أمامه، وقد عقد لسانه تماماً من هول المفاجأة، ولم يعد مهتماً فعلاً بكشف المكيدة، لتبرئة نفسه أمامها. حتى عندما خرجت، لم يحاول أن يوقفها مع أنه استنتج من اعترافاتها الأخيرة بشأن المال، أنها - لاشك - سرقت آخر مبلغ سحبه من المصرف. لم تعد لا النقود ولا غيرها تهمة في ظرفه هذا، لكنه تحامل على نفسه وجر أقدامه المسمرة، من هول كل ما جرى، حتى وصل إلى الدرج بجانب السرير، وفتح ليؤكد من ظنه فقط، فإذا به فارغ كما توقع تماماً، فتهاوى على السرير وهو يردد:

- "الطيبات للطيبين، والخبيثات للخبيثين".

طوال ساعات طويلة ظل أبراهام مستلقياً على السرير وهو يدخن، حتى أنهى علب السجائر الثلاث، التي طلب من خادم البنسيون إحضارها. كان يحاول جاهداً ترتيب أفكاره بهدوء، وفي النهاية استطاع أن يرسم صورة تقريبية لما حصل: فمن المؤكد أن جورجيت هي عميلة عربية للموساد، وربما كانت إسرائيلية: فتعرفها عليه لم يكن

من قبيل المصادفة، بل دسوها للصلاة في تلك الكنيسة التي كان فيها آنذاك، التي صادف أنها كنيسة إنجيلية، فادعت أنها بروتستانتية تصلي في كنيستها. ولما كانت تجيد الروسية، فمن الطبيعي أن تعرض عليه مساعدتها في الترجمة، ومن الطبيعي أن يرحب بذلك بعد إصرارها، مع أنه لم يكن يحتاج إلى الترجمة فعلاً. ولكن بعدما كشفت له عن التكنيك الذي اتبعه القس من أجل تقريبه من المسيحية، في محاولة للتهرب من سؤاله عن سبب ظنها أنه يؤلف كتاباً عن الأديان، اضطرت إلى الادعاء بأنها قبطية حانقة على الإنجيليين الذئاب، مع أنها كانت تصلي أو على الأقل تتظاهر بالصلاة في كنيستهم، ومع أنها ادعت أن أحد أسباب مساعدتها له، هو سعادتها بكونه يهودياً يهتم بدينها!

كما أن تقبيلها له، والتصاقها به، بطريقة لا تترك له أي مجال لدفعها عنه إلا من مكان واحد، ثم حركتها التي أدت إلى انزلاق يديه على ذلك النحو، كان كل ذلك مدروساً بعناية ومصوراً بدقة. والأمر نفسه ينطبق على الأوضاع التي ادعت أن نيكولاي اعتاد تقبيلها فيها. وبالتأكيد لم يكن اصطدامها بوسط جسده، عندما انحنت لتلتقط حقيبتها، بسبب ارتباكها، ولم يكن إمساكها بقدميه بسبب محاولتها لتمنع نفسها من السقوط بعد أن فقدت توازنها كما خيل له، ولم يكن تشبثها بوضعيتها تلك لبضع لحظات ونظرها إلى وسطه ثم إلى وجهه من باب الشقاوة كما ظن. ولم تكن قوة رائحة عطرها، الذي لم يزلها لا الغسل ولا رائحة العرق ولا نوعان آخران من العطور، مجرد محاولة لاستثارة مشاعره، بل كان ذلك كله ضمن خطة مرسومة بدقة. وكذلك إلقاء الطعم الذي يمكن أن يسيل لعابه، بإمكانية التحدث مع أبيها المؤرخ الكنسي الوهمي الذي يجيد الروسية.

وعلى الأرجح، فإن ما قالته عن موضوع استنتاجها لتأليفه كتاباً عن الأديان لم يكن استنتاجاً منطقياً كما ادعت، بل هو هفوة منها، فسّرتها بأنها تظنه نيكولاي، شبيهه

الوهمي، الذي كان أيضاً، ومن قبيل المصادفة المحضة، يؤلف كتاباً عن الأديان، وأنها لا تظن حقاً أنه قد يفكر باعتراف المسيحية. وربما وصلت تلك المعلومة المضللة إلى الموساد، ثم إليها، من مدام فيومي نفسها، بعد أن أخبرها بهذا بنفسه، مبرراً طلبه منها شرح دينها. ويبدو أنهم صدقوا تلك المعلومة لأنها فسرت لهم بحثه في الأديان. ومن ثم أدخلوها لاحقاً في خطتهم لاستدراجه إلى بيتها، وإذا كان ذلك صحيحاً فإن مدام فيومي هي من أرشدت عن مكانه، وهذا يفسر عثورهم عليه رغم كل تدابيره، واحتياطاته المبالغ فيها.

استنتج أبراهام أن مدام فيومي وإيوسف وهافا وأفرام، وربما أغلب اليهود الآخرين بمختلف عقائدهم وأفكارهم ومشاعرهم المتباينة، منظمون فعلاً. ومع أن بعضهم ضد إسرائيل، إلا أن تقاريرهم تصل إلى السلطات المختصة هناك بشكل أو بآخر؛ سواء عبر "الوكالة اليهودية" التي تنظم أحوال اليهود في الدياسبورا، أو عبر "المنظمة الصهيونية العالمية" التي تجمع التأييد للسياسة الإسرائيلية، أو عبر غيرها من المؤسسات الدينية أو السياسية أو الإعلامية أو الطلابية، أو عبر منظمات حقوق الإنسان أو النقابات أو الجمعيات العلنية أو حتى السرية. وتذكر المقولة الشهيرة: "أن تكون يهودياً معناه أن تتنسب لمنظمة ما".

كاد يجن من عدم شكه في كل ما حصل له، رغم هفوات تلك المخادعة جورجيت وتصرفاتها الغريبة، ورغم تحذير أحمد له سابقاً بأن مردخاي قد يبعث بفتاة جميلة إليه، لتدق إسفيناً بينه وبين راحيل. وكاد يجن أكثر من انخداعه بالمحتالة الكبيرة راحيل، وأنه لم يصدق تحذيرات أحمد بشأنها أيضاً. خاصة أن كل أقوالها كانت منذ البداية متناقضة وغير متماسكة، سواء عن حبها الشديد لمردخاي، وحبها لها، وعزمها على الزواج، ثم شكها بأن زوجته لم تمت، وأنه ربما صورها، وسعادتها على الهاتف، ثم سكوتها بعدما جاءت، وفي النهاية خبرتها بالألعاب الجنسية التي لم يكن يعلم

حتى بوجودها. وعجب كيف أعمى الحب بصيرته عن ذلك كله: فهي لم تكن قط فتاة ساذجة، غرر بها رجل عن طريق وعدها بالزواج فسلمته نفسها، ولكن فتاة لعوب تتقن فنون الجنس والإغراء والإيقاع بالرجال، وتتنقل من رجل إلى آخر سواء بدافع الشهوة وإغواء المتدينين، كمحاولتها الفاشلة مع أحمد، أو بدافع حب المال والسلطة كشأنها مع الجنرال ليحمان، أو حتى بدافع المغامرة وبعض التغيير، عن طريق الظهور بمظهر الابنة المطيعة لأمها، والضحية البريئة التي تنتظر منقذاً، كشأنها معه.

لقد كان رأي أحمد فيها مبنياً على تجربة، وهذا هو سبب نفورها منه وتسفيهاها لآرائه، خاصة أنه تعفّف عنها، ولم يستجب لإغوائها. وللأسف فقد نجحت في صرفه عن التأثير بكلام أحمد إلى حد كبير، وكان لديها خطة بديلة جاهزة لتفكيره منه تماماً في حال فشلها: وهي الادعاء بأنه تحرش بها مراراً، وهي على الأغلب في طريقها إلى إسرائيل الآن لتعود إلى حياتها السابقة وترمي شباكها على أحرق آخر غيره. بل ليس مستبعداً أن تعود إلى قاتل أمها نفسه، إذا أقتعت نفسها ببراءته لتبرر عودتها إلى السلطة، وحظوتها السابقة عنده، والتي يظهر أنها لم تخسرهما تماماً، فمردخاي لم يشبع منها بعد كما قال أحمد.

وفجأة خطر بباله أن راحيل قد تخبر مردخاي أن أحمد على علم بتحرياتهم المكثفة عما يسمونه بنشاطاته السلفية الإرهابية، وأنه يستعد للهروب فور وصول رسالة مشفرة منه تفيد بأنهم قد وصلوا إلى بر الأمان، فقام كمن لدغته أفعى، وتوجه إلى أقرب مقهى للإنترنت وكتب الرسالة المتفق عليها وهي عبارة "سأعود غداً"، ولكنه أضاف إليها عبارة: "بأسرع وقت ممكن" حتى يفهم أن أموراً أخرى قد جدت، وأن عليه التعجيل بهروبه قدر المستطاع. أما عن نفسه، فقد عاد إلى البنسيون حيث حزم أغراضه وأنهى حسابه: لأنه يكاد يجزم بوجود علاقة ما بين مدام فيومي والموساد، ولأنه لم يعد يريد الإقامة في مكان يذكره براحيل.

مضى أبراهام منكس الرأس، بينما توالى على مخيلته أشباح سفيتا والراهب البوذي، ومكسيم، وإيوسف، وهافا، وأفرام، وتسيبي، ومردخاي، وإليعازر وتمارا و مدام فيومي، لتعود فتتحد مجدداً في شبح راحيل، فتوقف مغمضاً عيناه بشدة، ثم فتحهما رافعاً رأسه نحو السماء. وما لبثت ابتسامة أن ارتسمت على محياه، ليتابع سيره مجدداً، فرحلته في البحث عن الحقيقة لم تنتهي كما خطط لها، ولكنها على الأقل قادته للعودة إلى الإيمان بالخالق وحده، والكفر بكل ما افترق عليه أبناء جلدته في دينه، وكشفت له فسادهم وفسادهم، ووسعت أفقه بحيث تجاوز اليهودية التي كان يتعصب لها، فالحقيقة ليست حكراً عليها، بل من المؤكد أنها قد غادرتها فعلاً. أحس أن عبئاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهله، بل أن قيداً قد انكسر، وأسدل الستار على مرحلة انتهت من حياته، متناسياً ذكرياتها وشجونها، وذاكراً فقط لعبرها ودروسها.





## الفهرس



رقم الصفحة	العنوان
٥	إهداء
٧	تقديم
١٧	بعيداً عن الوحى
١٩	صراع مع الشك
٣٣	عبدة الشيطان
٤٥	محدثات
٦٤	خلفيات ضحية
٧٢	ادعاءات بوذية
٨٦	إلحاد المنطق
١٠٢	تداخل الدين بالإلحاد
١١٤	اتباع الهوى وكشف المستور

١٢٥	الاحتكام إلى العلم
١٣٨	تحكيم العلم
١٦٠	الهروب من الأفعى إلى جحر الأفاعي
١٧٤	في ضيافة عدو
١٨٣	مراهق عربي في أوروبا
١٩٢	بين العهدين
٢٠١	اليهودي الحائر
٢٠٣	الإصلاح اليهودي
٢١٣	حائط البُراق
٢٢٢	المشيخ
٢٣١	عقيدة المنتظر
٢٤٣	حاخام أننى
٢٥٧	موت الشعب اليهودي
٢٧٢	الاقتراب من الخطيئة
٢٨١	الانتصار على الهوى
٢٩٢	قانون الشرف
٣٠٥	إصلاح محافظ
٣١٦	مناظرة تنويرية

٣٣١	انباء الزور
٣٣٣	أساطير وحييل
٣٤٦	المنظومة الخفية
٣٥٤	مؤامرات وفتن
٣٦٤	حرية، ولكن
٣٧٣	جذور الصهيونية
٣٨٢	الحلولية بوجه آخر
٣٨٩	بين التشدد والتساهل
٣٩٩	وعد الآخرة
٤٠٩	امراة من زمن آخر
٤١٩	يهود ضد الصهيونية
٤٢٩	عنصرية متبادلة
٤٣٨	انتهازية
٤٥٠	حريديم وقوميين
٤٦٠	عسكرة التعليم
٤٦٩	لعبة الكبار
٤٧٧	صهاينة وصلبيين
٤٨٦	هاجس النهاية

٤٩٥	حسابات خفية
٥٠٧	العلمانية الدينية
٥١٦	المستوطنون
٥٣٣	من يهودا إلى الناصرة
٥٣٥	من علياء البحث عن الحقيقة إلى حضيض الحب
٥٤٦	فارس في الزمن الخطأ
٥٥٥	وجاء دور الموساد
٥٧٠	من يُنقذ من؟
٥٨٣	المواجهة
٥٩٢	يهود مصر
٦٠١	خارج التلمود
٦٠٨	القرائيون
٦١٧	تملص من القيد
٦٢٧	ياباني عبري
٦٣٨	الاخوة الكاذبة
٦٥٣	مفاهيم جديدة
٦٦٢	إعادة بناء الهيكل
٦٧١	انقسامات لاهوتية

٦٨٣	الوقوع في الفخ
٦٩١	رحيل راحيل
٧٠١	الفهرس



## الهروب إلى العاصفة

قصة حاخام روسي ضابفته المتناقضات التي اكتشفها أثناء تعمقه في دراسة الشريعة اليهودية، وصدمة برودة فعل كبار الحاخامات على محاولته لتقصي الحقائق بشأنها، مما أورثه خيبة أمل وريبة في الدين حتى وصل به الشك إلى الوحي، فراح يبحث عن الحقيقة خارج نطاقه، بدءاً من عبادة الشيطان حتى العلمانية والتداخل اللاحادي في الأديان، مروراً بالبوذية وغيرها، إلى أن تأكد من عمقهم جميعاً ومن وجود الله فعلاً، ليعود إلى اليهودية باحثاً في بقية فرقها الأخرى، عله يجد ضالته في أحدها. وبعد أن عاش فترة في الأرض المقدسة، وجد أن بقية الفرق اليهودية كانت أشد ضلالاً من فرقته السابقة، وأن حكماء صهيون قد ذهبوا بجل ما جاء به أنبياء بني إسرائيل. ولكن فجيعته لم تكن على الصعيد الديني فحسب، بل تعدتها إلى الصعيد الاجتماعي والسياسي، فعابن عن قرب دسائس بني جلدته ومؤامراتهم، وعانى شخصياً من مطاردة الموساد وتلفيقاته حتى اضطر إلى الهرب إلى مصر، ثم اكتملت فجيعته عندما طالت حياته العاطفية، وخبر الخيانة بأشجع صورها بعدما ظن أنه قد عثر أخيراً على الحب الحقيقي.

رواية  
Rewayah

دار رواية للنشر

لندن

104 Queensway

London W2 2RR

UK

E-Mail: info@rewayah.net

www.rewayah.net

رواية

ISBN 978-9948-16-126-4



789948 161264